قصة الكنيسة القبطية

وهى تاريخ الكنيسة
الأرثوذكسية المصرية
التى أسسها
مارمرقس البشير

(الكتاب الأول)

بقلم
د / إيريس حبيب المصرى

قصة الكنيسة القبطية

وهى تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية
التى أسسها
مارمرقس البشير

الكتاب الأول

الطبعة الثامنة

٢٠٠٣

المتنيحة

ايريس حبيب المصرى

الإهداء

إلى أبى

حبيب حنين المصرى

الذى حمل الشعلة بجرأة بين صفوف

الكنيسة المجاهدة

وهو الآن ينعم بالمجد بين صفوف

الكنيسة المنتصرة



المؤلفة إلى جانب والدها

حبيب حنين المصرى

يوم عيد القيامة المجيدة سنة ١٩٥٢

الاعتراف بالفضل لذويه

إن النفس الكريمة إذا ما أسدت معروفًا تسديه اعترافًا منها بفضل الله تعالى الذى أهلها لتأدية هذا المعروف ، متمثلة بما نصح به جمال الدين الأفغانى حيث قال :

وأشكر صنيعة فضل الله إذ جعلت إليك - لا لك - عند الناس حاجات

وإنى أعلم تمام العلم بأن الذين قدموا لى كل ما فى طاقتهم من معاونة قد قدموها عن طيب خاطر ، وأعلم ايضًا أنهم قدموا معاونتهم حبًا فى الكنيسة ورغبة فى نشر علومها ، وأعلم فوق هذا وذاك أنه لو جال فى خاطرهم بأنى سأذكر لهم فضلهم لأمرونى بالسكوت . أعلم هذا كله ولكنى أعلم أيضًا أن عرفان الجميل فضيلة امتدحها السيد المسيح له المجد . لذلك رأيت أن أعلن اعترافى بالفضل لذويه من غير أن استأذنهم فى ذلك .

فأرفع شكرى إلى جناب ابينا المكرم القمص متى المسكين لتفضله بمراجعة كتاباتى أولاً بأول وتقديم ملاحظاته عنها بسرعة عجيبة رغم بعد المسافة التى تفصل بين القاهرة والدير الذى كان مقيماً فيه إذ ذاك .

وأقدم جزيل شكرى وامتنانى لحضرة المربى الكبير الأستاذ فرنسيس العتر أرشيدياكون كنيسة بطرس وبولس لأنه تفضل فأعارنى جميع ما لديه من مراجع عظيمة القيمة ، كما تفضل فراجع معى ما كتبت ، فمكننى بمعاونته البالغة من استكمال ابحاثى .

وازجى إلى الأستاذ يسى عبد المسيح - نيح الله نفسه - عميق تقديرى لمراجعته الكثير من النقط التاريخية الهامة بتدقيق عجيب حسب عادته ، وإلى الدكتور مراد كامل لأنه أعارنى بعض الكتب ، وإلى الراهب داود الذى كان خير رسول لتوصيل مخطوطاتى إلى القمص متى المسكين ثم اعادتها لى بعد تصحيحها ، وإلى رائد الفن الشعبى الأستاذ حبيب جورجى لتقديمه بعض صوره لكى تزين الكتاب .

وإن انسى – لا أنسى – ان اقدم عظيم شكرى إلى العالم الأثرى الكبير دكتور أحمد فخرى لتفضله باعارتى مؤلفاته عن الواحات والاذن لى بنقل ما يروقنى من صور تتعلق بهذا الموضوع .

ايريس حبيب المصرى



تمهيد : التاريخ هو الحياة

شاءت العناية الالهية أن أجلس إلى مائدة تضم عدداً من الأجانب . وفى أثناء الحديث التفت إلىّ صاحب الدار وسألنى : « منذ كم من الزمان اعتنقتم بدعة أوطيخا [1] ؟ » قلت « أننا لم نعتنقها أبداً ولن نعتنقها . فنحن أرثوذكس منذ ظهور المسيحية حتى الآن » . قال : « ولكنى قرأت أنكم زغتم عن هذا الايمان » . أجبته : « لم نحد عنه مطلقاً . ولن نحيد بإذن الله . ولكن حدث حين ذهبنا إلى خلقيدون ... » وهنا قاطعنى أحد الضيوف ليسأل : « ومتى ذهبتم إلى خليقدون ؟ » قلت : « ذهبنا إليها سنة ٤٤٣م ش [2] » فضج الحاضرون بالضحك وعاد المضيف يقول : « ان من يسمعك تقولين ، حين ذهبنا إلى خلقيدون ، يتصور أنكم ذهبتم هذه السنة أو السنة الماضية . وانك كنت مع من ذهبوا » . فضحكت أنا بدورى وقلت : « هكذا نحن معشر القبط ، فمادام واحد منا قد ذهب نكون قد ذهبنا جميعًا . ولا فرق بين أن يكون الوفد الذى ذهب إلى خلقيدون قد ذهب إليها سنة ٤٤٣ أو سنة ١٩٥٨ - لأن تاريخنا وحدة لا تتجزأ ، بل انه الحياة بعينها وليس مجرد صور عابرة . والدليل على ذلك ان آباء مجامع نيقية والقسطنطينية وافسس - وهى المجامع المسكونية الثلاثة - قد استنت لنا القوانين التى لا نزال نعمل بها . وكما أن قرارات هذه المجامع معمول بها للآن كذلك لا نزال نرزح تحت ثقل الاتهامات الباطلة التى الصقها بنا الأساقفة اللاتين ومن شايعهم ممن اجتمعوا فى خلقيدون . فالتاريخ اذن وحدة ثابتة وأن بدا لنا فى صور شتى - فهو كالمادة لا تفنى أبداً وإنما تتغير اشكالها » .

---

(١) انكر أوطيخا ناسوت المسيح فزعم أن جسده لم يكن من جوهر جسدنا بل كان جسداً خياليًا . وسيأتى الحديث عنه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى الفصل الخاص بمجمع خلقيدون .

(٢) اى ميلادية شرقية ، وهى تنقص عن التقويم الغربى بثمانى سنوات ، فسنة ٤٤٣ شرقية تساوى سنة ٤٥١ غربية - وهى التاريخ الشائع لمجمع خلقيدون فى معظم الكتب .

وبهذه المقدمة انتقلت إلى الحديث عن موقف الأنبا ديسقورس (البابا الاسكندرى الخامس والعشرين) ومن معه من آبائنا المصريين فى ذلك المجمع المشئوم الذى هو مجمع خلقيدون (١) لأن فيه بذرت بذور الشقاق بين الكنائس المسيحية التى كانت حتى ذلك التاريخ كنيسة واحدة متآلفة .

ويجدر بى - ونحن بصدد الحديث عن مجمع خلقيدون - أن أذكر ما قاله دكتور ساويرس جوردون المستشرق الأمريكى عن موقفنا نحن القبط فى هذا المجمع ، قال : « حين ذهب المصريون إلى خلقيدون كانوا معتزين بمجد الفراعنة - وهم على حق ، وكانوا معتزين بأباء الكنيسة المصرية - وهم على حق ، وأعلنوا عقيدتهم صراحة أمام الملأ ، فلما رفض المجتمعون الاصغاء إليهم خرجوا فى إباء وشمم - وهم على حق » (٢).

ومادام التاريخ هو الحياة فهو قصة الناس حيثما كانوا وأينما وجدوا لهذا كان من الغريب أن ينظر إليه البعض بوصفه سرداً لأسماء الملوك والحكام أو لما قاموا به من غزوات ومن أعمال جليلة - إذ الواجب علينا أن نرى فيه كفاح الشعوب ، وتطور الفكر لديها ، وتطلعها نحو الحرية الحقة والكرامة الانسانية لذاتها . ومع ذلك فمن يقرأ سيَر الملوك بامعان يستطيع أن

---

(١) خلقيدون تعرف الآن باسم « قاضى كوى » اى قرية القاضى ، وتقع على الحدود الشمالية من آسيا الصغرى وهى خاضعة لتركيا ، وفيها انعقد المجمع المعروف باسمها بناء على دعوة مرقيانوس امبراطور القسطنطينية وزوجته الامبراطورة بولشريا .

(٢) هو Dr. Cyrus Gordon استاذ التاريخ المصرى - الفرعونى والقبطى - فى جامعة براندايس Brandeis University بمدينة والثام بولاية ماساتشوستس أما حديثه هذا فقد ألقاه ضمن محاضرة له على بعض طلبة كلية درويسى (Dropsie) بفلادلفيا فى ولاية بنسلفانيا يوم الأربعاء الموافق ٦ مايو سنة ١٩٥٣ - وهذا نصه :

When the Egyptians went to Chalcedon. they were proud of their pharaonic heritage, and rigbtly so ; they were proud of their Alexandrian Fathers, and rightly so; they told the whole world what they believed, and when the world refused to listen, they walked out, and rightly so" .

يرى بين سطور هذه السيّر لمحات من هذا الكفاح . وهذه اللمحات وإن تكن ضئيلة أحياناً إلا أنها فى الغالب تهدر فى قوة وعنفوان . ولهذا نقرأ عن الثورات التى قامت بها الشعوب من حين إلى أخر ، كما نقرأ عن قادة الفكر الذين أدركوا تعاليم الرسل والأنبياء على حقيقتها فأرادوا أن ينهضوا بالانسانية جمعاء ، ومن ثم واجهوا الشدائد والأهوال فى ثقة واستبسال . وهذا التاريخ الذى هو صورة للتطلع الانسانى هو التاريخ الذى يجب أن نبحث عنه ونستجلى غوامضه لنجد فيه منبعاً للقوة والجهاد إذ نجد فى حياة القادة الروحيين والشعوب المتأهبة نوراً يسطع علينا ويهيئنا للكفاح بدورنا .

وبهذه النظرة يجب أن نتأمل تاريخ الكنيسة القبطية لأنه تاريخ حافل بالكفاح فى سبيل العقيدة وفى سبيل الاحتفاظ بالاستقلال الفكرى رغم الاستعمار السياسى . وخير ما يوصف به هذا التاريخ بيت لأمير الشعراء احمد شوقى يقول فيه :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً ... إن الحياة عقيدة وجهاد

وتاريخ القبط لا يحفل بالجهاد فحسب بل هو تاريخ يحوى الأعاجيب – لأن القبط (كغيرهم من المصريين) شعب جمع بين المتناقضات : انه شعب حليم غضوب ، شعب وديع ثائر ، شعب متضع متكبر . ومع أن المؤمنين بالكتب السماوية قد تعلموا منها أن العلم والألفة والمحبة هى الشريعة التى يريدها اللّه تعالى للناس ، إلا أن بعض كتاب الغرب – مع كونهم يعرفون هذه الشريعة السماوية – فى كتابتهم عن القبط خاصة (والمصريين عامة) يسخرون من حلمهم ووداعتهم وحبهم للسلام . ولو أن السخرية وقفت عند هذا الحد لهان الأمر ، ولكنهم واصلوا التعبير عنها بأزاء ما كان يجتاح المصريين أحياناً من ثورات نفسية جارفة تدفعهم إلى استعمال العنف . فلا حلم المصريين فضيلة مستحبة ولا عنفهم رذيلة مكروهة ، بل يتساوى حلم المصريين وغضبهم عند هؤلاء الكتاب الغربيين فحق عليهم قول السيد له المجد : « زمرنا لكم فلم ترقصوا . نحنا لكم فلم تبكوا » (متى ١١ : ١٧) .

على انه لحسن الحظ يوجد بين الكتاب الغربيين من حاول انصافنا كالمستشرق الانجليزى ألفريد بطلر وقد وصف هذا المؤلف طريقة انتخاب البابا الاسكندرى وذكر كيف أن الذى يفوز بالسدة البابوية من المرشحين كان يهرب قبل رسامته إلى الصحراء (إن كان عائشاً فى المدينة) ، ويتوغل فيها إن كان من سكانها . حتى لقد كان المندوبون الذين يذهبون لاستحضاره إلى الاسكندرية أو إلى القاهرة يضطرون إلى تقييده ليستطيعوا أخذه معهم . وبعد أن سرد بطلر هذه الحقائق ذيلها بتعليقه الخاص عن هذا الموضوع فقال : « ليس من شك فى أن أعباء هذا المركز ومسئولياته كانت أثقل من أن يتحملها انسان مهما بلغ من الشجاعة ، ولو أنه حدث فى القرن الحادى عشر أن وجد من كان يسعى للحصول على البابوية حتى لقد قامت منافسات عنيفة حولها . ومن المؤكد أن الخوف من هذا المركز كان يرجع فى أحيان كثيرة إلى شعور صادق بعدم الاستحقاق عند الفائز به ، ولكن العكس كان يحدث أحياناً أخرى نتيجة لصورة مقابلة من هذه الفضيلة – فضيلة التواضع وهى الخوف من المسئولية

والتعليق الذى يكتبه بطلر عما فى النفسية المصرية من تناقض بصورة واضحة ؛ ولو انه خاص بمسألة انتخاب البابا فحسب فخليق بنا أن نمعن التأمل فى تعليقه هذا لنرى كيف أن الفضيلة هى بعينها قد تكون رذيلة . فالتواضع فضيلة ما فى ذلك من شك وعنها ينتج الهرب من المسئولية الذى هو رذيلة قطعاً ولكن لئن كان الانصاف بالفضيلة مما يؤدى أحياناً إلى الرذيلة فليس معنى هذا أن نعيب الفضائل لأن الصفات المتناقضة التى تجمعت فى الشعب المصرى هى التى مكنته من بناء الأهرامات والمعابد، ومن السعى نحو الكمال المسيحى ومن التفنن فى تشييد الجوامع والزوايا فهى أساس قوته وإن تكن سبب ضعفاً لأنها مع ما تسببت عنه من روائع فنية قد دفعت

---

(١) « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ٢ ص٣٠٧ .

بالمصرى إلى التراخى أحيانًا . فإذا ما تلمسنا السبيل إلى تاريخ القبط عن ادراك هذه المتناقضات عرفنا السبب الذى جعل من هذا التاريخ سجلاً عجيباً حافلاً بالأحداث المتباينة – يتناوله النور والظلام وخير صورة لتاريخ القبط هو نيلهم الخالد الذى يفيض أحياناً فيغطى الأرض ثم ينخفض فيحل بها الجفاف .



وأنه ليجدر بنا معشر القبط أن نذكر حقيقة عظمى هى : ان كنيستنا كان لها أثر لا يمكن قياسه على الكنيسة الجامعة ، فحين قام النزاع بين الإيمان وبين البدعة الأريوسية ، والتأم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا فى نيقية (مؤلفين المجمع المسكونى الأول سنة ٣٢٥م غ) ، وأراد هؤلاء الآباء أن يضعوا عقيدة الكنيسة فى صيغة واضحة تكون دستوراً للمسيحيين على مدى الأجيال انتخبوا لوضع هذه الصيغة ثلاثة من بينهم هم الأنبا الكسندروس (البابا الاسكندرى الـ١٩) وشماسه أثناسيوس (الذى خلفه فيما بعد وهو أثناسيوس الرسولى) وليونتيوس أسقف قيسارية الكبادوك . فدستور الايمان (المعروف بقانون الايمان) قد وضعه ثلاثة – أثنان منهم مصريان – وثق بهم آباء الكنيسة الجامعة وأقروا ما كتبوه بالاجماع . وأن هذا الاجماع لصورة رائعة عن وحدة التاريخ لأنه لم يقتصر على الآباء الذين وقعوا على دستور الايمان فحسب وإنما شمل آباء الكنيسة منذ أن سجله الآباء سنة ٣٢٥م غ حتى الآن . وفى هذا الصدد يقول فليندرز بيترى (المستشرق الانجليزى) : « أن الصيغة التى وضعتها أخيراً لجنة رياسة الكنيسة الأسقفية لقانون الايمان الأثناسيوسى (١) تكاد تكون صورة حرفية للصيغة الأولى . فالتعبير المصرى (مولود قبل كل الدهور) لا يزال مستعملاً .

---

(١) هذه هى التسمية التى يطلقها الغربيون على قانون الايمان الذى استنه مجمع نيقية .

وأن معنى الأبدية (قبل الدهور) التى لم يكن الغرب ليسبر غورها كانت ذات مغزى خاص للمصريين ، فطبعوها على أذهان المسيحيين على مدى الأجيال [١] وأن الرهبان المصريين – بعيشتهم فى الصحراء عيشة مكرسة للنسك والعبادة والتأمل – قد قدموا للعالم صورة ملموسة لمعنى الأبدية لأنهم + وقد أدركوا انه ليس من المستطاع إطالة السنوات المقررة لهم على الأرض – قرروا أنه فى مقدورهم أن يبدأوا حياة الأبدية وهم بعد فى الجسد . فتناسوا الزمن ، واستهانوا بأمجاد العالم ومباهجه ، وقضوا العمر ساعين نحو الكمال المسيحى . فتمكنوا من أن يلمحوا قبسًا من ذلك المجد العتيد ، كما نجحوا فى أن يوضحوا للعقل الغربى معى الأبدية » [٢].

---

(١) راجع كتابه « مصر واسرائيل » (بالانجليزية) ص١٣٥ – ١٣٦حيث قال ما نصه :

As in the realm of practice. Egypt had dominated Christianity by its monasticism. so also in the realm of dogna the greatest struggle was that between two Egyptians, which fatally involved the whole empire ... Such were the immense consequences of a dispute as to whether " before time " means "from eternity" . Such a difference in the conception of a period before the existence of time would seempurely academic and indifferent to a Western mind... To the Egyptian mind. however, this difference was in the essence of things ... The distinction of eternity before time, which the West could hardly grasp or feel to be of any importance, has been fastened by the two Egyptian presbyters upon all later Christianity " .

ومثل هذا التعبير يبين لنا وحدة التاريخ صورة أوسع إذ أنه يوضح لنا كيف شمل التفكير المصرى شعوباً غير مصرية .

(٢) « أباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية عن النصوص اليونانية واللاتينية السيدة هيلين وادل ، المقدمة ص٣٠ حيث تقول ما نصه :

" Yet one intellectual concept they did give to Europe : eternity . Here again they do not formulate it : they embody it . These men, by the very exaggeration of their lives stamped infinity on the imagination of the West ... " The spaces of our human life set over against eternity are most brief and poor " professed St. Antony .

ولم يقصر أثر الكنيسة المصرية على العقيدة فى أساسها ، ولا على ادراك الأبدية ، وإنما شمل الناحية العملية أيضاً - لأن من مصر انبعثت الرهبنة . ففى رحاب صحرائها نشأ واضعو الأسس للرهبنة المسيحية ، وإلى هذه الصحراء المصرية حج جميع طلاب الحياة النسكية فى القرون الأولى . ثم امتدت من مصر إلى آسيا وأوروبا [١] . واصبح للأنبا أنطونى (أبى الرهبان) والأنبا باخوم (أبى الشركة) [٢] أثر بعيد المدى فى تلك البلاد التى لم يلبث أهلوها أن نهجوا نهج الرهبان المصريين فى أنظمتهم وطريقة معيشتهم .

وثمة ناحية رابعة لها أهميتها كانت لمصر اليد الطولى فى تثبيتها هى تلقيب السيدة العذراء بوالدة الإله . فلقد قام نسطوريوس أسقف القسطنطينية فى أوائل القرن الميلادى الخامس ينادى ببدعة مؤداها أن المسيح شخصان متباينان يعمل كل منهما مستقلاً عن الآخر : أحدهما إلهى وثانيهما إنسانى ، ولما كانت السيدة العذراء والدة المسيح الانسانى فهى ليست أماً للمسيح الإلهى . فانبرى عامود الدين - الأنبا كيرلس الأول البابا الاسكندرى الرابع والعشرون - لنسطوريوس وأعلن فى توكيد أن المسيح شخصية متكاملة جمع فيها بين اللاهوت والناسوت جمعاً لا اختلاط فيه ولا امتزاج ولا تغيير . وقد وضح الأنبا كيرلس إيمان الكنيسة الجامعة بالكلمة المتجسد فى مجمع أفسس (المسكونى الثالث سنة ٤٣١م غ) [٣]. كما وضع

= وتعليق هيلين وادل يتفق تماماً وشهادة فليندرز بيترى . ويؤيدهما فى ذلك عدد غير قليل ممن كتبوا عن الآباء المصريين . ومع الأسف أن المكان لا يتسع لسرد اكثر من هذين الشاهدين .

(١) « مصر واسرائيل » بالانجليزية لفليندز بيترى ص١٣٤ حيث يقول :

" Egypt was the channel by which monasticism was introduced into the Christian System " .

(٢) راجع ما جاء عن الأنبا أنطونى فى هذا الكتاب ، وكذلك ما جاء عن الأنبا باخوم .

(٣) راجع الفصل الخامس الخاص بالأنبا كيرلس عمود الدين .

مقدمة لقانون الايمان (١). كذلك قال مخاطبًا السيدة العذراء فى احدى الثيئوتوكيات (٢): « السلام للمعمل الذى اتحدت فيه الطبائع » (٣). ثم وصل من هذا كله إلى أن السيدة العذراء هى أمّ الإله بحق. ومنذ أن أوضح الأنبا كيرلس هذه الحقيقة أعطى المسيحيون الاكرام المتزايد لتلك التى فاضت عليها النعمة الإلهية وجعلتها أهلاً لأن تكون أمًا لابن العلى (٤) فتجمع بين البتولة والأمومة فى آن واحد.

ولهذه الأسباب كلها قال فليندرز بيترى : « لو أننا حاولنا أن نستعين بخيالنا لادراك الحقائق التاريخية فتصورنا أن الايمان بالثالوث المقدس لم يمحص، وأن الرهبنة لم يقم لها أثر، وأن الطفل يسوع المحمول على ذراع أمه العذراء ظل مجهولاً فى العبادة وفى الفن، لو تخيلنا هذا كله لأدركنا ما أحدثته مصر من أثر فى المسيحية وكيف أن هذا الأثر بعيد البعد كله عن التعاليم اليهودية ... » (٥).

---

(١) وهذه المقدمة هى : « نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله لأنك ولدت مخلص العالم كله. أتى وخلص نفوسنا المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح : فخر الرسل، إكليل الشهداء، تهليل الصديقين، ثبات الكنائس، غافر الخطايا، نبشر بالثالوث المقدس لاهوت واحد. نسجد له ونمجده. يارب ارحم. يارب ارحم. يارب بارك. آمين ».

(٢) الثيئوتوكية هى تسبحة لتمجيد السيدة العذراء.

(٣) أى أن مخلصنا باتخاذه جسداً حل كجنين فى بطن أمه العذراء حيث جمع بين طبيعتى اللاهوت والناسوت.

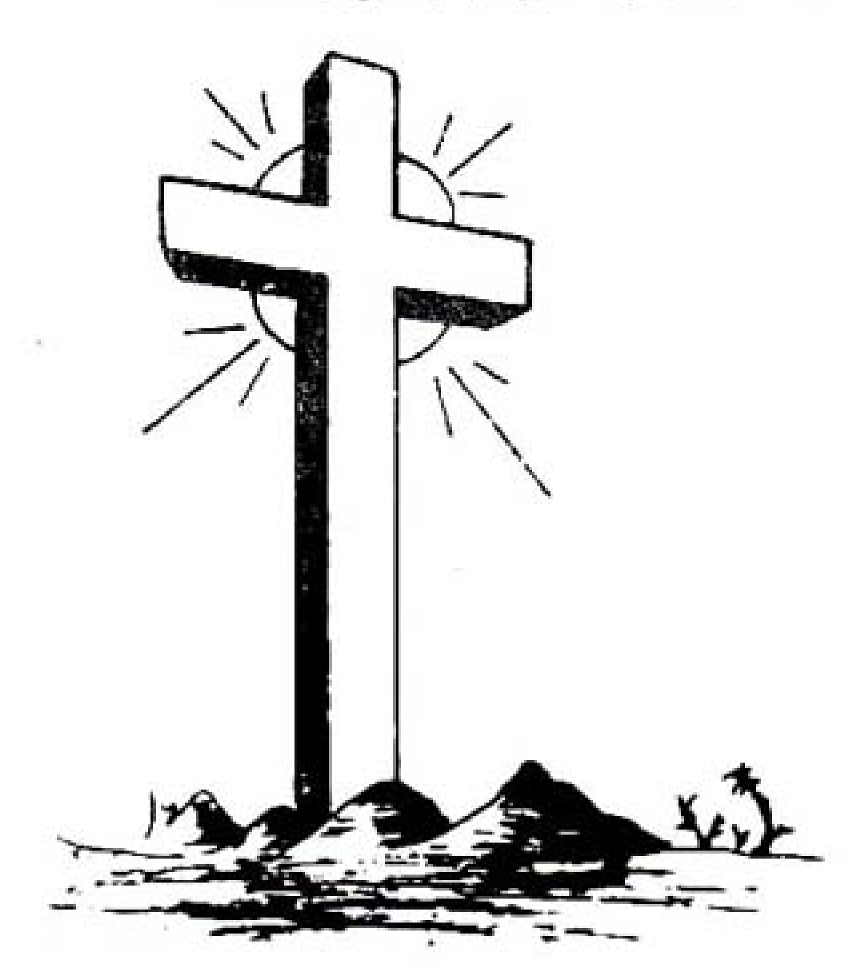
(٤) لوقا ١ : ٣٤ - ٣٥.

(٥) فى كتابه « مصر واسرائيل » ص١٣٧ - ١٣٨، ١٤٠ - ١٤١ حيث يقول :

" If now, we try our historical imagination by supposing that there had never been any of the refinements of the Trinitarian controversy, that no monastery had over sterilized the best of the race ; and that the Madonna and Bambino were alike unknown to devotion and to art, we may gain some sense of what hanges Egypt wrought in Christianity, and how utterly foreign to the Judaic origin was its influence ".

وكنيستنا المصرية لا تفاخر بما قدمته من تعاليم ومبادئ فحسب ، بل هى تفاخر أيضًا بالرجال الذين أنجبتهم والذين كانوا منارة للشعوب المسيحية قاطبة : فقد خاضوا المعارك الروحية بشجاعة نادرة وعاشوا عيشة مليئة بالانفعالات والعواطف النبيلة ، وكتبوا بقوة وحرارة منبعثين من ايمانهم العميق . وقد واجهوا العلماء بالعلم والفلاسفة بالفلسفة والعاميين ببساطة الروح لرغبتهم فى اكتساب الجميع إلى دين المسيح ، فحق عليهم قول بولس الرسول : « فإنى إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين . فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس مع أنى لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح ... » (١).

فخليق بنا أن نطالع سيَر آبائنا بإمعان ، ونطالع تاريخنا بحكمة ، لعلنا بذلك ندرك الدوافع النفسية التى هى المصدر الحقيقى لكل ما فى تراثنا من مجد ، وما اتصف به آباؤنا من جرأة وثبات .



(١) ١ كو ٩ : ١٩ - ٢٢ .

النور الذى لن يخبو

فى فجر الخليقة عندما سقط آدم وحواء فى هاوية العصيان بغواية الحية حكمت عليهما عدالة الله بالنفى من فردوس النعيم إلى أرض الشقاء ، بينما حتمت عليه محبته أن يفتديهما وذريتهما بالدماء الذكية التى للابن الأزلى . ومن ثم وعد بأن يرسل من نسل المرأة من يخلص بنى البشر ويعود بهم إلى حالتهم الأولى من القداسة . وهكذا تم الوعد بمجئ المخلص بين الله والناس (١) . ولما كان هذا الوعد الإلهى قد تعاهد به الخالق مع أبى البرية فقد ظل الوعد كامناً فى أعماق النفس البشرية يملأ اللاشعور عند الناس فى كافة أنحاء العالم . ولهذا السبب بعينه نقرأ عن مسيا (المخلص) المنتظر فى كل الكتب الروحية المنبعثة من قلوب الحكماء والفهماء على اختلاف أجناسهم وتباعد العصور التى عاشوا فيها (٢). وقد بلغ هذا التطلع نحو المسيا المنتظر ذروته لدى العبرانيين ، وفى الوقت عينه ظل صداه يرن رنيناً عالياً أو خافتاً وسط جميع الشعوب تبعاً لحساسيتهم الروحية وتجاوبهم مع اللانهائى . وهذا الادراك المبهم الغائص فى أعماق اللاشعور عند معظم الشعوب كان واضحاً محدد المعالم لدى المصريين . وسرى بريق من نورهم خلال التعاليم العبرية ، فتآلف معها وتكون من هذا التآلف الروحى وهج ساطع أنار السبيل للسمو أمام الانسانية بأسرها . ومن الأمثلة الناطقة بهذه الحقيقة الآية القائلة : « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها » (٣). فكل مطلع على التاريخ يعرف أن الشمس ذات الأجنحة صورة ابتكرها الخيال المصرى فى تعبيره عن القوى غير المنظورة .

وإذا ما استنرنا بهذا الوهج وجدنا أنه على الرغم من أن الشعب المصرى كان يتعبد لآلهة وآلهات لا عدد لها فإن الكهنة والحكماء من بينه كانوا

---

(١) تك ٣ .

(٢) « فجر الضمير » (بالانجليزية) لهنرى بريستد الفصل الحادى عشر .

(٣) ملا ٤ : ٢ .

يعلمون علم اليقين أن الله واحد . فاعترفوا به فى جميع مؤلفاتهم الروحية . كذلك أعلنوا عن أملهم فى مجئ المسيا المنتظر الذى سيفتدى بنى البشر . وآمنوا بثالوث إلهى إيماناً جعل المستشرق الفرنسى اميلينو يقول بأن روح الله القدوس فى دستور الإيمان المسيحى ، إنما يقوم مقام « الآلهة الأم » فى علم اللاهوت المصرى مستدلاً على ذلك بأن كلمة « رواح » العبرية التى هى روح فى العربية كلمة مؤنثة . وأن هذه « الرواح » الإلهية هى التى كانت فى بدء الخليقة تبسط جناحيها على البيض الذى سيخرج من الكائنات ما تتسلل منه ذراريها (١). وفوق هذا فقد تعبد المصريون للأم ايزيس وهى ترضع طفلها هوريس . وهذا الإيمان سطع على قلوبهم فمكنهم من أن يلمحوا قبساً من نور المسيحية قبل انبثاقه . وتتضح هذه الحقيقية من جميع كتاباتهم الروحية التى تتشابه فى كثير من الأحيان وأقوال الأنبياء العبرانيين(٢) وظل المصريون أمناء على تعاليمهم هذه فتطلعوا على ضوئها نحو النور الحقيقى . فلما تحققت النبوات وانبثق النور الذى يضئ لكل إنسان آت إلى العالم امتلأت قلوب بنى مصر غبطة وحبوراً وأقبلوا على التعاليم التى طالما ترقبوها واستساغوها لأنهم وجدوها ملائمة لنزعتهم الروحانية . وأن انطلاق الروح المصرية وتجاوبها مع دين المسيح قد أوحى إلى أمير الشعراء أحمد شوقى ببعض روائع أبياته فقال يصف وصول رسل المسيح إلى مصر :

دخلوا ثيبة فأحسن لقيا	هم رجال بثيبة حكماء
فهموا السر حين ذاقوا وسهل	أن ينال الحقائق الفهماء

---

(١) فى محاضرته عن « آراء مصر الفرعونية فى الإله » (بالفرنسية) ص٢٣ .

(٢) « فجر الضمير » (بالانجليزية) لهنرى بريستد ص٣٦٤ - ٣٨٢ . مقال لأميلينو (بالفرنسية) عن « الأفكار المتعلقة بالله عند قدماء المصريين » ص١٨ - ٣١ حيث يقول : «نجد فى كتب مصر المقدسة الاعتراف بالخطية الأصلية والوعد بالإله المخلص وتجديد البشرية » ونصه :

" On trouve dans les livres sacrés de l'Egypte, le péché originel, la promesse d'un Dieu Sauveur, la restauration future de l'humanité " .

فـــإذا الـهـــيكل المقـــدس دير وإذا الـديـر رونـق وبـهــــــــــاء

وإذا تيـبــة لـعـيــسى وممفـيـ س ونـيـل الـثـــراء والـبـطـحــــاء

فليس بعجيب إذن أن هتف النبى « من مصـر دعوت ابنى » (١) هكذا تنبأ وهكذا تم المكتوب . وجاء المسيح إلى أرض مصـر : جاءها من غير أن يسمع أحد بمقدمه ومن غير أن تتدفق للقياه الجماهير ، جاءها فى دعة وسكون كما يجئ الفجر حين يسرى نوره إلى الوجود . نعم جاء المسيح إلى وادى مصر الرحيب ليجد فيها مأوى يقيه غدر هيرودس (٢).



وصول السيد المسيح إلى أرض مصر

حين لجأ إليها وهو وليد تفاديًا لبطش هيرودس

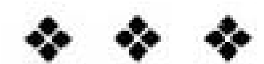
---

(١) هو ١١ : ١ ، مت ٢ : ١٥ .

(٢) مت ٢ : ١٣ - ١٤ .

وتحقيقاً لنبوءة أشعياء جاء المسيح إلى أرض مصر ، وحين وطئت قدماه القدسيتان أرض وادينا الحبيب سقطت الأصنام على وجوهها وتحطمت أمام أعين عبادها فعرتهم حيرة وذهول . ويصف أشعياء بالتفصيل ما سيحدث في مصر إذ يعلن الوحي الذي جاءه من العلي بخصوصها فيقول : « يدخل الرب أرض مصر محمولاً على سحابة خفيفة فتتزلزل أوثانها ... ويقام للرب مذبح في أرض مصر » (١) . وقد فسر البابا القبطي العظيم الأنبا كيرلس الأول (البابا الاسكندري الـ٢٤) ما تنبأ به أشعياء فقال : « ان السحابة المتألقة التي حملت الرب يسوع إلى مصر هي أمه العذراء مريم التي فاقت السحاب نقاءً وطهراً . أما المذبح الذي أقيم للرب في وسط أرض مصر فهو الكنيسة المسيحية التي قامت على أنقاض الهياكل الوثنية اثر تزلزل أوثانها وانهيار برابيها أمام وجه الرب يسوع (٢) . والمغزى المستقى من هذه النبوة هو أن تحقيقها العاجل يبين لنا مدى الاستعداد الروحي الذي مكن المصريين من سرعة قبول البشارة المسيحية في رضى وحبور . ولا يفوتنا أن نبدي اغتباطنا لأن المسيح قضى - وهو وليد - بعضاً من عمره في بلادنا المحبوبة عاد بعدها إلى فلسطين ليكمل فداءه للبشرية .

ومرت سنوات ، حل بعدها الوقت المعين من الله لأن يأتي مرقس أحد تلاميذ الرب السبعين إلى أرض مصر حيث بذر البذار ، فتأصلت ، ونمت ، وترعرعت ، وأتت بثمر كثير : ثلاثين وستين ومائة .



(١) اش ١٩ : ١ ، ١٩ - على أن الاصحاح التاسع عشر بأكمله يختص بمصر وحدها ويتناول أحداثها بالتفصيل .

(٢) « الأمة القبطية وكنيستها الارثوذكسية » للأستاذ فرنسيس العتر ارشيذياكون الكنيسة البطرسية ، ص١١ .

مرقس البشير : كاروز الديار المصرية

(١) نشأته .
(٢) شخصيته .
(٣) الاسكندرية فى القرن الأول للمسيحية .
(٤) مجئ مرقس إلى مصر .
(٥) انتشار الايمان .
(٦) مرور بطرس بمصر .
(٧) مغادرة مرقس لمصر .
(٨) عودته إلى مصر وكتابته انجيله .
(٩) استشهاده فى عيد القيامة سنة ٦٨م .

١ - « فى البدء كان الكلمة ... والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده ... » (١) ولقد رأينا مجده فى مصر منذ سنة ٦١م (٢) حين جاء مرقس الرسول ليبشرنا بأن الله قد أكمل وعده وافتدى البشرية .

ومرقس - بالنسبة للمسيحيين فى أنحاء العالم - هو أحد الأربعة الذين كتبوا الانجيل . أما بالنسبة لنا معشر القبط فهو كاروز ديارنا المصرية وحامل بشرى الخلاص (٣) ومؤسس الكنيسة والبابا الأول للاسكندرية (٤).

---

(١) يو ١ : ١ ، ١٤ .

(٢) هذا هو التاريخ الذى ذكره مؤرخو القبط ، غير ان بعض المؤرخين الشرقيين يقبلون الظن على أنه سنة ٥٥م .

(٣) أش ٥٢ : ٧ .

(٤) رسل الرب الأطهار وتلاميذه القديسون أساقفة مسكونيون وقد نالوا هذا السلطان من رب المجد نفسه إذ قال لهم : « اذهبوا إلى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » (مر ١٦ : ١٥) . إلا أن الكنائس الرسولية قد اصطلحت فيما بينها على اعتبار كاروزها أسقفها الأول . لهذا السبب اعتبرت كنيستنا المصرية مرقس البابا الأول للسدة الاسكندرية لأن على يديه تمت نبوة أشعياء القائل : « يقام للرب مذبح فى أرض مصر » .

ولقد ولد مرقس في مدينة القيروان (١) من أبوين تقيين جمعا بين مخافة الله وبين الثروة . وحدث أيام طفولته الأولى أن أغار بعض القبائل الهمجية على مدينته فسلبوا أهلها ونهبوا كل ما لديهم من متاع . فأضاع والدا مرقس معظم ثروتهما واضطرا إلى الرحيل إلى أورشليم حيث شب مرقس . ولم يكن ليدور في خلدهما أن هذا الرحيل الاضطراري قد قرب بينهما وبين السيد المسيح فأتاح الفرصة لابنهما لأن يتتلمذ له فيكون بين حملة بشارته - وهكذا نال مرقس الغنى الروحي عن طريق ضياع ثروة أبويه المادية .

٢- وكان مرقس أحد السبعين تلميذاً (٢) ، وهو الرجل الذى أشار السيد المسيح إليه بأنه الشخص الذى سيأكل الفصح فى بيته (٣) ، وكان هذا البيت مكان اجتماع الرسل بعد الصلب (٤) ، وفى علية منه (وتعرف باسم علية صهيون) حل الروح القدس على التلاميذ يوم الخمسين (٥) ، ويعد أول كنيسة مسيحية (٦) .

---

(١) احدى المدن الغربية الخمس الواقعة فى شمال أفريقيا وهى : القيروان ، برقة ، أبوللونيا (تعرف الآن باسم مرسى سوسا) ، بتولمايس (الآن توليمتا) ، توشيرا (الآن طرقة) ، بيرنيس (الآن بنغازى) .

(٢) لو ١٠ : ١ ، الدسقولية ك٥ ف٥٧ ، الايمان القويم لأوريجانوس ، كتاب الثيؤطوكيات ص١٧٥ - ١٧٧ والجزء الخاص بتمجيد القديس مرقس ، كتاب ابيفانيوس (أسقف قبرص فى القرن الرابع) ك٥١ ف٥ ، « قديس كل يوم » (بالفرنسية) لشابيا ص٢١٣ ، قديسو مصر (بالفرنسية) للمنسنيور بول دورليان جـ١ ص٤٩٤ - ٤٩٥ ، جـ٢ ص٥١١ .

(٣) مت ٢٦ : ١٨ ، مر١٤ : ١٣ - ١٥ ، لو ٢٢ : ١٠ - ١٢ ، « تحفة الجيل فى تفسير الانجيل » للمنسنيور يوسف الدبس المارونى ص٢١٨ حيث يورد ما قاله الكاردينال بارونيوس وهو : « ان كلمة (إلى فلان) - الواردة فى انجيل متى تشير إلى أن الرجل الذى سيؤكل الفصح فى بيته هو مرقس . ولقد أشار إليه السيد المسيح بهذه الاشارة المبهمة حتى لا يعرف يهوذا مقدماً مكان الاجتماع فينبئ اليهود عنه قبل أن يتم العشاء الربانى أما بيت مرقس فقد كان المكان الذى يجتمع فيه المسيح مع تلاميذه » .

(٤) مر ١٦ : ١٤ ، لو ٢٤ : ٣٣ ، يو ٢٠ : ١٩ .

(٥) اع ١ : ١٣ ، ٢ : ١ .   (٦) أع ١٢ : ١٢ .

ولما عقد رسل الرب وتلاميذه أول مجمع بأن التأموا فى أورشليم سنة ٥٢م برياسة يعقوب الرسول أسقف أورشليم كان مرقس حاضراً معهم . وكان السبب الذى حدا بالرسل إلى الاجتماع هو أن يتشاوروا معاً فى ما إذا كان من الضرورى أن يختتن الأمميون قبل صبغتهم (أى تعميدهم) . ولقد اتفقت كلمتهم يومذاك على قبول الأمميين بغير ختان (١) . وبعد الوصول إلى هذا القرار الحاسم استأنف كل رسول منهم التبشير . وعند ذاك اختلف بولس وبرنابا بشأن مرقس الذى كان قد تركهما فى بمفيليا فأخذ برنابا مرقس وذهب كلاهما إلى قبرص بينما اصطحب بولس سيلا ومرا فى سوريا إلى كيليكيا (٢).

وبعدما اشترك مرقس مع برنابا فى الكرازة مدة من الزمن ألهمه الروح القدس أن يحمل البشارة إلى المدن الخمس (مسقط رأسه) ، ومنها أتى إلى مصرنا العزيزة (٣).

٣- وحين وصل مرقس إلى الاسكندرية كانت هذه المدينة المركز الأول للعلم والفلسفة والفن والأدب . وكانت مدرستها الذائعة الصيت وعلماؤها الفطاحل يجتذبون إليها جميع من يطلبون المعرفة ، وفى الاسكندرية تقابل إذ ذاك فلاسفة اليونان ومعلمو الناموس وحكماء الهنود والفرس مع كهنة مصر وقادة الفكر فيها . ولم يكن المتحف والمدرسة مجرد أبنية فخمة تأخذ الألباب بجمال بنائها فقط ، وإنما كانت فوق ذلك تحوى أسمى ما أنتجه الفكر الإنسانى وأعظم ما ابتدعته الروح البشرية .

على أن هذه المدينة - مع كونها مركز الحضارة المثلى - كانت أيضاً المدينة التى اجتمع فيها الماجنون المستهترون . فكانت ترن ضحكات السكارى وأصوات الصاخبين فى شوارعها الفسيحة ذات الأعمدة الرشيقة (٤) .

---

(١) أع ١٥ : ١ - ٣٠ .   (٢) أع ١٥ : ٣٦ - ٤١ .

(٣) مخطوط عربى لناسخه القمص شنودة البراموسى ص ١١ - ١٩ ، السنكسار جـ١ ص١٢٧ وجـ ٢ ص١٠٣ - ١٠٧ ، تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ، أوسابيوس القيصارى ك٢ ف١٥ ، ١٦ ، ؛ أخبار القديسين ؛ لمكسيموس مظلوم جـ٢ ص٥٥٢ ، ؛ قديسو مصر ؛ (بالفرنسية) للمنسنيور پول دورليان جـ١ ص٥٠٠ .

(٤) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر جـ١ ص٥٧٧ - ٥٨٠ .



مارمرقس الانجيلى

(مؤسس الكنيسة المصرية)

وهذه المدينة التى جمعت بين أسمى الصور الإنسانية وبين أحطها أسسها الاسكندر الأكبر سنة ٣٣١ ق . م . فلم تلبث أن أصبحت أعظم مركز للحضارة فى العالم القديم حتى لقد قيل عنها أنها المدينة التى خلب جمالها خيال معاصريها (١).

وإلى هذه المدينة العجيبة جاء مرقس رسول السيد المسيح .

٤- وفى اليوم الأول من وصوله إلى الاسكندرية أخذ يسير فى شوارعها مأخوذاً بجمالها حزيناً على ما فيها من شر . وظل ماشياً طول النهار كأنما سحرته المدينة فأنسته الجوع والتعب . وعند المساء انقطع سير حذائه فوقف عند أول اسكاف . وبينما كان الاسكاف يخيط السير دخل المخراز فى يده فرفعها فى ألم وهو يهتف : « يا الله الواحد » . وفى الحال تفل الرسول على الأرض وصنع من التفل طيناً ومسح به الجرح فأبرأه . ثم سأل الاسكاف أن كان يعرف « الله الواحد » الذى يناديه فقال له : « اننى اسمع عنه سمعاً ولكننى لا أعرفه » . وعندها أخذ مرقس يروى له كيف ولد المسيح وكيف علّم وكيف افتدى الناس بأن ارتضى أن يعلق على الصليب ، ثم كيف دفن وقام من بين الأموات وصعد إلى السموات . وتفتّح قلب الاسكاف لهذه البشرى المجيدة ، وابتهج بها فأخذ مرقس الرسول إلى بيته . وفى تلك اللحظة ألقيت البذرة الصالحة فى أرض مصر الخصبة فنمت كحبة الخردل حتى صارت شجرة كبيرة ، وكان انيانوس (حنانيا) الاسكاف باكورة المؤمنين إذ اصطبغ بالصبغة المقدسة هو وأهل بيته (٢) .

٥- ولم يلبث أن انضم إلى انيانوس وأهل بيته عدد غير قليل من

---

(١) « الاسكندرية كمركز للنسيج من سنة ٣٣١ ق . م إلى سنة ١٥١٧ م » . (بالانجليزية) للدكتور عبد العزيز مرزوق نشرها فى مجلة الآثار القبطية جـ١٣ (٤٨ - ١٩٤٩) ص١١١ - ١٣٤ حيث يقول :

" Alexandria ... was, during the Ptolemaic period, the city whose beauty excited the imagination of its contemporaries " .

(٢) السنكسار ٣٠ برمودة .

الاسكندريين وأخذ عددهم يتزايد إلى حد أقلق الحكام لأن المؤمنين لم يزدادوا فى العدد فحسب بل حولهم الايمان الجديد تحويلاً كاملاً حتى جعل منهم أشخاصًا جدداً . وكان تجديدهم جذاباً إلى درجة اكتساب الآخرين ، وإلى درجة أن الوثنيين حين كانوا يرون واحداً منهم يتكلم بالصدق ويتصف بالاحتشام يسألونه : « هل قابلت مسيحيًا اليوم ؟ » كان مجرد المقابلة مع المسيحى تكفى للايحاء إلى الناس بالتحول عن رذائلهم .

٦- وبينما كان القديس مرقس منهمكاً فى تدعيم أساس الكنيسة فى مصر ، مر به بطرس الرسول (١) ليفتقد اليهود المقيمين فيها لأنه كان رسول الختان - أى اليهود (٢) وفى أثناء اقامته بمصر كتب رسالته الأولى التى اختتمها بقوله : « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة معكم ومرقس ابنى » (٣) .

٧- ولما تزايد عدد المؤمنين واستمر فى الزيادة حاول الحكام أن يلقوا

---

(١) « أخبار القديسين » طبع فى مطبعة الدومينيكان بالموصل سنة ١٨٧٠ جـ١ ص٧٩٥ - ٧٩٦ .

(٢) غلا ٢ : ٧ - ٨ .

(٣) رسالة بطرس الأولى ٥ : ١٣ ، والأدلة التى تشير إلى أن بابل التى يتكلم عنها بطرس هى الحى المصرى الذى يضم أقدم الكنائس المصرية واردة فى : سير القديسين (فرنسى) للآباء البنديكتيين جـ١ ص٩٥ ، قاموس الكتاب المقدس (بالانجليزية) لجورج بوست جـ١ ص٢٠٢ ، الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ١ ص١٥٥ ، قاموس القواميس (بالفرنسية) للمنسنيور جيربن جـ٥ ص٨٧٢ ، قديسو مصر (بالفرنسية) للمنسنيور بول دورليان جـ١ ص٢١٨ ، الأولية البابوية (فرنسى - لاتينى) لراهب دومينيكانى ص٢٨٧ - ٢٨٩ . كما أن بابل عاصمة أشور كانت قد خربت حوالى القرن الثانى قبل الميلاد - اى قبل أن يحمل الرسل بشارة الانجيل بما يقرب من قرنين - راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة جـ٢ ص٨٥٢ ، « بابلون العظيمة » (بالانجليزية) مقال للمستشرق الانجليزى هـ . ر . هول نشره فى كتاب « عجائب الماضى » جـ١ ص٣٦٥ - ٣٧٨ . أما عن بنوة مرقس لبطرس فهى بنوة روحية أقرتها المسيحية منذ البداية كبنوة تيموثيئوس لبولس ١ تيموثيئوس ٥ : ١ ، ٢ بطرس ٣ : ١٥ تيطس ١ : ٤ .

القبض على مرقس . وعندما احس المؤمنون بذلك ألحوا عليه فى أن يغادر مصر – ولو إلى حين – ليكون فى مأمن من غدر الحكام . فجمع المؤمنين معاً ورسم لهم أنيانوس الاسكاف أسقفاً كما رسم اثنى عشر قسيساً وسبعة شمامسة (١) . ثم غادر الاسكندرية قاصداً المدن الخمس ليفتقد الكنيسة التى أسسها هناك . وقصد بعد ذلك إلى رومية تلبية للدعوة التى وجهها إليه بولس الذى كان قد سمع عن خدمته (٢) وأدرك مما بلغه عن كنيسة مصر أن الروح القدس كان قد أفرز مرقس ليحمل البشارة إلى وادى النيل تحقيقاً للنبوة القائلة : « فى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمها (٣). ولما سمع بولس أنه غادر الاسكندرية ارضاء للمؤمنين الحريصين على حياته أرسل فى طلبه فلبى مرقس دعوته وسارع إليه فى رومية ولقد شهد بولس بعد ذلك أنه نافع له وللخدمة (٤). ولهذه الشهادة قيمة عظمى لأن بولس الذى أعلنها هو بعينه الذى عارض فى استصحابه معه معارضة أدت إلى انفصاله عن برنابا مع أنهما كانا قد خدما معًا مدة طويلة (٥). بل أن قيمتها لتزداد إن لاحظنا أن بولس ذكر اسم مرقس قبل اسم لوقا الذى صاحبه فى أسفاره العديدة وكتب سفر أعمال الرسل . على أن قيمة هذه الشهادة لا تنحصر فى كونها اعتراف بمكانة مرقس بل أنها – فوق ذلك – تفتح باب الأمل أمام الانسانية المتعثرة : فهى دليل على أن الانسان متى غلبه ضعف بشريته ففى امكانه أن يعاود الجهاد ويصل إلى الكمال المسيحى إذا هو لم ييأس من رحمة الله ونعمته .

---

(١) يروى ساويرس اسقف الأشمونين فى « تاريخ البطاركة » أن مرقس رسم سبعة قساوسة بينما يقول سعيد بن بطريق أنهم اثنا عشر . وسواء أكانوا سبعة أم اثنى عشر فالذى يهمنا هو أنه وضع اليد على عدد من الرجال فخولهم السلطان الذى خوله إياه الفادى الحبيب فى حمل رسالته إلى الآخرين .

(٢) كولوسى ٤ : ١٠ .

(٣) أشعياء ١٩ : ١٩ .

(٤) ٢ تيموثيئوس ٤ : ١١ ، فليمون ١ : ٢٤ .

(٥) اعمال ١٣ : ١ – ٥ و ١٣ ، ١٥ : ٣٦ – ٤١ .

٨- ولقد حمل أنيانوس الاسكاف ومن معه من المؤمنين الرسالة التى ائتمنهم عليها مرقس الرسول بغيرة واخلاص حتى أنه لما عاد إليهم وجد أنهم بنوا كنيسة فى منطقة يقال لها بوكاليا (أى دار البقر) ، وبنوا أمامها عدداً من المنازل لايواء الفقراء والغرباء . كذلك تعلم المسيحيون أن يعيشوا عيشة مشتركة يتقاسمون أفراحها وأتراحها ، يصلون ويصومون معاً ، ويحمل كل فرد منهم رسالة المسيح بالفعل والقول . فكانت حياتهم قدوة مثلى زادت تعاليمهم قيمة ودعمتها فاجتذبت غير المؤمنين . لهذا تزايد عدد المؤمنين يوماً بعد يوم . وحالما عاد مرقس الرسول إلى الاسكندرية رجا منه المؤمنون أن يكتب لهم التعاليم ألتى سلمها لهم باللسان لتكون لهم عزاء وليستطيعوا أن يوصلوها إلى أولادهم وأولاد أولادهم ، وكل الآتين من بعدهم فتكون مصدراً لقوتهم ورسوخهم فى الايمان . وقد فرح مرقس بهذا الرجاء وحقق رغبتهم بأن كتب لهم انجيله مستلهماً الروح القدس (١) . ويقول الكثير من العلماء أنه أول انجيل كتب ولو أن البعض الآخر يستخلص إلى أنه كتب بعد شهادة الرسولين بطرس وبولس لأن مرقس كتبه بعد عودته من رومية (٢) ولقد كان فرح المؤمنين ببشارة مرقس عظيماً إلى حد جعل هذا القديس ينشئ لهم مدرسة لاهوتية تكون منارة لكل طلاب العلم . ولقد حقق

---

(١) أوسابيوس ك٥ ف ط ، الترجمة الفرنسية لكتابات ذهبى الفم بقلم الآب باريل جـ١٢ ص١٦٢ ، حياة القديسين مصورة (بالفرنسية) الراهب الفرنسى مونفوكول تحت ٢٥ أبريل حيث يقول :

" Marc, cédant aux désirs des fidéles prit la plume, et, sous l'inspiration de l'Esprit - Sairt, écrivit les pages immortelles de son Evangile " .

وترجمته ما يأتى : « تلبية لرغبة المؤمنين امسك مرقس بالقلم وكتب صفحاته الخالدة بوحى الروح القدس » ويقول هذا الراهب عينه فى Diar. Ital. فصل ٤ ص٥٠ بأنه رأى النسخة الأصلية لانجيل مرقس فى كنيسة البندقية ولاحظ أنها مكتوبة على ورق مصرى (بردى) .

(٢) القديس العظيم مارمرقس - نشرة لرهبان دير السيدة العذراء الشهير بالسريان بوادى النطرون ص٦ ، تفسير الكتاب المقدس (بالفرنسية) لمؤلفه دى فانس ص٤٢٨ .

الله تعالى أمل بشيره إلى ديارنا لأن هذه المدرسة أصبحت كعبة الطلاب من جميع البلاد وظلت المنهل العذب الذى ارتوى منه جميع فطاحل الأساقفة فى كافة أنحاء العالم المسيحى يومذاك ، كما ارتوى منها الأمراء وأصحاب الحكم العالى إلى جانب الساعين نحو المعرفة المسيحية من جميع الطبقات (١) .

٩- ويبدو أن غيرة القديس مرقس كانت تتضاعف بتزايد المؤمنين إذ كانت الغبطة الروحية تزيد من جهاده . فأثار نجاحه المتواصل غضب الحكام إذ أوجسوا خيفة منه فقرروا أن يتربصوا له ولا يدعوه يفلت من أيديهم هذه المرة . وحدث أن كان يوم عيد القيامة سنة ٦٨م موافقًا لليوم الذى يعيِّد فيه الوثنيون لإلهم سيرابيس الذى كانت عبادته من أكثر العبادات شيوعاً . فلما تجمعت الجماهير للاحتفال بالعيد فى معبد سيرابيس هيجهم الحكام ضد مرقس البشير . وما أن انتهت شعائر الاحتفال بالعيد حتى خرج الوثنيون مندفعين نحو الكنيسة ، فاقتحموها وقبضوا على مرقس الرسول . ولما خرجوا به خارج الكنيسة ربطوا حبلاً حول وسطه ثم أخذوا يجرونه من شارع إلى شارع وفوق الصخور الصماء وهم يصرخون « جروا الثور إلى دار البقر » (٢) . ولما سئموا عملهم الوحشى ألقوا بالرسول المهشم الجسم فى السجن . وبينما هو ملقى فى حبسه بين حى وميت إذا بنور وهاج يسطع أمامه . وإذا بالسيد المسيح يقول له من وسط هذا النور : « تشدد يا بشيرى وليفرح قلبك فغداً تنال اكليل الشهادة » . وفى اليوم التالى جاء الوثنيون إلى السجن وربطوا الحبل هذه المرة حول عنق القديس مرقس ، وأخذوا يجرونه على الأرض كما فعلوا فى اليوم السابق . فلم يلبث رأسه أن انفصل عن جسده فنال فى ذلك اليوم أكاليل ثلاثة : إكليل الرسولية ، وإكليل البشارة ، وإكليل الشهادة (٣) .

---

(١) « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٢٧٩ .

(٢) اشارة إلى الكنيسة فى بوكاليا .

(٣) الابصلمودية السنوية حسب ترتيب الكنيسة الأرثوذكسية ، ص٢٥٦ - ٢٥٧ .

على أن جموع الوثنيين لم يكفها ما حدث بل أخذوا يكومون كومة من الحطب تمهيداً لحرق الجسد ولكنهم ما كادوا يجهزونها حتى هبت عاصفة هوجاء وتساقط المطر كالسيل . فاضطروا إلى أن يتفرقوا ويتركوا الجسد ملقى فى الطريق . فلما هدأت العاصفة جاء المؤمنون ورفعوه ثم دفنوه فى الكنيسة المقامة فى بوكاليا والتى دعوها باسمه (١). فكان دم كاروز بلادنا المحبوب أول دم سقى هذه التربة العريقة وباكورة لدماء شهداء عديدين سقوا بدورهم التربة المصرية فأفاضوا عليه البركة وجعلوا منها أرضًا مقدسة ثانية .

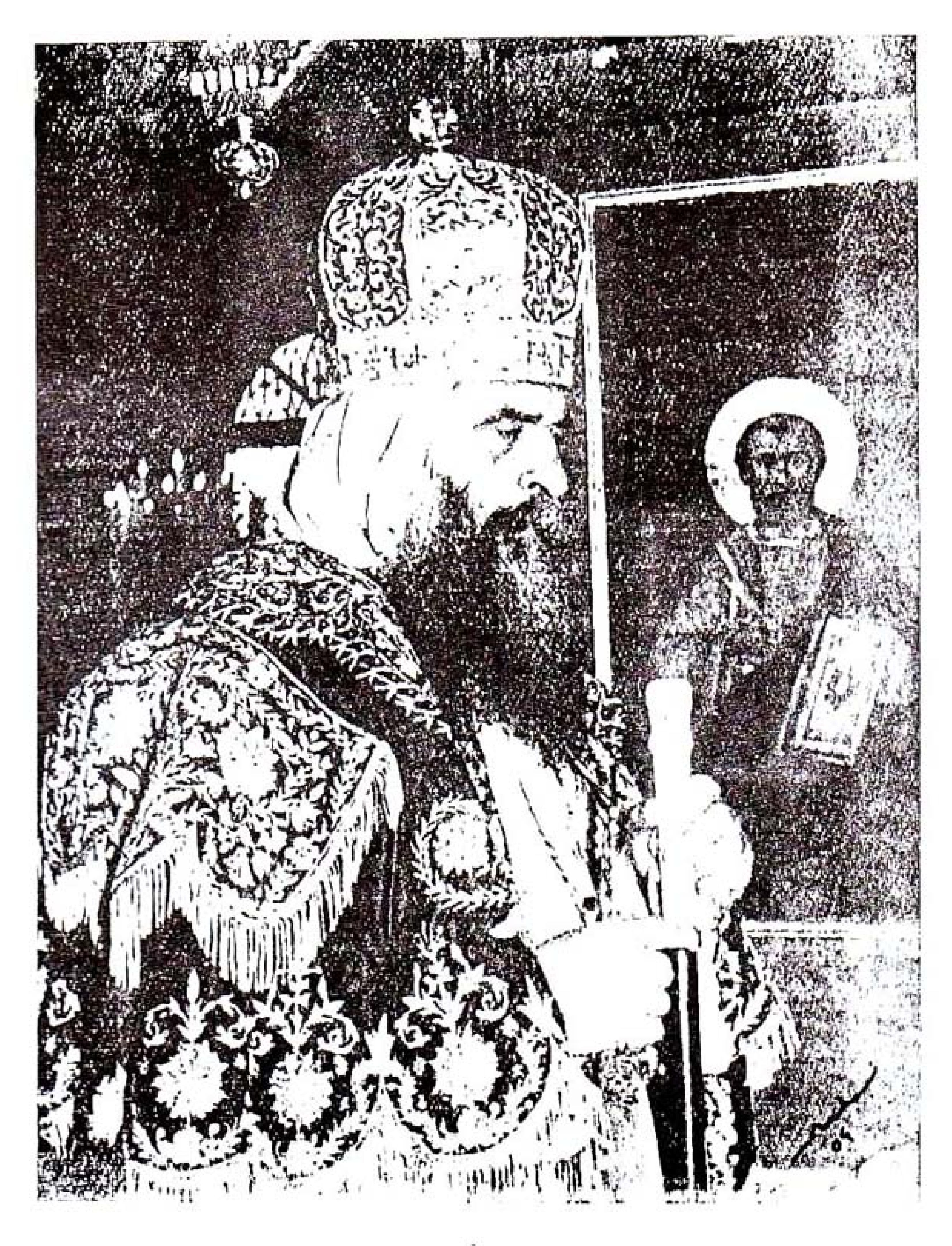
وبعد قرون – بعد المجمع المسمى بخلقيدون – نقل الجسد إلى كنيسة فى حوزة الملكيين (أنصار الامبراطور البيزنطى إذ ذاك) ، بينما ظل الرأس فى مكانه . وقد أدى هذا النقل إلى تمكين التجار البندقيين من سرقة الجسد وحمله إلى مدينتهم حيث وضعوه فى الكتدرائية الفخمة التى تحمل اسم مرقس الرسول ، كما وضعوا جمهوريتهم الناشئة تحت رعايته (٢) .



---

(١) من المعروف أن الكنيسة المرقسية فى الاسكندرية لا تزال قائمة فى نفس المكان الذى شيدت فوقه أول كنيسة . على أنها تجددت مراراً عدة على ممر العصور ، والبناء الحالى جديد إذ قد تم تكريسه يوم ٣٠ بابه المبارك سنة ١٦٦٩ ش (٩ نوفمبر ١٩٥٢) وحين هدمت الكنيسة السابقة لتشييد الحالية عثر على سرداب تحت الهيكل مدفون فيه ثمان وأربعون بابا من باباوات الاسكندرية أحدهم هو أنيانوس – إذ أن تابوت كل منهم يحمل اسمه .

(٢) راجع « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٢٨٣ .



ابارك الرب الذى أفهمنى

كيرلس

مارمرقس الرسول كاروز الديار المصرية

وقد وقف إلى جانبه خليفته المئة والسادس عشر

الأنبا كيرلس السادس

الذى اعتلى السدة المرقسية بنعمة الله يوم الأحد ٣ بشنس سنة ١٦٧٥ش

(الموافق ١٠ مايو سنة ١٩٥٩م)

كرسى الاسكندرية

(١٠) الخلافة المرقسية .	(١١) الشعائر التقليدية .
(١٢) الرعاية الساهرة .	(١٣) عناية الله بالكنيسة .

١٠- لما كان القديس مرقس هو مؤسس الكنيسة المصرية فهو البابا الأول للاسكندرية ، والباباوات الذين تعاقبوا من بعده على سدته هم خلفاؤه . وقد استمر الواحد منهم يخلف الآخر فى سلسلة مترابطة متصلة الحلقات منذ استشهاده إلى يومنا هذا لأن الخليفة المرقسى الآن هو الأنبا كيرلس السادس البابا المئة والسادس عشر . وكان أنيانوس الخليفة المباشر لمارمرقس وقد نال كرامة رياسة الكهنوت على يدى البشير نفسه .

ولقد حمل خلفاء مارمرقس لقب « بابا » منذ البداية ، ومعناه « أبو الآباء » . وكان انيانوس أول من حمل هذا اللقب كما هو واضح من المخطوطات القديمة . وأعظم شاهد على هذه الحقيقة هو القداس الإلهى الذى سلمه القديس مرقس بنفسه إلى الكنيسة ، والذى رتبه فيما بعد الأنبا كيرلس عامود الدين (البابا الاسكندرى الـ٢٤) حتى أصبح معروفاً بيننا الآن باسم القداس الكيرلسى . وقد جاء فى أوشية الآباء لهذا القداس ما نصه : « صلوا من أجل أبينا الأنبا (فلان) ، بابا وبطريرك وسيد ورئيس أساقفة مدينة الاسكندرية العظمى » (١) .

---

(١) أوشية الآباء من القداس الكيرلسى ، أوسابيوس : التاريخ الكنسى ك٧ ف٧ و٤ ، وقد ذكر بطلر أن بعض المؤرخين قد أثاروا الجدل حول هذا الموضوع ولكنه رأى أن كلمة « بابا » مشتقة من القبطية « بى أبا » - فهى والحالة هذه مصرية أصيلة . راجع كتابه « الكنائس المصرية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) جـ٢ ص٣٠٢ حيث يقول ما نصه :

" The name "pope" or "baba" or "papa" has given rise to much controversy, but may probably be derived from Coptic = Πaπa Πaββa

كذلك قال روبرت باين فى كتابه « النار المقدسة » (بالانجليزية) ص٥٩ ما نصه :

" The title of " Papa " or " Pope " was regularly given to the Bishops of Alexandria " .

١١- وكان الواجب الأول الموضوع على خليفة القديس مرقس - بعد رسامته - هو تأديته قداسات ثلاثة : القداس الأول فى كنيسة البشيرين (أى الذين كتبوا البشائر الأربع) ، والقداس الثانى فى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل ، والقداس الثالث في كنيسة مارمرقس (١) . فإذا ما انتهى البابا المرقسى من تأدية القداس الثالث حمل على ذراعيه الصندوق المشتمل على رأس «ناظر الإلهيات» - أى مرقس الرسول - وأعلن للشعب عهده ، وهو انه سيقتفي آثار الرسول الشهيد الذى صار خليفة له (٢). ولما كان الأنبا انيانوس قد نال كرامة رياسة الكهنوت من القديس مرقس نفسه لم يكن محتاجًا لتأدية هذه القداسات الثلاثة ولا إلى حمل « الرأس » كما تحتم ان يفعل خلفاؤه ، فاستلم قيادة الكنيسة حالما تمت صلوات الجنازة على الكاروز المحبوب . فأصبح انيانوس بذلك البابا الاسكندرى الثانى - وأول السلسلة المتينة التى تتألف من تعاقب خلفاء القديس مرقس واحداً بعد الآخر على السدة المرقسية الجليلة .

١٢- وان تاريخ الأنبا أنيانوس وخلفائه التسعة المباشرين متشابه إلى حد بعيد . وهذا التاريخ يروى لنا أنهم كانوا حكماء صالحين ، ودعاء ساهرين على رعيتهم ، يعلمون الشعب ويثبتونه على الايمان القويم باخلاص متناه وبهمة لا تعرف الملل . وكانوا فوق هذا كله على جانب عظيم من البساطة والتواضع . فاستطاعوا بجهادهم الحسن أن يكسبوا عدداً كبيراً من الناس إلى دين المسيح ، كما استطاعوا ان ينشروه فى ربوع مصر وأن يثبتوا قلوب المصريين على هذا الايمان الذى تجاوبت أرواحهم معه . وأنه لما يسمو بالنفس أن نعود بالخيال إلى هذين القرنين الأولين ونعيش

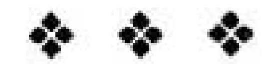
---

(١) مما يؤسف له انه لم يبق من هذه الكنائس الثلاث غير الأخيرة .

(٢) راجع المخطوط قبطى - عربى رقم ٢٥٣ ادب المحفوظ بمكتبة المتحف القبطى والمؤرخ سنة ١٠٨٠ش (سنة ١٣٦٤م) ص٦٦ ج . ويتضمن « رسامة البطاركة » ، كتاب الرسامات : الجزء الخاص برسامة البطاركة ، وهذا الكتاب منقول عن المخطوطات القبطية السابقة لعصره .

مع جدودنا ولو إلى لحظات : فهم قد إستشفوا معنى المسيحية بأرواحهم فتهللوا بها وعاشوا بموجبها ، لم يتشدقوا بها بألسنتهم ولم يلقوا عنها الخطب البليغة والمواعظ الضافية ، بل عاشوها على حقيقتها فجددتهم ، وسطع نورها خلالهم فأهلهم لأن يجتذبوا مواطنيهم الوثنيين إلى المسيح - إذ رأى الجميع أعمالهم الحسنة فمجدوا أباهم الذى هو فى السماوات (١) .

١٣- ولقد استمتعت كنيسة مصر مدى القرنين الأولين للميلاد بسلام شامل - اندلعت بعدهما نيران الإضطهاد وعصفت أنواء الابتداع بقسوة وعنف لا مثيل لهما فى سائر أنحاء العالم.وهكذا منح الفادى الحبيب كنيسته المصرية وقتاً لتتأصل جذورها وتشتد فروعها . فوصف جون نيل هذه الحقبة بقوله : « لقد اقتضت الارادة الإلهية أن يسود السلام مدى قرنين على كنيسة الاسكندرية التى تعرضت فيما بعد لأقسى انواع العذاب من الوثنيين ، كما اضطرت إلى الجهاد العنيف من أجل الإيمان ضد بدعتين من أخطر البدع هما بدعتا أريوس ونسطوريوس (٢) . ولقد ارتضت الارادة الإلهية بهذا لكى يتأصل الإيمان فى القلوب ويرسخ فى النفوس ويؤتى ثماره ، فتتمكن الكنيسة من أن تقابل الإضطهادات والبدع فى رسوخ وثبات . وبما أن مصر قد تمتعت خلال القرنين الأولين للمسيحية بسلام منقطع النظير ، فإن تاريخ الكنيسة فى هذه الحقبة من الزمان يتلخص فى اسماء باباواتها وفى أنهم كانوا أمناء على الوديعة التى تسلموها خلفًا عن سلف (٣).



(١) متى ٥ : ١٦ .

(٢) سيأتى الكلام بالتفصيل عن هاتين البدعتين فى وقتهما .

(٣) فى كتابه « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) جـ١ ص١٢ .

مدرسة الاسكندرية

(١٤) جهود البطالسة فى سبيل العلم .
(١٥) رسالة المدرسة .
(١٦) الهدف الاستعمارى من وراء العلم .
(١٧) المدرسة التى افتتحها مارمرقس .
(١٨) اثيناجوراس .
(١٩) بانتينوس .
(٢٠) ترجمة الانجيل إلى القبطية .
(٢١) اكليمنضس .
(٢٢) الفنوسطية .
(٢٣) ميزات عصر اكليمنضس .

١٤- بينما كان آباء الكنيسة المصرية منهمكين فى تثبيت المؤمنين على الإيمان القويم كان يعاونهم فى هذا العمل المجيد معلمو المدرسة الاسكندرية وعمداؤها . وكانت الاسكندرية مذاك تفاخر بتاريخ طويل وصلت خلاله إلى درجة من الحضارة منقطعة النظير ، وكان صيتها كأعظم مركز للثقافة قد رسخ . وقد أسس مدرستها السابقة للعصر المسيحى بطليموس سوتير سنة ٣٢٣ق . م . وكان شغوفاً بالعلم معجباً بالعلماء فدعا عدداً كبيراً منهم إلى عاصمته ورجا منهم أن يستوطنوها . على أن اعجابه كان منصباً على الفلسفة اليونانية فحسب .

فلما اعتلى بطليموس فيلادلفوس عرش مصر سنة ٢٨٨ق . م. لم يقف اعجابه عند الفلاسفة اليونانيين بل امتد إلى العلماء من مختلف الجنسيات . غير أن الغرض الأساسى الذى ظل يهدف إليه كان بسط نفوذ الثقافة اليونانية . فدفعه هذا الغرض إلى استقدام سبعين من معلمى الناموس من العبرانيين ليقيموا فى الاسكندرية ويترجموا العهد القديم من لغتهم إلى اللغة اليونانية . وهكذا كان بطليموس فيلادلفوس الأداة التى أوصلت للعالم الترجمة المعروفة باسم السبعينية لكونها وليدة الجهاد الذى قام به سبعون معلم .

ثم آل بعد ذلك إلى بطليموس ايفيرجيتس فاتخذ وسيلة عجيبة لاعلاء

شأن الاسكندرية من الناحية الثقافية - ذلك انه فرض ضريبة أدبية على كل من يزور مدينته تتلخص فى ان يقدم كتاباً او اكثر هدية منه لمكتبتها كشرط للسماح له بدخول المدينة .

١٥- وقد تضمنت مدرسة الاسكندرية المكتبة والمتحف ومن الواضح لكل باحث فى تاريخ هذه المدرسة أنها كانت مدرستين فى مدرسة فكانت ذات صبغة علمية أدبية أولاً ثم غلبت عليها الصبغة الفلسفية اللاهوتية . وقد تم هذا التحويل قبل انبثاق نور المسيحية . لأن الناس فى أنحاء العالم كانوا مذاك قد بدأوا يتعطشون إلى المسيا (الفادى المنتظر) الذى سينقذهم مما هم فيه من تخبط روحى (١) .

١٦- ولقد أدت غيرة البطالسة وجهودهم المستمرة فى سبيل العلم والعلماء إلى أن تجمع فى الاسكندرية عدد كبير من الحكماء والفلاسفة من مختلفى الجنسيات جعلوا من هذه المدينة المصرية منارة ساطعة الضياء . ولقد زعم البطالسة أنهم يستطيعون - بعلمهم هذا - أن يصبغوا الفكر المصرى بصبغة يونانية . وقد اختط لهم الاسكندر الأكبر هذه الخطة مستهدفاً صب البلاد التى افتتحها فى قالب يونانى . ونظرة عابرة تدفع بالمتأمل فى تاريخ تلك الحقبة إلى الظن بأن البطالسة قد نجحوا فى الوصول إلى هدفهم . ذلك لأن المصريين ميالون ميلاً شديداً إلى كل أنواع الثقافات والفلسفات ، وفى استطاعتهم أن يستوعبوها ويستمتعوا بها ويأخذوا منها ما يشاءون . ولكنهم - فوق هذا كله - مصريون قبل كل شئ ، جذورهم متأصلة فى أعماق التربة المصرية ، وهم فخورون بماضيهم المجيد وتاريخهم الحافل ، وحبهم لمصر يفوق حبهم للعلم والفلسفة أياً كانت . فكان من الطبيعى - والحالة هذه - أن يحدث صدام بين الحكام اليونان وبين الشعب المصرى . وفى الواقع كان القرن الثانى قبل الميلاد سلسلة من الثورات الوطنية والاستبداد الاستعمارى ، ولا يعرف عن هذه الاشتباكات العنيفة غير حقيقة مؤلمة هى ما اتصفت به من قسوة وعنف . ومع أن المصريين كانوا

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة ، جـ١ ص٥٨١ - ٥٨٢ .

يخرجون منها مغلوبين إلا انهم ظلوا على عنادهم - فهم لم يكونوا يملكون القوة المادية التى بها يقهرون مستعمريهم ولكنهم كانوا يملكون القوة الروحية التى هى حب مصر والتفانى فى سبيلها ، ولقد أدرك الحكام أن روح مصر ثائرة عليهم فزعموا انهم يستطيعون أن يخففوا من حدة هذه الثورة بتقديم المهدئ المسكن فى صورة العلم والفلسفة . وبهذا الدواء استطاعوا أن يهدءوا الخواطر فترة من الزمن زعموا خلالها انهم نجحوا فى الوصول إلى هدفهم . على أن هذا النجاح لم يكن إلا ظاهراً لأن عقل مصر استوعب هذا العلم وهذه الفلسفة ولكن قلبها ظل منصرفاً عنهما - ظل قلباً اميناً وفياً للبلاد التى رقد فيها اجداده والتى يأمل أن يتسلمها ابناؤه (١) . وكمن هذا الوفاء فى اللاشعور المصرى فترة ولم يكن محتاجاً إلا إلى الزعيم المقدام لكى يستثيره من مكمنه ، وحالما ظهر هذا الزعيم فى القرن الميلادى الخامس فى شخص الأنبا شنودة رئيس المتوحدين استجاب له الشعب بأسره وظهر للعالم كله وللحكام المستعمرين حدة الشعور القومى المصرى التى أذهلتهم إذ كانوا قد توهموا انهم تمكنوا من خنقها بما وضعوا عليها من غطاء علمى فلسفى .

ولم تكن الفلسفة اليونانية بالمؤثر الوحيد الذى تغلغل فى مصر - بل كانت هناك مؤثرات أخرى كالتصوف الهندى والفارسى . إلا أن أبعد هذه التعاليم انتشاراً كانت التعاليم العبرية . فقد كان جماعة اليهود المستوطنين فى الاسكندرية أعظم جماعة علماً وجاهاً لم يسبقها فى ذلك غير النخبة الممتازة فى أورشليم . ومن أبرز اليهود الاسكندريين الفيلسوف فيلون .

---

(١) راجع مقال بيير جوجيه وعنوانه « من مصر اليونانية إلى مصر القبطية » نشره بالفرنسية فى مجلة محبى الفنون القبطية سنة ١٩٣٥ جـ١ ص١ - ٢٦ وفيه يقول ما ترجمته : « ان الشعب المصرى قد جذب الأجانب بلا انقطاع ولكنه كان مزهواً بتقاليده الغائصة فى القدم » إذ قال :

" Un peuple qui a toujours, certes attiré les étragers mais qui était trés fier de ses propres traditions millinaries ... " .

١٧ – وإلى هذه المدينة التى شاعت فيها الفلسفات اليونانية والتعاليم العبرية والروحيات الشرقية هبطت المسيحية ، فوجدت فيها الأرض الخصبة الصالحة لنماء مبادئها لأن الروح المصرية ميالة بفطرتها إلى التصوف وإلى كل ما يتعلق بما وراء المادة ، فوجدت فى الدين الجديد (الذى هو دين المسيح) تحقيقاً لما كانت تتطلع إليه فى دينها القديم فاعتنقته بحرارة .

وحالما تعلم المصريون الدين المسيحى شعروا بالحاجة إلى نشره فى ربوع الوادى وفكروا فى انشاء مدرسة يمتد منها نوره إلى أقصى البلاد . وأدركوا أن عليهم مواجهة هؤلاء الرجال المتضلعين فى العلوم والفلسفات والروحيات فلا بد من أن يكونوا هم بدورهم متضلعين فى العلوم . ولكى يتضلعوا من العلوم يجب أن تكون لهم مدرسة . ولهذا افتتح لهم القديس مرقس المدرسة اللاهوتية . ولقد قال أوسابيوس [١] : « اشتهرت كنيسة الاسكندرية من عهد قديم ، بدار تعليم للعلوم القدسية كان يتولى أمرها رجال عرفوا بقوة العارضة وتميزوا بالاجتهاد فى الصلاح والحث على التقوى » [٢] صحيح أنه قامت فى مختلف البلاد المسيحية مدارس تهدف إلى نشر التعليم المسيحى ، ولكن مدرسة الاسكندرية كانت فريدة فى بابها . فهذه المدارس جميعها اكتفت بالتعاليم الأولية ، أما المدرسة الاسكندرية فلم تلبث أن أصبحت مركزاً لحياة فكرية عنيفة . فكان أساتذتها من أعظم العلماء وأبرزهم ممن تبحروا فى الفلسفة والعلم والأدب والعلوم الروحية أما المستمعون الذين ملأوا قاعاتها فلم يكونوا بالموعوظين فحسب بل كانوا من رجال العلم والقانون والبلاغة والفلسفة . ومن ثم لم يكن ممكناً تقديم

---

(١) عاش أوسابيوس أسقف قيسارية فى القرن الرابع وحضر مجمع نيقية (المسكونى الأول سنة ٣٢٥) ويعرف بأبى التاريخ الكنسى لأنه وضع تاريخاً ضافياً للكنيسة فى عصورها الأولى .

(٢) أوسابيوس ك٥ ف١٠ ، ك٦ ف١٨ ، « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٢٧٩ ، كتاب « الدرر النفيسة فى مختصر تاريخ الكنيسة » لأغناطيوس افرام الأول برسوم بطريرك انطاكية وسائر المشرق على السريان المجلد الأول ص٢٢٧ .

المسيحية لهؤلاء الرجال فى صورة أولية بل تحتم تقديمها فى صورة علم وحكمة وفلسفة . ومن البديهى أن غالبية المؤمنين كانوا من السذج البسطاء . ولكن العلماء الاسكندريين وضعت عليهم رسالة مثلى لم يؤتمن غيرهم عليها هى حمل الشعلة المسيحية أمام العلماء فى العالم كله . وهؤلاء العلماء هم الذين وصلت إلينا حياتهم وتعاليمهم . وحين يستغرق الباحث فى قراءة سيَر هؤلاء العلماء يحس بأنه قد انتقل من هذا العالم المرئى إلى عالم أسمى هو عالم الفكر والروح (١) .

فليس بغريب أن أصبحت مدرسة الاسكندرية المنارة الوهاجة للمسيحية ، وهى التى احتفظت بمستوى رفيع من الحكمة والتعمق الروحى . ومما يؤسف له أن هذه المدرسة الفريدة التى أسسها مرقس الرسول نفسه لم تعش سوى قرون ست استبد بها الأباطرة البيزنطيون. بعد ذلك فأطفأوا سراجها الساطع . وهكذا كان الاستعمار وما اتسم به من استبداد سبباً فى قطع الطريق على ركب الحضارة إذ ذاك كما هو شأنه حتى الآن . على أن شغف المصريين بالعلوم وتقديرهم لها جعلهم يشعلون سراجها من جديد فى دير الأنبا مكارى (٢) الكبير ببرية شيهيت .

١٨- ولقد كان أثيناجوراس فيلسوفاً وثنياً ذائع الصيت ، دخل الأريوس باغوس بأثينا صدفة « ليتكلم أو يسمع شيئاً جديداً » (٣) ، بينما كان الاضطهاد الذى شنه الامبراطور هادريانوس ضد المسيحيين يحصد المئات منهم . وكان المجتمعون هناك يتحدثون عن « أولئك العنيدين » الذين لم

---

(١) « اكليمنضس الاسكندرى » (بالفرنسية) - الطبعة الثانية - للأبيه باردى ص٦ - ٧ حيث قال ما ترجمته : « ان جمهور المؤمنين كان يتألف من قوم بسطاء ولكن العلماء الاسكندريين قاموا بدور أعظم من دور العلماء فى أى مكان آخر » ، أى :

" La masse des fidéles y était formées de bonnes gens trés simples ... mais les savants y jouaient un role plus important que partout ailleurs " .

(٢) الاسم القبطى لأبى مقار الكبير - راجع سيرته فى هذا الكتاب .

(٣) أع١٧ : ١٦ - ٣٤ .

يثنهم الإضطهاد عن إيمانهم ودفعه الفضول إلى حضور اجتماعات هؤلاء القوم . ودخل بينما هم يحتفلون بعيد القيامة المجيدة ، فهزأ بهم . ولكن أحدهم استطاع أن يقنعه بقراءة رسائل بولس فطالعها « ليرى ماذا يقول هذا المهذار » [1] وعندما قرأ الفصل الخامس عشر من الرسالة الأولى إلى الكورنثيين أحس بالاشمئزاز وقامت فى ذهنه كل الأدلة المقاومة لفكرة القيامة . ومن ثم قرر أن ينكب على دراسة المسيحية زعمًا منه انه يستطيع التغلب عليها لتنحيتها عن الحياة بعد نقضه تعاليمها . فكان لزاماً عليه ان يمعن فى دراستها . ولكنه كان - كلما أمعن فى استشفاف تعاليمها - يحس بأنها المنهل الوحيد لارواء روحه العطشى . فتحول إليها بكل قلبه ، واحبها فتسربت إلى أعماق نفسه ، ووجد فيها الميناء الأمين بعد ان عصفت به الفلسفات القديمة . وهكذا اصبح من اكبر دعاتها ، ومن ثم صار العميد الأول للمدرسة الاسكندرية . ولما كانت المسيحية قد ملأت عليه نفسه فقد أحس برغبة ملحة فى أن يوصل إلى قلوب الآخرين ما شعر هو به من راحة وأمان . فكتب رسالة هى دفاع مجيد عنها (Apologia) ، وبفعل النعمة التى فاضت عليه وجه رسالته هذه إلى الامبراطورين ماركوس اوريليوس ولوسيوس كومودوس . وقد أجمع أولهما بين العرش والفلسفة . ولما كان اثيناجوراس يستهدف تثبيت دعامة المسيحية أمل أن يكتسب الامبراطورين إليها بهذا الدفاع . ومع انه لم يظفر باكتسابهما إلا أن كلا الامبراطورين أحس بجاذبية وعطف نحو المسيحيين كما اقتنع بأن العدالة تقتضى معاملتهم على قدم المساواة مع غير المسيحيين .

ولم يكتف اثيناجوراس بدفاعه المجيد عن المسيحية ومعتنقيها بل كتب رسالة ضافية عن قيامة الأموات تناول فيها كل الاعتراضات التى تقوم فى أذهان غير المؤمنين ضد هذه العقيدة ، وأجاب عليها فى ثقة ووضوح بأسلوب قوى رشيق ، وبخاصة لأنه اختبر معنى هذه الاعتراضات بنفسه .

---

(١) اع١٧ : ١٦ - ٣٤ .

ورسالته هى أولى الرسائل التى كتبها المسيحيون لاثبات عقيدتهم . ومنها نرى أن القيود المكبلة للفكر الانسانى قد تكسرت ، فانطلق هذا الفكر المتحرر ليتكلم لا فى صيغة الدفاع بل « كمن له سلطان » (١) ، وليحلق فى عوالم جديدة ويقتحم ميادين واسعة لم يسبق إقتحامها . ولقد نجح أثيناجوراس فى ان يربط الفلسفة إلى عجلة المسيا ويبين أن الاشارات الخفية التى بدرت من افواه بعض الكهان القدامى عن انبثاق النور قد تحققت فكانت رسالته أشبه بانبثاق الفجر تدفق بعدها النور فى الكتابات الوفيرة التى انتجها المفكرون المسيحيون من بعده (٢) .

ومن أبرز الذين تتلمذوا لأثيناجوراس واكليمنضس اللذين تعاقبا بعده على رياسة المدرسة .

ثم انتقل أثيناجوراس إلى عالم الخلود ، فتسلم يسطس رياسة المدرسة . ومن الشائع أن القديس مرقس هو الذى اشار باختياره لهذا المنصب الجليل وكان لهذا الاختيار اثر بعيد فى النفوس دفع إلى انتخابه لرياسة الكهنوت فيما بعد ، فاصبح الخليفة السادس لكاروز الديار . فلما اعتلى السدة المرقسية أسند رياسة المدرسة إلى أومانيوس الذى خلفه فى الرياسة الكهنوتية العليا أيضًا . وتلاه مريانوس فى قيادة المدرسة أولاً ثم فى كرامة الكهنوت ثانيًا . وأن تعاقب مديرى المدرسة على السدة المرقسية لأبلغ دليل على تقدير القبط للعلم والعلماء واقوى برهان على ادراكهم لضرورة مواجهة فلاسفة الوثنيين بحجة العلم ، وبخاصة لأن الصراع بين المسيحية وبين الفلسفات والعلوم الروحية القديمة كان على أشده فى الاسكندرية (٣).

---

(١) متى ٧ : ٢٩ .

(٢) « الآباء السابقون على نيقية » (بالانجليزية) لألكسندروس روبرتس وجيمس دونالدسون (الطبعة الأمريكية) جـ٢ ص١٢٥ - ١٢٧ .

(٣) عبر المؤرخ الأمريكى روبرت باين عن حدة الصراع الفكرى الذى دارت رحاه فى بلادنا بقوله :

" In Alexandria, all the cults were vying for supremacy . Here Judaism and =

١٩- وفى القرن الثانى للميلاد تولى بانتينوس رياسة المدرسة - وكانت المسيحية مذاك قد تأصلت فى النفوس ، ورسخت تعاليمها فى القلوب ، وامتدت إلى مختلف بلاد القطر المصرى . وكان بانتينوس من الرواقيين (١) قبل اعتناقه المسيحية كما كان متضلعاً فى الفلسفات المختلفة . ولتعمقه فى العلم والحكمة نال تقدير البابا الاسكندرى الذى كان الأنبا ديمتريوس إذ ذاك . وبدأ تقدير البابا له بتعيينه أولاً لرياسة المدرسة ثم انتدابه للذهاب إلى الهند ليبشر أهلها بإنجيل المسيح . واستجاب بانتينوس لهذا التقدير البابوى العظيم فأوصى تلميذه الممتاز اكليمنضس خيراً بالمدرسة ثم سافر لتأدية المهمة التى اختاره لها الأنبا ديمتريوس . وكم كان فرح بانتينوس عظيماً حين وصل إلى الهند ووجد أن أهلها قد آمنوا بالمسيح على يدى توما الرسول ، وزاد فرحه حين وجد لديهم نسخة من إنجيل متى بخط البشير نفسه . ولقد قضى بانتينوس فى تلك الربوع فترة من الزمن لا يعرف مداها بالضبط ثم عاد إلى بلاده المصرية حاملاً معه انجيل متى (٢). وذهب لفوره فزّف إلى الأنبا ديمتريوس الأخبار المفرحة التى رآها وسمعها فى بلاد الهند (٣). ثم عاود نشاطه

= Platonism, Moses, and Socrates met face to face and Christianity confronted by the disciplines accompaying those two intellectual concepts, and by a host of cults, was compelled for the first time to exercise its intellectual muscles " .

راجع كتابه « النار المقدسة » (بالانجليزية) ص٢٤ ، ويقول المؤلف فى كتابه هذا على ص١٧١ ما نصه :

" Alexandria was the nerve - centre of Christianity " .

ومعناها « كانت الاسكندرية المركز العصبى للمسيحية » .

(١) هم فلاسفة يونانيون نادوا بوجوب مواجهة الخير والشر والفرح والألم بعدم المبالاة .

(٢) أوسابيوس ك٥ ف١٠ .

(٣) كذلك زار هذا العلامة بلاد سبأ (بلاد اليمن) لتثبيت التعليم المسيحى هناك - راجع كتاب « الدرر النفيسة فى مختصر تاريخ الكنيسة » لمار اغناطيوس افرام الأول بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس ص٢١٢ .

الفكرى الروحى كمدير للمدرسة الاسكندرية . ولقد أثبت بانتينوس برجوعه المباشر إلى مصر أنه لم يكن يستهدف سوى نشر المسيحية ، فلم يحاول أن يفرض سلطة البابا الاسكندرى على الهنود بل لم يحاول أن يجعل منهم أتباعًا للكنيسة المصرية . وحين عاد وأعلم الأنبا ديمتريوس بما كان امتدحه هذا البابا الجليل على حكمة مسلكه . وفى هذا العمل دليل على أن المسئولين عن الكنيسة المصرية لم تغلب عليهم الروح الاستعمارية بل قد أقروا حق الشعوب فى أن تختار لنفسها الطريق الذى يلائمها ويتفق وتقاليدها وميولها فى عبادتها دون أن يبسطوا سلطانهم عليها أو يضعوا لها الشعائر التى يجب أن تسير بموجبها . وفى هذا المسلك المصرى الحكيم عبرة للغربيين الذين هبطوا بلادنا المصرية وغيرها من بلاد الشرق فى القرن التاسع عشر . لأن هؤلاء الغربيين جاءوا بلادنا بحجة أنهم يبغون فتح المدارس والمستوصفات . ولكنهم تذرعوا بهذه المنشآت العامة لكى يجروا الوطنيين بعيداً عن كنيستهم المصرية الأصيلة ويخضعونهم لسلطانهم الخاص . ومثل هذا العمل ليس سوى استعمار فكرى يدعمون به الاستعمار السياسى .

٢٠ - وفى تلك الآونة أدرك المسئولون فى الكنيسة أنهم فى حاجة إلى نشر الانجيل بلغتهم القومية لأن الدين - لكى يتسرب إلى أعماق النفس - يجب أن يصل إليها باللسان المعروف لديها . ومن الشائع أن بانتينوس واكليمنضس تعاونا على ترجمة الانجيل إلى اللغة الأصلية فكتباه بالقبطية - أى بالصورة التى كانت قد تطورت إليها الهيروغليفية إذ ذاك (١). والقبطية هى اللغة المصرية التى كان يكتبها القدماء بالصور والرموز مكتوبة بالحروف اليونانية مضافًا إليها سبعة حروف غير موجودة فى الأصل اليونانى .

---

(١) اكتشف الباحثون اخيراً بعض المخطوطات بالقبطية سابقة لعصر بانتينوس واكليمنضس فاستدلوا منها على أن استعمالها كان سابقاً للقرن الثانى الميلادى .

والسبب الذى دفع بقادة الفكر من المصريين إلى أن يستعملوا الحروف اليونانية هو أن اللغة اليونانية كانت لغة الثقافة إذ ذاك فكانت معروفة لدى المتعلمين منهم كما كانت شائعة الاستعمال فى المدن المصرية الكبرى . وفوق هذا فقد كانت اللغة التى سمعوا بها بشرى الخلاص لأول مرة . واستعمال المصريين للحروف اليونانية - رغم ثورتهم على الحكم اليونانى - إن دل على شئ فإنما يدل على سعة أفقهم الفكرى وعلى إدراكهم تمام الادراك أن ليس للعلم وطن . ولم تكن هذه الميزات الفكرية جديدة على المصريين فى حياتهم العامة : فقد حدث أن اخناتون (الفرعون الذى أعلن إيمانه بالله الواحد) أراد أن يقيم بين الشعوب الخاضعة له صلات من التفاهم ، ورأى أن اللغة البابلية أسهل فى كتابتها من الهيروغليفية ، فأعلن أن اللغة الدولية هى اللغة البابلية . ولم يتمسك - فى عنجهية غاشمة - بلغة بلاده المحبوبة . وفى هذا الصدد يقول دكتور جوردون المستشرق الأمريكى : « ان مصر وصلت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى ما لم تصل إليه هيئة الأمم المتحدة فى القرن العشرين بعد الميلاد ، وتبدو هذه الحقيقية لمن يعلم أن مصر نجحت فى أن تجعل للدول إذ ذاك لغة واحدة هى اللغة البابلية ولم يتمسك فى عناد بلغتها الخاصة فى حين أن الدول الكبرى فى هيئة الأمم عجزت عن الوصول إلى هذه الوحدة لاصرار كل منها على وجوب استعمال لغتها الخاصة (١).

وقد رأى المصريون - بعد ترجمة الانجيل - أن يترجموا أسفار العهد القديم إلى لغتهم أيضًا . فكانوا أول شعب نهج هذا المنهج القويم لأنهم استطاعوا - بتقديمهم الانجيل ثم باقى الكتاب المقدس مترجمًا إلى لغة مصر - استطاعوا أن يكسبوا العدد العديد من مواطنيهم إلى المسيحية لأن هذه النسخة القبطية للانجيل كانت سببًا فى تغلغل الدين المسيحى فى الحياة

---

(١) فى محاضرة له ألقاها على طلبة كلية دروبسى بفيلادلفيا يوم الأربعاء الموافق ٦ مايو سنة ١٩٥٣ .

المصرية . فاعتنقه الشعب ، وآمن به بكل ما فى قلبه من حرارة واندفاع إذ وجد فيه تحقيقاً لروح التعاليم الدينية القديمة التى كان يتطلع نحوها . ومن يقرأ النقوش المنحوتة فوق مقبرة بيتوزيريس بالهيروغليفية يجد فيها صدى لبعض الآيات الواردة فى الكتاب المقدس (١). وانه لمن الأدلة على يقظة الروح المصرية أن آباءنا كانوا أول شعب ترجم الانجيل إلى لغتهم القومية . فكانت هذه الترجمة البادرة الأولى للنزعة الوطنية الحية الكامنة فى أعماق النفوس القبطية .

٢١– ولما انتقل بانتينوس إلى دار الخلود خلفه اكليمنضس فى رياسة المدرسة . وكان اكليمنضس معلمًا بالفطرة ومما يؤثر عنه أنه كان يعتبر المسيحية أسمى فلسفة : فالفلسفات القديمة اشعاعات ، بعضها ضئيل وبعضها قوى ، أنارت السبيل أمام الانسانية المتعطشة للوصول إلى الله . والمسيحية هى الشمس الساطعة التى مهدت إليها كل هذه الاشعاعات ، وكأن هذه التعاليم القديمة كانت الفجر الذى يسبق طلوع النهار ، فهيأت القلوب لتقبل نور المسيحية . وعلى هذه النظرية كان اكليمنضس يخلب ألباب سامعيه بأن يردد التعاليم الفلسفية السحيقة فى القدم ويتدرج معهم فى سرد التطور الروحى حتى يصل بهم إلى المسيحية فيصفون إليه وقد حلقت أرواحهم معه فى الأجواء الروحية العليا (٢).

ولقد جمع اكليمنضس فى شخصه كل الصفات المميزة للمعلم الموهوب من قريحة وقادة وغيرة مشتعلة وروح وثابة ، وكان يؤمن بأن التعليم رسالة إلهية . ولهذا السبب فتح مدرسته لكل من شاء دخولها . فجاءه الرجال المتعلمون من طبقة الأشراف ، والنساء المدللات المتأنقات ، والفتيان الذين أفسدهم المال والجاه والفراغ ، والفلاسفة ، والقضاة ، واللغويون .

---

(١) « من مصر اليونانية إلى مصر القبطية » (بالفرنسية) لبيير جوجيه نشرها فى مجلة محبى الفنون القبطية العدد الأول (١٩٣٥) ص٢٣ – ٢٤ .

(٢) « اكليمنضس الاسكندرى » (بالفرنسية) لكلود مونديزر ص٣٤ ، ٣٧ – ٣٨ .

كما جاءه الشباب الساعي إلى المعرفة في جد واهتمام . وكان اكليمنضس إذا ما نظر إلى وجوه هذا الجمع الحاشد المتباين يرى خلف العيون المتطلعة إليه الروح المتعطشة إلى الله : هذه الروح التي نزل المسيح من علياء سمائه ليفتديها ويعيد الصلة بينها وبين خالقها .

وكان أحب لقب يطلقه اكليمنضس على الفادي الحبيب هو لقب «المعلم» وكان يقتفي آثار مخلصه فيعلم الوثنيين ويسير بهم في رفق وهوادة ويقنعهم بفساد معتقداتهم ورذائل عاداتهم . ثم لا يزال بهم حتى يبين لهم سمو الزواج المسيحي وعظم الواجبات الملقاة على عاتق الزوجين . وكان حديثه عذباً ولو أن عذوبته امتزجت بالصراحة القاسية . وبهذا المزيج العجيب من العذوبة والقسوة كان يصور لهم الصورة الرائعة التي هي الزواج المسيحي الحق فيستحوذ على انتباه سامعيه ويجعلهم يدركون معه مدى هذا السمو ويرتفعون عما هم فيه من ضعة وفوضى خلقية . وبهذا التدرج لم ينجح في تحويل الاسكندريين الأثرياء إلى مسيحيين فقط بل استطاع أن يجعل منهم شهداء أيضاً (١).

٢٢- وكانت القرون الثلاثة الأولى للمسيحية تمج عجيجًا بسبب الغنوسطيين . وهؤلاء الغنوسطيون كانوا مسيحيين انحدروا إلى الزعم بأنهم وصلوا إلى تمام المعرفة بمهارتهم الشخصية لا عن طريق الوحي الإلهي . ومثل هذا الزعم الفائض بالمعرفة كان بدعة في نظر الكنيسة التي تعد الله جل اسمه مصدراً لكل حكمة وعلم . فانبرى الآباء لنقض هذه البدعة ومعهم اكليمنضس وأوريجانوس . وكان دفاعهم مبنياً على أن كلمة «غنوسطية» معناها المعرفة بالأسرار الروحية . فالغنوسطي الحقيقي هو الذي يطلب الله ويسعى إلى استلهامه ويحاول سبر غور التعاليم المعلنة منه في الأسفار الإلهية . وعلى ذلك تكون الغنوسطية الأرثوذكسية مؤسسة على الكتاب المقدس ومستندة إلى التقاليد ومتفقة وتعليم الكنيسة .

---

(١) « اكليمنضس الاسكندري » (بالفرنسية) للأبيه باردي ص١١ – ١٩ .

ومثل هذه الغنوسطية تفوق الإيمان البسيط لأنها إيمان قائم على البحث والادراك[1]. وهكذا واجه الآباء الاسكندريون الغنوسطية المبتدعة بالغنوسطية الأرثوذكسية وتمكنوا من تثبيت قلوب المؤمنين على الإيمان القويم .

ولم يكتف اكليمنضس بإلقاء المحاضرات بل كتب عدة مؤلفات مستهدفاً تعليم البعيدين عنه . ولقد تغلغلت المبادئ التى أعلنتها هذه المؤلفات فى أفكار معاصريه وخلفائه وأثرت فيهم ابعد الأثر . ومما يؤسف له أن معظم هذه المؤلفات قد ضاع فلم يصلنا منها إلا النزر اليسير .

ولقد كان اكليمنضس أول من استعمل السمكة كرمز للمسيحية لأن الكلمة اليونانية للسمكة هى « ايكثوس » ، وكل حرف من حروفها هو بداية لاسم المسيح ورسالته كما يتبين من تركيبها وهو : اى - ايسوس (يسوع) ، ك - كريستوس (المسيح) ، ث - ثيئوس (الله) ، و - أوسيوس (الابن) ، س - سوتير (المخلص) .

٢٣- وان اكليمنضس كان شخصية عجيبة فى عصر عجيب : عصر استطاع الناس فيه أن يؤمنوا بالآب الشفوق رغم الاضطهادات المنصبة عليهم ، ورغم سخرية الفلاسفة وحقد الوثنيين . كما كان عصراً أوضح فيه الآباء صلة المسيحية بالحكمة القديمة فبينوا أن كل الفلسفات السابقة لم تكن سوى درجات توصل إلى المسيح .

واستمر اكليمنضس يعلم ويكتب إلى أن اندلعت نار الاضطهاد التى أشعلها سبتيموس ساويرس فأوقف كل جهود البنيان سنة ١٩٤ [2].

---

(١) شرحه ٣٠ .

(٢) هذه هى السنة تبعاً للتقويم المصرى الذى ينقص عن التقويم الغربى بثمانى سنين فتكون سنة ١٩٤ ميلادية شرقية موافقة لسنة ٢٠٢ ميلادية غربية . والتقويم المصرى هو الذى سيتبع فى هذا الكتاب .

وحين اشتد هولها اضطر اكليمنضس إلى مغادرة وطنه والالتجاء إلى آسيا الصغرى تحقيقًا لرغبة مريديه وأحبائه . ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى دار الخلود بينما كان مواطنوه لا يزالون يقاسون الأهوال من الاضطهادات وكانت المدرسة الاسكندرية إذ ذاك فى حكم المغلقة لأن النار والحديد كانت اللغة الوحيدة المتداولة . فبدا للبعض أن سلطان الظلمة سيقهر سلطان النور . ولكن الشهداء الذين واجهوا النار والحديد إنما واجهوها وهم موقنون بأن للحق لا للقوة الغلبة وأن النور لا بد ساحق الظلمة .



الأنبا ديمتريوس الكرام

٢٤- فى سنة ١٩١م كان القدر يتهيأ لتسديد ضربة إلى الكنيسة القبطية ، فقد كان السلام مستتبًا منذ استشهاد مارمرقس حتى اعتلاء الأنبا ديمتريوس الكرام السدة المرقسية . وكانت الظروف التى انتخب فيها عجيبة للغاية هى أن الأنبا يوليانوس رأى فى رؤى الليل ملاكًا وسمعه يقول له : «ان الذى سيأتيك غداً بعنقود من العنب سيخلفك» وفى اليوم التالى دخل ديمتريوس الكرام يحمل عنقوداً من العنب هو باكورة كرمه ليقدمه إلى اباه المريض . وحالما رآه الأنبا يوليانوس قال للمحيطين به : « هذا باباكم من بعدى » . وقص عليهم الحلم الذى رآه . فلما انتقل البابا الاسكندرى إلى مساكن النور اتفقت كلمة الاكليروس والشعب على انتخاب ديمتريوس راعياً أعلى لهم عملاً بوصية باباهم الراحل . وهكذا أصبح الكرام الخليفة الثانى عشر للقديس مرقس سنة ١٩١م .

٢٥- ولقد نشأ ديمتريوس بين الحقول - لا هم له إلا العناية بالكروم التى كانت لأبيه ثم آلت إليه . ولما بلغ أشده أزوجه أبواه . فخضع لإرادتهما فى الظاهر إذ لم يشأ ان يعارضهما عملاً بوصية الكتاب المقدس التى تعلن وجوب إكرام الآباء والأمهات (١). ولكنه تعاهد مع زوجته على ان يحفظ كل منهما

---

(١) اكرم اباك وامك لكى تطول ايامك على الأرض - خر٢٠ : ١٢ ، تث٥ : ١٦ .

بتولته ووافقته هى على هذا العهد فلما تمت رسامته - تحقيقاً لوصية سلفه الأنبا يوليانوس - احتج بعض الشعب على هذه الرسامة بحجة أنه رجل متزوج . وهذا الاحتجاج يبين الاتجاه الروحى الذى اتجهه القبط منذ صدر المسيحية . فالرهبنة لم تكن قد قامت بعد ، ولم يكن الأنبا أنطونى قد ولد فى العالم بعد ، ومع ذلك رأى فريق من الشعب وجوب حصر الكرسى المرقسى فى المتبتلين . ولم يبرر الأنبا ديمتريوس نفسه أمام هذه المجموعة من الناس إذ اعتقد بأن عهده مع زوجته سر يجب الاحتفاظ به . وظل على كتمانه إلى أن ظهر له ملاك الرب فى حلم ذات ليلة وأعلمه بوجوب اعلان حقيقة أمره جهاراً حتى تهدأ القلوب المضطربة . ففى اليوم التالى (وكان يوم أحد) طلب الأنبا ديمتريوس من المصلين أن يبقوا فى أماكنهم بعد الانتهاء من الصلاة . ثم أمسك بالمجمرة المتقدة ووضعها عند كمه ، وامسك بيد زوجته والمجمرة بينهما ، وطافا الكنيسة كلها امام أعين الحاضرين فلم تمسهما النار بأذى . فلما أبدوا دهشتهم لهذه الظاهرة العجيبة أعلمهم بالعهد الذى قطعه على نفسه بينه وبين زوجته ، وأن كلا منهما بتول رغم انهما زوج وزوجة أمام أعين الناس . وحين رأى المؤمنون ما رأوا وعلموا الحقيقة مجدوا الاب السماوى الذى يمنح الناس فيضًا من النعمة بهذا المقدار . وهدأت قلوب المتذمرين وامتلأت فرحاً .

٢٦- وبما أن ديمتريوس كان كرامًا فقد كان رجلاً بسيطاً لم يتلق من العلم إلا القدر الذى يمكنه من القراءة والكتابة فقط . فلما وجد نفسه بين عشية أو ضحاها خليفة لمرقس البشير قرر أن يدأب على تحصيل العلوم الدينية والمدنية ليكون أهلاً لهذه السدة المرقسية التى ذاع صيتها بفضل العلماء من أبنائها . ولفرط تواضعه كان يجلس عند قدمى مرتل الكنيسة الذى كان يتلقى العلم عنه . على أنه لم يكتف بما لقنه إياه المرتل بل تلقى العلم على أساتذة مدرسة الاسكندرية . ولرغبة الأنبا ديمتريوس الأكيدة فى أن يستكمل ما فاته من علم فى صغره استطاع أن يعوض السنين التى مرت به ، فحصل على علم غزير فى وقت قصير . حتى لقد تمكن - بما حصل عليه من علم - من أن يضع الحساب المعروف بحساب الأبقطى ، وهو

الحساب الخاص بتحديد عيد القيامة . وهذا الحساب معمول به للآن فى الكنائس الشرقية .

والصعوبة فى تحديد عيد القيامة ترجع إلى أن هذا اليوم المجيد جاء بعد فصح اليهود . فكان لزاماً على المسيحيين المحافظين أن يراعوا موعد الفصح . والفصح مرتبط بالحصاد عند اليهود عملاً بأمر الرب إلى موسى النبى (١) . هذا إلى كون السنة اليهودية سنة قمرية . فكان الحصاد هو الرابط الوحيد الذى يربط عيد الفصح بموسم معين . وهذا الربط هو السبب فى أن الفصح يقع دائماً ما بين الشهور الموافقة لشهرى أبريل ومايو (٢). غير أن هذا الترتيب لا يتفق وموسمنا فى مصر ، لأن موعد الحصاد عندنا غير موعده فى فلسطين ، لذلك رأى الأنبا ديمتريوس أن يؤلف دورة هى مزيج من الدورة الشمسية والدورة القمرية ، ويحسبها فيضبط عيد القيامة المجيدة بمقتضاها ويحدده ما بين شهرى أبريل ومايو . فلا يقع قبل الأسبوع الأول من أبريل ولا يتأخر عن الأسبوع الأول من مايو . والدورة التى جعلها الأنبا ديمتريوس قاعدة لحساب الأبقطى (أو حساب عيد القيامة) تتألف من تسع عشرة سنة شمسية - قمرية . ولما كانت السنة القمرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية كان عدد الأيام الناقصة فى تسع عشرة سنة قمرية عن العدد المماثل لها من السنوات الشمسية هو مائتين وتسعة أيام ، فوزع هذه الأيام على تسع عشرة سنة بإضافة شهر كامل كل سنتين أو ثلاث (٣).

---

(١) لاويين ٢٣ : ١٠ - ١٢ .

(٢) مما تجدر الاشارة إليه بهذه المناسبة أن اليهود كانوا إذا ما وجدوا نقصاً كبيراً فى الأيام السابقة للحصاد بسبب تناقص السنة القمرية عن السنة الشمسية - يضيفون إلى السنة شهراً . إلا أن عملهم هذا كان ارتجالياً .

(٣) أن مجمع هذا الحساب يتلخص فيما يلى : يكتب هنا الحساب الأبقطى - فيشتمل الهامش على الصفحة التالية بأكملها ونصف صفحة ٥٢ بالاضافة إلى الفقرة التى بعدها والهامش الموجود بها .

السنة الشمسية الأولى تزيد ١١ يوماً .

السنة الشمسية الثانية تزيد ١١ + ١١ = ٢٢ يوماً .

السنة الشمسية الثالثة تزيد ٢٢ + ١١ = ٣٣ يوماً .

وعلى ذلك فالسنة القمرية الثالثة تستوعب ثلاثين من هذه الأيام الثلاثة والثلاثين وتكون كبيسة - أى ذات ثلاثة عشر شهراً بدلاً من اثنى عشر ، وتبقى ثلاثة أيام تضاف إلى السنة التالية كالترتيب الآتى :

السنة الشمسية الرابعة تزيد ٣ + ١١ = ١٤ يوماً .

السنة الشمسية الخامسة تزيد ٢٥ يوماً .

ولما كان العدد ٢٥ قريبًا من الثلاثين فتكون السنة الخامسة كبيسة باقتراض خمسة أيام من السنة التالية فيكون الحساب كما يأتى :

السنة الشمسية السادسة تزيد ١١ - ٥ = ٦ أيام .

السنة الشمسية السابعة تزيد ١٧ يوماً .

السنة الشمسية الثامنة تزيد ٢٨ يوماً .

فتكون هذه السنة كبيسة باقتراض يومين مما يليها .

السنة الشمسية التاسعة تزيد ١١ - ٢ = ٩ أيام .

السنة الشمسية العاشرة تزيد ٢٠ يوماً .

السنة الشمسية الحادية عشرة تزيد ٣١ يوماً .

فتكون السنة الحادية عشرة كبيسة بزيادة يوم واحد عن المطلوب المضاف إلى السنة التالية :

السنة الثانية عشرة تزيد ١١ + ١ = ١٢ يوماً .

السنة الثالثة عشرة تزيد ٢٣ يوماً .

السنة الرابعة عشرة تزيد ٣٤ يوماً .

فتكون السنة الرابعة عشرة كبيسة بزيادة اربعة أيام عن المطلوب تضاف إلى السنة التالية :

السنة الشمسية الخامسة عشرة تزيد ١١ + ٤ = ١٥ يوماً .

السنة الشمسية السادسة عشرة تزيد ٢٦ يوماً .

فتكون هذه السنة كبيسة باقتراض أربعة أيام من السنة التالية :

السنة الشمسية السابعة عشرة تزيد ١١ – ٤ = ٧ أيام .

السنة الشمسية الثامنة عشرة تزيد ١٨ يوماً .

السنة الشمسية التاسعة عشرة تزيد ٢٩ يوماً .

فتكون السنة التاسعة عشرة كبيسة على أن يكون الشهر المضاف إليها مكونًا من تسع وعشرين يومًا فقط . وتتكرر هذه الدورة على مر الأيام والسنين فيستطيع أولو الأمر بمقتضاها تحديد عيد القيامة إلى يوم القيامة (١).

٢٧ – ولما انتهى الأنبا ديمتريوس من وضع هذا الحساب عرضه على مجمعه الاسكندرى فأقره . ثم عرضه آباء الكنيسة المصرية على مجمع نيقية (وهو المجمع المسكونى الأول) بعد ذلك بنحو قرن من الزمان ، فأقره هذا المجمع العظيم أيضاً . وسارت الكنيسة الجامعة على هذا الحساب حتى سنة ١٥٨٢م . حين أعلن غريغوريوس الثالث عشر أسقف رومية أنه لا داعى لمراعاة فصح اليهود – مع أن الصلب جاء عقب فصح اليهود حسب ما جاء فى الأناجيل الأربعة – وأنه يكفى مراعاة الاعتدال الربيعى . ومن ثم أصبحت الكنيسة الرومانية تعيّد عيد القيامة المجيدة فى الأحد الأول بعد اكتمال البدر التالى على الاعتدال الربيعى – مما يجعلهم يعيّدونه أحياناً فى أواخر مارس لكونهم لا يراعون غير الاعتدال الربيعى الذى يقع فى ٢١ مارس .

وحين انشق البروتستانت عن الكنيسة الرومانية فى القرن السادس عشر – أى فى القرن عينه الذى أعلن فيه الأسقف الرومانى اصلاحه للتقويم – حين انشق البروتستانت لم يعجبهم هذا الاصلاح ولم يسيروا بمقتضاه ، بل ظلوا يعيّدون تبعاً للتقويم الأبقطى حتى سنة ١٧٧٥م – أى انهم ظلوا مدة تقرب من القرنين من الزمان محافظين على التقويم الأصلى .

---

(١) يجدر بنا ان نذكر هنا ان هليل الثانى الذى عاش فى أواسط القرن الرابع فى مدينة طبرية راى ان يرتب لليهود الذين فى الشتات دورة شبيهة ليستطيعوا أن يعيدوا الفصح فى أوقات محددة حيثما كانوا .

وحينذاك أخذ الصراع بين الشرق والغرب يتزايد بسبب طغيان الغرب ورغبته في بسط نفوذه على الشرقيين فأدى هذا الصراع إلى أن يعيِّد البروتستانت (على اختلاف شيعهم) عيد القيامة المجيدة مع الكنيسة الرومانية . وهكذا أصبح الشرقيون يحتفلون بهذا العيد الجليل في يوم ، بينما يحتفل الغربيون في يوم آخر . ولو لم يكن الصراع القائم بين الشرق والغرب صراعاً سياسيًا محضًا ، أساسه شهوة الحكم لما انضمت الطوائف البروتستانتية إلى الكنيسة الرومانية في هذا العيد لأن المنافسة بين هذه الطوائف وبين الكنيسة التي انشقوا عليها لا تزال قائمة حتى اليوم [١] .

٢٨ – ولقد انقضت السنوات الأولى من باباوية الأنبا ديمتريوس في هدوء وسلام – شأنها في ذلك شأن السنين التي تلت استشهاد كاروز ديارنا المصرية . على أن عدو الخير لم يرقه أن تسير الكنيسة المصرية بهذا الهدوء والاستقرار فتنمو نمواً مطرداً بلا مانع ولا عائق . فاستثار الامبراطور الروماني سبتيموس ساويرس [٢] ضد مسيحي مصر . ومن ثم أعلن هذا الامبراطور اضطهاده إياهم سنة ١٩٤م . ش. وبهذا الاعلان بدد هذا الطاغية عهد السلام وافتتح عهداً من القسوة والاستبداد : إذ قاسى المصريون واحداً وعشرين اضطهاداً بعد ذلك . وظل الاضطهاد يضعف بالكنيسة المصرية على فترات متقطعة منذ أواخر هذا القرن الثاني حتى أواسط القرن السابع .

وفي هذا الإضطهاد الأول سقط عدد غير قليل من المؤمنين من بينهم ليونيداس أبو أوريجانوس . كذلك اقتحم والي الاسكندرية هو وجنده كنيسة القديس مرقس وسلب كل ما فيها من آنية ثم قبض على الأنبا ديمتريوس ونفاه إلى أوسيم [٣] حيث بقى إلى أن انتهى الإضطهاد .

---

(١) كذلك أدى اختلاف التقويم إلى أن يعيِّد الشرقيون عيد الميلاد في موعد غير موعده عند الغربيين وهناك أسباب تاريخية وسيكولوجية أيضاً لهذا الخلاف – راجع دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الرابعة عشرة) جـ٥ ص٦٤١ – ٦٦٧ .

(٢) عاش ما بين سنة ١٤٦ وسنة ٢١١م .

(٣) هي الآن قرية تقع على مسافة اثنى عشر كيلو متراً جنوبي القاهرة ، وكانت فيما مضى عاصمة لمطرانية ذات شأن عظيم .

ولما عـاد الأنبـا ديمتـريوس إلى الاسكندرية بعـد مـوت الامـبـراطور سـبتيـمـوس ساويرس وجـد أن اكليـمنضس مـدير المدرسـة الاسكندرية قـد إضطر إلى الهـرب من وجـه الطغيـان الرومـانى ، والتـجـأ إلى كبـادوكيـة حـيث انتـقـل إلى دار الخلود بعـيـداً عن وطنه . وفى تلك الفـتـرة المريرة كـان الشـاب أوريجانوس قد أبدى شـجاعة فائقة فى مواجـهة الإضطهاد الذى استشـهـد فيه أبوه : فـقـد بعث بخطاب إلى أبيه فى السـجن يشـدد عـزيمتـه ويسـتـحـثـه على ملاقاة العذاب والموت ببسالة ، كما أنه كان يزور المسجونين ويقوى قلوبهم . فلـمـا أخـذ البـابا ديمتـريوس يفكر فى من يخـتـار لإدارة المدرسـة خلفـاً لاكليـمنضس وقع اختياره على أوريـجانوس نتيجة للشهـادة التى شـهـدها له الاسكندريون بشـجـاعتـه وغـيرته وشـغـفـه بالعلم وهـكذا تسلم أوريجـانوس مقـاليد المدرسـة ولم يتجـاوز الثـامنة عشـرة مـن عمـره . فأدى واجبه خير اداء وأثبت جدارته بثقة باباه كمـا أثبت بمسلكه الحـكيم أن الحكمـة لا ترتكن على السـن ولا هـى ولـيدة الخبـرة وإنما هـى مـنحـة من الله تعـالى يمنحـهـا من يشـاء .

٢٩- ولم تكد الأمور تسـتقر وتتـخذ الحياة مـجراها الطبيـعى حتى وصل إلى مسـامع البابا الاسكندرى أن بدعة تفـشت فى بلاد العرب . وتتلخص هـذه البدعة فى أن النفس تموت بموت الجسـد . وكانت الصـلة بين هـذه البلاد وبين مصـر صلة متينة إذ كان مسـيحيوها وقتذاك خاضـعين للكرسـى الاسكندرى . وكان الأنبا ديمتريوس شغوفاً برعيتـه العربية سـاهراً على سلامتها ، وله فـى بلادها مندوبون يبعثون إليه بالرسائل الضـافية عما يحدث ليستطيع بذلك أن يعمل على مـا يعـود بالخير عليهم حتى تظـل الصـلة بينهم وبينه مـتـينـة . وتحقيقـاً لهـذا الغـرض ، وتوثيقـاً لهذه الصلـة رأى أن يتدارك الأمـر فانتدب أوريجـانوس للـذهاب إلى بلاد العـرب ليقـنع أهلهـا بفـسـاد هـذه البـدعـة [١] . وسافـر هذا المعلم الكبيـر على الفور ونجح فى نقض هذه البـدعة من أساسـهـا ثم عـاد إلى الاسكندرية ليـعـاود نشـاطـه الفكرى - الـروحى فى مدرسـتـهـا . وانقـضـت بضـع سـنوات فى هـدوء واسـتـقـرار اسـتطـاع فـيـهـا

---

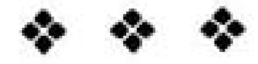
(١) « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٢٧٥ .

المسئولون فى الكنيسة أن يثبتوا المؤمنين فى الإيمان الأرثوذكسى استعداداً لما قد تأتى به الأيام من اضطهادات جديدة .

٣٠- وحدث حوالى سنة ٢١٦م أن أذن الأنبا ديمتريوس لأوريجانوس بالذهاب إلى أخائية (فى آسيا الصغرى) ليعلم أهلها . فذهب وقام بالمهمة التى عهدت إليه خير قيام . ومر بفلسطين وهو فى طريق العودة إلى وطنه فوضع عليه اليد ألكسندروس أسقف أورشليم وتيئوستيت أسقف قيسارية الكبادوك وكرساه أسقفاً ، وقد أثار هذا العمل غضب الأنبا ديمتريوس فجمع مجمعه وأصدر حرمه على أوريجانوس لسببين أولهما أن أوريجانوس اقترف ذنباً يحول بينه وبين الكرامة الكهنوتية - وهذا الذنب هو أنه خصى نفسه ، وثانيهما أن رسامة الأساقفة والكهنة المصريين من حق البابا الاسكندرى وحده (١).

٣١- ولقد بلغ الأنبا ديمتريوس الخامسة بعد المئة وظل إلى النفس الأخير مواظبًا على تعليم شعبه ، دائبًا على رعايته ليل نهار . وكما كان القديس يوحنا الرسول الحبيب فى شيخوخته يحمل على كرسى إلى الكنيسة كل أحد ليقول للشعب : « يا أولادى أحبوا بعضكم بعضاً » هكذا كان هذا البابا يحمله أخصاؤه ويذهبون به إلى الكنيسة ليؤكد للشعب وجوب المحبة والتآلف ليملأ قلوب المؤمنين ألفة وسلاماً .

وبعد أن قاد دفة الكنيسة أثنتين وثلاثين سنة وسبعة شهور ، جاهد خلالها الجهاد الحسن وتاجر بالوزنات التى أعطاه إياها سيده الإلهى ، انضم إلى أسلافه ورقد فى الرب قبل أن تندلع نار الإضطهاد التى أوقدها الامبراطور مكسيمينوس بقسوة وعنف ، فاستودع روحه يدى الآب والسلام مخيم على ربوع مصر .



(١) « الرجال العظام » (لاتينى) لايرونيموس سنة ٦٢ ، « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٣٧٦ .

أوريجانوس

(٣٢) هو لغز التاريخ الكنسى .
(٣٣) نبوغه منذ طفولته .
(٣٤) استشهاد أبيه .
(٣٥) رياسته للمدرسة وجرأته العجيبة .
(٣٦) سعة البرامج الدراسية التى وضعها .
(٣٧) الخطأ الذى وقع فيه .
(٣٨) المدرسة الاسكندرية محراب العلوم الدينية والمدنية .
(٣٩) الأساقفة والأمراء ضمن تلاميذ أوريجانوس .
(٤٠) اضطهاد كاراكلا .
(٤١) أوريجانوس فى فلسطين ثم فى بلاد العرب .
(٤٢) تفسيره المجازى للكتاب المقدس.
(٤٣) تعليم أوريجانوس يقوم على مبدأين .
(٤٤) الحكم بحرمه وأسبابه .
(٤٥) الخلاف بين البابا الاسكندرى وأوريجانوس .
(٤٦) مصالحة خليفتى الأنبا ديمتريوس لأوريجانوس .
(٤٧) نصيب أوريجانوس من اضطهاد الامبراطور دقيوس .
(٤٨) أوريجانوس بين مريديه وخصومه .

٣٢- أن أوريجانوس هو لغز التاريخ الكنسى : فما من رجل عمل ما عمله من صلاح ، وما من رجل اتهم بأنه فعل شراً هذا مقداره . وكان مجرد ذكر اسمه يثير الاخلاص فى اسمى صوره كما يثير الحقد فى أحط درجاته ، وظل مدى قرون هدفًا لأعنف المجادلات والمشاحنات . وأن هذا التناقض الغريب المحيط باسمه قد أضفى على شخصيته العجيبة ميزة لم يظفر بها سواه .

٣٣- وإذا تأملنا حياة أوريجانوس وجدنا انه كان عظيماً منذ طفولته كما شهد له بذلك أعدى أعدائه (١) ، ووجدنا أنه ضمن الرجال الذين هيأتهم العناية الإلهية للقيام برسالة سماوية ، فهو الوحيد بين الآباء الأولين الذى شاء الله

---

(١) ايرونيموس : « أدبامكيوم » رسالة ٨٤ - ٨٨ .

أن يولد من أبوين مسيحيين كما شاء أن يمنحه نعمة البنوة لأب شهيد . وهكذا رضع المبادئ المسيحية مع اللبن مما أعانه على إدراك أسرارها الصميمة . فكان وهو بعد طفل تسيطر على ذهنه رغبة فى المعرفة جامحة تدفعه إلى البحث والسؤال . فكان يلازم اباه ويستفسر منه عن الله وعن الوجود وعن الكائنات . ومما يؤثر عن ابيه أنه كان يتسلل إلى غرفة نومه ليلاً ويقبل صدره فى خشوع اعتقاداً منه انه مسكن ممتاز للروح القدس . وقد أيدت الأيام اعتقاده هذا (١) .

وكان أوريجانوس يلتهم العلوم التهاماً : فلم يلتحق بالمدرسة الاسكندرية فحسب ولكنه تتلمذ لأمونيوس السقاس أيضاً فى المدرسة الفلسفية الوثنية التى كان قد اسسها ذلك الفليسوف الوثنى سنة ١٩٣م فى الاسكندرية .

٣٤- وعندما اندلعت السنة الإضطهاد الذى اثاره سبتيموس ساويرس ١٩٤م . كان أوريجانوس قد بلغ سن المراهقة . وكان اكبر اخوته السبعة . وكان أبوه ليونيداس فى طليعة الذين قبض عليهم والى الاسكندرية وزج بهم فى السجن وقد تمنى أوريجانوس أن يلحق بأبيه ، غير ان امه حالت دون تحقيق هذه الأمنية ، فظل طيلة حياته يشتهى ان يظفر بنعمة الاستشهاد ، إلا أن العناية الإلهية قد حفظته لأعمال جليلة وجهود جبارة ثم جادت عليه فى أواخر أيامه بتجرع كأس الآلام والعذاب . أما فى هذه الفترة - فترة صباه - فقد أرسل إلى أبيه خطاباً فى السجن وختمه بعبارة مؤثرة عجيبة لصدورها من فتى مراهق وهى : « احذر يا أبى العزيز أن تجحد المخلص الحبيب رأفة بنا وعطفاً علينا » (٢) .

ولم يفزع أوريجانوس من بطش الوالى بأبيه بل اندفع بحماسة شبابه المتقد لزيارة المسجونين المحكوم عليهم لأنهم رفضوا الاذعان لقيصر معطين ولاءهم لله ، يعزى قلوبهم ويشدد عزائمهم . وكان كثيراً ما يقف على قارعة الطريق الذى سيسير عليه الشهداء فى طريقهم إلى الموت ليقبلهم القبلة الرسولية ويملأ بابتسامته الوادعة قلوبهم نشوة وسلاماً (٣) .

---

(١) أوسابيوس ك٦ ف١ .   (٢) أوسابيوس ك٦ ف٢ .

(٣) « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ص٤٤ .

ولم يكتف الوالى بقتل ليونيداس (والد أوريجانوس) بل صادر جميع أمواله مستهدفاً اخضاع أولاده لحكمه ، فأذاق الأسرة بذلك مرارة الفقر والبؤس ولكن أسرة الشهيد قبلت كارثة الفقر والبؤس مفضلة إياها على انكار المخلص الحبيب . ولقد شاء الآب السماوى فى شامل رحمته أن يهئ لهذه الأسرة الكريمة الأبية سيدة غنية من شريفات الاسكندرية عنيت بأمرها فعاونت أوريجانوس على اتمام دراساته جميعاً (١). فإزداد هذا الشاب انكباباً على الدرس ، وبدت مقدرته الفائقة فى هذه السن المبكرة بصورة عجيبة : فكان يكتفى بما يسد الرمق من الطعام ويمشى حافى القدمين وينام على الأرض . وكاد أن يقصر مطالبه على شراء الزيت لايقاد القنديل الذى يضئ له دجى الليل فيمكنه من مواصلة درسه وكتابته بينما يهجع الناس . وظل طيلة حياته يحس بأن أباه الشهيد واقف إلى جانبه يؤازره (٢) .

٣٥- وقد بلغ أوريجانوس الرجولة فى الثامنة عشرة من عمره . وكان عقله فى هذه السن المبكرة قد استوفى النضوج وفاض قلبه بالشفقة والحنان ، ورغم حداثة سنه لم يتردد الأنبا ديمتريوس البابا الاسكندرى فى أن يعينه مديراً للمدرسة اللاهوتية . فلم يلبث أن حولها إلى مدرسة شهداء . فما أكثر تلاميذه الذين دفعوا دمائهم ثمناً لايمانهم ، وكان يستصحبهم إلى المحكمة ويشدد عزائمهم ثم يلازمهم حتى موقع العذاب وهناك - وعلى مرأى من جلاديهم - كان يقبلهم قبلة السلام قبل أن يفوزوا بأكليل الشهادة (٣) . فبهرت هذه الشجاعة جمهرة الوثنيين إلى حد أنهم لم يجسروا على أن يمدوا إليه يد الاعتداء . ولكن حدث ذات يوم أن تجاسر أحدهم فألقى القبض عليه وساقه إلى السيرابيوم (معبد الإله سيرابيس) حيث حلقوا راسه على طريقة كهنتهم ، وقدموا إليه سعف النخيل ليوزعه على عبدة الأوثان الذين كانوا يسخرون منه ويهزأون به . فقبض على السعف وصرخ

---

(١) « أوريجانوس عبقرى المسيحية » (بالفرنسية) لجان دانييلو ص٢٣ .

(٢) « النار المقدسة » لروبرت باين ص٤٥ .

(٣) اوسابيوس ك٦ ف٣ ، ٤ ، ٥ ، « أوريجانوس عبقرى المسيحية » لجان دانييلو ص٢٧ .

فى وسطهم بصوت كالرعد القاصف قائلاً : « هلموا إلىّ لأقدم لكم هذه الأغصان – لا كأغصان هيكل وثنى بل باسم الرب يسوع مخلص العالم كله » .

وقد نجا من أيدى هؤلاء الطغاة بأعجوبة (١).

٣٦ – وحالما هدأت ثورة الإضطهاد اخذ فى تنظيم المدرسة الاسكندرية التى ائتمن على ادارتها . فجعل برامج الدراسة تتضمن علوم النحو والمنطق والبلاغة والحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وجعل كل هذه العلوم مقدمة لدراسة الفلسفة . فطالب تلاميذه بدراسة مختلف العلوم الفلسفية لأنه كان يدين بمبدأ بولس الرسول القائل : « افحصوا كل الأشياء وتمسكوا بأحسن ما فيها » (٢) . وكانت كل هذه الدراسات مقدمة للدراسة المثلى وهى دراسة الأسفار الإلهية ، لأن هذه الدراسات جميعاً كانت فى نظره تهدف إلى معاونة الباحث على فهم هذه العلوم المقدسة (٣) .

ولم يكتف أوريجانوس بتدريس شتى العلوم والمعارف بل كان فاتحًا أبواب مدرسته لجميع قاصديها إذ كان يعد العلم حقًا لكل طالبيه : رجالاً ونساء ، شيوخاً وشباباً ، رؤساء ومرؤوسين .

٣٧ – ومما يثير الدهش أن هذا العلامة الفذ مع كل ما أوتى من حكمة وعلم قد أخذ بحرفية الآية الانجيلية عمن خصوا انفسهم فطبقها على نفسه فعلاً ، وقد دفع ثمن هذا الخطأ غالياً بعد ذلك بسنين (٤).

٣٨ – وكان العالم الوثنى – رغم ما بذله اكليمنضس الاسكندرى من جهود – لايزال يعد المسيحية دين الجهال والعوام ولكن هذا العالم الوثنى لم يلبث أن تنبه من غفلته وفتح عينيه فى ذهول أمام المفاجئة الخاطفة وهى أن تلك المدرسة الاسكندرية الفتية قد غدت محراب العلوم الدينية والمدنية . فلم يسعه إلا أن يعبر عن اعجابه بهذه المدرسة وتقديره لمديرها الشاب الذى

---

(١) ابيفانيوس : هرطقات ٦٤ ف١ . (٢) ١ تسالونيكى ٥ : ٢١ .

(٣) « أوريجانوس عبقرى المسيحية » (بالفرنسية) لجان دانييلو ص٣٠ – ٣٣ .

(٤) متى ١٩ : ١٢ أوسابيوس ك٦ ف٨ .

كان لكلامه فى النفوس فتنة السحر ، وبلغت فصاحته أرقى العقول كما اجتذب حنانه أغلظ القلوب . وكان هذا الفيلسوف الشاب يختلف عن غيره من الفلاسفة : فقد كان فى وسعهم أن يتفوهوا بعبارات عذبة عن مبادئ مثلى ، ولكنهم لم يتخطوا هذا الحد . أما أوريجانوس فلم يقتصر على التحدث عن العدالة والمسالمة والمحبة ، ولكنه كان يعمل بها فكانت حياته خير مثل لعظاته وهذا ما مكنه من السيطرة على النفوس (١).

وقد امتاز أوريجانوس بأنه أول مسيحى امعن فى التفكير حتى بلغ فيه أبعد الحدود فتمكن بذلك من اكتساب المفكرين والفلاسفة الوثنيين ، ومن اجتذاب الطبقة الأرستقراطية إلى الديانة المسيحية لأنه كان اشبه بالدينامو الذى تتولد عنه قوة من الحرارة النارية الفائرة : فما من شخص صارع هذا الصراع الفكرى فى سبيل الوصول إلى ادراك الحقائق الخفية للمسيحية بمثل هذا العنف وهذا التصميم إذ قد تسلطت عليه شهوة جامحة لسبر غور الحقيقة . وقد جعلت منه هذه الرغبة الملحة المؤسس الفذ لدراسة الأسفار الإلهية دراسة علمية والباحث الأول الذى جعل من العقل خادماً للمسيح . وقد ثابر على هذا الصراع الفكرى بصبر عجيب لأنه كان يقول : « يجب أن نذكر دوماً اننا أولاد الله الصبور واخوة المسيح الصبور » (٢) .

٣٩- وكان كلما تقدمت الأيام بأوريجانوس اتسع نفوذه وطار صيته . فانتظم أعلم الأساقفة بين تلاميذه أمثال الكسندروس أسقف أورشليم ، وتيئوستيت أسقف قيسارية فلسطين ، كما أن فرميليانوس أسقف قيسارية الكبادوك كان يباهى بتتلمذه هو وشعبه لأوريجانوس مدى الحياة . وكانت مجامع أخائية وبلاد العرب تتخذه المرجع لها إذ كانت تعده المدافع الأول عن الإيمان الأرثوذكسى . وبين الأساقفة الذين اجتذبهم أوريجانوس إلى الأرثوذكسية بيريل أسقف بسطرة (فى ما بين النهرين) فظل حياته يعترف بجميل معلمه ويخاطبه بعبارات الاعظام والتبجيل .

---

(١) رسالتا القديس غريغوريوس التوماترغى ٩ ، ١١ ، أوسابيوس ك٦ ف٣ .

(٢) « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ، ص٤٣ ، ٦٥ .

على أن الأساقفة لم يكونوا وحدهم الذين عرفوا قدر أوريجانوس ، بل أن أمراء هذا العالم تباروا فى تقديره . فقد بعثت إليه الامبراطورة ماميا والدة الامبراطور اسكندر ساويرس تدعوه لزيارتها فى أنطاكية . فلبى الدعوة ، وقد قوبل منها ومن رجال دولتها بكل تعظيم واكبار . وكان الامبراطور فيلبس العربى وزوجته سيفيرا يعدان مكاتبة أوريجانوس لهما شرفًا عظيماً (١).

أما الفلاسفة فقد مالوا هم ايضاً إلى أوريجانوس وصاروا يعدون التتلمذ له وعبادة الإله الذى يعبده من أشرف الأمور وأنبلها لأنه اتخذ الفلسفة نفسها مطية توصله إلى معرفة الديانة المسيحية .

٤٠ – وعندما آل عرش الامبراطورية الرومانية إلى كاراكلا بعد وفاة ساويرس ، هادن هذا الامبراطور الجديد مدينة الاسكندرية اعجابًا منه بالاسكندر مؤسسها . ولكن مهادنته لها لم تدم طويلاً لأن الاسكندريين استخفوا به واحتقروه لما كان عليه من ضعف خلقى . فأراد أن ينتقم منهم ، وخدعهم بدعوتهم إلى مهرجان أقامه لهم . وما أن استقر بهم المقام حتى أشار إلى جنوده بتنفيذ خطة متفق عليها هى إعمال السيوف فى رقابهم ، فقضوا عليهم ، ثم اقتحموا الكنائس والبيوت وأهلكوا كل من وجدوه فيها .

٤١ – وفى هذه الفترة المليئة بالمخاطر خاف المصريون على حياة أوريجانوس معلمهم الكبير ، فأشاروا عليه بتلبية دعوة جاءته من تيئوستيت أسقف قيسارية فلسطين . فعمل باشارتهم وقصد إلى تلك المدينة حيث قام بتعليم أهلها . ومن فلسطين ذهب إلى بلاد العرب نزولاً على إرادة الأنبا ديمتريوس لينقض بدعة تفشت فى ربوعها مؤداها أن النفس تموت بموت الجسد . وما أن انتهى من القيام بالمهمة التى انتدب لأجلها حتى استدعاه الأنبا ديمتريوس إلى الاسكندرية لاستئناف أعماله التعليمية بها . وكانت هذه الفترة أكثر أيام حياته انتاجاً إذ قد كتب فى أثنائها معظم مؤلفاته التى بلغ عددها ستة آلاف مخطوط على ما رواه ابيفانيوس أسقف قبرص . ومن بين

---

(١) أوسابيوس ك٦ فقرات : ٣ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ايرونيموس : إعظماء الرجال ، فصل ٦ .

هذه المؤلفات التى قال عنها ايرونيموس (جيروم) : « انها لا تحصى » الكتاب المقدس الذى وضعه فى خمسين مجلداً على ثلاثة أوضاع : يشتمل الوضع الأول على أربعة جداول فى أولها الترجمة السبعينية (١) ، وفى ثانيها ترجمة أكويلا (٢) ، وفى ثالثها ترجمة سيماخوس (٣) ، وفى رابعة ترجمة ثيئودوسيون (٤). ويشتمل الوضع الثانى على ستة جداول هى الجداول الأربعة الأولى مضافاً إليها النص العبرى بحروف عبرية ، ثم نفس النص بحروف يونانية . ويشتمل الوضع الثالث على ثمانية جداول هى الجداول الستة السابقة مضافاً إليها الترجمتان اللتان عثر عليهما فى مدينتى أريحا ونيكوبوليس بفلسطين (٥) . ولقد شاعت مؤلفات أوريجانوس لأن العناية الإلهية التى كانت قد هيأت له سيدة غنية تعنى بأمره وأمر اخوته الستة عند استشهاد أبيهم فتربيهم أحسن تربية تجلت مرة أخرى فى صورة عجيبة إذ قد هيأت لأوريجانوس فى هذه الفترة صديقاً غنياً وقف جزءاً كبيراً من ماله على نشر المؤلفات الأوريجانية . فقد رأى هذا الصديق - واسمه امبروسيوس أن يصرف من جيبه الخاص مرتبات لسبعة ممن يجيدون الاختزال ليكتبوا ما يمليه عليهم أوريجانوس ، كما كان يصرف مرتبات لسبعة من الشابات اللواتى يجدن الخط ليكتبن ما أملاه أوريجانوس على المختزلين أو قد يمليه عليهن من موضوعات جديدة . وهكذا انتشرت مؤلفات هذا المعلم الاسكندرى الكبير وعمت جميع المكتبات (٦).

٤٢ - وقد اتبع أوريجانوس فى تفسيره الكتاب المقدس طريق المجاز الذى اتبعه اكليمنضس من قبل لأنه كان يؤمن بأن من تبحر فى العلوم الدينية يجب عليه أن يشق صدف الكلام ويخرج منها اللآلئ الكثيرة الثمن . وهكذا

---

(١) راجع ص٣٤ .

(٢) من أهل البنطس فى القرن الثانى للمسيحية ، وكان معاصراً للقيصر أدريانوس .

(٣) من مسيحى فلسطين وكان معاصراً للقيصر ماركوس أوريليوس .

(٤) من منتصرى أهل افسس ، قام بترجمة التوراة حوالى سنة ١٨٠م .

(٥) راجع دائرة المعارف الفرنسية الكبرى تحت كلمة « أوريجين » ، وكتاب « تاريخ الهرطقات » لألفونسيوس ماريا دى ليجورى ص٤٢ .

(٦) « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باير ص٥٩ .

كان أوريجانوس مقاوماً لليهود وللغنوسطيين الذين فسروا الكتاب تفسيراً حرفياً لا مجازياً . وقد دعاهم إلى العدول عن هذا التفسير الحرفى والاعتصام بالتفسير الروحى طالبًا إليهم أن يتجاوزوا عن المرئيات إلى ما وراءها وأن يتركوا الشريعة الموسوية - شريعة النقص - ليتصلوا بحق الانجيل - شريعة الكمال . وقد سلك أوريجانوس فى تعليمه مسلك معلمى الاسكندرية وأبائها : فقابل الغنوسطية الابتداعية بالغنوسطية الأرثوذكسية .

ومن تفسيره المجازى تعليمه أن كلمة خبزنا كفافنا (الواردة فى القبطى « خبزنا الذى للغد ») إنما تشير إلى خبز الملائكة أو الخبز الروحى النازل من السماء الواهب حياة أبدية . ومن يتناول هذا الخبز يتشدد قلبه ويصبح ابناً لله (١) أما حينما يوضح معنى : « اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا » فإنه يعلن أن هناك ديونًا علينا لأنفسنا . ولكى نستطيع أن نفى بهذه الديون يجب أن نحرص على قوانا الجسمية فلا نضيعها فى الملذات العالمية ، وذلك لنصرفها فى خدمة عقولنا وأرواحنا . وبهذه الوسيلة ننجح فى أن نشحذ قوانا الفكرية النفسية ونجعلها مسنونة مهيأة للجهاد . وما دمنا على صورة الله ومثاله فنحن مدينون بالسعى نحوه تعالى بكل قلوبنا وكل قدرتنا وكل افكارنا . ولا طريق أمامنا للسعى نحوه إلا الصلاة التى هى مجموعة من الأشياء لا تحصى : فهى السبيل للافلات من فخاخ هذا العالم ، وهى العبادة الخالصة للمولى . وفوق هذا فهى جهاد شاق يحاول به الإنسان أن يرتفع بالنفس من الأرضيات إلى السماويات .

٤٣- وكل من وقف على مؤلفات أوريجانوس يستنتج منها أنه بنى جميع ما كتب على مبداين اثنين هما : العناية الإلهية المحسنة ، والمخلوقات الحرة . فقد خلق الله الناس أحراراً ، وما نالوه من حرية عرضتهم للسقوط . والخالق سبحانه - ولو أنه يحترم هذه الحرية - إلا أنه لفرط محبته لبنى الإنسان قد هيأ لهم سبيل الخلاص فأرسل إليهم الأنبياء . وفى ملء الزمان بعث إليهم بابنه الوحيد ... وقد اقتضت عنايته الفائقة التى هيأت للآدميين

---

(١) « النار المقدسة » لروبرت باين ص٦٢ .

سبيل الخلاص أن تدع لهم حرية الاختيار لذلك يهيب أوريجانوس بالناس أن يستجيبوا لنداء المحبة الإلهية بأن يتشبه كل منهم بصانع التماثيل الذى ينحتها ويصقلها ويجملها حتى تبلغ درجة الكمال ، هكذا يجب أن ينحت الإنسان نفسه ويصقلها ويجملها إلى أن يسطع فى داخلها النور الإلهى - وبذلك تتلاقى الحرية الإنسانية والمحبة الإلهية . وكانت ثقة أوريجانوس بالمحبة الإلهية تامة إلى حد جعله يؤمن بأنه فى النهاية - بعد أن يجتذب الآب السماوى جميع خلائقه إليه تعالى سيصفح عن الشيطان نفسه ويسمح له بأن يمشى من جديد فى فردوس النعيم بين الشاروبيم والسيرافيم . وأن رؤياه للتدبير الإلهى لتخطف الأبصار بسناها وبهائها : لقد آمن بأن نعمة المسيح شملت المخلوقات جميعاً وحررتها من ربقة العبودية . فحيثما تغرب مخلوق عن الخالق هناك انتشلته نعمة المسيح الذى قدم نفسه قرباناً عن الجميع لأن محبته تفوق الإدراك وفيه يكمل الناموس والأنبياء . فالتلاميذ حين سقطوا على وجوههم على جبل التجلى (١) ثم لمسهم الكلمة المتجسد وأقامهم بقوله : « قوموا ، لا تخافوا » رفعوا أعينهم ورأوا يسوع وحده ، ولم يروا أحداً غيره - فموسى (الناموس) وإيليا (الأنبياء) قد كملوا فيه فأصبح الكل واحداً هو الكلمة المتجسد البادى أمامهم فى مجده (٢) .

٤٤- وبعد جهاد دام ثمانى وعشرين سنة كاملة كان أوريجانوس عائداً من أخائية فمر فى طريقه بفلسطين حيث رسمه ألكسندروس أسقف أورشليم وتيئوستيت أسقف قيسارية فلسطين أسقفاً إذ كانا يريان أن معلم الأساقفة لا يصح أن يكون مجرد علمانى . ولكن هذه الرسامة أغضبت ديمتريوس البابا الاسكندرى إذ عده اعتداء على سلطته فجمع مجمعه ووقع الحرم على أوريجانوس . ولا يعرف أحد للآن الباعث الأساسى لتصرف البابا ديمتريوس على هذا النحو : فهو الذى ائتمنه على إدارة المدرسة ولم يتجاوز الثامنة عشرة ، وهو الذى وثق به إلى حد أنه كان ينتدبه لنقض البدع التى

---

(١) متى ١٧ : ١ - ١٨ .

(٢) « النار المقدسة » لروبرت باين ص٥١ ، ٥٥ ، « أوريجانوس عبقرى المسيحية » (بالفرنسية) لجان دانيلو ص٤٩ ، ١٤٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٤ .

كانت تتفشى فى مختلف البلاد . فما الذى أثاره فجعله يوقع الحرم على المعلم الأول للكنيسة ؟ ان الجواب الوحيد للآن هو أن الأنبا ديمتريوس استند فى حكمه هذا إلى ما أقدم عليه أوريجانوس من خصيه نفسه .

جرى كل هذا وأوريجانوس فى طريق العودة إلى بلاده . فلما وصلها وعلم بهذا الحكم الصارم عاد أدراجه واستوطن قيسارية فلسطين حيث قضى بقية حياته وهنا تجلت العناية الإلهية مرة أخرى إذ أنشأ هناك مدرسة لاهوتية ضخمة علم فيها عدداً وفيراً من فحول أباء الكنيسة المسيحية من بينهم الأسقفان غريغوريوس التوماتورغى (صانع العجائب) وأثينادوراس أخوه [1] .

٤٥ – ومع أن أوريجانوس « جال يصنع خيراً » إلا أنه لم يتردد فى نقد الأنبا ديمتريوس نقداً حال دون عطفه عليه . ولكن ضمير أوريجانوس لم يكن مرتاحاً كما يتضح ذلك من الحادثة التاريخية الآتية :

وقف أوريجانوس ليعظ ذات يوم فى أورشليم واختار لموضوعه آية من المزمور هى : « وللشرير قال الله مالك تحدث بفرائضى وتحمل عهدى فى فمك وأنت قد أبغضت التأديب وألقيت كلامى وراء ظهرك » [2] وما أن قرأ هذه الآية حتى أحس بأن سامعيه قد استنتجوا من اختياره لها التعريض بالأنبا ديمتريوس . وعندها انهمرت الدموع من عينيه وأجهش بالبكاء والنحيب وبكى الشعب معه غير أن صيحة الضمير قد جاءت بعد فوات الفرصة لأن الأنبا ديمتريوس لم يلبث أن انتقل إلى مساكن النور قبل أن يدرى بما حدث فلم يصدر عفوه عن أوريجانوس [3].

وان اختلاف الأنبا ديمتريوس مع أوريجانوس لأشبه بالاختلاف الذى وقع بين بولس وبرنابا بشأن مرقس – لأن اختلاف الرسولين أدى إلى مجئ

---

(١) اوسابيوس ك٦ فقرات : ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ايرونيموس « عظماء الرجال » ف٥٤ ، ٦٥ .

(٢) مزمور ٥٠ : ١٦ .

(٣) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص٤١ .

مرقس الانجيلى إلى مصر ليؤسس فى وسط أرضها المذبح الذى تنبأ عنه أشعياء ، واختلاف البابا الاسكندرى مع أوريجانوس أدى إلى انشاء مدرسة لاهوتية ضخمة فى قيسارية فلسطين كانت الباب الذى دخل منه العدد العديد إلى معرفة حق الانجيل . إلا أن اللّه تعالى أمد فى حياة بولس فرأى ثمرة جهاد مرقس ولكنه لم يمهل البابا الاسكندرى ليرى ثمرة جهاد أوريجانوس .

٤٦- غير أن خليفتى الأنبا ديمتريوس وهما الأنبا ياروكلاس والأنبا ديونيسيوس اللذان كانا قد تتلمذا لأوريجانوس قد قاما بهذه المصالحة وابديا له تقديرهما بأن رفعا عنه الحرم ، كما بعثا إليه برسالتين يلحان عليه فيهما بالعودة إلى وطنه لاستئناف عمله الجليل فى مدرسة الاسكندرية ولكنه آثر البقاء فى قيسارية فلسطين ليتم ما بدأه فيها من تعليم وتبشير . لأن الرسالة الانجيلية كانت شغله الشاغل فقضى فيها الثلاث والعشرين سنة التى عاشها بعيداً عن وطنه . وقد جاب فى غضونها مدن فلسطين وفينيقية والأقطار اليونانية والعربية ، مثبتًا المسيحيين فى الإيمان الأرثوذكس ومجتذباً إلى المسيحية من كانوا لا يزالون بعيدين عنها (١).

٤٧- وفى تلك الآونة انشغل أوريجانوس بوضع مؤلف ضخم فند فيه كتاباً كان قد نشره كلسوس الفيلسوف الوثنى ضد المسيحية . وقد أعلن أوريجانوس فى رده هذا - بشئ من الزهو - أن أثر الانجيل فى النفوس واحد : فهو يقوّم الشخصية ، ويسمو بالأخلاق ، ومنه تنبع قوة داخل القلب تمكنه من مواجهة الإضطهادات مهما قست بثقة وهدوء . ومثل هذه القوى تفوق المقدرة البشرية فمرجعها من غير شك إلى جاذبية الفادى الحبيب الذى استخرج أسمى ما فى النفس الإنسانية بمحبته الإلهية . ولقد أثبتت الإضطهادات العنيفة صحة ما زها به أوريجانوس إذ قابل الشهداء كل ما أصابهم برضى وثبات . ولقد كان رده فصل الخطاب لأنه كان قد نجح فى استيعاب العقيدة المسيحية حتى أصبحت القوة الدافعة لكل أعماله وتصرفاته . وان حياته لأكبر شاهد على ذلك : فقد اشتهى الاستشهاد وهو

---

(١) « تصويب الافتنان العلمى لأوريجانوس » للمنسنيور كيرلس مقار جـ١ ص١٢ .

بعد فتى يافع ، وفى منتصف حياته كتب رسالة عن الاستشهاد تفيض غيرة وحماسة ، ثم قدم فى آخر حياته أروع الأمثلة للاحتمال إذ قابل العذاب والأهوال بعزم لا يلين . وهذه الحياة التى عاشها أوريجانوس كانت أقوى من أى دليل ساقه فى كتاباته مع ما اتصفت به هذه الكتابات من منطق سليم (١).

ولم يكد أوريجانوس ينتهى من هذا المؤلف العظيم الذى فند به تعاليم كلسوس حتى كان الامبراطور فيلبس العربى قد انتقل إلى عالم الأرواح فخلفه دقيوس الذى ما أن اعتلى عرش المملكة حتى أثار على المسيحيين اضطهاداً يختلف عما سبقه من اضطهادات فى أنه كان يهدف إلى التعذيب والتنكيل فقط لا إلى القتل . لذلك كان يأمر جنوده باستعمال أقسى آلات التعذيب حتى إذا ما قارب المسيحيون الموت كف المعذبون عن عملهم الجهنمى وألقوا بفريستهم إلى السجن ثم عاودوا وحشيتهم بعد يوم أو أكثر حين تكون حدة الألم قد خفت قليلاً . وكان الغرض الذى يستهدفه هذا العاتى دقيوس من وراء هذا التعذيب المتكرر هو أن يضعف الروح المعنوى فى المسيحيين فينكرون إيمانهم فراراً من الآلام التى كان لا يفتأ يصبها عليهم . ولقد تمادى فى تعذيب المسيحيين فقبض على زعمائهم وزج بهم فى السجن حيث ذاقوا من العذاب ألواناً . وهو يرجو من وراء ذلك أن يستدرج الجماهير إلى الجحود إن هى رأت الضعف فى رؤسائها . وتنفيذاً لهذه الخطة الجهنمية لم يتورع عن القبض على أوريجانوس رغم بلوغه الخامسة والستين من العمر ، وطرحه فى السجن حيث طوقوا عنقه بقضيب من حديد وغللوا يديه ورجليه بالسلاسل ، وساموه العذاب وهم يأملون من وراء ذلك أن يدفعوه إلى إنكار إيمانه فيسقط الكثيرون من المسيحيين بسقوطه ولكن ذلك الشيخ الذى تجلت بطولته فى صباه أيام استشهاد أبيه لم يكن بالرجل الذى ينكر إيماناً ضحى فى سبيل خدمته ما ينيف على أربعين سنة . ولقد كان أوريجانوس مدى حياته يتوق إلى الفوز بأكليل الشهادة ، ولكن العناية الإلهية حفظته لهذه المحنة الخطيرة لتبين للعالم فضيلة الثبات التى امتاز بها . وهذه المحنة التى توجت

---

(١) « خلاصة لفكر اوريجانوس » (بالفرنسية) لأوجين دى فاى ص١٥٤ - ١٥٧ .

حياة ذلك العلامة قد زادت اسمه بهاء إذ ختمته بخاتم مثلث : خاتم العبقرية وخاتم القداسة وخاتم الشهادة بغير سفك دم .

وفى هذه المحنة العصيبة شعر البابا الاسكندرى العظيم الأنبا ديونيسيوس (البابا الاسكندرى الـ ١٤) بأن الواجب يحتم عليه أن يقوم نحو أوريجانوس أبيه الروحى بما قام به أوريجانوس نحو ليونيداس أبيه الجسدى ، فبعث إليه برسالة فى الاستشهاد . ومما زاد فى هذه الرسالة معنى وسمواً أن البابا الاسكندرى كان منفيًا وقتذاك من أجل الإيمان وبعث برسالة إلى أوريجانوس من المنفى (١) .

ولقد دام اضطهاد المسيحيين طيلة حكم داقيوس . ولم يفرج عن أوريجانوس إلا بعد موت هذا الطاغية فعاود جهاده العظيم بذات القوة التى بدأه بها . غير أن ما عاناه من مرير العذاب ، وما كابده من مضنى الأتعاب وطويل السهر ، استنفدت قواه وأثرت فى صحته تأثيراً قضى عليه فانتقل من دار الشقاء إلى دار النعيم . وكانت مدينة صور خاتمة مطافه ومقره الأخير فى هذا العالم . وقد ورى جثمانه الطاهر فى الكنيسة المعروفة باسم « القبر المقدس » وحينما بلغ الأنبا ديونيسيوس هذا النبأ المفجع - نبأ موت أوريجانوس - كتب مرثية تجيش بالود والتقدير نحو معلمه الذى أحبه حباً جماً (٢).

وقد روى غليوم أسقف صور بأن قبر أوريجانوس المقام بازاء المذبح فى تلك الكنيسة العظيمة - كان حتى القرن الثالث عشر - مزاراً يحج إليه المسيحيون من مختلف البلاد (٣).

٤٨- ولأن أوريجانوس كان شخصية عجيبة فقد كان موضع نقاش فى حياته وبعد مماته . إلا أن أصدقاءه وخصومه قد اعترفوا جميعًا بما كان له

---

(١) « أوريجانوس » (بالفرنسية) لفريبيل جـ٢ ص٤١٤ ، ٤١٥ .

(٢) سيأتى الحديث عن تفاصيل هذه الرسالة فى سيرة الأنبا ديونيسيوس .

(٣) « فينتشتزى » (بالايطالية) جـ٤ ص٤٢١ - ٤٢٢ ، « تصويب الافتتان العلمى لأوريجانوس » (بالفرنسية) للمنسنيور كيرلس مقار جـ١ ص١٣ - ١٤ .

من أثر بعيد المدى لا فى أثناء حياته فحسب بل وبعد مماته أيضاً . وكان القرنان الثالث والرابع يفيضان بتلاميذه ، ومن أبرزهم : أوسابيوس القيسارى أبو التاريخ الكنسى ، وديديموس الضرير العلامة البصير الذى حمل رسالة أوريجانوس الفكرية الروحية وضمنها مؤلفاته ليتناقلها الخلف عن السلف ، بمفيليوس أحد قساوسة قيسارية فلسطين الذى دفعه ولعه بالكتب المقدسة إلى أن ينسخها بيده - فنسخ معظم كتب أوريجانوس وكان يعدها أعظم من كنوز الملك قارون حتى أنه كان يقول : « إذا كان الحصول على خطاب من أحد الشهداء متعة روحية عظمى فكم تكون عظمة المتعة الروحية التى تروى ظمأ النفس المتعطشة لله متى حصلت على آلاف السطور التى يكتبها أوريجانوس بقلمه فحسب وإنما كتبها من عصارة فكره وقلبه أيضاً » (١) . غريغوريوس صانع العجائب الذى لم يكتف بحمل التراث الأوريجانى الفكرى لنفسه بل أوصله إلى الكبادوكيين ، باسيليوس الكبير كاتب القداس وأخوه الروحى غريغوريوس النزينزى اللذان بعد أن تعمقا فى دراسة مؤلفات أوريجانوس اقتبسا منها الشئ الكثير وضعاه فى كتاب لتعليم النشء أسمياه « فيلوكاليا » ، غريغوريوس اسقف نيصص (أخو باسيليوس الكبير بالجسد) الذى استوعب تعاليمه الروحية التصوفية وأعلنها للملأ ، ايفاجريوس البنطى أحد المتأملين فى الإلهيات الذى أعلم كاسيانوس بتعاليم أوريجانوس فنشرها هذا بدوره بين الآباء الغربيين - وبين هؤلاء الغربيين روفينوس الأكويلى الذى أخذ على عاتقه نشر تعاليم أوريجانوس بين قومه . أما ايرونيموس فقد قال فى « ترجمته اللاتينية لكتاب « الروح القدس » الذى وضعه ديديموس الضرير مدير المدرسة الاسكندرية : « ان فلسفة أمبروزيوس اسقف ميلان وأغسطينوس (كبير معلمى الكنيسة اللاتينية) لم تكن إلا مقتبسة من التعاليم المجيدة التى نادى بها أوريجانوس الفيلسوف الاسكندرى الكبير » .

ومن أبدع ما كتبه انسان عن آخر تلك الكلمات التى قالها غريغوريوس صانع العجائب يصف ما أحس به حين وقعت عيناه على أوريجانوس لأول

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى ، جـ٢ ص٢٣٦ - ٢٣٧ .

مرة وهى : « لقد خيل لى أن جمرة نار قد وقعت على نفسى فأشعلتها وألهبتها بالمحبة الجياشة للكتب المقدسة ولهذا الرجل المفسر لها . ولقد اتقدت هذه الجمرة إلى شعلة فى داخلى حتى لقد أنستنى كل ما كان يهمنى فى ما مضى فلم أعد أعبأ بدراساتى السابقة ولا بالقانون الذى كنت شغوفاً به ، بل لقد نسيت بلادى وأقاربى والسبب الذى لأجله جئت إلى قيسارية والغرض من أسفارى » (١).

يضاف إلى هؤلاء الفحول الآلاف من الناس الذين تتلمذوا لمؤلفات أوريجانوس على ممر العصور ، ومازال له فى هذا العصر أنصار ومريدون . على أنه ليس بين الكتاب العصريين من استطاع أن يحلل تلك الشخصية العجيبة لأن كلا منهم استهدف تحديد مجهوداته رغم سعتها ، فهو معلم ومفسر للتعاليم الإلهية ، ومجاهد مسيحى ، وفيلسوف ممتاز ، وروحانى عظيم – وصفوة القول أنه عبقرى فريد له فى نواحى الفكر النصيب الأوفى إذ أنه أول من وضع الأسس التى قام عليها تفسير الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وأول من عنى بكشف غوامض الأسرار المسيحية ، وأول من مهد الطريق أمام كل من يريد أن يسمو إلى ادراك العزة الإلهية (٢).

وإن شخصية بلغت هذا التفوق لابد أن تستثير المحبة والكراهية معاً – فليس بغريب أن تثار حولها المناقشات العنيفة . ولقد تألب الحسد والسياسة والسذاجة جميعًا على أوريجانوس وتآمروا على مناوأته . لهذا نجد بين آلاف المعجبين به من شذ على هذا الاعجاب فحاول الحط من مكانته بتشويه مؤلفاته .

وأول من كتب ضد أوريجانوس ميثوديوس أسقف أولمبيا (٣). غير أن سقراط المؤرخ الكنسى أثبت فى تاريخه أن ميثوديوس – فى آخر أيامه –

---

(١) مرثية غريغوريوس / ٦ .

(٢) « أوريجانوس عبقرى المسيحية » (بالفرنسية) لجان دانييلو ص٧ – ٨ .

(٣) هى ميناء فى اقليم كيليكيا بآسيا الصغرى .

ادرك خطأه فى اضمار العداوة لأوريجانوس فوضع كتاباً ذكر فيه اسم خصمه بكل وقار واعجاب (١) .

أما الخصم الثانى لأوريجانوس فهو أبيفانيوس أسقف سلامين بقبرص وليس من شك فى ارثوذكسية هذا الأسقف وفى غيرته ، إلا أنه رغم هاتين الصفتين كان ساذجًا إلى حد بعيد فردد كل الانتقادات التى سمعها عن الفيلسوف الاسكندرى من غير تمحيص (٢).

والخصم الثالث هو الأنبا ثيئوفيلس البابا الاسكندرى الثالث والعشرون - كان فى بادئ الأمر من اشد انصار أوريجانوس ومن اكبر المعجبين به . وكان مشاركاً الأخوة الطوال (٣) فى مخاصمة ابيفانيوس لاعتباره أوريجانوس مبتدعًا فى الدين . غير أن ثيئوفيلس - لما وقع الخلاف بينه وبين هؤلاء الاخوة - غيّر معتقده فى أوريجانوس فحرمه وحرمهم . ولقد توجه الاخوة الطوال بعد ذلك إلى القسطنطينية حيث رفعوا امرهم إلى أسقفها يوحنا ذهبى الفم الذى بعد أن فحص دعواهم وثبتت له صحة عقيدتهم قبلهم فى شركته . ونظراً لما كان بين ذهبى الفم وبين ثيئوفيلس من العداوة القديمة انتهز هذا الأخير تلك الفرصة فعقد مجمعاً فى البلوطة سنة ٤٠٣م حرمه فيه بعد أن اتهمه بالأوريجانية .

والأوريجانية التى حرم بسببها ذهبى الفم ابتداع وهمى يتذرع به ذوو الأغراض لتنفيذ اغراضهم ، بدليل أنه لما نفى ذهبى الفم عاد ثيئوفيلس فتمسك بالآراء التى كان قد وصفها بالأوريجانية ، فصالح اوسابيوس وانثيموس (وهما من الأخوة الطوال) وسعى فى تحسين سمعة الأخوين الآخرين ديسقورس وأمونيوس اللذين كانا قد توفيا قبل ذلك بزمن يسير . ولما ابدى بعض أصدقاء البابا ثيئوفيلس دهشتهم من تصرفه

---

(١) سقراط ك٤ ف١٣ .

(٢) « أخبار القديسين » لمكسيموس مظلوم جـ٢ ص٦٥ ، دائرة المعارف الفرنسية تحت اسم « ابيفانيوس » .

(٣) راجع ما جاء عنهم فى ف٤٦١ .

هـذا اجـاب انـه يعـرف كيف يقطف الـورد مـن بين الأشـواك (١).

اما الخصم الرابع والأخير فهو ايرونيموس (جيروم) - وهو ايضاً كان من المعجبين بأوريجانوس ولكنه تحول عن هذا الاعجاب بسبب منازعاته مع روفينوس الأكويلي . ويكفى هنا ذكر كلماته عن صاحب الترجمة قبل أن يحمل عليه حقداً حيث قال : « لم يكن اوريجانوس مجرد كاتب عذب المشرب ، او مجرد مؤلف تفوق على اقرانه ، بل كان - بلا جدال - المعلم الأول لجميع الكنائس بعد الرسل . ولا ريب فى أن آراءه إنما تعبر عن الأرثوذكسية التى لم يشبها ضلال أما الذين ألهب الحسد قلوبهم فاتهموه بالابتداع فإن هم إلا كلاب كلبة » (٢) .

وإننا لو وازنا بين خصوم أوريجانوس واصدقائه لخرجنا بنتيجة هى أن جميع اصدقائه كانوا من فطاحل آباء الكنيسة الذين رفعوا لواء الأرثوذكسية عاليًا . وكفى دليلاً على ذلك أن يكون بينهم اثناسيوس (البابا الاسكندرى الـ٢٠) الذى اطلقت عليه الكنيسة لقب « رسولى » نظراً لجهاده الذى شابه جهاد الرسل . فلم يكتف هذا البابا الاسكندرى الجليل بالمصادقة على كل ما كتبه اوريجانوس ، ولكنه استعان بمؤلفاته فى مجمع نيقية لتدعيم دستور الإيمان الذى وضعه ذلك المجمع المسكونى المقدس (٣) فهو قد ساق إلى آباء هذا المجمع المسكونى امثلة عديدة من اقوال أوريجانوس هذه احداها : « لما كان الله تعالى غير مرئى كانت صورته غير مرئية ايضاً » ولأن « الله لم يره أحد

---

(١) « تصويب الافتنان العلمى لأوريجانوس » (بالفرنسية) للمنسنيور كيرلس مقار جـ١ ص٢٣ - ٢٥ .

(٢) شرحه جـ١ ص٢٠ حيث يقول فى الهامش ما نصه :

Origéne est condamné par Démétrius non pas qu'on l'accusat d'enseigner de nouveaux dogmes ou d'avancer une hérésie, comme feignent de le dire à présent les chiens furieux qui aboient contre lui, mais parce qu'on ne pouvait supporter l'éclat de sa parole et de sa science lorsqu'il parlait, il semblait, que tous les autres fussent muets " (Paroles de Saint Gérome, citées par Rufin, adversus Hieronymum livre II, 20) .

(٣) شرحه جـ١ ص٤٦ .

قط فإن الإبن الذى هو فى حضن أبيه هو خبر » (١) لأنه حين شاء جل اسمه أن يعلن ذاته للناس رأى أن يقدم لهم هذا الاستعلان فى شكل مرئى لكى يدركوه ، وهكذا تجسد الإبن الكلمة فتقدم إلى الناس فى صورة مرئية لله غير المرئى . وانى لأجرؤ على القول بأنه مادام الإبن صورة للآب فلم يمر عليه حين من الدهر لم يكن فيه إذ هو ازلى كالآب تماماً . لأنه متى كان الله (الذى يدعوه يوحنا بالنور) من غير بهاء مجده حتى يتجاسر إنسان أن يقول ان للإبن بداية كأنه قد مر عليه حين من الدهر لم يكن فيه ؟ ثم متى كان هذا الحين الذى لم توجد فيه صورة الآب غير المدرك غير الموصوف غير المستحيل ؟ وكيف يمكن أن لا تكون الصورة وهى الختم والكلمة الذى هو وحده يعرف الآب ؟ فليعلم كل من يجسر على القول : لقد مر حين من الدهر لم يكن فيه الإبن أنه بقوله هذا إنما يقول : مرّ حين لم تكن فيه الحكمة ولم يكن فيه الكلمة ولم تكن فيه الحياة » (٢) .

وينضم إلى البابا الاسكندرى الجليل البطريرك القسطنطينى القديس يوحنا الذى أطلقت عليه الكنيسة لقب « كريزوستوموس » (الذهبى الفم) والذى تتلمذ لمؤلفات أوريجانوس العظيم .

وليس ذلك فحسب بل أن الكنيسة حتى الآن تعمل بارشاداته فيما يتعلق بالصلاة فهو الذى قال بأن الناس يجب أن يصلوا وهم وقوف رافعين أعينهم وأياديهم إلى العلا ومتجهين نحو الشرق حيث بزغت شمس البر . لأن الإنسان حين يصلى يتجه بروحه نحو السماء - أى نحو العلا - كذلك أمن أوريجانوس بأن الكلمات الصادرة عن القديسين فى صلواتهم مشحونة قوة عظيمة خصوصاً وأنهم يصلون بالروح وبالفهم . وهذه القوة شبيهة بالنور المنبعث من داخلهم ، وحين تظفر من شفاههم هذه الصلوات تدعمها نعمة الله على الفور فتفيض عليها قوة تمكنها من سحق الأفكار الشريرة . لهذا وجب على أبناء الله أن يطلبوا فى صلواتهم الحكمة والجمال الروحى ،

---

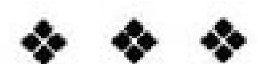
(١) يو ١ : ١٨ .

(٢) « منتخبات من مقالات القديس أثناسيوس فى مجادلته الأريوسيين » ترجمه إلى الانجليزية عن الأصول اليونانية كاردينال نيومان ، جـ١ ص٤٨ .

ونصيحته هي : « حينما ترى النفس البشرية - حتى وهي بعد مسجونة في الجسد - جموع الملائكة ورؤساء الملائكة والكراسي والربوبيات والسلاطين ، وتدرك خلال هذه الرؤيا أن في إمكانها أن تنال كرامة من الله مماثلة لكرامة هذه القوات السمائية ، حينذاك ستحتقر كل الأمجاد العالمية التي يسعى نحوها الحمقى . لذلك يجب أن نطلب الأمجاد الحقيقية التي هي أمجاد السماء ... » .

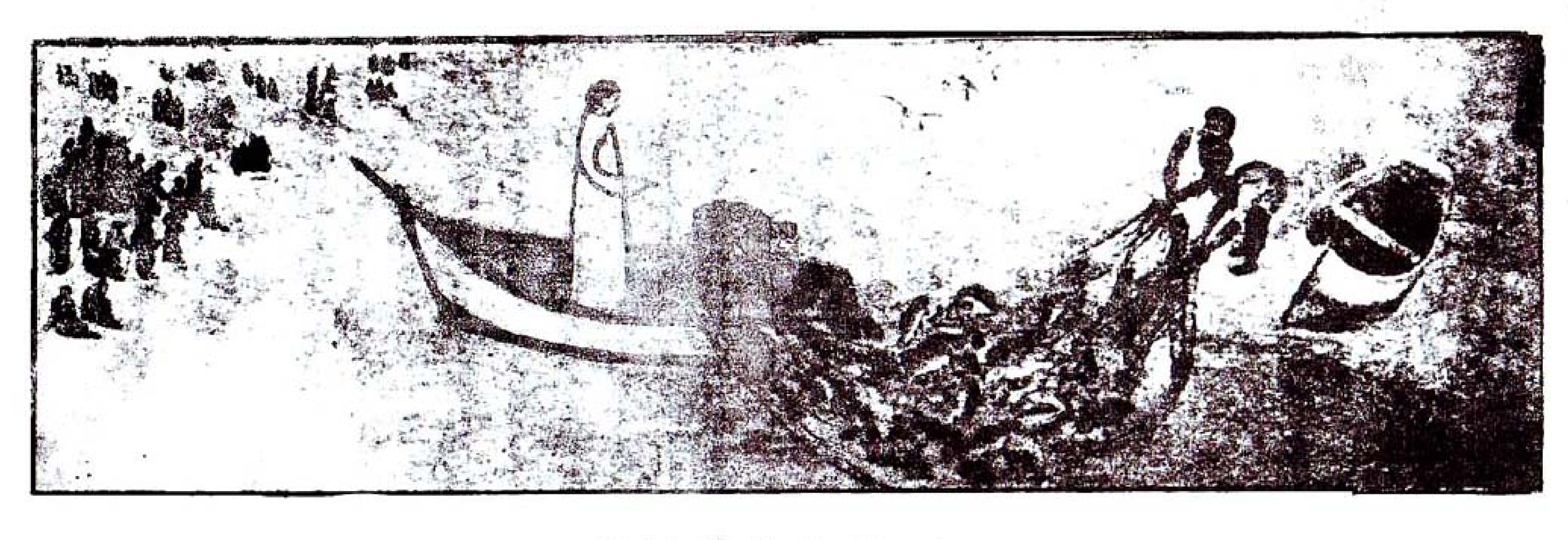
أما الاستشهاد فكان أوريجانوس يعده أقدس واجب موضوع على المسيحي ... فالشهداء هم الصفوة المختارة وهم الذين سيجلسون إلى جانب الله تعالى حول عرشه ، ولا شيء من الدينونة عليهم إذ قد دفعوا دماءهم ثمنًا للعفو الذي نالوه والذي في امكانهم أن يمنحوه لغيرهم ... فمن المستحسن أن يذكر كل منا كم من المرات حفظنا الله من الموت فنسائل أنفسنا « ألا يكون الله قد حفظنا لنؤدي خدمة أعظم ؟ » (١) .

وان من يمعن التأمل في حياة أوريجانوس يجد أنها تتلخص في انه رأى نور المسيح مواجهة فعكس هذا النور البهي الخاطف على اخوته في البشرية واندفع ببريق هذا النور نحو بلوغ الكمال المسيحي .



---

(١) « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ، ص٦١ - ٦٥ .



« ابعدوا إلى العمق وألقوا شباككم »
(لوقا ٥ : ٤)

نفس وادعــة

(٤٩) ياروكلاس فيلسوف وخطيب .
(٥٠) اتساع نطاق المسيحية .
(٥١) خطاب البــابا الاسكندري إلى أوريجانوس .
(٥٢) تجدد الاضطهاد .
(٥٣) عـودة السـلام ونيـاحـة الأنبـا ياروكلاس .

٤٩- كان ياروكلاس معلمًا معروفاً للكنيسة الاسكندرية ومـدرستها فى أيام الأنبـا ديمتـريوس . وقـد ولد من أبوين وثنيين ، ثم اعـتنق المسـيحـيـة فى صـباه كـمـا اعـتنقـهـا أبواه . فـأرسـلاه إلى المدرســة الاسكندرية حـيث تـتلمـذ للعلامة أوريجانوس وكـان شـغـوفاً بالعلم منـصـباً على تحـصـيله إلى حـد لفت مـعـه انتـبـاه أوريـجـانـوس الذى حين اتسـع نطاق مـدرسـتـه إلى أبعـد مما كـان يتـوقعـه لم يجد مـن يختـاره ليعـاونه على نشـر الدعوة الروحـيـة الفكرية التى لمدرسة الاسكندرية غير ياروكلاس ، إذ أنه لم يكن متضلعاً فى الأسفار الإلهية فحـسب بل كان متـعمقـاً فى كل العلوم الفلسـفـيـة والتأمـلات فى ما وراء المادة التى كان رجـال الفكر متشـاغلين بها فى ذلك العصـر . ومثل هذا الاختـيار هـو فى حـد ذاته شـهـادة عظمى لشـخـصـيـة ياروكـلاس [١] الذى لم يفـز بتـقـدير أوريجانـوس فـحـسب بل فـاز أيضاً بتـقدير الأنبـا ديمتريوس البـابا الاسكندرى فرسمه قسـيساً فقمصاً ثم أقامه مديراً للمـدرسة بعد رحيل أوريجانوس إلى قيسارية . ولـم يكن ياروكـلاس فيلسـوفاً مـتعمـقاً فى دراسـة شتى الفلسـفات فحسب بل كان خطـيباً مفوهاً أيضاً . فرأى الأنبـا ديمتريوس أن يهئ للشعب فـرصـة الانتـفـاع بهـذه الموهـبـة فـعـينه واعظاً للكنيـسـة المرقـسـيـة كى يحظى بالاصـغاء إليـه كل الذين لا يسـمـعون مـحـاضـراته فى المدرسـة . ولقـد أثر هذا التـقـدير البـابوى فى نفس ياروكـلاس إلى حـد بعـيـد فـواظب على ارشـاد المؤمنين وتعليمهـم . وكان لعذوبة حديثه وقـوة حجته وانسـيـاب منطقه تأثير عميق فى النفوس حتى لقد اكتسب عدداً كبيراً من الوثنيين للمسيحية . فلما

---

(١) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ٢ ص١٩٧ .

انتقل الأنبا ديمتريوس إلى بيعة الأبكار أجمع الاكليروس والشعب فى اتفاق روحى على انتخاب ياروكلاس خليفة له سنة ٢٢٤م . ش .

٥٠ - ولقد أحس الأنبا ياروكلاس بأن الكرامة العظمى التى نالها تحتم عليه حماية شعبه ورعايته - هذا الشعب الذى استبد به الطغاة واضطهدوه . فقام برحلة راعوية طاف خلالها انحاء القطر المصرى . فكانت هذه الزيارة نعمة عظيمة ملأت قلوب المؤمنين عزاء وطمأنينة . فالتف الشعب كله حول باباه فى ولاء وتقدير عظيمين [١] . ومن هذه البركات التى نتجت عن هذه الزيارة أن الأنبا ياروكلاس قام خلالها برسامة عشرين أسقفاً . وهذه الحقيقة - فى حد ذاتها - تكفى لأن تملأ قلب كل قبطى فرحاً ممزوجاً بالزهو : لأنها صورة لما تجمل به اجدادهم من بسالة . فلقد ابدى فلاسفة الوثنيين استخفافهم بالمسيحيين جهاراً ، كما استبد الأباطرة بهم وأذاقوهم من العذاب الواناً ، فلم يثبط الاستخفاف عزيمتهم ولا راعهم الاستبداد - بل زادهم عدداً وعزيمة فتزايد عدد المؤمنين إلى حد شعر معه الأنبا ياروكلاس بضرورة رسامة عشرين اسقفاً جديداً وتمت رسامتهم بالفعل . وفى هذا ابلغ دليل على أن عدد المسيحيين كان فى زيادة مطردة رغم الأهوال والويلات التى كانوا يسامونها ، فاثبتوا للملأ أن دم الشهداء كان للقلوب نعمة ، فاضت فزادتها نماء وازدهاراً حتى اتت بثلاثين وستين ومئة من الثمار الشهية .

٥١ - ولما عاد خليفة مارمرقس إلى عاصمة كرسيه ارسل خطاباً إلى أوريجانوس فى قيسارية فلسطين يرفع عنه الحرم الذى وقعه عليه المطوّب

---

(١) ولقد كانت عظمة التقدير الشعبى للأنبا ياروكلاس سبباً فى ان يزعم سعيد بن بطريق (المعروف بافتيخوس) والذى عاش فى القرن الميلادى العاشر) بانه اول أسقف من أساقفة الاسكندرية نال لقب « بابا » على ان الواقع أن هذا اللقب اطلق على خلفاء مارمرقس ابتداء من انيانوس كما يتضح من المخطوطات القبطية القديمة وقد شهد بذلك المقريزى فى كتابه « القول الابريزى » ص٢٢ حيث قال : « كان بطريرك الاسكندرية يقال له « بابا » من عهد انيانوس ... وكانوا يحتفظون بلقب « بابا » لبطرك الاسكندرية ومعناه « ابو الآباء » ثم استعمل هذا اللقب فى ما بعد لأسقف رومية » . راجع أيضاً الفصل الخاص بالكرسى الاسكندرية ص٢١ - ٢٢ من هذا الكتاب ، و « مجانى الأدب » جمعه ونقحه الأب لويس شيخو اليسوعى طبع فى بيروت سنة ١٩٣٩ جـ١ ص٢٠٢ - ٢٠٣ .

الذكر الأنبا ديمتريوس ويرجو منه أن يعود إلى الاسكندرية ليعاود فيها جهاده الفكرى - الروحى . وكان الباعث على هذا الخطاب أن الأنبا ياروكلاس كان يبغى توسيع نطاق البحث العلمى وتوطيد الإيمان على أسس ثابتة من المعرفة . غير أن أوريجانوس بعث يقول لباباه الجليل أن مدرسة الاسكندرية قد استتب أمرها وذاع صيتها وفاض أساتذتها وكثر طلابها ، بينما المدرسة اللاهوتية التى افتتحها فى قيسارية فلسطين لا تزال فى المهد تحتاج لمزيد من الرعاية . فهو - والحالة هذه - يفضل البقاء حيث هو على العودة إلى بلاده. فاقتنع الأنبا ياروكلاس بهذا المنطق ، وعين لرياسة المدرسة ديونيسيوس الذى صار فيما بعد خليفة له على السدة المرقسية ، كما وكل إليه أمر القضاء فيما يعرض للمسيحيين من مشاكل (١) .

٥٢- ولكن السلام لم يستقر إلا ليتلاشى ويتبدد : ذلك أن الامبراطور مكسيموس اكتشف مؤامرة تستهدف قتله . فأوهمه المقربون إليه من رجال بلاطه أن المسيحيين هم المحرضون للمتآمرين على حياته . فصدق هذه الوشاية وأثار اضطهاداً مروعاً ضد المؤمنين . وكان للكهنة من هذا الإضطهاد نصيب الأسد . فلما رأى المؤمنون ذلك خافوا على حياة باباهم والحوا عليه بأن يختبئ . وبعد الحاح شديد وافقهم على رغبتهم وترك الاسكندرية رغم أن قلبه كان يقطر دمًا على أولاده البواسل الذين تقبلوا العذاب فى رضى وشجاعة .

٥٣- ومما يؤسف له أن ترجمة هذا البابا العظيم قد ضاعت إذ لاشك فى أن حياته كانت قدوة رائعة ، فهو قد لمع حتى حين وقف إلى جانب أوريجانوس ، وان الشذرات التى وصلتنا عنه أشبه بوميض البرق الخاطف الذى يشق حجب الظلام رغم كونه قصير الأمد ولقد اجتذب الأنبا ياروكلاس - بحياته الوادعة - عدداً من الرجال الأجانب إلى مصر من بينهم يوليوس أفريكانوس (٢) ، وهو رحالة ومؤرخ ليبى المولد كتب تاريخ العالم ابتداء من

---

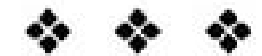
(١) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٣٣٧ - ٣٣٨

(٢) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة جـ١ ص٣٣٥ ، « مختصر تاريخ الكنيسة » لأغناطيوس افرام برسوم ص٢٧٠ - ٢٧٢ .

التكوين حتى سنة ٢٢١م . وقد استعمل فى كتابه التقويم المعروف بالاسكندرى ... ولقد وفد هذا الرحالة الليبى على مصر لينعم بصحبة الأنبا ياروكلاس ويستضئ بروحانيته . ومن المتواتر أن يوليوس أفريكانوس هذا قد اعتنق المسيحية على أثر زيارته لهذا البابا الاسكندرى ذى النفس الوادعة (١) الذى داوم على تعليم شعبه رغم شيخوخته .

ولقد كان للأنبا ياروكلاس ضميراً مرهف الحساسية مكنه من أن يضطلع بمسئولياته الجسام رغم العراقيل والمصاعب التى صادفته فى حياته . ومن مآثره أنه نجح فى اكتساب الجاحدين إلى التوبة ثم قبلهم فى شركته بفرح دون أن يعيد صبغتهم إذ كان يشارك سلفاءه (وغيرهم من الأساقفة الشرقيين) الرأى فى أن الصبغة (المعمودية) واحدة فلا تعاد . على أنه مع ترحيبه بقبول التائبين فى شركته قد حتم عليهم أن يعلنوا توبتهم جهاراً طالبين العفو بتوسلات جمة (٢) . فهو بهذا المسلك الحكيم قد أثبت أنه جمع فى شخصه بين الحرص على الإيمان والعطف على الذين غلبهم ضعف بشريتهم فى لحظة ثابوا بعدها إلى رشدهم واستمعوا إلى نداء ضميرهم .

على أن الجهاد الروحى – مع ما فيه من رضى نفسى – مرهق مضن . ولقد تضاعف الارهاق بتوالى الإضطهادات فى بابوية الأنبا ياروكلاس الذى أضناه الحزن على أولاده وهو يرقب بسالتهم فى الاستشهاد . فتداعت قواه الجسمية بعد أن استقر السلام واطمأن قلبه على شعبه . ومن ثم انتقل إلى مساكن النور هادئ النفس بعد أن قاد دفة الكنيسة وسط الأمواج المتلاطمة مدى ستة عشر سنة .



(١) « قديسو مصر » للأب پول دورليان جـ٢ ص١٩٧ .

(٢) شرحه جـ٢ ص١٩٧ – ١٩٨ نقلاً عن أوسابيوس : التاريخ الكنسى ك٦ ، ايرونيموس : الأسفار الكنسية ك٣ ف٥٤ . (Jérome : De Script, ecclés. II, 54)

الأنبا ديونيسيوس : معلم مسكونى

(٥٤) ولعه بالعلم واعتناقه المسيحية.
(٥٥) تدرجه من الشماسية حتى البابوية .
(٥٦) امعانه فى البحث .
(٥٧) دعوته إلى أوريجانوس للعودة إلى الاسكندرية .
(٥٨) اهتمام البابا الاسكندرى بالمدرسة .
(٥٩) اضطهاد الامبراطور دقيوس .
(٦٠) عناية الأنبا ديونيسيوس (وهو فى منفاه) بشعبه .
(٦١) خطابه من المنفى إلى أوريجانوس السجين فى صور .
(٦٢) الأنبا بولا .
(٦٣) عودة البابا الاسكندرى من المنفى وتجدد الاضطهاد .
(٦٤) الزيارة الرعوية .
(٦٥) عقد مجمع فى أرسينو (الفيوم).
(٦٦) خطاب الأنبا ديونيسيوس إلى فابيوس أسقف أنطاكية .
(٦٧) نقضه لبدعة سابليوس .
(٦٨) تنازع كاهنين على كرسى رومية واستفتاؤهما البابا الاسكندرى .
(٦٩) ابتداع نوفاسيانوس وفليكسيموس وموقف الأساقفة منهما .
(٧٠) اضطهاد الامبراطور فاليريانوس ونفى البابا الاسكندرى .
(٧١) نعمة الله تتجلى فى المنفى .
(٧٢) الأنبا ديونيسيوس يدعو شعبه إلى التضامن الاجتماعى .
(٧٣) نقضه لبدعة بولس الساموساطى .
(٧٤) سمو مكانة البابا الاسكندرى .

٥٤- كان فى الاسكندرية طبيب من الصابئة (١) اسمه ديونيسيوس ، ولوعًا بالعلم . وذات يوم رأى عجوزاً تبيع بعض رسائل القديس بولس فاشتراها دون أن يعرف ما تحويه رغبة منه فى قراءتها ومعرفة ما فيها ولما قرأها تاق إلى المزيد إذ تأثرت نفسه بها إلى حد بعيد . فعاد إلى العجوز يسألها عما إذا كان لديها رسائل أخرى كالتى قرأها . ولاحظت العجوز (وكانت مسيحية) أن النعمة الإلهية قد لمست قلب ذلك الطبيب الشاب

---

(١) عبدة النجوم ، اتبعوا يوحنا المعمدان وجمعوا بين التعاليم البابلية والفلسفات اليونانية - راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة جـ١٩ ص٧٩٠ .

فقالت له : « إن شئت المزيد فاذهب إلى احد الكهنة ليعطيك ما تبغيه من كتب نفيسة دون أن يتقاضى منك أجراً » . فعمل بنصيحتها ، وقصد إلى أول كنيسة صادفته ، وأعرب لكاهنها عن رغبته في التقصي عن تعاليم الدين المسيحي . فأعطاه الكاهن كل ما لديه من كتب ثم أفاض في التحدث إليه عن مخلص البشرية . ولم يلبث ديونيسيوس أن اعتنق المسيحية والتحق بمدرسة الاسكندرية في الفترة التي كانت إدارتها مسندة إلى أوريجانوس ، فاقتبس ديونيسيوس من معلمه شجاعته وفضائله ودأبه على البحث والاطلاع .

ولما كان الأنبا ياروكلاس (قبل ارتقائه السدة المرقسية) متتلمذاً لأوريجانوس عقدت أواصر المحبة بينه وبين ديونيسيوس . وزاد في توطيد هذه المحبة ولع كليهما بالعلم وبالمعلم الذي يتلقيان عنه هذا العلم .

٥٥- ثم رسم ديونيسيوس شماساً ، فكاهناً ، وعين بعد ذلك معلماً ضمن معلمي المدرسة الاسكندرية التي كان يديرها وقتذاك صديقه ياروكلاس .

وما أن انتخب ياروكلاس خليفة لمارمرقس حتى أسرع إلى مكاتبة أوريجانوس طالباً إليه العودة إلى الاسكندرية لمعاودة إدارة مدرستها . فلما اعتذر أوريجانوس عن قبول طلبه بادر إلى تعيين ديونيسيوس مديراً للمدرسة .

وحين انتقل البابا ياروكلاس إلى الأخدار السماوية اجمع الشعب مع الاكليروس على انتخاب ديونيسيوس خليفة له سنة ٢٤١م . ش .

٥٦- وكان ديونيسيوس متضلعاً من العلوم الفلسفية واللاهوتية ، كما امتاز بالتدقيق في كتب المبتدعين في المسيحية . وفي هذا الشأن كتب إلى صديقه فليمون يقول : « ترددت بادئ ذي بدء في مطالعة هذه الكتب الابتداعية ، وكان الباعث على ترددي ما قاله لي أحد الكهنة من أن قراءتي لتلك الكتب قد تشوش أفكاري وتدخل الشك إلى قلبي . ولكنني رأيت في احدى الليالي رؤيا شجعتني على القراءة إذ قد سمعت صوتاً يقول لي : « اقرأ كل ما يقع تحت عينيك فأنت قادر على أن تميز وأن تتمسك بما هو حسن ،

وأذكر أن القراءة كانت السبب المباشر فى اعتناقك المسيحية » . فلما صحوت من نومى أطعت الرؤيا السماوية .

٥٧- وكان أول ما قام به الأنبا ديونيسيوس بعد اعتلائه السدة المرقسية هو ارسال خطاب إلى أوريجانوس معلمه العظيم يجدد رفع الحرم عنه ويرجو منه فيه أن يعود إلى الاسكندرية ليستأنف عمله الجليل فى مدرستها . إلا أن أوريجانوس اعتذر للبابا الاسكندرى الذى يجله بقوله أن المدرسة التى أنشأها فى قيسارية فلسطين لا تزال فى حاجة إليه بعكس الحال فى المدرسة الاسكندرية . وقد اقتنع البابا ديونيسيوس بصحة هذا الرد لأنه كان يؤمن مع أستاذه الجليل بوجوب خدمة المسيح فى كل مكان .

٥٨- ولما اعتذر أوريجانوس عن العودة إلى الاسكندرية سلمت مقاليد المدرسة إلى ثيئوغناست الذى تمسك بتراث الآباء وحافظ على المستوى العلمى المنقطع النظير الذى بلغته هذه المدرسة بهمة أسلافه العظام .

وعند انتقال هذا العلامة إلى دار الخلود عين الأنبا ديونيسيوس بيريوس خليفة له . وقد تفوق هذا المدير الجديد فى جميع الفنون والعلوم مما دعا الأنبا بطرس خاتم الشهداء (البابا الاسكندرى الـ١٧) إلى أن يطلق عليه لقب « أوريجانوس الجديد » (١) . ومن كرم الله على كنيسته المصرية أن أمد فى حياة بيريوس فعاش ما يناهز القرن عاصر أربعة من الباباوات الاسكندريين وأدى خدمات جليلة للعلم وطلابه حتى أصبحت الاسكندرية بمجهوداته أسطع نقطة فى الكنيسة الجامعة (٢) . وعظم شأن هذه المدرسة وبلغت من الرقى منزلة سنية حتى أن منصب رئيسها كان لأهميته يلى

---

(١) « تصويب الافتنان العلمى لأوريجانوس » (بالفرنسية) للأنبا كيرلس مقار جـ١ ص٤٣ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ١ ص٥٠٦ ، جـ٢ ص٧ حيث يقول ما نصه :

" Alexandrie était alors le point le plus lumineux de l'Eglise universelle " .

المنصب الباباوى مباشرة ، كما أن أغلب رؤسائها اختيروا للسدة المرقسية السامية (١) .

٥٩- ولم تمض مدة قليلة على رسامة الأنبا ديونيسيوس خليفة للقديس مرقس حتى أثار أحد العرافين الشعب الاسكندرى ضد المسيحيين فاندلعت نار الإضطهاد داخل المدينة . وعلى الرغم من أن هذا الإضطهاد كان قاصراً على مدينة الاسكندرية إلا أن عدداً كبيراً من المسيحيين راح ضحيته ، ولم تلبث نار هذا الإضطهاد أن تأججت وعمت أرجاء الامبراطورية فى عهد الامبراطور دقيوس .

ولما كان هذا الامبراطور الطاغية يريد القضاء على المسيحيين أمر بالقبض على زعمائهم والتنكيل بهم حتى إذا هوت الرؤوس هوت معها الجسوم . فبدأ الجنود الرومان حملتهم بأن قبضوا على الأنبا ديونيسيوس وساقوه إلى تابوزيريس فى منطقة مريوط (خارج الاسكندرية) . أما سكرتيره تيموثيئوس فقد تمكن من الهرب . وبينما هو فى طريقه قابله أحد المؤمنين وعلم منه ما كان من أمر دقيوس بنفى البابا الاسكندرى . وكان هذا المؤمن مدعواً لحضور حفلة زواج فأعلن نبأ ذلك النفى للمدعوين جميعًا . فقرر الجميع وجوب انقاذ باباهم من براثن الرومانيين وخرجوا على الفور قاصدين البيت الذى اعتقل فيه ، وهاجموه وهم يحدثون الشئ الكثير من الضجيج مما جعل الجند يظنون أن المهاجمين كثر عددهم ، وفى وسط هذه الضجة استطاع بعض أفراد منهم أن يقتحم المنزل ويختطف البابا ويحمله إلى منزل العرس وهناك رجاه الجميع بإلحاح شديد أن يعتزل العواصم لأن حياته ليست ملكاً له وحده . فاختار من بينهم رجلين فاضلين ولجأ معهما إلى الصحراء .

٦٠- ومما هو جدير بالذكر أن صلة هذا البابا الجليل بشعبه لم تنقطع ، فقد كان وهو فى عزلته يبعث إليهم برسائل التشجيع والتعزية . وقد علم من ثقاته أن الامبراطور - إمعاناً فى ايغار صدور المسيحيين - أمر بفصل

---

(١) مأخوذ عن « الدرر النفيسة فى مختصر تاريخ الكنيسة » لأغناطيوس افرام برسوم بطريرك أنطاكية وسائر المشرق على السريان الأرثوذكس ص٣٨٢ .

جميع الموظفين منهم من مصالح الدولة . وقد كان لرسائل الأنبا ديونيسيوس من الأثر في نفوس شعبه ما جعله يتحمل كل ما لاقى من تعذيب وتنكيل برضى وطمأنينة .

ولم تقتصر عناية البابا الاسكندرى على شعبه بل وصلت إلى غيره - إذ قد بعث بخطاب إلى فابيوس أسقف انطاكية ضمنه وصفاً للأهوال التى لاقاها المصريون فى سبيل عقيدتهم . وبعد ان ناح طويلاً على الذين انكروا الإيمان لفزعهم من العذاب قال : « ان العدد العديد قد ظل ثابتًا على الإيمان الأرثوذكسى إلى النهاية رغم ما قاسى من أهوال ، فكان ثباته الأساس الذى يقوم عليه بيت الله والشهادة الحق لمجد ابن الله » (١) .

٦١- وفى هذه الآونة عينها بعث البابا ديونيسيوس برسالة أخرى من منفاه إلى أوريجانوس أستاذه العظيم الذى كان سجيناً فى صور عن «الاستشهاد» قال له فيها : « ان الله مصدر الحكمة هو وحده الذى يعرف مقدار ما نقاسى من آلام . ولما كانت الحكمة الإلهية تفوق مدارك البشر فما علينا إلا أن نرضخ لها ونقول مع بولس الرسول : ما أبعد أحكامك يارب عن الفحص (٢) . فما كانت الآلام إلا وسيلة لصقل نفوسنا وتقريبنا من الله . ولو كانت حواء تعلم أن احتمال التجربة يؤدى إلى التقرب من الله لقاومت الحية ولم تسقط فى هاوية العصيان . فلنتخذ لنا مثالاً الآلام التى كابدها المخلص ونقتدِ به فى معاملة خصومنا برفق ولين » (٣) .

٦٢- وفى وسط هذه العاصفة التى أثارها الامبراطور دقيوس ، وفى الوقت الذى كان الأنبا ديونيسيوس منهمكًا فى تقوية عزائم المسيحيين ، داخل بلاده وخارجها ، إذا بشخص يتسلل إلى الصحراء ويتغلغل فى فيافيها ليقضى حياته مع الله طريداً وحيداً ، وكان هذا الشخص هو الأنبا بولا أول المتوحدين من المصريين . وكان عمر الأنبا بولا عندما توحد لا يتجاوز

---

(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص١١٢ .

(٢) رومية ١١ : ٣٣ .

(٣) أوسابيوس ك٦ ف٣٩ ، « أوريجانوس » لفريبل (بالفرنسية) جـ٢ ص٤١٤ - ٤١٥ .

العشرين . وقد دفعه إلى التوحد أن زوج شقيقته الوحيدة قد وشى به إلى الوالى طمعًا فى ماله الوفير . فما كان منه إلا أن اعتزل الخلق الغادر ليعبد الخلاق الرحيم .

وحين توغل فى الصحراء عثر على كهف هناك تقوم إلى جانبه نخلتان وعين ماء . فأوى إلى ذلك الكهف وقضى به تسعين عاماً . ولم يكن أحد ليعلم شيئًا عنه طيلة هذه المدة المديدة إلى أن شاءت العناية الإلهية أن تكشف سره ليجد الناس فيه عزاء . وقد جاء اعلان اللّه تعالى عن الأنبا بولا بصورة عجيبة للغاية فقد خيل للأنبا أنطونى كوكب البرية أنه أول من اعتنق الحياة الصحراوية ، وفى الليلة التى خالجه مثل هذا الخيال ظهر له ملاك الرب واعلمه بأن هناك راهباً متوحداً تقدست الصحراء بحياته فيها قد سبقه إلى الحياة النسكية وهو الأنبا بولا المقيم فى الصحراء الجوانية . فهتف أنطونى : « حى هو الرب مرشدى إلى مقر صفيه » . وقام فى فجر اليوم التالى وأخذ يجد السير بالصحراء طاوياً ليله بنهاره حتى وصل أمام الكهف الذى يسكنه بولا . وسمع صوت تسبيح وتمجيد ، فطرق باب الكهف ولما لم يفتح له قال : « سألت اللّه فأعطانى ، طلبت إليه فاستجاب ، وها أنا أقرع الباب وأمل أن يفتح لى » (١). وعندما فتح له الأنبا بولا الباب ، وضم كل منهما الآخر بذراعيه وقبله القبلة المقدسة وانهمرت دموعهما فرحاً وحبوراً . ثم جلسا يتحدثان بعظائم اللّه إلى أن قاربت الشمس المغيب . وعندها جاءهما غراب يحمل فى منقاره رغيفًا ، فأخذه الأنبا بولا منه والتفت إلى الأنبا أنطونى قائلاً : « ما أعجب عمل الرب فإن مراحمه تثبت من يوم إلى يوم . فهو يرسل لى نصف رغيف كل مساء مع هذا الغراب ، واليوم وقد أتيتنى فقد اقتضت عدالته أن يحمل إلينا رغيفاً كاملاً . لأن الذى لا ينعس ولا ينام يرعانا برحمته . فليكن اسمه القدوس مباركًا من الآن وإلى دهر الداهرين آمين » . وبعد أن قدم كلاهما الشكر للّه اقتسما الرغيف وأكلاه فى راحة نفسية وسلام شامل .

وبقى الأنبا أنطونى فى صحبة الأنبا بولا يومين كاملين ، يتبادل كلاهما الحديث عن عظائم اللّه ويشعران بغبطة سماوية . وفى اليوم الثالث طلب

---

(١) متى ٧ : ٧ .

الأنبا بولا إلى الأنبا انطونى أن يعود إلى صومعته ليحضر له العباءة التى كان قد أهداها له الأنبا أثناسيوس الرسولى . وامتلأت نفس الأنبا انطونى عجباً من أن انسانًا قضى هذه السنين المديدة فى جوف الصحراء يعرف أن أثناسيوس هو البابا الاسكندرى(١) وأنه وهبه عباءة ، ولكنه لم يجسر أن يسأل صفى الله من أين له هذه المعرفة ، ولم يسعه إلا أن يقبل يديه فى خشوع وينصرف مسرعًا لينفذ له طلبه . وفى الواقع لم يكن الأنبا بولا محتاجاً إلى العباءة ، إلا أنه كان قد علم بالروح أن ساعة انتقاله من هذا العالم قد حانت فأراد أن يبعد ضيفه عنه فى تلك اللحظة .

وجدّ الأنبا انطونى فى السير بقدر ما وسعته قواه لأنه كان قد تجاوز الستين . ووصل إلى صومعته وهو يلهث ، وهرع إليه تلميذاه القريبان إليه يسألانه عما به وأين كان . أجابهما : « ويلى إذ أزعم اننى ناسك . لقد رأيت ايليا ، بل لقد رأيت يوحنا السابق الصابغ (المعمدانى) ، نعم لقد رأيت بولا فى الفردوس » . ثم دخل وهو لا يزال يلهث وأخذ العباءة وخرج . وتبعه تلميذاه يريدان المزيد من المعرفة . فقال لهما : « للكلام وقت وللسكوت وقت آخر . فانتظرا الوقت المناسب » . ثم تركهما من غير أن يتناول لقمة واحدة وانصرف (٢) .

ومشى أنطونى يوماً كاملاً . وعند انبثاق فجر اليوم الثانى حين صحا من نومه رأى رؤيا فائقة : رأى جمهوراً من الملائكة يتوسطهم الأنبا بولا وهم صاعدون به إلى العلا ويسبحون الله . فسقط على ركبتيه وهتف : « حى هو الرب هذه روح أبى القديس بولا يحملها ملائكة النور إلى السماء » . ثم وجه الكلام إلى الأنبا بولا متسائلاً : « لماذا أبعدتنى عنك وانا لم أشبع منك بعد ؟ » وظل ساقطاً على ركبتيه حتى غابت الملائكة عن عينيه . فقام واتجه من

---

(١) اعتزل بولا العالم فى باباوية الأنبا ديونيسيوس البابا الـ١٤ وانتقل إلى دار الخلود فى باباوية الأنبا أثناسيوس الرسولى البابا الاسكندرى الـ٢٠ فعاصر بذلك سبعة من الباباوات الاسكندريين .

(٢) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية عن الأصول اليونانية واللاتينية هيلين وادل ص٥٠ .

جديد نحو صومعة الأنبا بولا . ولما وصلها وجد أن هذا البار قد فارق الدنيا وهو راكع ويداه مبسوطتان على شكل صليب . فصلى عليه ثم وقف يتلفت يمنة ويسرة ليرى ما يستطيع استعماله لحفر حفرة ومواراة جثمانه الطاهر التراب . وإذا بأسدين قد جاءا إليه وأحنيا راسيهما امامه ، فرسم لهما بأصبعه القطعة التي يريد منهما حفرها ، فأطاعاه . ولما انتهى من عمله أحنى الأسدان رأسيهما له وانصرفا لسبيلهما . أما الأنبا انطونى فقد عاد إلى صومعته وأخبر رهبانه بكل ما أراه الله من عجب فى قديسه (١) .

ويساور الشك أذهان البعض منا حين يقرأون عن تقدم الأسدين إلى الأنبا أنطونى وطاعتهما له . على أن من يطالع سير القديسين يجد فيها العجب . ومن أبرز الأمور الغريبة ذلك السلطان المطلق الذى يتمتع به النساك والمتوحدون على المخلوقات الدنيا . وهذا السلطان المطلق منحه إياهم الله تعالى ثواباً لهم على تضحيتهم بكل ما فى الحياة من متعة وبكل مطالب الإنسان طالما هو حى فى هذا الجسد لأن هذا التفانى فى الاقتراب من الخالق اهلهم لأن يستعيدوا ذلك السلطان الذى كان يستمتع به آدم فى الفردوس قبل أن تسلبه إياه الخطية . ولقد بلغت سلطة بعض القديسين على المخلوقات الدنيا حداً جعلهم يستطيعون أن يداعبوا الوحوش الكاسرة ويشعروا بالألفة نحو الحيات والزواحف رغم ما تستثيره هذه المخلوقات من الرعب فى قلوب الناس العاديين (٢) .

٦٣- والآن لنترك الأنبا أنطونى ورهبانه لصومهم وصلواتهم فى الصحراء ، ولنعد إلى الاسكندرية لنرى المجهود الجبار الذى استمر آباؤها يبذلونه هناك . فقد عاد الأنبا ديونيسيوس إلى عاصمة كرسيه بمجرد انتهاء إضطهادات الامبراطور دقيوس . وما كاد يستقر به المقام حتى بعث برسالة إلى غايوس الامبراطور الجديد وصف له فيها ما لاقاه المسيحيون من عذابات

(١) « أباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ، ص٥٣ ومن المعلوم ان دير الأنبا بولا لا يزال قائماً إلى اليوم بجوار دير الأنبا انطونى فى الصحراء الشرقية بالقرب من البحر الأحمر .

(٢) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ٢ ص٥١٨ .

وصفاً مؤثراً كان له خير أثر فى نفس ذلك الامبراطور . غير أن وباء الدفتريا تفشى فى الاسكندرية بعد ذلك بقليل ، فانتهز كهنة الوثنيين الفرصة ليستثيروا الامبراطور ضد المسيحيين إذ ادعوا بأن رضاه عنهم قد أغضب الآلهة فانتقموا بانزال هذه البلية . ولقد تم لهم النجاح الشامل فى مؤامراتهم إذ لم يلبث الامبراطور غايوس أن عاد إلى خطة أبيه وفتك بالمسيحيين فتكاً دونه فتك الدفتريا .

٦٤- ولم يدم حكم غايوس غير سنتين ثم خلفه فاليريانوس الذى سالم المسيحيين . فانتهز البابا الاسكندرى الفرصة وقام بزيارة راعوية لشعبه مثبتاً إياه فى الإيمان ، معزياً القلوب مواسياً النفوس .

وفى أثناء جولته وصل إلى مدينة أرسينو (الفيوم) فواجه أسقفها نيبوس صاحب البدعة الألفية ، وقد أطلق عليها هذا الاسم زعماً منه أن المسيح سينزل على الأرض ويملك ألف سنة يتمتع خلالها القديسون بكل ملاذ المادية والروحية . فعقد البابا ديونيسيوس مجمعًا دام عقده ثلاثة أيام تناقش المجتمعون خلالها فى هذه البدعة وحكموا بفسادها . فما كان من نيبوس وأشياعه إلا أن اقتنعوا بما هم فيه من خطأ ورضخوا للقرار المجمعى كما أعلنوا توبتهم جهاراً .

٦٥- ولما عاد البابا ديونيسيوس إلى الاسكندرية كتب رسالة موضوعها : (المواعيد الإلهية) قال فيها : « أنه ليسعدنى ان أصف ما رأيته من اخلاص أبنائى أهالى أرسينو ومحبتهم وذكائهم . فقد تبادلنا الآراء بصبر وجلد ، ولم ندع صغيرة ولا كبيرة إلا بحثناها بحثاً مستفيضاً . ومما يسرنى ان ابنائى حين وقفوا على ما هم فيه من خطأ أعلنوا ذلك جهاراً فى غير حياء ولا تردد وفى طليعة المعترفين بخطئهم كوراسيوس الكاهن الذى أقام المثل الحى الدال على اخلاصه للحق . كما يسرنى ما بدا من أبنائى أهل أرسينو إذ نسبوا نقضى للبدعة الألفية إلى اخلاصى الأبوى » (١) . وبعد ذلك اخذ خليفة مارمرقس يفسر ما جاء فى الفصل العشرين من سفر الرؤيا عن هذه

---

(١) « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان الفيومى ص٤٠٦ .

السنين الألفية ، وعن مواعيد الله لشعبه ثم ذيّل رسالته هذه بالثناء العطر على الأسقف نيبوس فقال : « اننى احب نيبوس وامتدحه لأنه يسعى جهده للوقوف على الحقيقة ، وامتدحه ايضاً للترانيم الروحية التى وضعها ليترنم بها الشعب فى حفلاته . غير أن محبتى للحق تفوق محبتى لنيبوس . لذلك بادرت إلى ادحاض بدعته لارشاده وانارته » .

وهذه الطريقة التى اتبعها ديونيسيوس فى معاملة مرؤوسيه تدل دلالة واضحة على أنه كان خليقاً بالكرامة العظمى التى نالها من لدن الرب (١) .

٦٦- وبعد أن نجح البابا ديونيسيوس فى تثبيت شعبه ، وجه عنايته خارج ايبارشيته . فبعث برسالة ثانية إلى فابيوس اسقف انطاكية خاصة بقبول توبة العائدين إلى الإيمان بعد أن جحدوه . وقد استهل رسالته بوصف بطولة الشهداء ثم قال : « كان فى الاسكندرية شيخ اسمه سيرابيون . وكان هذا الشيخ غاية فى الاستقامة . فلما اثيرت الإضطهادات ورأى ما يقاسيه الشهداء من عذاب ارتاع وتسفل إلى التبخير للأصنام . غير انه - وقد هدأت ثورة الإضطهاد - بادر إلى اعلان توبته ، وندم على ما جنى ندماً مريراً ، وتوسل إلى آباء الكنيسة أن يمنحوه المغفرة ويقبلوه فى الشركة المقدسة . ولكنهم لم يصغوا إلى توسله إذ لم تكن القوانين المفروضة للتوبة قد صدرت بعد . ثم أصيب هذا الشيخ بمرض افقده النطق اياماً ثلاثة . وفى اليوم الرابع استعاد القدرة على الكلام . فنادى حفيده وقال له : « بادر إلى الكنيسة واحضر لى كاهناً يمنحنى الغفران » . فنفذ الحفيد وصية جده مع أن الوقت كان ليلاً ، واسرع إلى الكنيسة فوجد كاهنها مريضاً ، وكنت فى تلك الأثناء قد أصدرت القوانين الخاصة بقبول التائبين . فلم يسع الكاهن - وقد حال المرض دون انتقاله إلى دار سرابيون - إلا أن أعطى الفتى القربان المقدس فى وعاء خاص ، وقال له : « متى وصلت إلى البيت فضع هذا القربان فى فم جدك واتبع ذلك بقليل من الماء » . فما أن وقع نظر الشيخ على حفيده حتى قال له : « أسرع بتنفيذ ما أوصاك به الكاهن لأمضى إلى ربى بسلام » . فوضع الفتى القربان فى فمه ، والحقه بالماء وما كاد الشيخ يبلع القربان

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ، ص٢٢١ - ٢٢٢ .

المقدس حتى فاضت روحه إلى خالقها » . وقد ختم البابا ديونيسيوس رسالته بقوله : « أليس في هذا الدليل القاطع بأن السيد المسيح قد حفظ حياة هذا الشيخ كي ينال القربان المقدس فيشعر بالسلام الداخلي قبل انتقاله إلى فردوس النعيم ؟ » (١) .

ولقد جاءت هذه الرسالة البابوية مواسية لكلوم الضعفاء من أبناء المسيحية الذين ترددوا في هاوية الجحود ثم عادوا تائبين مستغفرين . وقد حذا حذو ديونيسيوس في الترفق بالتائبين العائدين جميع خلفائه من الباباوات الاسكندريين الذين كانوا يعتقدون أن المسيحي إنما يعيش في حمى ناموس النعمة لا تحت نير ناموس النقمة .

وقد بعث الأنبا ديونيسيوس بعد ذلك برسائل عديدة شفعها برسالة دورية إلى كنيستيّ اللاذقية وارمينيا . ثم توج كل هذه الخطابات والرسائل بكتاب عن التوبة وجهه خصيصًا إلى أسقف هرموبوليس (المنيا) . وتتسم كل هذه الخطابات بروح المحبة المسيحية الحقة .

٦٧- ثم عرف خليفة القديس مرقس أن كاهنًا من كهنة الكنيسة الرومانية اسمه سابيليوس قد تسلل إلى الاسكندرية ، وأخذ ينشر بدعة جديدة مؤداها أن الله - بما أنه جوهر واحد - فالأقانيم الثلاثة لا تكون إلا خيالية ، أو أنهم تعبيرات مختلفة لشخصية واحدة . وقد وصف الأنبا ديونيسيوس هذه البدعة بأنها « تجديف على الله الآب ضابط الكل ، وعلى ابنه الوحيد بكر الخلائق ، وعلى الروح القدس » . فتولى ادحاضها مباشرة ، وكتب فيها رسالة دورية بيّن فيها الفرق بين الأقانيم الثلاثة . فلما وصلت رسالته إلى رومية ، زعم بعض الرومانيين انه غالى في كلامه عن تثليث الأقانيم حتى كاد أن يجعل كلا من الأقانيم الثلاثة قائمًا بذاته . فكتب إليه أسقف رومية في ذلك . فلم يتردد البابا ديونيسيوس في إثبات أرثوذكسية تعاليمه ، وبعث برسالة أخرى إلى رومية اثبت فيها أن اقنوم الآب جوهر إلهي بحت وهو المصدر المتصف بالأبوة . «واقنوم الابن جمع بين اللاهوت

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٢ ، ص١٧٤ .

والناسوت ، وأقنوم الروح القدس لاهوت بحت ولكنه منبثق من الآب » . ومما أن وقف معارضوه على هذه الرسالة الثانية حتى اقتنعوا بأنهم اخطأوا فهم رسالته الأولى (١) . وقد كان للرسالة الثانية من الأثر العظيم فى نفس الأسقف الرومانى ما جعله يعقد مجمعاً حرم فيه سابيليوس وبدعته وأيد تعاليم ديونيسيوس الاسكندرى .

٦٨- وقد حدث - على أثر انتقال الأسقف الرومانى - أن قام نزاع بين الكاهنين نوفاسيانوس وكرنيليوس على اعتلائه الكرسى الرومانى ، فقد زكى الأول ثلاثة من الأساقفة ووضعوا عليه اليد . أما الثانى فقد زكاه الشعب ووضع بقية الأساقفة اليد عليه . ولما كان البابا الاسكندرى يحظى من جميع الكنائس الشرقية والغربية بمنزلة ممتازة ، لذلك بعث إليه الفريقان بقضيتهما (٢) . فرد على كليهما . أما رده على نوفاسيانوس فقد قال فيه : « من ديونيسيوس إلى أخيه نوفاسيانوس - سلام فى الرب . وبعد فإن كنت قد اضطررت إلى تولى الأسقفية على غير إرادتك ، فأثبت هذه الحقيقة بالتخلى عن الكرسى مباشرة . إذ من الخير كل الخير أن يتحمل الإنسان صنوف الآلام فى سبيل الاحتفاظ بوحدة الكنيسة ويتحاشى إحداث صدع فى صفوفها . وعندى أن التضحية فى سبيل الكنيسة خير من التضحية فى سبيل الاستشهاد . لأن التضحية الأولى إنما هى فى سبيل المجموع فى حين أن التضحية الثانية ليست إلا فى سبيل الفرد . ولو أنك تخليت عن الكرسى واحتفظت بالسلام ، لسما قدرك وعلت مكانتك بين الناس الذين سينسون ما وقعت فيه من خطأ ، ولا يذكرون إلا تضحيتك .

لهذا أناشدك بأن تحافظ على السلام الذى استودعنا إياه ملك السلام» (٣) .

ومما يؤسف له أن هذه الرسالة التى تتجسم فيها الروح المسيحية لم

---

(١) « تاريخ الكنيسة » للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ، ص٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) شرحه جـ٢ ص١٩٦ .

(٣) اوسابيوس ك٦ ف٤٥ .

يكن لها من أثر فى نفس نوفاسيانوس لأنه كان عابداً للرياسة . فانعقد فى رومية مجمع وقطعه من جسم الكنيسة الرومانية ويؤكد المؤرخون الكنسيون جميعاً بأنه لولا تدخل البابا ديونيسيوس الاسكندرى وقبريانوس أسقف قرطاجة (تونس) لأصاب الكنيسة شر مستطير .

٦٩- وقد قابل نوفاسيانوس قطعه من جسم الكنيسة باذاعته بدعة مؤداها أن جاحدى الإيمان لا تقبل توبتهم إلا بعد اعادة صبغتهم (معموديتهم) . فقابله مبتدع آخر (هو القس فليكسينوس) ببدعة عكسية مؤداها أن الجاحد إذا حصل من أحد الشهداء قبل استشهاده على رسالة تتضمن المغفرة من خطية جحوده ، فإن هذه الرسالة تقوم مقام القانون الكنسى الذى يعيده إلى حظيرة البيعة المقدسة (١). وقد أقامت هاتان البدعتان الكنيسة وأقعدتها فى مشارق الأرض ومغاربها ، واحتدم النقاش بين الأساقفة حتى اضطر القديس قبريانوس أسقف قرطاجة إلى أن يعقد مجمعاً يضع فيه حداً لنزاع كاد يفصم عروة الاتحاد بين كنائس الشرق وكنائس الغرب . وفى تلك الأثناء تبودلت الخطابات العديدة بين مختلف الأساقفة أدت إلى انعقاد مجمع فى قرطاجة للمرة الثانية برياسة قبريانوس أسقفها . وقد أجمع آباء هذا المجمع على أن المصطبغين (المعمدين) من يد الهراطقة هم وحدهم الذين يجب أن تعاد صبغتهم ، أما الذين قبلوا الصبغة من الكنيسة الأرثوذكسية فصبغتهم صحيحة لا تعاد .

غير أن استفانوس أسقف رومية لم يرق فى عينيه ما تقدم ، فضرب عنه صفحاً وقرر بمفرده أن لا تعاد الصبغة سواء أكانت متممة على يد الكنيسة الأرثوذكسية أو من يد الهراطقة (٢) ، لاعتقاده بأن المصطبغين من أيدى الهراطقة إنما ينالون بإيمانهم تقديس المسيح كغيرهم . ولقد رفض الأساقفة الشرقيون بالاجماع رأى استفانوس أسقف رومية ولم يعبأ بتهديده . ثم عقد

---

(١) رسالة القديس قبريانوس ٤٩/ ، « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٤٠٧ ، « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص١٢٧ .

(٢) يلاحظ هنا أن « أرثوذكسية » معناها « قويمة الإيمان » وكان هذا اسم الكنيسة الجامعة إذ ذاك لأن الكنيسة كانت لم تزل واحدة لا شيع فيها ولا شقاق .

قبريانوس مجمعاً فى قرطاجة حضره واحد وسبعون أسقفاً قرروا جميعاً أن لا تكون الصبغة صحيحة إلا متى تمت فى كنيسة الله الأرثوذكسية وقد بعث قبريانوس بقرار هذا المجمع إلى استفانوس مشفوعًا برسالة قال له فيها : « إن كل رئيس روحى حر فى سياسة كنيسته لأنه سيقدم حساباً عن أعماله للرب الذى هو القاضى الأعلى ، إلا أنه متى أجمع أساقفة الكنائس المختلفة على أمر هام وجب عليك النزول على هذا الحكم حفظاً للوحدة المسيحية » (١) . ولما استفحل الخلاف بين الأساقفة تدخل ديونيسيوس البابا الاسكندرى فى الأمر وكتب إلى استفانوس يقول له : « اعلم يا أخى أن الكنائس كلها فى وئام ، وهى متهللة بهذا الوئام ، وممجدة الله لأن المحبة المسيحية تجمعهم . فلا تشذ أنت عن هذا الائتلاف » . ولكن استفانوس لم يلبث أن استشهد ، فبعث الأنبا ديونيسيوس إلى خليفته سكستوس الثانى نصحه فيها بأن يعتدل فى مسلكه ولا يعكر صفو السلام السائد فى الكنيسة . ثم تبادل الأساقفة الخطابات ثانية ، كتب بعدها الأنبا ديونيسيوس رسالة أكد فيها رأى سلفه الأنبا ياروكلاس فى رفض اعادة الصبغة القانونية ، ثم اختتمها بقوله : « إن لكل كنيسة الحق فى أن تسير وفق تقاليدها الخاصة » . ولقد كان الهدف الذى يهدف إليه هذا البابا الاسكندرى العظيم هو الاحتفاظ بالوحدة والألفة بين الكنائس .

٧٠- ثم فوجئ المسيحيون بنقض الامبراطور فاليريانوس لعهد السلام الذى كان يحمل رايته ، وأضرم نار الإضطهاد من جديد للقضاء على الكنيسة .

وأول من استدعاه الوالى الرومانى للمثول بين يديه كان الأنبا ديونيسيوس نفسه . فلبى الدعوة وأعلن بأنه لن ينكر فاديه الحبيب مهما لاقى فى هذا السبيل من عذاب فحكم الوالى بنفيه إلى خفرو فى مجاهل صحراء ليبيا . وقد رافقه فى منفاه عدد غير قليل من أبنائه المصريين .

---

(١) راجع كتاب القديس أوغسطينوس ضد الدوناتيست ك٥ ف٢٥ - ٣٦ ، رسائل قبريانوس / ١٩ ، ٧٢/ ، ٧٥ ، « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ١٢٧ - ١٣٠ ، « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٤١٤ - ٤١٥ .

ثم أذاع الوالى الرومانى خطاباً عامًا حظر فيه على المسيحيين أن يجتمعوا فى المقابر التى يملكونها ، لأنه كان يعلم أن المسيحيين يجتمعون فى المقابر كى يثبتوا أن الموت لا يفصم الصلة بينهم وبين المنتقلين . على أن مسيحيى مصر لم يأبهوا لهذا الحكم ، وواصلوا اجتماعاتهم كما لو كان باباهم لا يزال قائماً بينهم .

ولكن ما أبعد احكام الله عن الفحص - لأن نفى الأنبا ديونيسيوس كان بركة للكنيسة . فقد انتهز هذه الفرصة السانحة وقام بتعليم أهل منطقة خفرو الدين المسيحى . ولم يكن نشره التعاليم المسيحية ليحول دون اشتغاله بكتابة الرسائل . وفى احدى هذه الرسائل وصف كيف استشهد ستة من الرجال وأربع من النسوة فقال : « كان الرومان يبدأون بجلدهم ثم يقذفون بهم فى أتون متقد وكان بين الشهداء شاب من الأشراف ، فأمهلوه حتى الانتهاء من تعذيب زملائه أملاً فى أن يضعف فيجحد الإيمان ، ولكنه ثبت إلى النهاية ولاقى التعذيب بالتسبيح والتهليل » .

كذلك بعث البابا الاسكندرى برسالة فصحية إلى مختلف الكنائس عين فيها يوم الاحتفاء بعيد القيامة . ولقد أصبحت كتابة الرسائل تقليداً مقدساً موضوعاً على باباوات الاسكندرية أقره فيما بعد مجمع نيقية المسكونى الأول وظل معمولاً به قروناً عديدة .

٧١- وقد غضب الحكام الرومان لما لاقاه هذا البابا فى منفاه من تقدير فنقلوه إلى منفى آخر بجهة كولوثيون ، وكانت هذه الجهة مأوى اللصوص وقطاع الطرق ، كما كانت السبل المؤدية إليها غاية فى الخطورة . على أن هذا المنفى الجديد أفرح البابا ديونيسيوس لقربه من الاسكندرية . وقد تجلى العطف الإلهى على هذا البابا الجليل مرة أخرى فى هذا المنفى فلم يلاق من اللصوص وقطاع الطريق إلا كل تبجيل وتعظيم ، فتهلل الشعب واشترك مع باباه فى تمجيد الله وتسبيحه .

وخلال كل هذه الإضطهادات لم يلق الأنبا ديونيسيوس النفى والتشريد فحسب بل واجه أيضًا هزء القضاة المدنيين وسخرية رجال الحكم واستخفاف العامة . كذلك صودرت أملاكه وواجه الجوع والفاقة . فقابل كل هذه الشدائد بهدوء ووقار مما جعل شعبه يقتدى به . ولقد شهد البابا

الاسكندرى العظيم بما أبداه شعبه من بسالة فقال : « إن الرجال والنساء والشيوخ والشباب والجند والفلاحين – جميعهم – صمدوا فى صبر عجيب ، فتحملوا الضرب والسيف والنار فى طمأنينة وخرجوا ظافرين » . وبعد أن وصف ثبات الشعب أعلن الأنبا ديونيسيوس اعجابه برجال الدين لما أبدوه من سكينة وجراة ، واختص بالذكر الكاهن مكسيموس الذى خلفه فيما بعد على السدة المرقسية ، والكاهن أوسابيوس الذى نال هو أيضًا كرامة الأسقفية إذ قد اختير أسقفًا على اللاذقية ، والشماس فوستوس الذى استشهد رغم شيخوخته .

ولقد دام منفى الأنبا ديونيسيوس مدة تعادل ثلاث سنين ونصف سنة . وكان هذا البابا قد تلا على مسمع من الوالى الرومانى الآمر بنفيه آية سفر الرؤيا القائلة : « واعطى فمًا يتكلم بعظائم وتجاديف . واعطى سلطانًا أن يفعل اثنين واربعين شهراً » (١) . فكأنما قد تنبأ عن المدة التى سيقضيها فى المنفى لأن الامبراطور فاليريانوس كان قد رحل إلى بلاد الفرس لمحاربتهم فقتل هناك . وكان قتله بعد مضى اثنين وأربعين شهراً من اضرامه نار الإضطهاد (٢) فعاد ديونيسيوس إلى عاصمته بين مظاهر الفرح والتبجيل .

٧٢– وكان عيد القيامة قد اقترب فبعث خليفة مارمرقس برسالته الفصحية يطلب فيها إلى شعبه أن يمد يد المساعدة إلى من عضهم الفقر بنابه، ومن تولاهم الحزن لفقد عائليهم . ولم يفته فى هذه المناسبة أن يمتدح منهم العاملين على تخفيف ويلات الانسانية بقوله أنهم « كانوا منارة فى وسط دياجير البؤس والفاقة » (٣) .

٧٣– وكان الأنبا ديونيسيوس قد تقدمت به الأيام ، فكان لا يزال يردد قول سمعان الشيخ : « الآن يا سيد أطلق عبدك بسلام » (٤). ولكن رسالة أخرى كانت تنتظره هى نقض بدعة بولس الساموساطى وكان هذا المبتدع

---

(١) رؤ ١٣ : ٥ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ، ص٢٢٥ – ٢٢٦ .

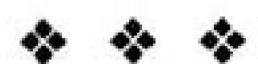
(٣) من خطاب الأنبا ديونيسيوس نقلاً عن اوسابيوس .

(٤) لو ٢ : ٢٩ .

من أهالي الاسكندرية ثم رسم أسقفاً على أنطاكية . ولكن سرعان ما ثبت زيفه لأكليروس تلك المدينة إذ كان ينادي ببدعة مؤداها « ان أقنومي الإبن والروح القدس هما شئ واحد ، وأن كلمة الله قد أتى إلى الأرض وحل في انسان اسمه يسوع المسيح ، وأن ابن الانسان لم ينحدر من السماء بل أخذ مبدأ وجوده من مريم على الأرض » . لهذا السبب انعقد مجمع في انطاكية حوالي سنة ٢٦٢م . دعى إليه الأنبا ديونيسيوس البابا الاسكندري . إلا أن الشيخوخة حالت دون تلبيته لهذه الدعوة . فاستجمع ما بقى من قواه الواهنة وكتب رسالتين : بعث باحداهما إلى المجمع الأنطاكي وبالأخرى إلى بولس الساموساطي نفسه (١) . وقد استند المجمع في حكمه بتجريد الساموساطي من درجة الكهنوت إلى رسالة البابا ديونيسيوس التي كانت واضحة تمام الوضوح .

أما ديونيسيوس – الذي يلقبه أوسابيوس « بالأسقف الاسكندري العظيم » (٢) ويسميه أثناسيوس الرسولي « بمعلم الأرثوذكسية » فإنه لم ير نهاية هذا المجمع إذ قد انتقل إلى دار الخلود والمجمع لا يزال منعقداً .

٧٤– ومما يجدر ذكره في ختام ترجمة حياة هذا البابا العظيم انه أرسل رسالة إلى أسقف بنتابوليس (الخمس مدن الغربية) يدعوه فيه « ابنه العزيز » ولم تكن هذه التسمية مألوفة بين أسقف وآخر – حتى بين أسقف رومية وغيره من الأساقفة . وفي هذا أبلغ دليل على سمو مكانة البابا الاسكندري في ذلك العهد (٣) .



---

(١) « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لجون نيل جـ١ ص٨١ .

(٢) شرحه ، جـ١ ص٨١ .

(٣) دائرة المعارف الفرنسية تحت كلمة « دنيز » (Denys) ومما يجدر ذكره هنا أن البطريرك مكسيموس مظلوم قال في كتابه « الكنز الثمين في أخبار القديسين » جـ٢ ص٥٥ : « لقد أصبحت الاسكندرية أورشليم الثانية » .

الأنبا أنطونى (*)
كوكب البرية وأبو الرهبان

(٧٥) نشأة أنطونى واعتزاله العالم .
(٧٦) ظهور الملاك له والباسه الاسكيم.
(٧٧) توغله فى الصحراء .
(٧٨) تقاطر الناس عليه وتتلمذ البعض له .
(٧٩) أنطونى يداوم على الصلاة والعمل وخدمة الناس بينما تعاقب سبعة باباوات على السدة المرقسية .
(٨٠) ذهابه إلى الاسكندرية أثناء اضطهاد مكسيميانوس .
(٨١) صداقة أنطونى وديديموس .
(٨٢) عودة أنطونى إلى الصحراء بعد انتهاء الاضطهاد .
(٨٣) وصف أثناسيوس الرسولى لأنطونى ورهبانه .
(٨٤) نسخة من سيرة أنطونى فى مدينة تريف .
(٨٥) سيرة أنطونى تجتذب أوغسطينوس .
(٨٦) اندفاع الجماهير نحو كوكب البرية .
(٨٧) تتلمذ بعض الزوار له .
(٨٨) وصف بلاديوس له .
(٨٩) نظام الحياة النسكية الذى وضعه الأنبا أنطونى .
(٩٠) وضعه زيًا خاصًا بالرهبان
(٩١) أنطونى لا يعرف غير لغته المصرية الفرعونية .
(٩٢) زيارته للنساك والناسكات فى كل أنحاء الصحارى المصرية .
(٩٣) انتقال أنطونى إلى بيعة الأبكار .
(٩٤) كلمة عن دير القديس أنطونى كوكب البرية وأبى الرهبان .
(٩٥) جاذبية الأنبا أنطونى تتزايد على مر العصور .

مقدمة :

من واجبنا أن نتساءل عن الثمار التى جناها الفكر الانسانى من حياة الصحراء . وهذه الثمار تبدو لأول وهلة قليلة إذا قيست بالعدد غير المحصى من الذين عاشوا فى البرارى القاحلة . ومما يزيد فى ندرتها الظاهرية أن

(*) هذا هو الاسم القبطى لأبى الرهبان ويكتب بالقبطية هكذا : ⲁⲛⲧⲱⲛⲓ .

فطاحل المسيحية أمثال أثناسيوس الرسولي وباسيليوس وذهبى الفم لم يقضوا بها إلا فترة من الزمن ثم تركوا سكينتها وعاشوا فى صخب هذا العالم .

غير أن من يدقق النظر فى حياة النساك يجد أن الثمار التى جنتها الإنسانية من حياة الصحراء لا تقع تحت حصر . لأن أولئك النساك وإن لم يقدموا لنا كتباً مستفيضة تضارع ما كتبه فلاسفة المسيحية إلا انهم قدموا لنا حياتهم مثلاً حياً لإيمان راسخ وعقيدة ثابتة ويكفى للتدليل على صحة هذه الحقيقة التاريخية أن احد هؤلاء النساك كان يملك نسخة واحدة من الكتاب المقدس فباعها ليوزع ثمنها على الفقراء . ولما سئل عما فعل قال : « لقد نفذت الأمر الإلهى القائل (بع كل مالك وأعطه للفقراء) » . ولو أن العالم سار على منوالهم وأبدل القول بالعمل لتحول بين عشية أو ضحاها إلى جنة النعيم من جديد . وهذه الحقيقة دليل ساطع على أن الذين اعتزلوا العالم وسكنوا الصحارى قد بلغ السلام أعماق نفوسهم فتذوقوا متعة الخلوة مع الله - وبالتالى كانت حياتهم المثل الفعلى لهذا السلام الذى ينبع من الداخل . وهذه الصفة هى التى حببت الجماهير فيهم فتقاطروا عليهم ، ولم تلبث الصحارى أن تحولت إلى جنات من الخير والبركات تقدست بأنفاس لباس الصليب . وهكذا وجد الأنبا أنطونى أبو الرهبان نفسه محاطاً بجمع غفير قطع عليه الخلوة التى كان ينشدها (١) .

٧٥- وإن البار الأنبا بولا - مع أنه يعد أول النساك - إلا أن الذى أنار السبيل أمام البشرية لحياة النسك فى عزلة الصحراء هو العظيم الأنبا أنطونى (٢) .

ولد أنطونى فى بلدة قمن (٣) من أبوين غنيين حوالى سنة ٢٥٠م .

---

(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٢٧ ، ٢٩ .

(٢) هذه هى الصفات التى يوصف بها كل من الأنبا انطونى فى القداس الإلهى .

(٣) هى قمن العروس ، وتقع فى منطقة تموج بالآثار الفرعونية ففى الجزء الشمالى منها هرم سقارة ، وإلى جنوبها هرم دهشور . ومن الشائع أن البقعة التى أوى إليها أولاً هى دير الميمون الواقعة على ضفة النيل المقابلة لقمن .

ولما بلغ العشرين من عمره فقد أبويه . وفى يوم من أيام الآحاد دخل الكنيسة فى اللحظة التى كان القارئ يتلو قول السيد المسيح : « إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب بع كل مالك واعط الفقراء وتعال اتبعنى » (١). فأحس بأن هذا الأمر موجه إليه شخصيًا فلما عاد إلى بيته وزع كل أمواله على الفقراء واصطحب أخته الوحيدة إلى منزل تعيش فيه بعض السيدات اللواتى كرسن حياتهن للعبادة والخدمة ، ثم ترك كل شئ وذهب خارج المدينة وسكن فى منزل تظلله جميزة (٢) . وكانت السنوات التى قضاها فى ذلك البيت مليئة بالتجارب وبالمحاربات ضد التجارب . ولقد عرف أثناسيوس الرسولى أن يرسم صورة خلابة لحياة معلمه العجيب أنطونى فى هذه الفترة فبين للعالم أجمع كيف تكتلت عليه الشياطين لعلهم يظفرون به فيدفعوه إلى العودة عن الطريق الذى اختطه لنفسه فسار وراءه الملايين . وفى هذه الصورة العجيبة نرى أنطونى يبدو له الشيطان تارة فى شكل ولد وأخرى فى هيئة امرأة جميلة ، وحيناً فى جسم وحش كاسر وحيناً آخر فى شكل هو مزيج من الإنسان والحيوان . وخلال هذه التجارب الشائكة وهذا القتال العنيف كان أنطونى يظل ساهراً ما أمكنه السهر ليرقب الشياطين المتألبة عليه – فإن غلبه النوم استلقى على الأرض مباشرة ، وعند ذاك يهمس الوسواس فى أذنيه ويستثير أمام مخيلته صورة الترف الذى كان يستطيع أن يعيش فيه . وقد أنهك هذا القتال الذى لا هوادة فيه قوى أنطونى ذات يوم فلم يستطع أن يقف ولا حتى أن يجلس بل ظل مستلقياً على الأرض فى شبه اغماءة بينما انتهز عدو الخير هذه الفرصة فجاء يهاجمه فى قسوة . واسمعوا قوة هذا الرجل المتداعى الخائر الذى لم تعد لديه المقدرة على الحركة – اسمعوا قوته فى كلماته التى قالها فى توكيد واتزان : « إننى هنا – أنا أنطونى – ولن أنحنى تحت ضرباتك مهما قسوت فيها . لأننى لن أسمح لشئ فى الوجود أن يفصلنى عن محبة المسيح ربى وإلهى » . ولم يكتف

---

(١) متى ١٩ : ٢١ .

(٢) « بستان الرهبان » نسخة دير البرموس وتحوى بعض النسخ الأخرى قصة مختلفة ولكنها تتفق جميعاً على أن الأنبا أنطونى هجر العالم وهو فى العشرين من عمره .

أنطونى بهذا الرد الصريح فصمم على أن يقاتل الشيطان بعزم وقوة . وذات يوم جمع الشيطان كل قواته وجاء إلى هذا الرجل الوحيد زاعمًا أنه بهذا العنف سيقهره . وسمع الأنبا أنطونى صوتاً كالرعد القاصف وخيل له أن زلزلة عظيمة تهز الأرض من أساساتها ثم رأى جمعًا عديداً من الوحوش والزحافات آتية نحوه : رأى أسداً يتهيأ للهجوم عليه وهو يزأر زئيراً مزعجاً ، ورأى ثعباناً يلتف حول نفسه لينقض عليه ، ورأى ذئباً يقفز فى الهواء ليفتك به – رأى هذه وغيرها فى أشكال مفزعة وكلها تحدث ضجيجاً مدوياً . رأى وسمع ما يزلزل النفوس ويملأ القلوب رعبًا وهلعاً . ولكنه ظل جالساً مكانه فى هدوء واطمئنان فقد عرف أنطونى أن يد اللّه تسنده وأن الذين معه أكثر من الذين يحاربونه فواجه هذه الجموع المخيفة وقال مخاطباً العدو الذى جمع كل قواته : « لو كنت تستطيع أن تغلبنى لما احتجت أن تأتينى بكل هذه الجموع » .

ولا يزال الناس يتأملون هذه الصورة التى صورها أثناسيوس لمعلمه فتخلب ألبابهم ويقفون أمامها حائرين متعجبين : إنها صورة غير المستطاع وقد أصبح مستطاعاً ، وصورة الآيات والعجائب تحدث يوميًا . وخلف هذه الصورة الأخاذة يرن صوت أنطونى : « لا يزعمن انسان ترك العالم أنه أتى عملاً عظيماً ، فالعالم كله مقابل السماء والأبدية ليس سوى نفاية » . ولقد وصف مؤرخ غربى هذه الفترة من حياة الأنبا أنطونى بقوله : « لقد تعرض القديس وهو فى خلوته الأولى لتلك المحاربات الشيطانية التى جعلت من حياته موضع السخرية للمتشككين ، والشفقة للمتساهلين ، والدهشة للمؤمنين المتيقنين من وجود عدو يزأر كالأسد (١) ومن قوة غير منظورة تنصر الكنيسة بلا انقطاع . ومن يتشكك فى هذه المحاربات إنما ينكر كل حادث خارق للطبيعة ويزدرى بشهادة عدد عديد من الناس الذين لا يتطرق الشك إلى قداستهم . ولسنا هنا نحاول الدفاع عن هذه المحاربات الخارقة ، ولكن الذى لا يمكن الشك فيه مطلقًا هو أن العيشة التى قضاها أنطونى ورهبانه المصريون هى انكار لكل الغرائز والميول الطبيعية . وهذه الحياة

(١) رسالة بطرس الأولى ٥ : ٨ .

الخارقة للطبيعة التى عاشها هؤلاء الرهبان فى خطر مستديم ، وفى جوع وألم ، هى أعجب ما عرفه الإنسان . وهم كانوا يتحملون كل هذه الضيقات والمخاطر من غير أن يمتدحهم إنسان - أى انهم لم يطلبوا مجداً من الناس لأنهم عاشوا فى معزل عن الناس . ومثل هذه الحياة التى يعترف الجميع بأن الرهبان المصريين قد عاشوها هى أعجب واغرب بكثير من القصص التى يرويها الثقاة عن المحاربات التى خاضها الأنبا أنطونى » (١) .

٧٦- وفى هذه الفترة أحس القديس أنطونى بالملل يتسرب إلى نفسه والهواجس تساوره . فأخذ يصلى قائلاً : « يا سيدى اريد ان اكون كاملاً ولكن أفكارى تمنعنى » . وعندها سمع صوتاً يقول له : « اخرج خارجًا وانظر » فخرج ، ورأى ملاك الرب مرتدياً الاسكيم (٢) وعلى رأسه طاقية ، وهو منشغل بالتضفير ووقف أنطونى يرقبه ، ورآه يضفر قليلاً ثم يترك عمله ليصلى ، وبعدها يضفر ثانية ثم يقوم للصلاة ، ويترك الصلاة للشغل . واستمر الملاك يعمل ويصلى بالتتالى . ثم سمع انطونى صوتاً يقول له : « افعل هذا فتجد راحة لنفسك » . وأطاع القديس هذا الأمر السماوى طيلة حياته ، ووجد فى هذه الطاعة الراحة التى ينشدها ، فجعلها القاعدة التى سار عليها الرهبان المصريون مذاك .

٧٧- وبعد قليل أحس بأن المكان الذى اختاره للخلوة مع الله قريب من المدن . فتركه وأخذ يتوغل فى الصحراء . وكان يمشى طول النهار ، وعند غروب الشمس كان يستلقى على الأرض لينام . ولم يحمل معه غير عصا

---

(١) المؤرخ هو جون نيل فى كتابه « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) جـ١ ص١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) الاسكيم هو منطقة من جلد تتخلله صلبان على ابعاد متساوية . وقد البسه الملاك للقديس انطونى فأصبح بذلك دليلاً على أن لابسه قد بلغ درجة عظمى من القداسة . وهذه المنطقة لا يلبسها الراهب إلا متى بلغ هذه الدرجة ، ولها صلوات خاصة تتلى على الراهب قبل تمنطقه بها ، والمفروض أن البطاركة والأساقفة قد حظوا بالاسكيم قبل وصولهم إلى الرتبة الكهنوتية العليا . فإن اختير راهب للأسقفية قبل ان ينال الاسكيم ، تتلى عليه الصلوات الخاصة بهذه المنطقة المقدسة ويلبسها قبل رسامته بأسبوع .

وبعض الأرغفة الجافة . واستمر فى السير تسعة أيام وصل بعدها إلى قلعة مهدمة من تلك القلاع التى كان الفراعنة قد شادوها لحماية حدود مصر . ووقف عند خرائب هذه القلعة ، وتأمل الفضاء الممتد أمامه ، فأنس إليه ووجد فى سكونه الشامل وفى امتداده حتى الأفق ما يوحى باللانهائية . وكان على مقربة منه بعض الصخور والتلال المختلفة الألوان ، وخلفها الجبال التى تبدو فى لون بنفسجى ، وقد اختلطت بالغيوم وتناهت إليها فكأن السماء والأرض قد تلاقيا فى صفاء ممتع عجيب ودهش إذ رأى مجموعة من أشجار النخيل وسط هذا الفضاء القاحل ، فمشى حولها وعرف السبب إذ وجد وسط الصخور الصماء عين ماء يترقرق ، وتنساب قطراته من صخرة إلى صخرة حتى تنتهى إلى الفجوة التى تقوم عليها النخيلات . وحين جال أنطونى ببصره فى هذه الطبيعة العجيبة اهتز حتى أعماق نفسه ، وتجاوبت روحه معها ، وأحس بأنه وجد المكان الذى يطلبه للاختلاء بالله .

٧٨- غير أن القديس أنطونى لم ينعم طويلاً بالخلوة التى تاقت نفسه إليها . لأن صيته ذاع ، وفاح عبيره ، فتقاطرت عليه الناس من مصر أولاً ثم من كافة أنحاء العالم وحين وصلت إليه أول جماعة منهم رفض أن يراهم ، ولكنهم اقتحموا الباب بقوة مندفعين نحوه بدافع غيرتهم لرؤيته ، والاغتراف من روحانيته ، والحصول على بركته ومن تلك اللحظة لم ينعم بالخلوة مع الله إلا فى فترات متقطعة . وروض نفسه على استقبال الجماهير المتقاطرة عليه بوجه مضئ وابتسامة هادئة ، ولم يكتف بذلك بل كان يسأل عن احتياجاتهم ، ويشفى مرضاهم ، ويعزى الحزانى منهم ، ويهدئ النفوس الثائرة . ويلاطف المتبرمين منهم حتى يعرف مصدر مضايقاتهم ويبددها - فتمكن بذلك من أن يرضى الجميع بالنعمة الفائضة عليه . وكان بين الجموع المتزاحمة عليه أفراد لمست النعمة قلوبهم ، ومستهم النار الإلهية ، فتركوا كل شئ ليتتلمذوا له . ولقد بلغ بعض هؤلاء التلاميذ قمة القداسة ، وصاروا ضمن القادة الروحيين الذين أناروا السبيل أمام الإنسانية المتطلعة نحو مجد الله .

٧٩- ولقد عاش الأنبا أنطونى سنين طويلة عاكفاً على الصوم والصلاة وجدل السلال ، مجاهداً ضد المبتدعين ، مثبتاً المؤمنين ، هادياً جميع الآتين

إليه إلى سبيل السلام . وقد منحه الله تعالى عمراً مديداً فرأى النور فى باباوية الأنبا ديونيسيوس ثم جاهد الجهاد الروحى خلال باباوية ستة من الأحبار الاسكندريين هم الأنبا مكسيموس (البابا الاسكندرى الـ١٥) ، فالأنبا ثيئوناس ، فالأنبا بطرس خاتمة الشهداء ، فالأنبا أرشيلاوس ، فالأنبا ألكسندروس ، فالأنبا أثناسيوس الرسولى .



الأنبا أنطونى

كوكب البرية وأبو الرهبان وإلى جانبه الأنبا بولا

٨٠- وحدث فى باباوية الأنبا أرشيلاوس أن نقض الامبراطور مكسيميانوس عهده مع المسيحيين وعاود اضطهادهم . وفى تلك الفترة هجر الأنبا أنطونى كوكب البرية عزلته وقصد إلى الاسكندرية وهو يقول : « فلأذهبن إلى الاسكندرية حيث نيران العذاب . فإذا سمحت **النعمة الإلهية**

باستشهادى تجدنى مستعداً ، وإن لم تسمح بذلك أكون على أقل تقدير واقفاً إلى جانب المضطهدين من أبناء القديس مرقس الانجيلى الشهيد » .

وحالما وصل إلى الاسكندرية قصد إلى السجون ليزور المقيدين فيها . وكان يتنقل بينهم مشجعاً معزياً . وعندما كان يأتى الجند لنقلهم إلى مكان الاعدام ، كان يصحبهم وهو ينشد أناشيد التسبيح ويردد لهم الآيات المقدسة فكان بهذا العمل يملأ قلوبهم غبطة وسلاماً . فاغتاظ الحكام من عمله هذا واصدروا الأمر بمنع رجال الدين من مرافقة المحكوم عليهم ولما سمع الأنبا انطونى هذه الأوامر صار يرتدى ثوبه الأبيض ويجلس فى دار المحاكمة تجاه القاضى وحين كان يسمع الحكم الصادر ضد المسيحيين ، يبادر إلى مرافقتهم على مرأى من الجميع . ومن العجيب أن النعمة الإلهية لم تسمح بأن ينال الأنبا انطونى إكليل الشهادة رغم مجازفاته الكثيرة إذ قد حفظته لعمل أسمى هو تثبيت قواعد الرهبنة وتشديد عزائم المسيحيين .

٨١- وفى أثناء اقامته بالاسكندرية كان ضيفًا على ديديموس الضرير الذى كان قد فقد بصره وهو فى الرابعة من عمره فلم يتلق من العلم إلا النزر اليسير . على أن غيرته المتقدة وحبه للعلم ألهماه أن يصلى طالباً من اللّه أن ينير بصيرته . وبهذا النور الداخلى تضلع فى العلوم حتى استطاع أن يبتكر وسيلة لتعليم العميان تتلخص فى حفر الحروف على الخشب بصورة بارزة ليتمكن كفيف البصر من قراءتها باللمس . وهكذا سبق ديديموس برايل إلى وسيلة تعليم المكفوفين القراءة بما يزيد على خمسة عشر قرناً . وقد سارت الكنيسة على الخطة التى ابتكرها ديديموس لتعليم المكفوفين إلى أن ضاعت فى ثنايا الحروب والإضطهادات .

وكانت الصداقة التى تربط الأنبا أنطونى بالعلامة ديديموس غاية فى المتانة - فكانا يقضيان الساعات الطوال فى التحدث بعجائب اللّه وذات يوم وهما يتناجيان قال أنطونى : « لا تكتئب يا صديقى ديديموس لأنك محروم من العينين اللتين بهما نبصر الحشرات ، بل تهلل لأن اللّه منحك العين الباطنة التى تشارك بها الملائكة فى رؤية اللّه عز وجل » . فجاءت كلماته بلسماً شافياً لجروح ديديموس النفسية .

٨٢- ولما انتهت الإضطهادات عاد الأنبا أنطونى إلى خلوته فى الصحراء . فخرج أهل الاسكندرية عن بكرة أبيهم ليودعوه وليعربوا عن حبهم له وتقديرهم إياه . وكان يقول لهم : « إنى لا أخشى اللّه ولكنى احبه ، والمحبة تنزع الخوف خارجاً وتطرده بعيداً » (١) .

٨٣- ولما رأى أثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى الـ ٢٠) القديس أنطونى يحيط به تلاميذه وصفهم بقوله : « لقد غصت الصحارى بصوامع الرهبان التى كانت تموج بساكنيها الذين كرسوا حياتهم لتسبيح اللّه وتمجيده صباح مساء . وقد ارتبطت قلوبهم بالمحبة الخالصة فرسموا للناس صورة بارعة تبين لهم كيف يكون المجتمع حين يسوده السلام والوئام . فحق لنا أن نقول مع صاحب المزمور : « ما أبهى خيامك يا يعقوب ، مساكنك يا اسرائيل ، كأودية ممتدة ، كجنات على نهر ، كشجرات عود غرسها الرب ، كأرزات على المياه » (٢) .

٨٤- ولما كان الأنبا انطونى قد صقلته الصلوات والخلوة مع اللّه ففاضت عليه النعمة الإلهية فيضاناً غزيراً ، فإن اندفاع الجماهير نحوه لم يكن ليكدر صفوه إذ ملأت المحبة قلبه ، فرحب بكل من جاءوا إليه ، وحاول جهده أن يسد أعوازهم الروحية والجسمية بما قدمه إليهم من خدمة وتعليم . فأحرز من حبهم وولائهم له ما لم يحرزه أحد من قبل ولم يفز به أحد من بعد . ولم يقتصر أثره على بلاده وقومه بل تعداهم إلى آسيا واوروبا . فلم تنقض ثلاثون سنة على انتقاله إلى دار الخلود حتى عثر فى تريف (على الحدود الفرنسية البلجيكية) على نسخة من كتاب للبابا الاسكندرى أثناسيوس الرسولى يحوى ترجمة حياة هذا الناسك العظيم . وقد تجمع فى المنزل الصغير الذى وجدت فيه هذه النسخة الثمينة بعض النساك الذين اتخذوا حياة أنطونى نموذجاً لحياتهم النسكية . وحدث ذات يوم أن خرج الامبراطور قسطنطين الصغير للصيد ، فانتهز فرصة غيابه عن البلاط الامبراطورى أربعة من رجاله ، وخرجوا للتنزه فى انحاء المدينة . وفى أثناء مسيرهم رأوا بيتاً صغيراً يسكنه بعض النساك ، فدخلوه بلا استئذان . وفى هذا البيت

---

(١) رسالة يوحنا الأولى ٤ : ١٨ .

(٢) عدد ٢٤ : ٥ - ٦ .

عثروا على تلك النسخة التى تحوى حياة أنطونى . فأخذوا فى قراءتها ولم يلبث أثنان منهم أن انضما إلى ساكنى هذه الصومعة الحقيرة ، وهجروا حياة البذخ التى كانا يقضيانها فى القصر الامبراطورى . وكان ذلك سنة ٣٧٨م . ش (١) .

٨٥- وحدث فى أواخر صيف تلك السنة عينها أن أحرز الكتاب الذى ألفه الأنبا أثناسيوس عن حياة الأنبا أنطونى انتصاراته - فقد كانت قراءته السبب المباشر فى اجتذاب أوغسطينوس من حياة البذخ والاستهتار إلى حياة النسك والقداسة . ذلك أن صديقه بونتيتيانوس - أحد رجال البلاط الامبراطورى - ذهب لزيارته ذات مساء ، وقص عليه سيرة أبى الرهبان ثم ترك له نسخة من سيرة هذا الناسك المصرى الجليل . وكان أوغسطينوس فى أثناء ذلك الحديث يشعر بنشوة روحية عميقة ملأته حنيناً خفيًا إلى تلك الحياة الممتلئة نعمة بالتكريس لله . وكان خلال أثنتى عشرة سنة يتنازعه عاملان : عامل الاستمتاع بما فى العالم من ملاذ ، وعامل ترك هذا العالم المتسلط عليه . فأحس فى تلك اللحظة بأنه قد آن الأوان لأن يهجر العالم . وعند ذاك قامت فى داخله معركة عنيفة بين المفاتن العالمية وبين رغبته فى التنسك . ولقد وصف أوغسطينوس نفسه هذه المعركة الحامية فى كتابه « الاعترافات » تتلخص فى ما يلى : « ما أن بلغت مسامعى كلمات بونتيتيانوس حتى اضطربت نفسى واضطرم قلبى بنار آكلة . وحالما غادر منزلى أخذت أناقش نفسى الحساب وألهبها بلاذع الكلام لتراخيها وانسياقها نحو المفاسد الدنيوية وقد ظللت فى محاربتها بلا هوادة إلى أن نجحت فى اخضاعها للارادة الإلهية» (٢) . ومع أن أوغسطينوس لم يعش عيشة أنطونى الصحراوية ، إلا أنه اقتفى أثره فى السعى إلى اخضاع الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية متخذاً شعاره ما قاله أنطونى عن الامكانيات الإنسانية حيث قال : « لا يتوهمن انسان أن بلوغ الكمال بعيد المنال أو غريب عن الطبيعة البشرية . فالناس يركبون البحار ليتمكنوا من دراسة الفلسفة اليونانية ، أما مدينة الله فهى داخل القلب

---

(١) أو ٣٨٦ ميلادية غربية .

(٢) « اوغسطينوس اسقف هيبو » سيلى وشركاه ، (بالانجليزية) ص١٨ - ٢٠

البشرى ، والصلاح الذى يتطلبه الله كائن داخل كل فرد منا ، ولايتطلب إلا أن نخضع ارادتنا للارادة الإلهية » (١).

٨٦- وإذا كان الكتاب الذى وضعه أثناسيوس عن أنطونى قد بلغ هذا الأثر العظيم - وهو تحويل عقلية جبارة كعقلية أوغسطينوس عن الأرضيات إلى السمائيات فكم بالحرى تؤثر شخصية أنطونى نفسها ؟ فلا عجب إذن أن الجماهير تهرع إليه لا من مصر فحسب بل من أوروبا وآسيا أيضاً مندفعين إليه بما يبديه نحوهم من محبة واتضاع وصبر لا نهائى (٢) .

٨٧- وإذا كان بعض قاصديه طرقوا بابه ليشفيهم من أمراضهم ، أو ليعزى قلوبهم ، فإن البعض الآخر قد قصد إليه ليعيش معه ويشاركه حياة النسك والتقشف فى وحشة الصحراء . ولما كانت الأديرة لم تنشأ بعد ، فإن المتنسكين فى البرارى المصرية كانوا يعيشون فى مغاور تعرف بالصوامع - وكل منهم ينفرد فى صومعة . وكانت هذه الصوامع متقاربة بحيث يتسنى للجميع أن يجتمعوا مساء السبت وصباح الأحد للصلاة معاً . وقد شبه الأنبا أثناسيوس الرسولى هذه الحياة النسكية بالحياة الملائكية . فكما أن الملائكة يرددون أناشيد التسبيح والتمجيد للعزة الإلهية ، كذلك كان أولئك النساك يقضون حياتهم فى تسبيح الله وتمجيده (٣) .

٨٨- ولقد كتب بلاديوس (٤) تاريخ الآباء المصريين فقال عن الأنبا أنطونى : « **كان ذا عقلية وقادة ، حكيماً ، يدرك حقيقة الناس بالفراسة بحيث كان الذين يأتون إليه يمتلئون دهشة إذ يجدون أنه ادركهم على حقيقتهم رغم عزلته وابتعاده عن الناس وكان حديثه مطعماً بملح سماوى بحيث كان سامعوه يشعرون بغبطة قلبية ولا يحسدونه على ما وصل إليه من كمال روحى حبب فيه النفوس وجذب إليه القلوب . كذلك كان الأنبا أنطونى يمتاز**

---

(١) « آباء الصحراء » ترجمه إلى الانجليزية هيلين وادل - المقدمة ص٧ .

(٢) شرحه المقدمة ص١٤ .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٥٢ - ٢٥٣ .
«حياة القديس أثناسيوس» (بالفرنسية) للأبيه پول باربيه ص٤٠٥ .

(٤) أسقف هيلينوبوليس فى بيثينية فى أواخر القرن الرابع .

بالصبر والجلد فى المناقشة فيصغى لكل ما يقال له ويجيب عنه بكل تؤدة واتزان . فلا عجب إذا قيل أن الله قد أقامه طبيباً روحياً لأبناء وطنه ولجميع الملتفين حوله» (١) .

٨٩- ولم يضع الأنبا أنطونى نظاماً للحياة النسكية ، ولم يطالب النساك إلا بالصلاة والتقشف والعمل اليدوى اقتداء بالسيد المسيح الذى كان نجاراً ، وببولس الرسول الذى كان يعيش من صنع الخيام ، وعملاً بارشاد الملاك الذى ألبسه الاسكيم .

وقد حدد الأنبا أنطونى الساعات التى تقام فيها الصلوات وتنحصر هذه الصلوات فى تلاوة بعض المزامير ، ومقتطفات من أسفار العهد الجديد ، وبعض الصلوات التلقائية الفردية والجماعية . وكان الجميع يعدون الصلاة الصلة بينهم وبين الخالق تعالى . وفى ذلك قال الأثرى الفرنسى آميلينو : « إن أولئك النساك كانوا يعتقدون أنهم إذا أدوا فريضة الصلاة بأمانة كان لهم الحق فى أن يقبل الله صلواتهم . وقد وصلت إليهم هذه العقيدة من جدودهم الفراعنة (٢) .

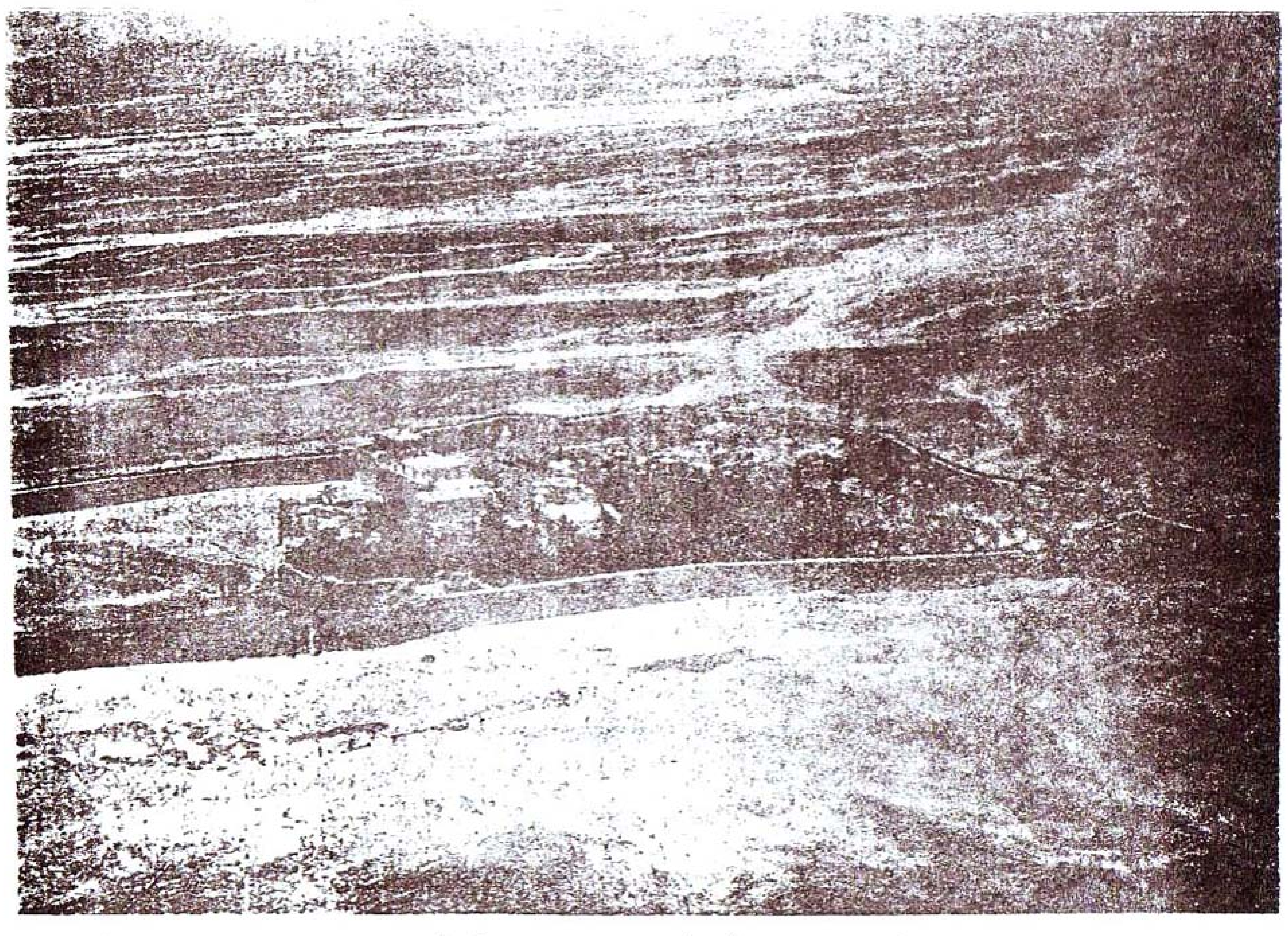
أما التقشف فقد قصد أنطونى به الاحتفاظ بالعفاف التام ، ولو أنه كان يرى أن اخضاع الارادة الانسانية للارادة الإلهية أسمى مرتبة من التقشف المؤدى إلى اخماد الحواس الجسمية . بحيث أنه كان يشعر بعطف شديد نحو من ينزلقون فى هاوية الخطية الجسدية ثم يتوبون توبة صادقة .

أما العمل اليدوى فكان ضرورة لا بد منها لأن الناسك لا يليق به أن يكون متعطلاً ، ولا أن يعيش عالة على غيره ، بل يجب عليه أن يعيش من عمل يديه وبعرق جبينه ، وأن يجود على الفقراء بما جاد به الله عليه . وإذا كان الشيطان يجرب الشخص المشتغل بعمل فهو - بأولى حجة - يجرب الراهب المتعطل الذى لا يأتى عملاً .

---

(١) « حياة القديس انطونيوس » المأخوذة عن كتاب « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية سير واليس - بودج جـ١ ص١٩ ، ٦٠ ، ٧٠ .

(٢) « القديس انطونيوس وبدء الرهبنة المسيحية فى مصر » (بالفرنسية) لآميلينو ص٣٢ - ٤٠ .



دير القديس العظيم الأنبا أنطونى كوكب البرية وأبى الرهبان

٩٠- وإذ كان الأنبا أنطونى لم يضع نظامًا للأديرة إلا أنه وضع زياً خاصاً بالنساك . وقد اتخذ هذا الزى عن كهنة الفراعنة لأنه كان يلبس ثوباً من الكتان الأبيض هو ورهبانه . ولم يلبث هذا الزى المأخوذ عن الكهنوت الفرعونى أن انتشر بين جميع رهبانات العالم - وإن كان قد ادخل عليه شئ من التعديل (١) .

٩١- ولم يقتبس الأنبا أنطونى من المصريين القدامى زيهم فحسب ، بل اقتبس منهم لغتهم الفرعونية أيضًا ، لأنه على النقيض من معظم آباء الكنيسة المصرية كان يجهل كل لغة غير القبطية حتى لقد تجاسر بعض الكتّاب أن يقول عنه انه كان امياً (٢) .

٩٢- وقد رأى الأنبا انطونى أن يلبى دعوة أخوته وأبنائه الرهبان المنتشرين فى أطراف البرارى المصرية فأخذ يتنقل من برية إلى برية مع نخبة من رهبانه تلبية لنداء هؤلاء الأخوة والأبناء . وكان يحمل لهم الخبز والماء جمل كان قد اقتناه معًا عدد من الأخوة العائشين فى منطقة الأنبا انطونى . ولم تقتصر هذه الزيارة على صوامع النساك فحسب بل تعدتها إلى صوامع الناسكات ايضًا حيث التقى أبو الرهبان بأخته التى كانت قد اقتفت اثره فى التنسك والتعبد لله . وكان عدد الرهبان والراهبات ضخماً جداً لأن حياة الأنبا أنطونى فى حد ذاتها كانت الرسالة الحية المقروءة من جميع الناس فاجتذب هذه الجموع الغفيرة إلى الرهبنة .

٩٣- وبعد أن قضى الأنبا أنطونى فى الصحارى خمسة وثمانين سنة ، وكان قد عاش عشرين سنة فى العالم قبل ذلك ، انتقل إلى مساكن النور مذكوراً بفضائله الجمة وحياته العجيبة . وحينما شعر بأن ساعته قد دنت استدعى تلميذين من أخصائه وأوصاهما بأن يحفروا قبره دون أن يطلعا احداً على مكانه حتى لا يعرف إنسان المكان الذى يحوى جثمانه تجنبًا لتلك

---

(١) « القديس انطونيوس وبدء الرهبنة المسيحية فى مصر » (بالفرنسية) لآميلينو ص٤١ - ٤٣ .

(٢) « حياة القديس اثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه پول باربيه ص٤٠٧ والملحوظة المنشورة فى هامش الصفحة عينها .

العادة المتخلفة عن الوثنية وهى زيارة القبور وقضاء الأيام فيها . ثم قال لهما : «لقد أهدانى الأنبا أثناسيوس الرسولى عباءتى هذه -وكانت جديدة يومذاك- فلبستها حتى أبليتها . والآن لم تعد لى حاجة إليها فأرجو منكما أن تعيداها إليه . كذلك أعطياه غطاء سريرى . أما ثوبى الجلدى فأعطياه للأسقف سرابيون . واحتفظا لنفسيكما بفراشى هذا الذى صنعته من الشعر بيدى والذى رقدت فوقه سنين طويلة » . ثم قبلهما القبلة الرسولية وقال لهما : « والآن أستودعكما الله لأنى ذاهب إلى حيث تقودنى النعمة الإلهية » (١) .

٩٤- ولا يزال دير الأنبا أنطونى قائمًا للآن على مقربة من البحر الأحمر . ويقرر التقليد الكنسى أنه بنى فى البقعة التى تقدست بأنفاس هذا القديس العجيب كوكب البرارى المصرية وأبى الرهبان جميعاً .

وإلى جانب هذا الدير توجد مغارة طبيعية قائمة على تل صخرى - هى المغارة التى قضى فيها معظم حياته . وكان الوصول إلى الدير الأنطونى حتى عهد قريب غاية فى الصعوبة إذ لم يوجد طريق إليه غير طريق القوافل ، وبعد أن يصل الزائر إلى الدير يجد صعوبة قصوى فى الوصول إلى المغارة الأنطوانية لأن بلوغها يتطلب تسلق الصخور المؤدية إليها . أما الآن فقد أصبح الوصول إلى الدير أمراً ميسوراً لأن الطرق الصحراوية والسيارات قد جعلت الوصول إلى الدير من القاهرة ممكناً فى ساعات قليلة .

وكان الدمار قد حل بهذا الدير فى القرن الثامن عشر - فظل مهجوراً مدى ثمانين سنة . ثم قيض الله لكنيسته المتنيح الأنبا كيرلس الرابع (البابا الاسكندرى الـ ١١٠) المعروف بأبى الاصلاح ، فرممه وبنى اسواره . وقد أتم ترميمه من جاء بعده من أحبار الكنيسة المصرية .

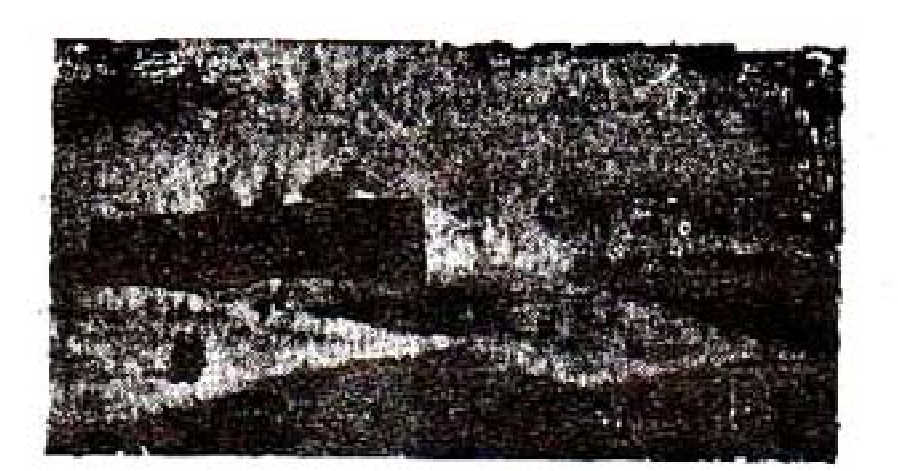
٩٥- ويبدو أن جاذبية الأنبا أنطونى تتزايد على مر العصور . ففى عام ١٩٤١ ألقى سفير بلجيكا فى مصر (٢) محاضرة موضوعها : « مجد القديس أنطونيوس بعد مماته » . وقد بدأ محاضرته بلمحة عابرة على حياة القديس المصرى العظيم ، ثم حمل المستمعين إليه على أجنحة الخيال إلى أوروبا

---

(١) « حياة القديس أنطونيوس » مأخوذة عن كتاب « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١١٤ .

(2)Le chevalier Guy de Schouteete de Tervarent

الغربية حيث أحرز الأنبا أنطونى صيتاً بعيداً فى العصور الوسطى . وكان السبب لذيوع صيته أن أحد الأشراف الفرنسيين زار الأراضى المقدسة فى القرن الحادى عشر ، ومر فى عودته بالقسطنطينية حيث حصل من امبراطورها على الاذن بنقل رفات زعم أنها رفات الأنبا أنطونى وحدث سنة ١٠٩٠ أن انتشر الوباء فى أوروبا الغربية ، ولما اشتدت وطأته أشيع بأن رفات الناسك المصرى العظيم لها قوة الشفاء – وقد تمت بعض الأشفية بالفعل عن طريقها . ولم يلبث أهالى غرب فرنسا أن بنوا كنيسة وضعوا داخلها رفات القديس ، ثم بنوا إلى جانبها مستشفى . وقام بعد ذلك نظام رهبانى أطلق على المنتمين إليه اسم « الأنطونيين » . ومن ثم امتد أثر القديس إلى جميع أنحاء أوروبا الغربية ، واتخذ تقديسه أشكالاً مختلفة تبعاً للمنطقة التى امتد إليها . ولم تمض غير مدة وجيزة حتى أحرز المركز الرئيسى للأنطونيين فى مدينة سانت أنطون دى فيينوا [١] شهرة واسعة فأصبح مركزاً للحج . وكانت الكنيسة تزين أيام الأعياد بلوحة ضخمة تحوى مئتى منظر عن حياة الأنبا أنطونى . ومما يؤسف له أن هذه اللوحة اندثرت ، ولكن المخطوط المنطوى على سيرة الأنبا أنطونى لا يزال محفوظاً فى تلك المدينة ، وهو يتضمن هذه المناظر جميعها (ولكنها مصغرة) . وقد عثر الباحثون أخيراً على أسطورة شرقية منمقة ساعدتهم على تفهم المناظر الممثلة لحياة هذا الناسك المصرى العجيب وأوضحت ما كان منها مبهماً [٢] .



صورة لدير فى الصحراء الغربية

(1) Saint Antoine - De - Viennois en Dauphiné .

(٢) راجع محاضرة الشيفالييه جى دى شوتيت دى تيرفارون (بالفرنسية) المنشورة فى مجلة الآثار القبطية العدد السابع ، سنة ١٩٤١ ، ص٧٤ – ٧٦ عن « مجد القديس أنطونيوس بعد مماته » ، راجع أيضاً مقالاً للأب سيلفستر شولر نشره مع ترجمته فى مجلة معهد الدراسات القبطية العدد الأول ، سنة ١٩٥٨ ، عن « تكريم الأنبا أنطونيوس » ص٣١ – ٤١ (بالفرنسية) و٢٦ – ٤٥ (بالعربية) .

بناء أول كنيسة

(٩٦) مكسيموس : نشأته وانتخابه الخليفة الخامس عشر لمارمرقس .

(٩٧) استتباب السلام .

(٩٨) رسالتا الأنبا مكسيموس ضد بدعتي الساموساطي وماني .

(٩٩) ازدهار كنيسة الاسكندرية برجالها الاعلام .

(١٠٠) كاهنان مصريان ينتخبان بالتتالى لأسقفية سوريا .

(١٠١) سهر الأنبا مكسيموس على رعيته .

(١٠٢) انتخاب الأنبا تينوناس وبناء أول كنيسة .

(١٠٣) اعتلاء دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤م .

(١٠٤) رسالة الأنبا تينوناس إلى لوقيانوس كبير أمناء القصر.

(١٠٥) موقف آباء الاسكندرية من الفلسفة .

(١٠٦) نياحة الأنبا تينوناس قبل اندلاع نار الاضطهاد .

٩٦- لما خلت السدة المرقسية بانتقال البابا ديونيسيوس إلى الأخدار السماوية ، كان فى الاسكندرية قسيس يدعى مكسيموس مشهود له بأنه قد تحمل الإضطهاد الذى أثاره الامبراطور دقيوس بصبر عجيب وبهدوء ورضى. فذكر له الشعب هذا الاحتمال وانتخبه ليكون الخليفة الخامس عشر للقديس مرقس ، ومن ثم رسمه الأساقفة سنة ٢٦٢م .

ولقد ولد مكسيموس من أبوين مسيحيين فأحسنا تربيته ، وألحقاه بالمدرسة الاسكندرية أيام أن كان أوريجانوس مديراً لها . ولم يبرع فى العلوم المسيحية فحسب ، بل برع فى الفلسفة أيضًا - إلى حد أنه نال الحق فى أن يرتدى ثوب الفلاسفة (١) . فجمع بين الفلسفتين : المسيحية والوثنية . ولم يلبث أن رسم شماسًا فقسيساً . ولما كان يمتاز بفصاحة اللسان فقد عينه البابا ديونيسيوس واعظاً للكنيسة المرقسية فتفانى فى خدمة الشعب وفى

---

(١) كان للفلاسفة فى ذلك العهد (روب) خاص بهم كما هو الحال مع المحامين وأساتذة الجامعات الآن .

تعليمه . وقد أهلته هذه الخدمة لأن ينال من تقدير الشعب وحبه ما ادى إلى انتظامه فى سلسلة الخلافة المرقسية .

٩٧- ومن حسن الحظ أن السلام كان قد استتب فى عهده لأن نار الإضطهادات التى كانت مشتعلة فى رياسة الأنبا ديونيسيوس كانت قد أخمدت . فوجد الأنبا مكسيموس الفرصة سانحة ليثبت الشعب على الإيمان الأرثوذكسى بأن عزى القلوب الحزينة وهدى النفوس الشاردة .

٩٨- ولم يمض على تسليم الأنبا مكسيموس مقاليد الرياسة غير مدة يسيرة حتى وصلته رسالة من مجمع انطاكية المكانى ينبئه فيها بقراراته التى اتخذها بأزاء بولس الساموسطى وبدعته . فانتهز البابا الاسكندرى هذه الفرصة ويعث إلى شعبه برسالة أطلعه فيها على سموم هذه البدعة وحذره من الانزلاق فيها . ثم رأى أن يحذر الشعب أيضًا من بدعة أخرى هى بدعة مانى فكتب رسالة أوضح فيها ما تنطوى عليه من ضلال . ومانى هذا ادعى بأن هناك إلهين احدهما إله الخير ومسكنه النور ، وثانيهما إله الشر ومسكنه الظلمة . وقد أوضح الأنبا مكسيموس إيمان الكنيسة بالله الواحد مصدر الخير ومنبع النور وبين لشعبه أن الشيطان هو الذى يسكن الظلمة وهو الذى يجذب الناس إلى الشر بتجربته إياهم . فكانت هذه الرسالة الراعوية أشبه بالبلسم الشافى للقلوب الجريحة .

٩٩- ولقد كانت كنيسة الاسكندرية فى هذا العصر أزهى كنائس المسكونة اطلاقاً [١]. وكان ازدهارها راجعًا إلى من نعمت بهم من آباء أعلام . ومن هؤلاء الآباء الذين ناصروا الأنبا مكسيموس وشاطروه جهاده الأنبا فيلياس أسقف أتمى . فقد كتب هذا الأسقف رسائل عديدة لتثبيت شعبه على الإيمان القويم ، كما ترنم ببطولة الشهداء ، وقد انتهى به الأمر أن فاز باكليل الشهادة هو نفسه .

١٠٠- ولم يكن الأساقفة وحدهم الأعلام المبرزين فقط ولكن الكهنة

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٣٤ حيث قال :

" L'Eglise la plus lumineuse a cette époque fut, sans contredit, celle d'Alexandrie ".

أيضاً جاهدوا إلى جانبهم بالقول وبالفعل . وبين الممتازين من الكهنة فى هذا العهد قسيسان هما أوسابيوس وأناطوليوس الاسكندريان اللذان كان الأنبا ديونيسيوس قد أرسلهما إلى انطاكية لتمثيله فى مجمعها المنعقد لمحاكمة بولس الساموساطى .

ولما انفض هذا المجمع طلب إليهما الشعب السورى أن يبقيا بينه ، فلبيا الدعوة . ولم يلبث هذا الشعب أن ابدى تقديره لهما بانتخابه أوسابيوس أسقفًا لأنه كان يعده كنزاً للدين (١) . وبعد انتقال أوسابيوس إلى الأخدار السماوية لم يتردد هذا الشعب التقى فى أن ينتخب أناطوليوس خليفة له . لأن هذا الكاهن كان من أعلم رجال عصره ، فقد برع فى الرياضيات والعلوم الطبيعية . ووهبه الله تعالى (إلى جانب ذلك) فصاحة خلابة . وقد وضع الأسقف أناطوليوس عدة مؤلفات بينها كتاب فى علم الفلك يبين الطريقة المثلى لتحديد عيد الفصح . وقد حذا فى كتابه حذو باباوات الاسكندرية الذين وضعوا دورة تتألف من تسع عشرة سنة (٢) .

هؤلاء - وغيرهم من الأعلام المصريين - وفى طليعتهم الأنبا مكسيموس أتيح لهم أن يجاهدوا ، وأن يستمتعوا بثمار جهادهم لأن السلام استمر ناشراً ألويته مدة أثنتى عشرة سنة .

١٠١ - ومما يؤسف له أن مؤلفات الأنبا مكسيموس لم يبق منها سوى بعض الشذرات على أن ما اشتهر به من قداسة ومداومة على التعليم جعلت شعبه يجله مدى حياته وبعد مماته . ولقد رعى شعب المسيح بأمانة وهمة مدى السنين التى قضاها على السدة المرقسية والتى انقضت كلها فى طمأنينة وسلام ووئام .

١٠٢ - وبعد ان انتقل الأنبا مكسيموس إلى بيعة الأبكار انتخب الاكليروس والشعب الأنبا ثيئوناس : رجلاً ممتلئاً نعمة وحكمة ، وبانتخابه أصبح البابا الاسكندرى الـ١٦ سنة ٢٧٤ م . ش.

---

(١) « تاريخ الكنيسة » للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٣٥ .

(٢) شرحه جـ٢ ص٢٣٢ - ٢٣٦ .

وقد شاءت العناية الإلهية أن يكون هو البانى لثانى كنيسة بعد الكنيسة المرقسية . وهكذا منحه الله نعمة ضن بها على أسلافه . فكان شأنه فى ذلك شأن الملك سليمان الذى بنى هيكل أورشليم مع أن أباه داود الملك النبى كان يتمنى أن يبنيه ولكن لم تحقق له الإرادة الإلهية هذه الأمنية (١) . ولم يكن المسيحيون - على تزايد عددهم - قد استطاعوا أن يبنوا كنيسة منذ أن شادوا الكنيسة المرقسية بسبب الإضطهادات . فكانوا خلال هذه المدة التى تناهز القرنين يجتمعون فى بيوتهم الخاصة أو فى المقابر . وكان الغرض الذى يهدفون إليه من اجتماعاتهم حول المقابر هو أن يعلنوا للوثنيين أن الصلة بينهم وبين من انتقلوا إلى عالم الأرواح باقية لم تنقطع . فلما مرت اثنتا عشرة سنة لم يقطع صفوها إضطهاد ، استطاع الأنبا ثيئوناس أن يبنى الكنيسة - التى هى الكنيسة الثانية فى القطر المصرى . ودعاها باسم السيدة العذراء والدة الإله (أو ثيئوتوكس) (٢) .

١٠٣- واستمر السلام ناشراً ألويته حتى أوائل سنة ٢٨٤م . ش. وفى تلك السنة اعتلى ديوقلديانوس عرش الامبراطورية الرومانية . وكان أرشلاوس فى تلك الآونة واليًا على الاسكندرية فلم يشأ أن يعلن خضوعه لهذا الامبراطور ونادى بنفسه امبراطوراً . فقامت بين الأثنين معارك دامية انتهت بانتصار ديوقلديانوس فدخل الاسكندرية دخول الظافرين ، ودك أسوارها كما أذاق شعبها مر العذاب لمناصرته لأرشلاوس .

١٠٤- ولما قبض على زمام الحكم فى البلاد استقر السلام بضعة شهور . وفى هذه الفترة بعث الأنبا ثيئوناس برسالة إلى لوقيانوس كبير أمناء القصر الامبراطورى قال له فيها : « إن السلام الذى تستمتع به الكنيسة الآن إنما هو نعمة من الله منحنا إياها لنقوم بأداء كل عمل صالح تمجيداً لاسمه القدوس . فليكن هدفنا التمسك بالمسيحية فعلاً لا اسمًا . لأننا إن سعينا وراء تحقيق مجدنا الخاص فنحن نسعى وراء ما يفنى ويزول ، أما إن سعينا وراء مجد الله فنحن نسعى وراء ما هو باقٍ وخالد . لهذا أمل أن لا

(١) ٢ صموئيل ٧ : ٤ - ١٤ .

(٢) « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ١ ص٥ .

تباهى بما وصل إليه بعض رجال البلاط من معرفة لحق الانجيل عن طريقك ، بل بالحرى قدم للّه الحمد والتسبيح على أنه تعالى قد اتخذك وسيلة لابلاغ كلمته إلى أفراد رعيته . كما أرجو أن تشكره تعالى لأنه منحك نعمة جعلتك مقرباً لدى الامبراطور لتكون لديه رائحة المسيح الذكية » .

وبعد ذلك أخذ الأنبا ثيئوناس يحث لوقيانوس على أن يكون نصيراً للحق ومناوئاً للباطل فى البلاط الامبراطورى . ثم قال له : « لا قدر اللّه أن تكون ممن يرتشون لبلوغ مأرب أو لتملق السلطان . وأن نصيحتى لك هى أن تمقت البخل الذى أذل أعناق الرجال ، وأن تتنزه عن حب المال الذى هو أصل كل بلاء والذى لم يكن إلا نوعًا من العبادة الوثنية . اعتصم بالوداعة واللياقة والأدب ، وإياك والتفوه بألفاظ نابية ليتمجد اسم مخلصنا يسوع المسيح فى كل ما تعمل وما تقول . أد واجبك على الوجه الأكمل ، واحبب كل من هم معك فى القصر وعد ما يصدر لك من أوامر امبراطورية صادراً من اللّه بالذات مادام غير مخالف لتعاليمه له المجد . تمنطق بالفضيلة وليكن قلبك مفعمًا بالإيمان والرجاء والمحبة » . وقد ختم الأنبا ثيئوناس رسالته إلى لوقيانوس بقوله : « خصص من وقتك فترة للصلاة وتلاوة الكتاب المقدس الذى تتخذه لك دستوراً تسلك فى حياتك بمقتضاه فتنال بذلك حياة الأبد » (١) .

١٠٥- وإن ما امتاز به آباء كنيسة الاسكندرية فى هذه الفترة من تضلع فى العلوم الفلسفية دفع بعض الكتاب العصريين إلى الزعم بأن الفلسفة الأفلاطونية الحديثة (٢) كان لها أثر بالغ فى تعاليم الكنيسة . وهذا زعم باطل لأن تعاليم الكنيسة المصرية كانت قد انتشرت وعمت الأصقاع قبل أن يظهر فى الوجود أمونيوس السقاس وبلوتينوس وغيرهما من أصحاب هذه الفلسفة الأفلاطونية الجديدة . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن آباء الاسكندرية ومعلميها قد امتازوا بمقاومتهم للروح التى كانت ترمى إلى ادماج الفلسفة (أفلاطونية كانت أو غير أفلاطونية) بالتعاليم المسيحية (٣) .

---

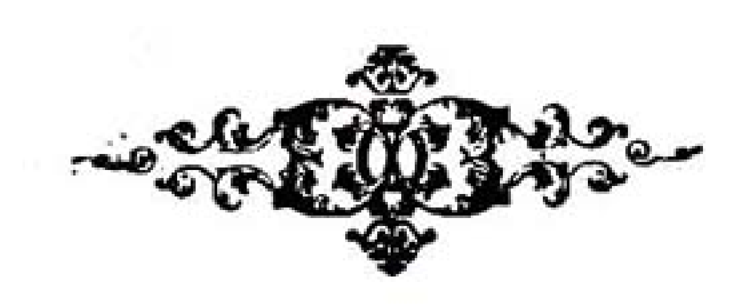
(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص٨٥ - ٨٦ ، « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٤٢٢ .

(٢) أو نيوبلاتونزم neo - platonism .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٢٨ - ٢٢٩ .

١٠٦- على أن عهد السلام الذى ساد البلاد فى صدر امبراطورية ديوقلديانوس لم يلبث أن انقلب إلى عهد من أشّر عهود الإضطهاد التى عرفها التاريخ . إذ قد بلغ من قسوة المضطهدين أن ينزلوا بالمسيحيين من صنوف التعذيب ما كان يجعل الوثنيين أنفسهم يقشعرون من هوله ويحاولون أن يخفوا المسيحيين الذين كانوا يشكرونهم على شفقتهم ثم يندفعون إلى مناقع العذاب وهم يسبحون ويهللون .

ويبدو أن الأنبا ثيئوناس قد أحس احساساً خفيًا بما كان ينتظر شعبه من بلايا فجاهد فى تثبيته على الإيمان الأرثوذكسى حتى أن من خلفه من الأحبار كانوا يجهرون بأنهم لم يحيدوا قط عن تعليم سلفهم العظيم البابا ثيئوناس الذى شاءت مراحم العلى أن ينتقل إلى مساكن النور قبل أن تنزل هذه البلايا بأبنائه (١).



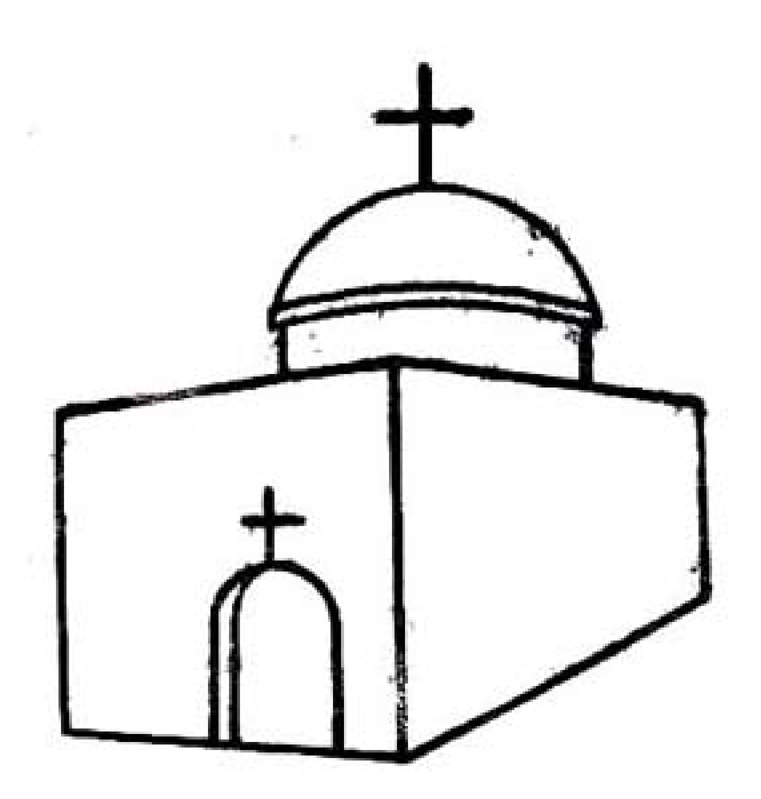
(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص١٣٥ - ١٣٦ .

لمحة عن بيريوس

(١٠٧) بيريوس خير خلف لأوريجانوس العظيم .

١٠٧ - كان بيريوس الخليفة الرابع لأوريجانوس فى رياسة مدرسة الاسكندرية إذ قد تسلم مقاليدها فى باباوية الأنبا ديونيسيوس (١) . ولقد امتاز هذا العلامة بحجة المنطق وبالقدرة على القاء الكلام فى عذوبة خلبت ألباب معاصريه فتقاطروا على المدرسة ليسمعوه وأطلقوا عليه لقب «أوريجانوس الصغير» . وبلغت ثقة الناس به حداً جعلت أعظم المفكرين يسارعون إلى التتلمذ له . ومن بين تلاميذه النابهين بمفيليوس الذى كتب دفاعاً عن أوريجانوس . وإلى جانب الصفات العقلية التى امتاز بها بيريوس صفات روحية عظمى منها الفقر الاختيارى والنزاهة التامة مما حبب فيه القلوب ودفع الناس إلى تشييد كنيسة فى الاسكندرية سموها باسمه .

ولقد كتب بيريوس الكثير من الرسائل بينها رسالة عن هوشع النبى غاية فى الابداع . على أن هذه الرسائل التعليمية قد ضاعت فلم يبق منها غير شذرات (٢) .



(١) « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان فى هامش ص٢٧٩ .

(٢) « قديسو مصر » للآب پول دورليان جـ٢ ص٤٨٠

الأنبا بطرس خاتم الشهداء

(١٠٨) بطرس ابن صلوات حارة .
(١٠٩) رسامته شماسا فقسيسا ثم تعيينه مديرا للمدرسة الاسكندرية .
(١١٠) مواهب الله تتجلى فيه .
(١١١) انتخابه البابا السابع عشر للسدة المرقسية .
(١١٢) ميليتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) أول مشاغب فى الكنيسة .
(١١٣) اندلاع نار الاضطهاد الذى أثاره دقلديانوس .
(١١٤) وصف أوسابيوس القيساري بطولة المصريين داخل بلادهم وخارجها .
(١١٥) قوانين الأنبا بطرس للتائبين ولصوم يومى الأربعاء والجمعة .
(١١٦) الأنبا بطرس شبيه بموسى النبى : رأى أرض الموعد ولم يدخلها .
(١١٧) وحدة الصبغة (المعمودية) المقدسة .
(١١٨) أريوس يحاول الحصول على الحل من الحرم الصادر ضده .
(١١٩) القاء الأنبا بطرس فى السجن ثم قتله بحد السيف .
(١٢٠) عصر الشهداء .
(١٢١) القبط يتركون الأمور بين يدى الله الآب .
(١٢٢) عناية امرأة مسيحية بالامبراطور ديوقلديانوس عند مرضه الأخير .

١٠٨- إن كل ما قاساه المصريون من إضطهاد لم يكن ليثنى آباء الكنيسة عن مواصلة جهودهم الفكرية الروحية فى سبيل تعزيز الإيمان الأرثوذكسى (١) . وكانت إدارة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية قد آلت إلى كاهن اسمه بطرس . وهذا الكاهن ولد من أبوين بارين شبيهاً بزكريا واليصابات لكونهما لم يرزقا طفلا . وكانا فى الوقت عينه سالكين حسب وصايا الله وأحكامه (٢) . فأنجبا ابنهما بعد صلوات حارة دامت سنين طويلة . وكان أبو بطرس قسيساً كزكريا ، وأمه سيدة تقية . وحدث ذات يوم أن قصدت إلى الكنيسة للاشتراك فى الاحتفال باستشهاد الرسولين بطرس

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٢٦ .
(٢) لوقا ١ : ٦ .

وبولس . فتألمت حين رات الأمهات يحيط بهن أولادهن ، واستشفعت بالرسولين الشهيدين أن يضرعا إلى الله تعالى كى يهبها ولداً . وكانت ضراعتها مقترنة بدموع سخينة . وبعد الإنتهاء من القداس الإلهى عادت إلى بيتها . وفى تلك الليلة رات فى المنام شيخين بثياب بيض قالا لها : « لا تحزنى أيتها السيدة الأمينة فإنه تعالى سيرزقك ولداً يكون اباً لشعب عظيم . فمتى استيقظت فى الصباح فاذهبى إلى الأنبا ثيئوناس واخبريه بما رايت » .

وفى الصباح اخبرت زوجها بما رات فاستبشر خيراً ، وهنا اختلف هذا الكاهن التقى عن زكريا لأنه آمن على الفور ، واشار على زوجته أن تنفذ ما امرها به الشيخان فتذهب إلى البابا الاسكندرى وتعلمه بما رات . فباركها وقال لها : « ليكن لك ما انبأتك به السماء – فالله صادق امين وعجائبه تتجلى فى قديسيه » .

١٠٩– وما لبثت هذه الأم التقية أن ولدت ابناً أطلق عليه اسم بطرس . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره رسم شماساً . وعندما بلغ اشده رسم قسيساً . وقد اشتهر هذا القسيس بتعمقه فى العلوم اللاهوتية والمدنية مما اهله لأن يعيَّن مديراً للمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأن ينال لقب « المعلم البارع فى الدين المسيحى » (١) .

١١٠– وكان بطرس ذا إيمان حار وغيرة متقدة ، فوهبه الله نعمة اجراء الآيات والعجائب . وحدث ذات يوم أن كان المؤمنون مجتمعين للصلاة فى الكنيسة . وعند خروجهم منها على اثر الانتهاء من الصلاة فوجئوا عند بابها برجل مصاب بروح نجس يرشقهم بالحجارة ، فهرولوا إلى داخل البيعة فراراً من أذاه ، واخبروا البابا ثيئوناس بما كان . فاستدعى غبطته القس بطرس وطلب إليه أن يبادر باخراج الروح النجس من هذا البائس . فاستحضر الأب بطرس وعاء ممتلئاً ماء ثم طلب إلى البابا أن ينفخ فى الماء

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى ٢ ص٢٢٨ حيث يقول أن الأنبا بطرس كان يلقب بكلمات :

" Excellent Docteur de la religion Chrétienne "

بنفســه وأخـذ الماء ورش بـه وجـه الرجـل المصـاب فشفى فى الحـال (١) .

١١١- وكـان لما أوتـيـه هـذا القـسـيس من صــلاح ومن مـقـدرة علـى صنع الآيات والعـجـائب أثره فى نفـوس الشـعـب الاسـكندرى فأحـبـه حـباً جـمًا . ولما دنت سـاعـة الأنبا ثـيـئـوناس التف حـوله بعض أخـصـائه باكين قـائلين : « هل تتـركنا يـتـامى يا أبانا المبـجل ؟ » فـابتـسـم فى دعـة . وأشـار بـيـده إلى بطرس وقــال : « هـذا أبوكم الذى يرعــاكم من بعــدى » . وهـكذا تمت الـنبـوة وأصــبح بطرس القـسـيس المحـبوب من الشـعـب الخليفـة السـابع عشـر للقديـس مرقس الرسـول الإنجيلى فـى سـنة ٢٨٥م . ش. وأبا لشعب الكرازة المرقسـية .

١١٢- وقـد تفشت الإضـطرابات والـقلاقل طيلة الـسـنين التى قضـاها هـذا البابا الاسـكندرى القـديس على السـدة المرقسـية . فلـم يكد يتولى مهـام الرعاية حتى ظهر ميليتيوس أسـقف ليكوبـوليس (أسيوط) الذى تسـفل إلى التبخير للأوثان . فـعقـد الأنبـا بطرس مجـمـعاً اسكندرياً وقـع عليـه الحـرم . فلم يذعن ميليـتيوس لهـذا الحـكم وتمادى فى ضـلاله إلى حـد أنه رسـم أساقـفة أطلق على أحـدهـم لقب « أسـقف الاسـكندريـة » . وقد نجـح فى اكتـسـاب عدد من الأنصـار وفى طليعتهـم أريوس القس الليبى الذى كان قد تلقى العلـم فى مدرسـة لوقيان الأنطاكى كـما اسـتـسـاغ الـتـعاليم الابـتداعـية التى أثارهـا بولس السـامـوسطى ، فكان رغم علـمـه وفـصــاحـتــه مـيـالاً إلـى الانـزلاق فى البـدع والجـرى وراء كل مشاغب معكر للصفو (٢) . ووجد الفرصـة سانحة ليشـبـع ميله إلى اثارة الفتن فتشـيـع لميليـتيوس أسـقف ليكوبوليس الخـارج على رئيسـه الـشـرعى . وقد نال أريوس عـقــابه الحق إذ قـد أصـدر المجـمـع الاسـكـندرى برئاســة الأنبــا بطرس الحـرم ضــده مع حرمـهـم مع هـذا الأسـقف الـيكوبولى المشـاغب . على أن الحـكم بالحـرم لم يكن كافـيًا لـردع أريوس فـلم يلبـث أن تردى فى بدعـة انكار لاهـوت المسيح .

---

(١) « آداب السـلوك فـى تاريخ البطاركــة والملوك » لـراهـب بـرمــوســى جـ١ ص٦١ . مـخطوط / ٦٠٨ يرجع تاريخـه إلى سنة ١٢٧٤ش (سنة ١٥٥٨م) مـحـفوظ بمكتبة البطريركية بالقاهـرة يحوى عجائب الأنبا بطرس خاتمة الشـهداء .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ١ ص٥٥٩ ، دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة جـ٢ ص٣٥٩ .

ولقد شاء ميليتيوس أن يحجب ما سقط فيه من ضلال بتبخيره للأوثان ، فأنكر هذه التهمة وادعى أن ما بينه وبين الأنبا بطرس من خلاف إنما يرجع إلى أن هذا البابا الاسكندرى نهج منهج سلفه الأنبا ديونيسيوس القاضى بوجوب التسامح مع الجاحدين التائبين ، على النقيض منه هو الذى يرى وجوب الاقتصاص منهم . فكان هذا الأسقف الليكوبولى أول من أحدث شغباً فى كنيسة الاسكندرية .

١١٣ – وفى هذه الأثناء ثارت ثورة الامبراطور ديوقلديانوس على المسيحيين فى جميع أنحاء امبراطوريته فأصلاهم ناراً حامية . ذلك لأن المسيحية كانت قد انتشرت انتشاراً روع الحكام المدنيين . وحدث فى تلك الآونة ان ذهب ديوقلديانوس إلى الهيكل ليستشير الآلهة فى أمر هام ، واستصحب رجال البلاط وبينهم المسيحيون فانتهز الكاهن الوثنى الفرصة وقال للامبراطور : « إن الآلهة لا تتكلم فى حضرة أعدائها » . وبتأثير هذه الكلمة أصدر الامبراطور امره بطرد جميع الذين لا يرفعون القرابين للآلهة من البلاط الامبراطورى ومن الجيش . ولم يلبث أن أصدر مرسومه القاضى بدك الكنائس ، وإحراق الكتب المقدسة ، وحرمان المسيحيين من الوظائف العامة جميعًا ، وحظر تحرير كل من كان منهم مستعبداً . فصبت عليهم كؤوس العذاب ولكنهم أبدوا من البسالة والجلد فى سبيل المحافظة على إيمانهم ما أصبح مضرب الأمثال . وقد صانوا كتبهم المقدسة باخفائها وبتقديم كتب المبتدعين بدلاً عنها للحكام الغاشمين . ولم يمض على هذا المرسوم إلا أيام معدودات حتى شبت النار فى القصر الملكى بنقوميديا واندلعت ألسنتها من غرفة ديوقلديانوس الخاصة . فازدادت ثورة غضبه حدة على المسيحيين وأصدر ثلاثة مراسيم أضيفت على المرسوم الأول : يقضى أولها بسجن الأساقفة ، وثانيها بإذاقتهم صنوف العذاب ، وثالثها بالقضاء على المسيحيين جميعاً ، وفى مقدمتهم زوجته وإبنته اللتان قد اعتنقتا الدين المسيحى . وكان هذا الإضطهاد هو السابع فى سلسلة الاضطهادات التى أثارها أباطرة الرومان على المصريين . وقد دام عشر سنوات متتالية .

١١٤ – ولقد وصف أوسابيوس (١) هذا الإضطهاد بقوله : « استمر التعذيب والقتل يومًا بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة وكان يستشهد في اليوم الواحد خمسون وثمانون ومئة – حتى لقد كان القتلة أنفسهم يسأمون أو يسقطون أعياء . وكان الهمجيون من القتلة يرمون النساء والأطفال في السجون بعد جرهم على الأرض في الشوارع إلى أن تتجرح أجسامهم وتسيل منها الدماء فتروى التربة المصرية وتضيف إلى خصبها نعمة . وعلى الرغم من القسوة والوحشية ، وعلى الرغم من أن الوثنيين أنفسهم كان يعروهم الهلع والاشتمئزاز من بطش حكامهم إلى حد أن البعض منهم كان يعمل على اخفاء المسيحيين في بيوتهم . وعلى الرغم من هذا كله ، فإن الشعب المصرى الأرثوذكسى اندفع بشجاعة عجيبة وجرأة نادرة إلى حيث تنتظره الأهوال في رضى وحبور . وكان المحكوم عليهم يسيرون وسط أناشيد التسبيح والتهليل كما لو كانوا ذاهبين إلى عرس (٢).

وبعد أن وصف أوسابيوس آلات التعذيب المختلفة وبطولة الشهداء في استقبالها قال : إن ما أبداه القبط من بطولة داخل أوطانهم لم يكن بأقل مما أبدوه خارجها . فقد حدث أن خمسة من القبط ذهبوا إلى قيسارية فلسطين ليبثوا روح الشجاعة في نفوس مواطنيهم المحكوم عليهم بالشغل في مناجم ذلك البلد . وبعد أن قاموا بواجبهم حاولوا العودة إلى بلادهم ، فعرف الحكام مكانهم إذ ذاك وقبضوا عليهم وأخذوا يستوضحونهم الباعث على مجيئهم إلى قيسارية . فاعترفوا بالحقيقة دون تردد وسيقوا إلى المحكمة . فلما مثلوا أمام القاضى سألهم عن أسمائهم فانتحلوا اسماء إيليا وإرميا وأشعياء ودانيال وصموئيل . فلم يدرك القاضى أن هذه اسماء منتحلة وسألهم عن موطنهم الأصلى فقالوا : « أورشليم السمائية » . وقد أثار هذا الجواب في نفس القاضى من الارتياب ما جعله يحكم باعدامهم بعد تعذيبهم توهمًا منه أن أورشليم هذه ستكون مدينة منافسة لروما . وهكذا انتقل هؤلاء الشهداء

---

(١) كان أسقفاً على قيسارية الكبادوك ولقبه ابو التاريخ الكنسى .

(٢) قارن بين هذا الوصف وبين ما جاء في رسالة العبرانيين ١١ : ٣٥ – ٣٨ ، راجع كتاب « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ، ص٢٨٠ .

إلى أورشليم السمائية بالفعل وهم بعيدون عن وطنهم المحبوب (١) .

وكان بين المعترفين (٢) الذين ذكرهم أوسابيوس فى تاريخه قبطى اسمه يؤانس ، كان قد بلغ سن الشيخوخة وفقد بصره عندما اندلعت نار الإضطهاد . غير أن هذا لم يحل دون تنكيل الرومانيين به إذ سولت لهم النفس الأمارة بالسوء حرق موضع عينيه الضريرتين ، وبتر إحدى ساقيه ، وإرساله بعد ذلك إلى فلسطين للعمل فى مناجمها مع غيره من القبط . وكان هذا الشيخ يحفظ آيات الكتاب المقدس عن ظهر قلب ويسمعها المؤمنين كما لو كان يقرأها فى كتاب . وقد سمعه الأسقف أوسابيوس (صاحب التاريخ الكنسى) يتلو آيات الكتاب المقدس على جمع غفير ، فلم يفطن إلى أنه يلقيها عن ظهر قلب ولا يقرأها فى كتاب إلا عندما دنا منه ورآه بعينه (٣) .

١١٥- وبدأت السنة الرابعة للإضطهاد - فشعر الأنبا بطرس أن الحالة تستدعى وضع قوانين تطبق على الجاحدين التائبين . وهذه القوانين تعد من التحف التهذيبية القيمة الخالدة التى تمتاز بصيغتها المنطوية على الرأفة والعطف والحنان . والعجيب أن رابع هذه القوانين هو أقرب إلى المرثية منه إلى القانون - فقد ناح فيه الأنبا بطرس طويلاً على الجاحدين الذين لم يتوبوا (٤) . والكنيسة فى مشارق الأرض ومغاربها تحترم هذه القوانين وكانت تسير بمقتضاها كلما قامت ظروف متشابهة .

---

(١) على من يريد أن يعرف تفصيل الاضطهادات والأهوال التى قاساها المصريون على يدى ديوقلديانوس أن يطالع كتاب « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٦٤ - ٢٧٤ .

(٢) المعترفون هم الذين تحملوا جميع صنوف العذاب ولكنهم لم يفقدوا الحياة - أى أنهم تعذبوا ولم يستشهدوا فهم لا ينقصون بسالة عن الشهداء لأنهم واجهوا المخاطر بنفس الشجاعة .

(٣) « تاريخ الكنيسة » للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٤) مما يجدر ذكره هنا أن أبى حبيب المصرى قال ذات يوم وهو خارج من الكنيسة بعد الإنتهاء من القداس الإلهى انه أحس وهو يصغى إلى صلوات الترحيم ولحنها الحزين أن الكنيسة لا تنوح على الذين فارقوا الحياة الدنيا وإنما هى تعبر فى حزنها هذا عن نوحها على الذين جحدوا الفادى الحبيب ولم يتوبوا .

وبعـد أن وضـع الأنبـا بـطرس هـذه القـوانين وجـه اللوم إلى اللـذين يعتـرضـون علـى صـوم يومى الأربعاء والجمعة ، مبيـناً أن هذا الصـوم قـد فرضته الكنيسة منذ صدر المسيحية لأن مؤامرة كهنة اليهود على المسيح قد تمت فى أول هذين اليومين كما تم صلبه فى ثانيهما . وفى النهاية قضى بعدم الامتناع عن الأكل فى يوم الأحد - لأنه يوم قيامة الرب من بين الأموات - ونصح بوجوب الامتناع عن السجود فى ذلك اليوم المبارك عملاً بما قرره الآباء الرسوليون (١) .

١١٦- ولقد خمدت نيران إضطهادات ديوقلديانوس وزميله غالاريوس فى الغرب قبل أن تخمد فى الشرق - هذا الشرق الذى كان مهد الجهاد الفكرى الروحى منذ العصور الرسولية ، مما دعا أباطرة الرومان إلى صب جام غضبهم عليه لعلهم يتمكنون من اخماد جذوته (٢) .

ومما يؤثر عن الأنبا بطرس أنه كان شبيهًا بموسى النبى فى أنه رأى أرض الموعد من أعلى الجبل ولم يتح له أن يدخلها (٣) . فقد سمع هذا البابا الاسكندرى أن نيران الإضطهاد خمدت فى الغرب ، كما بلغه أن غالاريوس وهو على فراش الموت قد أطلق للمسيحيين حرية العبادة . ولكن المشيئة الإلهية قضت أن ينال غبطته الاستشهاد فداء عن شعبه المصرى قبل أن يستتب السلام فى بلاده نهائيًا . ويبدو أن حدة الغضب كانت تتزايد لدى الحكام الرومان كلما واجهوا اصرار المصريين على الاحتفاظ بإيمانهم فدفعتهم إلى القبض على أربعة من أساقفة الكرازة المرقسية وقتلهم . وحين سمع الأنبا بطرس نبأ هذا الاستشهاد سجد شكراً للّه الذى اهل هؤلاء الأساقفة لهذا المجد (٤) .

١١٧- وبعد ذلك تخطى الامبراطور ديوقلديانوس فى الوحشية كل الحدود فأمر بإلقاء القبض على الأنبا بطرس نفسه رغم شيخوخته ومكانته

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ، ص٢٨٤ - ٢٨٦ .
(٢) شرحه جـ٢ ص٢٨١ .
(٣) تث ٣٤ : ١ - ٦ .
(٤) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب بول دورليان جـ٢ ص٥١٣ - ٥١٤ .

فى القلوب ، ومركزه الجليل . وكان السبب الذى دفع الامبراطور إلى اقتراف هذا الجرم الفظيع ما قدمه أحد الأشراف من شكوى تتلخص فى أن امرأته المسيحية غادرت أنطاكية وحضرت إلى الاسكندرية لكى تطلب إلى باباها أن يمنح أولادها الصبغة المقدسة (١) . وحدث أنه بينما كانت المرأة وولداها فى الطريق هبت عاصفة هوجاء ، فخشيت المرأة المؤمنة أن يغرق المركب دون أن يظفر ولداها بنعمة الصبغة . فجرحت ثديها اليمنى ورشمت علامة الصليب بدمها على كل منهما قائلة : « أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس » . ثم هدأت العاصفة (٢)، ووصل المركب إلى الاسكندرية بسلام . فأخذت المرأة الأنطاكية ولديها وذهبت على الفور إلى الكنيسة – وصادف وصولها يوم أحد التناصير . فانضمت إلى عدد غير قليل من الآباء والأمهات الذين جاءوا لينصروا أولادهم . وكان الأنبا بطرس يقوم بشعائر الصبغة بنفسه . ولما وصلت إليه الأم الأنطاكية وأخذ ولديها ليغطسهما فى جرن المعمودية ، جمد الماء . فتركهما وصبغ غيرهما . ثم عاود تغطيسهما ثانية وثالثة فكان الماء

---

(١) أن اليونانيين يعبرون عن المعمودية بكلمة « فابتزما » ومعناها الصبغة ، بينما يعبر عنها القبط بكلمة « اومس » ومعناها اغرق او غمر ، وكلا التعبيران يشير إلى وجوب التغطيس الكلى الذى كان الوسيلة لتعميد الأطفال فى الكنيسة الجامعة بأسرها فى العصور المسيحية الأولى كما يشهد بذلك الآباء . راجع دائرة المعارف الفرنسية للعلوم الدينية جـ٢ ص٥٣ – ٧٢ حيث ورد فى ص٥٨ ما نصه :

" A l' époque apostolique, le bapteme était administré par immersion et était suivi de l'impositions des mains " .

وص٦٢ حيث قيل :

" La régle de l'ancienne Eglise ... était de baptiser par tripleimmersion ... On baptisa donc, exceptionnellement, (les malades et les mourants) , par infusion ou par aspersion répétée trois fois. Cette coutume eut toutefois bien de la peine à s'établir, et fut longtemps regardée comme insuffisante ".

ثم فى ص٦٥ حيث ورد ما نصه :

" En 1311 la concile de Ravenne laissa le choix libre entre l'immersion et l'aspersion " .

ويتضح من هذه الشهادات أن المعمودية بالرش لم تبدأ فى الشيوع إلا فى مطلع القرن الرابع عشر .

(٢) جاء فى سنكسار الكنيسة تحت يوم ٢٩ هاتور فى سيرة الأنبا بطرس خاتم الشهداء أن الإمرأة غطست ولديها فى مياه البحر وهى تقول باسم الآب والإبن والروح القدس .

يجمد فى هاتين المرتين جموده فى المرة الأولى . فاستغرب الأمر وتحول إلى المرأة الأنطاكية مستفسراً عن السر فى ما يرى . فأخبرته بما فعلت أثناء العاصفة . وعندما ابتهج البابا الاسكندرى وقال لها : « عظيم هو إيمانك الذى أعلن الله تعالى رضاه عنه بقبوله الصبغة التى صبغت بها ولديك . لذلك أعطانا العلامة لهذا القبول بأن جعل الماء يجمد . لأن الصبغة واحدة لا تتكرر . وهذه العلامة التى أعلنها الآب السماوى لنا تجعلنى أكتفى بدهن ولديك بالميرون المقدس » .

وشاع أمر هذين الولدين فى الاسكندرية . ثم تقدم الشريف الأنطاكى الذى جحد إيمانه بالشكوى ضد امرأته المؤمنة إلى الامبراطور ، فثارت ثائرة دقلديانوس على البابا الاسكندرى وزعم أن فى القبض عليه وقتله أقوى رادع للمسيحيين عن الاستشهاد .

١١٨- وفى تلك الآونة - وقبل أن يلقى الجند القبض على الأنبا بطرس - حاول أريوس ناكر لاهوت المسيح أن ينال منه الصفح مدعياً أنه تاب عن بدعته . غير أن الأنبا بطرس قال فى حدة لا تتفق وطبيعته المتسامحة : « أن أريوس ملعون من فم الثالوث الأقدس » ، ثم أخذ تلميذيه أرشلاوس وألكسندروس على ناحية وقال لهما أنه رأى حلماً فى الليلة السابقة وقف فيه الفادى الحبيب أمامه بثوب ممزق من فوق إلى أسفل . فسأله : « من ذا الذى مزق ثوبك يا سيدى ومخلصى ؟ » أجابه : « هو أريوس » ثم استطرد الأنبا بطرس يقول : « عندما أعود إلى أبى السماوى تجلسان أنتما الواحد بعد الآخر على الكرسى المرقسى . وحينذاك إياكما أن تقبلا أريوس فى شركة الكنيسة المقدسة . كونا ثابتين ، ساهرين على الإيمان القويم بكل حكمة وسداد » .

١١٩- ولم يكد خليفة القديس مرقس يسدى لتلميذيه هذه النصيحة الغالية حتى قبض عليه وسيق إلى السجن . فتجمهر الشعب حول السجن يريد أن يفتدى راعيه المحبوب من براثن ديوقلديانوس ورجاله . وخاف الأنبا بطرس على شعبه ، لعلمه بأن الراعى الحق يبذل نفسه عن الخراف ، فاتفق مع الجند على أن يمهلوه حتى يهدئ من ثائرة الشعب المتجمهر . ثم خطب فى شعبه وحثه على أن يعود أدراجه فى سكينة وسلام . فرضخ الجميع

لحكم غبطته وتفرقوا إلى بيوتهم أو أعمالهم . وعند ذاك أعطى البابا الاسكندرى العلامة إلى الجند فجاءوا وأخرجوه من السجن وساقوه إلى مكان الاستشهاد . فطلب منهم أن يسمحوا له بزيارة المقصورة التى تحوى رأس القديس مرقس . فسمحوا له . وأمام الرأس الذى لكاروز الديار المصرية المودع فى كاتدرائيته سقط الحبر الاسكندرى على ركبتيه وصلى بحرارة . ثم ختم صلاته قائلاً : « تقبل يا الله حياتي فداء عن شعبك » . وحينذاك سمع صوت من السماء يقول : « آمين » . ولما فرغ من هذه الصلاة ، تقدم إلى الجند بشجاعة وثبات - وقد سطع وجهه بنور سماوى لا يوصف بهاؤه . وحين فوجئ الجند بهذا النور العجيب ذهلوا ولم يجسر أحدهم أن يرفع عليه يده . فأخرج الضابط المسئول خمساً وعشرين قطعة من الذهب وقال : « هذا الذهب لمن يجرؤ على قطع رأس هذا الشيخ » . فتجاسر واحد وضرب عنق الأنبا بطرس بالسيف فقطع رأسه . ثم تركوه ملقى حيث هو ومضوا . ولم يلبث أن انتشر فى المدينة خبر استشهاد البابا الجليل ، فتجمع المؤمنون باكين متألمين . ورفعوا الجسد وأخذوه إلى الكنيسة المرقسية حيث ألبسوه ثياب التقديس وأجلسوه على كرسى القديس مرقس الذى لم يجلس عليه قط فى حياته تواضعًا منه (١). وكان دمه آخر دم سفكه الامبراطور ديوقلديانوس - ولهذا السبب لقبته الكنيسة بخاتمة الشهداء .

١٢٠- ولقد شهد المؤرخون الكنسيون بأن عدد الشهداء المصريين الذين راحوا ضحية إضطهاد ديوقلديانوس كان بالغًا حداً لا يوصف . وفى ذلك قال ترتوليانوس (٢) : « ولو أن شهداء العالم كله وضعوا فى كفة ميزان ، وشهداء مصر فى الكفة الأخرى لرجحت كفة المصريين » (٣) . ولما كان هذا

---

(١) « أعمال شهداء مصر » ترجمه من القبطية إلى الفرنسية هيفرنا ص٢٦٣ - ٢٨٦ .

(٢) كان ترتوليانوس أحد قساوسة قرطاجة (تونس) الذين عاصروا إضطهاد ديوقلديانوس .

(٣) يقول منسنيور جيرين فى « قاموس القواميس » تحت كلمة « شهداء » (martyre) أن الذين قتلهم ديوقلديانوس قد بلغ عددهم ثمانمائة ألف (٨٠٠,٠٠٠) شخص .

الإضطهاد أفظع إضطهاد عرفه القبط ، ولما كان أطول اضطهاد إذ قد دام عشر سنين متوالية ، فقد جعله القبط مبدأ لتقويمهم ، متخذين سنة ٢٨٤م . التى اعتلى فيها ديوقلديانوس العرش السنة الأولى لسنة الشهداء - فتكون سنة ١٩٥٩م موافقة لسنة ١٦٧٥ش . (أى الشهداء) .

١٢١- والتقويم هو الذكرى الوحيدة التى احتفظ بها القبط وفاء لشهدائهم - فلم يقيموا لهم نصباً تذكارياً ، ولم يرسموا قط صورة لآلات التعذيب وهى تلتهم أحبابهم ومواطنيهم - ذلك لأنهم كانوا يتركون الأمور للآب السماوى ، فيستودعون بين يديه تعالى أحباءهم الذين نالوا الشهادة والحكام الغاشمين الذين أذاقوهم العذاب فالموت .

١٢٢- ولقد ضرب الله ديوقلديانوس فى آخر أيامه بالعمى والجنون حتى إضطر قادة جيشه إلى خلعه عن العرش قبل موته بسنين . ومما هو جدير بالتسجيل أن سيدة مسيحية صالحة دفعها تمسكها بتعليم المسيح إلى العناية بهذا الامبراطور الطاغية عملاً بقول الرب : « أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل المسيئين إليكم » (١) .

ملخص للقوانين التى سنها الأنبا بطرس لقبول التائبين :

- إن الذين لاقوا العذاب من أجل الإيمان ثم انكروه . إنما فعلوا هذا لضعف طبيعتهم البشرية ، ومادامو قد ندموا وأبدوا ندامتهم منذ ثلاث سنوات دون أن تقبل توبتهم ، فهم مطالبون بأن يصوموا اربعين يوماً صوماً غاية فى التقشف اقتداء بربنا يسوع المسيح ثم يقبلون فى شركة الكنيسة فى عيد القيامة المجيد .

- إن الذين لم ينلهم غير السجن ، وقاموا بأداء فريضة التوبة ثلاث سنوات مطالبون بالمداومة على توبتهم سنة أخرى قبل أن يقبلوا فى شركة الكنيسة .

- إن الذين لم ينلهم أذى ولكنهم خافوا مقدماً مما قد يقع عليهم من الألم

---

(١) عن كتاب التاريخ الذى وضعه يوحنا النيقيوسى وترجمه من الحبشية إلى الفرنسية زوتنبرج ص٤١٨ - ٤١٩ .

ثم أعلنوا ندامتهم مطالبون بالمثابرة على أعمال التوبة سنة أخرى كشجرة التين التي أمهلها صاحبها سنة كاملة لتعطي ثمراً . فإن قدموا أثماراً تليق بالتوبة خلال هذه السنة ينظر في أمر قبولهم في شركة الكنيسة .

– أما الذين يصرون على الجحود ، أو الذين يعبثون بالتوبة : فيتوبون ثم يجحدون ويعاودون توبتهم وجحودهم ، فيتركون لمصيرهم التاعس .

– إن الذين لجأوا إلى الحيلة هرباً من العذاب لا يحصون بين الجاحدين ، ولكن عليهم أن يصنعوا أثماراً تليق بالتوبة مدة شهور ستة ، لأنهم تحايلوا على اخفاء الحقيقة دون أن يجهروا باخفائها .

– إن العبيد الذين سجنوا عوضاً عن أسيادهم ثم جحدوا الإيمان مطالبون بتقديم أعمال تليق بالتوبة سنة كاملة لقبولهم في شركة الكنيسة . أما أسيادهم الذين كانوا السبب في سقوطهم فمطالبون بأن يقدموا ثمار التوبة مدى ثلاث سنين كي يقبلوا في شركة الكنيسة .

– إن الذين جحدوا الإيمان وندموا قبل انتهاء الإضطهادات فدفعتهم توبتهم إلى أن يعلنوا إيمانهم فاستثاروا بذلك غضب الحكام وذاقوا على أيديهم الحبس والتعذيب قد كفروا بما وقع عليهم من تعذيب وتنكيل عن جحودهم ، وهؤلاء يجب قبولهم في شركة الكنيسة بلا شرط ولا قيد .

– إن الذين ذهبوا بأنفسهم أمام الحاكم ليعلنوا إيمانهم فاستثاروا غضب هؤلاء عليهم وعلى اخواتهم إنما سلكوا هذا المسلك عن غيرة ولو أنها غيرة مشوبة بالحمق ، فهم لذلك مقبولون في شركة الكنيسة بلا شرط . على أنه يجب أن يعرف المؤمنون أن الرسل وخلفاءهم علمونا أن نقبل الإضطهاد لا أن نسعى إليه بأنفسنا .

– الاكليريكيون الذين قهرهم الضعف البشري فجحدوا الإيمان ثم تابوا يقبلون في شركة الكنيسة كمؤمنين عاديين ولكنهم يحرمون من الكهنوت .

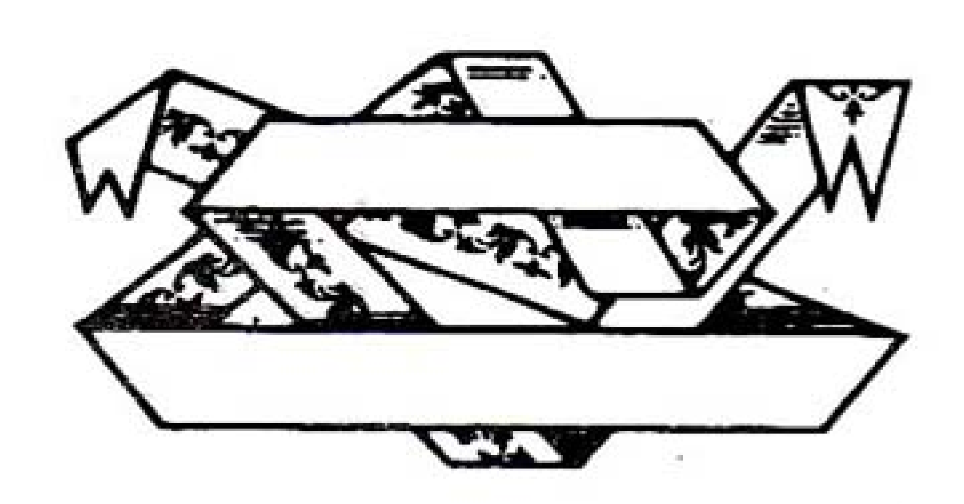
– مباح للمؤمنين أن يصلوا من أجل الجاحدين الذين ماتوا قبل اعلان توبتهم إن كان جحودهم قد نتج عما قاسوا من الام مرة ، ومباح لهم

مشاركة أقارب هؤلاء الجاحدين حزنهم وصلواتهم ، لأن الصلاة قوية فعالة وبها تتم المعجزات وبها يستحقون أن يتوسط لهم فادينا الحبيب ويمنحهم مغفرة خطاياهم .

– إن الذين تخلصوا من العذاب بأن دفعوا للحكام المال الذى فرض عليهم ، تقبل توبتهم لأنهم – وإن كانوا لم يتألموا فى جسدهم – إلا أنهم قد تألموا فيما يقتنون .

– إن الذين هربوا من الإضطهاد تقبل توبتهم بلا شرط ولا قيد .

– أما الذين تكممت أفواههم وحرقت أيديهم لدفعهم إلى التبخير للأوثان فإنهم يعدون من المعترفين لأنهم نالوا هذا العذاب فى سبيل الإيمان (١) .



(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٨٤ – ٢٨٦ .

سحابة من الشهود(١)

(١٢٣) الكتيبة الطيبية والقديسة فيرينا .

(١٢٤) الأسقف فيلياس .

(١٢٥) مارمينا العجايبي .

(١٢٦) الشهيدة دميانة .

(١٢٧) الأنبا بفنوتي .

(١٢٨) أسقف بتولومايس .

(١٢٩) فنان من القيروان .

(١٣٠) وصف أوسابيوس للشهداء .

(١٣١) كاتب سير الشهداء .

١٢٣ - أنه يليق بنا قبل الاسترسال في تتبع تاريخ الكنيسة أن نقف قليلاً لنؤدي تحية الاجلال إلى أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين تحملوا كل أنواع العذاب ، ورضوا بالموت من أجل الملك المسيح .

وأن الإضطهادات التي ذهب ضحيتها آلاف المصريين ظلت تندلع من آن إلى آخر مدى قرن من الزمان (حوالي سنة ١٩٤ - سنة ٢٩٥) ثم خفتت قليلاً لتلتهب مرة أخرى أيام ليسينوس (زوج أخت قسطنطين الكبير) ، وهبت دفعة أخرى بأمر يوليانوس الجاحد (سنة ٣٦١ - ٣٦٣م) وانطفأت بعده تماماً في صورتها المنظمة .

وقبل أن نؤدي التحية اللائقة بالشهداء ، يحسن بنا أن نتأمل موكب الرجال العسكريين الذين احتقروا السيف ليتقاتلوا بكلمة الحق . ولقد خدم هؤلاء العسكريون الأباطرة بعزم الشباب وحماس الغيورين . ولكن لما تضاربت أحكام الأباطرة مع أحكام المسيح له المجد قدموا حياتهم قرباناً لإيمانهم من غير تردد . ولم يكن تفانيهم في الخدمة العسكرية ليحميهم من بطش قيصر لأن شيطان الإضطهاد حين كان ينطلق من عقاله كان يلتهم من يقف في طريقه من غير تردد سواء أكان رجلاً أو امرأة ، شيخاً أو شاباً ، شريفاً أو من العامة . بل أن الكهنوت نفسه لم يكن كافياً لوقاية أصحابه (٢) .

---

(١) عبرانيين ١٢ : ١ .

(٢) فمثلاً نال القديس بوليكاربوس تلميذ الانجيلي (الحبيب) اكليل الشهادة وهو في السادسة والثمانين من عمره وكانت قد انقضت اكثر من خمسين سنة منذ تولى أسقفية سميرنا (ازمير) - راجع « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ص١٩ .

وسكون الصحراء وقدسية سكانها لم تكن لهما من الحرمة ما يردع الحكام من الاعتداء . وهكذا قتل الحكام الرومان من لم يقبل أن يبخر لآلهتهم ، فأبادوا حتى الرجال الذين كانوا يعرضون حياتهم للخطر دفاعًا عن الامبراطورية وشرفها .

ومن افظع الأباطرة بطشًا مكسيميانوس الذى شارك ديوقلديانوس الامبراطورية كما شاركه وحشيته وقسوته . ولما كان هذان الحاكمان يسيطران على الشرق والغرب ، فانهما جندا شباب جميع الشعوب الخاضعة لسلطانهما . وكان بين كتائب الجيش كتيبة تعرف باسم الكتيبة الطيبية [١] . وكان ضباط هذه الكتيبة وجندها معروفين بشجاعتهم وثباتهم وجلدهم وطول أناتهم ، كما كان اخلاصهم مضرب الأمثال .

وحدث ان أهالى غاليا (فرنسا) تمردوا على الامبراطور مكسيميانوس وأراد أن يقمع ثورتهم فأرسل إلى زميله ديوقلديانوس يطلب إليه ارسال الكتيبة الطيبية لنجدته . فأمر ان تنقسم الكتيبة إلى قسمين : قسم يتجه إلى حدود غاليا ويرابط هناك ، وقسم ينتظر على الحدود السويسرية استعداداً للطوارئ .

وكان الامبراطور مكسيميانوس معتاداً ان يذهب إلى المعبد ليلة المعركة ويبخر للأوثان استرضاء لهم لينصروه فى معاركه . وفى الليلة التى كان مزمعاً فى صباحها أن يبدأ قتال الغاليين ، أمر الكتيبة الطيبية بأن تصحبه إلى المعبد لتشاركه التبخير للآلهة . ولكن رجال هذه الكتيبة كانوا مسيحيين ، فأعلنوا رفضهم لتنفيذ رغبة الامبراطور . وبإزاء هذا الرفض الصريح أمر جنده الرومان بأن يصفوهم صفًا صفًا ويجلدوا كل عاشر فى مختلف الصفوف ثم يقطعوا رأسه بعد جلده . وهكذا فتك بعشر الكتيبة متوهماً أنه سيخيف الباقين فيطيعونه . ولكنهم اتفقوا فيما بينهم على كتابة خطاب له ، وقعوا عليه جميعاً قالوا له فيه : « أيها القيصر العظيم – إننا جنودك ، ولكننا فى الوقت عينه عبيد الله . فنحن ندين لك بالخدمة العسكرية ، أما الله فندين

(١) أى من مدينة طيبة ، وهى مدينة الأقصر حالياً .

له بولاء قلوبنا ، ونحن نأخذ منك المرتب اليومى ، أما الله فسننال منه الجزاء الأبدى .

أيها القيصر العظيم - لا يمكننا بحال من الأحوال أن نطيع الأوامر المخالفة لله . ومادامت متفقة مع أحكامه تعالى فنحن ننفذها ، أما متى تعارضت مع أحكامه فلن نقبلها لأنه ينبغى أن يطاع أكثر من الناس ، وولاؤنا لأوامره فوق ولائنا لكل الأوامر مهما كان مصدرها . ولسنا ثواراً لأن لدينا الأسلحة وبها نستطيع أن ندافع عن أنفسنا ونعصاك ، ولكننا نفضل أن نموت أبرياء على أن نعيش ملوثين . وأننا على اتم استعداد لأن نتحمل كل ما تصبه علينا من صنوف التعذيب لأننا مسيحيون ونعلن مسيحيتنا جهاراً » .

ولما قرأ الامبراطور هذا الخطاب أزعجه ما فيه من اتزان وجرأة فلم يزدد إلا حنقاً وغيظاً وأمر بقتل العاشر مرة أخرى ، فاصطفوا جميعاً فى شجاعة وثبات . وحين كان الواحد منهم يسمع اسمه كان يرمى بأسلحته على الأرض ويقدم ظهره للسياط وعنقه للسيف . وهكذا أفنى مكسيميانوس عشر الباقين . على أن هذا البطش لم يشبع شهوة الامبراطور ، فأمر الباقين بأن يصحبوه إلى المعبد ليبخروا للأصنام . ولكن الذين كانوا لا يزالون أحياء من الكتيبة لم يرهبهم قتل زملائهم ولم يترددوا ، بل أعلنوا مسيحيتهم فى توكيد ورفضوا الاذعان للامبراطور . وعند ذاك احتدم غيظه فأمر بابادة الكتيبة بأكملها حيثما كان افرادها . وهكذا أعمل الجنود الرومان سيوفهم فى رقاب الضباط والجنود المصريين ولم يبقوا منهم على أحد . فانطلق هؤلاء الطيبيون من كتيبة الامبراطور الغاشم إلى صفوف المنتصرين من خدام الملك المسيح .

ويصف الأب پول دورليان هذه الملحمة الرائعة بقوله : « وهكذا استشهد البعض فى أجون ، والبعض فى جوليا ، وغيرهم فى تريف وفى فهنتى ميليا وفى برجامو . فكانت مذبحة هائلة ومجزرة همجية فظيعة ، تناثرت فيها أشلاء المصريين فوق وادى أجون وارتوت أرضه بدمائهم . فنالوا بذلك أكاليل المجد غير المضمحل » (١) .

---

(١) أجون مدينة فى سويسرا اسمها الآن « سان موريس » وهو اسم قائد الكتيبة -

ومن الحقائق التى تبعث على التواضع والعجب تلك التى تتجلى لنا حينما نمعن النظر فى حياة من صنعوا تاريخنا . فهذه الكتيبة الطيبية التى ارتوت بعض الأراضى الأوربية بدمائها كانت تصحبها الممرضات مما يثبت قول سليمان الحكيم بأنه لا جديد تحت الشمس . وبين هؤلاء الممرضات القديسة فيرينا . وتتلخص سيرتها فى أنها نشأت فى بلدة كركوز (١) ، ثم التحقت بالعمل مع الكتيبة الطيبية وسافرت معها عندما أصدر الامبراطور مكسيميانوس أمره إلى هذه الكتيبة بالارتحال إلى المنطقة التى تؤلف اليوم الحدود البلجيكية الفرنسية فالسويسرية . ولما أباد هذا الامبراطور رجال الكتيبة عن بكرة أبيهم ترك الممرضات وشأنهم . ورأت القديسة فيرينا أن تبقى فى بلدة زورزاخ (٢) حيث عكفت على تعليم أهالى كل المنطقة مبادئ النظافة وحسن الهندام وتبشيرهم بالمسيحية فى الوقت عينه . وكان لقداستها أبعد الأثر فى النفوس . فلما تنيحت بسلام بنى أهالى زورزاخ كنيسة فوق قبرها تهدمت مع البلدة كلها عندما اجتاحتها القبائل الجرمانية . وفى القرن التاسع شيد دير للبنديكتين مكانها . ثم توالت الأحداث على هذا الدير فتحول إلى مقر أسقفى ثم التهمته النيران سنة ١٢٧٩م ، وأعيد بناؤه إلى كنيسة من جديد . فلما انتصر الاتحاديون ألحقوا بلدة زورزاخ بدوقية بادن ومذاك وضع أولو الأمر حمامات المياه المعدنية بتلك المدينة تحت رعاية القديسة فيرينا ، فأصبحت كنيستها مقصداً للحجاج . بل أنه أقيمت كنيسة ومقصورة على اسمها فى بادن عينها . فلما انتصر البروتستانت على بادن سنة ١٧١٢م هدموا الكنيسة . أما المقصورة فظلت قائمة حتى القرن التاسع عشر ثم هدمت عندما أغلق الحمام الذى كان يحمل اسم القديسة . ثم أقيم فندق باسمها مكانه .

- الطيبية ، جوليا هى الآن مدينة بورجو سان دونينو فى لومبارديا بشمال ايطاليا ، تريف تقع على نهر الموزيل بين فرنسا وبلجيكا ، فينتى ميليا مدينة ايطالية تقع على بعد ثلاثين كيلو متر من نيس ، برجامو احدى مدن ايطاليا الشمالية وتقع على بعد أربعين كيلو متراً من ميلانو ، راجع كتابه « قديسو مصر » جـ٢ ص٢٤٠ – ٢٤٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ – ٢٤٨ ، ٢٥٧ – ٢٥٨ ، ٢٧٩ .

(١) فى الصعيد بمركز قوص بمحافظة قنا .

(٢) Zurzach إحدى مدن مقاطعة أرجونى بسويسرا .



تمثال للقديسة فيرينا
كما تخيلته فنانة سويسرية
وهو مقام فى حديقة السفارة السويسرية بالقاهرة

وهناك كنيسة على اسم القديسة فيرينا فى مدينة سولير (١) لاتزال قائمة للآن . وقد بنيت هذه الكنيسة لأن القديسة زارتها للتبرك من قبرى القديس أورس والقديس بقطر - وكلاهما من مواطنيها .

وجميع الصور والتماثيل الخاصة بالقديسة فيرينا تمثلها ممسكة بمشط فى يد وبابريق فى اليد الأخرى لأنها أول من علم أهلها تلك المنطقة السويسرية أن يغتسلوا ويمشطوا شعورهم . ولها قبر به صندوق يحوى راسها (على ما ترويه التقاليد) . وفى هذا القبر مذبح يقوم على جانبيه ملاكان بيضاوان يحمل أحدهما المشط وثانيهما الأبريق . أما الصندوق الذى يحوى راسها القدسى فمزخرف زخرفة بارزة تمثل صوراً من حياة القديسة نفسها : هذه القديسة التى نشأت فى صعيد مصر ثم استحقت - بما قدمته من خدمات - أن تكون الحامية لربات البيوت والمحسنة إلى البرص بعد أن خدمت كممرضة فى الكتيبة الطيبية (٢) .

١٢٤- وبعد أن امتلأت نفوسنا نعمة وبركة بسيرة أبطال صعيد مصر يحق لنا أن نؤدى التحية اللائقة بالشهداء والمعترفين الذين واجهوا أهوالاً تشيب الطفل من قبل المشيب وقد أضاءت وجوههم ابتسامة الرضى ولهجت ألسنتهم بأناشيد التسبيح . ولما كان عدد الشهداء والمعترفين المصريين لا يقع تحت حصر رأينا أن نتخير أفراداً من هذا الجمع الحاشد ليكونوا الصورة الحية الماثلة أمامنا كل حين تذكرنا ببطولة جميع الذين استعذبوا الآلام ليحتفظوا بالإيمان الأرثوذكسى الذى تسلموه عن آبائهم وتذكرنا بأن دماء هؤلاء الشهداء هى التى تسرى فى شرايينا حتى الآن .

---

(١) Soleure - مدينة سويسرية على نهر الآر .

(٢) راجع المقالين اللذين نشرا فى الجورنال سويس " Journal Suisse d'Egypte et du Proche Orient " التى تصدر فى الاسكندرية العدد ٣٧ للسنة الثالثة والعشرين الصادر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٩ ، والعدد ١٥ للسنة الرابعة والعشرين الصادر فى ١٢ ابريل سنة ١٩٥٠ ، نشرتها مدام مارى فيشتيتر نقلاً عن المعلومات التى استقاها مسيو م . بورسينجر مدير الاذاعة السويسرية على الموجة القصيرة من المعجم التاريخى لسويسرا تحت عنوانى « سولير » و « زورزاخ » " Lexique Historique de la Suisse " .

وأول شخصية نتخذها مثالاً لنا هي شخصية الأنبا فيلياس أسقف اتمى [1]. وكان سليل أسرة عريقة في المجد والجاه والثروة هيأت أمامه كل السبل للعلم والفن والفلسفة . فنشأ ولوعاً بالشعر شغوفاً بالعلوم الفلسفية والروحية . ولما كانت روح فيلياس مرهفة الحساسية فقد استجاب لنداء المسيح وترددت أصداء تعاليمه الإلهية في أعماق نفسه فاعتنقها بفرح وتهليل .

ولما كان فيلياس من أسرة هذا حالها رأى الرومان الانتفاع بمواهبه الممتازة ومكانته المرموقة فعينوه والياً على منطقته . وقبل هو هذا التعيين إذ وجد فيه الفرصة السانحة لخدمة شعبه خدمة واسعة شاملة . وبالفعل كرس حياته تكريساً كاملاً لهذه الخدمة . فأحبه الشعب وأخلص له الولاء إلى حد أنه لما خلت السدة الأسقفية أجمعوا على أن خير من يليق للأسقفية هو الوالي فيلياس - وهكذا تحول من خدمة الدولة إلى خدمة الكهنوت . فاتسعت دائرة خدمته وتفانى في الجهاد الروحي بأن علم شعبه مثبتاً إياه على الإيمان القويم حتى أصبح الأسقف فيلياس حصناً منيعاً لكل إيبارشيته .

ثم نقض ديوقلديانوس عهده مع المسيحيين ، وأثار عليهم إضطهاداً مروعاً دام عشر سنين . ولم يستطع الأنبا فيلياس أن يجنب شعبه ويلات هذا الإضطهاد ولكنه نجح في أن يملأ القلوب عزيمة والنفوس شجاعة وثباتاً ، فتقدموا إلى الاستشهاد بعد أن أفاض قلوبهم سلاماً داخلياً عجيباً .

واشتد الإضطهاد فسافر الأنبا فيلياس إلى الاسكندرية ليتشاور مع الأنبا بطرس خاتمة الشهداء في الخطط التي يجب اتخاذها لتدعيم إيمان الشعب ولقبول الجاحدين التائبين . ومن الاسكندرية بعث برسالة إلى شعبه في اتمى قال لهم فيها : « سلك الشهداء مسلك سيدهم الذي أطاع حتى الموت موت الصليب . ففضلوا العذاب بنفس راضية على أن ينكروا مسيحيتهم . ولقد كانوا ثابتين في إيمانهم ، كاملين في محبتهم ، فتلاشى بذلك كل خوف من قلوبهم . وأني إن حاولت أن أصف لكم بطولتهم لظننتم أنها أشبه بالأساطير . ولكن حقيقة هذه البطولة أعجب بكثير من كل خيال حتى أن

---

(١) وهي الآن تمى الأمديد .

الذين شهدوها من المؤمنين تشددوا وتعزوا ، أما غير المؤمنين فلن يؤمنوا فحسب بل أعلنوا إيمانهم جهاراً أيضًا فانضموا بدورهم إلى صفوف الشهداء » .

وكانت هذه الرسالة – إلى جانب ما قام به الأنبا فيلياس من تقوية للعزائم – سببًا فى أن يلقى الرومان القبض عليه ويطرحوه فى السجن . على أن الطغيان الرومانى رغم ما فيه من قسوة وبطش تراجع بعضًا من الوقت أمام قتل مثل هذا الرجل – تراجع خوفاً من أن يثور الشعب ، لا صوناً لكرامة الرجل ! وتتضح هذه الحقيقة من محاولة استرضاء هذا الحبر الجرئ إذ قد استحضره الوالى الرومانى وحاول أن يستثير محبته لقومه فقال له انهم إن فقدوه فقدوا شجاعتهم وإيمانهم ، بل أن بعضهم سيفقد عمله الذى يرتزق به . ومع أن قلبه كان يتوجع على شعبه لأن هذه الكلمات كانت تنزل عليه كالسياط فقد ظل ثابتاً مؤكداً للوالى بأن موته سيزيد الشعب شجاعة وتماسكاً واسترسل الوالى الرومانى يقول : « كيف تستسيغ صلب الذات الإلهية ؟ » أجابه : « إن محبته الإلهية لا تحد وهى الدافع الذى دفع به إلى الصلب » . فسأله الوالى : « أتعرف اننى أود إكرامك ، ولا أريد أن ألحق بك أى اذى لأننى اعرف مجد عائلتك وضخامة ثروتك ؟ فبخر للآلهة بدلاً من أن تموت موتة شنيعة » . أجابه الأنبا فيلياس بهدوء : « إن شئت أن تكرمنى فقل لجنودك أن يعذبونى قبل أن يميتونى » . وعند ذلك أمر الوالى باعدامه فساقه الجند مع غيره من المسيحيين خارج المدينة لقتله ، وبدأوا به لأنه الرئيس الدينى . وقبل أن يمد عنقه للسياف مد ذراعيه على شكل صليب وصلى بصوت عالٍ قائلاً : « يا أولادى الأحباء ، ويا أخوتى الأعزاء ، ويا جميع المحبين للّه ، اسهروا وانتبهوا لنفوسكم لأن عدونا اسد زائر . وافرحوا لأنه قد أتت الساعة التى نثبت فيها أننا تلاميذ أوفياء لسيدنا يسوع المسيح الذى له المجد إلى أبد الآبدين آمين » . وما كاد ينتهى من هذه الصلاة حتى عاجله الجند بضربة قاضية . فدخل الأسقف الأمين إلى فرح سيده لينال منه الاكليل الموعود به لأصفيائه (١) .

---

(١) « قديسو مصر » للأب بول دورليان (بالفرنسية) جـ١ ص٢٧١ – ٢٧٨ –

١٢٥ - وإلى جانب هذا الأسقف الذى إزدرى بأمجاد العالم الزائل وباع كل ما لديه ليشترى به اللؤلؤة الكثيرة الثمن ، وقف بطل نال من الكرامة ما لم ينله غيره من الشهداء المصريين هو مارمينا الذى يلقبه مواطنوه بصانع العجائب (العجايبى) .

ومن الطريف أنه نال هذا اللقب بعد انتقاله من هذا العالم - لأن الآيات والعجائب التى جرت بواسطته تمت جميعها بعد استشهاده . وذاع صيته بسبب هذه العجائب فى مختلف البلاد ، فتقاطر الناس على كنيسته طلبًا لبركته وللشفاء مما بهم بشفاعته . ولقد عثر الباحثون على قنينات تحوى الماء أو الزيت عاد بها زوار مارمينا ليمكنوا ذويهم من الحصول على بركة هذا الشهيد . وليس أدل على ذيوع صيت مارمينا من أن هذه القنينات وجدت فى بلاد متباعدة كدنقلة ، وكولونى ، ومرسيليا (١) ، واورشليم (٢) .

ولقد ولد هذا القديس من أبوين مسيحيين . وكان أبوه حاكماً لمريوط . على أنه تيتم من أبويه وهو فى الحادية عشرة من عمره . فلما بلغ أشده انتخبه الشعب ليخلف أباه فى الحكم . وعندما أضرم ديوقلديانوس نار الإضطهاد دخل الخوف قلب مينا ، فهجر عاصمته وذهب إلى الصحراء حيث قضى فترة من الزمن . وفى احدى الليالى رأى الملائكة فى المنام وهم يتوجون الشهداء بأكاليل النصر ، فلما أصبح الصباح عاد إلى عاصمة ولايته وأعلن إيمانه المسيحى جهاراً . وعندما حاول الوالى الرومانى أن يستميله أولاً بالوعد ثم بالوعيد ولما خاب أمله فيه أمر بقطع رأسه لكونه من الأشراف . فنال الأكليل الذى رآه فى يد الملائكة . وقد بادر المؤمنون بنقل جثمانه الطاهر

= و جـ٢ ص٥١٢ ، « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لجون نيل جـ١ ص٩٧ ، ٩٩ - ١٠١ ، السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٥٩ - ١٦٠ .

(١) كولونى مدينة على ضفاف نهر الرين ، ومرسيليا ميناء فى جنوب فرنسا (على البحر الأبيض المتوسط) بينما تقع دنقلة فى السودان ، اما أورشليم فهى عاصمة الأراضى المقدسة .

(٢) « أبا مينا » مختارات من مخطوطات قبطية ترجمها إلى الانجليزية جيمس دريشر ص١١ .

إلى مكان عزلته فى الصحراء حيث واروه التراب بكل تجلة واحترام . وظل قبر هذا الشهيد العظيم مجهولاً فترة من الزمن وحدث أن راعيًا كان يرعى خرافه فى تلك المنطقة ، فعراه شئ من الدهش إذ كان بين خرافه خروف أجرب شفى من هذا الداء الوبيل لغير سبب ظاهر . ولاحظ أن شفاءه كان نتيجة لتمرغه فوق الأرض . وقد ذاع نبأ هذا الشفاء العجيب فجاء غيره من أهالى تلك المنطقة ليقفوا على ما فى هذه الأرض من سر خبئ - وكان كل مريض ينطرح فوقها ينال الشفاء . وعند ذلك أعمل الأهالى فؤوسهم فى تلك البقعة ليروا ما بداخلها فإذا بهم أمام رفات مارمينا . ولقد ذاعت عجائب هذا القديس وانتشرت فى الأصقاع حتى بلغت القسطنطينية . وكان للامبراطور زينون (١) ابنة مريضة . فلما سمعت بما يتم من شفاء باسم مارمينا العجايبى قصدت إلى مريوط فكان لها ما أرادت . ولما عادت إلى القسطنطينية وعرف أبوها الامبراطور زينون أنها نالت الشفاء التام بشفاعة هذا القديس بادر إلى بناء كاتدرائية فوق قبره . وكانت هذه الكاتدرائية فى عصرها الذهبى أجمل كنائس المسكونة بما زانها من أعمدة من المرمر الوردى (٢) . وقد أدت اقامة الكاتدرائية إلى أن يسود العمار تلك المنطقة بحيث أصبحت مدينة فخمة ظلت قائمة حتى القرون الوسطى (٣) .

ولقد كان لمارمينا أثر بالغ فى القرون الأولى فاستشفع الناس به فى مشارق الأرض ومغاربها . غير أن نفوذه تقلص على أثر خراب كنيسته . فهجر الناس المدينة التى كانت قد شيدت حولها ، وامتدت إليها يد النسيان فترة من الزمن استعاد بعدها القديس مينا الشئ الكثير من نفوذه . فعاد الناس يستشفعون به ، ويحاولون زيارة كنيسته الأثرية ويبنون الكنائس الجديدة على اسمه (٤). ومن الطريف فى هذه المناسبة أن أحد المؤمنين

---

(١) حكم ما بين سنة ٤٧٤ وسنة ٤٩١م .

(٢) « الصادق الأمين » جـ١ ص١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) « أبا مينا » مختارات من المخطوطات القبطية ترجمها إلى الانجليزية جيمس دريشر ص٢٧ .

(٤) عثر الباحثون أخيراً على بعض وريقات متناثرة بالقبطية عن مارمينا ترجمها إلى الانجليزية جيمس دريشر ونشرها فى مجلة جمعية الآثار القبطية العدد السابع (سنة ١٩٤١) ص١٩ - ٣٢ .

- وهو يتبرك بزيارة قبر المسيح فى القدس - رأى القديس مينا فى حلم يقول له : « إن كنت تنوى أن تبنى كنيسة على اسمى فليكن ذلك فى بلدة منهرى » [١] فلما عاد من تلك الزيارة المقدسة أخبر أهل بلدته بما رأى . فقصدوا فى الحال إلى الجهة التى أشار إليها القديس ووجدوا كنيسة قديمة تحمل اسمه فشادوا الكنيسة الجديدة فى المكان الذى عينه وهم يسبحون الله فى قديسيه [٢] .

وهنا يحسن بنا أن نقف قليلاً لنصور بخيالنا الحال التى كانت عليه كتدرائية مارمينا فى عصر ازدهارها . فقد كان أهم جزء هو القبو الذى يحوى جثمان الشهيد والكنيسة العظمى التى تضمه . ولقد قامت حول هذه الكنيسة مدينة كاملة بكل ما فيها من مبانٍ وشوارع وحمامات عامة ومدارس وكنائس أخرى . وكان أهم مصدر للرزق فى هذه المدينة هو القديس الشهيد نفسه فالعدد الكبير من سكانها كان يعمل فى الأرض المملوكة للكنيسة : منهم الفلاحون ورعاة الغنم والإبل والخفر وناظر الزراعة ، ومنهم أيضًا المشتغلون باستخراج الزيت والخمر . وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان هناك أشخاص يعملون القنينات التى يحملها الحجاج ملأى بالزيت أو بالماء المقدس إلى بلادهم ليحملوا إلى ذويهم بركة مارمينا . ولا شك أيضاً فى أنه كان هناك أشخاص يرتزقون بالرسم أو بعمل الأيقونات . وهكذا كانت المدينة آهلة بالصناع والزراع الذين يعيشون على حساب القديس مينا الذى طبق صيته الآفاق فاجتذب إلى كنيسته الحجاج من أركان العالم الأربعة . وفى أيام الاحتفالات بمولد القديس أو بنياحته أو بغير ذلك من المناسبات كانت المدينة تزدحم بالزوار إلى حد أن البعض منهم كان لا يجد مكاناً فى الفنادق فيقيم فى الخيام التى كانت تقام حول الكتدرائية [٣] . وكان هؤلاء الزوار خليطاً

---

(١) تقع هذه البلدة فى منطقة مدينة المنيا فى منتصف مصر العليا .

(٢) « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٤٢٧ ، « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ، جـ٤ ص١٠٠١ - ١٠٠٢ .

(٣) من السهل على من زار أحد القديسين فى مكان استشهاده (كزيارة الست دميانة فى ديرها بالبرارى) أن يتصور هذا المنظر الذى يتكرر بصورة أصغر - لأن زوار مارمينا فى العصور الأولى كانوا من شعوب مختلفة ، أما الآن فالزوار لهذه الأماكن المقدسة هم من المصريين فحسب .

عجيباً : فمنهم الاسكندريون المتأنقون الذين عرفوا معنى الترف ، ومنهم الفلاحون الذين لم يذوقوا غير طعم الجد والكد ، ومنهم الأغنياء والوجهاء إلى جانب الفقراء ومتوسطى الحال ، ومنهم الحجاج الساعون إلى التزود ببركة القديس والاقتراب إلى الله بشفاعته ، يقابلهم الذاهبون لمجرد حب الاستطلاع ، ومنهم المصريون وغير المصريين . فكانت مدينة مريوط إذ ذاك أشبه بالبحر الزاخر لكثرة من فيها وتباين مشاربهم . وقد ظلت هذه المدينة مركزاً للحج مدى قرون (١) ، أما الآن فقد أصبحت أثراً بعد عين إذ لم يبق منها غير بعض الجدران المتداعية وبعض الأعمدة المتناثرة تحيط بها الرمال إلى منتهى الأفق . إلا أن الله تعالى الذى لا ينسى تعب المحبة قد شاء أن ينبه أبناء القرن العشرين إلى خدمات مارمينا فأقام لنفسه شهوداً من الأنبا ثيئوفيلس (٢) ورهبانه . لأن هؤلاء الرجال الأبرار استنوا تقليداً جديداً يستند إلى التقاليد القديمة : وهو أن يقصدوا إلى هذه الأطلال العزيزة مرتين سنوياً للاحتفاء بالقداس الإلهى : المرة الأولى فى ١٥ هاتور (٢٤ نوفمبر) وهو عيد استشهاد مارمينا ، والمرة الثانية فى ١٥ بؤونة (٢٢ يونيو) وهو عيد تشييد كتدرائيته التى كان لها الصيت البعيد فى القرون الأولى . وينتهز بعض الغيورين من القبط والأجانب هاتين الفرصتين ليسعدوا بالصلاة فى هذه البقعة المقدسة . ثم شاء الآب السماوى أن يعتلى الأنبا كيرلس السادس السدة المرقسية فى الأحد الأول من الخمسين المقدسة الموافق ٢ بشنس سنة ١٦٧٥ (١٠ مايو سنة ١٩٥٩) . فلما جاء ١٥ بؤونة من هذه السنة رأى أن يذهب ليقيم القداس الإلهى بين أطلال مارمينا . فكان ذهابه فرصة هيأتها السماء إذ قد قصد إلى مريوط جمع من المطارنة والأساقفة والكهنة والشعب : رجالاً ونساء وأطفالاً . وعلت أصواتهم بالصلوات وترددت أصداؤها فى ذلك المكان الفسيح . وامتلأت القلوب نشوة مضاعفة : نشوة

---

(١) راجع « أبا مينا » مختارات من مخطوطات قبطية ترجمها إلى الانجليزية جيمس دريشر ص٢٢ .

(٢) هو أسقف دير السيدة العذراء الشهير بالسريان بوادى النطرون ، وبين رهبانه عدد من الشبان الجامعيين الذين ألهبت النعمة الإلهية قلوبهم فاستجابوا لها ودخلوا إلى الدير ليعيشوا كما عاش أسلافهم من قبل فى هذه الأماكن المقدسة .

الاشتراك فى الصلاة مع البابا الجليل ، ونشوة الذكرى إذ قد أحسوا بأن صلواتهم امتزجت بصلوات أجدادهم التى رفعوها من هذا المكان عينه منذ أجيال . ومما زاد الصلاة بهاء الشعور بأن الألحان الكنسية تتردد مرة أخرى فى هذا المكان المقدس بعد أن خفتت مئات السنين ، فتجددت معنى القيامة فى الأذهان وهى تحلق نحو السماء خلال البخور المتصاعد والترانيم المتجاوبة الأصداء .... .

١٢٦ - وبما أن الاستشهاد لم يكن وقفًا على الرجال إذ قد شاركتهم النساء مجده لأن الأباطرة قد بطشوا بعدد غير قليل منهن فقد وجب التأمل فى سيَر الشهيدات أيضًا . وأعظم شهيدة من بنات مصر هى القديسة دميانة . وقد ولدت هذه القديسة من أبوين مسيحيين . وكان أبوها مرقس واليًا على البرلس . وقد أحسن هو وزوجته تربية ابنتهما وبخاصة لأنها كانت وحيدتهما . فكرسا حياتهما لتهذيبها وتثقيفها ونفخا فيها روح التفانى فى سبيل الإيمان . فلما بلغت الخامسة عشرة من عمرها أراد أبواها أن يزوجاها ليفرحا بتربية أولادها . ولكن ما كادا يفاتحانها فى هذا الموضوع حتى أعلنت لهما رغبتها فى أن تحيا حياة البتولية . فرحبا بهذه الرغبة على الفور مما يقطع فى الدلالة على أنهما كانا صادقى الإيمان محبين للكنيسة حباً خالصاً . ولكى يحققا لدميانة رغبتها بنيا لها قصراً فى جهة الزعفران تنفرد فيه للعبادة وصحبها فى عزلتها أربعون من العذارى اللواتى نذرن بتوليتهن للرب أسوة بها . وقد عشن جميعًا فى سلام شامل بضع سنين ، فلما أثار الامبراطور ديوقلديانوس الإضطهاد على المسيحيين طلب إلى مرقس - وغيره من الولاة - أن يصحبه إلى الهيكل ليبخر للأصنام معه . وخشى مرقس أن يفقد مركزه أو حياته أو كليهما فانقاد لرأى الامبراطور وذهب معه إلى المعبد حيث اشترك فى التبخير للآلهة . ولما سمعت العذراء دميانة خبر نكران أبيها الإيمان بالسيد المسيح هالها أن يجبن أبوها فتركت عزلتها وبادرت إلى مقابلته وأعربت له عن حزنها العميق لما ارتكبه من اثم . ثم قالت له : « كان الأهون على نفسى أن أسمع خبر انتقالك إلى دار الخلود من أن أسمع أنك أنكرت فادينا الحبيب » . فألهبت هذه الكلمات قلب مرقس أبيها الذى تركها وذهب على الفور لمقابلة الامبراطور ديوقلديانوس وجهر أمامه بندمه على ما ارتكب من اثم . فثارت ثائرة هذا الطاغية وأمر بقطع رأسه فنال اكليل الشهادة .



صورة لمارمينا محفورة على جدار كنيسته فى مريوط وهو يتوسط جملين

ولم يمض على استشهاد مرقس غير أيام معدودات حتى علم ديوقلديانوس أن السبب فى رجوعه إلى الإيمان بالسيد المسيح إنما يرجع إلى ابنته دميانة فتحرى الامبراطور عن هذا الأمر ، ولما تحقق صحته أمر جنده بأن يقصدوا إلى قصر الزعفران حيث يلتقون بدميانة وزميلاتها ، ويعرضون عليهن التبخير للأصنام ، ويحاولون بجميع الوسائل تحقيق هذه الأمنية فإذا فشلوا أعملوا السيوف فى رقابهن جميعاً . فنفذ الجند ما أمروا به . وعندما سمعت دميانة أصوات الجنود خارج قصرها قالت لزميلاتها : « إن من ترغب منكن أن تستشهد معى فلتبق هنا ، ومن تخشى الموت فلتبادر بالخروج من القصر » . فقلن لها : « إننا جميعًا سنقف إلى جانبك لننال إكليل الشهادة معك » . وعبثًا حاول الجند أن يثنوا هؤلاء العذارى عن التمسك بإيمانهن ، فأعملوا السيوف فى رقابهن بعد أن أذاقوهن العذاب

ألواناً . وقبل أن يهوى السيف على رقبة العذراء دميانة قالت : « انى أعترف بالسيد المسيح ، وعلى اسمه أموت ، وبه أحيا حياة الأبد » .

وكان هناك جمهور يزيد عدده على أربعمائة شخص من أهالى تلك الضاحية تجمعوا ليروا ما يكون من أمر هؤلاء العذارى . فلما شهدوا البسالة التى أبدينها فى ملاقاة العذاب والموت فى سبيل الإيمان الأرثوذكسى ، قدموا أعناقهم للجلادين معلنين أنهم يرحبون بالموت على اسم السيد المسيح الذى يمنح العذارى قوة هذا مقدارها فيمكنهم من تحمل العذاب عن رضى وحبور.

وبعد مضى نصف قرن على هذا الإضطهاد الشنيع أعلن الامبراطور قسطنطين الكبير المسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية الرومانية . وذهبت أمه الملكة هيلانة إلى أورشليم لحضور تكريس كنيسة القيامة التى أمر ابنها بتشييدها حول القبر المقدس . وعند عودتها من القدس الشريف مرت بمصر ، وذهبت لزيارة المكان الذى دفنت فيه الشهيدة دميانة وزميلاتها العذارى ، ثم شادت فوق ذلك المكان كنيسة باسم هذه العذراء وزميلاتها (١) .

ولا تزال كنيسة الشهيدة دميانة قائمة للآن يتجدد بناؤها كلما تقادم ويذهب الناس للتبرك بزيارتها من مختلف الجهات ، وأهم موسم لزيارتها يقع ما بين ٤ - ١٢ بشنس (١٢ - ٢٠ مايو) . ومن يمنحه الله تعالى بركة زيارة القبر المقدس فى أورشليم ، وزيارة قبر الشهيدة دميانة فى البرارى ببلقاس ، ويرى أن تصميم البناء متشابه فى الحالتين رغم عظم الفارق فى الحجم . فكما أن القبر الذى رقد فيه الفادى الحبيب يتوسط كنيسة القيامة ، هكذا قبر القديسة دميانة يتوسط كنيستها الأثرية وقد أقيم فى كل من الكنيستين مذبح ملاصق للقبر تقام عليه الصلوات . أما المشاعر والوجدانات التى تستثيرها رؤية هذه الأماكن المقدسة فلا يمكن لإنسان أن يصفها لأنها مزيج عجيب من الفرح والخوف والرهبة والنشوة . وخير وصف لهذه الحالة الروحية الجياشة ما قالته لى سيدة وهى تشترك فى إحدى الدورات الخاصة

---

(١) راجع المخطوط العربى كتبه الأنبا يؤنس أسقف البرلس سنة ١٤٨٢ش (١٧٧٦م) ، وهو محفوظ بكنيسة الشهيد استفانوس الملاصقة للكنيسة المرقسية الكبرى بالبطريركية بالقاهرة .

بصلاة عيد القيامة فى القدس - وهو : « دى ليلة مش من عمرنا لأننا مش على الأرض » . وقد رددت لى هذه الحقيقة زميلة عزيزة حين كنا معاً نشترك فى صلوات ليلة عيد الست دميانة فى ديرها بالبرارى ، فقد التفتت إلىَّ ونور البهجة يشع من وجهها وقالت متسائلة : « أفى حلم نحن أم فى يقظة ؟ » . وهذه الكلمات الموجزة تعبر عن عمق النشوة الروحية التى تغمر كل نفس سعدت بزيارة الأماكن التى قدسها السيد المسيح والأماكن التى قدسها شهداؤه ومعترفوه فى مختلف بقاع الأرض .

١٢٧- وإلى جانب الشهداء وقف المعترفون - والمعترفون فى الكنيسة هم الذين جاهدوا فى سبيل الإيمان وذاقوا صنوف العذاب ولكنهم لم ينالوا اكليل الشهادة . وفى طليعة هؤلاء المعترفين فى العصور الرسولية الأنبا بفنوتى اسقف طيبة (الأقصر) . كان هذا القديس فى شبابه من المتأملين فى الإلهيات ، فقال فى نفسه : « إن كانت السماء هدفنا ، وإن كنا فى هذه الدنيا نزلاء وغرباء ، فلأعد نفسى من الآن لبلوغ السماء التى إليها مرجعى » . فقام لساعته وقصد إلى الصحراء حيث تتلمذ للقديس أنطونى أبى الرهبان . ولم يلبث أن اشتهر بتقواه وجده وانكبابه على مطالعة الأسفار المقدسة حتى وصفه زملاؤه النساك بأنه « الهيكل الحى للحكمة الإلهية » .

وحدث ذات يوم أن تأذى بعض النساك من أحدهم لذنب ما . وكان هذا الناسك يدفع عن نفسه ما يتهمونه به . فلما رآهم بفنوتى يشددون الخناق على زميلهم روى لهم المثل التالى : « غاصت قدم الرجل فى الوحل وهو واقف على شاطئ النهر ، فمر به بعض الناس وأرادوا أن ينقذوه ، ولكنهم كانوا سببًا فى زيادة غوص القدم فى الوحل » . ففهم النساك مما رواه لهم بفنوتى أنه يرى وجوب التساهل مع ذلك الناسك . فصفحوا عنه وأخذوه معهم إلى معلمهم الأنبا أنطونى وقصوا عليه كل ما جرى . فقال أبو الرهبان عن بفنوتى : « إنه الرجل الذى أوتى من الحكمة السماوية ما يجعله أهلاً لأن يحكم بالعدل والقسطاس » .

ولقد شاءت العناية الإلهية أن ينتخب الناسك بفنوتى أسقفاً على طيبة عاصمة الصعيد يومئذ ، فتفانى فى خدمة كنيسته وتعليم أبناء رعيته . وظل فى عمله هذا حتى ثارت ثائرة الامبراطور مكسيميانوس (شريك

ديوقلديانوس وخليفته) على المسيحيين . فصب جام غضبه على أهل الصعيد وامتدت يده الأثيمة إلى الأسقف بفنوتى فسجنه ثم أمر بقلع عينه اليمنى وبتر ساقه اليسرى ولم يكتف الامبراطور بهذا كله بل امر جنده ان يسوقوا مئة وثلاثين من المعترفين وعلى راسهم الأسقف بفنوتى إلى المحاجر لتسخيرهم فى قطع الأحجار مع جلدهم بالسياط . على أن جميع هذه العذابات لم تكن لتثنى هذا الأسقف القديس عن عزمه - فقد كان فى كنيسته بمنزلة الجبل الراسخ . وكان يقف وسط المعترفين يصلى معهم ولأجلهم فيعطيهم المثل الحى عن الثبات ويبين لهم مصدر القوة الحقيقية . وهكذا استطاع ان يثبتهم على الايمان رغم الآلام والأهوال . وقد حباه الله موهبة شفاء المرضى وأجرى على يديه من الآيات والعجائب ما زاده فى قلوب الناس اجلالاً وتعظيماً .

ثم انتهى الاضطهاد وعاد المعترفون إلى بلادهم . ولما عقد مجمع نيقية سنة ٣١٧م . ش. (١) كان الأنبا بفنوتى ضمن اعضائه الثلاثمائة والثمانية عشر . وقد بلغ من احترام الامبراطور قسطنطين الكبير وتقديره إياه انه كان يستشيره فى جلائل الأمور . وفى كل مرة كان يقع نظره عليه كان يتقدم فى وقار ويقبل موضع عينه اليمنى التى قلعت فى سبيل الايمان الأرثوذكسى (٢) .

ومن نعم الله على كنيسته ان إطال فى حياة الأنبا بفنوتى الذى ما ان عاد من مجمع نيقية حتى عاود جهاده فى تدعيم الايمان . فكان خير معوان للأنبا اثناسيوس الرسولى فى جهاده المتواصل ضد البدعة الأريوسية .

١٢٨- وإنه لمن دواعى الغبطة أن يقف المصريون ثابتين فى كل مكان ، ففى بلادهم تحملوا العذاب كما تحملوا خارجها . ومن بين أبناء مصر الذين

---

(١) التاريخ الشائع لمجمع نيقية هو سنة ٣٢٥ . وهذا التاريخ يوافق سنة ٣١٧ بحسب تقويمنا المصرى . وذلك لأنه يوجد فرق - عبارة عن ثمانى سنوات - بين التقويم الغربى والتقويم المصرى . لذلك يشار إلى سنة ٣٢٥ بحرفى م. غ. (أى ميلادية غربية) بينما يشار إلى تاريخنا بحرفى م. ش. (أى ميلادية شرقية) .

(٢) راجع « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للكاردينال هيفيليه جـ١ ص٢٧٧ .

واجهوا الشدائد وهم خارج بلادهم المحبوبة بسوتى أسقف بتولومايس (١) .
ولا يروى لنا التاريخ شيئاً عن طفولة هذا الأسقف العظيم ولا عن شبابه وأين انقضى . ولكن الذى يرويه التاريخ هو جهاده الروحى العنيف فى سبيل أبنائه من أهالى بتولومايس . ذلك انه أدرك تمام الادراك أن الأسقفية أبوة روحية فوجه كل عنايته إلى تعليم شعبه وتثبيته فى الايمان . وكان حين يعلم شعبه – يصور لهم أمجاد السماء فى صورة جذابة خلابة تفتنهم وتجعلهم يدركون أن آلام الحاضر لا توازى المجد المعد لجميع الذين يرضون الله . ولما سمع أريان والى المنطقة بتعليم بسوتى اقسم بأن يضع حداً له . فأرسل على الفور رسالة إلى الامبراطور ديوقلديانوس الذى بعث برده مع الرسول عينه بقول فيه : « من ديوقلديانوس الامبراطور إلى بسوتى : سلام . إن رضيت أن تخضع للأوامر الصادرة منى إليك بأن تبخر لآلهتى فإنى أعطيك سلطاناً أوسع ، وأمر جنودى بحراستك حيثما سرت . أما إن رفضت الاذعان فليس أمامك سوى الموت » .

وحين وصل رسول الامبراطور إلى بتولومايس كان الأنبا يصلى صلاة القداس الإلهى فعلم بالروح مضمون الرسالة . وحالما انتهى من الصلاة استدعى إليه الرسول وقال له : « هل فى وسعك أن تصنع معى معروفاً ؟ » أجابه الرسول : « إن كان فى حدود سلطتى أصنعه معك بكل سرور » : قال له الأسقف : « أمهلنى أربعاً وعشرين ساعة » . وقبل الرسول هذا الطلب . فجمع الأسقف كهنته وشعبه ، واخذ يوضح لهم عظم المسئولية الملقاة عليهم ، وشرف الثبات على الايمان المسيحى حتى النهاية . فبدأوا يبكون ويرجون منه أن يجد مخرجاً لنفسه من الموت المحقق الذى ينتظره . فقال لهم : « يا أولادى – كل منا سيموت حتماً إن عاجلاً أو آجلاً ، لذلك كان من دواعى مجدى أن أموت الآن على اسم السيد المسيح مخلصى – فذلك خير لى من أن أعيش مدة قد لا تتجاوز يوماً وقد تطول أعواماً . وهذه المدة أعيشها وأنا خجل منخفض الجبين لأننى خنت عهد سيدى الفادى الذى بذل نفسه

(١) هى احدى المدن الخمس الواقعة فى شمال افريقيا وتعرف الآن باسم « توليتا » وكانت قبل عصر البطالسة قرية صغيرة فحولها بطليموس سوتير إلى عاصمة المنطقة ودعاها بتولومايس .

لأجلي . فتعالوا لنصلي جميعاً القداس الإلهي ولنشترك معًا في التناول من السر المقدس كي تتحصن به نفوسنا فنستطيع أن نطير إلى العلى بأكثر سرعة » . وقد تعزت قلوب الشعب بهذه الكلمات فجفت دموعهم وانفرجت شفاهم عن ابتساماتهم ، واشتركوا معاً بقلب واحد في الصلاة وارتفعت أصواتهم في قوة وحرارة . ولما انتهى القداس الالهي رأى الشعب وجه الأنبا بسوثي يضيء بلمعان ساطع فامتلأت قلوبهم سكينة وعزاء ، وساروا معه إلى حيث ينتظره الجند مهللين مسبحين كأنهم سائرون في موكب عرس بهيج . وما أن أوصلوه إليهم حتى ودعوه من غير آهة واحدة . واقتاده الجند إلى الاسكندرية وسلموه إلى واليها الذي حاول بشتى الوسائل أن يقنع الأنبا بسوثي بالتبخير للآلهة . ولكنه أصر على الرفض . ثم زعم الوالي انه قد يستطيع ارهاب الأسقف إلى الخضوع فرمى به في السجن وختم باب السجن بالختم الامبراطوري ، وتركه خمسة عشر يوماً . ثم عاد إليه بعد هذه المدة وقاده إلى قاعة المحكمة ، وقد ذهل الوالي حين رأى الأنبا بسوثي مضيء الوجه تشيع منه النضارة والبشاشة كما يشيع العطر من زهر الربيع فقال له : « لابد أنك ساحر - لأنني ختمت الباب بالختم الامبراطوري وفضضته بنفسي الآن . وهذا يعني أنك بقيت في السجن الضيق القذر خمسة عشر يومًا محرومًا من كل طعام وشراب . وكنت أتوقع أن أراك نحيلاً شاحب الوجه لا تقوى على الوقوف . أما وقد وجدتك على غير ما توقعت فأظن أن لديك قوى سحرية تقهر بها الجوع والعطش » . وابتسم الأنبا بسوثي في هدوء تام وقال له : « اني أشفق عليك يا صديقي العزيز لأنك لم تعرف بعد أنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » . وكانت الجماهير إذ ذاك قد تجمعت في دار المحاكمة وسمعت الحديث الذي دار بين الأسقف والوالي ، فهتفوا : « يا أبانا القديس بسوثي - ان إله المسيحيين هو الإله الحق » . فهمس الوالي في أذن القاضي قائلاً : « أسرع باصدار الحكم قبل أن تتزايد الجماهير ويفلت الزمام من أيدينا » . فصرخ القاضي بأعلى صوته : « خذوا هذا الرجل خارج المدينة واقطعوا رأسه » . فساقه الجند إلى الخارج وتبعته الجماهير . وفي الطريق اقترب شاب شماس من الأنبا بسوثي يسأله : « يا أبي - لماذا ارتديت الثياب البيضاء التي ترتديها حين تقدم القرابين ؟ » فالتفت إليه الأسقف وهو مشرق الوجه وقال : « يا بني أنا ذاهب إلى حفلة العرس فكيف لا ألبس

الملابس البيضاء ؟ وسأقابل ربى والهى فى مجده . ولقد عشت السنين الطوال مشتاقًا إلى هذه المقابلة . أما أنت يا ابنى فانضم إلى الجموع قبل أن يلحظ الجند أنك تحدثنى . وإلى اللقاء فى النور الأعظم » .

ولما وصلوا إلى مكان الاعدام رفع الأنبا بسوثى عينه نحو السماء ورفع يديه إلى فوق وصلى بصوت عال قائلاً : « ياربى وإلهى احرس هذا الشعب ، واحفظه فى الايمان القويم . وارسل ملائكتك ليحيطوا به ، وتقبل روحى بين يديك » . ولم يكد ينتهى من صلاته هذه حتى رأت الجموع السيف يلمع فى أشعة الشمس ثم يهوى على رجل الله . فسقط جسمه على الأرض بينما طارت روحه مع جمهور الملائكة إلى مساكن النور .

١٢٩- ولم تكن بتولومايس بالمدينة الوحيدة بين المدن الخمس التى واجه أسقفها الطغيان الرومانى فى سكينة روحية نادرة ، بل شاركه هذه السكينة أخ فى الكهنوت المقدس هو الأنبا ثيئودورس أسقف القيروان - مسقط رأس القديس مرقس كاروز الديار المصرية - وكان ثيئودورس هذا قديسًا كما كان فنانًا عظيمًا . وكان يقضى فترات راحته - بعد تأدية أعماله الراعوية - فى زخرفة المخطوطات . ولقد برع فى هذا الفن إلى حد أن الناس أصحاب الذوق المرهف فى أنحاء العالم كانوا يسارعون إلى اقتناء رسوماته . وكان فنه ممتلئًا روحانية فجذب بواسطته عدداً عديداً إلى السيد المسيح . ولاحظ دجنيانوس والى القيروان أن الفن هو رسول الأسقف لدى الناس يستميلهم بواسطته عن الوثنية إلى المسيحية . فاغتاظ كل الغيظ ، وقرر أن يعطل الأنبا ثيئودورس عن عمله - وبخاصة أن الامبراطور ديوقلديانوس أصدر منشوراته ضد المسيحيين . فقبض ديجنيانوس على الأسقف وعلى عدد من النساء الشريفات وبعض زعماء المسيحيين .

ولما استمع القاضى إلى شكوى ديجنيانوس عن الآيات الفنية التى يبتكرها الأنبا ثيئودورس ليستميل بها القلوب إلى المسيحية ، أمره بتسليمها إليه . ولكن رجل الله رفض الاذعان للأمر . وبازاء هذا الرفض حكم القاضى بجلده بسياط تنتهى بقطع من الحديد . فانهال عليه بالسياط حتى سالت دماؤه غزيرة . وحالما تركوه تريث إلى أن استعاد أنفاسه وجر نفسه على الأرض إلى أن وصل تجاه المذبح الذى أقيم فى دار المحاكمة لاستهواء

المسيحيين إلى التبخير عليه . والتفت إليه الجميع فى اهتمام بالغ زاعمين أن السياط أثرت فيه فأنسته إيمانه . ولكنه ما كاد يلمس المذبح حتى دفعه بكل ما بقى فيه من قوة فانقلب على الأرض . وثارت ثائرة القاضى والوالى فأصدروا الأمر بسلخ جلده جزء جزء ، وصب الخل على كل جزء حالما يسلخونه . وبدأ الجند عملهم ، فكان الأنبا ثيئودورس يهتف أثناء سلخه : «إن مخلصنا السيد المسيح هو وحده سيدنا وربنا» . فأمر القاضى بقطع لسانه ورميه فى السجن قبل أن يكون ثباته سببًا فى اجتذاب جمهور المتفرجين إلى ايمانه المسيحى . وبينما هو فى السجن شفاه الفادى الحبيب من جراحاته كما أعاد إليه لسانه فآمن به لوسيوس حارس السجن .

وبعد أيام دهش ديجنيانوس الوالى إذ وجد الأنبا ثيئودورس معافى فأطلق سبيله . أما النساء الشريفات وبقية المؤمنين الذين كانوا فى السجن معه فقد صدر الأمر باعدامهم جميعاً .

والعجيب فى هذا الشأن أن لوسيوس حارس السجن الذى نال الصبغة المقدسة على يدى الأنبا ثيئودورس رأى من واجبه أن يحاول اجتذاب ديجنيانوس الوالى ومعه القاضى إلى المسيحية ، فنجح مع الأول وفشل مع الثانى . واتفق لوسيوس مع ديجنيانوس على مغادرة البلاد معاً ، فذهبا إلى قبرص . وبعد أيام عرف الأهالى سيرتهما فوشى البعض بهما إلى الوالى . وأحس لوسيوس بما حدث فأراد أن يحفظ حياة ديجنيانوس ويقيه مما قد يصيبه من عذاب فسلم نفسه خلسة إلى الوالى . ولما كان لوسيوس رومانياً أمر والى الجزيرة بقطع رأسه بحد السيف . وحين سمع ديجنيانوس بما حدث ، أخذ الجسد ودفنه باكرام عظيم . ثم قضى بقية حياته فى عزلة وهدوء مداوماً على الصوم والصلاة إلى يوم مماته .

أما الأسقف ثيئودورس فعاد إلى شعبه وعاود جهاده الفنى : ولكن العذاب الذى ذاقه أضنى جسمه فلم يعش سوى سنين قليلة انتقل بعدها إلى بيعة الأبكار فى هدوء وسلام (١) .

١٣٠- هؤلاء القديسون الستة إنما هم الصورة الحية للجمع الحاشد من

---

(١) «قديسو مصر» (بالفرنسية) للأب بول دورليان ، جـ٢ ص١٧٤ - ١٧٧ .

الشهداء والمعترفين الذين بنوا الكنيسة بدمائهم وتحملوا صنوف العذاب ببسالة نادرة . وأنه لمن دواعى الفخر أن يستشهد عدد من الأساقفة . فلقد ذكر التاريخ أن ثلاثة من الأساقفة هم هيزيكيوس وباخوم وتيئودورس اتفقوا مع الأنبا فيلياس شريكهم فى الخدمة الرسولية وكتبوا رسالة إلى ميليتيوس الليكوبولى حين أحدث الشغب أيام الأنبا بطرس خاتمة الشهداء يرجون منه أن يحافظ على وحدة الكنيسة ، وأن هؤلاء الأساقفة الأربعة نالوا اكليل الشهادة حين اندلعت نار الاضطهاد [1] . كذلك استشهد الأنبا أنطونيوس أسقف بنا [2] والأنبا أمونيوس أسقف أسنا والأنبا هيلينيوكوس أسقف أوسيم [3] .

وليس من شك فى أن الأساقفة الذين قدموا المثل الأعلى لأبنائهم فى البذل والتضحية كانوا اكثر من هؤلاء لأن الكثير من السجلات القبطية لم يبق له اثر . وعن هؤلاء الأساقفة وأبنائهم (من الشعب المصرى الباسل) الذين رضوا بالاستشهاد قال أوسابيوس أبو التاريخ الكنسى : « لقد شاهدنا بأعيننا فى هؤلاء الشهداء أنبل صفوف البسالة وأسمى منزلة للتفانى المقترن بالفرح . فلم نزدد إلا يقيناً بأن هذه القوى العجيبة لم يكن لها من مصدر غير الله » [4].

١٣١- لمحة عن يوليوس الأقفهصى كاتب سير الشهداء :

فى كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) ببابلون توجد أيقونة

---

(١) « أعمال شهداء مصر » ترجمه من القبطية إلى الفرنسية هيفرنا ، جـ١ ص٢٨٦ ، «قوائم أسقفيات الكنيسة القبطية» (بالفرنسية) لپول مونييه ، طبع تحت رعاية جمعية الآثار القبطية ص٢ .

(٢) « تعليق على قوائم أسقفيات الكنيسة القبطية » (بالفرنسية) ليعقوب مويزر نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية العدد العاشر سنة ١٩٤٤ ص١٣٠ .

(٣) هذان الأسقفان وردت سيرتهما فى السنكسار الأثيوبى ، ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٣٧٩ - ٣٨٠ ، ٤٤١ - ٤٤٢ .

(٤) «قديسو مصر» (بالفرنسية) للآب پول دورليان جـ٢ ص٣٢٢ - ٣٢٤ ، «مختصر تاريخ الكنيسة القبطية » لسليم سليمان جـ١ ص٥٣ - ٥٥ .

معلقة على الحائط الذى يقع عن شمال المصلى حين يتجه بنظره إلى الهيكل . وهذه الأيقونة لفنان اسمه ابرآم بن سمعان الناسخ الذى عاش فى القرن الخامس عشر للشهداء (أو القرن الثامن عشر الميلادى) . ويتوسط يوليوس الأقفهصى هذه الأيقونة وهو راكب حصاناً ابيض وعلى راسه اكليل الشهادة ، بينما وقف ابنه عن يمينه وأخوه عن يساره . ويمسك كل من يوليوس وابنه وأخيه ملفات من الورق عليها الأسماء الآتية :

١- سيرة الشهيد محب أباته مرقوريوس أبى السيفين ومن معه .

٢- سيرة أبالى ويسطس وامه - سيرة قزمان ودميان وأخوتهما وامهم .

٣- سيرة بقطر بن رومانوس ويعقوب الفارسى .

٤- سيرة أباكير ويوحنا وبربارة ويوليانة .

٥- سيرة ماربهنام وسارة أخته .

٦- سيرة الأنبا سراباموں الأسقف وابصادى وغلينيكوس .

٧- سيرة الأنبا بشاى والأنبا بطرس . سيرة الشهداء فى اسنا .

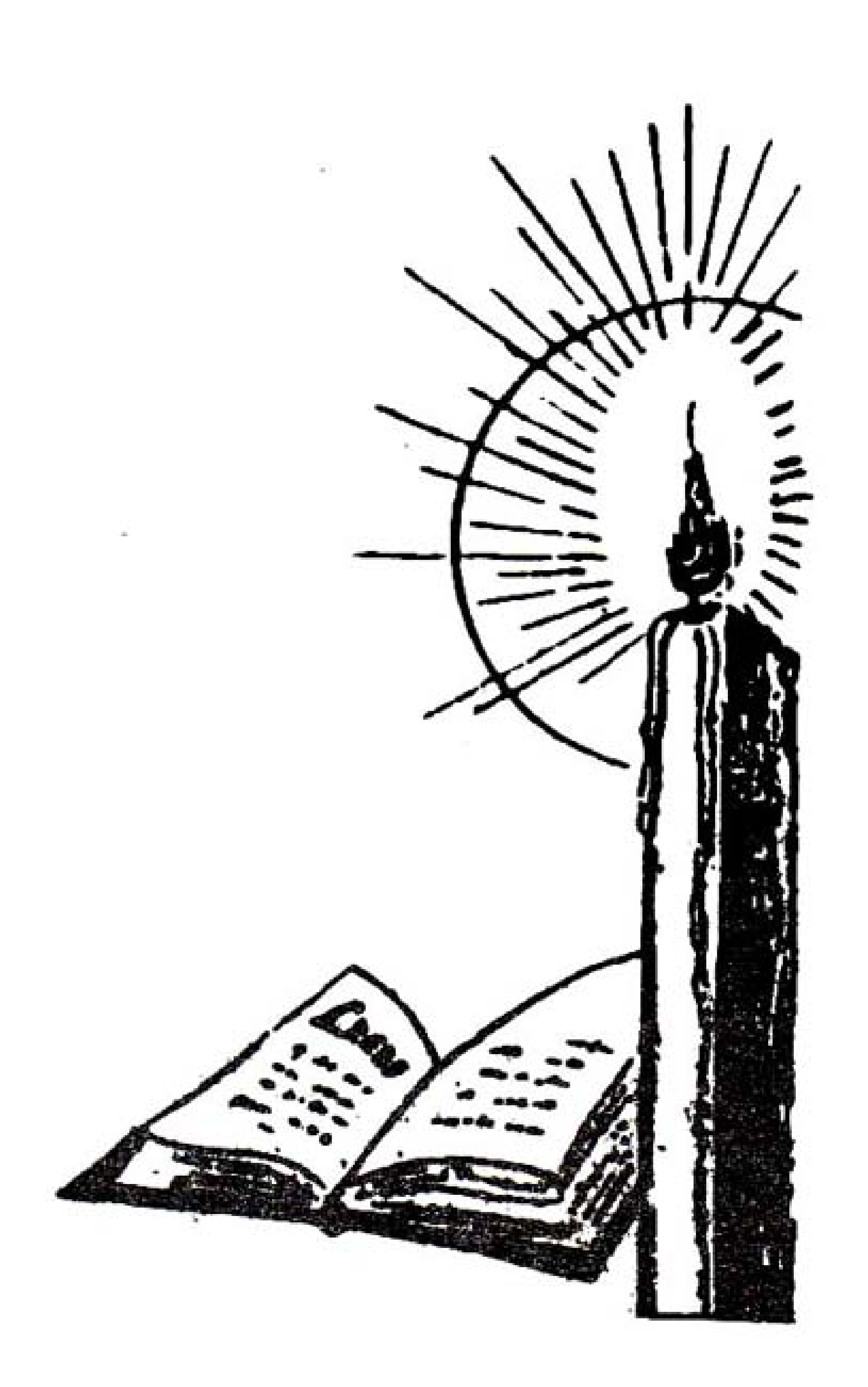
٨- سيرة مارمينا العجايبى والأربعين شهيداً بسبسطية .

-- وليس هذا الكشف المذكور فى الأيقونة غير جزء مما كتبه يوليوس عن الشهداء . لهذا السبب عينه لا يذكره أحد من المتقدمين إلا مقروناً بكلمات « كاتب سيَر الشهداء » باللغتين القبطية والعربية .

ولقد ولد يوليوس هذا فى مدينة أقفهص (البهنسة الآن) فى القرن الثالث الميلادى . وكان غنياً واسع النفوذ لدى السلطات الرومانية حتى أنه كان صديقاً لأرمانيوس والى الاسكندرية .

وكان يوليوس يقتنى ثلاثمائة خادم يستطيعون القراءة والكتابة ، استخدمهم فى نسخ سير الشهداء . ولعناية يوليوس بهذه الرسالة الموضوعة عليه ، كان يبعث برسالة إلى جميع المدن المصرية ليستعلموا عن الشهداء . وعما لاقوه ، وليعتنوا بأجسادهم بعد نيلهم اكليل الشهادة ، ثم ليقدموا تقارير عما شهدوه وسمعوه . فكان يوليوس يكتب السيَّر تبعًا

للقصص التى يرويها له كتّابه ثم يعطيها لخدامه ليكتبوا منها عدداً من النسخ . ولقد انتهى الأمر بكاتب سيّر الشهداء أن فاز هو أيضّا بأكليل الشهادة . وبكتابته لهذه السيّر العطرة ترك للقبط تراثاً مجيداً تتضاءل أمام مجده كنوز سليمان (١) .



(١) راجع « يوليوس الأقفهصى ومؤلفاته » (بالفرنسية) لتوجو مينا ، نشره فى مجلة محبى الفن القبطى العدد الثالث (سنة ١٩٣٧) ص٤١ - ٤٧ .

(١٣٢) انتخاب أرشيلاوس بابا للاسكندرية سنة ٢٩٥م .
(١٣٣) تجدد الاضطهاد بأمر مكسيميانوس .
(١٣٤) ظهور أريوس بعد عودة السلام ونياحة الأنبا أرشيلاوس .
(١٣٥) الكسندروس كما امتاز به من محبة وقداسة .
(١٣٦) أريوس يحاول الحصول على الحل من حرمه .
(١٣٧) مجمع من مائة أسقف يؤيدون حرم أريوس .
(١٣٨) الصراع بين الايمان القويم وبين انكار لاهوت المسيح .
(١٣٩) أريوس وأوسابيوس النيقوميدى .
(١٤٠) قسطنطين الكبير يعلن المسيحية دينا رسميا للدولة .
(١٤١) رسالة دورية للأنبا ألكسندروس .
(١٤٢) أريوس يؤلف «تاليا» وأنطونى يوقفه عند حده .
(١٤٣) رسالة الكسندروس الاسكندرى إلى سميه البيزنطى .
(١٤٤) طومس الكسندروس .
(١٤٥) القتال بين قسطنطين الكبير وليسينيوس .
(١٤٦) خطاب واحد من قسطنطين إلى الكسندروس وأريوس .
(١٤٧) السلام القسطنطينى ووحدة المؤمنين .
(١٤٨) قسطنطين يحوط نفسه بالأساقفة ويتخذ من هوسيوس أسقف قرطبة مستشاراً .
(١٤٩) هوسيوس يذهب إلى الاسكندرية مندوبا عن الامبراطور ويتفق مع الكسندروس على وجوب عقد مجمع مسكونى .

١٣٢- والآن - وبعد أن حلقت أرواحنا مع الشهداء والمعترفين - نعود إلى متابعة تاريخ الكنيسة لندرك مدى الجهاد العنيف المستمر الذى جاهده آباء الاسكندرية بلا هوادة ضد الإضطهاد أحياناً وضد البدع أحياناً أخرى .

ولقد حدث - بعد استشهاد الأنبا بطرس خاتمة الشهداء - أن انتخب الشعب أرشيلاوس خليفة له . وكان أرشيلاوس كسلفه كاهنًا فمديراً لمدرسة الاسكندرية معروفًا بقداسته وعلمه الغزير ومعرفته للعلوم المتعلقة بما وراء المادة . وقد تمت رسامته سنة ٢٩٥م فصار بذلك الخليفة

الثامن عشر للقديس مرقس كما تنبأ له سلفه البابا الشهيد .

١٣٣- وفى تلك الفترة أمر الامبراطور مكسيميانوس بمعاودة اضطهاد المسيحيين إذ وجدهم يتزايدون رغم المحاولات العنيفة التى بذلها ديوقلديانوس لابادتهم وكانت فترة الاضطهاد هذه هى التى جاء فيها الأنبا انطونى إلى الاسكندرية أملاً فى ان يظفر باكليل الشهادة فحفظته العناية الإلهية لنشر حياة الرهبنة فى العالم بأسره ولتثبيت قلوب المؤمنين وتدعيم الايمان القويم فى أنحاء البلاد .

١٣٤- وما ان استتب السلام من جديد حتى ظهر أريوس فى الاسكندرية معلناً توبته طالبًا من الأنبا ارشيلاوس أن يمنحه الحل من حرمه . وقد توسط بعض أصدقاء اريوس لدى البابا الاسكندرى ونجحوا فى اقناعه بصدق توبة أريوس . وحالما صدقهم أصدر عفوه عن المبتدع ناسيًا بذلك وصية معلمه الأنبا بطرس خاتمة الشهداء .

على ان الأنبا أرشيلاوس لم يجلس على السدة المرقسية غير ستة شهور فمر كسحابة الصيف فى هدوء وسرعة ولم يلبث أن انتقل إلى بيعة الأبكار .

١٣٥- وكان الكسندروس إذ ذاك قسيساً متقدماً فى الأيام (سنة ٢٩٥م) حين انتخب للخلافة المرقسية ، ولكن الشعب أحبه فانتخبه لهذه الكرامة العظمى رغم شيخوخته . وقد كان فى عزلته لا يقرأ الانجيل إلا واقفاً موقداً الشموع اشارة إلى انه يتحدث عن النور « الذى يضئ لكل انسان آت إلى العالم » (١) .

ولما انتخب هذا القديس جن جنون اريوس لأنه كان يطمع فى أن يحظى هو بهذه الكرامة . ولكنه لم يجرؤ على الحط من كرامة هذا البابا العظيم رغم مهارته فى الافتراء لأن البابا الكسندروس كان فى نظر جميع الكنائس فوق المطاعن والشبهات (٢) .

---

(١) يو ١ : ٩ ، « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص١٤١ .

(٢) « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لجون نيل ، جـ١ ص١١٥ حيث يقول :

"Alexandros was in the eyes of all the churches " Perfectly irreproachable ".

١٣٦- ولما كان اريوس يعرف ما امتاز به الأنبا الكسندروس من عطف ورقة فقد طمع فى أن يظفر منه بحله من حكم الحرم الذى وقعه عليه الأنبا بطرس خاتمة الشهداء والذى عاد الأنبا الكسندروس فأيده مبطلاً الحل الذى اصدره الأنبا أرشيلاوس . وكانت وداعة الحمام مقترنة بحكمة الحيات فى نفس هذا البابا فقال لمندوبى أريوس : « لقد أوصانى ابى القديس الأنبا بطرس أن لا أقبله مطلقاً فى شركة الكنيسة فليتب عما ارتكبه من خطية . ومتى قبل الفادى الحبيب توبته أعطانى علامة تبرر قوله وعندئذ يسعدنى أن أحله من حرمه » . غير أن كلمات هذا البابا الصالح العطوف قد دفعت أريوس إلى الامعان فى الشطط بدلاً من أن ترده إلى الصواب فتمادى فى نشر بدعته خصوصاً وانه كان خطيباً مفوهاً .

فلما وقف البابا الكسندروس على تمادى هذا المبتدع العنيد فى غيه ، عقد مجمعًا فى الاسكندرية . وفى هذا المجمع سمح لأريوس وانصاره بأن يبسطوا آراءهم بكل صراحة وحرية وحين استمع المجمع إلى آراء أريوس وجدها خارجة عن الايمان فحكم بتوبيخه وتعنيفه . ارتكاناً إلى أن الرحمة من الصفات الإلهية .

١٣٧- على أن الرحمة أدت إلى العكس مما كان ينتظره المجمع فدفعت أريوس للمرة الثانية إلى الامعان فى التدهور فى هوة الابتداع . فلما رأى الكسندروس أن الرحمة لم تجد نفعاً عقد مجمعاً ثانياً مؤلفاً من مئة أسقف يمثلون الكرازة المرقسية يومذاك . وبعد أن تداول آباء هذا المجمع فى البدعة الأريوسية وما تجره على الكنيسة من عناء وقعوا على أريوس عقوبة الحرم وجردوه من جميع الرتب الكهنوتية . ولم يكن بين المئة أسقف الذين حضروا هذا المجمع من شذ فى التوقيع على هذا الحكم غير أسقفين ليبيين كانا مواليين للمبتدع .

١٣٨- على أن هذا الحكم لم يكن ليردع أريوس المصاب بداء العنجهية الناشئة عن تشبثه بالفلسفات الوثنية التى قضت عليها الكنيسة الاسكندرية مبعث الفلسفة المسيحية : فلقد كانت للفلسفة اليونانية والتعاليم التصوفية العبرية فتنة تستهوى العقول . ومنذ القرن الثانى للمسيح بدأت هذه الفلسفات القديمة الفنية تفعل فعلها السحرى فى من يتأرجحون نحو

المسيحية من الفلاسفة والعلماء فتجذبهم بعيداً عنها . وكان على المسيحية أن تواجه هذه الحرب : الحرب الناتجة عن شطط العقول وفتنة الأفكار . وكانت الاسكندرية هى الميدان الذى دارت فيه هذه الحرب الروحية العنيفة فبرز آباء الكنيسة المصرية يساجلون الفلاسفة وفى طليعتهم اكليمنضس وأوريجانوس اللذان صارعا الملائكة [١] وقاوما الابتداع فى مختلف أشكاله ، فغاصا فى أعماق العلوم الروحية ، ومحصا كل ما ورد فى الأسفار الإلهية . وحين انتهيا من عملهما كانا قد نجحا فى ارساء قواعد الايمان واقامة صرحه عاليًا شامخاً ووصلا به إلى درجة فكرية روحية شاهقة لا تنقص كثيراً عما وصلنا إليه نحن فى هذا العصر بعد جهادهما بنحو ثمانية عشر قرناً [٢] .

ولما كانت الاسكندرية هى ميدان الصراع بين المسيحية وبين غيرها من الأديان والفلسفات فقد تخلف عن هذا الصراع بعض الحطام – وكان اريوس قطعة من هذا الحطام . ولو أنه أدرك أنه مجرد حطام متخلف عن معركة لأخلد إلى السكينة . ولكن العنجهية التى طغت عليه دفعته إلى الزعم بأنه يستطيع أن يجمع فلول المتقهقرين من معتنقى الفلسفات القديمة ويعاود الحرب ، فتزعم البقية الباقية من الوثنيين ومن المسيحيين الذين لم يكن الايمان قد بلغ أعماقهم واستمر يناوئ الأنبا الكسندروس ويستثير خواطر المسيحيين ذوى الايمان الراسخ . وفى الواقع لم يكن الصلح بين البابا

---

(١) يشير هذا التعبير إلى صراع يعقوب مع الملاك – راجع تكوين ٣٢ : ٢٤ – ٢٩ ، هوشع ١٢ : ٣ –٤ فقد انتهى هذا الصراع بأن فاز يعقوب بالبركة .

(٢) راجع « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ص٢٢ حيث يقول ما نصه :

" The battle was fought ; not in Smyrna nor in any of the seven churches of Asia but in the theological Schools of Alexandria, the most civilized city of the time, where Jews and Christians met on equal footing . Origen and Clement of Alexandria were the protagonists in the drama, They wrestled with angels, delved into the mysterious origins of Christianity consulted the oldest texts hurled anathemas on the pagans . When they completed their work they had laid the foundations of the faith , and built up its doctrinal structure almost to the height which it reaches today ".

أما الاشارة إلى مدن آسيا فى هذا النص فتشير إلى ما جاء فى الاصحاحات الثلاثة الأولى فى سفر الرؤيا .

الاسكندرى وبين أريوس بالأمر الميسور . ليس لأن أريوس تمادى فى غيه ، ولكن لأن كلاً من هذين الرجلين كان رمزاً لمبدأ يناقض الآخر . وكان هذان المبدآن يتصارعان منذ ظهور المسيحية . إلا أن صراعهما كان حتى هذه الساعة صراعاً خفياً مبهماً لانشغال آباء الكنيسة بالقضاء على الوثنية . فاستثار أريوس هذا الصراع من مكمنه وأعلنه جهاراً ، وحوله من صراع نفسى دفين إلى صراع جدلى يرن فى الطرقات . وكان هذا الصراع يدور حول ألوهة الفادى الحبيب – هذه الألوهة التى آمنت بها الكنيسة الجامعة معلنة أن المسيح هو وحيد الآب ومن نفس جوهره . ولقد واجهت الكنيسة بهذا الايمان جميع المعارضين من الوثنيين وانتصرت عليهم وكان من الطبيعى أن تكون مدينة الاسكندرية – وهى المركز للفلسفة والبحث فيما وراء المادة – الميدان الذى قام فيه الصراع حول هذا المبدأ لأن كنيسة الاسكندرية كانت معروفة بين جميع الكنائس بأنها « الكنيسة الفيلسوفة » (١) فحملت منذ البداية لواء هذا الصراع سواء فى أروقة المدارس أو على قارعة الشوارع .

١٣٩– وفى تلك الآونة ظهر بين اكليروس نيقوميديا رجل تفوق على أريوس إلى حد أنه احتل المكان الأول فى صفوف المبتدعين رغم انه لم يكن صاحب البدعة . وكان هذا الرجل هو أوسابيوس أسقف مدينة نيقوميديا (٢) وكان أوسابيوس هذا يتصف بجميع الصفات التى تؤهله لأن يكون صاحب نفوذ فى قصور الملوك : فقد كان على جانب قليل من العلم وجانب كبير من المكر والدهاء مكنه من أن يوهم الكثيرين بأنه متبحر فى العلوم . كذلك كان من أصحاب الضمائر المرنة المستعدين للممالأة والتملق . وقد زاده مقدرة ما كان يتميز به من صوت أخاذ وكلمات معسولة . وقد استعان على تضليل الناس بما أوتى من فصاحة ومقدرة خطابية ، وعاونه من تجمع حوله من أنصار على توسيع نطاق تضليله فنجح فى أن يستميل إليه عدداً من رجال

---

(١) «تاريخ المجامع» (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ١ ص٢٢٣ حيث يقول ما نصه:

" Alexandrie était, depuis plus d'un siécle, l'Eglise philosophante parmi toutes les églises Chrétienes " .

(٢) كانت المدينة الخامسة فى العالم إذ ذاك ، بنى فيها ديوقلديانوس قصراً منيفاً وجعلها مقراً لعاصمة الامبراطورية .

البلاط الامبراطورى . وقد روج أنصاره اشاعات حوله زعموا فيها أنه يستطيع اجراء الآيات والعجائب ، فى حين أن الامبراطور قسطنطين الكبير اتهمه بأنه تآمر سراً مع خصمه ليسينيوس (١) فى اضطهاد المسيحيين (٢) .

وقد استمر أريوس فى احداث الشغب فكان لا يفتأ يعقد اجتماعات فى مختلف الكنائس أملاً فى اجتذاب الأنصار إليه . وبهذه الوسيلة استطاع أن يخدع ضعاف النفوس ويستميل إليه بعض سيدات المجتمع . وقد أسكره هذا النجاح فعمل على إثارة الفتن واذاعة الدسائس فى مدينة الاسكندرية (العظمى) نفسها .

١٤٠ - وكان السلام فى ذلك العهد استتب بعد أن أعلن الامبراطور قسطنطين الكبير المسيحية احدى الديانات الرسمية للامبراطورية الرومانية . وكان اعلانه هذا نتيجة لما حدث له إذ قد رأى صليباً من النور وهو يبيت فى العراء مع جنوده ليلة المعركة التى خاضها ضد مكسونس الطامع فى الامبراطورية ، ومع الصليب سمع صوتاً من السماء يقول له : « بهذه العلامة تغلب » . فرفع الصليب على رأسه وعلى صدور جنوده وما يحملون من أعلام . وما أن تم له النصر حتى أقام فى وسط مدينة رومية تمثالاً يمثله حاملاً الصليب وقد كتب تحته عبارة وجهها إلى الشعب الرومانى هذا نصها : « بهذه العلامة الفدائية ، علامة البسالة الحقة ، أنقذت مدينتكم من العبودية ومنحتكم الشرف والحرية والعظمة » (٣) . وأردف ذلك بالبراءة التى تعرف ببراءة ميلانو التى أمن فيها المسيحيين على حياتهم وأموالهم . فبدأ عهد جديد من السلام عم أرجاء الامبراطورية يعرف بعهد السلام القسطنطينى . وفى وسط هذا السلام الشامل حاول أريوس أن يثير الاضطهاد من جديد .

---

(١) كان ليسينيوس زوج أخت الامبراطور قسطنطين الكبير . ولكن هذه الصلة لم تمنع من قيام الحرب بينهما . ويبدو أن ليسينيوس أثار الاضطهاد ضد المسيحيين . مناوءة منه لأخى زوجته الذى كان نصيراً للمسيحية . وقد دام الاضطهاد سبع سنين وسقط فيه أسقف تانيس وغيره من رجال الدين . وكانت الطريقة المتبعة فى هذا الاضطهاد هو تقطيع رجال الدين أرباً .

(٢) « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لجون نيل جـ١ ص١٢٢ .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٩٢ .

على أن الفشل ظل ملازماً له إلى أن خرق ليسينيوس حرمة العهد الذى وقعه مع الامبراطور قسطنطين . وكان لفشل اريوس من الأثر ما جعل الحياة فى الاسكندرية غير محتملة خصوصاً وأن عدداً كبيراً من الناس كان ينظر إليه نظرة الريبة وسوء الظن بسبب الحرم الذى صدر ضده . فهجر هذه المدينة الواعية ولجأ إلى آسيا الصغرى ليكون قريبًا من نصيره أوسابيوس النيقوميدى .

١٤١- وبينما كان أريوس وأوسابيوس وانصارهما يستمرؤن ألشغب ، كان البابا الكسندروس يعمل على تثبيت الايمان الأرثوذكسى فى نفوس أبنائه . فعقد مجامع عدة فى مختلف المدن المصرية ، وكتب فى ذلك الشأن الخطير كثيراً من الرسائل ظلت سبعون منها متداولة بعد كتابتها بقرن كامل . ثم شفع هذه الرسائل برسالة دورية ضمنها عرضاً كاملاً للايمان الأرثوذكسى وتلخيصاً للبدعة الأريوسية [١] . وقد استهل رسالته الدورية بقوله : « إلى أحبائى المكرمين ، شركائى فى الخدمة الرسولية فى الكنيسة الجامعة : لما كانت الكنيسة واحدة ، ولما كان سيدنا له المجد قد أوصانا بأن نرتبط معًا برباط المحبة ، وجب على كل منا أن يكاتب أخاه ليقفه على ما هو حادث فى كنيسته حتى يشاطر الواحد منا الآخر فى أفراحه كما يشاطره آلامه » . وبعد هذه الديباجة الرقيقة وضح الأنبا الكسندروس موقف أريوس وما فيه من ابتداع فى الدين . ثم حذر الأساقفة من قبوله فى شركتهم ما داموا متمسكين بأرثوذكسيتهم . وختم رسالته هذه بقوله : « اننا نؤمن بأن الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية لن تقهر أبداً حتى لو تألب عليها العالم بأسره . وأنها لابد منتصرة على جميع المتمردين العصاة بقوة من قال : «ثقوا أنا قد غلبت العالم» [٢] .

وبينما كان الفريقان متشاغلين بهذه الأمور الروحية ، تأثر بعض الأساقفة ببلاغة أريوس ولم يفطنوا إلى ما يخفيه من ضلال خلف هذه

---

(١) شرحه جـ٢ ص٣٦٧ ، « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفليه جـ٢ ص٢٤٢ .

(٢) يوحنا ١٦ : ٣٣ .

البلاغة ، فكتبوا إلى الأنبا الكسندروس يرجون منه أن يعفو عن المبتدع . فرد عليهم هذا البابا الجليل برسالة بناها على الكلمات التى استهل بها يوحنا الحبيب انجيله وهى : « فى البدء كان الكلمة . والكلمة كان عند اللّه . واللّه هو الكلمة » (١) . ولقد استخدم البابا الكسندروس فى عرضه للايمان القويم عبارة غدت فى ما بعد حجر الزاوية فى المناقشات المسيحية : تلك العبارة هى « ثيئوتوكس » (أى أم اللّه) . وقد ختم رسالته هذه بأن رجا من اخوته الأساقفة أن يصادقوا بتوقيعاتهم على ما كتب أسوة باخوتهم أساقفة أسيا وسوريا وليبيا . وكان يأمل من وراء ذلك أن يكون فى اجماع الأساقفة ما يردع أريوس عن غيه ويرده عن ضلاله (٢) .

وقد بعث الأنبا الكسندروس بهذه الرسالة الدورية إلى جميع الأساقفة فى أنحاء العالم . فاستجاب دعوته العدد العديد منهم ، مصادقين بتوقيعاتهم عليها . ولقد أوغر هذا التصرف صدر أوسابيوس أسقف نيقوميديا ، وكان وقتذاك يتمتع بحظوة لدى الامبراطور قسطنطين الذى كان مقيمًا فى هذه المدينة . وانتهز أوسابيوس فرصة قرب الامبراطور منه وحظوته لديه فأخذ ينفث سمومه فى كلمات معسولة . ونجح أولاً فى استثارة شعب نيقوميديا ، ثم ما لبث أن نجح فى اقناع الامبراطور بأن يرسل خطاباً إلى البابا الاسكندرى يطلب إليه فيه أن يلغى حكم الحرم الموقع على أريوس . ولكن الأنبا الكسندروس لم يكن بالرجل الذى يتساهل فى أرثوذكسيته فيخنع للسلطة الزمنية ، كما لم يكن بالشخص الذى يضحى بعقيدته استرضاء للامبراطور أو خوفاً منه .

١٤٢ – وقد استغل أريوس رضى الامبراطور عن نصيره أوسابيوس النيقوميدى فأثار الشعب ضد البابا الكسندروس بأن كتب نشرة شعرية تعرف باسم « تاليا » لحنها بالنغمات الشعبية ليتسنى للجميع أن يتغنوا بها ، وبعث بها إلى الاسكندرية ، فلم يلبث رنين هذه الأغانى الشعبية أن تردد فى ارجاء المدينة من شارع إلى شارع ومن زقاق إلى آخر (٣) .

---

(١) يوحنا ١ : ١ ، ثيئودوريتوس : التاريخ الكنسى ك١ ف٣ .
(٢) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسينيور هيفليه جـ١ ص٢٤٣ – ٢٤٥ .
(٣) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) جـ١ ص٢٤٠ – ٢٥٥ .

وحالما بلغت هذه الفتنة مسامع الأنبا أنطونى استصحب عدداً من رهبانه إلى الاسكندرية كما سبق فاستصحبهم إبان اضطهاد المسيحيين بتلك العاصمة . وكما ناصر الشهداء على الثبات أمام جلاديهم ، ناصر الشعب الاسكندرى على الوقوف فى وجه الابتداع الأريوسى . ولما كان الناسك العظيم يمتاز بوجه باسم وبقوة الحجة وطول الأناة فقد استطاع ان يجتذب قلوب الشعب ويوضح لهم جلال الايمان الأرثوذكسى الصميم .

١٤٣- وبينما كان الأنبا أنطونى يوالى نشاطه فى الاسكندرية بغث البابا الكسندروس برسالة إلى الكسندروس أسقف بيزنطية (١) جاء فيها ما نصه : « إن عبادة الألقاب والمال أضرمت نار الاضطرابات والقلاقل فى الكنائس العظمى . فأرجوك أيها الأخ الموقر والصديق الحبيب أن تحذر أريوس وأخلاوس اللذين يجدان السعى إلى خداع من لا يزالون معتصمين بالايمان القويم ، وهما لم يتحدا إلا ليجدفا على السيد المسيح ويصبا علينا اللعنات ... أن الأساقفة الذين يقبلونهما فى شركتهم يوقعون أنفسهم تحت طائلة القانون الرسولى . ولقد بلغت العنجهية بهذين المبتدعين مبلغاً ادعيا معه أن ليس فى الناس من يضارعهما ذكاء وفهماً ، وأن الحكمة والفضيلة والمقدرة على الخوض فى العقائد واستخراج دفائنها لم تكن إلا وقفاً عليهما . تشامخ غريب وكبرياء مشوب بالهذيان ! ... لم تخجل هذين المكابرين بداهة الكتب المقدسة . ولم يكن اتفاقنا فى العقيدة بكافٍ لكبح جماحهما . فماذا علينا اذن ؟ ... اننا نؤمن بأن الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية لن تقهر ولو ثار عليها العالم بأسره فهى لابد منتصرة لأن الذى اشتراها بدمه الذكى حال فى وسطها فلن تتزعزع » .

١٤٤- ثم توج الأنبا الكسندروس جميع هذه الرسائل برسالة تتضمن عقيدة الايمان القويم (وتعرف الآن بالطومس الكسندروس) (٢) . وقد بعث بهذا الطومس إلى أساقفة المسكونة . فوقع عليها جميع أساقفة الكرازة

---

(١) هى المدينة التى وسعها الامبراطور قسطنطين فيما بعد واتخذها عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية بعد أن أطلق عليها اسم القسطنطينية سنة ٣١٨م.ش . (سنة ٣٢٦م . غ) .

(٢) كلمة طومس كنسياً معناها « عقيدة ايمانية » .

المرقسية ،وأساقفة كبادوكيا وبمفيليا وجميع بلاد آسيا حتى لقد بلغ عدد الموقعين حوالى مائتين وخمسين (١) .

١٤٥- وفى وسط هذه المعمعة الفكرية فوجئ العالم بنقض ليسينيوس للعهد الذى وقعه مع الامبراطور قسطنطين شقيق زوجته . ولما كان قسطنطين قد أقام من نفسه بطلاً للمسيحية فقد اتخذ ليسينيوس موقف الدفاع عن الوثنية وأعلن الاضطهاد على المسيحيين ، على أنه خص الاكليروس بالتعذيب والتنكيل . وانتهز أريوس الفرصة السانحة فتسلل إلى الاسكندرية لمعاودة الشغب فيها .

وقد اشتبك قسطنطين مع ليسينيوس فى قتال عنيف أسفر عن انتصار قسطنطين انتصاراً حاسماً براً وبحراً مما جعله السيد الوحيد للامبراطورية الرومانية شرقًا وغرباً . ولقد كان هذا الامبراطور الذى تمت له السيادة المطلقة رجلاً عنيف الانفعالات ، ماهراً فى وضع الخطط الحربية ، ولوعًا بالبذخ والترف . ومع أنه كان متوقد الذكاء إلا أنه كان شديد الميل إلى تصديق الخرافات مما جعله شديد التأثر بأقوال المغرضين من رجال البلاط . وقد جعل منه هذا المزيج العجيب من الصفات المتضاربة رجلاً هوائيًا متقلب الأطوار يندفع بتأثير الساعة . وملأته انتصاراته المتلاحقة زهواً وخيلاء ، فتوهم أنه الفيصل فى أمور الكنيسة التى أنقذها من أهوال الاضطهادات رغم أنه كان وقتذاك يجهل الشئ الكثير عن تعاليمها (٢) .

١٤٦- ولم يكن قسطنطين فى ذلك الحين قد وصل إلى المعرفة التى تمكنه من ادراك ما تنطوى عليه بدعة أريوس من ضلال ، هذا إلى جانب الأثر الذى أحدثه أوسابيوس النيقوميدى فى نفسه مما جعله يصدق رواياته المموهة . وخيل إليه أن الخلاف القائم بين الكسندروس وأريوس ناشئ عما اتصف به المصرى من عناد . فرأى أن يبعث إليهما بخطاب واحد ، ذكر فيه

---

(١) لا يعرف بالضبط عدد الأساقفة الذين وقعوا على الطومس الكسندروس لأن المخطوط الذى يحوى اسماءهم به بعض التمزيق .

(٢) تاريخ الكنيسة ك٣ : ٥ من السلام القسطنطينى إلى موت ثيئودوسيوس (بالفرنسية) لبالانك ولابريول وباردى ص٢٩

كلا منهما باسمه مجرداً من كل لقب . وفى هذا الخطاب قال : « منذ أن آل إلىّ حكم الامبراطورية بأسرها أصبح أمامى هدفان : أولهما أن أعاون الجميع على معرفة الاله الحق ، وثانيهما أن أضمد الجروح التى سببتها الاضطهادات . ولبلوغ هذين الهدفين وجب أن يكون السلام حليفى . وهذا ما دفعنى إلى أن أخمد كل اضطراب قام فى أفريقيا . وكنت أعتمد فى جهادى على أساقفة الشرق الذى بزغ منه نور المسيحية ، وإذا بهذا الشرق يمسى مسرحًا للخصام . وبعد إمعان النظر فى ما هو قائم من خلاف فى الاسكندرية خرجت على نتيجة واحدة هى أنى أرى فى ما أتيته يا الكسندروس أنك خضت مع كهنتك فى موضوع تافه لا أرى له داعيًا . كما أرى فى ما كان منك يا أريوس انك اذعت ما جال فى خاطرك من أمور سخيفة كان يجب كتمانها مما أحدث صدعًا فى بناء الكنيسة . فعلى كل منكما أن يعترف بأنه أتى امراً لم يكن له من مبرر . وكنت أود لو أزور مدينتكما . ولكننى أمتنع من ذلك مادام الخلاف قائمًا بينكما . فاعقدا صلحًا يسرنى ويثلج فؤادى ويفتح لى أبواب مدينتكما » (١) .

غير أن هوة الخلاف كانت سحيقة لا يمكن لمن كان على حافة منها أن يصل إلى من كان على الحافة الأخرى ، وكان الجدال العنيف القائم بين الفريقين أشد من أن يخمده مثل هذا الخطاب وبخاصة لأنه كان يدور حول مبدأ أساسى تقوم عليه المسيحية . وقد أدرك البابا الكسندروس خطورة هذا الموقف منذ البداية فكرس نفسه للدفاع عن الايمان القويم ولم يتزعزع عن موقفه قيد أنملة (٢) .

١٤٧ – على أن الامبراطور قسطنطين لم يكن كسلفائه من أباطرة الرومان الذين كانوا يبدأون حكمهم بمهادنة المسيحيين ثم ينقضون العهد . فقد اعتنق المسيحية بكل اخلاص وظل أمينًا لمعتنقيها . وأنفق عن سعة فى بناء الكنائس . كذلك أحاط نفسه بعدد من الأساقفة وكان كثيراً ما يدعوهم لتناول الطعام على مائدته. فلم يلبث أن أصبح حامى المسيحية كأنه أسقف

---

(١) أوسابيوس : حياة قسطنطين ك٢ ف٧٥ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٣٧٨ .

عام لـها . وامتـلأ المؤمنون فرحاً إذ وجـدوا الكنائس تشاد بسـرعة وفخـامة لـم يسبق لهما مثيل . وكان تكريس الكنائس فرصة أشبه بالأعياد ، يتسارع فيها الناس إلى بيوت الله ، ويأتى الغـرباء من مـخـتلف الجـهات للاشـتـراك فى الاحتفاء بتكريسها . وأحس الجميع بالسلام والغبطة فلم يترددوا فى التعبير عما خالجهم من مشاعر ، متهللين فى وحدة الايمان التى جمعتهم . وكان اعضاء الكنيسة الجامعة يؤلفون وحدة متناسقة وهم يسبحون الله التسابيح الواحدة بلغات مختلفة . وهكذا بزغ على الكنيسة فجر جديد صفت سماؤه صـفـاء تامـاً ، وعم السـلام أرجاء الامـبـراطورية حـتى أن الوثنيين انفسـهم شـاركـوا المسـيـحـيين هذا السـلام وابـتـهـجـوا به بدلاً من أن يثوروا حـسـداً ضده(١).

١٤٨- وكـان السـبـب الذى دفع بالامـبـراطـور قـسطـنطين إلى أن يحـيط نفسه بعدد من الأساقفة هو أن يستشيرهم فى الأمور الدينية ويتعلم منهم ما فى المسيحية من تعاليم ومبادئ . وكان بين هؤلاء الأساقفة هوسيوس اسقف قرطبة (باسبانيا) الذى اتخذه الامبراطور مستشاراً خاصاً (٢) . وكان هذا الأسقف مشهوراً بتقواه كما أنه كان ضمن المعترفين - فقد أذيق العذاب المرير أيام الاضطهاد الذى أثاره الامبراطور مكسيميانوس ولحسن الحظ أن ما كان لهوسيوس من تأثير فى نفس قسطنطين قد علا حتى تفوق على ما لأوسـابيـوس النيـقـومـيـدى من نفـوذ . فـاتخـذه الامـبـراطور رسـولاً إلى الاسكندرية وحمله خطاباً إلى البابا الكسندروس .

وبينما كان هوسيوس فى طريقه إلى الاسكندرية عقد البابا الاسكندرى مجمعاً مؤلفًا من جميع أساقفة الكرازة المرقسية الذين لم يترددوا فى تأييد الحكم الصادر على أريوس وبدعته (٣) .

١٤٩- وكانت العناية الالهية قد انتخبت هوسيوس ليؤدى واجبًا جليلاً يعود على المسيحية بالخير والنماء . وكان قد بلغ من العمر إذ ذاك ما يزيد

---

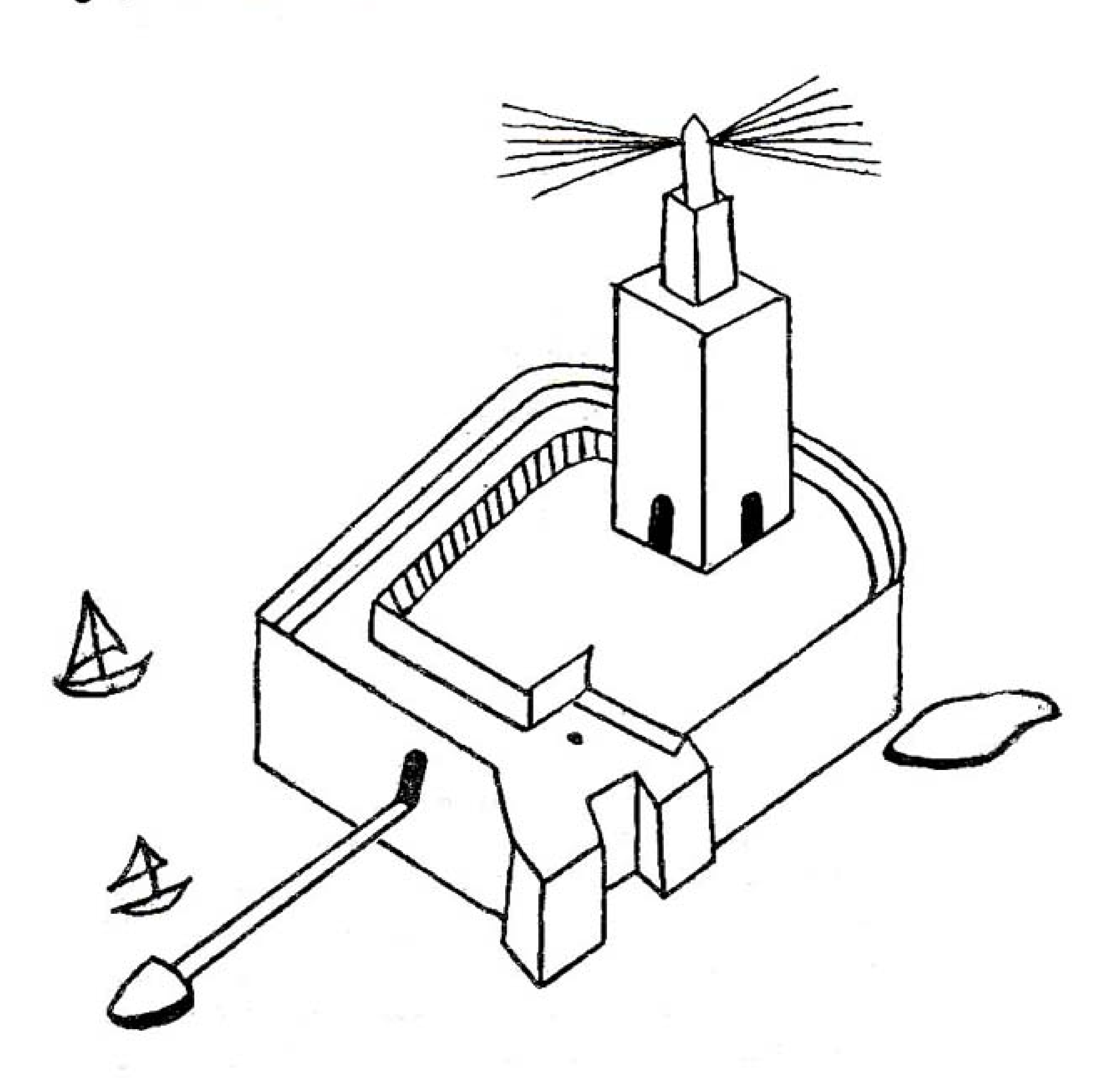
(١) شرحه جـ٢ ص٢٩٢ - ٢٩٦ .

(٢) تاريخ الكنيسة ك٣ : « من السلام القسطنطينى إلى موت ثيئودوسيوس » (بالفرنسية) لبالانك ولابريول وباردى ص٣٣ .

(٣) الرسالة الخامسة من الباترولوجيا اليونانية جـ١٨ .

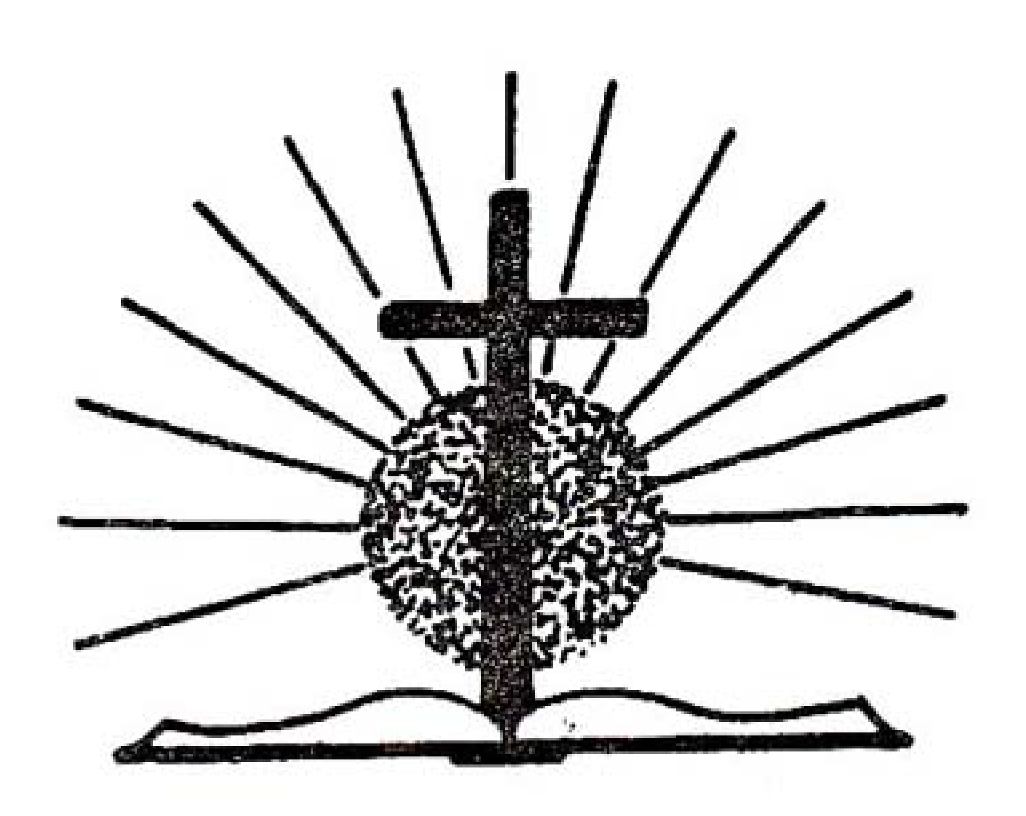
على سبعين عامًا . ولو أن حياته انتهت فى تلك الفترة لكان ثانى أبطال المسيحية فى ذلك العهد لوقفاته المعروفة فى وجه الاضطهاد أولاً وفى وجه الابتداع ثانياً .

وحالما وصل هوسيوس إلى الاسكندرية تقابل مع الأنبا الكسندروس وتحادث معه طويلاً . وقد ظن فى بادئ الأمر أنه يستطيع التوفيق بين طرفى الصراع . ولكنه فشل فى محاولاته جميعها لأن الأريوسيين استمروا فى احداث الشغب وفى عدم الاصغاء لنصائحه . وعندما اتفق مع



« فاروس » – منارة الاسكندرية التى كانت احدى العجائب السبع .

الأنبا الكسندروس على عقد مجمع من أساقفة الكرازة المرقسية . وحين التأم المجمع وتداول هوسيوس مع أساقفته بادر إلى المصادقة على حكم الحرم الموقع على أريوس خصوصًا بعد أن ثبتت له صحة ما يراه الأنبا الكسندروس ومجمعه الاسكندرى من ضلال أريوس . فاتفق مع البابا الاسكندرى على وجوب عقد مجمع مسكونى يشترك فيه أساقفة العالم المسيحى بأسره ليضعوا دستوراً لايمان الكنيسة الجامعة . وبناء على هذا الاتفاق عاد هوسيوس إلى نيقوميديا وأبلغ الامبراطور قسطنطين بجميع ما كان . فأصدر براءة امبراطورية تقضى بعقد أول مجمع مسكونى (١) فى مدينة نيقية .



---

(١) نسبة إلى مسكونة – أى العالم ، وقد اطلقت هذه التسمية على المجامع التى ضمت بين اعضائها اساقفة من مختلف بلاد المسكونة ، وعلى الأخص تلك البلاد التى تباركت بتسلم بشارة المسيحية من أفواه الرسل الأطهار والتلاميذ القديسين كأفسس التى كرز فيها يوحنا التلميذ الحبيب وكالاسكندرية التى حمل إليها البشارة مرقس أحد السبعين تلميذاً . ولذلك فإن مثل هذه الكنائس تعرف بالرسولية لأنها تلقت كلمة الخلاص من الرسل مباشرة . وكل هذه الكنائس فى الشرق مهبط الأديان السماوية ووطن المسيحية . ولا توجد فى الغرب غير كنيسة رسولية واحدة هى كنيسة رومية .

مجمع نيقية - المجمع المسكونى الأول

(١٥٠) الأساقفة الذين حضروا المجمع وصفاتهم .

(١٥١) الكسندروس يستصحب أثناسيوس وعشرين أسقفا مصريا .

(١٥٢) عدم وجود سجلات كاملة للمجمع حتى الآن .

(١٥٣) الامبراطور قسطنطين يدعو إلى المجمع ويقدم كافة التسهيلات للأساقفة .

(١٥٤) قسطنطين يحضر افتتاح المجمع .

(١٥٥) هوسيوس يرأس المجمع وأحد الأساقفة يلقى كلمة الترحيب .

(١٥٦) الامبراطور يجيب على كلمة الترحيب .

(١٥٧) الأساقفة يتناقشون فى صبر واسهاب .

(١٥٨) مجادلة الأوسابيوسيين .

(١٥٩) دستور الايمان تراث الشرق للمسكونة بأسرها .

(١٦٠) «أوموسيوس» وأمويسيوس» [1] .

(١٦١) من هم واضعو دستور الايمان .

(١٦٢) الحرم الذي وضعه الآباء تذييلاً لدستور الايمان .

(١٦٣) الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا المجتمعون فى نيقية يوقعون على دستور الايمان .

(١٦٤) ادراك الامبراطور قسطنطين لخطورة الموضوع .

(١٦٥) المجمع النيقى يجعل البابا الاسكندرى مسئولاً عن تحديد عيد القيامة .

(١٦٦) خطاب الامبراطور إلى الكنائس التى لم تحضر المجمع .

(١٦٧) الفصل فيما بين البابا الاسكندرى وميلتيوس أسقف ليكوبوليس .

(١٦٨) المجمع يؤيد آباء الاسكندرية فى وحدة الصبغة المقدسة (المعمودية) .

(١٦٩) خطاب المجمع إلى كنيسة الاسكندرية .

(١٧٠) ثلاث خطابات من الامبراطور قسطنطين .

(١٧١) مجمع نيقية يسن عشرين قانونا .

(١٧٢) القانونان الثالث والسادس من هذه القوانين .

(١٧٣) مأدبة الامبراطور قسطنطين للأساقفة وتقديمه هدية لكل منهم .

---

(١) أو كما هى باليونانية : OYMOIOYCIOC , OYMOOYCIOC

(١٧٤) رسالة البابا الاسكندرى إلى شعوب مصر وليبيا والخمس مدن وإلى حدود الهند .
(١٧٥) رأى أثناسيوس الرسولى فى مجمع نيقية .
(١٧٦) مكاتبة الامبراطور قسطنطين للأنبا أنطونى .
(١٧٧) عودة الأنبا الكسندروس إلى الاسكندرية وعمله على تنفيذ قرارات مجمع نيقية .
(١٧٨) نياحة الأنبا الكسندروس .

١٥٠ - قبل أن نبدأ الحديث عما جرى فى هذا المجمع العظيم الذى التأم فى نيقية سنة ٣١٧م . ش (١) بدعوة من الامبراطور قسطنطين الكبير . والذى كان فصلاً حاسمًا فى تاريخ البشرية جمعاء - قبل البدء فى الحديث عما جرى فيه يجدر بنا أن نقف قليلاً فى حضرة الأساقفة الذين سارعوا إلى مدينة نيقية متجشمين فى ذلك السبيل المخاطر والمتاعب ليتداولوا معًا فى الايمان . نقف لنتأمل هؤلاء الثلاثمائة والثمانية عشر خادماً للعلى فنرى بينهم من يحمل فى جسده سمات الرب يسوع - إذ يحمل آثار التعذيب والتنكيل الذى أنزله به الأباطرة الغاشمون وحين نمعن التأمل نجد أن هؤلاء الأساقفة كانوا رجالاً سطع خلالهم نور المسيح ببهائه الأول فكأنهم الشعاع الوهاج الذى يقطع حلكة الظلام عند انبثاق الفجر . ولأنهم عكسوا النور الالهى على الناس فقد حباهم الله مواهب نادرة لأنهم لم يملكوا سلطان الحل والعقد فحسب ولكن كان فى مقدورهم أيضاً أن يشفوا المرضى ويقيموا الموتى ويمنحوا السلام الداخلى لمن كان معذب القلب . ولقد تجمع هؤلاء الثلاثمائة والثمانية عشر من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب : تجمعوا ليشهدوا للحق الموحى به إليهم من الروح القدس ، تجمعوا ليصوغوا الايمان فى عبارات واضحة صريحة وليقيموا حصناً منيعًا بين الايمان الأرثوذكسى وبين الابتداع ، تجمعوا من مختلف البلاد لاعلان العقيدة القويمة ولتمجيد الكلمة المتجسد .

وكان بين هؤلاء الآباء البررة القديس مكاريوس أسقف أورشليم (مدينة

---

(١) التاريخ الشائع هو سنة ٣٢٥م - وهو التاريخ الميلادى الغربى ، ويزيد عن التاريخ الشرقى بثمانى سنين كما سبق القول .

الملك العظيم) الذى اشتهر بما أجرى الله على يديه من عجائب ، أوستاثيوس أسقف أنطاكية الذى أقام الميت حيًا ، ليونتيوس أسقف قيسارية الكبادوك الذى شابه الملائكة صلاحاً وطهراً ، هيباثيوس أسقف غنغرة الذى نال اكليل الشهادة أثر انفراط عقد المجمع والذى شابه الفادى الحبيب فى طلب المغفرة لقاتليه وهو يلفظ آخر انفاسه ، بولس أسقف قيسارية الجديدة الذى مزقت أوصاله فى اضطهاد ليسينيوس ، ارشيلاوس أسقف لاريسا الذى أحرز لقب (أثناسيوس تسالونيكا) ، الكسندروس أسقف بيزنطية الذى استجاب الله صلاته وصلاة يعقوب أسقف نصيبين فأنقذ الكنيسة من براثن أريوس وأمات ذلك المبتدع فى مرحاض عام .

كذلك ضم هذا المجمع أساقفة من كافة انحاء العالم المسيحى إذ ذاك حتى أنه كان من بين أعضائه أسقفان : أحدهما من بلاد فارس وثانيهما من بلاد سكيت (وهى البلاد الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من البحر الأسود) [١] .

١٥١ – وإلى هذا المجمع الكريم حضر الكسندروس البابا الاسكندرى ومعه عشرون أسقفاً من أساقفة الكنيسة المصرية أشهرهم بفنوتى أسقف طيبة الذى كان آية فى القداسة حتى حسب أهلاً لأن يكون ضمن المعترفين ، وبوتامون أسقف هيراقليا الذى استشهد على يد الأريوسيين فيما بعد . إلا أن أبرز الشخصيات التى جاءت إلى مجمع نيقية من وادى النيل كان أثناسيوس شماس الأنبا الكسندروس . وكانت سنه وقتئذ تتراوح بين العشرين والخامسة والعشرين [٢] .

١٥٢ – ومما يؤسف له أن ليس هناك سجل وافٍ يشمل جميع ما جرى فى هذا المجمع المسكونى الأول . فلم يبق من وثائقه الرسمية غير دستور الايمان والعشرين قانوناً التى سنها ورسائله المجمعية وبعض الشذرات المتفرقة ، وأربع من هذه الشذارت قد استكشفها الدانيمركى جورج زويجا

---

(١) رسالة اثناسيوس « أد أفروس » أى رسالته إلى الأفريقيين

(٢) راجع « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ١ ص٢٦٥ .

سنة ١٨١٩م وهى مكتوبة باللغة القبطية . ومما هو جدير بالذكر أن كاتب هذه الشذرات كان معاصراً لمجمع نيقية أراد أن يصف لقومه ما حدث فكتب لهم بلغتهم المصرية أهم ما عرفه عن هذا المجمع (١) .

١٥٣ - ويقول لنا أوسابيوس القيسارى أبو التاريخ الكنسى أن الدعوة لعقد هذا المجمع صدرت من الامبراطور قسطنطين الكبير . ويروى لنا روفينوس أن هذا الامبراطور قد دعا أريوس أيضاً (٢) .

ولكى يسهل الامبراطور السفر إلى نيقية وضع تحت تصرف الأساقفة كل وسائل النقل المعروفة فى ذلك العهد . وكان اختياره لنيقية يرجع إلى أنها ميناء يسهل الوصول إليها لقربها من عاصمة الامبراطورية الشرقية .

١٥٤ - ولم يفتتح المجمع جلساته إلا فى اليوم الخامس عشر من بشنس (٢٠ مايو) من تلك السنة ، حين وصل الامبراطور قسطنطين الكبير بعد أن احتفى بانتصاراته فى مدينة نيقوميديا (التى كانت لا تزال مقره إذ ذاك) . وبينما كان الأساقفة فى انتظار الامبراطور تداولوا معاً فى العقيدة الدينية : هذه العقيدة التى اجتمعوا ليوضحوا حقيقتها للمؤمنين بعد أن ثار حولها النقاش بين أريوس وكنيسة الاسكندرية . وقد اشترك العلمانيون فى تبادل الراى مع الأساقفة كما يشهد بذلك جميع المؤرخين . وهم يؤكدون بالاجماع ان الأساقفة قد منحوا أريوس وأعوانه مطلق الحرية للتعبير عن آرائهم وقد انتهز أصدقاء هذا المبتدع الفرصة للدفاع عنه بكل ما أوتوا من قوة (٣) .

ولما وصل الامبراطور إلى نيقية اجتمع الأساقفة فى قاعة الجلسات ، وجلس كل منهم فى المكان المخصص له . وحضر إلى المجمع المسيحيون من رجال القصر الامبراطورى ثم دخل الامبراطور فوقف الجميع اكراماً له « عملاً بقول بطرس الرسول : أكرموا الملك » (٤) . وكان يرتدى حلة

---

(١) شرحه جـ١ ص٢٥٨ .

(٢) اوسابيوس : حياة قسطنطين . ك٣ ف٤ . ٥ . ٦ « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢ .

(٣) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ١ ص٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٤) ١ بط ٢ : ١٧ .

مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة . وكان طويل القامة ، رافع الرأس ، جذاب المحيا ، يحف به الجلال . ولكن هذه المظاهر الفخمة كانت تنطوى على نفس وديعة وقلب متواضع إلى حد جعل الامبراطور العظيم يحنى الرأس امام الأساقفة اجلالاً لهم ، ولم يسمح لنفسه بالجلوس إلا بعد أن أذنوا له بذلك (١) .

١٥٥- ولقد وقع اختيار الأساقفة على هوسيوس أسقف قرطبة والأب الروحى للامبراطور واكبر الأساقفة سناً ليرأس هذا المجمع . فكان اختيارهم هذا دليلاً ساطعًا على أنهم خدام حقيقيون للسيد المسيح المتواضع - لأن هوسيوس كان أسقفاً لمدينة متواضعة : لا هى عاصمة امبراطورية ولا مركزاً لامتياز عالمى . فجلس هوسيوس عن يمين الامبراطور ورجال الدولة الذين حضروا المجمع للمحافظة على النظام . ومن ثم بدأ المجمع عمله ، فوقف أحد الأساقفة (٢) وألقى خطاباً رحب فيه بمقدم الامبراطور واثنى عليه الثناء العطر لاهتمامه البالغ بعقد هذا المجمع لتحقيق السلام فى الكنيسة .

١٥٦- ولما ختم الخطيب كلمته وقف الامبراطور وألقى كلمة رحب فيها بالأساقفة تتلخص فيما يلى : « إن أصدق أمنية كانت لى أيها الآباء الأحباء هى أن اراكم مجتمعين حولى . وقد أنعم اللّه علىّ بتحقيق هذه الأمنية العظيمة . وأننى أعد شر الانشقاق فى الكنيسة أفدح من شر الحروب . وكان يخيل إلىّ بعد أن تم لى الانتصار بنعمة اللّه أننى سأقضى ما بقى لى من الحياة فى تسبيحه وتمجيده . فلما بلغنى ما وقع بينكم من خلاف أدركت أن واجبى الأول هو أن أبذل ما فى وسعى للقضاء على هذا الخلاف . لهذا بادرت إلى دعوتكم حتى تتداولوا فى الأمر وتقضوا على كل شقاق ولقد مسحكم اللّه كهنة على شعبه فأصبحتم مسئولين عن توطيد السلام فى البلاد . وانى آمل ان لا تترددوا أيها الأساقفة كهنة العلى فى أن تقتلعوا من بينكم كل

---

(١) أوسابيوس : حياة قسطنطين ك ٣ ف ١٠ .

(٢) اختلف المؤرخون فى من هو الأسقف الذى ألقى خطاب الترحيب فقال سوزومين انه أوسابيوس أبو التاريخ الكنسى ، وقال ثيئودوريت انه أوستاثيوس الأنطاكى ، بينما قرر ثيئودور المصيصى انه كان الكسندروس الاسكندرى .

خصام وأن تحلوا ما تعقد من الأمور بروح التسامح والمحبة المرضية لله وتثبتوا دعائم السلام الذى ائتمنكم عليه ملك السلام . وحينئذاك أشعر بغبطة ممزوجة بالطمأنينة الروحية إذ أشعر بأننى الأداة التى مهدت السبيل للوئام » (١) .

١٥٧- وما إن فرغ الامبراطور من إلقاء كلمته حتى بدأ الآباء النقاش فى بدعة اريوس . وكان أبرز المتناقشين فى شأن هذه البدعة الكسندروس البابا الاسكندرى وأثناسيوس شماسه العبقرى الذى أجمع المؤرخون الكنسيون على انه كان روح ذلك المجمع المقدس ويقول المؤرخ روفينوس أن الأساقفة كانوا يجتمعون يومياً ويتداولوا بكل صبر واسهاب إذ لم يريدوا أن يتعجلوا فى اصدار حكمهم لأنهم ادركوا خطورة الموضوع المطروح للبحث أمامهم ، وقد نادوا على أريوس مراراً وطالبوه بأن يعلن لهم رأيه فى وضوح وصراحة .

١٥٨- وكان على آباء المجمع أن يجادلوا الأوسابيوسيين إلى جانب مجادلاتهم للأريوسيين . وكان أوسابيوس النيقوميدى قد جد السعى لدى رجال البلاط ليقنعهم بأن أريوس على حق . ولكن سعيه هذا ذهب أدراج الرياح . فحاول أن يعيد الكرة فى المجمع ، ولكنه لم يحسب حساباً لأثناسيوس - ذلك الخصم العنيد الذى أقام من الحجج الدامغة التى تؤيد العقيدة الأرثوذكسية ما أعجز كل مبتدع .

وقد منح المجمع الحرية التامة للأوسابيوسيين كما منحها للأريوسيين ليبسطوا آراءهم فى صراحة وشجاعة . وبعد مداولات مستفيضة ثبت لآباء المجمع ما يتردى فيه هؤلاء المبتدعون من ضلال . فقرروا أن يضعوا دستوراً للايمان وأن يضمنوه العقائد العويصة بكل وضوح وجلاء - وبخاصة عقيدة مساواة الإبن للآب فى الجوهر .

١٥٩- وهذا الدستور هو التراث الذى وضعه الشرق للمسكونة بأسرها - ذلك لأن الآباء الغربيين الذين كانوا أعضاء فى هذا المجمع المؤلف من ثلاثمائة وثمانية عشر أباً لم يتجاوز عددهم الستة وهم : هوسيوس أسقف

(١) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ١ ص٢٧٣ - ٢٧٤ .

قرطبة ، سيسليان أسقف قرطاجة (تونس) ، مارك أسقف كلابريا ، وأحد أساقفة فرنسا ، والقسيسان فكتور وفنسان ممثلاً أسقف رومية . وكان عمل هؤلاء الآباء الغربيين فى ذلك المجمع العظيم غاية فى الضآلة حتى قال فيهم المؤرخون : « كانت الكنيسة الرومانية فى معزل عن الاشتغال بالشئون الكنسية الخطيرة ، وذلك نزولاً على ارادة الامبراطور أو نتيجة لرخاوة الحبر الرومانى . فإن نواب الكنيسة الرومانية فى مجمع أرل (بفرنسا) المنعقد سنة ٣١٤ ومجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ لم يأتوا عملاً بارزاً أو مشرفاً » (١) .

١٦٠– ولقد هدف آباء مجمع نيقية إلى الوضوح التام فى وضع دستور الايمان حتى يتأكد الجميع من التعليم المرغوب اعلانه . فكان همهم أن تكون كل كلمة فى دستور الايمان جليلة ساطعة لأن اللغة اليونانية التى كانوا يتكلمون بها إذ ذاك لغة تحمل فى طياتها الكثير من المعانى المتباينة مع تشابه الألفاظ . فقد قال أريوس أن المسيح من جوهر شبيه بجوهر الآب مستعملاً فى التعبير كلمة (أمويسيوس) . ولكن آباء المجمع أعلنوا ايمانهم بالمسيح الذى هو من نفس جوهر الآب مستعملين كلمة (أوموسيوس) (٢) . لذلك توسعوا فى ايضاح هذه الكلمة التى تعبر عن صميم ايمانهم بلاهوت المسيح حين وضعوا دستور الايمان الكنسى ليزيلوا من الأذهان كل غموض (٣).

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) ك٣ : « من السلام القسطنطينى إلى موت ثيئودوسيوس » لبالانك ودى لابريول وباردى ، ص٣٧ ، حيث يقولون :

" Par la volonté du prince, et peut être par la mollesse du pontife l'Eglise Romaine demeure à l'écart des grandes affaires de la Chrétienté : ses légats siègent dans les grands conciles, à Arles en 314, comme plus tard à Nicée, sans y jouer un role décisif, ni même notable " .

(٢) هذه الكلمة مثل الكلمات اليونانية القريبة لفظاً المتباينة معنى ، لأن حرفاً واحداً هو حرف (i) حول المعنى تحويلاً تامًا وأقام الهوة بين الايمان الأرثوذكسى وبين الابتداع. وكانت هذه الكلمة هى المحور الذى دارت حوله مناقشات الآباء فى هذا المجمع العظيم الذين كانوا يسعون إلى توضيح المعنى الصحيح لايمانهم بلاهوت الكلمة المتجسد .

(٣) تتضح هذه الحقيقة من رسالة الأنبا أثناسيوس دفاعاً عن العقيدة التى اقرها مجمع نيقية وترجمها إلى الانجليزية كاردينال نيومان فى كتابه « مختارات من رسائل أثناسيوس » جـ١ ص١١ – ٥٤ .

١٦١- وقد انتدب المجمع لوضع هذا الدستور الايمانى المقدس ثلاثة من أبطاله هم ألكسندروس البابا الاسكندرى وشماسه أثناسيوس (١) ، وليونتيوس أسقف قيسارية الكبادوك (٢) . والدستور الذى وضعوه للكنيسة على مر الأجيال هذا نصه : « بالحقيقة نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى » .

نؤمن برب واحد يسوع المسيح إبن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شئ ، هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، تأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى ، تألم وقبر وقام من الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد إلى السموات وجلس عن يمين أبيه ، وسيأتى أيضاً فى مجده ليدين الأحياء والموتى ، وليس لملكه انقضاء » .

« نعم نؤمن بالروح القدس » (٣) .

١٦٢- وقد ذيل هذا الدستور بالحرم الآتى نصه : « أن جميع الذين يقولون عن الابن انه جاء عليه حين من الدهر لم يكن فيه موجوداً ، أو انه لم يكن له أثر فى الوجود قبل أن يولد ، أو انه ولد من العدم ، أو انه من غير جوهر الآب ، أو انه مخلوق ومعرض للتحول والتبدل ، فالكنيسة الجامعة الرسولية المقدسة تعلن وقوعهم تحت طائلة الحرم » .

١٦٣- وقد وقع آباء المجمع النيقى فوراً على هذا الدستور وعلى ما ذيل به من حرم ، بينما رفض ثلاثة أساقفة توقيعه وهم أوسابيوس أسقف

---

(١) يقول منسنيور هيفليه (ويوافقه كاردينال نيومان) أن لغة دستور الايمان تشهد بأن أثناسيوس هو واضعها - راجع كتابه « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) جـ١ ص٢٨٦ .

(٢) من دواعى فخرنا معشر المصريين ، أن ينتخب الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً ثلاثة لوضع دستور الايمان منهم اثنين مصريين . لأن هذا الانتخاب اعتراف صريح بثقة هؤلاء الآباء فى مقدرة أبناء مصر وفى رسوخ ايمانهم وحسن تعبيرهم عن هذا الايمان . راجع أيضاً ص١١ - ١٢ من هذا الكتاب .

(٣) إلى هنا ينتهى الدستور الذى سنه مجمع نيقية .

نيقوميديا ، ثيئوجنيوس أسقف نيقية ، ماريس أسقف خلقيدون ، أما الأسقفان الليبيان ثيئوناس وسيكوندوس فلم يكونا ضمن أعضاء المجمع وإنما جاءا للدفاع عن أريوس .

١٦٤ - غير أن الامبراطور قسطنطين الكبير كان قد اتخذ موقفاً حازماً بعد عقد المجمع : فقد كان قبل عقده غير مدرك ما للشقاق الواقع بين رجال الاكليروس من خطورة . ولكنه - بعد ما سمعه من ارشاد هوسيوس وما أصغى إليه من مناقشات آباء المجمع . أدرك الخطورة العظمى التى كانت تتهدد الايمان نتيجة لهذا الشقاق . وهذا الادراك دفعه إلى اصدار الأمر المشدد بخلع من يناوئ المجمع ونفيه وحرق جميع الكتب التى تتضمن البدعة الأريوسية والعقوبة الصارمة على من يخفى منها كتاباً (١) . وأدرك الأساقفة الثلاثة الذين شذوا عن اجماع اخواتهم الأساقفة الملتئمين فى المجمع أن عزم الامبراطور على عقاب من لا يوقع على دستور الايمان ليس بالأمر الهين ، وأحسوا بتصميمه القاطع فى تأييد قرار المجمع معلناً أنه الهام من الروح القدس ، فوقع ماريس أسقف خلقيدون على الدستور الايمانى وعلى الحرم الذى جاء بعده - بينما وقع أوسابيوس أسقف نيقوميديا وتيئوجنيوس أسقف نيقية على دستور الايمان فحسب وبما أن الأسقفين الليبيين تيؤناس وسكوندوس تماديا فى الاصرار على مؤازرة أريوس فقد أمر الامبراطور بنفيهما إلى ايلليريا (٢) وخلعهما من كرسييهما ، كما ناشد شعبيهما بانتخاب أسقفين أرثوذكسيين بدلاً منهما . على أن عدد الموقعين على دستور الايمان كان ثلاثمائة وثمانية عشر لأن جميع الأساقفة الذين اشتركوا فى المجمع اتفقوا اتفاقاً جماعيًا على دستور الايمان الذى أقروه للكنيسة الجامعة . ومع أن تيئوناس وسكوندوس كانا أسقفين حضرا المجمع ولم يوقعا على هذا الايمان إلا أنهما لم يكونا معدودين ضمن أعضائه إذ لم يحضرا إلا بوصفهما صديقين للمبتدع لكى يدافعا عنه فنالا الجزاء الذى ناله هو .

ولقد أدرك جميع الحاضرين ما ينطوى عليه توقيع أوسابيوس وزميله

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسينيور هيفليه جـ١ ص٢٨٥ .

(٢) ايلليريا فى البلقان بمحاذاة الشاطئ الشرقى لبحر الأدرياتيك .

من نفاق ، وأن هذا التوقيع إنما جاء تفادياً لغضب الامبراطور . ولقد التفت سيكوندوس إلى أوسابيوس حالما انتهى من التوقيع وقال له : « لقد وقعت بامضائك لكى تهرب من النفى . ولكن ثق بأنه لن تمضى سنة من الزمان إلا وتكون شريكى فى مصيرى » . وقد تم بالفعل ما قاله سيكوندوس إذ أمر الامبراطور بنفى أوسابيوس هو وماريس أسقف نيقية بعد ذلك ، بشهور لأنها - رغم توقيعهما على دستور الايمان - استمرا يقبلان الأريوسيين فى شركتهما . وقد اتهم الامبراطور قسطنطين أوسابيوس النيقوميدى بأنه منافق فى الايمان ، كما اتهمه بأنه كان قد تآمر مع ليسينيوس لقلب نظام الحكم واشترك معه فى اضطهاد المسيحيين (١) .

١٦٥- ولما انتهى المجمع من الفصل فى بدعة أريوس أخذ ينظر فى موضوع تعييد القيامة المجيدة . فقد أجمعت الكنائس على أن القيامة هى أعظم الأعياد المسيحية اطلاقاً ، ولكنها اختلفت فى موعد تعييدها .

كذلك اتفقت الكنائس على أن خروف الفصح اليهودى لم يكن إلا رمزاً إلى حمل الله كما نطقت بذلك النبوات ، وكما جاء على لسان يوحنا السابق الصابغ (٢) حيث أشار إلى الفادى المقبل إلى الأردن لاتمام كل بر ولوضع شريعة الصبغة (المعمودية) ، أشار إليه رداً على سؤال تلميذيه بقوله :

« هوذا حمل الله حامل خطايا العالم (٣)» . وقد ذكر الانجيل المقدس بأن المخلص له المجد قد علق على الصليب يوم الجمعة ، وقام من بين الأموات فى فجر الأحد . فكان على آباء الكنيسة أن يراعوا الفصح اليهودى والاعتدال الربيعى والأيام التى نص عليها الكتاب فى هذا الشأن الهام ، ومن ثم وقع الخلاف بين كنائس آسيا وأفريقيا ورومية . وظل الخلاف قائماً إلى أن انعقد هذا المجمع فاصدر أمره بما يلى : « بما أن آباء كنيسة الاسكندرية متضلعون

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ١ ص٢٨٨ - ٢٩٠ .

(٢) هذه هى التسمية التى اطلقها آباء كنيستنا المحبوبة على يوحنا المعمدان لأنه سبق المسيح له المجد ثم صبغه فى مياه الأردن .

(٣) يو ١ : ٢٩ .

فى العلوم الكنسية والفلكية (١) - لهذا يرى أباء نيقية أن يكون البابا الاسكندرى مسئولاً عن تحديد موعد القيامة ، فيرسل رسالة فصحية إلى أسقف رومية وغيره من الأساقفة ليبلغوها بدورهم إلى جميع الكنائس الخاضعة لسلطانهم ، يعين لهم فيها اليوم الذى يحتفلون فيه بعيد القيامة فيتسنى لجميع الكنائس الاحتفاء بهذا العيد فى يوم واحد » . وقد ظل هذا القرار الذى أصدره المجمع النيقى معمولاً به حتى سنة ١٥٨٢ حين عدل غريغوريوس الثالث عشر أسقف رومية التقويم . فانفردت هذه الكنيسة باليوم الذى فيه تقيم ذكرى القيامة المجيدة . أما الكنائس البروتستانتية المنشقة عليها فلم تتبع هذا التعديل إلا سنة ١٧٧٥ .

١٦٦- ولقد بعث الامبراطور قسطنطين برسالة إلى جميع الكنائس التى لم تتمكن من ارسال مندوبيها إلى المجمع قال فيها : « حيث دار النقاش حول عيد القيامة رأينا أنه من اللياقة أن تتفق جميع الكنائس على تعييده فى يوم واحد لأنه ما من شئ أحلى وأجمل من أن يتحد المؤمنون فى ذكرى القيامة التى تعطينا الرجاء فى الخلود . فلنعيّد معًا هذا العيد ولنفرح لأن العناية الإلهية شرفتنا بأن نكون الأداة فى سحق قوى الشر والتفرقة ، وفى تدعيم السلام والوحدة بين صفوفنا » (٢) .

١٦٧- وبعد أن فرغ المجمع من الفصل فى موضوع عيد القيامة نظر فى الخلاف القائم بين كنيسة الاسكندرية وميليتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) . وميليتيوس هذا كان قد تسفل إلى التبخير للأوثان إبان اضطهاد ديوقلديانوس ، وبدلاً من أن يعلن توبته عما جنى وقف فى وجه الأنبا بطرس خاتمة الشهداء ، وتخطى القوانين الكنسية بأن رسم أساقفة دون الرجوع إلى الأنبا بطرس إذ كان يعد نفسه مطراناً لعاصمة الصعيد . وظل

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٢٠ حيث يقول :

" Pour déterminer ce jour, le Concile décida que l'Eglise d'Alexandrie connue depuis longtemps par sa science en astronomie, serait chargée de ce soin, ..." .

« تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ١ ص٢٩٧ - ٢٩٣ - ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) شرحه للمنسنيور هيفليه جـ١ ص٣١٤ - ٣١٧ .

فى عناده حتى بعد انتقال خاتمة الشهداء إلى الأخدار السماوية إذ قد تمرد على خليفته الأنبا أرشيلاوس . ثم تمادى فى طغيانه إلى حد دفعه إلى أن يشكو الأنبا الكسندروس إلى الامبراطور قسطنطين . وقد تلمس لنفسه الأعذار فى شكواه من هذا البابا وسلفيه بأن ادعى انهم جميعاً قد غالوا فى الترفق بالتائبين ، متناسيًا ما تردى هو فيه من جريمة عبادة الأصنام . وقد استمر فى تمرده حتى انعقاد مجمع نيقية المسكونى الأول .

ولما نظر المجمع فى تهمة هذا الأسقف الليكوبولى رأى أن يترفق به فاقتصر على تجريده من حق الانتخاب فى ايبارشيته وكل ايبارشية أخرى ، وحفظ له لقب أسقف كلقب شرف فقط . وقال فى قانونه السادس من قوانينه العشرين : « أن من يقام أسقفًا بغير مصادقة المتروبوليت (أى أسقف العاصمة) فإن هذا المجمع العظيم يحكم بأن لا يعد اسقفاً » .

كذلك حكم المجمع بأن الأساقفة الذين رسمهم ميليتيوس لا يعدون ضمن رجال الكهنوت إلا إذا صادق البابا الاسكندرى على أسقفيتهم .

١٦٨ – ثم انتقل المجمع إلى النظر فى الخلاف القائم بين الكنائس حول الموضوع الهام – أى موضوع الذين أنكروا السيد المسيح أثناء الاضطهادات تجنبًا للآلام والأهوال ، ثم ندموا وتابوا توبة صادقة . فهل تقبل توبتهم وتعاد صبغتهم (معموديتهم) أم يقبلون من غير اعادة الصبغة ؟ وكانت هذه المسألة قد أثيرت منذ رياسة الأنبا ديونيسيوس (البابا الاسكندرى الـ ١٤) وكان هذا البابا وخلفاؤه قد قرروا عدم إعادة الصبغة لأنها واحدة ، وأن توبة الجاحدين تقبل حتماً بمجرد خضوعهم للقوانين الكنسية . كذلك قرروا أن الصبغة التى تعاد هى التى أجريت بطريقة غريبة عن العرف الكنسى فقط . وقد وافق أباء المجمع النيقى على هذا القرار بالاجماع (١) .

١٦٩ – ويحسن هنا تسجيل الخطاب الذى بعث به المجمع إلى كنيسة الاسكندرية لأنه وثيقة تاريخية هامة ، وهذا نصه : « إلى كنيسة الاسكندرية المقدسة العظيمة بنعمة الله ، وإلى إخوتنا الأحباء أهالى مصر وليبيا والخمس

---

(١) القديس أوغسطينوس : ك٢ ف٤ ، ٥ ، ك٣ ف٢ ، « الوضع الالهى للكنيسة » (بالفرنسية) للأنبا كيرلس مقار جـ١ ص٢٠٧ ، جـ٢ ص٢٣٧ – ٢٣٨ .

مدن الغربية - من الأساقفة الذين يتكون منهم مجمع نيقية المقدس - سلام لكم من الرب » .

« بنعمة الله وبدعوة قسطنطين الأمير المحبوب من الله ، اجتمعنا من مختلف الأقاليم والمدن لنعقد هذا المجمع العظيم فى نيقية . وقد رأينا من الواجب المفروض علينا أن نبعث إليكم برسائلنا لتقفوا على ما دار فى مجمعنا من مناقشات ، وما أصدرنا من قرارات فى القضايا التى درسناها » .

« وقد استهللنا مناقشاتنا فى حضرة الامبراطور قسطنطين المحبوب من الله ، بدراسة التعاليم الابتداعية الفاسدة التى ابتكرها أريوس ، وأجمعنا على حرمه ونفيه والقضاء على مؤلفاته وقد رفض الموافقة على ما أصدرناه من حكم كل من تيئوناس أسقف مرمريكا وسيكوندوس أسقف بتولومايس اللذين ظلا مواليين لذلك المبتدع رغم القرارات التى أصدرها مجمعكم الاسكندرى فرأينا أن نريحكم من شرهما وأصدرنا عليهما ما أصدرناه على زميلهما المبتدع من حكم » .

« أما ميليتيوس - أسقف ليكوبوليس والأساقفة الذين رسمهم - متخطياً البابا الاسكندرى - فقد عاملناه برحمة ليس هو بأهل لها . فجردناه من جميع حقوق الأسقفية وواجباتها وأبقينا له لقب أسقف كلقب شرف . أما الأساقفة الذين رسمهم ، فإن المجمع يعدهم مجردين من كل رتبة كهنوتية ، ويدع أمرهم بين يدى البابا الاسكندرى » (١) .

« ويفرحنا أن نعلمكم بأننا قد اتفقنا جميعًا على يوم تعييد القيامة المجيدة بأن وضعنا مسئولية تحديده على باباكم الاسكندرى وهذا تحقيق لما يصبو إليه الجميع من الوحدة الكنسية . فافرحوا اذن لاستقرار السلام والاتحاد . وافرحوا كذلك للقضاء على الابتداع والمبتدعين . وصلوا لأجلنا حتى تظفر قراراتنا برضا فادينا الرب يسوع المسيح وتمتد إلى أقاصى المسكونة بمشيئة الله الآب وبقوة الروح القدس . آمين (٢) .

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٢ ، ٢٩-٣٠ .

(٢) شرحه جـ٣ ص٢١ - ٢٣ .

١٧٠- ولقد بعث الامبراطور قسطنطين بعدة رسائل : أولها رسالته إلى الأساقفة الذين لم يحضروا المجمع أخبرهم فيها بكل ما جرى فى المجمع . وثانيتهم رسالته إلى كنائس مصر وفى هذه الرسالة أيد قرارات المجمع وطالب المصريين بالخضوع للبابا الاسكندرى . وثالثتهم رسالته إلى الاسكندريين ناشدهم فيها أن يتمسكوا بقرارات المجمع وينبذوا أريوس وبدعته (١) .

ولما كانت رغبة هذا الامبراطور فى تثبيت السلام لا تقف عند حد ، فقد عمل على تسوية قضية نوفاسيانوس الذى كان يقول بوجوب اعادة صبغة الجاحدين (٢) .

١٧١- وبعد أن انتهى المجمع من بحث عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية ، ومن الاتفاق على تعييد القيامة فى يوم واحد ، ومن الوصول إلى توحيد الصفوف بين مختلف الكنائس ، وضع عشرين قانوناً (٣) لتنظيم الشئون الكنسية والقانون الثالث من هذه القوانين العشرين خاص بزواج الكهنة . فقد اقترح بعض أعضاء المجمع أن يحتم البتولة على جميع رجال الكهنوت . غير أن الأنبا بفنوتى أسقف طيبة رفض هذا الاقتراح رفضاً باتاً . ولما كان هذا الأسقف من المعترفين البارزين ، ولما كان يحمل فى جسده علامات العذاب الذى تحمله ذوداً عن الايمان ومحبة فى المسيح ، فقد أصغى إليه المجمع باهتمام بالغ (٤) وأمام المجمع المنتبه بكليته وقف الأنبا بفنوتى يقول : « لا يليق بنا أن نضع نيراً على الكهنوت ينوء البعض منا تحته لأن الزواج مقدس كما يقول بولس الرسول (٥) ولو أننا حكمنا اليوم بالبتولة على جميع رتب الكهنوت لأذينا الكنيسة بمغالاتنا ، لأن ليس الجميع يقبلون هذا الكلام ولا يحتملونه . والصلة بين الرجل وبين امرأته صلة مقدسة . لذلك وجب علينا أن نحافظ على المبدأ الذى سارت عليه الكنيسة منذ البدء وهو أن لا يتزوج

---

(١) و (٢) « تاريخ الكنيسة » للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٤ - ٢٥ .

(٣) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفليه جـ١ ص٣٤٦ - ٤٢١ ، « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٤) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفليه جـ١ ص٢٧٧ .

(٥) عب ١٣ : ٤ .

انسان بعد رسامته . اما إن شاء الزواج فليفعل ذلك قبل أن ينال سر الكهنوت . فلنحافظ اذن على الحرية التى تسلمناها من آبائنا ولنسلمها كاملة إلى أبنائنا (١) . ولقد كان لكلمات الأنبا بفنوتى اثر بعيد فى النفوس لأنه كان راهباً مشهوداً له بالقداسة كما أن عفافه كان مثالاً لمن يبغى الكمال المسيحى ، وقد نشأ وسط عائلة اشتهرت بالتقوى والبر والنزاهة . فكانت هذه الصفات القوة المدعمة لكلماته أمام المجمع الذى قرر بالاجماع الأخذ برأيه وترك الحرية لكل من يرغب فى الكهنوت أن يتخذ لنفسه الخطة التى يبتغيها (٢) .

١٧٢ - أما سادس قوانين نيقية العشرين المقدسة فقد ثبت حق كل أسقف فى ايبارشيته (مقاطعته) ، وهذا نصه : « لتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا والمدن الخمس بأن تكون السلطة على هذه كلها لأسقف الاسكندرية . وبما أن هذه العادة مرعية أيضاً فى ما يختص بسلطة أسقفى رومية وانطاكية وغيرهما من الايبارشيات وجب إن تظل الحقوق التى سارت عليها هذه الايبارشيات قائمة . وبالاجمال ليكن واضحاً أن كل من صار أسقفاً بغير مصادقة المتروبوليت قد حكم المجمع الكبير أنه يجب أن لا يكون أسقفاً أما إن قاوم اثنان أو ثلاثة عن عناد شخصى صوت الأغلبية - ولو كانوا على حق فيؤخذ بصوت الأغلبية » .

وأن صيغة هذا القانون السادس لهى أيضاً دليل ، ضمن الأدلة العديدة على مدى احترام آباء مجمع نيقية السنن الرسولية التى أوتمنوا عليها وعلى تقديرهم للمبادئ الديمقراطية ولحق الأفراد فى آن واحد : فهم لا يؤيدون صوت الأغلبية فحسب وإنما يقررون حق كل متروبوليت فى ايبارشيته كذلك ، معلنين عدم اعترافهم بمن يعتدى على هذا الحق .

---

(١) لقد ايد مجمع نيقية مبدأ عدم الزواج بعد الرسامة حفظاً للتقليد الذى جرى عليه رسل الرب الأطهار ، لأن من كان منهم متزوجاً قبل تلبيته لنداء السيد المسيح احتفظ بزوجته ، ومن كان منهم اعزب احتفظ ببتولته . وكنيستنا القبطية لا تزال تحافظ على هذا القانون كما تحافظ على غيره من قوانين المجمع النيقى . والقسيس القبطى يتزوج قبل رسامته فإن تمت رسامته قبل زواجه ظل بتولاً مدى حياته ، والقسيس الذى تموت زوجته لا يمكنه الزواج ثانية إلا إذا تنازل عن كهنوته .

(٢) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفليه جـ١ ص٤٢٢ - ٤٢٣ .

١٧٣- ولما انفض عقد المجمع ، دعا الامبراطور قسطنطين آباءه إلى مأدبة شائقة فى القصر الامبراطورى . وقد رأى هذا الامبراطور أن يبدى من امارات التعظيم للأساقفة ما يليق بمقامهم السامى ، فأقام حراس الشرف من المساكن التى كانوا ينزلون بها حتى القصر الامبراطورى . ولقد بلغ تعظيم الامبراطور قسطنطين للأساقفة حداً جعل أوسابيوس أبا التاريخ الكنسى يقرر فى تاريخه أنه لا يجد من الألفاظ ما يستعين بها على وصف الجلال الذى ساد هذه المأدبة وعند انتهائها نفح الامبراطور كلا من الأساقفة هدية نفيسة قبل أن يغادر القصر الامبراطورى .

١٧٤- ولم يفت الأنبا الكسندروس البابا الاسكندرى أن يبعث برسالة إلى شعوب مصر وليبيا والمدن الخمس وما جاورها من البلاد حتى حدود الهند . وقد ضمن هذه الرسالة وصفاً دقيقاً لكل ما جرى فى نيقية من مناقشات حول الايمان الأرثوذكسى وتعييد القيامة المجيدة والقوانين العشرين . وختم رسالته هذه ببيان ما أبداه الامبراطور من غيرة على الايمان ومن تعظيم وتكريم لرجال الدين (١) .

١٧٥- وبعد هذه المأدبة بأيام معدودات دعا الامبراطور قسطنطين الأساقفة إلى الاجتماع فى قصره ، ورجا منهم أن يعملوا على استتباب السلام فى الكنيسة وأن يذكروه فى صلواتهم . ثم ودعهم بما يليق بمقامهم من اعظام واكرام ، وأذن لهم فى العودة إلى بلادهم آمنين مطمئنين .

ويقول الأنبا أثناسيوس الرسولى أن مجمع نيقية كان نقطة حاسمة فى تاريخ الكنيسة ، كما كان ملحمة رائعة لانتصار الايمان القويم على الابتداع (٢) .

١٧٦- وفى المجمع النيقى سمع الامبراطور قسطنطين من الآباء المصريين عن الأنبا أنطونى رجل الله ، فبعث إليه برسالة يرجو منه فيها أن يذكره فى صلواته ويستشيره فى بعض الأمور الروحية ، وتلت هذه

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جتى جـ٢ ص٤١ .

(٢) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفليه جـ١ ص٤٢٨ - وللاطلاع على تفاصيل ما جرى فى المجمع راجع هذا الكتاب من ص٢٥٥ - ٤٤٠ .

الرسالة الأولى رسائل أخرى غيرها . فكان الأنبا أنطونى حين تصله رسالة امبراطورية يجمع التلاميذ المقيمين بالقرب منه ويقول لهم : « لا تتعجبوا من أن الملوك والأمراء يكتبون إلينا . لأنهم - رغم سمو منزلتهم - ليسوا إلا بشراً . أما الذى يجب أن يثير فينا كل العجب فهو أن الله كتب القانون لبنى البشر ثم كلمنا أخيراً بابنه الوحيد الجنس » (١) .

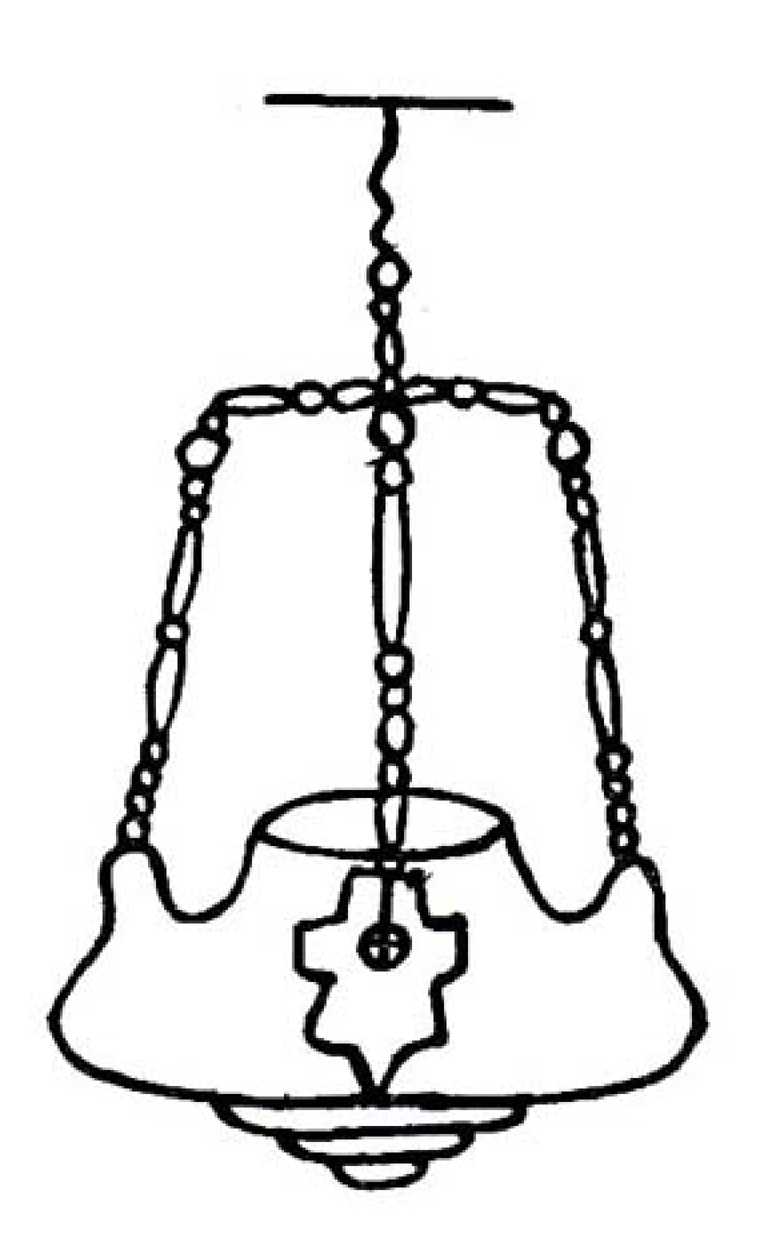
١٧٧- وما كاد الأنبا الكسندروس يستقر به المقام فى الاسكندرية حتى شرع فى تنفيذ قرار المجمع الخاص بميليتيوس الليكوبولى والأساقفة الذين نالوا الأسقفية من يده . وخضع ميليتيوس من غير تردد لما أصدره مجمع نيقية من قرار فى شأنه وشأن المرسومين منه . غير أن نفراً من أنصاره رفض الاذعان وانتدب ثلاثة من بينهم لمقابلة الامبراطور قسطنطين ليحصلوا منه على أمر يخولهم حق الاستمرار فى عقد اجتماعاتهم ورسامة من يرون من الأساقفة . على أن الامبراطور رفض مقابلتهم رفضاً باتاً رغم المساعى التى بذلها أوسابيوس اسقف نيقوميديا . ولكن ما قوبل به هؤلاء العصاة من رفض لم يكن ليمنع قسطنطين من الاحتفاء بأثناسيوس مندوب البابا الكسندروس الاسكندرى الذى حمل من باباه رسالة إلى الامبراطور تضمنت ما قام به من تنفيذ لجميع قرارات مجمع نيقية .

١٧٨- وانقضت شهور خمسة على عودة الأنبا الكسندروس من مجمع نيقية ، وشعر بأن روحه على وشك أن تنطلق من جسده المضنى . فقد قضى السنين الطويلة التى منحه الله إياها على الأرض فى جهاد مستمر وفى خدمة متواصلة ، وحانت الساعة ليدخل إلى فرح سيده . وفى اللحظة التى كانت توشك روحه أن تنطلق نحو باريها رددت شفتاه اسم تلميذه أثناسيوس . ولكن نداءه لم يجد مجيباً لأن أثناسيوس كان قد هرب إلى الصحراء للاختباء عند معلمه أنطونى أبى الرهبان . ونادى الأنبا الكسندروس ثانية على شماسه ولم يسمع رداً . ثم سطع وجهه بنور عجيب وقال فى ثقة

---

(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٦٥ - ٦٦ دائرة معارف فرنسية تحت كلمة « أنطوان » .

وتهليل : « عبثًا تحاول أن تخفى نفسك يا أثناسيوس فلن تستطيع الهروب من الرسالة الموضوعة عليك » (١) . وبعد أن فاه البابا الاسكندرى بهذه الكلمات استودع روحه يدى الآب السماوى وقد امتلأت نفسه سلامًا لرؤيا الكنيسة تحت رعاية تلميذه العظيم الذى أحبه منذ أن رآه لأول مرة وهو بعد يافع يلعب مع زملائه على شاطئ البحر .



قنديل من النحاس وقف على كنيسة الشهيدين أباكير ويوحنا

(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص١٤٧ .

أثناسيوس الرسولى

(١٧٩) كثرة من كتبوا عن أثناسيوس .
(١٨٠) مصرية أثناسيوس ومميزاته .
(١٨١) تقديس الله له منذ صباه .
(١٨٢) اللعب المفضل لدى أثناسيوس.
(١٨٣) تكريسه وهو فى الثانية عشرة .
(١٨٤) سعى أمه لزواجه ونبوءة العراف عنه .
(١٨٥) أثناسيوس يتعلم فى الاسكندرية وفى عين شمس وصحبه الأنبا أنطونى .
(١٨٦) نظام حياته مع أنطونى .
(١٨٧) عودته إلى الاسكندرية ورسامته شماسا .
(١٨٨) كيفية تأديته للواجبات الشماسية .
(١٨٩) أثناسيوس كالهرم الراسخ .
(١٩٠) موقفه فى نيقية .
(١٩١) انتخابه بابا للاسكندرية .
(١٩٢) رسامة فرومنتيوس أسقفا على الحبشة وبدء العلاقة المصرية الحبشية .
(١٩٣) الرحلة الراعوية الأولى لأثناسيوس .
(١٩٤) قسطنطين يصدق ادعاء أريوس بالتوبة ويغضب على أثناسيوس ثم يعود إلى جادة الحق .
(١٩٥) تألب الأريوسيين والأوسابيوسيين على أثناسيوس فى صور .
(١٩٦) المؤامرات والدسائس ضد أثناسيوس .
(١٩٧) ماذا حدث فى مجمع صور اللصى .
(١٩٨) أثناسيوس يعترض طريق قسطنطين فى شوارع القسطنطينية .
(١٩٩) أثناسيوس فى تريف .
(٢٠٠) قسطنطين يفرض على الكسندروس البيزنطى قبول أريوس فى شركته .
(٢٠١) مصرع أريوس .
(٢٠٢) صوم الاسكندريين وصلواتهم ومكاتبتهم لقسطنطين دفاعا عن أثناسيوس .
(٢٠٣) لقاء قسطنطين الصغير بأثناسيوس وشفاعته فيه .
(٢٠٤) موت قسطنطين الكبير وتقسيم الامبراطورية إلى ثلاثة أقسام .
(٢٠٥) قسطنطين الصغير يعيد أثناسيوس إلى كرسيه .
(٢٠٦) الرحلة الراعوية الثانية لأثناسيوس .
(٢٠٧) أوسابيوس يتآمر على البابا الاسكندرى ويفرض دخيلاً مكانه.

(٢٠٨) زيغ أوسابيوس والأساقفة الموالين له .

(٢٠٩) ثورة الاسكندريين النفسية وتضرعاتهم الحارة .

(٢١٠) وصول غريغوريوس الكبادوكى الدخيل إلى الاسكندرية .

(٢١١) أثناسيوس يظل فى الاسكندرية حتى عيد القيامة.

(٢١٢) عجز الأريوسيين من الفتك بأثناسيوس يدفعهم إلى التنكيل بالشعب المصرى .

(٢١٣) أثناسيوس يلجأ إلى فلسطين ويبعث برسالة دورية إلى أساقفة المسكونة .

(٢١٤) المصريون يقاطعون الأسقف الدخيل تمام المقاطعة .

(٢١٥) امعان هذا الأسقف فى التنكيل بالمصريين .

(٢١٦) ذهاب الأنبا أنطونى إلى الاسكندرية للدفاع عن أثناسيوس .

(٢١٧) وجود أثناسيوس فى رومية يؤدى إلى عقد مجمع فيها .

(٢١٨) مجمع رومية يعلن قبول أثناسيوس فى شركة الكنيسة الجامعة .

(٢١٩) رسالة يوليوس أسقف رومية إلى الأساقفة الشرقيين .

(٢٢٠) أثناسيوس مبعث ثروة روحية للغرب بأسره .

(٢٢١) الامبراطور قسطنطين يدعو أثناسيوس لزيارته فى ميلانو .

(٢٢٢) زيارة أثناسيوس لقسطنطين تؤدى إلى تبادل الخطابات بين امبراطورى الشرق والغرب .

(٢٢٣) عقد مجمع فى سرديكا يقاطعه الشرقيون .

(٢٢٤) آباء سرديكا يقرون الايمان النيقى ويحرمون الأساقفة الدخلاء ويسنون عشرين قانونا.

(٢٢٥) آباء سرديكا يبعثون برسالة دورية تتضمن عرضا موجزا لأعمالهم فى المجمع .

(٢٢٦) الآباء عينهم يبعثون برسالة إلى كنيسة الاسكندرية ويطالبون قسطنطين بمكاتبة أخيه امبراطور الشرق .

(٢٢٧) امبراطور الشرق ينقلب ضد الأريوسيين ويبعث برسالة ودية إلى أثناسيوس .

(٢٢٨) قسطنطيوس يبعث برسالتين (ثانية وثالثة) إلى أثناسيوس .

(٢٢٩) رسالة يوليوس أسقف رومية إلى الاسكندريين .

(٢٣٠) أثناسيوس يغادر رومية إلى أنطاكية فأورشليم .

(٢٣١) الخلجات النفسية للبابا الاسكندرى قبيل عودته إلى وطنه .

(٢٣٢) استقبال رائع لأثناسيوس من مواطنيه .
(٢٣٣) مقتل الامبراطور قسطنس وانفراد قسطنيوس بالحكم .
(٢٣٤) الاحتفاء بعيد القيامة المجيدة بالبهجة والتهليل .
(٢٣٥) الجو يكفهر من جديد فوق أثناسيوس وشعبه الوفى .
(٢٣٦) الامبراطور قسطنطيوس لا يجرؤ على القبض على أثناسيوس .
(٢٣٧) عقد مجمع فى ميلانو .
(٢٣٨) آباء مجمع ميلانو يعزلون أثناسيوس فيثور ستة من أساقفته عليهم .
(٢٣٩) هيلاريوس أسقف بواتييه يبعث برسالة صريحة إلى قسطنطيوس .
(٢٤٠) قسطنطيوس يمعن فى اضطهاد المصريين .
(٢٤١) الجيش المرابط فى ليبيا يدخل الاسكندرية ويسلم قائده رسالة شفوية إلى أثناسيوس .
(٢٤٢) الجنود يقتحمون الكنيسة ليلة عيد ويفتكون بالمصلين ولكنهم يفشلون فى الظفر بأثناسيوس .
(٢٤٣) اختفاء أثناسيوس سنوات ست وفشل الأريوسيين فى القبض عليه .
(٢٤٤) أثناسيوس كان قد اختبأ فى بيت شماسة فى الاسكندرية .
(٢٤٥) فرض دخيل ثان على السدة المرقسية .
(٢٤٦) المصريون يصلون ليلة العنصرة فى الصحراء فيفتك بهم جند الدخيل عند الفجر .
(٢٤٧) التجاء أثناسيوس إلى الصحارى المصرية ومنها إلى فلسطين حيث يوجه دفاعا إلى قسطنطيوس .
(٢٤٨) عودة أثناسيوس إلى صحارى مصر .
(٢٤٩) انتقال الأنبا أنطونى إلى بيعة الأبكار .
(٢٥٠) انشغال أثناسيوس بوضع دفاعه ضد الأريوسيين وتفنيده لبدعة مقدونيوس .
(٢٥١) رسالة أثناسيوس إلى سرابيون أسقف اتمى .
(٢٥٢) الأريوسيون يستثيرون الامبراطور ضد ليباريوس أسقف رومية .
(٢٥٣) ليباريوس يتردى فى البدعة الأريوسية .
(٢٥٤) الأريوسيون يهاجمون هوسيوس القرطبى .

(٢٥٥) أثناسيوس يتلمس العذر لأسقفى رومية وقرطبة .

(٢٥٦) تصدع صفوف الأريوسيين .

(٢٥٧) موت قسطنطيوس واعتلاء يوليانوس الجاحد العرش .

(٢٥٨) مصرع جورج الكبادوكى الأسقف الدخيل .

(٢٥٩) عودة أثناسيوس إلى الاسكندرية .

(٢٦٠) أثناسيوس يعقد مجمعاً فى الاسكندرية لوضع القوانين الخاصة بقبول التائبين .

(٢٦١) أثناسيوس يصلح بين اليونانيين واللاتين المتخاصمين بسبب الاختلافات اللغوية .

(٢٦٢) يوليانوس يعلن جحوده ويطارد أثناسيوس .

(٢٦٣) اضطرار أثناسيوس إلى مغادرة الاسكندرية من جديد .

(٢٦٤) عودته إلى الاسكندرية وعجز يوليانوس من القبض عليه .

(٢٦٥) ديديموس الأعمى البصير يعلم بالروح عن مقتل يوليانوس فى الحرب ضد الفرس .

(٢٦٦) يوبيانوس الامبراطور الجديد يناصر أثناسيوس .

(٢٦٧) طلب يوبيانوس من أثناسيوس توضيح الايمان .

(٢٦٨) حكم يوبيانوس لايزيد على سبعة شهور .

(٢٦٩) فالنس وفالنتينيانوس يخلفانه على العرش .

(٢٧٠) الرحلة الراعوية الثالثة لأثناسيوس .

(٢٧١) أثناسيوس يزور الأديرة الباخومية ويلتقى بثينودورس .

(٢٧٢) فالنس امبراطور الشرق ينقلب فجأة من موال إلى مخاصم .

(٢٧٣) الاسكندريون يهددون بالتمرد .

(٢٧٤) محاولة فاشلة للقبض على أثناسيوس .

(٢٧٥) أثناسيوس يدحض بدعة مقدونيوس .

(٢٧٦) كتابات أثناسيوس تبين للمؤمنين أن المسيح هو الاله المتأنس .

(٢٧٧) السلام يشمل مصر ونار الاضطهاد تروع بقية الامبراطورية .

(٢٧٨) انتقال أثناسيوس إلى مساكن النور .

(٢٧٩) المزايا النادرة التى تحلى بها أثناسيوس .

(٢٨٠) الكنيسة تمنحه لقب « ثالث عشر الرسل الاطهار » أو « رسولى » كما هو شائع .

(٢٨١) رسالة من أثناسيوس إلى الرهبان المقيمين خارج مصر .

١٧٩- إن لكلمة « أثناسيوس » رنيناً خاصًا فى الآذان - فلا يكاد هذا الاسم يرن فى الأسماع حتى ترتسم صورة لجبل عالٍ أو لمارد من أولئك المردة الذين تصل رؤوسهم إلى السحاب . فلم يسيطر أثناسيوس على عصره فحسب وإنما سيطر على الفكر المسيحى منذ القرن الرابع حتى الآن ، وسيظل مسيطراً عليه حيثما عاش قوم يؤمنون بالكلمة المتجسد . ولهذا السبب نجد أن كتاباً لا يحصى عددهم كتبوا ترجمة هذا البطل الأرثوذكسى العظيم . ولكن هؤلاء الكتاب قد تباينوا فيما وضعوه عن حامى الايمان القويم لأن كلاً منهم كتب عن ناحية من نواحى شخصيته العجيبة . فاختص بعضهم بما امتاز به من فلسفة ، ووصفه غيرهم بأنه المشرع الدينى الذى لا يبارى ، وقال آخرون عنه أنه اللاهوتى الضليع . وقد صدق جميع هؤلاء الكتاب فيما وصفوه به لأنه جمع فى شخصه كل هذه الصفات ، كما جمع بين البطولة والقداسة . فقد كان قبل كل شئ قديسًا سيطرت عليه فى جهاده محبة تفوق الطبيعة وتلهمه وتنير أمامه الطريق وتعصمه من الزلل .

١٨٠- ولقد كان هذا القديس - رغم ثقافته اليونانية الممتازة - مصرياً صميماً معتزاً بإرث الآباء والجدود ، ينطبق عليه الوصف الذى كتبه أحد المؤرخين من مواطنيه وهو: «أنهم كانوا يضطرمون بكل العوامل النفسية» . وهذه الحماسة المصرية قد اقترنت فى أثناسيوس بالصلاة والغيرة . وقد أخضع كل هذه القوى للقضية الكبرى التى رفعته إلى منزلة الممتازين من القديسين . وهكذا كانت حياته كفاحاً مستمراً بحيث لم تقف فى وجهه قوة ما : فهو قد صارع الآلهة الوثنية ، كما صارع المبتدعين فى المسيحية ، وهو وقف فى وجه الأباطرة والحكام فى جرأة عجيبة وفى صبر واحتمال . وأن من يلقى نظرة عابرة على هذا الكفاح الفريد يخيل إليه أنه لم يكف عن النضال إلا ليعالج سكرات الموت . أما من يمعن النظر فى جهاده العنيف فإنه يتبين الغرض الأسمى الذى يهدف إليه . فقد تجلى فيه التتلمذ لله محب البشر فى المحبة الجياشة التى فاضت منه على اخوته من بنى البشر فدفعته إلى أن يكرس فى سبيل خدمتهم فكره وقلمه وأعماله وآماله وآلامه أيضاً (١).

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص١ - ٣ .

١٨١- وقد ولد أثناسيوس من والدين يجهل التاريخ اسميهما . ولكن ما قيمة معرفة اسميهما ؟ إنه يكفيهما فخراً أن انجبا أعظم بطل رفع لواء الأرثوذكسية عاليًا . ولم يقتصر الأمر على اغفال اسم أبويه بل أن أباه انتقل إلى الدار الباقية وهو بعد فى سن الطفولة فكفلته أمه . والعجيب أن هذه المرأة الوثنية قد أرسلت ابنها إلى مدرسة مسيحية اعتقاداً منها بأنها أصلح له ، وهكذا مهدت السبيل لتحقيق الارادة الالهية فى حياة ابنها العظيم الذى لم يلبث أن صار الحصن الشامخ المنيع للايمان المسيحى القويم . وكما قدس الله أرميا النبى وهو بعد فى البطن (١) هكذا شاءت العناية الإلهية أن يتقدس أثناسيوس منذ صباه إذ قد غمرته النعمة وهو طفل .

١٨٢- وكان أثناسيوس وهو فى المدرسة يقول لأنداده : « إن اختارنى الله لخدمته اعتنق المسيحية » . فكان أنداده يقابلون حديثه بالتهليل والحبور . ويروى مخطوط قبطى (٢) أنه حدث ذات صباح بينما كان معلم المدرسة غائبًا أن تشاغل تلاميذ الفصل باللعب بأن مثل كل طفل رجلاً من رجال الدين . وكان أثناسيوس فى هذه التمثيلية البابا الاسكندرى ، وبينما كان التلاميذ منهمكين فى التمثيل إذ بالأنبا الكسندروس يدخل الفصل زائراً على جارى عادته ، ولاحظ أن التلاميذ يجيدون ما يمثلون . فأخذ يسألهم عما حداهم إلى اختيار هذه التمثيلية فارتبك الأطفال قليلاً ثم اعترفوا بأن صاحب الفكرة هو زميلهم أثناسيوس . فبعد أن ألقى عليهم نظرة عطف وحنان قال لهم : « صدقونى يا أولادى أن كلاً منكم سينال الدرجة الكهنوتية التى ظهر بها فى هذه التمثيلية » .

هذا ما جاء فى المخطوط القبطى ، أما روفينوس (٣) فيرى واقعة متشابهة تتلخص فى أن الأنبا الكسندروس كان يومًا فى انتظار بعض الضيوف من الكهنة كان قد دعاهم ليتناولوا الغذاء معه . وبينما هو مطل من

---

(١) أرميا ١ : ٥ .

(٢) سنكسار مخطوط جـ٢ رقم ٤١ طقس بالمتحف القبطى اليوم السابع من شهر بشنس وتاريخ هذا المخطوط سنة ١٠٥٦ ش (١٢٣٩ - ١٢٤٠م)

(٣) راجع ما قيل عنه فى الفصل الخاص ببعض من جاءوا للتبرك بأباء الصحراء . وعنوانه « ضيوف من بلاد نائية »

شرفته انتظاراً لضيوفه لاحظ بعض الأطفال يلعبون على شاطئ البحر ، وامتلأ دهشة إذ وجدهم يمثلون شعائر الصبغة (المعمودية) ، وأنهم يؤدونها بجد واهتمام بالغين . فراقبهم فى صمت حتى وصل ضيوفه ثم طلب إليهم أن يراقبوا الأطفال معه . وراقبوهم بدورهم فى صمت شامل فامتلأوا دهشة هم أيضاً إذ وجدوا الأطفال يؤدون الشعائر بحذافيرها . وعند ذاك نادى الأنبا الكسندروس الأطفال وسألهم عما كانوا يفعلون وتلعثم الأطفال قليلاً ولكن نظرة العطف والحنان البادية على وجه البابا الاسكندرى شجعتهم ، فاعترفوا بأنهم كانوا يؤدون شعائر الصبغة المقدسة بناء على اقتراح زميلهم أثناسيوس الذى كان يمثل دور الأسقف والذى غطس بيديه كل زملائه الذين لم ينالوا الصبغة المقدسة من قبل . فحدق الأنبا الكسندروس فى أثناسيوس وأحبه لأول نظرة وتفرس أثناسيوس فى البابا الاسكندرى فى ثبات واخلاص وقد تجلى فى عينيه ما وهبه الله من ذكاء وصفاء سريرة . وبعد حديث دار بينهما أجمع الكهنة الذين استضافهم الكسندروس فى ذلك اليوم على صحة ما قام به أثناسيوس من غطاس وبادروا إلى منح هؤلاء الأولاد سر الميرون . ومنذ تلك اللحظة جعل الكسندروس أثناسيوس تحت رعايته (١) .

ومن هاتين الروايتين يتضح أن أثناسيوس كان يميل بفطرته إلى الروحانيات .

١٨٣- ولم يكن أثناسيوس يومذاك قد تجاوز الثانية عشرة - وهى السن التى دخل فيها السيد المسيح الهيكل معلماً مناقشاً . وقد شاءت العناية الالهية أن تبدأ حياة أثناسيوس داخل المحراب فى هذه السن المبكرة أسوة برب المجد . وفى هذا المحراب كرس حياته للدرس والتحصيل (٢) .

١٨٤- ولما بلغ أثناسيوس الخامسة عشرة من عمره ساورت أمه

---

(١) مخطوط رقم ٣ تاريخ محفوظ بكنيسة أبى سرجه ببابلون (مصر عتيقة) مؤرخ ٢١ طوبه سنة ١٤٢٤ش (٢٩ يناير سنة ١٧٠٨م) ص٦٣ - و - ١٢٩ظ ، والورقة الأولى لهذا المخطوط مفقودة .

(٢) مخطوط رقم ٩ تاريخ محفوظ بكنيسة الأنبا شنودة ببابلون (مصر عتيقة) مؤرخ سنة ١٤٧٩ش (١٧٦٣م) ص١٦٥ - ٢٣١ .

المخاوف عليه إذ رأته منشغلاً بالكتب أناء الليل وأطراف النهار . ففكرت فى أن تزوجه لتشغله عن المطالعة والاستذكار . غير أن محاولاتها جميعًا ذهبت أدراج الرياح . فلجأت إلى عراف طلب إليها أن تهيئ له الفرصة لأن يتناول الغداء مع ابنها . وبعد الغداء قال لها هذا العراف : « لا تتعبى نفسك لأنك لن تصلى إلى غايتك فإبنك لابد تابع الجليلى . وستكون حياته رائحة زكية تعطر الشعوب جميعها » .

ولما كانت أم أثناسيوس سيدة حكيمة أخذت تفكر فى نفسها قائلة : « لو تماديت فى محاولة اخضاع ابنى لرغبتى لفقدت مودته . ألا يحتمل أن يهرب منى إلى الصحراء ؟ أو قد ينطوى على نفسه فلا يبوح لى بما فى سريرته ؟ فخير لى أن أسايره فى ميوله لأحتفظ بمحبته وأستطيع أن أسانده وأشاركه امانيه فأعاونه بذلك على اتمام دراساته » . وما أن انتهت إلى هذا القرار حتى استصحبت أثناسيوس إلى الأنبا الكسندروس وقدمته إليه ليكرس حياته فى خدمة العلى أسوة بحنة عندما قدمت صموئيل إلى الهيكل (١) .

١٨٥- وقد تطاير قلب الكسندروس فرحًا عندما رأى أم أثناسيوس هى التى تقدمه بمحض ارادتها . ومن ذلك اليوم عاش أثناسيوس برفقة البابا العظيم وأخذ ينمو فى القامة والحكمة والنعمة عند الله والناس (٢) . وكان أثناسيوس خلال هذه السنين التى قضاها فى خدمة ذلك البابا العظيم يهيئ نفسه (على غير علم منه) للجهاد الذى ينتظره . فقد تتلمذ لمعلمى الاسكندرية الفطاحل وتعلم عليهم القواعد النحوية والمنطق والخطابة والبلاغة ، وهوميروس وغيره من الشعراء ، والفلسفة اليونانية ، والقانون الرومانى ، كما عنى باستيعاب تعاليم مدرسة عين شمس (هيلوبوليس) ، والتعاليم التى دبجتها براعة اكليمنضس الاسكندرى وأوريجانوس وتوج جميع هذه الدراسات بأن غاص فى بحار الأسفار الإلهية ، ثم ذهب إلى الصحراء حيث قضى فى صحبة الأنبا أنطونى ما يقرب من ثلاث سنوات تشبع فى أثنائها بكل ما أوتيه ذلك القديس من حكمة وقداسة .

---

(١) صموئيل الأول ١ : ٢٤ .

(٢) لوقا ٢ : ٥٢ .

١٨٦ - ولقد اندفع أثناسيوس إلى الصحراء بقوة محبته للاسكندريين - ذلك أنه وجد العدد العديد من شبابهم لا يزال يتخبط فى فيافى الفلسفة الوثنية ، كما وجد بعض شيوخهم ونسائهم تسيطر عليهم الخرافات المزعجة . فأحس بعطف شديد على هؤلاء وأولئك وانطلق إلى الصحراء يستوحى أبا الرهبان فى ما يمكن عمله لانقاذ هؤلاء الاسكندريين . وحين سمع الأنبا أنطونى بما يجيش فى صدر هذا الشاب الممتلئ نعمة ومحبة أعجب به وأحبه واتخذه له تلميذاً . فعاش كبير النساك وتلميذه الشاب فى هدوء وسلام وفى انسجام روحى عجيب إذ رفرفت عليهما روح العلى . وكان أنطونى يقضى نهاره فى الصلاة والتأمل والعمل اليدوى كما رسم له الملاك منذ أول حياته النسكية ، فى حين أن اثناسيوس كان يجلس على مقربة منه وينصرف إلى الكتابة . وقبيل مغيب الشمس كان أثناسيوس يجلس عند قدمى أنطونى يقرأ له ما كتب ، فيصغى الشيخ الوقور لما يقوله الشاب فى اهتمام بالغ ثم يوجه إليه الملاحظات والنصح . ولقد استطاع أثناسيوس فى هذه الفترة أن يكتب كتابين أحدهما عن « بطلان الأوثان » وثانيهما عن «وحدانية الله » . وقد تجلت فى هذين الكتابين مواهب أثناسيوس العجيبة - فكان المنطق فى كل ما كتب يبرر حجته والايمان الراسخ يوضح عقيدته والمحبة ترق حيناً وتثور طوراً مما جعل كتاباته أشبه بتحليق النسور (١) . وبعد أن يقرأ أثناسيوس لمعلمه ما كتب يكون الليل قد أرخى سدوله على الكون فيقصد أثناسيوس عيناً قريبة يملأ من مائها جرة ليغسل يدى معلمه وقدميه ويغتسل هو أيضاً قبل تناول العشاء (الذى كان الأكلة الوحيدة التى يتناولانها) وكان المعلم وتلميذه قبل أن يستسلما للنوم والراحة من عناء الفكر يرفهان عن نفسيهما بجدل السلال التى يبيعانها ليعيشا من عمل أيديهما . وفى تلك الآونة استطاع أثناسيوس أن يجمع المعلومات التى مكنته من أن يضع فيما بعد كتابه عن حياة أبى الرهبان . » وكم قضى هذان القديسان من الأوقات السعيدة وهما مجتمعان معاً ! ومن منهما كان الأدهش والأعجب هل الذى ترك كل شئ وأصبح فقيراً بارادته حبًا بيسوع المسيح أم

---

(١) « حياة القديس اثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٤٦ - ٤٧ .

، الذى من أجل ألوهـة الكلمـة الأزليـة قـد احـتمـل مـراراً عـديدة حـجـز الأمـوال وشدائد النفى وكان كل حين عرضة للقتل ؟ » (١) .

١٨٧ - وبعـد أن قضـى أثناسيـوس هذه السنوات الثلاث فى غبطة ووئام عـاد إلى الاسكندرية مـزوداً بجـمـيع وسـائل الكفـاح للمـعـركـة التى كـانت تنتظره ، فحق عليه الوصف بأنه « تهذب بكل حكمة المصريين وكان مقتدراً فى القول والفعل » (٢) . ولم يلبث الأنبا الكسندروس أن منحه رتبة الشماسية فكانت هذه الرتبة وسيلة لفيض النعمة الالهية داخله أكثر فأكثر .

وفى القـرن الرابع كـان الحـاصل عـلى رتبـة الشـمـاسـيـة لا يزال مـحـتـفظاً بمكانتـه الدينيـة العلميـة فى الكنيسـة : « فكان عـينى الأسـقف وأذنيـه ، ويده ولسـانه ، وقلبـه النابض » (٣) . ولقـد كان هـذا الوصـف صـورة لأثنـاسيـوس . فلم يكن القـوة المحـركـة لبـاباه فحـسب ، بل كـان النور السـاطع وسط الغـيـوم الآخذة فى التكاثف أيضاً . وكان الأنبا الكسندروس يستعين به ويركن إليه فى كل المسائل ، وينظر إليه كما ينظر الأب الشيخ إلى ابنه الشاب الحبيب . وكأن الآب السماوى قد خلقهما للعمل معاً فى توافق وانسجام عجيبين : فكلاهما روح مـحلقـة ، وكـلاهـمـا بصـيـر بالهـدف الأسـمى الذى يسـعى لتـحـقـيـقـه ، وكلاهما يحب الكنيسة محبة خالصة فياضة تملأ عليه حياته .

١٨٨ - ولقد كان أثناسيوس يؤدى خدمة الشماسية على خير الوجوه . فيـقصـد يوميًا إلى الأحياء التـى يسكنها فـقراء الشعب لـيطعم الجياع ويـكسـو العـراة ويفتـقـد المسجـونين ويضـيـف الغـرباء . وكان فى طـوافه إذا التـقى بمن تزعزع ايمـانه ثبته فـى العقيـدة وشدد قلبـه المضطرب . وهـكذا اعتـاد الناس أن يروه فيحـيوه فى مودة وتقدير ويرددون عباراته البليغة وتعاليمه الصـحيحة متهللين متفائلين . ولم يلبثوا أن شاطروا البابا الكسندروس ما يشعر به من

---

(١) « كتاب العيشة الهنية فى الحيوة النسكية » تاليف حضرة الأب الفاضل العامل القس أفرام الديرانى احد مديرى الرهبانية الحلبية المارونية اللبنانية ص٨٥ .

(٢) أعمال ٧ : ٢٢ .

(٣) الدسقولية ك٢ ف٤٤ ، ٥٧ ، ك٣ ف١٩ ، ك٧ ق٥ ، ترتوليانوس كاهن قرطاجة فى مؤلفه عن العماد ك١٧ ف١٢ .

أن هذا الشماس الشاب هو أمل المستقبل ، لأن بدعة أريوس القسيس الليبى قد بدأت تتفشى بطريقة أزعجت بعض المؤمنين وعكرت صفوهم . وقد ظل أثناسيوس خلال هذا الشغب يجاهر بالايمان الأرثوذكسى فى بأس وصدق عزيمة مما أثار سخط أريوس عليه وعلى الأنبا الكسندروس فاغتبطا كلاهما لأنهما أهينا فى سبيل البر (١) .

١٨٩ – ولم يكن بغريب أن يسخط أريوس لأن أثناسيوس كان عبقرياً نادراً حقاً : سخر ذكاءه الخارق ومنطقه الدامغ لخدمة العقيدة الأرثوذكسية التى آمن بها بكل حماسة شبابه المتطلع وتوقد روحه الوثابة . فوقف وسط الشغب والضجيج ثابت الجنان عالى الراس أشبه بالهرم الرابض فوق رمال الصحراء التى تموج بها الأهواء . وأن الزائر للوادى العتيق ليخيل إليه وهو مار هناك بأن هذه الأهرام ستسحقه بضخامتها ، وهذا الاحساس يشبه تماماً الاحساس الذى يسود نفس المؤمن حين يتأمل هذا الجبار الذى أنجبه الوادى العتيق عينه : مع الفارق هو أنه يشعر فى الوقت نفسه بجاذبية مغناطيسية تجتذبه نحو هذا البطل العملاق (٢) .

١٩٠ – ولما تأزمت الأمور حتى بلغت منتهاها وتجمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً فى نيقية ليضعوا أسس الايمان الأرثوذكسى ويثبتوا السلام فى الكنيسة وقف أثناسيوس بينهم كالهرم الكبير فسحق البدعة الأريوسية برسوخ ايمانه وقوة منطقه . وكان يجيب على أقوال أريوس الشبيهة بالزئبق المترجرج بكلمات المنطق السليم فوضح الحقيقة توضيحاً ساطعاً لا لبس فيه وقدمها للعالم بعد أن حدد معالمها كما يقدم الجوهرى قطعة من الماس المصقولة فى خاتم متقن الصنع (٣) .

١٩١ – وبهذا الجهاد الشاق المتواصل ، وبهذه المحبة المتفانية الموهوبة بسخاء نادر ، اكتسب أثناسيوس محبة المؤمنين له وتقديرهم إياه . فكان من الطبيعى أن يتجه إليه المصريون فى اجماع عجيب حين ذاقوا لوعة اليتم

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٥٨ – ٦٠ ، ٧٤ .
(٢) شرحه ص٢٩ .
(٣) شرحه ص٨٣ ، « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ١ ص٢٦٦ .

بانتقال الأنبا الكسندروس إلى دار النعيم . وحين خفت حدة هذه اللوعة اتفقت كلمتهم على أن خير من يخلف باباهم الراحل على السدة المرقسية هو شماسه العبقرى . وتردد اسم أثناسيوس من لسان إلى لسان كأنه موج البحر المتلاحق . وكأن قوة غير مرئية حركت شفاههم جميعاً حين اجتمعوا فى كنيسة القديس مرقس للتشاور فى أمر الانتخاب . وكان أثناسيوس قد هرب إلى الصحراء ولجأ إلى معلمه الحبيب أبى الرهبان . فذهب مندوبو الشعب إلى الصحراء ليبحثوا عنه ووجدوه مختبئاً عند أنطونى فاقتادوه إلى الاسكندرية وساروا به رأساً إلى الكنيسة المرقسية فدخلوها وأغلقوا الأبواب وقالوا للأساقفة الذين استصحبوهم : « لن تخرجوا من هنا حتى تضعوا عليه اليد » فاشترك جميع الأساقفة الذين كانوا موجودين فى الاسكندرية إذ ذاك (وكان عددهم خمسين أسقفاً) ووضعوا أيديهم على المختار من الشعب بين مظاهر التهليل والتعظيم [١] (سنة ٣١٨م . ش) .

١٩٢- وقد تجلت العناية الإلهية بكنيسة الاسكندرية إذ سادها السلام والسكينة فى السنين الثلاث الأولى لباباوية الأنبا أثناسيوس . وفى أولى هذه السنوات حضر فرومنتيوس إلى الاسكندرية من الحبشة . وقدم إلى خليفة مارمرقس تقريراً لما حدث له وما وصل إليه ويتلخص فى أنه سافر أيام شبابه مع زميل له اسمه اديسيوس فى ركاب قريب لهما هو الفليسوف ميروبيوس . وعند شاطئ الحبشة جنحت بهم السفينة فخرج سكان الساحل عليهم وقتلوهم ولم يبقوا على أحد غير فرومنتيوس وزميله أديسيوس - فإنهما كانا قد هربا خوفاً وفزعًا ، وجريا نحو شجرة باسقة فركعا تحتها وأخذا يصليان طالبين إلى الله أن يحميهما من فتك الأهالى بهما . وبعد أن انتهى الأهالى من قتل جميع من على المركب وسلب ما فيها ، وكانوا فى طريق العودة إلى بيوتهم حاملين غنائمهم وجدوا الشابين - فرومنتيوس وأديسيوس - راكعين تحت الشجرة . فأشفقوا عليهما وقدموهما هدية إلى الملك . وتوسم ذلك الملك فى عبديه هذين الاخلاص والذكاء فحررهما وأسند

---

(١) «حياة القديس أثناسيوس» للأبيه باربييه ص٨٣ ، ٩١ - ٩٣ ، «تاريخ الكنيسة القبطية» لمنسى القمص ص١٤٩- وأن انتخاب أثناسيوس مثل رائع على حق الشعب فى الانتخاب، وعلى أنه متى أعلن الشعب ارادته وضع الأساقفة أيديهم على من اختاره .

إليهما أمر تربية ولديه فقاما بما كلفهما به خير قيام حتى اصبحا موضع الثقة الملكية . وعند انتقال هذا الملك إلى عالم الأرواح عهدت الملكة إليهما بادارة شئون المملكة بمعاونتها - فكان عند حسن ظنها بهما ، وسهرا على تثقيف الأميرين حتى بلغا سن الرشد وفى تلك الفترة وجد فرومنتيوس وزميله أديسيوس الفرصة سانحة لنشر التعاليم المسيحية فى البلاد ولما بلغ الأميران رشدهما سلما إليهما مقاليد الحكم ثم استأذناهما فى العودة إلى بلادهما . فسمحا لهما بذلك . وعندها ذهب أديسيوس إلى صور ، وعاد فرومنتيوس إلى الاسكندرية مسقط راسه . وهناك ابلغ البابا أثناسيوس بكل ما كان ، طالبًا إليه أن يقيم للحبشة أسقفًا ليثبت شعبها فى الايمان المسيحى الذى نشره بها . فلم يجد الأنبا اثناسيوس من يليق بهذه الكرامة العظمى غير فرومنتيوس بالذات فرسمه أسقفاً على تلك البلاد سنة ٣١٨م ش (١) وزوده بالنصائح الأبوية وودعه بالتكريم والاعزاز . وعندما وصل فرومنتيوس إلى مقر رياسته خرج الأحباش إلى لقائه بين مظاهر الفرح والتهليل . وقد أطلقوا عليه لقب « أبون سلامة » (أى معلن النور) (٢) .

١٩٣- وما أن انتهى اثناسيوس من توديع فرومنتيوس حتى قام برحلة راعوية بدأت من الاسكندرية وانتهت بأسوان . فكان يتنقل فى بلاد القطر المصرى - يقضى يوماً هنا ويومين هناك حسب ما تقتضيه حاجة الشعب ، وكان حيثما حل يقابل الاكليروس والشعب بأسمى مظاهر الولاء والترحيب إذ كان الكهنة والشمامسة يرتدون ملابس الخدمة الكنسية ويحملون المجامر والشموع ويرددون الترانيم البيعية الخاصة بتكريم الأساقفة . وقد توثقت فى هذه الرحلة البابوية المباركة عرى المحبة بين الراعى والرعية وظلت هذه المحبة وثيقة مدى حياة الأنبا أثناسيوس .

---

(١) أى سنة ٣٢٦م غربية .

(٢) لا يزال هذا الاسم مستعملاً كلقب لمطران الحبشة (أو اثيوبيا) وتتم رسامته فى الكتدرائية المرقسية ويقوم البابا الاسكندرى بنفسه بهذه الرسامة . وفى حالة خلو الكرسى المرقسى لا يمكن رسامة مطران الحبشة (أو اى مطران آخر) . وكان المطارنة من عهد الأنبا أثناسيوس حتى سنة ١٩٥٠ من القبط ، وهم الآن من الأثيوبيين ولو أن الرسامة لا تزال تتم على يدى البابا المرقسى . راجع السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٣٨٨ .

وبينما كان البابا الاسكندرى منشغلاً بزيارة شعبه علم أن أريوس عاد إلى الشعب فى الاسكندرية . فبعث إلى معلمه الأنبا انطونى برسالة طلب إليه فيها أن يغادر عزلته ويقصد مع رهبانه إلى الاسكندرية ليقف فى وجه أريوس وأعوانه . فلم يسع الشيخ القديس إلا أن يلبى نداء باباه الذى هو تلميذه أيضاً وبادر إلى مقر الرياسة المرقسية فى جماعة من أبنائه الرهبان وأخذوا يقاومون البدعة ومبتدعيها . ولم يجرؤ أحد من خصومهم على الوقوف فى وجههم (١) .

١٩٤- إلا أن وقت السلام كان قد ولى وانتهى وجاء بعده وقت الخصام . فقد تظاهر أريوس بالتوبة وأقنع الامبراطور قسطنطين الكبير بذلك . فما كان من الامبراطور إلا أن بعث إلى البابا أثناسيوس يطلب إليه قبول أريوس فى الشركة المقدسة . فرفض البابا الاسكندرى هذا الطلب قائلاً : « إن من حرمه مجمع مسكونى لا يحله من الحرم إلا مجمع مسكونى آخر . لأن من يملك سلطان العقد هو وحده الذى يملك سلطان الحل » . فثارت ثائرة الامبراطور على أثناسيوس إذ كان يتوقع من الجميع الطاعة العمياء . فبادر أثناسيوس إلى نيقوميديا لمقابلة الامبراطور ، وهناك أعلمه بجلية الأمر ، وما زال به حتى أقنعه ببهتان ما يدعيه أريوس . فهدأت أعصاب الامبراطور وزود الأنبا أثناسيوس برسالة إلى الاسكندريين قال فيها : « اخوانى المحبوبين - أحييكم مستشهداً بالله الآب والرب يسوع المسيح أنى أحب السلام وأمقت الخصام ، وأنى فى حبى هذا متيقن بأن إلهنا إله سلام لا إله شغب فإن كنتم ترغبون فى مرضاتى فاتركوا الضغينة والحقد ولا يحمل أحدكم للآخر غير المحبة التى هى ميناء السلام . فالتخاصم والتراشق بالشتائم لا يليق بالمسيحيين إذ هو يجعلهم مضغة فى الأفواه . ولقد أقامنى الله - جل اسمه - لتوطيد السلام فى الامبراطورية فأرجو أن يتوطد فوق ذلك فى كنيسته . وقد تبادلت مع أثناسيوس باباكم العظيم المودة والاكرام كما تبادلت معه الآراء والنظريات وأنى بهذه المناسبة أعلمكم بأنه رجل الله حقاً لأنه يحب

(١) «بستان الآباء القديسين» لبلاديوس ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٦٠ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٥٩ - ٦٠ .

السلام ويتمسك بالعدل والايمان القويم . وأنى أحمله تحيتى إليكم فتقبلوها بسلام » (١) .

١٩٥ - وفى تلك الأثناء كان العمل جارياً فى بناء كنيسة القيامة بأورشليم . وكان قسطنطين يأمل أن يحضر حفلة تكريس هذه الكنيسة العظمى . ولكنه لم يشأ أن يترك عاصمته ونيران الشغب متقدة . وعلى الرغم مما أبداه الامبراطور من رغبة فى المحافظة على السلام . فإن انصار أريوس وميليتيوس الليكوبولى (الأسيوطى) ظلوا فى شغبهم ومخاصمتهم . فقد تآمروا مع أنصار أوسابيوس النيقوميدى الذى كان قد عاد من منفاه وتمكن من اقناع قسطنطين بأن أثناسيوس هو جرثومة البلاء فى البلاد . فخيل إلى قسطنطين أنه يقوى على أن يضع حداً لهذا الخلاف المستحكم الحلقات بدعوة الأساقفة إلى مجمع يعقده فى صور . وقد رفض أثناسيوس فى بادئ الأمر تلبية هذه الدعوة إذ قد استنتج أن الأغلبية الساحقة فى هذا الاجتماع ستكون من أنصار أوسابيوس النيقوميدى . غير أن الامبراطور لجأ إلى التهديد فأبلغ أثناسيوس بأنه أن لم يحضر هذا الاجتماع طوعًا حضره كرهاً . وأخذ أثناسيوس يوازن بين الذهاب إلى صور وبين التخلف عنه . فرأى - صوناً لكرامة الكهنوت الذى يعتز به ويعده خلافة رسولية مثلى - أن يذهب بدلاً من أن يدع الجند يجرونه جراً . وفى الوقت عينه أدرك أن واجبه يحتم عليه الذهاب للدفاع عن الايمان الذى يعتقده . فقصد إلى صور مستصحبًا معه تسعة وأربعين أسقفاً من أساقفة الكرازة المرقسية بينهم بفنوتى أسقف طيبة وبوتامون أسقف هيراقليا اللذان كانا قد حضرا مجمع نيقية مع الأنبا الكسندروس .

وكانت الغالبية فى هذا المجمع المزعوم (كما استنتج أثناسيوس) من المبتدعين والمنشقين . إلا أنه كان يوجد بينهم مئة أسقف من المتمسكين بدستور الايمان الأرثوذكسى وهؤلاء المئة - وغيرهم من الارثوذكسيين - كانوا يعدون كنيسة الاسكندرية « الكنيسة الأم » (٢) كذلك كانوا يعدون

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٦٠ - ٦١ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٧١ - ٧٢ حيث يقول :

" ... cent évêques qui reconnaissaient Alexandrie comme église - mère " .

الأسقف الاسكندرى المرجع الأعلى فى كل المسائل الكنسية العويصة . وقد ناصر هؤلاء الأساقفة الأنبا أثناسيوس ولكن جهودهم (فى الدفاع عنه) ضاعت سدى لأنهم كانوا اقلية فى مجمع صور .

١٩٦ - وما أن ادرك الأوسابيوسيون والأريوسيون إن الامبراطور قسطنطين قد وافق على عقد مجمع وحدد له موعداً حتى اخذوا يحيكون الدسائس لبطل الايمان . فاتفقوا مع أحد الأساقفة من أتباع ميليتيوس اسمه ارسانيوس على أن يختبئ فى أحد الأديرة المتوغلة فى الصحراء ويظل فيه إلى أن يخطروه بالخروج ثم بعثوا برسالة إلى الامبراطور يتهمون فيها أثناسيوس بأنه قتل ارسانيوس . فأرسل دلمانيوس أخو قسطنطين خطاباً إلى البابا الاسكندرى على الفور يطلب إليه أن يبرر نفسه من هذه التهمة ، وحين اطلع اثناسيوس على خطاب دلماتيوس أدرك عمق الهوة التى يريد خصومه أن يقذفوا به فيها . ولم تكن هذه التهمة فى حد ذاتها سبباً فى وجع قلبه بل أنه تلوى من الألم لمجرد تخيله أنها تلوث سمعة الكهنوت وتمس شرف الخلافة الرسولية وأحس فى الوقت عينه احساساً خفياً يؤكد له أن أرسانيوس لا يزال على قيد الحياة . فقرر أن يستشف خفايا هذه التهمة واثقاً من أن العناية الالهية لابد ناصرة إياه . فانتدب أحد شمامسته وعهد إليه مهمة البحث عن أرسانيوس قبيل مغادرته الاسكندرية متجهاً إلى صور .

١٩٧ - وكان اول عمل قام به هذا المجمع اللصى أن انتدب جماعة من ألد اعداء أثناسيوس الذهاب إلى مريوط بحجة التحقيق فى التهمة التى وجهها إليه ومؤداها أنه بدد بعض الأوانى المقدسة فى تلك المنطقة وقد ظل هذا المجمع الصورى عاقداً جلساته فى نفس الوقت الذى انتدب فيه ممثليه للتحقيق فى مريوط بدلاً من أن ينتظر تقاريرهم ، واخذ ينظر فى الجرائم التى حاكها مقدماً ضد أثناسيوس . وفى تلك الأثناء صحا ضمير ارسانيوس فلم يصبر على المتآمرين معه بل ترك الدير سراً وسافر لفوره إلى صور حيث قابل ارخلاوس المندوب الامبراطورى شخصياً وأطلعه على جلية الأمر . فاستودعه أرخلاوس بعض الضباط الثقاة وأخبر أثناسيوس وحده بما حدث . وفى اليوم التالى اجتمع المجمع ، ولم يكن خصوم البابا الاسكندرى ليعلموا بوجود أرسانيوس على مقربة منهم . وما أن بدأت الجلسة حتى قام

أحدهم وعرض على الحاضرين ذراعًا بشرياً ثم أخذ يصف باسهاب أنواع التعذيب التى ارتكبها أثناسيوس ضد أرسانيوس قبل الفتك به نهائيًا . ولم يكد ينتهى من هذا الوصف حتى ظهر بينهم ارسانيوس بشخصه . ولكن ما كاد أثر الصدمة لظهوره يتلاشى حتى قال المشتكى : « إن أثناسيوس ساحر يجيد السحر حقًا . أنه يخدعنا الآن ، كما يخدع السراب السارى فى الصحراء » . وأحدثت كلماته هذه ضجة من الاستياء استطاع أن ينسحب خلالها بسرعة من الجلسة وأن يختفى من مدينة صور (١) .

ومما يجدر ذكره هنا أن أرسانيوس لم يكتف باعلان توبته أمام المجمع بل قصد إلى البابا الاسكندرى معلناً ولاءه الصادق حين عاد إلى الاسكندرية ، وظل على ولائه هذا حتى آخر نسمة من حياته . وقد شاءت العناية الالهية أن تضاعف البركات لأثناسيوس على ما ابدى من بطولة فى الدفاع عن الأرثوذكسية فهيأت له الفرصة لأن يسمع بأذنيه توبة الخاطئ أرسانيوس ويرى بعينيه تحول الخصوم والأعداء إلى أنصار وأصدقاء .

ولم يثبط الفشل عزائم الأريوسيين والأوسابيوسيين إذ كانوا قد دبروا مؤامرة أخرى أشد قذارة من الأولى للايقاع بخليفة القديس مرقس تتلخص فى أنهم كانوا قد اتفقوا مع غانية فى المدينة معروفة للجميع لتحضر إلى المجمع وتدعى بأن أثناسيوس اعتدى على بكارتها . فأدخلوها إذ ذاك إلى قاعة الاجتماع حيث قررت ما تلقنته . وكان الراهب تيموثيئوس سكرتير الأنبا أثناسيوس جالساً إلى جانبه . فما أن سمع أقوال هذه الغانية حتى هب واقفاً من مكانه وابتدرها بالسؤال : « أصحيح ما تزعمين من أننى انا الذى اعتدى على عفافك ؟ » فجابهته على الفور بقولها : « انى لا أقول غير الصدق . انت – أنت – بعينك الذى زارنى خلسة ولم يستح من الاعتداء علىّ » . وهنا ضج الأساقفة بالضحك وابتهجت قلوبهم فمجدوا اللّه تعالى الذى ألهم تلميذ بطلهم الصنديد بهذا المسلك العجيب المبنى على المحبة الخالصة (٢) .

١٩٨ – وفى تلك الفترة كان مندوبو المجمع إلى مريوط قد عادوا إليه

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٧٢ – ٧٤ .

(٢) شرحه ص٧٢ .

يحملـون تلفيقاً جديداً بنى عليـه الأريوسيون الأسـباب لخلع أثناسيوس .

وكـان أرخلاوس أمين البـلاط الامـبـراطورى قـد رحل أثناسـيـوس إلى القسطنطينية(١) خشـيـة أن يبطش به خصـومـه وفى أحد الأيام بينمـا كـان الامـبراطور قسطنطين يجتاز شـوارع المدينة ممتطياً صـهوة جـواده اعترض طريقـه شـخص فى زى الكهنوت . ولم يعـرفـه الامـبـراطور فى بادئ الأمـر وأبدى استـيـاءه من جـرأة هذا الشـخص الغـريب وأراد أن يحـول حـصـانه إلى الجهة العكسية كى لا يجيب . ولكن أثناسـيوس احتفظ بهدوءه المعتـاد وقال : « إن الحكم بينى وبينك هو الله » . فعرفه قسطنطين من صـوته واستصحبه إلى قصره واستفسر عن كل مـا حدث . وقد أثر الحديث الذى دار بينـهما فى نفس الامـبـراطور تأثيراً جعله يبعث بخطاب إلى جـمـيع الآباء المجتمـعين فى صور طالباً إليهم الحضور إلى القسطنطينية فوراً(٢) فما أن وقف الأريوسيون وانصـارهم علـى الخطاب الامـبـراطورى حـتى أدركـوا أن كـل مـا اتهـمـوا به أثناسيوس لم ينطل على الامبراطور ، واتفقوا على تلفيق تهمة أخرى ضده.

١٩٩- وحالما مثلوا أمام الامبـراطور ابتدروا أثناسـيوس بتهـمة استـغلال نفـوذه لمنع تصـدير الغـلال من الاسـكندرية إلى القـسـطنطينـيـة ، وكـان لتلك التـهـمـة شـر الأثر فى نفس قـسـطنطين حـتى أنـه أمـر بنفى أثـناسـيوس إلى تريف (٣) وكان الموكب الذى أقل الأنبا أثناسيوس من القسطنطينية إلى تريف أشبـه بموكب الأبطال الظافرين . فحيثما حل كـان يقابل بالتجلة والاحترام من الأسـاقفة والشـعب . لأن الجميع كانوا يحيون فى شـخصـه بطل مجـمـع نيقية (المجمع المسكونى الأول) ، والمدافع الممتاز عن الأرثوذكسية .

وفى تريف التقى أثناسـيوس بأسقفها القديس مكسـيمينوس الذى رحب به وأبدى له كل اعجـاب بما وهبـه الله من جلد فى سـبـيل الدفـاع عن الايمان

---

(١) كـان قسطنطين قد اتخذها عاصمة له فاستبدل اسـمها القديم « بيزنطية » باسم القسطنطينية .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٧٢ - ٧٧ .

(٣) مـدينة على الحدود الفرنسـية البلجيكية ، وهى تابعة لفرنسا الآن . وكـان هذا أول نفي ذاقه بطل الأرثوذكسية ، وقد دام من سنة ٣٢٨ - ٣٣٠ م . ش .

الأرثوذكسي . ومما يجدر تسجيله أن وجود أثناسيوس في الغرب قد بعث في القلوب روح الاهتمام بالشئون الدينية ، فكان نقطة التحول عن المدنيات إلى الدينيات (١) .

٢٠٠ - ولما تجمع الأريوسيون والأوسابيوسيون في ابعاد أثناسيوس عن كرسيه الاسكندري سعوا في اعادة أريوس إلى حظيرة الكنيسة فادعوا لدى الامبراطور بأنه تاب فصدق ادعاءهم وأرسل إلى الكسندروس أسقف القسطنطينية يطلب إليه قبول أريوس في كنيسته . غير أن الحبر القسطنطيني أجاب الامبراطور بأن الذي جرده مجمع مسكوني من رتبة الكهنوت لا يملك حق اعادته إلى رتبته الكهنوتية غير مجمع مسكوني . فأهاج هذا الرد قسطنطين وأمر هذا الحبر الجليل بالسماح لأريوس بأن يقيم الصلاة في كنيسته أول يوم من أيام الآحاد . ومع أن الكسندروس كان شيخاً مسالماً إلا أنه كان شديد الحرص على الايمان الأرثوذكسي الذي أعلنه الآباء في نيقية . وقد تحرج ضميره لدى قراءة خطاب الامبراطور المتضمن حكمه بوجوب قبول أريوس في الشركة المقدسة . وحار في أمره : فهو لم يكن مستعداً لقبول أريوس في شركته ولكنه في الوقت عينه لم يرد أن يتعرض للغضب الامبراطوري . وكان يعقوب أسقف نصيبين في القسطنطينية إذ ذاك فاجتمع بالكسندروس في الكنيسة وأخذا يصليان كلاهما مدى الليل طالبين إلى الله أن يدرأ عن كنيسته ذلك البلاء . وكان ذلك في يوم الجمعة . وظل الأسقفان يصليان ويبتهلان حتى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السبت .

٢٠١ - وكان أريوس في تلك الأثناء يتعجل ساعة الفوز فأخذ يجوب شوارع القسطنطينية في موكب من أنصاره مزهواً متشامخاً . وإذا به عند

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٣ ص٧٧ - ٧٩ حيث يقول في آخر ص٧٨ ما نصه :

" Son séjour (Athanase) en Occident devait naturellement y attirer l'attention d'une manière plus particulière sur les erreurs ariennes. et c'est à dater de cette époque que les Eglises occidentales prirent une part plus directe dans les discussion " .

الساعة الثالثة يشعر بمغص شديد دفعه إلى دخول أحد المراحيض العامة حيث اندلقت أمعاؤه وانطرح على الأرض صريعًا وقد قررت التواريخ الكنسية أن الشعب القسطنطيني عد ما أصاب أريوس حكماً الهياً عادلاً . وما أن ذاع هذا النبأ حتى تنفس الناس الصعداء وهرعوا إلى الكنائس يرفعون صلاة الشكر إلى العلى القدير الذى صان كنيسته من شر هذا المبتدع الخطر .

اما أوسابيوس النيقوميدى وأنصاره من أعوان أريوس فقد أصابهم ذهول عنيف وبخاصة لأن الامبراطور قسطنطين شارك الشعب يقينه من أن مصرع المبتدع كان علامة من اللّه جل اسمه على رياء أريوس وتماديه فى غيه (١) .

٢٠٢- ولم يقف الاسكندريون مكتوفى الأيدى بازاء كل هذه الأحداث الجسام ، ولكنهم داوموا على الصوم والصلاة وشفعوا أصوامهم وصلواتهم برسالة بعثوا بها إلى الامبراطور قسطنطين يستعطفونه ليرد إليهم باباهم المحبوب . وقد دعم الأنبا أنطونى استعطافهم بأن كتب للامبراطور عدة رسائل دافع فيها عن تلميذه الذى أصبح باباه . ومع أن قسطنطين لم يستجب لاستعطاف أنطونى والشعب الاسكندرى إلا أنه أمر بنفى يؤنس الأسقف الميليتيوسى المشاغب .

٢٠٣- وكان قسطنطين الصغير ابن الامبراطور قسطنطين يعيش فى تريف فالتقى بأثناسيوس وتوثقت بينهما صداقة متينة . فكتب إلى أبيه مستشفعاً فى صديقه البابا الاسكندرى . وكان الامبراطور قسطنطين الكبير قد توهم أن اقرار السلام فى الشرق يتوقف على ابعاد أثناسيوس عنه . ولكنه لم يلبث أن أدرك فساد ما توهمه . فعزم على اعادته إلى كرسيه . إلا أن المنية لم تمهله فأوصى ابنه قسطنطين الصغير وهو على فراش الموت أن يعمل على اعادته إلى الاسكندرية محفوفاً بمراسيم الكرامة والتعظيم .

٢٠٤- وما ان انتقل الامبراطور قسطنطين الكبير إلى مساكن النور حتى انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى ثلاثة أقسام : الغرب وكان من نصيب

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٧٩ - ٨٠ .

قسطنطين الصغير ، وايطاليا وايلليريا وأفريقيا وكانت من نصيب قسطنس ، ثم مصر والشرق وكانا من نصيب قسطنطيوس . ومما يؤسف له أن قسطنطيوس امبراطور الشرق لم يلبث أن اغتال شقيقه قسطنطين الصغير امبراطور الغرب وبذلك انحصرت الامبراطورية الرومانية فى قسمين اثنين فقط : الغربى وعاصمته رومية ، والشرقى وعاصمته القسطنطينية .

٢٠٥- ورغم قصر المدة التى حكم فيها قسطنطين الصغير فإنه بادر بالغاء حكم النفى الصادر من والده ضد أثناسيوس ، وأعاده إلى كرسيه مبجلاً معظماً . وكتب رسالة بعث بها إلى الشعب الاسكندرى قال فيها : « لا اخالكم أيها الاسكندريون إلا عالمين أن أثناسيوس دكتور الشريعة المبجلة لم ينف إلى تريف إلا لمدة قصيرة . وكان الباعث على هذا النفى المحافظة على حياته الغالية وشل أيدى الأشرار عن الوصول إليه . وليس أدل على ذلك من أن والدى قد نفاه إلى المدينة الزاهرة التى كنت أعيش فيها أنا والتى لقى فيها منى ومن الجميع كل اكرام واعزاز . وكان والدى - طيب الله ثراه - ينوى أن يعيده إلى عاصمة رياسته بكل حفاوة لو لم تعاجله المنية . وقد أوصانى - بوصفى خليفته - أن أنفذ ما كان ينتويه . وها أنا أعمل بوصيته وأعيد إليكم أسقفكم البابا المبجل . وأنى أشاطركم ما تكنونه لهذا البطل العظيم من محبة واجلال ، معترفاً بأننى لم أقو على مقاومة جاذبيته . وختاماً أدعو الله أن يتولاكم برعايته » (١) .

وحين علم الشعب الاسكندرى بمضمون هذا الخطاب فرح فرحًا عظيمًا . فأقيمت الزينات فى جميع أنحاء القطر المصرى ، وباء الأريوسيون والأوسابيوسيون بالفشل - وكانوا يحاولون اقامة أسقف دخيل للاسكندرية بسرعة أملين بذلك أن يحولوا دون عودة أثناسيوس إلى اعتلاء سدته . ولكن الشعب الذى كان يتوق إلى رؤية راعيه الجليل كما تتوق الأيائل إلى مجارى المياه (٢) قد أحبط مسعاهم .

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٩٨ - ١٠٠ .

(٢) مزمور ٤٢ : ١ .

ولما حان وصول الركب البابوى إلى الاسكندرية غصت المدينة بالأساقفة الذين توافدوا عليها من ليبيا والخمس مدن الغربية وجميع أنحاء القطر المصرى ، كما غصت بجماهير الشعب من مختلف الطبقات . وقد انتهز الأساقفة هذه الفرصة فبعثوا برسالة دورية إلى أساقفة المسكونة أدحضوا فيها كل ما ادعاه الأريوسيون فى مجمع صور اللصى ضد أثناسيوس وكشفوا النقاب عن المؤامرات الأوسابيوسية الدنيئة [1] .

وهكذا رفرف السلام على ربوع كنيسة الاسكندرية .

٢٠٦- وانتهز الأنبا أثناسيوس هذه الفرصة السانحة فقام بزيارة راعوية ثانية . وقد وصل فى هذه الرحلة إلى أسوان أيضًا وكان الشعب يرقب المركب التى تقله حتى إذا ما رست هرعت الجماهير لتؤدى التحية إلى البطل المجاهد الذى لم يفت فى عضده بطش الحكام ومؤامرات الخصوم . وكان أثناسيوس بدوره يقضى الساعات أو الأيام (تبعًا لمقتضيات الضرورة) حيثما رسا . ولما اقترب من منطقة أسوان خف باخوم ورهبانه لاستقباله حاملين المجامر والشموع مترنمين بالمزامير والألحان . فكان تنقل البابا الاسكندرى إذ ذاك أشبه بتنقل الرسل بين الشعوب فألهب القلوب بنار الايمان الوطيد وملأها سعادة .

٢٠٧- غير أن السلام لم يدم طويلاً لأن خصوم أثناسيوس أدركوا أن وجوده حرًا طليقًا وسط شعبه سيثبت النفوس الخائرة ويشدد العزائم المسترخية . كذلك أدركوا أن الرياسة الحقة مركزة فيه - فإن شاءوا أن ينتزعوا منه هذه الرياسة وجب عليهم أن لا يغفلوا عنه لحظة وراعتهم المحبة المتدفقة نحوه من جميع القلوب فعاودوا مؤامراتهم ومكايدهم ولكنهم اضطروا أن ينتظروا ريثما ينتهى الامبراطور قسطنطيوس من زيارته إلى مختلف مدن آسيا الصغرى . وقد لازمه فى هذه الزيارة أوسابيوس النيقوميدى الذى استطاع بتملقه ومعسول حديثه أن يظفر بكرسى القسطنطينية فأصبح بذلك الأسقف المقرب إلى الامبراطور . فلما استتب له الأمر بالفعل صحب الامبراطور قسطنطيوس فى رحلته إلى أنطاكية لتكريس

---

(١) أثناسيوس : رسالته ضد الأريوسيين ٣ وما يليها .

كنيسة كان والده قسطنطين الكبير قد وضع أساسها وقد دعا هذا الأسقف الماكر تسعين أسقفاً بحجة مؤانسة الامبراطور ، ولكنه كان يضمر الشر لأثناسيوس خصمه الجبار . فلما تجمع فى انطاكية هذا العدد الكبير من الأساقفة قرروا أن يوجهوا اللوم إلى البابا الاسكندرى لاسراعه فى العودة إلى كرسيه قبل أن يحصل على قرار مجمعى بذلك . وتدعيماً لهذا القرار بادروا إلى فرض غريغوريوس الكبادوكى على كرسى الاسكندرية .

٢٠٨- على أن هؤلاء الأساقفة قد زاغوا عن الحق مرة أخرى لأنهم كانوا أول من تعدى القوانين الكنسية ففقدوا حقهم فى الدفاع عنها . وأول جريرة ارتكبوها كانت تأييدهم للمبتدع أريوس ناكر لاهوت المسيح . ولم يكفهم هذا بل دبروا المؤامرات الدنيئة للايقاع بأثناسيوس وافتروا عليه . فأعمالهم دانتهم . لأن الدينونة - كما قال المخلص - هى أن النور قد جاء إلى العالم واحب الناس الظلمة اكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة (١) . ومن يكن فى الظلمة لا يستطيع الحكم على من هو فى النور . هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الحكم الذى أصدره الامبراطور قسطنطين الكبير بنفى أثناسيوس مبنياً على أنه منع الغلال عن القسطنطينية فلم تكن له أية صلة بالقوانين والعقائد الكنسية . ثم أن القرار بتنصيب غريغوريوس الكبادوكى على الكرسى الاسكندرى كان اعتداء على القوانين الكنسية التى زعموا أنهم حماتها . فقد كفل القانون السادس لمجمع نيقية استقلال البابا الاسكندرى وحقه فى التصرف فى حدود اختصاصاته . وهذه الاعتداءات المتكررة على ايمان الكنيسة وقوانينها جعلت الكنيسة الجامعة تعد مجمع صور مجمعاً لصياً لا قيمة لقراراته (٢) ، ومن ثم كان أثناسيوس على حق فى عدم الإذعان لحكمه . فكانت عودته من تريف إلى الاسكندرية لا غبار عليها اطلاقاً (٣) .

---

(١) يوحنا ٣ : ١٩ .

(٢) «حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص١٣١ - ١٣٢حيث يقول:

" Alors s'ouvrirent, dans un concile d'évêques, les grandes assises de l'iniquité, debats solennels où l'impudence confondue relève la tête après chaque soufflet essuyé, et s'acharne à montrer des crimes dans l'âme pure d'un saint

(٣) « تاريخ المجامع » للمنسنيور هيفليه جـ١ ص٤٤١ - ٤٤٤ ، ٤٥٢ - ٤٦٢ .

٢٠٩- وقد وقع قرار هؤلاء الأساقفة على الشعب الاسكندرى وقوع الصاعقة وما كاد يستفيق من هول الصدمة حتى ثارت ثائرته فقرر اقامة الحراس حول الدار البابوية ليل نهار وكلما خرج الأنبا أثناسيوس للصلاة كان الشعب يتجمهر للمحافظة عليه ووقايته كل غائلة . فإذا ما دخل الكنيسة ليقوم بالشعائر الدينية غصت بالشعب حتى الباب . وكان الجميع يصلون ويتوسلون بحرارة متزايدة . وكانت صلواتهم تمتزج بدموعهم وتنهداتهم . وساد الجميع شعور بالتوتر والترقب إذ أحسوا بأنهم على أبواب ثورة دموية . وكان أثناسيوس وسط هذا التوتر محتفظاً بهدوءه المعتاد وصفائه القلبى ، وظل مشتغلاً بتعليم شعبه وتخفيف حدة ما يعانيه من انفعالات عنيفة .

وكان الأريوسيون يشعرون بأن يوم الصدام آت لا ريب فيه . فكانوا يتأهبون لذلك اليوم فى الخفاء . ثم حل الأسبوع المقدس - أسبوع آلام الفادى الحبيب - فكانت الكنائس تغص بالمصلين المبتهلين فى حرارة إلى اللّه بأن يرفع هذه الغمامة عن كنيسته .

٢١٠- وبينما كان المصلون فى الكنيسة فى احدى ليالى هذا الأسبوع المقدس سمعوا دق الطبول ايذاناً بوصول غريغوريوس الكبادوكى إلى الاسكندرية تصحبه قوة من الجيش بقيادة فيلاجريوس الوالى . فاقتحموا الكنائس وهم على ظهور خيولهم وداسوا من داسوا ثم أعملوا السيوف فى رقاب الباقين . فكانت مذبحة ضجت منها الأرض واقشعرت السماء ، وجرت الدماء أنهاراً فى الشوارع وداخل الكنائس .

٢١١- وفى تلك الأيام العصيبة التى سادها الهول وملأتها ظلمة القلوب المتحجرة كانت العيون كلها متجهة نحو أثناسيوس : فالمؤمنون كانوا يرقبونه فى شغف ولهفة ويبتهلون إلى اللّه أن يحفظه ، ويحرسون مداخله ومخارجه ، والأريوسيون كانوا يشتهون الفتك به والقضاء عليه . ورغم الخطر المحدق به فإن أثناسيوس ظل فى الاسكندرية لأن كل منزل فيها كان مأوى أميناً له وكل شخص درعاً متيناً . فكان يتنقل فى أنحاء المدينة شاعراً بالطمأنينة التامة . والواقع أن جهود الأريوسيين فى الظفر به ذهبت أدراج الرياح مع أنه بقى وسط شعبه الأمين إلى يوم عيد القيامة لأنه أصر على أن

يحتفى بهذا العيد المجيد مع شعبه الوفى موقناً أن القيامة هى الضمان الذى قدمه الله تعالى على نصرة الحق وسحق الشر فهى بذلك مبعث الأمل فى النفوس . فعيّد الجميع معاً وتشاركوا بهجة القيامة رغم الأحداث المزعجة . ثم غادر أثناسيوس الاسكندرية نزولاً على الحاح شعبه وتوسله إليه بتفادى الخطر .

٢١٢– ولما وجد الأريوسيون أنفسهم عاجزين عن الفتك بأثناسيوس إزدادوا طغياناً ، فأذاقوا الشعب الوفى للبابا الاسكندرى ما أذاقه ديوقلديانوس لآبائهم وأجدادهم .

٢١٣– ولم يكفهم الفتك بالشعب بل زادوا عليه ترويج الافتراءات على أثناسيوس صخرة الأرثوذكسية الذى كان قد غادر مصر ولجأ إلى فلسطين . ومن هناك بعث برسالة دورية إلى أساقفة المسكونة ضمنها دفاعاً مجيداً عن نفسه وعن كنيسته وطالبهم فيها بالوقوف إلى جانبه ومجابهة العدو المشترك . ولقد شبه أثناسيوس نفسه بذلك اللاوى الاسرائيلى الذى عندما اغتصب أعداؤه امرأته وأذاقوها كأس المنون قسم جثتها إلى اثنى عشر جزء وبعث بهذه الأجزاء إلى أسباط اسرائيل الاثنى عشر فهبوا جميعاً للدفاع عن شرف لهم أهين فى شخص ذلك اللاوى (١) . وقد أثار هذا الدفاع غضب قسطنطيوس امبراطور الشرق وأضرم فؤاده بنار الحقد على هذا البابا الذى جمع بين الجرأة والبراءة . فلم يجد أثناسيوس بداً من أن يلجأ إلى امبراطور الغرب شاكيًا وقلبه يطفح حزناً وألماً . فغادر فلسطين وارتحل إلى رومية وعلى الرغم مما كان يساوره من هم وغم فقد كان واثقاً من أن شعبه سيظل وفياً لإيمانه الأرثوذكسى صامداً فى وجه كل تعذيب وتنكيل .

٢١٤– وما أن عرف الأريوسيون أن أثناسيوس قد غادر الاسكندرية حتى أصدروا أوامر مشددة بمنع رجال الاكليروس الأرثوذكسى من اقامة الشعائر الدينية ومن مباشرة زياراتهم الراعوية غير أن الشعب على بكرة أبيه قد آثر أن يحرم من الصلاة وأن يحرم أولاده من الصبغة المقدسة وأبناؤه المنتقلون من كل ترحيم على أن يشترك فى جريمة الصلاة مع ذلك الأسقف الدخيل

---

(١) قضاة ١٩ : ٢٩ .

وانصاره الأريوسيين لأن عواطفه كانت تتخطى حدود بلاده متجهة صوب نهر التيبر (١) حيث يقيم أسقفه الشرعى المحبوب .

٢١٥- وقد رأى غريغوريوس امعاناً فى الانتقام من المصريين الأوفياء أن يقوم بزيارة راعوية فى أنحاء القطر المصرى فكانت المذابح والمجازر تحل حيثما حل . وكانت العبارة التى تردها جميع الألسن هى : « فلنتقبل كل ألم ولنرحب بالموت إذا ارتضت الضرورة فى سبيل المحافظة على إيماننا الأرثوذكسى ، ولنضح بالنفس والنفيس دون مشاطرة المبتدعين صلاتهم » .

ولما وصل غريغوريوس إلى مدينة هيراقليا التقى بأسقفها الشيخ القديس بوتامون الذى كان قد ذاق الأمرين فى اضطهادات مكسيميانوس للمسيحيين . وكان هذا الشيخ الوقور قد اشتهر فى مجمع صور بدفاعه الجرئ عن أثناسيوس العظيم . فحاول غريغوريوس أن يثنيه عن ثباته على الاخلاص لأثناسيوس ففشل فى محاولاته . وعند ذاك أمر جنده بجلده وتركه مثخناً بجراحه . وحالما وقف المؤمنون على ما حدث جاءوا ورفعوه فى حنان ورفق إلى فراشه واعتنوا به حتى فاضت روحه بين يدى الآب السماوى الحنون .

٢١٦- وبينما كان اصدقاء أثناسيوس يكابدون صنوف الآلام التى كانت تنتهى أحياناً بالموت ، كان غيرهم يسارعون إلى الدفاع عنه . وقد دعا حرج الموقف الأنبا أنطونى أبا الرهبان إلى أن ينزل إلى الميدان . فترك عزلته وقصد مع رهبانه إلى الاسكندرية . وحين ظهر فى شوارعها لم يجرؤ أحد على أن يمسه بسوء أو يمس أحداً من رهبانه . وقد وقف فى الميدان وتحدث إلى الجماهير المحتشدة بلغته المصرية البسيطة الصادرة عن قلبه المليئ بالمحبة فعزى قلوب المؤمنين المخلصين وأخجل الخوارج منهم بما أبداه من سخط عليهم (٢).

٢١٧- ولكن ماذا كان أثناسيوس يعمل فى هذا المنفى الاختيارى ؟ كانت أعين المسيحيين فى المسكونة بأسرها متجهة نحوه لأنه كان فى نظرهم

---

(١) نهر يجتاز مدينة رومية .

(٢) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص١٨٤ - ١٩٢ .

الصخرة التى لم تقو عليها أبواب الجحيم (١) والأساس المتين الذى تقوم عليه الكنيسة . ولقد التقى فى رومية بعدد جزيل من الأساقفة الغربيين الذين جاءوا تلبية لدعوة يوليوس أسقف هذه العاصمة . وكان بعض هؤلاء الأساقفة يبدون كل تقدير لأثناسيوس ، بينما كان البعض منهم من أصدقائه المخلصين . ولم يلتق أثناسيوس فى رومية بأساقفة شرقيين غير الذين اضطهدهم الأريوسيون لانتمائهم إليه ودفاعهم عنه . وقد رأى يوليوس أسقف رومية أن يعقد مجمعًا مكانيًا للتداول فى الخلاف القائم بين أثناسيوس وبين خصومه . وكان يوليوس قد دعا إلى المجمع الأساقفة الأريوسيين أيضًا . ولما لم يحضروا فى الميعاد المعين عقد مجمعه دون أن ينتظرهم .

٢١٨–ولم تطل المداولة بين آباء هذا المجمع لأن امتناع خصوم أثناسيوس من الحضور ، ووجوده وهو ثابت الجنان قوى الحجة يسطع نور الحق من جبينه ، تعززه شهادات الاكليروس المصرى التحريرية والشفوية ، والتقارير التى وردت على المجمع من مختلف أرجاء المسكونة : كل هذه الوقائع دلت دلالة قاطعة على براءة البابا الاسكندرى وادانة خصومه . فأعلن آباء هذا المجمع الرومانى بالاجماع قبولهم أثناسيوس فى شركة الكنيسة الجامعة (٢) .

٢١٩– ولقد بعث هذا المجمع الرومانى برسالة إلى الأريوسيين والأوسابيوسيين ضمنها قراره ببراءة أثناسيوس وادانتهم . ومن ثم كتب يوليوس أسقف رومية رسالة لها قيمة تاريخية نطقت بما يدحض ما يزعمه أسقف رومية اليوم من سلطان مطلق معصوم . فقد قال : « من يوليوس إلى دانيوس وفلاكيلوس ونارسيسوس وأوسابيوس وماريس ومقدونيوس وتيئودورس وأصدقائهم الذين كتبوا إلينا من أنطاكية والذين هم لنا أخوة محبوبون – السلام من الرب . قرأت رسالتكم التى أوصلها إلى القسيسان

---

(١) رثاء غريغوريوس النزينزى لأثناسيوس الرسولى فى الذكرى السادسة لانتقاله إلى الأخدار السماوية . مقدمة الجزء الأول من كتاب « أثناسيوس العظيم » (بالفرنسية) لجان آدم مولر .

(٢) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص١٩٤ – ١٩٦ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص١١٢ – ١١٣ .

ألبيديوس وفيلوكسينوس فدهشت للغاية إذ قد لاحظت أنكم أجبتموني بحنق واستهتار مع أن رسالتي إليكم تطفح مودة للحق . ولاحظت أيضاً في ما كتبتم التشامخ والكبرياء اللذين تبرأ منهما المسيحية . وقد لاحظت فوق ذلك أن صورة الغضب تتخلل سطور الرسالة جميعاً . فإن كان كاتب هذه الرسالة قد أراد أن يدلل على ما أوتي من فصاحة فكان الأولى به أن يلجأ إلى تلك الفصاحة في مناسبات أخرى ، وعندي أن القضايا الكنسية يجب الرجوع في شأنها إلى القوانين الرسولية لا إلى الفصاحة اللسانية . وإن كان قد راق بعضكم أن ينساق وراء شيطان الغضب فكان الأولى به أن يذكر قول الكتاب (لا تغرب الشمس على غضبكم) (١) .

« وإني لا أدري ما الذي أغضبكم من رسالتي - أهي دعوتي إياكم لحضور المجمع ؟ إن كان الأمر كذلك فاعلموا أن الذين يثقون بعدالة تصرفاتهم لا يخيفهم أن تفحص هذه التصرفات . لهذا نرى أن مجمع نيقية العظيم قد صرح بمناقشة قرارات المجامع المكانية التي سبقت انعقاده وباكسابها الصبغة المسكونية . فالتقاليد التي أقرتها الكنيسة ممثلة في مجامع لا يملك نسخها أفراد مهما كانت مكانتهم » .

وقد ختم يوليوس رسالته هذه بقوله لهؤلاء الأساقفة المبتدعين : « إن ما تطمعون فيه من موافقتنا إياكم على ما تقرون دون أن تطلعونا على الأسباب التي بنيتم عليها هذه القرارات ضرب من المحال . لأن هذا يناقض التقليد الذي علمنا إياه بولس الرسول ونادى به آباء الكنيسة . فأرجو منكم أن تمعنوا الفكر في ما كاتبتكم به لأنني إنما أهدف إلى التعبير عن تعليم الآباء . لهذا أذكركم بما أسلفناه من أقوال بطرس الرسول (٢) . وما كنت أكتب إليكم لولا الأحداث الجارية الآن : فهناك أساقفة منفيون من كراسيهم التي اغتصبها الدخلاء . وهناك مؤمنون مضطرون إلى الاعتراف بمن لا يريدونه من الأساقفة المفروضين عليهم . وكل هذا لا يؤدي إلا إلى التنابذ البغيض آمل أن تضعوا حداً لهذه المهاترات حتى يعود السلام إلى الكنيسة ، وحتى لا نصبح

---

(١) أف ٤ : ٢٦ .

(٢) من الملاحظ هنا أن أسقف رومية قدم بولس على بطرس في رسالته .

مضغة فى أفواه الوثنيين . كما أمل أن تقضوا حياتكم فى سلام من الرب » (١) .

على أن هذا الخطاب الملئ بالحكمة والسداد لم يلق أذناً صاغية من الأساقفة الشرقيين الذين أصروا على أنه مجرد خطاب فردى وليس خطاباً مجمعياً .

٢٢٠- ولما كان الأنبا أثناسيوس يرى أن الاضطراب مازال يسود الشرق لم يعد إلى بلاده المحبوبة وشعبه الأبى استناداً إلى قرار المجمع الرومانى بل ظل مقيماً فى رومية حتى تهدأ الحال . وكان فى تلك الأثناء يقضى وقته فى الدراسة وغرس بذور الايمان الأرثوذكسى . وقد عمل نفوذه فى نفوس أشراف الرومانيين عمل البرق لأنهم وجدوا فى حياة النسك الممثلة فى ذاته الكريمة ما يتوقون إليه من كرامة التضحية وتحرر الروح . فتحولت قصورهم ما بين ليلة أو ضحاها إلى ما يشبه الصوامع . ومن أقوى الأسباب فى اجتذاب الأشراف الرومانيين إلى الحياة النسكية ما لاحظوه على أثناسيوس من بساطة متناهية فى الملبس والمظهر ، ومن عدم الكلفة رغم مكانته الكنسية العليا . فلقد أدهشتهم هذه البساطة إلى حد جراهم على سؤاله عنها فأجابهم : « هذه الملابس منقولة عن الملابس التى يرتديها معلمنا المبارك الأنبا أنطونى لأننا نقتدى به » (٢) . فاستثارت اجابته كوامن رغباتهم وأعربوا عن ميلهم إلى معرفة هذه الشخصية العجيبة . واستجاب البابا الاسكندرى لرغبتهم وشوقهم فكتب لهم «حياة القديس انطونيوس» .

٢٢١- وهكذا كان وجود أثناسيوس فى رومية مبعث ثروة روحية للغرب بأسره . فقد تداول أساقفته تعاليم هذا البابا المصرى وكتاباته حتى بلغ صيته قسطنطس امبراطور الغرب . فبعث إليه برسالة يرجو منه فيها أن يفسر له الأسفار الإلهية . فلم يتوان أثناسيوس فى القيام بما طلب إليه ،

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص١١٢ - ١٣٢ .

(٢) الاحتجاج الثانى لأثناسيوس الرسولى ومما تجدر الاشارة إليه هنا أن رحالة انجليزى اسمه ليدر كتب كتاباً أسماه « أولاد الفراعنة الحاليون » أعرب فيه عن هذه الدهشة عينها للبساطة المتناهية فى الملبس والمظهر التى يتحلى بها خليفة مارمرقس.

وبعث للامبراطور قسطنس بخلاصة وافية لتفسير جميع أسفار العهدين القديم والجديد . وقد أعجب قسطنس بهذه الخلاصة فدعا أثناسيوس إلى زيارته فى البلاط الامبراطورى بميلانو . وقد أثارت هذه الدعوة الحيرة فى نفس أثناسيوس لأنه يخضع لامبراطور الشرق ، فخشى أن يثير غضبه إن هو لبى دعوة الامبراطور الغربى فتؤدى زيارته إلى زيادة الاضطراب فى الكنيسة . غير انه بعد أن وازن الأمور وفكر فيها ملياً امتلأت نفسه أملاً فى أن تعود هذه الزيارة بالخير على الكنيسة إذا استطاع هو أن يقنع الامبراطور قسطنس بالايمان الأرثوذكسى الذى أعلنه الآباء فى نيقية . وبعد أن أمعن فى التفكير وصلى طويلاً قرر قبول الدعوة الامبراطورية فذهب إلى ميلانو حيث لاقى كل اعظام وتبجيل . وقد اقتضى ما امتاز به أثناسيوس من حكمة أن لا يشير إلى امبراطور الشرق من بعيد أو قريب لأنه كان يعلم أن كل بلاط يموج بالأعين المترقبة والآذان التى تسترق السمع والألسنة المستعدة للكلام ، وأن المنزلقين مستعدون للتقرب إلى السلطان بما يحملون إليه من احاديث . ولم يكتف أثناسيوس بالصمت التام حول الامبراطور قسطنطيوس بل انه كان كلما دعاه الامبراطور قسطنس لمحادثته يستصحب معه فورتيناثوس أسقف أكويلا ، كريسيين أسقف بادوا ، لوسيليوس أسقف فيرونا ، ديونيسيوس أسقف لودى ، هوسيوس أسقف قرطبة ، هيلاريوس أسقف بواتييه ، مكسمينيوس أسقف تريف ، وبروتاييس أسقف ميلانو حتى لا يشيع عنه خصومه اقوالاً لم يقلها . ولقد تحقق بعد نظر هذا البابا الاسكندرى العظيم فيما بعد لأنه كان كل مرة يتهمه خصومه بما لم يقله فى حضرة قسطنس يستشهد بهؤلاء الأساقفة العلماء المبجلين .

٢٢٢- وقد أثر أثناسيوس فى نفس الامبراطور قسطنس أثراً بليغًا فوعد بأن يبذل كل ما فى وسعه لاعادة البابا الاسكندرى إلى كرسيه وتوطيد السلام فى كنيسته .

ولما سمع أثناسيوس هذا الوعد من قسطنس ذكره بما كان لأبيه من مجد لا يساوى قائلاً : « إن بدعة أريوس لم تظهر فى الوجود حتى أتاح اللّه لها رجلاً وقف فى وجه أنصارها بأن جمع أساقفة المسكونة فى مجمع نيقية فقضوا عليها وعلى مبتدعيها . وهذا الرجل هو والدكم العظيم قسطنطين

الكبير » . وبمثل هذه الكلمات الحكيمة استثار أثناسيوس قسطنطس إلى أن يحرر لأخيه رسالة الغرض منها تمهيد الطريق للمصالحة .

وقد وصلت رسالة قسطنس إلى أخيه قسطنطيوس فى الآونة التى كان فيها هذا الامبراطور الشرقى يوجس خيفة من ازدياد الاضطراب فى امبراطوريته فاتفق الشقيقان على أن يعقدا مجمعًا فى سرديكا لأن هذه المدينة كانت الحد الفاصل بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية (١) .

٢٢٣- ومن حسن الحظ أن رغبة الامبراطورين فى عقد مجمع قد صادفت هوى فى جميع النفوس . فلقد تلفت الأريوسيون شرقًا وغربًا وراعهم نفوذ أثناسيوس المتزايد على مر الأيام رغم النفى والتشريد . فاستقر قرارهم على أن يرسلوا مندوبيهم إلى أسقف رومية أملاً فى اقناعه بالانضمام إلى صفوفهم . فلما وصل المندوبون الأريوسيون إلى عاصمة الامبراطورية الغربية التقوا بعدد غير قليل من رجال الاكليروس المصريين كانوا قد وفدوا عليها يحملون رسالة دورية من أساقفة الكرازة المرقسية تتضمن دفاعهم الاجماعى عن أثناسيوس بطل الايمان الأرثوذكسى . ولما التقى الفريقان أخذا يتناقشان . وأحس الأريوسيون بأنهم عاجزون عن الرد على جميع الحجج الدامغة التى قدمها المصريون ، فاقترحوا عقد مجمع ووافقهم المصريون على اقتراحهم . وهكذا كان الرأى على عقد مجمع اجماعياً . وبما أن الامبراطورين الشقيقين (قسطنس وقسطنطيوس) كانا على أتم استعداد للاستجابة إلى هذا الاقتراح فقد بعثا برسائل الدعوة إلى جميع الأساقفة طالبين إليهم الاجتماع فى سرديكا .

٢٢٤- وما أن وصلت الدعوة إلى الأساقفة حتى هرعوا إلى سرديكا وقد بلغ عددهم المئتين واختير هوسيوس رئيسًا لهذا المجمع (٢) إذ كان أكبر الأساقفة سناً كما كان قد ترأس مجمع نيقية . وقد أناب عنه فى هذا المجمع

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص١٩٩ - ٢٠٥ .

(٢) يلاحظ ان الأساقفة ساروا على خطة آباء مجمع نيقية فاختاروا هوسيوس رئيساً للمجمع السرديكى مع أنه أسقف مدينة متواضعة فأثبتوا بذلك تمسكهم بتعاليم الفادى الحبيب . وبالمبدأ الذى ينص على أن الأسقفية كرامة فى حد ذاتها لا يزيدها المجد العالمى رفعة .

القسيسين أرشيداموس وفيلوكسينوس (١) . وكان الأوسابيوسيون قد وصلوا إلى سرديكا قبل موعد انعقاد المجمع ، ولكنهم عندما علموا أن كنائس الشرق كلها ممثلة فى هذا المجمع ، وأن أثناسيوس يحضره بنفسه ، وأن أثنين من زملائهم الأساقفة قد خرجا عليهم وانضما إلى أنصار خصمهم العنيد ، وأن جميع القرارات التى وصلت إلى سرديكا تقر تعليم أثناسيوس الأرثوذكسى ضد بدعتهم الأريوسية : عندما وجدوا هذا كله أوجسوا خيفة من أن تدور الدائرة عليهم وأبوا حضور ذلك المجمع ورجا منهم هوسيوس أن يحضروا فأصروا على الرفض . وحين أفهمهم آباء المجمع أن تنفيذ رغبة الامبراطورين تقتضى حضورهم استمروا فى عنادهم . وهنا لم ير أثناسيوس بدا من أن يرجو من خصومه أن يحضروا تلبية لدعوة المجمع فلم يقابلوا هذا الرجاء بغير الرفض مما اضطر أثناسيوس إلى أن يتحداهم بقوله لهم انه لن يتردد فى أن يسجل عليهم الافتراء الشائن والكذب الصارخ فقابلوا تحديه بالصمت التام وأخذوا يفكرون فى عذر ينتحلونه لمغادرة سرديكا . وفى أثناء هذه المحاولة وصلت إلى المجمع رسالة من الامبراطور قسطنطيوس يعلن فيها نبأ انتصاره على الفرس . وقد رأى الأوسابيوسيون فى منطوق هذه الرسالة الفرصة التى يترقبونها وغادروا سرديكا مدعين أن وجودهم فى الشرق ضرورى فى هذا الظرف ليشاركوا امبراطورهم احتفاءه بهذا النصر المبين (٢) وهكذا تخلفوا عن حضور مجمع سرديكا الذى فقد صبغته المسكونية لامتناع أساقفة الشرق من الاشتراك فيه . غير أن هذا الانسحاب الذى ينوه على وجوب الاحتفاء بالنصر الامبراطورى لم يمنعهم من الاجتماع فى فيلوبوبوليس وهم فى طريق العودة إلى الشرق ، وأن يعلنوا خلع أثناسيوس وأنصاره من كراسيهم الأسقفية .

أما آباء سرديكا فبدأوا جلساتهم مستهلين إياها بتأييدهم دستور الايمان الأرثوذكسى الذى سنه مجمع نيقية المسكونى الأول الذى يبدأ بكلمات : « نؤمن بإله واحد ....» وينتهى بكلمات « نؤمن بالروح القدس » .

---

(١) « حياة القديس اثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص١٣٩ . « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٠٧ - ٢٠٩ .

ثم أعلنوا حرمهم لجميع الأساقفة الدخلاء وهم غريغوريوس الكبادوكى مغتصب كرسى الاسكندرية ، ومعه مغتصبى كرسى أنسيرا (أنقرة) وغزة . وأتبعوا هذا الحرم بأن سنوا عشرين قانوناً أسوة بقوانين مجمع نيقية العشرين . ومع أن قوانين المجمع السرديكى مقبولة لدى مختلف الكنائس إلا انها تعدها ضمن قوانين المجامع المكانية لأنها لا تعد مجمع سرديكا مسكونياً لتخلف أساقفة الشرق عن حضوره . ولو لم يتخلف هؤلاء الأساقفة الشرقيون عن حضوره لكان ثانى المجامع المسكونية .

٢٢٥- وبعد الانتهاء من جلسات هذا المجمع بعث آباؤه إلى أساقفة الكنيسة الجامعة الرسولية برسالة دورية تضمنت عرضاً موجزاً لحالة الكنيسة ثم أردفوا ذلك بقولهم : « ... إن حالة الكنيسة فى الوقت الحاضر دعت الامبراطورين التقيين قسطنس وقسطنطيوس إلى عقد مجمع دعينا إليه بنعمة اللّه للعمل على نشر السلام بين ربوع الكنيسة . ونزولاً على رغبة هذين الامبراطورين اجتمعنا ونظرنا فى الشكاوى المرفوعة ضد اخوتنا المحبوبين أثناسيوس أسقف الاسكندرية ومرقللوس اسقف أنقرة وأسكليباس أسقف غزة ثم اصدرنا حكمنا ببراءتهم وبشرعية رياستهم لكراسيهم الأسقفية » . وقد ختم آباء المجمع السرديكى رسالتهم هذه بقولهم لأساقفة المسكونة : « فانضموا إلينا أيها الأساقفة الموقرون وذيلوا ما اصدرنا من قرارات بتوقيعاتكم ليعود ملاك السلام فيرفرف بأجنحته على الكنيسة . واللّه يحفظكم فى كل بر وقداسة » . وقد ذيلت قرارات هذا المجمع بتوقيعات آبائه كما يلى : هوسيوس أسقف قرطبة بوصفه رئيساً للمجمع ، يوليوس أسقف رومية ممثلاً فى قسيسيه أرشيداموس وفيلوكسينوس ، بروتوجينوس أسقف سرديكا . وتلى ذلك توقيعات أربعة وثلاثين اسقفاً من أساقفة غاليا (فرنسا) وستة وثلاثين اسقفاً من أساقفة أفريقيا ، وخمسة وتسعين أسقفاً من أساقفة مصر [١] ، وخمسة عشر أسقفاً من أساقفة ايطاليا ، واثنى عشر أسقفاً من أساقفة قبرص ، وخمسة عشر اسقفاً من أساقفة فلسطين .

---

(١) يلاحظ أن عدد المصريين وحدهم كاد يبلغ عدد الأساقفة الآخرين جميعاً وذلك لأنهم كانوا يتوقون إلى عودة الأنبا أثناسيوس إليهم لثقتهم فيه ومحبتهم إياه .

٢٢٦- كذلك بعث آباء هذا المجمع برسالة إلى كنيسة الاسكندرية . ولما كانوا يخشون أن تذهب مجهوداتهم أدراج الرياح لجأوا إلى قسطنطس امبراطور الغرب ليكتب إلى أخيه قسطنطيوس امبراطور الشرق مطالباً إياه بالمصادقة على قرارات مجمعهم السرديكى (١) .

وكان هؤلاء الأساقفة - فى الفترة التى يترقبون خلالها رد امبراطور الشرق على رسالتهم - تساورهم المخاوف نظراً لما كانوا يعتقدونه من أن مصير الكنيسة بأسرها متوقف على مصير أثناسيوس البابا الاسكندرى بطل الأرثوذكسية .

٢٢٧- وكان الأساقفة الأريوسيون والأوسابيوسيون يدبرون المؤامرات للحيلولة دون بلوغ الأساقفة الأرثوذكسيين ما يأملون . ولكن الامبراطور قسطنطيوس كان قد سئم وسائلهم فقلب لهم ظهر المجن وبعث إلى أثناسيوس بالرسالة التالية : « من قسطنطيوس الامبراطور العظيم المنتصر إلى أثناسيوس - ان ما أوتينا من حلم وتقوى لا يسمح لنا أن ندعكم تتخبطون فى وسط هذه العواصف مدة أكثر من هذه . وإذا كنا قد امتنعنا عن مكاتبتكم قبل اليوم فما ذلك إلا لأنا كنا ننتظر منكم أن تتقدموا إلينا بشكواكم . وإذا كان الخوف هو الذى حداكم إلى أن تمتنعوا عن مخاطبتنا فإننا نبعث إليكم بهذه الرسالة لكى تثقوا فيما أوتينا من كرم وسخاء فتقدموا إلينا غير هيابين لتتحققوا بأنفسكم مما نخطه لكم فى هذه الرسالة واعلموا أننا قد أصدرنا أمراً بتحقيق ما يصبو إليه قلبكم من عودتكم إلى بلادكم آمنين . ولقد كتبنا فى هذا الشأن إلى أخينا قسطنس امبراطور الغرب ليأذن لكم بالحضور إلينا لتكون عودتكم إلى وطنكم برغبتنا كلينا » .

٢٢٨- وكان الأنبا أثناسيوس متلهفًا على العودة إلى بلاده المحبوبة . ولكنه رغم فرحته بهذه الرسالة الامبراطورية ظل فى سرديكا إذ أراد أن يتأكد من أن السماح له بالعودة ليس مجرد هوى عابر . فلما سمع الامبراطور قسطنطيوس ببقاء أثناسيوس مكانه بعث إليه برسالة ثانية يؤكد له فيها

---

(١) للاطلاع على تفاصيل ما دار فى هذا المجمع راجع « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص١٣٧ - ١٦٢ .

ما قاله فى الرسالة الأولى . ولكن البابا الاسكندرى كبح جماح رغبته وظل فى مكانه . وحدث أن التقى الامبراطور قسطنطيوس فى مدينة اديسا (١) ببعض الكهنة المصريين فحملهم رسالة ثالثة إلى باباهم كانت تطفح رضى واخلاصاً وتشجيعاً على العودة إلى البلاد المصرية . ولقد أبلغه الامبراطور فى رسالته هذه نبأ مصرع غريغوريوس الكبادوكى كما اكد له أنه لن يقيم له خليفة لأنه يبغى - مخلصاً - عودته إلى مقر رياسته فى صفاء وسلام .

٢٢٩- وعندما تسلم أثناسيوس هذه الرسالة الثالثة لبى الدعوة ورحل إلى رومية ليودع أنصاره بها . وهناك قوبل من الجميع بفرح عظيم . أما يوليوس أسقف هذه المدينة فقد بعث إلى الاسكندريين برسالة قال لهم فيها : « إن باباكم العظيم يعود إليكم وقد ازداد عظمة . فإن كانت النار تصفى الذهب وغيره من المعادن فماذا نقول عن هذا الرجل الذى صهرته المشاق ؟ وها هو ذا يعود إليكم منزهاً من كل طعن . فقد أعلن المجمع براءته من كل تهمة باجماع لم يسبق له مثيل فأقيموا الأفراح لأن الأسقف الذى أقامه المسيح على رأسكم قد ظل يفكر فيكم طيلة مدة منفاه ، ولم يكن له فى غربته من معزٍ غير وفائكم . وانى أشاطركم أفراحكم وأشكر الله للنعمة التى أسبغها علىَّ بالتعرف إلى هذا الرجل العظيم (٢) .

٢٣٠- وبعد أن غادر أثناسيوس رومية اتجه إلى أنطاكية حيث قابل الامبراطور قسطنطيوس . فرحب به وأكرمه وبادر إلى ارسال خطاب دورى لجميع أساقفة الكنيسة الجامعة أعلنهم فيها ببراءة أثناسيوس من كل ما يتهمه به خصومه وبأحقيته فى رياسة الكرسى الاسكندرى . ثم بعث برسالة خاصة إلى ولاة الامبراطورية فى الاسكندرية وطيبة وليبيا يأمرهم فيها باعدام كل وثيقة تتضمن طعناً فى أثناسيوس إذ قد ثبت لديه ثبوت الشمس فى رائعة النهار ما تنطوى عليه هذه الوثائق من تزوير واختلاق .

ولما انتهت زيارته للامبراطور فى أنطاكية قصد إلى أورشليم . فقابله جميع أساقفة فلسطين - ماعدا ثلاثة منهم - ورحبوا به ثم اجتمعوا معاً فى

(١) احدى مدن آسيا الصغرى وكانت مركزاً عظيماً للمسيحية فى القرون الأولى .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص١٧٣ - ١٧٤ .

مجمع واحد وكتبوا خطاباً لأهل الاسكندرية أعلنوا لهم فيه اجماعهم على تقدير أثناسيوس والاعجاب به . ولقد وقعوا جميعاً على هذا الخطاب .

٢٣١- وكانت أورشليم خاتمة رحلته إذ اتجه بعدها نحو وطنه الحبيب وليس فى استطاعة القلم وصف ما اختلجت به نفسه من مشاعر . فلقد غاب عن شعبه الوفى تسع سنين انقضت كلها فى جهاد مستمر مرير . وبعد هذه السنين الطويلة أجزل الله له الثواب فعاد إلى بلاده متوجًا بتاج مزدوج : تاج الانصهار بالآلام وتاج الانتصار عليها ، كما عاد يحمل شهادة أربعة مجامع ورضى امبراطورين ومناصرة عدد عديد من الأساقفة ، وسرت لعودته هزة من الفرح فى أرجاء الشرق كله .

٢٣٢- أما استقبال شعبه فكان ولا يزال مثار الدهش : فقد سارع أساقفة مصر وليبيا إلى الحدود المصرية لاستقباله وتكوين موكب له ، كما تسابق المستشارون للقياه ليكونوا أول من يرحب به . أما جماهير الشعب فلشدة فرحتهم ظلوا يهتفون حتى بحت أصواتهم . وأقيمت الولائم فى الأماكن العامة : أقامها الأغنياء للفقراء . وكانت المدينة تموج بالجماهير التى كانت تسير فى مواكب رائعة منتظمة طول النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل . كان مظهراً غاية فى الروعة : مظهر الشعب الذى أسكره الفرح فاندفع فى غمرة هذا الفرح إلى التآلف والتماسك إذ امتدت الأيدى الملآى نحو الأيدى الفارغة فملأتها . وكان العطاء سخياً فمحا فى تلك الفترة كل فقر وكل عوز . وساد البلاد روح من التقوى والخشوع فتحول كل قلب إلى هيكل وكل عائلة إلى كنيسة . وتأمل أثناسيوس شعبه المتهلل المتخشع فبكى لشدة فرحه واعطى المجد لله الذى حفظ النار المقدسة مشتعلة داخل كل هذه القلوب (١) .

٢٣٣- وفى أثناء هذا الفرح الشامل روعت البلاد لمقتل الامبراطور قسطنس على يد القائد ماجننتيوس ، فحاربه قسطنطيوس وظفر به فقتله . ومن ثم أصبح السيد الأوحد للامبراطوريتين الشرقية والغربية ، فكانت هذه فرصة انتهزها الأريوسيون والأوسابيوسيون لمعاودة دسائسهم واستئناف مؤامرتهم . ولما كانوا يعلمون أن الرجل الأوحد الذى يسد عليهم المسالك

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٣٣ - ٢٣٦ .

هو أثناسيوس فإنهم بدأوا يذيعون بين الجماهير بأنه كان معواناً لماجننتيوس ضد الامبراطور قسطنس . ومما ضاعف قوة هؤلاء المنافقين انضمام الامبراطورة أوريليا أوسابيا الزوجة الثانية لقسطنطيوس إلى صفوفهم - فكان لكلماتها المعسولة وصوتها الرقيق فعل السحر في قلب زوجها فاستثارت غضبه وحنقه على البابا الاسكندري من جديد .

٢٣٤- وبينما كانت هذه القوى الجهنمية تتألب على أثناسيوس كان هو قائماً بتعليم الشعب ونشر الايمان الأرثوذكسي بين أبناء رعيته ، كما كان منشغلاً ببناء كنيسة جديدة في الثغر الاسكندري .

وحل الصوم الكبير ، فلم يكن لاجتماعات المؤمنين من مثيل إذ قد غصت الكنائس بهم حتى الأبواب ، وصعدت صلواتهم إلى العلا في ضراعة وتوسل . وكان يطغى على القلوب احساس مبهم من الخوف والتطير زاد الصلوات قوة وحرارة . وجاء عيد القيامة فاحتفل به البابا وشعبه احتفالاً لامعًا ، وتبادلوا التحية التي تبعث الأمل في كل نفس قائلين : « خريستوس أنستي » (١) .

٢٣٥- وفي وسط هذا الانسجام الروحي البديع ترددت نغمة النشاز ؛ فقد جاءت رسالة من الامبراطور قسطنطيوس إلى الأنبا أثناسيوس زعم فيها هذا الامبراطور بأن البابا الاسكندري قد طلب إليه مقابلته في رومية ، وأنه - تلبية لهذا الطلب - قد بعث إلى والي الاسكندرية يأمره بتمهيد سبل السفر أمامه . فلما أمعن أثناسيوس النظر في هذه الرسالة لم يجد فيها نصاً صريحًا بمغادرة البلاد . فرد على الرسول رداً شفوياً مؤداه أنه منشغل الانشغال كله في أعماله الراعوية فهو يشكر الامبراطور ويبلغه أنه على استعداد للرحيل حالما ينتهي من تأدية هذه الأعمال . وبهذا الرد أرجأ البابا الاسكندري الساعة العصيبة التي سيضطر فيها إلى الابتعاد عن شعبه . ولكنه أدرك أنه يجب أن يكون على استعداد لمقابلة العاصفة لأن الجو بدأ يكفهر من

---

(١) هذه التحية ومعناها « المسيح قام ، حقًا قام » كانت التحية المتبادلة بين جميع الشعوب الشرقية إلى أن جاء الغربيون وقضوا عليها بما أوجدوا من شيع متباينة في صفوف الشرقيين الذين كانوا حتى القرن التاسع عشر كتلة أرثوذكسية واحدة .

جديد ، ولقد أثار هذا التصرف الحكيم ثائرة الأريوسيين والأوسابيوسيين فبدأوا يروجون عن أثناسيوس الافتراءات ما استطاعوا ، وتمادوا إلى حد ادعائهم بأن الأنبا أنطونى غاضب عليه لمناصرته ماجننتيوس . فتضرر بعض المؤمنين لسماعهم هذه الروايات وساورتهم الهواجس . ولم يدافع أثناسيوس عن نفسه بل أعطى الاشارة لمعلمه الأمين . فغادر أبو الرهبان خلوته فى الصحراء ودخل الاسكندرية من جديد . وخرج أهل المدينة لملاقاته : خرجوا فى جموع حاشدة رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء ، مسيحيين وغير مسيحيين ، وتفرسوا فى رجل الصحراء ، ودهشوا لبهاء طلعته وبريق عينيه وخفة مشيته رغم أنه أتم قرناً كاملاً من الحياة على هذه الدنيا ورغم شظف العيش الذى يعيشه . وتقدموا إليه بمرضاهم وبالمقعدين منهم . وكان أنطونى يمد يديه كما كان يفعل سيده ويشفيهم جميعاً . وكان يحدثهم فى بساطة ودعة فكانوا يصغون إليه فى صمت تام مستوعبين كل كلماته لأنه « كان يكلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة » (١) . وهكذا عزى المؤمنين ودحض المفترين (٢) .

٢٣٦ – على أن الامبراطور قسطنطيوس – رغم حنقه على الأنبا أثناسيوس – لم يجرؤ على أن يصدر أمراً صريحاً بالقبض عليه وترحيله إلى رومية قسراً لأنه كان يخشى أن ينقلب عليه الشرق الذى كان يؤله أثناسيوس . وكان يأمل أن يفقد أثناسيوس مكانته فى القلوب بما يصدره عليه الأريوسيون وأعوانهم من حرم . وقد حداه هذا الأمل إلى أن يعقد فى ميلانو المجمع الذى طلبه ليباريوس أسقف رومية .

٢٣٧ – ولم يحضر هذا المجمع من أساقفة الشرق غير عدد قليل بينما حضره من أساقفة الغرب ثلاثمائة أسقف . ولم يكد يلتئم هذا المجمع حتى أعلن الأريوسيون أنهم حضروا للمناقشة فى موقف أثناسيوس . وقد نجحوا فى اقناع الأساقفة الغربيين بوجوب عزله .

٢٣٨ – بيد أن الشجاعة الرسولية لم تلبث أن تجلت فى ستة من هؤلاء

---

(١) متى ٧ : ٢٩ .

(٢) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٥٤ .

الأساقفة الغربيين : ستة فقط من ثلاثمائة هم الذين تجرأوا على اعلان الحق . وهؤلاء الستة هم : ديونيسيوس أسقف ميلانو ، أوسابيوس أسقف فرسيل ، بولينوس أسقف تريف ، لوسيفير أسقف كاجلياري ، رودیانوس أسقف تولوز ، وهيلاريوس أسقف بواتييه ، هؤلاء الستة تجاسروا على الوقوف فى وجه آباء المجمع ونقض ما اتهموا به ذلك البابا الاسكندرى العظيم معلنين ولاءهم له ، فكان جزاؤهم النفى والتشريد (١) .

٢٣٩- على أن النفى لم يثن هيلاريوس أسقف بواتييه عن أن يصفع الامبراطور قسطنطيوس برسالة نارية قال له فيها : « لقد تبيناك فإذا بك ذئب متلبس بلباس الحملان . فأنت قد دعوت الأساقفة للاجتماع وقبلتهم قبلة خائنة ، وحنيت أمامهم الرأس لتنال بركتهم ولم تلبث أن وطئت الإيمان المقدس بقدميك ، ثم دعوتهم للجلوس على مائدتك وقبل أن يغادروها زينت لهم الغدر بسيدهم الإلهى أسوة بيهوذا الاسخريوطى ... لقد ادعيت أنك جعلت لهم الحق فى أن يحكموا بما يرون ولكنك نفثت فيهم سمومك فأنسيتهم واجبهم المقدس وأضعت عليهم الثواب الأبدى » (٢).

٢٤٠- غير أن الامبراطور لم يزد إلا امعاناً فى اضطهاده المصريين . وقد ظل هذا الاضطهاد على شدته بينما دار الفلك دورته وحل أسبوع البسخة - أسبوع آلام الفادى الحبيب - وقيامته المجيدة مرة أخرى . وقد أدى ذلك الاضطهاد المروع إلى أن يهجر المصريون كنائسهم ويقيموا الشعائر الدينية بين مقابر الآباء والأجداد (٣) . ورغم هذا كله لم يجسر الامبراطور على أن يصدر أمراً صريحاً بالقبض على أثناسيوس الذى ظل محتفظاً بسكون مهيب . على أن هذا لم يمنع قسطنطيوس من أن يبعث إلى أثناسيوس برسول يعلنه برغبته فى أن يغادر الثغر الاسكندرى . وكان الرد الوحيد الذى أعطاه البابا الاسكندرى للرسول الامبراطورى هو أن يطلعه على الخطابات التى كان قسطنطيوس قد بعث بها إليه يرجو منه فيها أن يعود إلى مقر

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ ، « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٦١ - ٢٦٣ .

(٢) شرحه للأبيه باربييه ص٢٧٦ .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص١٩٨ .

رياسته . كذلك أفهم الرسول أنه لن يغادر بلاده بغير أمر كتابي .

٢٤١ - ولم يمض على ذلك غير بضعة أسابيع فوجئ الاسكندريون بعدها باحتلال الجيش المرابط في ليبيا لمدينتهم . وما استقر المقام بهذا الجيش حتى قصد قائده إلى دار البابوية وابلغ أثناسيوس شفوياً بوجوب مغادرته الاسكندرية نزولاً على إرادة الامبراطور . فلم يتزحزح أثناسيوس عن موقفه قيد أنملة وأجاب ذلك القائد بما سبق أن اجاب به الرسول الامبراطورى . ولكنه ادرك أن كل هذه الرسائل الشفوية إن هي إلا غيوم قاتمة تسبق العاصفة . فطالب شعبه بالمداومة على الصلاة والابتهال إلى رب الكنيسة أن يدرأ عنها كل سوء . فلبى الشعب طلبه هذا وكانوا يزحمون الكنائس زحاماً ما عليه من مزيد .

٢٤٢ - وفي ذات ليلة بينما كانت كنيسة الأنبا تيئوناس تضيق بالمصلين إذ بهم يسمعون قرع الطبول وصليل السيوف . ولم تمض إلا ثوان معدودات حتى اقتحم الجنود الكنيسة واعملوا السيوف في الرقاب . وأمام هذه المجزرة البشرية لم يتحرك أثناسيوس من مكانه بل طالب شمامسته بأن يرتلوا المزمور المئة والسادس والثلاثين ، كما طالب الشعب بأن يرنم مرد هذا المزمور وهو « لأن رحمته تدوم إلى الأبد » . وقد لبى الشمامسة والشعب نداء باباهم الوقور لأنهم أرادوا أن يجعلوا من جسومهم حاجزاً منيعاً يصد الخصوم عن الوصول إليه . وبينما كانت أصوات الترانيم ترن في الكنيسة حمل بعض الرهبان الأنبا أثناسيوس وخرجوا به من باب خلفي . ولما فرغ الجنود من التمثيل بجماهير المصلين أدركوا أن فريستهم قد أفلتت من أيديهم إذ لم يجدوا أثراً لأثناسيوس (١) .

٢٤٣ - وحالما وجد أثناسيوس نفسه خارج الكنيسة اخذ يتمشى في شوارع المدينة العظيمة وهو مطمئن إلى أن جميع أبواب منازلها ستنفتح امامه مرحبة مهللة . وهكذا ظل أثناسيوس محتجبًا عن عيون الأريوسيين سنوات ستا - لم ينقطع خلالها عن اصدار الرسالة الفصحية السنوية التي قرر مجمع نيقية أنها حق موضوع على أسقف الاسكندرية ، كما أنه لم

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٨٥ - ٢٨٦ .

ينقطع عن مراسلة أساقفته وشعبه فى كل مناسبة . وعبثاً حاول الأريوسيون معرفة مقره ، وحاروا فى أمره لأنه كان الغائب الحاضر . وراعهم أن يقض البطل الأرثوذكسى مضاجعهم حتى وهو غير موجود وسط شعبه . فضاعفوا تنكيلهم بالشعب المصرى زعماً منهم أن العنف قد يدفع بالبعض منهم إلى الارشاد عنه . ولكن قسوتهم باءت بالفشل . فظن الامبراطور قسطنطيوس أن البابا الاسكندرى قد لجأ إلى صديقه العزيز فرومنتيوس أسقف الحبشة وبعث بسفرائه إلى تلك البلاد ولكنهم عادوا بخفى حنين . وإزدادت حدة الشعور بالخيبة حين وصلت رسالة دورية من أثناسيوس تناقلها الأساقفة المصريون بسرعة البرق . فلقد سمع البابا المختفى أن الأريوسيين اعدوا قانوناً للإيمان مخالفاً للايمان النيقى وكانوا يتأهبون لمطالبة الأساقفة بالتوقيع عليه . فجاءت رسالة أثناسيوس الدورية لتحثهم على التمسك بما تسلموه من إيمان أرثوذكسى تمسكاً تاماً (١) .

٢٤٤- ولكن اين كان اثناسيوس خلال هذه السنوات الست ؟ أنه ما كاد يرى نفسه خارج الكنيسة حتى أخذ يتمشى فى شوارع عاصمته المحبوبة يفكر ويستلهم اللّه المعونة . وعند ذاك أحسن بدافع قوى - عده وحيًا إلهيًا - يدفعه إلى قرع باب عذراء فى العشرين من عمرها تحمل رتبة الشماسية . ففتحت له بنفسها ، وامتلأت فرحاً ودهشة عند رؤيته . فقال لها أثناسيوس : « بما أن الأريوسيين يريدون القبض علىّ وهم يروجون عنى الأباطيل الزائفة ، وبما أنى لا أريد أن أحملهم عقاباً شديداً سيلاقونه حتمًا إن هم قبضوا علىّ لأنهم إنما يرغبون فى قتلى ، فقد قررت الهرب . وقد ألهمنى اللّه تعالى أن ألتجئ إلى منزلك » . ولما كان فرح الشماسة بالتجاء البابا الاسكندرى إليها عظيماً فقد نزعت عنها الخجل وكرست نفسها لخدمته . فكانت تعد له طعامه ، وتغسل قدميه ، وتأتى إليه بالكتب التى يريدها من المكتبة ، وتكتب ما يملى عليها من رسائل . ولم يعرف إنسان فى الاسكندرية أين اختفى البابا الجليل (٢) .

---

(١) شرحه ص٣٠٧ - ٣٠٨ . « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ص٩٨ - ٩٩ .

(٢) « بستان الآباء القديسين » لبلاديوس ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ص١٥٠ .

٢٤٥- ولقد ساد الاسكندرية - في غيبة الأنبا أثناسيوس - حكم الحديد والنار . وانتهز الأريوسيون الفرصة ففرضوا على السدة المرقسية دخيلاً (من كبادوكيا أيضًا) اسمه چورچ . وكان ممن يبيعون بكوريتهم بأكلة عدس[١] ، ذليلاً ، جاهلاً ، فظاً . فلما دخل الاسكندرية قابله أهلها باحتقار لا مزيد عليه ، وقاطعوه تمام المقاطعة رافضين رفضًا باتًا أن يدخلوا كنيسة يكون هو فيها .

٢٤٦- وفي ليلة الخمسين (عيد العنصرة) اتفقت كلمة الاسكندريين على الصلاة في الصحراء لاجماعهم على مقاطعة الأسقف الدخيل ، وكبر عليهم أن يمر العيد من غير أن يحتفلوا باقامة الشعائر الدينية . وتحقيقاً لهذا الرأى أخذت الجماهير تتجه نحو الجهة المتفق عليها زرافات ووحدانا حالما غربت الشمس وأسدل الظلام استاره . ووجد چورچ الكبادوكي الكنائس خاوية خالية فبث العيون والأرصاد في كل مكان ليعرف أين سيصلي المصريون فعادوا وأخبروه بما رأوا . واستشاط الدخيل غضبًا وألهبته هذه الإهانة فاندفع بدافع هذا الغضب إلى الشكوى للوالي لينتقم له .

وتجمع المؤمنون في رحاب الصحراء . وكان الليل صافيًا بديعًا ، والنجوم تتلألأ بنور يشيع في النفوس الأمل والهدوء معًا وهب نسيم رقيق زاد في جمال الليل وحمل عبير البخور مع أصوات المصلين في الأرجاء الفسيحة . وفي وسط هذا السكون الشامل والفضاء الرحيب تحت القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم حلقت الأرواح حتى قاربت عرش النعمة . وحين بزغ أول شعاع معلناً انبثاق الفجر كان المصلون لا يزالون راكعين في خشوع وضراعة . وبدأ البعض منهم يقومون حين سطعت الشمس قاصدين العودة وتبعهم غيرهم ولكنهم ما كادوا يخطون بضع خطوات حتى فوجئوا بثلاثة آلاف جندى أحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيوف باندفاع جنوني . ولم يكفوا عن الفتك بالمؤمنين إلا حين سئمت نفوسهم رؤية الدماء الدافقة والأشلاء المتناثرة . ومع ذلك لم تكفهم هذه المجزرة المزعجة بل رفض الوالي السماح لمن ظلوا على قيد الحياة بدفن شهدائهم إلا بعد أن دفعوا له وللأسقف

---

(١) تك ٢٥ : ٢٩ - ٣٤ .

الدخيل مبالغ باهظة من المال (١) . ثم أمر چورج الكبادوكى الجند بالقبض على البارزين من الأساقفة والأراخنة تمهيداً لنفيهم . وقبل تنفيذ حكم النفى فيهم استحضرهم أمامه وأمرهم بأن يجحدوا إيمان مجمع نيقية . ولكن الجميع رفضوا فى اباء وشمم ولم يشذ واحد منهم . وعند ذاك شتت شملهم : فنفى بعضهم إلى الواحات وبعضهم إلى الصحراء وإلى أسوان وعند البحر الأحمر (٢) .

٢٤٧- ويبدو أن هذا العمل الوحشى ملأ نفوس الأريوسيين اشمئزازاً فهجعوا قليلاً . وما أن شعر أثناسيوس بأن رقابتهم عليه قد خفت حتى غادر بيت الشماسة العذراء الذى كان مختبئاً فيه وقصد إلى الصحارى فى صحبة آبائها . ومن هناك عرج على الأراضى المقدسة حيث كتب رسالته الدفاعية إلى الامبراطور قسطنطيوس . ولقد انتشرت هذه الرسالة فى جميع أطراف الامبراطورية . وقد اندفع البابا الاسكندرى فى كتابتها بقوة منطقه وحدة عاطفته واستهلها بما يأتى : « لما كنت اعلم أنك مسيحى ورث المسيحية عن أبيه ، ولما كنت أثق بحبك لله ، فإنى أتقدم إليك اليوم برسالتى هذه غير هياب ولا وجل لأبرر نفسى أمامك » . وبعد هذا التمهيد دافع أثناسيوس عن عظمة الكهنوت وأثبت اخلاص شعبه رغم كل ما أصابه من اضطهاد .

٢٤٨- وما ذاعت هذه الرسالة فى الأقطار المصرية وغيرها من الأقطار حتى عاود الأريوسيون بحثهم عن صاحبها . ولكنهم عجزوا عن العثور عليه لأن هذا البابا (الشهيد بغير سفك دم) كان قد عاد إلى الصحارى المصرية ليعيش بين آبائها الذين كانوا مستعدين جميعاً أن يضحوا بحياتهم فى سبيله .

وقد قضى الأنبا أثناسيوس فترة من الزمن بين آباء الصحراء مستمداً قوته على النضال من ثبات هؤلاء الآباء الأبرار . وكانوا بدورهم يقفونه على كل حركة يأتيها العدو أولاً بأول ، كما كانوا يبادرون إلى توصيل رسائله إلى

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢١١ - ٢١٢ .

(٢) للاطلاع على تفاصيل الاضطهادات التى وقعت بأمر چورج الكبادوكى الدخيل راجع «قديسو مصر» (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ٢ ص٩٦ - ٩٩ .

من وجهت إليهم . كذلك كانوا يكتبون نسخاً عديدة لكل رسالة يكتبها ليتسع تداولها .

٢٤٩ – وفى أحد هذه الأديرة المصرية التى كان أثناسيوس يتنقل بينها بلغه خبر انتقال الأنبا أنطونى أبى الرهبان إلى بيعة الأبكار . وكان هذا القديس العظيم قد أوصى بعباءته لأثناسيوس قائلاً لتلميذيه اللذين حضرا ساعة انتقاله : « أعطيا عباءتى إلى أثناسيوس ، هذه العباءة التى كان قد أعطانيها جديدة وها أنا أعيدها إليه بعد أن عتقت » وما أن وقع نظر أثناسيوس على هذه العباءة البالية حتى أحس بحرارة المحبة المتدفقة من قلب صاحبها إليه . وكان كثيراً ما يلبسها لتشيع فى نفسه قوة هذه المحبة الدافقة وتحصنه اكثر فأكثر للنضال المستمر الذى يقوم به . ومع أنه تألم لفراق معلمه بالجسد إلا انه تعزى موقناً انه قد أصبح له شفيعًا حبيباً أمام عرش النعمة . فجاز حياته المليئة بالمغامرات وقلبه ممتلئ أملاً لا يخمد ولا حدود له مما زاده قوة على النضال المتواصل (١) .

٢٥٠ – وكان أثناسيوس فى تلك الآونة مداومًا على الكتابة . وحين لم يتوافر لديه الورق كان يكتب على الحجارة حتى أنه لم ينتج فى الكتابة طيلة باباويته قدر ما انتج فى هذه السنوات التى قضاها فى الصحراء . فقد وضع خلالها دفاعه المجيد ضد الأريوسيين فى مجلدات أربعة . ومما زاد هذا الدفاع قيمة أن هذا البابا الجليل لم يتعرض فى كل ما سجله فى هذه المجلدات الأربعة إلا لإثبات الحقائق الأرثوذكسية متنزهاً عن الأحقاد الشخصية متغاضياً عن كل اساءة (٢) .

ولم يكد أثناسيوس يفرغ من وضع هذا الدفاع المجيد حتى جاءته رسالة من الأنبا سرابيون أسقف اتمى ينبئه فيها بتفشى بدعة جديدة ابتدعها مقدونيوس اسقف القسطنطينية مؤداها أن الروح القدس مخلوق فحزن أثناسيوس حزناً شديداً لصدور هذه البدعة من أسقف كنيسة رسولية . ولكن إيمانه وقوته على النضال لم يلبثا أن حلا فى نفسه محل الحزن .

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٣٠٩ ، ٣١٦ – ٣٢٢ .

(٢) شرحه ص٣٢٤ – ٣٢٥ .

فـأمسك بالـقلم مرة أخـرى وكـتب دفاعًا مـجيداً فند فيـه تلك البدعـة الشنعـاء مثبتاً لاهـوت الـروح القـدس الذى هـو احد الأقانيم الثلاثة .

٢٥١- وقـد كتب فى دفـاعه هـذا مـا يلى : « إلى سـرابيون أسـقف اتمى - ضـد المبتـدعين الذين يقولـون ان الـروح القـدس مـخلوق . لقد وصـلتنى خطابات أخـوتك وأنا فى أعـماق الصـحـراء . وهـذه الـخطابات عـزيزة على نفسى إذ هـى الوسيلة التى يسـتـخـدمـهـا إله كل الرأفـات ورب كل عـزاء ليـدخل الطمـأنينـة والسـعـادة إلى قلـبى وسـط هـذه الـزعـازع والأنواء . وحين قـرأت خطابـاتك وشـعـرت بأن مـودتك الصـادقـة تحـيط بى وتكـتـنفنى من كل جـانب ، ومـعـهـا محبة أصدقائى واخوتى العديدين ، فامتلأ قلبى فرحاً . ولكن وا اسفاه . فإنى مـا كـدت أصل إلى نهـايـتـهـا حـتى مـلأ الحـزن قلبى لما يـتـردى فـيـه من بعض الناس مـن ضـلال ... » ولـم يـقف اثناسـيـوس عند حـد الحـزن لأن المناضل المتـأهب الذى كـأنه هـب يدافـع عـن الايمان فأوضـحـه بجـلاء وتسلسـل منطقى شأنه فى جـميع كـتاباته . ولقـد بنى دفاعه كـله على مـا ورد فى الكتـاب المقدس وحده كى يسكت كل اعتراض . وقد اثبت فى دفاعه هذا أن الروح مسـاوٍ للآب والابن فى الجوهـر ، وأنـه روح الحق الذى يقدسنا ويحيينا ، والذى به مع الآب والابن يتم سـر الصـبـغـة المقدسـة ومـوهبـة الروح القـدس للـمـصـطبغ ، وهـو الناطق فى الأنبيـاء . وقد أردف البابا العـظيم دفاعه بقـوله : « وإذا كنت أقيم فى أقـاصـى الصـحـراء فـإن هـذا لا يـثنيـنى عن أداء واجـبى الراعـوى لـذلك أبعث إلى أخوتكم بـهذا الدفـاع آمـلاً أن تصـلحـوا مـا ترون فيه من خطـأ » . والرجاء الذى ورد فـى آخر هـذه الرسـالة يـنطق بما تجمل به أثناسيوس من فـضيلة الاتضـاع لأن رسـالته إلى سرابيون عن الـروح القـدس كانت من وحى الله القدوس بعينه الذى أفاض من نعمته على المدافع عن جوهـره اللاهـوتى (١) .

وقد أحـدثت هـذه الرسـالة أثراً بليغًا فى النفوس ادى إلى رقـاد هـذه البـدعة طيلة حياة الأنبا أثناسيوس .

٢٥٢- وكان الأريوسـيون فـى هذه الآونة قد نجحوا فى استمـالة خصـيان الامبـراطور إلى جانبهم فإزدادوا صلفًا وتجبراً . ولـكن - على الرغم من امـتداد

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٣٥ - ٢٣٩ .

سطوتهم - فإن الشعب المصرى ظل على وفائه لأثناسيوس وللايمان النيقى ، ورفض أن يعطى لقيصر ما يجب اعطاؤه لله (١) . فلما وجد الأريوسيون أن كل مساعيهم فى ارهاب المصريين واخضاعهم لسلطانهم قد باءت بالفشل حولوا وجوههم شطر غيرهم ، فاستشاروا رجال البلاط الامبراطورى وخصيانه ضد ليباريوس أسقف رومية الذى كان لا يزال مناصراً لأثناسيوس فى دفاعه عن الايمان الأرثوذكسى . وقد ارتكب الأريوسيون فى هذا السبيل من الأهوال ما لا يخطر على بال . وكان الرومانيون حتى هذه اللحظة يتوهمون أن أثناسيوس قد غالى حين كان يصف لهم اعتداء الأريوسيين على شعبه ولكنهم عندما ذاقوا الأمرين فى اضطهاد هؤلاء المبتدعين لهم ولأسقفهم أدركوا أن ما رواه أثناسيوس عنهم وعن اعتداءاتهم لم يكن غير الحقيقة الخالصة .

٢٥٣- وكان من نتائج هذا العبث الأريوسى أن استدعى الامبراطور الأسقف ليباريوس إلى ميلانو وناقشه فى المعتقد المسيحى فأعلن الأسقف الرومانى موافقته على الايمان الذى يجهر به أثناسيوس . وعندها أمر الامبراطور بنفيه إلى بيريه فى تراقيا (٢) ، كما أمر بتجليس الشماس فيلكس على السدة الرومانية . فلم يقو ليباريوس على تحمل مرارة النفى واعتلاء فيلكس كرسى رومية أكثر من سنتين بادر بعدهما إلى التوقيع على الصك الأريوسى وتوقيع الحرم على أثناسيوس بابا الاسكندرية ، وهكذا استعاد كرسيه وما أن سمع هيلاريوس أسقف بواتييه هذا النبأ المروع حتى أعلن حرم ذلك الأسقف الرومانى المبتدع قائلاً له مرات ثلاثا : « المحروم هو أنت يا ليباريوس » (٣) .

٢٥٤- وما أن نجح الأريوسيون فى اسقاط ليباريوس حتى وجهوا

---

(١) مت ٢٢ : ٢١ .

(٢) كانت تراقيا جزءاً من اليونان فى ذلك الوقت أما الآن فهى الجزء الذى يتألف منه بلغاريا ورومانيا .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٨- ٢١٠ . والحرم الذى فاه بها هيلاريوس أسقف بواتييه ضد ليباريوس كان موجهاً باللاتينية إذ قال له : " Anathema tibi Libera "

هجومهم ضد هوسيوس أسقف قرطبة . وكان قد تجاوز المئة إذ ذاك ولكن لم تشفع فيه شيخوخته ولا مكانته وقداسته ، كما لم تحمه من افتراءات الأريوسيين ونذالة الامبراطور الذى أرسل فى طلبه . فلما مثل هوسيوس بين يدى الامبراطور قسطنطيوس ذكره بموقف أبيه من مجمع نيقية ، كما ذكره بالعهد الذى قطعه على نفسه حين سمح لأثناسيوس بالعودة إلى بلاده . ولكن قسطنطيوس خان عهده وتناسى مجد ابيه وأمر بأن يبقى هوسيوس فى سيرميوم [1] حيث نكل به الجند تنكيلاً مدى سنة كاملة قبل بعدها الأريوسيين فى شركته ولكنه رفض رفضاً باتاً أن يوقع الحرم على اثناسيوس . كذلك وقع قانون الايمان الذى وضعه الأريوسيين فى سيرميوم . وعند ذاك سمح له الامبراطور بالعودة إلى مقر رياسته . وحين كتب وصيته وصف فيها الأهوال التى لاقاها على أيدى الأريوسيين وجدد حرمه ضدهم [2] .

٢٥٥ – ولما سمع أثناسيوس بما كان من توقيع حبرى رومية وقرطبة على الصك الأريوسى تلمس لهما العذر وألقى اللوم على وحشية الأريوسيين وهمجيتهم [3] . وقد أحدث ما أصاب هذين الحبرين الكبيرين من الوهن فى نفوس الكثيرين من الأساقفة فسقطوا بدورهم فى البدعة الأريوسية حتى كادت تعم الكنيسة فى مشارق الأرض ومغاربها مما أوحى إلى غريغوريوس الثيئولوغس أن يقول فى رثائه أثناسيوس : « أنه كان فى الكنيسة الصخرة التى لم تقو أبواب الجحيم عليها » [4] .

٢٥٦ – إلا أنه على الرغم من الضيقات والآلام التى عاناها الأرثوذكسيون والنفي والتشريد الذى كان نصيب الصديقين ، والنصر البادى للأريوسيين ،

---

(١) إحدى المدن الايطالية القديمة .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٠٤ – ٢٠٨ .

(٣) شرحه جـ٣ ص٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٤) « أثناسيوس الكبير » (بالفرنسية) لجان آدم مولر جـ٣ ص١٢٧ ، الخلاصة الوفية فى أرثوذكسية الكنيسة القبطية – مقال للأستاذ فرنسيس العتر نشره فى مجلة الصخرة عدد أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٩ السنة الثالثة عشرة ص٤ ، النار المقدسة (بالانجليزية) لروبرت باين ص٨٩ ، ٩٠ .

فإن الأنبا أثناسيوس قد استشف سقوط المبتدعين ساعة أن زعموا أنهم فازوا فوزاً مبيناً . فإنهم بعد أن أبعدوه عن عاصمته ، وبعد أن شتتوا شمل جميع أبطال الايمان الأرثوذكسى شرقًا وغرباً ، بدأوا يختلفون فيما بينهم ويتراشقون اللعنات والحرومات إلى حد أنهم عجزوا عن وضع قانون الايمان الذى طلبه الامبراطور قسطنطيوس إليهم أن يضعوه ليقابلوا به دستور إيمان مجمع نيقية (١) .

٢٥٧ - وفى وسط هذا الشجار الأريوسى اهتز العالم لأنباء خطيرة لم تكن فى الحسبان . ذلك أن الامبراطور قسطنطيوس أصيب بحمى قضت عليه ليلة أن كان عازمًا على أن يقاتل الفرس فى صبيحتها . فكانت نهايته من سخرية القدر - لأنه فى الليلة التى كان يحلم بانتصار ساحق على الفرس ، فى هذه الليلة عينها انتصر عليه الموت . وصحا الأريوسيون فى اليوم التالى ليجدوا سندهم مسجى على فراشه وقد سلم السلطة لصاحب السلطة الأوحد (٢) .

وكان الوريث الوحيد للعرش الذى بنى قسطنطين الكبير مجده هو يوليانوس ابن عم قسطنطيوس الامبراطور الراحل . وكان قد تلقى علومه فى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية مع باسيليوس الكبير (٣) وغيره من أعلام الكنيسة . فتوسم فيه الشرقيون عامة والاسكندريون خاصة الخير كل الخير . وقد كان فى بادئ الأمر عند حسن ظنهم به فقد أمر بأن يعود جميع الأساقفة المنفيين إلى كراسيهم آمنين مطمئنين مكرمين فعادوا جميعاً ما عدا أثناسيوس الذى ظل مكانه ينتظر علامة من السماء .

٢٥٨ - وفى تلك الأثناء كان الاسكندريون قد تألبوا على جورج الكبادوكى : فقد اتهمه الأريوسيون باختلاس أموال الدولة ، واتهمه الوثنيون

---

(١) ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٣٧ .

(٢) ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٤٦ ، ، حياة القديس أثناسيوس ، (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٤٩ - ٢٥١ .

(٣) هو أسقف قيسارية الكبادوك وواضع القداس الإلهى الشائع استعماله فى كنيستنا القبطية .

بسخريته منهم ، بينما رزح الأرثوذكسيون تحت نيره . فثار الجميع معًا ضده وأضرموا ثورة التهمته نيرانها . وسمع أثناسيوس بنبأ اغتيال الأسقف الدخيل بعد أن وصله اذن الامبراطور بالعودة إلى عاصمته فقرر أن يعود . وترك الصحراء واعتلى سفينة أقلته إلى الاسكندرية .

٢٥٩- وما أن علم المصريون بأن باباهم الجليل قد غادر الصحراء حتى خفوا لاستقباله . فتزاحموا على ضفتي النيل . فكانت السفينة التي تقله تشق الماء على أنغام الأناشيد والترانيم الكنسية المتصاعدة عن آلاف الحناجر . وكأن قوة قاهرة دفعت بالجماهير نحو النهر الخالد لتحية الراعي الأعلى الذى أصبح أسطورة وهو بعد على قيد الحياة . ولما بلغ مشارف الاسكندرية هرع الجميع لتحيته والحصول على بركته ، ورتبوا صفوفهم تبعًا للسن وللمهنة جرياً على التقاليد السحيقة فى القدم فى البلاد المصرية .

أخيراً دخل عاصمته . وتفرس شعبه المتهلل فيه فوجدوه قد شاخ وهزل بعض الشئ لكثرة ما عانى من جوع وضيق وتشريد . وكان يلبس رداءه الرهبانى نصف البالى فبدا فيه أكثر مهابة وأعلى جلالاً مما لو كان يلبس البز والأرجوان ، وقد أحاطت بوجهه هالة من النور الذى ينعكس دوماً على وجوه الناس الوثيقى الصلة بالله . فتقدم وسط صفوفهم فى تؤدة واتزان وعلى وجهه ابتسامة مشرقة وفى عينيه شعاع الحنان الأبوى .

٢٦٠- وحالما استقر المقام بأثناسيوس فى الاسكندرية بادر إلى دعوة الأساقفة لعقد مجمع يضع القوانين الخاصة بالتائبين عن البدعة الأريوسية . ولقد لاحظ بعضهم أن اقتراحاته أميل إلى الشفقة منها إلى التشدد فعارضوه فيها . ولكنه قال لهم : « إن ملكوت السماوات ليس وقفًا علينا ، لذلك يحسن بنا أن نجاهد ما استطعنا لنزيد عدد الذين يصحبوننا إلى تلك الديار المجيدة . ولكى نصل إلى هدفنا يجب أن نمد أيدينا لنقيم الساقطين ولم تكن القسوة فى يوم من الأيام دواء ناجعًا بل أنها ستزيد فى جراح الكنيسة من غير شك . والواقع أن الحكمة تقتضى ان نحفظ كرامة جميع الذين يقدمون لنا الدليل على صدق توبتهم » . ولما رأى بعضًا من الأساقفة لا يزالون غير مقتنعين قال لهم : « أفىَ ميسورنا أن نتشدد فى مطالبنا أكثر من الله تعالى ؟

إن الابن الضال حظى بالمغفرة حالما وصل إلى أبيه الذى تلقاه بالفرح ووضع خاتماً فى يده وحذاء فى رجليه ، وأخرج الحلة الأولى ليلبسه إياها ولم يرض الأب عن سخط ابنه الأكبر (١) . هكذا يليق بنا أن نفتح الباب فى وجه التائبين ونرحب بهم ونفرح برجوعهم فواجبنا يحتم علينا أن نعمل بوصايا مخلصنا وأحكامه » (٢) .

وبهذه الكلمات المليئة بالنعمة أقنع البابا الاسكندرى الحكيم أساقفته بأن الرحمة تفتخر على العدل فى يوم الدينونة (٣) فتمكن بذلك من أن يكسب عدداً عديداً من الأريوسيين إلى صفوف المؤمنين . فكان عمله هذا نصراً مبيناً .

٢٦١– ولو أن أحداً غير أثناسيوس أحرز مثل هذا النصر لاكتفى به ، ولكن بطل الأرثوذكسية الأعظم لم يقنع بهذا الانتصار الكبير إذ كانت هناك مسألة فى غاية الخطورة تحتاج إلى علاج حاسم . ذلك أنه كان قد قام شجار مزر بين اليونانيين واللاتين على لفظ أجوف . فقد كان اليونانيون يستعملون كلمة « أقنوم » بينما يستعمل اللاتين لفظ « شخص » للتعبير عن الحقيقة الواحدة . وكان من أثر هذا الخلاف اللفظى المحض أن أخذ التافه من الأمور يتضخم يوماً فيوماً مما كاد يودى بالكنيسة . وكان هذا كله على مرأى ومسمع من أثناسيوس رجل الله المختار وهادى النفوس الأكبر . فلم تطاوعه نفسه الكريمة على التخلى عن قمع هذه الفتنة الشائنة التى كانت تهدد كلمة الله بالتمزيق . فبادر إلى معالجة الداء . فماذا عمل ؟ استحضر الطرفين المتنازعين وسمع أقوالهما بعطف ولين : وازناً بين الألفاظ ممعناً النظر فى المعانى ، وإذ تحقق من مطابقتها للعقيدة القويمة لم يتردد فى أن يدع لكل من الطرفين لفظه . وهكذا جعل وحدة الايمان تسودهما . ولم يزد على ذلك غير نصحه للطرفين بأن يتمسكا بدستور الايمان الذى سنه مجمع نيقية المسكونى الأول – وكأنى بروح الله هو الذى أوحى إليه

---

(١) لوقا ١٥ .

(٢) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٣٦٩ .

(٣) يعقوب ٢ : ١٢ .

باسداء هذه النصيحة سداً لباب الابتداع فى مستقبل الأيام (١) .

٢٦٢ – ولم يكن الامبراطور يوليانوس ليتوقع مثل هذا الانتصار لأنه كان قد أصدر قانون العفو عن الأساقفة الأرثوذكسيين زعماً منه أنه يستثير بذلك حفيظة الطرفين بوضع كل منهما مقابل الآخر . فلما رأى أن النتيجة جاءت على عكس ما كان يتوقع رفع القناع وكشف عن نيته السيئة جهاراً بأن أعلن جحوده إله المسيحيين (٢) . ومن ذلك الوقت أصبح يعرف بالجاحد . وتوكيداً لجحوده بعث بخطاب إلى أهل الاسكندرية ينذرهم فيه بأن أثناسيوس يجب أن يغادر مدينتهم . وفى الوقت عينه بعث بخطاب آخر إلى والى الاسكندرية يعلنه فيه بأنه إن لم يغادر أثناسيوس المدينة قبل أول ديسمبر فسيفرض عليه هو وجنده غرامة قدرها مائة رطل من الذهب عقاباً له . ولقد استثار الخطابان غضب الاسكندريين فقرروا أن يوفدوا مندوبيهم إلى أنطاكية لمقابلة الامبراطور وابلاغه تمسكهم بباباهم العظيم فلما علم يوليانوس بالغرض الذى جاء بهم إلى عاصمته رفض مقابلتهم فى كبرياء وتشامخ . بل أشعل نار الاضطهاد حامية فى أنحاء الامبراطورية (٣) .

٢٦٣ – واقترب شهر ديسمبر . وفى تلك الآونة تألبت فلول الأريوسيين والأوسابيوسيين والوثنيين على أثناسيوس فأضرموا النار فى الكنيسة التى كان قد بناها حديثاً . وأدرك أثناسيوس أن بقاءه فى الاسكندرية يجر الويل والثبور على شعبه الأمين . فجمعه معزياً إياه بقوله : « لا تضطرب قلوبكم يا أبنائى المحبوبين فما هو حادث الآن ليس إلا سحابة صيف عن قريب تنقشع » . ثم غادر الاسكندرية واعتلى سفينة اتجهت به نحو طيبة (الأقصر) .

٢٦٤ – ويبدو أن والى الاسكندرية كان قد تلقى أوامر جديدة إذ لم يكد يسمع أن أثناسيوس قد غادر العاصمة حتى استقل سفينة بدوره واتجه نحو

---

(١) مرثية غريغوريوس الثيؤلوغوس ألقاها فى كتدرائية القسطنطينية سنة ٣٧٩م فى ذكرى الأنبا أثناسيوس ، « أثناسيوس الكبير » (بالفرنسية) لجان آدم مولر جـ١ ص١ – ٦٦ ، « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٧٤ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٢٥٨ .

(٣) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ٢ ص١٨٨ .

الصعيد . ومن الطبيعى أن البابا الاسكندرى لم يكن يدرى أن الوالى يطارده فطلب إلى بحارته أن يرسوا قليلاً ، ونزل إلى الشاطئ حيث جلسوا يتسامرون تحت ظلال النخيل . وفجأة هب أثناسيوس واقفًا وقال لمن معه : « لن نذهب إلى الصعيد بل سنعود إلى الاسكندرية لنثبت أن الذى يحمينا أعظم ممن يضطهدنا » . فصعدوا جميعًا إلى السفينة وأداروا الدفة متجهين شمالاً . ولم يسيروا إلا قليلاً حتى مرت بهم سفينة الوالى فسألهم بحارتها : « أرأيتم أثناسيوس ورجاله ؟ » وكان أثناسيوس جالسًا وسط بحارته كأنه واحد منهم . فأجابهم بنفسه : « أنه ليس ببعيد عنكم » فظن الوالى أنه يستطيع اللحاق بفريسته وشدد أوامره إلى بحارته ليسرعوا ، وهكذا أفلت خليفة مارمرقس من أيدى مطارديه وعاد إلى عاصمته حيث اختبأ فى قبر أبيه .

وبعد مضى شهور ستة عرف خصوم أثناسيوس انه لم يغادر المدينة مطلقًا . وكان يوليانوس مشتغلاً إذ ذاك بالاستعداد لمحاربة الفرس . وقد زينت له غطرسته أن لا يتنازل ويقف فى وجه ذلك الأسقف الجليلى الحقير ، واكتفى باصدار أمره إلى جنوده ليتعقبوه أينما كان . غير أن أصدقاء أثناسيوس فى البلاط الامبراطورى قد وقفوه على هذا الأمر . فغادر المدينة ولجأ إلى الصحراء حيث عاش متنقلاً بين أديرتها . وهكذا عجز جنود يوليانوس عن العثور عليه .

٢٦٥- ولم ير المؤمنون فى هذه التجربة بدأ من مداومة الصلاة والصوم كى يضع الله حداً لما يقاسون (هم وباباهم) من آلام مريرة . وكان على رأس هؤلاء المصلين ديديموس الضرير مدير المدرسة الاسكندرية الذى كان يطوى نهاره صائمًا . وفى ذات ليلة غفا غفوة قصيرة سمع خلالها ملاك الرب يقول له : « إن يوليانوس الجاحد قد قتل . فقم وكل ، ولا تبلغ هذا الخبر لغير أثناسيوس » (١) . ولما طلع النهار بينما كان ديديموس يتأهب لابلاغ هذا النبأ الخطير للبابا الاسكندرى إذا به يسمع الجماهير تهتف بأصوات مدوية بحياة أثناسيوس . فسارع إلى الدار البابوية والتقى

---

(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٤ .

بأثناسيوس يحيط به أحبار الكنيسة وأراخنتها تعلو جبينه امارات الاغتباط . فأبلغه تفاصيل الرؤيا التى راها . وحينذاك أبلغه أثناسيوس بأن ثيئودوروس (تلميذ الأنبا باخوم) كان قد جاءه منذ أيام هو والأنبا بيامون وأعلماه بنفس الرؤيا التى رآها والتى أدت إلى هذه العودة المفاجئة » (١) .

٢٦٦- ثم آل العرش إلى الامبراطور يوبيانوس . وكان رجلاً يؤمن بالمثل العليا ويتصف بالتقوى والوداعة ، فأضفت عليه هذه الصفات النادرة نعمة ووسمت ملكه بالحلم ، وملأت قلوب المصريين ثقة وتفاؤلاً . فتحققت أمالهم هذه المرة لأن يوبيانوس لم يكد يعتلى العرش حتى أمر بعودة جميع الأساقفة المنفيين إلى كراسيهم ، وعلى رأسهم أثناسيوس الذى كان يقول عنه أنه قد تتوج بتاجين : تاج الشهادة بغير سفك دم ، وتاج الكفاح المجيد . فبعث برسالة يقول فيها : « إلى القديس أثناسيوس حبيب الله من يوبيانوس اننا نعجب بكم اعجاباً يفوق الوصف لحياتكم القدسية وكفاحكم المتواصل . لذلك نبسط رعايتنا لذاتكم الكريمة ونبعث إليكم بتقديرنا . لأن ما أبديتم من بسالة وسط كل العواصف الهوجاء ، وما تحليتم به من بطولة أمام القوى المسلحة ، يجعلكم أهلاً لكل تقدير واعظام . ولما كنا نعرف وفاءكم للايمان القويم ومداومتكم على تعليم شعبكم ، فنحن لا نستطيع أن نترككم فى النفى أكثر من هذا . فنرجوكم أن تعودوا إلى عاصمتكم آمنين لتعاودوا نشاطكم فى تثبيت المؤمنين . فعودوا إلى كنيستكم المقدسة ، وارعوا رعية المسيح ، وحين تقفون أمام المذبح لترفعوا القرابين وسط شعبكم فاذكرونا فى صلواتكم . واننا لواثقون من أن الله سيغدق نعمته علينا وعلى كل المسيحيين بصلواتكم وشفاعتكم عنا » .

٢٦٧- وأردف يوبيانوس رسالته هذه برسالة ثانية ضمنها رجاءه من البابا الاسكندرى أن يوضح له الايمان القويم فجمع أثناسيوس أساقفته وتداول الجميع معاً ثم بعث خليفة مارمرقس إلى الامبراطور برسالته التالية : « أنكم متعطشون إلى سبر غور الإلهيات ، وهذه ميزة عظيمة تليق بأمير مثلكم ، إذ هى العلامة على أن قلبكم بين يدى الآب . ولما كانت تقواكم

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٨١ - ٢٨٢ .

تتطلب منا توضيح الايمان الحقيقى ، فلا نجد توضيحًا أعظم من قانون الايمان الذى أقره الآباء فى نيقية . وأن نور الايمان القويم ليسطع رغم كل البدع ، أنه يسطع خلال الأسفار الإلهية . وأن القديسين الذين اصطبغوا بمعمودية الايمان وختموه بدمائهم يرفلون الآن فى مساكن النور . وأن هذا الايمان هو الدستور الذى يؤمن به غالبية الناس ، أما الأقلية المناوئة له فلن تظفر به » . ثم ختم البابا الاسكندرى رسالته بتدوين النص الكامل لدستور الايمان النيقى . وقال فى أخره : « هذا هو الايمان الذى يجب أن تعيش به أيها الأمير لأنه يأتيك من الله ومن رسله » (١) . وكان للرد العاجل اجمل الأثر فى نفس الامبراطور يوبيانوس ، فبعث برسالة إلى أثناسيوس يدعوه فيها إلى أنطاكية لينال بركته . فسارع البابا الاسكندرى إلى تلبية الدعوة ، وقوبل من الامبراطور ومن رجاله بكل حفاوة واكرام . وكان من اثر تلك الزيارة أن انضم عدد غير قليل من الأساقفة الأريوسيين إلى الايمان القويم .

٢٦٨- ولسوء الحظ لم تطل أيام الامبراطور يوبيانوس إذ قد انتقل فجأة إلى دار الخلود أثناء رحلته من أنطاكية إلى القسطنطينية . ففقد العالم بموته مسيحياً مخلصاً ، وفقد أثناسيوس صديقاً صدوقاً (٢) . وكانت مدة حكمه سبعة شهور لا غير .

٢٦٩- وقد خلفه أخوان هما فالنتينانوس وفالنس : تملك أولهما على الامبراطورية الغربية وثانيهما على الامبراطورية الشرقية .

٢٧٠- فلما اعتلى فالنس عرش الامبراطورية الشرقية ترك الأمور بادئ ذى بدء تسير فى مجراها الطبيعى فرأى أثناسيوس أن يقوم فى تلك الأثناء بزيارة راعوية ثالثة . وكان يرمى من وراء هذه الزيارة إلى غرضين أولهما تثبيت الشعب المصرى فى ايمانه الأرثوذكسى ، وثانيهما أن يراه هذا الشعب فى ما أسبغ الله عليه من نعمة بعد ما ذاقه من نفى وتشريد فيدرك مدى العناية الإلهية التى تحيط بمن يعتمدون عليها فى كل ما يلحقهم من تجاريب.

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٣٨٩ .

(٢) شرحه ص٣٩٠ - ٣٩٥ ، « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان جـ١ ص٤٦٤ .

وقد اعتلى فى هذه الزيارة سفينة سار بها فى النيل يحيط به أساقفة الكرازة المرقسية وعدد من رجال الاكليروس وأراخنة الشعب . فكنت لا تسمع إلا أصواتاً تشق الفضاء بالهتاف المدوى بالدعاء والترانيم التى ترددها جنوقات المرتلين . وكان اثناسيوس إذا ما رست سفينته على احدى ضفتى النيل يغادر السفينة ويلتقى بشعبه ويتحدث إليه حديثاً يملأ القلوب غبطة وسلاماً . ثم يمنح الجميع بركته الرسولية .

ولم يكتف أثناسيوس بزيارة القرى الواقعة على شاطئ النيل لأنه كثيراً ما كان ينزل من السفينة ويسير داخل البلاد قاصداً إحدى القرى الصغيرة النائية ، وكان فرح أهالى تلك القرى لا يبارى فكانوا يتجمعون حوله والبشر يطفح على وجوههم ويتأملونه فى صمت واعجاب . لأنه كان (فى نظرهم) نور الكنائس ومجد الشعوب - وكانت نظراتهم عالقة به كأنما سحرتهم طلعته . فقد امتزجت فيه كل المتناقضات إذ قد جمع بين الرتبة الكهنوتية العليا وبين بساطة الملبس ، وبين الدأب على العمل فى جد وتركيز وبين بشاشة الوجه - بل لقد جمع بين النور الإلهى وبين الانطلاقة الشعبية فشعت منه قوة مغناطيسية اجتذبت إليه القلوب فأحبه الآلاف من الناس وأجلوه فى آن واحد .

ومن نعمة الله أن أثناسيوس كسب فى هذه الزيارة عدداً كبيراً من المبتدعين إلى الايمان القويم .

٢٧١- ولما اقترب أثناسيوس من الصعيد الأعلى خرج ثيئودورس (تلميذ الأنبا باخوم) هو ورهبانه لاستقباله وهم يرتلون وقد امتزجت أصواتهم برائحة البخور المتصاعد من مجامرهم . وفرح أثناسيوس فرحًا عظيماً حين رأى جموعهم وسمع أصوات تراتيلهم ، ومجد الله الذى جعل من الصحراء جنة فيحاء تموج بالرهبان . وتأمله الرهبان بدورهم وامتلأت قلوبهم اعجابًا بهذا الرجل الذى كان أعجوبة دهره ومع ذلك فقد كان متواضعًا إلى حد أنه كان يساوى بين نفسه وبين أصغر راهب (١) ففرح الرهبان براعيهم الأعلى ، وفرح أثناسيوس برهبانه وحين هم بالعودة

---

(١) « حياة القديس اثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٣٩٧ - ٤٠٢ .

إلى مقر رياسته تقدم إليه ثيئودروس قائلاً : « اذكرنا فى صلواتك يا أبى » أجابه : « ان نسيتك يا أورشليم فإنى أنسى يمينى » (١) .

٢٧٢- وعاد الأنبا أثناسيوس إلى الاسكندرية وقلبه يطفح حبوراً إذ رأى السلام مرفرفاً على البلاد . وكانت الكنائس تموج بالمصلين بلا انقطاع لأنها كانت تظل مفتوحة ليل نهار . على أن عدو الخير لم يعجبه أن يستريح بطل الأرثوذكسية وشعبه الأمين فاستثار الامبراطور فالنس الذى لم يلبث أن وقع فى حبائل الأريوسيين فانقلب فجأة من موال إلى مخاصم ، وأمر بنفى جميع الأساقفة الأرثوذكسيين . وهدد الولاة جميعاً بتوقيع صارم العقاب عليهم إن لم ينفذوا أمره فوراً .

٢٧٣- فما أن ذاع نبأ هذا الأمر الامبراطورى حتى جن جنون الاسكندريين وقالوا بصوت واحد : « إننا سنحول دون تنفيذ هذا الأمر بكل ما أوتينا من قوة ولو أدى ذلك إلى الحاقنا بأجدادنا الشهداء » ولما شعر والى الاسكندرية بما عزم عليه شعبها من التمرد والعصيان العلنى نصح الامبراطور بأن يتراجع عن الأمر خشية حدوث فتنة تلتهم الأخضر واليابس، فلزم الامبراطور الصمت مدة من الزمن .

٢٧٤- وذات ليلة - بعد أن هجع الاسكندريون - خرج الوالى تحت جنح الظلام فى شرذمة من جنده ، وقصد إلى الكنيسة التى يسكن أثناسيوس فى جناح ملاصق لها ، متوهماً أنه سيفاجئ البابا أثناسيوس ويقبض عليه غدراً ولما وصل إلى الكنيسة قرع بابها فلم يجبه أحداً . ففتحه فانفتح إذ لم يكن مغلقاً بالمفتاح ، ودخل الكنيسة ومنها إلى الجناح الخاص بحامى الايمان القويم . وكانت المفاجئة له إذ لم يجد ضالته المنشودة كما لم يجد أحداً ما . وعاد يجر ذيول الفشل ، ولم يدر بخلده أن صديقاً وفياً فى دار الولاية عينها كان قد أرسل سراً وابلغ الأنبا أثناسيوس بالنية المبيتة له . فخرج هذا البطل القديس بعد مغيب الشمس ، وتجول فى شوارع عاصمته المحبوبة وهو هادئ البال . ثم خرج إلى ضواحيها وبات فى قبر أبيه . وما أن صحت المدينة فى اليوم التالى وذاع بين أهلها خبر اختفاء الراعى الأمين وغدر الوالى حتى

---

(١) مزمور ١٣٦ فى الأجبية (١٣٧ فى الكتاب المقدس) .

ثارت ثورة هوجاء . وعبثا حاول الوالى أن يهدئ الجماهير ، وعبثاً حاول الامبراطور فالنس أن يخمد هذه الثورة المتأججة . فلم يؤد القتل والارهاب والحريق ومصادرة الأموال وأصحابها إلا إلى زيادة الثورة غلياناً وحدة . وادرك فالنس أنه لن يستتب السلام إلا بعودة أثناسيوس إلى مقر رياسته فلم يجد بداً من النزول على ارادة الشعب . ولقد تمادى هذا الشعب فى التشديد بتنفيذ مطالبه حتى انتزع من الامبراطور عهداً علنياً بعدم التعرض لباباهم على الاطلاق . وعند ذاك عاد خليفة مارمرقس إلى مقر رياسته بعد غياب دام شهوراً أربعة (١).

٢٧٥ – ولما عاد أثناسيوس إلى الاسكندرية وجد أن صديقه ابوليناريوس أسقف اللاذقية قد تردى فى بدعة مؤداها أن المسيح مجرد من النفس العاقلة لأن ناسوته كان من جوهر لاهوته . وكان أثناسيوس قد بلغ سن الشيخوخة ولكن النار المتأججة داخل قلبه كانت لا تزال متقدة بنفس الحدة التى ملأت عليه شبابه . وفوق ذلك كان يحب ابوليناريوس حباً عميقاً يرجع إلى اكثر من ثلاثين سنة خلت . ولكن حبه لمخلصه كان يفوق كل حب آخر ، وغيرته على الايمان سيطرت فيه على كل غيرة سواها . فأمسك بالقلم ووضع فى العقيدة الأرثوذكسية مجلدات ثلاثًا دحض فيها تلك البدعة بنفس المنطق وبنفس الوضوح الذى دحض بهما البدعة الأريوسية . إلا أن طيف الود بينه وبين أبوليناريوس تعرض له فجعله يتكلم عن الايمان القويم ويبين حقائقه من غير أن يذكر اسم صديقه ولا أن يشير إليه من قريب أو بعيد .

٢٧٦ – وبعد هذا الدفاع المجيد ألقى أثناسيوس بقلمه – هذا القلم الذى لم يمسك به قط إلا ليدافع عن الايمان القويم فرسم بواسطته أروع صورة للفادى الحبيب وارسى قواعد الأرثوذكسية على أسس ثابتة . فلم يعد أريوس ليستطيع أن يقول عن المسيح « أنه إنسان فقط » ، ولم يعد أبوليناريوس ليجرؤ أن يقول « أنه إله فقط » ، لأن الجميع ادركوا من كتابات أثناسيوس أن المسيح هو الإله المتأنس (الكلمة المتجسد) – ومع أن هذه الحقيقة تفوق إدراك العقل البشرى إلا أنها فى الوقت عينه تستهوى القلب

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٤١٠ – ٤١٢ .

وتـوحى إليـه بالمحبـة الإلهيـة التى تسمـو على كـل وصـف (١) .

٢٧٧ - وظلت نار الاضطهاد التى أشعلها فالنس متقدة فى الشرق كله تذكر المؤمنين باستهتار نيرون وطغيان ديوقلديانوس . ووسط هذه النار المتأججة استمتعت مصر بسلام شامل يرجع الفضل فيه إلى ما كان للأنبا أثناسيوس من هيبة لدى الشعوب ومن مكانة لدى شعبه فكانت مصر إذ ذاك أشبه بالواحة الخضراء وسط الصحراء القاحلة . فاستمتع المصريون بهذا السلام فى حمى باباهم الجليل .

٢٧٨ - واستمر السلام أعواماً خمسة استراح خلالها بطل الأرثوذكسية من الصراع العنيف الذى اضطر إلى خوضه طيلة أيام باباويته . وفى نهاية هذه السنين الخمس انتقل إلى بيعة الأبكار ليستمتع بالسلام الأبدى بعد أن قضى فى رياسة الكهنوت ستًا وأربعين سنة عاصر خلالها ستة عشر امبراطوراً .

٢٧٩ - ولقد أسبغ الله تعالى على البابا أثناسيوس مزايا نادرة أبرزها أنه كان يعرف أن يفرق بين الجوهر والصدف : فقد تمسك بجوهر الايمان ولم يحد عنه قيد أنملة ، ودافع عنه بكل ما أوتى من مواهب راضيًا بالنفى والتشريد والاهانة فى سبيله ، وفى الوقت عينه ترك للمؤمنين الحق فى أن يعبر كل منهم عن هذا الايمان الواحد بالألفاظ المتداولة فى لغته . كذلك أوتى ثباتاً عجيبًا تمكن به من أن يقف فى وجه جميع الصعاب والضيقات التى صادفته . فاستطاع بذلك من أن يدعم الحقيقتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما المسيحية وهما : لاهوت المسيح المتحد بناسوته اتحاداً لا يتطرق إليه مزج ولا خلط ولا تغيير ، ووحدة الثالوث المقدس . وقد رفض بدعة أريوس رفضًا باتاً لاعتقاده بأن من لم يكن إلهاً كاملاً لا يستطيع أن يعلن الله للناس ولا أن يشع عليهم الحياة الروحية (٢) وليقينه بأن التعبد لمن لم يكن من جوهر الله نوع من الوثنية إذ هو تعبد لغير الله . ولقد تشبعت شخصيته

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٢٤ - ٤٢٩ .

(٢) « تاريخ الكنيسة الأولى » (بالفرنسية) لدوشن جـ٢ أ «ث» ص٢٨١ ، دائرة المعارف البريطانية الطبعة الـ١٤ جـ١ ص٥٩٧ - ٥٩٩ .

الوثابة بهذه العقيدة وهذا اليقين إلى حد أن حياته لم تكن سوى انعكاس ساطع لإيمانه .

٢٨٠ – واعترافًا بفضله منحته الكنيسة لقبًا لم ينله سواه فى العالم بأسره – وهذا اللقب هو « ثالث عشر رسل الأطهار » (أو الرسولى) لأن جهاده الطويل المتصل الحلقات شابه جهاد الرسل الأطهار . ولئن كان أثناسيوس قد أكمل سعيه فإننا لانزال نستمتع بثمار هذا السعى – لأن الرجل الذى نفى خمس مرات ، الجياش العواطف ، اللماح الذكاء ، ذا الصوت الرنان ، قد غير مجرى التاريخ . ولم يكن بالأمر الهين أن يؤكد بأن الكلمة المتجسد أزلى لا يعروه ظل دوران ، فيوقف الأريوسية عند حدها ويمنعها من فساد الايمان المسيحى . ولم يكن بالأمر الهين أن يتحدى الأباطرة ويقف فى وجه سلطان هذا الدهر . على أن أثناسيوس استهان بهذا كله لأنه علا فوق معاصريه علواً شاهقًا وسيطر على عصره بقوة شخصيته ، ولقد عرفه باسيليوس الكبير أسقف قيسارية وهو شيخ فقال عنه : « إنه منارة ساطعة رأى بعينه الفاحصة الثاقبة ما يختفى تحت المياه الصاخبة من خطر ، فألقى عليها ضوءاً وهاجاً أرشد به الناس إلى أرض الأمان » . وقال عنه غريغوريوس النزينزى : « أنه جاء بسيف الفاتح وبنفخة الروح المحيية » . على أن احسن ما يوصف به كلمة قالها هو عن معلمه أنطونى كوكب البرية ولكنها تنطبق عليه تماماً وهى : « لقد أحب كل الأشياء ولكنه أحب فوقها جميعًا الحياة فى الجبال » (١) .

وخير ما نختتم به حياة بطل الأرثوذكسية تلك الكلمات التى علق بها الأبيه باربييه على حياة أثناسيوس وهى : « ... الآن – وبعد انقضاء ستة عشر قرناً اتفقت كلمة الكنيسة فى الشرق وفى الغرب على الاعجاب بتلك الشخصية الفريدة التى جمعت بين العزة المتشامخة وبين القداسة ، وجازت الأهوال وظلت مثمرة ، وعرفت معنى البؤس وظلت مجيدة . لهذا فالكنيسة حيثما كانت ستقرن دستور إيمانها باسم أثناسيوس أعظم أبطالها واكثرهم بسالة لتبين للمسيحيين على ممر الأجيال مدى العلو الشاهق الذى يستطيع

---

(١) « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ص١١٠ – ١١١ .

أن يسمو إليه كل من سلم حياته بجملتها للسيد المسيح ، والعجب العجاب الذى يحققه صاحب العقيدة الراسخة . ولقد آن الأوان لأن نسلط الأنوار على هذه الشخصية السنية : شخصية أثناسيوس ، ذلك لأن العقائد تتأرجح والشخصيات تتراخى وأمام هذا التأرجح وهذا التراخى يقف أثناسيوس - ذلك المصارع الخالد - ليذكرنا بعزيمته التى لا تقهر وبمحبته الملتهبة العارمة وبايمانه غير المتزعزع من أى جنس نحن » (١) .

٢٨١ - ومن نعمة الله أننى عثرت - بعد كتابة السيرة العطرة التى هى سيرة بطل الأرثوذكسية الأنبا أثناسيوس - عثرت على رسالة بعث بها هذا البابا الجليل إلى النساك المقيمين خارج مصر ، فرأيت ان اقتطف أهم ما جاء فيها قال : « انها لحرب مقدسة تلك التى شرعتم فيها مباراة لنساك مصر فى الفضيلة ، ونعم اجتهادكم فى احراز قصب السبق ، فها قد أنشئت بينكم شركات (ديرية) عديدة اشتهرت بحفظ القوانين . ولا ريب فى أن الجميع يستحسنون رغبتكم التى أعلنتم لى عنها ، والله يستجيب صلواتكم هذا - ولما رايتكم تطلبون إلىّ بالحاح أن اضع لكم تاريخ الطوباوى أنطونى ، وعلمت أنكم ترغبون فى أن تعرفوا هذه الحياة العجيبة التى عاشها من بدايتها إلى نهايتها ، وتتحققوا من أن كل ما يقال عنه حقيقة واقعة ومن شأنه ان يساعدكم لتتدرجوا فى مراقى الكمال باقتفائكم آثاره ، فقد بدأت بفرح عظيم تنفيذ ما رغبت فيه محبتكم فهذا المؤلف الذى طلبتموه منى يأتى بفائدة كبرى لى ولكم . أما أنا فيدفعنى إلى التأمل فى أعمال هذا القديس ، أما أنتم

---

(١) فى كتابه « حياة القديس اثناسيوس » (بالفرنسية) ص٤٢٩ - ٤٣٠ حيث يقول :

" Après seize siècles, l'Orient et l'Occident s'unissent pour admirer cette existence si fière et si sainte, si agitée et si féconde, si malheureuse et si glorieuse . Partout où l'Eglise vit et règne elle lie à son symbole le nom du plus héroique de ses champions, voulant monterer aux chrétiens de tout les âges à quelle hauteur de vertu peuvent s'élever ceux qui se donnet tout entiers au Christ, et quelles merveilles on peut faire avec des convictions profondes " .

" C'était l'heure de remettre en lumière cette sublime figure d'Athanase. Les convictions flèchissent, les caractères s'amollissent. Par sa fermeté indomptable, par sa foi imperturbable, par sa charité ardente et souveraine . l'immortel athlète nous fera ressouvenir de quelle race nous sommes " .

فيحملكم العجب على الاقتداء به . ولا ريب فى أن النساك سيعرفون طريق الكمال الحقيقى إن هم عرفوا كنه حياة القديس أنطونى . فلا تترددوا اذن فى الاطلاع على هذه السيرة العطرة ، وإياكم أن لا تصدقوا ما يقال لكم عنه بل تأكدوا أن ما قيل ليس سوى النزر اليسير من فضائله السامية . لأن كل ما عزمت على نشره فى هذا الكتاب ارضاء لرغبتكم هو ملخص وجيز لأعماله . وانكم تفعلون حسناً إن استعلمتم عنه بأنفسكم اولئك الذين تغتنمون الفرصة لرؤيتهم . ولو افترضنا ان جميع من عرفوا الأنبا أنطونى سيخبرونكم بما يعرفونه فإنكم ستعلمون حينذاك بأنه من الصعب جداً تأليف قصة تعبر لكم عن الحقيقة كما هى . ولما استلمت تحاريركم عزمت على استقدام بعض النساك – والأخص اولئك الذين زاروا القديس انطونى مراراً – لكى أستفيد منهم بعض الافادة فأقص عليكم ما علمت ولكنى لما وجدت زمن السفن فى البحر قد مضى ، وعلمت أن الذى جاءنى بتحاريركم كان يود الرجوع مسرعاً إليكم ، بادرت إلى اجابة رغبة تقواكم بأن كتبت إليكم ما عرفته بنفسى كرجل قد عاش مع القديس . واستعنت فى كتابتى بما اطلعنى عليه ناسك قضى زمناً طويلاً معه واعتاد ان يسكب على يديه الماء ليغسلهما . وقد اهتممت بذكر الحقيقة فى كل التفاصيل ، وارى من واجباتى أن أعلمكم بالأمر حتى إذا سمع احد كلاماً عن انطونى فيه ذكر اشياء أعجب من التى نشرتها هنا لا يشوبه ريب بصحة هذه المعجزات الباهرة (١) .

✣ ✣ ✣

---

(١) عن كتاب « العيشة الهنية فى الحيوة النسكية » لحضرة الآب الفاضل العامل القس أفرام الديرانى أحد مديرى الرهبانية الحلبية المارونية اللبنانية ص٢٢ – ٢٣ وعنوان الرسالة كما وضعه هذا المؤلف فى كتابه هو « رسالة وجهها اثناسيوس إلى نساكه الذين كانوا مقيمين فى البلدان السحيقة » .

عصر أثناسيوس

أولاً - ديديموس الأعمى البصير

(٢٨٢) ديديموس شارك أثناسيوس مصريته وعواطفه الفياضة .
(٢٨٣) فقده البصر وتعمقه فى الدراسة رغم ذلك .
(٢٨٤) تتلمذ الأساقفة والرهبان له (من الشرق والغرب) .
(٢٨٥) عينه أثناسيوس مديرا لمدرسة الاسكندرية .
(٢٨٦) اشتغل ديديموس بالتعليم والكتابة .
(٢٨٧) كان صديقا حميما لأبى الرهبان .
(٢٨٨) ابتكر وسيلة لتعليم المكفوفين باللمس .
(٢٨٩) انتقل من عالم الظلام إلى عالم النور بعد جهاد علمى دام نصف قرن .

مقدمة :

لو أن أثناسيوس كان الشخصية البارزة الوحيدة فى أى زمان ومكان لكانت شخصيته الجبارة بمفردها كفيلة لأن تحلق بمعاصريها إلى الذروة . ولكن العصر الذى عاش فيه زخر بالرجال النادرين الذين ملأوا الدنيا ضياء ومازال نورهم ساطعًا وهاجًا حتى الآن - فزادوا مصر نعمة وسعادة بما بلغوه من ذرى روحية شاهقة .

٢٨٢- وبينما كان أثناسيوس يجاهد لمجد الكنيسة والدفاع عن ايمانها القويم ، كان يسعى فى الوقت عينه إلى الاحتفاظ بالمستوى العلمى والروحى الرفيع الذى حازته مدرسة الاسكندرية ، وبالتقاليد التى جعلت منها محراب العلوم الدينية والمدنية .

وكان يعيش فى الاسكندرية إذ ذاك رجل امتاز بكتاباته عن الايمان الحق فى جرأة نادرة وبدحضه البدع بالحجج الدامغة فاستحق محبة باباه له وتقديره إياه . وكان هذا الرجل الممتاز هو ديديموس الذى شارك أثناسيوس مصريته الصميمة وعواطفه الفياضة وانفعالاته الملتهبة وايمانه الأرثوذكسى الصميم . فجاهد كلاهما فى سبيل المبادئ الواحدة

والايمـان المشترك باخلاص وثبات كمـا جاهـدا بلا كلل ولا مـلل .

٢٨٣- وكان ديديموس قد أصيب وهو بعد فى الرابعة من عمره بمرض أفقده البصر . ومثل هذه المصيبة كانت كافية لأن تفقد اى طفل أخر حماسته وتطلعه نحو الحياة . أما فى هذا الطفل العجيب فقد زادته تعلقاً بالحياة وبما تحويه من أسرار وعجائب . وذفعه هذا التعلق بالحياة إلى أن يبتهل إلى الله ليمنحه القريحة الوقادة والبصيرة المستنيرة فاستجاب الله دعاءه ، ومن ثم استطاع أن يتضلع فى النحو والشعر والفلسفة والرياضة والموسيقى (١) . ولم يوجد فى الاسكندرية من يستطيع تفسير فلسفة أفلاطون أوضح مما يفسرها ديديموس ، ولا من يتحدث بطلاقة عن ارسطاطيس قدره . وكانت مقدرته على حل أصعب المسائل الهندسية مثار الدهش . اما تبحره فى العلوم الروحية فحدث عنه ولا حرج لأن ادراكه مكنونات الأسفار الإلهية كان يذهل علماء الاسكندرية انفسهم . وكان يحفظ عن ظهر قلب جميع أسفار العهدين القديم والجديد . ولم يكن ليستطيع تسميع هذه الأسفار فحسب بل كان يقارن بينها ويعلق عليها بدقة علمية عجيبة (٢) .

٢٨٤- فليس بغريب أن حاز اعجاب العالم كله وأن سارع الرهبان إليه من أعماق الصحراء ليستنيروا بعلمه ولتمتلئ قلوبهم راحة من النظر إلى وجهه الذى يشع منه النور . كذلك سارع نحوه الأساقفة من سوريا وآسيا الصغرى ليصغوا فى صمت المتعبد إلى محاضراته الرائعة دون أن يشعر أحدهم بأن كرامته الكهنوتية قد نقصت بعودته إلى التتلمذ لهذا المعلم الكبير . فقد كانت أرواحهم تلتهب بالنور المشرق عليهم من روحه المتوقدة (٣) ولم يكن الأساقفة الشرقيون تلاميذه فحسب بل جاءه الغربيون من رجال الكهنوت أيضاً وأبرزهم ايرونيموس (جيروم) وروفينوس وبلاديوس - جاءوا يستقون من منهله العذب الماء الحى الذى يروى ظمأهم الروحى (٤) .

---

(١) « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٤٣ .

(٢) عن مقال لاميدى تييرى فى « مجلة العالمين » (بالفرنسية) عدد أول مايو سنة ١٨٦٥ .

(٣) حياة القديس أثناسيوس (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص٢٤٤ .

(٤) دائرة المعارف الفرنسية للعلوم الدينية جـ٣ ص٧٣٢ .

٢٨٥- ولقد رأى البابا أثناسيوس أن ديديموس هو خير من يدير المدرسة الاسكندرية التي سما بها أوريجانوس إلى أوج المجد العلمي . وفي الوقت عينه كان ديديموس يعجب الاعجاب كله بعبقرية باباه النادرة وبجرأته التي لا حد لها . كذلك شاركه غيرته على الايمان الأرثوذكسي وناصره بكل قواه . وجاهد قدر المستطاع ليملأ قلوب تلاميذه بالايمان المشتعل والاعجاب بأثناسيوس البطل الأول في صفوف المؤمنين . ومع ما امتاز به ديديموس من الحرية الفكرية ومن التعمق في البحث فقد كان متمسكاً تماماً بايمان الكنيسة الذي أعلنه آباؤها في نيقية - مثبتاً ما بين الدين والعلم من تناسق .

٢٨٦- ولم يكتف ديديموس بالقاء المحاضرات بل صرف من وقته وجهده في الكتابة مستهدفاً تعليم المتطلعين إلى المعرفة الذين لا يستطيعون الوصول إلى مدرسته . ومن حسن الحظ أن بعض ما كتبه لا يزال باقياً للآن : فكتابه عن « الروح القدس » موجود في الترجمة اللاتينية التي اداها ايرونيموس ، أما كتابه عن « الثالوث المقدس » فموجود في الأصل ويتكون من ثلاثة أجزاء ، وكذلك كتابه « ضد المانيكيين » . وماعدا هذه الكتب فالباقي مما خطه يراع هذا الحكيم المصري الحساس لا يعدو شذرات متفرقة (١) . ولقد قال ايرونيموس في مقدمة كتابه « أعاظم الرجال(٢) » أن التعاليم الفلسفية التي علم بها القديس أوغسطينوس وأمبروزيوس أسقف ميلانو إنما هي مستقاه من « ديديموس الأعمى الاسكندري البصير » .

٢٨٧- وكان ديديموس والأنبا أنطوني أبو الرهبان صديقين حميمين جمعت بينهما المحبة الخالصة ، وألف بينهما ايمانهما الواحد ، وتشارك كلاهما الاعجاب بالبابا أثناسيوس والجهاد معه وفي سبيله . وحين كان الناسك المصري العظيم ينزل إلى الاسكندرية ليواجه المبتدعين كان ينزل ضيفاً على ديديموس ، فيتعزى كل منهما بصحبة الآخر .

٢٨٨- وكان ديديموس يكتب جميع مخطوطاته بنفسه لأنه أول من

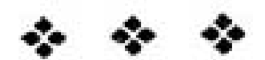
---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٢ ص٣٩٨ .

(٢) أو Virus Illustribus.

ابتكر الوسيلة لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة . وكانت وسيلته هذه هى حفر الكلمات على الخشب ليتمكن الكفيف من قراءتها وكتابتها باللمس . ولما كان ديديموس ممن عاشوا فى القرن الرابع فيكون قد سبق برايل بخمسة عشر قرناً فى كيفية تعليم المكفوفين . إلا أن الحروب والاضطهادات والأحداث الجسام التى اجتاحت مصرنا الحبيبة قد عدت على العلم ووسائله فأفقدت العالم أجمع هذه الوسيلة التى ابتكرها ابن مصر . فظل المكفوفون محرومين الوسيلة التى تمكنهم من استقاء العلم إلى أن قيض لهم الله برايل فى القرن التاسع عشر .

٢٨٩ - وقد ظل ديديموس يعلم ويكتب ويدير المدرسة زهاء نصف قرن - فعاصر البابا أثناسيوس وخليفتيه بطرس الثانى وتيموثيئوس الأول . ثم لبى نداء ربه فانتقل من عالم الظلمة الذى لم يستطع أن يقهر روحه الوثابة إلى عالم النور الذى لمح قبساً منه قبل أن ينتقل ليرفل فيه على مدى الأدهار .



ملخص لمحاضرة ألقاها الأب اليسوعى لويس دوترلو (١) عن ديديموس مساء الثلاثاء ١٠/١٢/١٩٥٧ :

انتقل ديديموس إلى دار الخلود سنة ٢٩٨م . وكان هذا الرجل الضرير نوراً عظيمـاً انطفأ يومذاك . إلا أن المصريين الذين أعجبوا به وتتلمذوا له وأحبوه وجدوا العزاء فيما كتب . وامتلأت صدورهم أملاً فى أن مؤلفاته سيكون لها الأثر الباقى ، وستضئ السبيل أمام المسيحيين على ممر العصور ، لأنهم كانوا يعدونه عملاقـاً فى التعاليم المسيحية . كذلك كانت كتاباته متداولة فى أنطاكية والقسطنطينية ورومية يتناقلها الجميع ويقرأونها ويترجمونها ويقتبسون منها .

وظل ديديموس يتمتع بمكانة ممتازة إلى أن خطر فى بال أبيفانيوس أسقف سلامين بقبرص أن يهاجم أوريجانوس ، فكتب عنه أنه مبتدع ، وطالب جيروم بأن يوقع على حرمه فوافقه ، ثم طالب روفينوس بذلك

---

(1) R. P. Louis Doutreleau S. J.

فرفض . واحس جيروم إذ ذاك بأنه اخطأ فى التوقيع وبأن روفينوس كان أكثر شجاعة منه فى رفضه ، فثارت ثائرته واندفع إلى محاولة تبرير نفسه فقام بحملة شعواء على أوريجانوس وبالتالى على تلميذه ديديموس الذى سعى إلى نشر تعاليم معلمه بكل قوته . ولم يكن روفينوس مصارعًا ولا ساخراً كجيروم فلزم الصمت بعد الهجمات الأولى . ولم يسع جيروم بإزاء صمت روفينوس إلا أن يكف عن الهجوم . ولم تنقض غير خمس سنوات أو ست على هذه الحملة المنكرة حتى أخذ جيروم يترجم كتاب ديديموس عن « الروح القدس » من اليونانية إلى اللاتينية ، وفى مقدمة هذه الترجمة كال المديح لأوريجانوس وتلميذه ديديموس . وتناقل الغرب هذه الترجمة . وزاد فى سرعة تناقلها ان امبروزيوس أسقف ميلانو وتلميذه أوغسطينوس اقبلا على قراءتها ونشرها . ولقد ابتسم امبروزيوس فى اشفاق حين وقعت عيناه على الكتاب لأول مرة إذ مرت بذاكرته جميع ألفاظ السباب التى كان جيروم قد وصف بها هذين المعلمين .

هذا فى الخارج - اما فى مصر فقد رفض الأنبا ثيئوفيلس - البابا الاسكندرى الـ٢٣) أن يوقع على حرم أوريجانوس وديديموس فى بادئ الأمر . على أنه حين قامت المشادة بينه وبين ذهبى الفم تنكر لكليهما وأعلن حرمهما لا لسبب غير اعجاب ذهبى الفم بكليهما . على ان الأنبا ثيئوفيلس عاد فاصطلح مع ذهبى الفم فعاد إلى المجاهرة بصحة تعاليم أوريجانوس وديديموس وإلى نشر هذه التعاليم بين شعبه .

أما الحجة التى تذرع بها خصوم أوريجانوس لادانته فهى : أولاً أنه قال أن أرواح الناس كانت موجودة قبل أن تحل فى هذا الجسد ، إذن فهى ليست من العدم ، وكانت تعيش فى عالم ليس هو بالسماء ولا بهذه الأرض ، بل هو عالم أوسط . ثانيًا انه قال أن الناس فى النهاية سيعودون فيتحدون مع الله ويعيشون معه ، وأن الأشرار - والشيطان نفسه - سيجدون المغفرة فى آخر الدهور . فوجد أبيفانيوس وجيروم فى هذه التعاليم ما يبرر اتهامهما أوريجانوس بالابتداع وبالتالى ديديموس الذى نشر تعاليمه .

وفى سنة ٤١٩ بدأ نجم أوريجانوس يسطع من جديد لأن بلاديوس وسقراط وسوزمين وثيئودوريت المؤرخين الكنسيين كتبوا سيرته وامتدحوه ، فعاد أوريجانوس يتألق هو وتلميذه ديديموس .

وفى سنة ٥٥٣ أرعدت الدنيا من جديد فوق أوريجانوس وديديموس لأن ناسكاً قديساً اسمه مارسابا أسس الحياة الرهبانية الأنطونية فوق مرتفعات جبل الزيتون وحول تلال بيت لحم . وتجمع حوله ما يقرب من عشرة آلاف راهب امتلأوا حماسة لتعاليم أوريجانوس وديديموس . وبدافع حماستهم الملتهبة اقترفوا بعض الشطط ذوداً عن تعاليمهما . فتدخلت السلطات المدنية وقمعت الرهبان بحد السيف . ونتيجة لهذا الصدام اجتمع مجمع فى القسطنطينية واصدر حرمه على أوريجانوس وديديموس وكل من يتمسك بتعاليمهما ! وكان الحرم بلغة عنيفة تناقلتها المجتمعات حوالى أربعة قرون . وخلال هذه الفترة المظلمة لم يكتف خصومهما بعدم نقل كتاباتهما بل كانوا يبيدون كل ما يصل إلى أيديهم منها .

وبعد كل هذا الظلام الدامس بدأ شعاع من النور . فقد جرى بعض الآباء على عادة تلخيص الكتب وتقديمها لتلاميذهم فى صورة مختصرة . وأغلب الظن أن الذى بدأ هذا العمل هو الأنبا كيرلس عمود الدين (البابا الاسكندرى الـ ٢٤) . وكان هؤلاء الآباء ينشرون هذه الملخصات فى مجموعات مسلسلة . وكانت هذه الملخصات صورة لحقيقة التعاليم المأخوذة عنها دون اقتضاب ولا تخفيف . ولحسن الحظ تضمنت هذه الملخصات تعاليم أوريجانوس وديديموس ولو أنها لم تعد شائعة بين الجميع ، بل كانت ضمن الكتب النادرة التى يجدها من يبحث عنها .

وفى القرن الثامن بدا شعاع ثان – فإن راهباً صغيراً ذهب إلى أبى ديره (واسمه بارسينوف) ليستفهم منه عن معنى شئ قرأه ، فإذا بهذا الشئ بعض كتابات أوريجانوس وديديموس . وكانت محفوظة إذ ذاك بدير البغل وخيف عليها فنقلها صديق مجهول ووضعها فى مغارة فى منطقة طرة (بالقرب من جنوبى القاهرة) حيث ظلت محفوظة إلى ان عثر عليها أحد الباحثين منذ خمس عشرة سنة تقريباً . ثم عاد الناس يتحدثون من جديد عن أوريجانوس وتلميذه العجيب ديديموس فى القرن العاشر إذ قد كتب عنهم جميع مؤرخى ذلك العصر .

وفى سنة ١٤٦٩ شق نور هذين المعلمين المصريين حجب الظلام مرة أخرى ، فقد كانا موضع الحديث بين آباء مجمع فلورنسا الذى

انعقد في تلك السنة . وقد ذكرهما الجميع بالاعجاب والاكبار .

وتزايد هذا النور في القرن السابع عشر ، وبدأ رجال الكنيسة يعاودون البحث عن كتابات أوريجانوس وديديموس . ومما يؤسف له أنه - فيما عدا مجموعة مخطوطات طرة - لم يعثر أحد للآن إلا على ثلاث مؤلفات لديديموس هي كتابه عن « الروح القدس » وتفسيره لأسفار موسى الخمسة (١) ، ورسالته ضد بدعة ماني وأتباعه . فتناقل الجميع هذه الكتب ونشروها . ومذاك بدأ نجم ديديموس يتألق من جديد ويرتفع قدره بين العلماء . وكما ابتدأ العلماء الكنسيون يعاودون دراسة تعاليم الأعمى البصير ويستسيغونها ، كذلك جدوا البحث عن تعاليم أستاذه الكبير أوريجانوس . فلعل هذين العالمين اللذين أنجبهما وادي النيل الرحيب يجدان الانصاف بعد كل الظلم الذي لقياه (٢) .

---

(١) هي الأسفار الأولى من العهد القديم وهي : تكوين . خروج . لاويين . العدد . التثنية.

(٢) لقد تحقق الأمل في أن يجد أوريجانوس وديديموس الانصاف قبل أن يفوه به الآب لويس دوترلو بخمسين سنة إذ قد ألف المنسنيور كيرلس مقار (بطريرك القبط الكاثوليك) كتاباً بالفرنسية سنة ١٩٠٧ عنوانه « تصويب الافتتان العلمي لأوريجانوس» ونشره في جزءين : الأول ترجمة لأوريجانوس والثاني يشمل بعض تعاليمه . وللكتاب جزء ثالث لم ينشر بعد يعالج مشكلات الكتاب المقدس أوضحها أوريجانوس ، وهو لا يزال مخطوطاً في حيازة عائلة مقار . وبعد انتقال كيرلس مقار إلى الأخدار السماوية وقف المنسنيور فرنسيس قزمان وكيل مطرانية القبط الكاثوليك بطهطا يرثي الفقيد وذكر في رثائه أن بيوس العاشر - البابا الروماني إذ ذاك - حين اطلع على هذا الكتاب النفيس الذي كتبه كيرلس ، بعث إليه برسالة هنأه فيها على أنه أثبت أر ثوذكسية هذا المصري الجليل بعد مضي قرون على ظلمه . ومما هو جدير بالذكر هنا أن كيرلس مقار تحول عن الكثلكة إلى الأرثوذكسية قبيل نياحته فاقتدى به عدد غير قليل من شعبه .

وهناك كاتب آخر - هو أوجين دي فاي - نشر كتاباً في باريس سنة ١٩٢٥ (بالفرنسية أيضاً) عن تعاليم أوريجانوس تساءل فيه عما إذا كان الوقت لم يحن لأن ينال أوريجانوس (المسيحي الفيلسوف) الانصاف الذي يستحقه . ثم استرسل دي فاي في هذا التساؤل قائلاً أن العودة إلى الوراء غير ممكنة وأن الذين يقدرون مسئولياتهم يجب أن يمتدوا بأبصارهم إلى الأمام . ولكنهم - إذا ما استناروا بآراء أوريجانوس- سيجدون فيها البلسم الشافي لجراح الضمير الانساني الدامي - راجع كتابه « خلاصة لفكر أوريجانوس » ص١٦٨ - ١٧٠ .

ثانيًا : الشاب الشيخ

(٢٩٠) الشيوخ يلقبون مكارى بالشاب الشيخ .

(٢٩١) ملاك الرب يقوده إلى البرية .

(٢٩٢) النعمة الالهية تفيض على مكارى .

(٢٩٣) ذهابه إلى الأنبا أنطونى .

(٢٩٤) أنطونى يوضح لمكارى وسائل مقاومة الشيطان .

(٢٩٥) تواضع مكارى الجم .

(٢٩٦) مكارى يزور الأنبا أنطونى ثانية .

(٢٩٧) وصية الأنبا أنطونى لمكارى وزميله قبيل نياحته .

(٢٩٨) المحبة التى طفت على قلب مكارى .

(٢٩٩) كتابات مكارى وقدرته .

(٣٠٠) قصة عنقود العنب .

(٣٠١) تقدير مكارى للمؤمنين العائشين فى العالم .

(٣٠٢) اضطهاد فالنس يشمل سكان الصحراء .

(٣٠٣) الآية التى صنعها مكارى فى جزيرة فيلا .

(٣٠٤) مكارى يصل إلى الكمال المسيحى .

(٣٠٥) دير الأنبا مكارى فى برية شيهيت وما مر به من أحداث .

٢٩٠ – لما اختط القديس أنطونى طريق الرهبنة كانت حياته هى الشعلة التى أضاءت ذلك الطريق الشاق ، وعلى ضوء حياته المشتعلة سارت الجماهير التى أحبته . ومن بين هذه الجماهير برز عدد من الرجال والنساء استحقوا أن تلقبهم الكنيسة بكواكب البرية لوهج النور الذى سطع من حياتهم على أخوتهم من البشر . ومن أسطع هذه الكواكب القديس مكارى الكبير [١] الذى قضى ثلاثين سنة فى العالم وستين سنة فى الصحراء . ولقد حباه الله المقدرة على اجراء الآيات والعجائب . وكان – مع هذه النعمة – رزينًا

---

(١) روى الآباء أن رجلين يحملان اسم « مكاريوس » سطع نورهما فى تلك الأرجاء أحدهما ولد فى الصعيد فلقب بالمصرى ، وثانيهما ولد فى الاسكندرية . وكان مكارى المصرى تلميذًا للأنبا أنطونى أخذ عن معلمه ما تميز به من نعمة وقداسة – راجع كتاب « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص١٨ .

متواضعاً إلى حد جعل شيوخ البرية يقولون عنه أنه « الشاب الشيخ » لأنه استطاع أن يصل إلى ذروة القداسة فى وقت قصير للغاية ولأنه تمكن من سبر غور المعانى الروحية المستترة خلف الألفاظ فى الأسفار الإلهية .

١٩١ – وحين ترك مكارى بلدته – فى الثلاثين من عمره – قصد إلى الصحراء الغربية ، ولما وصل إلى نهاية الوادى الأخضر وبدأ يتخطى حدوده ويدخل البرية القفرة ظهر له ملاك الرب وسار أمامه حتى أوصله إلى شيهيت[1]. وحين جال طالب الخلوة بعينيه فيما حوله لم يبصر إلا الرمال المترامية حتى منتهى الأفق ، ولم يسمع غير صوت الريح يهمس أحياناً ويدوى أخرى فاستهواه هذا الفضاء الرحيب وحار فى اختيار البقعة التى يأوى إليها . فسأل الملاك الذى أرشده قائلاً : « عيِّن لى موضعاً أقيم فيه يا سيدى » . فأجابه الملاك : « للرب الأرض وملؤها ، وله هذا الفضاء المترامى ، فاختر لنفسك البقعة التى تريدها . ولن أعيِّن لك مكاناً بالذات لتستطيع أن تنتقل فى هذه الفيافى الشاسعة دون أن تشعر أنك عصيت أمرى » . ولما قال الملاك هذا الكلام اختفى عن عينى مكارى .

٢٩٢ – وحالما تركه الملاك أخذ طالب الخلوة يتأمل هذه الصحارى الممتدة إلى الأفق حتى كأنها لا نهاية ، وأخذ يتمشى فيها ويتوغل داخلها فى رضى واستسلام إلى أن وجد مغارة طبيعية تعلو هضبة مرتفعة فاتخذها مسكناً له وقضى بها ما يقرب من ثلاث سنين . ولما كان يسعى جاهداً إلى بلوغ أسمى درجات الكمال فقد كانت تجتاحه نشوة هى نشوة الانسان الذى فاضت عليه النعمة الإلهية فمكنته من أن يسعد برؤى سماوية يعجز الفكر عن التعبير عنها كما يعجز اللسان عن وصفها . وسرى سكون الصحراء الشامل إلى نفسه فملأها سكينة وسلاماً .

٢٩٣ – وفى نهاية هذه السنين الثلاث قال مكارى فى نفسه : « لقد سمعت وأنا مقيم بين مواطنى بالصعيد عن رجل الله أنطونى . فلأذهبن إليه

---

(١) كلمة قبطية معناها « ميزان القلوب » ، وهى اسم البرية التى يقوم عليها دير الأنبا مكارى (او ابى مقار حسب التسمية الشائعة) . وهذه البرية تقع فى منطقة وادى النطرون حول منتصف الطريق الصحراوى الموصل من القاهرة إلى الاسكندرية .

لأتخذ منه لى أباً روحياً » . ثم صلى واتجه نحو الصحراء الشرقية . وظل فى سيره حتى وصل إلى صومعة الأنبا أنطونى . وما أن رآه أسطع كواكب البرية حتى قبل رأسه ورحب به قائلاً : « مرحباً يا ابنى مكارى المطوّب (١) فقد أعلمنى الرب بما أنت فيه من نسك وصلاح كما أعلمنى بمجيئك إلىّ » .

٢٩٤- وقد أقام مكارى مع الأنبا انطونى مدة من الزمن امتلأ فى غضونها بالحكمة الروحية . وفى تلك الآونة أوضح له معلمه العظيم الوسائل التى يقاوم بها الشيطان واعوانه . واردف ذلك بقوله : « سيحاربونك بلا هوادة فى السر ، وسيحاربونك بعنف فى العلن حتى نهاية العمر . وإذا ما اثاروا عليك الحرب فاثبت فى وجه القوات المحاربة كى تبلغ درجة الكمال » . وكان مكارى مصغياً إلى هذه الكلمات بكل جوارحه ثم رجا من معلمه الكبير أن يبقيه بين تلاميذه . غير ان الأنبا أنطونى رفض هذا الطلب قائلاً : «انصحك بأن تعود إلى المكان الذى أوصلك إليه الملاك وتقيم فيه معتصماً بالصبر وطول الأناة » . ثم البسه الاسكيم المقدس وزوده بصالح الدعوات .

٢٩٥- وكانت تعاليم الأنبا انطونى خير معوان لمكارى فى جهاده الروحى . فظل طيلة حياته متصفاً بفضيلة الاتضاع رغم ما حباه اللّه به من استعلانات سماوية . وهذه الفضيلة التى كان يتصف بها الأنبا مكارى تتجلى فى القصة الرقيقة التالية : « كان الأنبا مكارى عائداً ذات يوم إلى صومعته عند الفجر وهو يحمل حزمة من سعف النخل . فاعترض الشيطان طريقه وحاول أن يضربه ولكنه لم يفلح . فما كان منه - وقد عجز عن ايذائه - إلا أن صرخ فى وجهه قائلاً : « انت تصوم اياماً ولكنى اصوم ابد الدهر ، انت تسهر بعض الليالى فى حين أن عينى لا ترى النوم . وليس هناك غير ميزة واحدة تتفوق بها علىّ » . فسأل مكارى : « وما هذه الميزة ؟ » أجابه : «اتضاعك » وفى الحال جثا القديس على الأرض مستعيناً باللّه ليعطيه الغلبة على هذه التجربة الخلابة . وعندها تلاشى الشيطان من امامه (٢) .

---

(١) مكاريوس كلمة يونانية معناها مطوب وقد تداولها القبط بصورة مصرية فدعوا القديس باسم « مكارى » .

(٢) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل : المقدمة ص١٧ .

٢٩٦- وظل القديس مكارى فى جهاده بغير ملل عملاً بوصية معلمه الكبير انطونى . غير أن وطأة القتال اشتدت عليه ذات مرة ، وخشى أن يعجزه الدفاع ، فقام لساعته قاصداً الأنبا انطونى للمرة الثانية . ولما رآه أبو الرهبان آتياً من بعيد قال لتلاميذه : « أترون هذا الرجل الآتى إلينا ؟ إنه إناء مختار من الله ليكون عكازه يتوكأ عليها الكثيرون من الساعين نحو الكمال الإلهى » .

وما أن وصل مكارى إلى المكان الذى يقيم فيه الأنبا أنطونى حتى انحنى أمام معلمه وسجد له . فأقامه هذا المعلم المتواضع وقبله فى فرح وحبور . وبعد أن صلى كلاهما معاً سأله أبو الرهبان : « ما بك يا ولدى ؟ » فأجابه مكارى بما يجيب به الابن المطيع أباه الحبيب . وأصغى الشيخ إلى كلمات الشاب فى حنان عجيب ثم قال له : « تشجع لأنه يليق بنا أن نحتمل جميع سهام العدو الملتهبة بصبر وطول أناة إن شئنا أن نكون قادة للمتطلعين نحو الكمال المسيحى » . وأصغى مكارى إلى كلمات النعمة الخارجة من فم معلمه بفرح وتهليل ، ولازمه عدة أيام يتشرب منه حكمته . فسرت النعمة الإلهية من المعلم إلى تلميذه ، وشملت الاثنين غبطة روحية عميقة .

٢٩٧- وبعد أيام استدعى الأنبا أنطونى مكارى وتلميذاً آخر . وتفرس فى مكارى ثم قال له : « تشجع وكن دائمًا على حذر لكى لا تحزن الملاك الذى عينه الله تعالى لمعاونتك على الجهاد الروحى » . ثم التفت إلى تلميذه الثانى وأوصاه بالسهر والتمسك بالتعاليم الإلهية . وبعد ذلك عيّن لهما أنطونى الأشخاص الذين يريد أن يعطيهم القليل الذى له ثم قال لهما : « والآن قد حان وقت الوداع يا ولدى لأنى أترك هذا العالم وأمضى إلى ربى وإلهى » . وقبّل كل منهما بقبلة مقدسة ، ووضع عكازه فى يد مكارى ، واستودع روحه يدى الآب السماوى (١) . ولما رأى التلميذان أن معلمهما قد فارقهما بالجسد تعاونا على دفنه وسط الصحراء الواسعة ولم يعلما أحداً بالموضع عملاً بالوصية التى تلقياها منه شخصياً . وما أن فرغا من تأدية آخر خدمة تحتمها عليهما المحبة حتى عاد مكارى إلى صومعته فى شيهيت . وكان يحدث نفسه فى الطريق قائلاً : « عليك يا نفسى منذ الآن أن تضاعفى مجهوداتك فى

---

(١) السنكسار الأثيوبى ، ترجمه إلى الانلجيزية واليس بودج جـ٣ ص٧٤٠ - ٧٤٢ .

سبيل الكمال المسيحي لتجعلى منى انساناً جديراً بالمعلم العظيم الذى تتلمذت له » . وكان يردد هذه العبارة ليشدد بها نفسه فى كل مرة يشتد عليه قتال العدو .

٢٩٨- ولقد نظر الله إلى اتضاع مكارى وجهاده فكشف له عن مكنونات الروح . وتهلل مكارى لهذه الاستعلانات الإلهية وامتلأت نفسه دعة وسكينة، وفاضت من قلبه محبة دافقة غمرت جميع المخلوقات . ولقد انعكست محبته على القلوب ، فأحبه الناس والتف حوله عدد كبير من التلاميذ والمريدين . فعلمهم بكل تواضع وحنان . وكان يقول لهم : « إن رغبتم فى توبيخ شخص وأنتم فى حالة الغضب كان توبيخكم إياه تنفيساً عن هذا الغضب لا سعياً فى اصلاح المخطئ . فاحذروا لئلا تسقطوا فى الخطية وأنتم تحاولون انتشال غيركم منها ، ولن تفلحوا فى أن تبنوا غيركم ما لم تتألموا معه لأنكم بالمكم تستهدفون خيره وبنيانه فتكسبونه وتكسبون نفوسكم أيضاً » (١) .

٢٩٩- ولم يقتصر الأنبا مكارى على التعليم الشفوى ولكنه كتب خمسين ميمراً وسبعة رسائل عدا ما كتبه من الحكم والأمثال . وتتميز كتاباته كلها بالروحانية المتقدة . وقد ترجمت هذه الكتابات إلى اللغتين الفرنسية والألمانية كما ترجمت سيرته إلى الفرنسية (٢).

٣٠٠- ولقد كان للأنبا مكارى أثر بعيد فى النفوس ، لأنه لم يكتف بالتثقيف والارشاد بل كان هو نفسه المثل الحى الناطق بتعاليمه . فقد حدث أن أحضر له أحد زائريه ذات يوم عنقوداً من العنب ، ولكن المحبة التى طغت على قلبه دفعته إلى أن يحمل العنقود إلى ناسك مريض يعيش فى صومعة قريبة من صومعته . فشكر المريض الآب السماوى على ما أبداه الأنبا مكارى

---

(١) « أباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص١٠٢ .

(٢) ترجم موريل ميامر القديس مكارى إلى الفرنسية وطبعها فى باريس سنة ١٥٥٩ ، كما طبعت رسائله فى تولوز سنة ١٦٨٤ ، ونشر أرنولد ترجمة المانية لجميع مؤلفات هذا القديس سنة ١٧٠٢ ، وأعاد كاسيدان طبعها سنة ١٨١٩ . أما سيرته فقد ترجمها اميلينو إلى الفرنسية ونشرها سنة ١٩٤٨ . راجع دائرة المعارف للعلوم الدينية بالفرنسية تحت عنوان « مكارى » ، « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٥٥٩ .

نحوه من حنان ، ولكنه فكر بدوره في ان هناك شابًا حديث العهد بالرهبنة أولى منه بعنقود العنب . فحمله إليه . وحمل الشاب العنقود إلى ناسك آخر . وهكذا انتقل العنقود من ناسك إلى غيره حتى اعيد اخيراً إلى الأنبا مكارى نفسه دون أن يعرف أحد من أول ناسك حمله . وحين تسلم القديس الكبير العنقود للمرة الثانية رفع نظره نحو السماء ومجد الآب السماوى الذى ملأ قلوب ابناءه بمحبة هذا مقدارها . وزادته هذه المحبة الجياشة قوة فضاعف اصوامه وصلواته وتأملاته ، كما ضاعف تعب محبته لبنيان غيره من النساك (١) .

٣٠١- ولقد وهب الله هذا القديس الناسك احساساً مرهفاً جعله يدرك ان ارضاء الله ليس وقفًا على سكان الصحارى ولكنه يشمل جميع من يخافونه فكان كثيراً ما يفكر اثناء تأملاته فى اخوته المؤمنين العائشين فى العالم وفى مدى رضى الله تعالى عنهم . ولقد أراد الله جل اسمه أن يسبغ على قلبه سلامًا كاملاً نتيجة لهذه التأملات ، فاستجاب لدعواته بصورة واضحة جميلة . ذلك انه حدث أن طلب الأنبا مكارى إلى الآب السماوى ذات ليلة أن يظهر له درجة الكمال التى بلغها فرأى فى رؤى الليل ملاك الرب وسمعه يقول له : « لقد بلغت من الكمال المسيحى ما بلغته سيدتان فى إحدى القرى » . فلما أصبح الصباح قصد القديس إلى السيدتين اللتين أشار إليهما الملاك ، وطلب إليهما أن يعلماه بالمعيشة التى يعيشانها . فأعلمتاه بأنهما زوجتان لأخوين شقيقين ، وانهما تعيشان مع زوجيهما فى بيت واحد. وانهما قد اتفقتا على أن لا تغضب إحداهما الأخرى ، فإن حدث أن اغضبت واحدة زميلتها عن غير قصد تبادر إلى مصالحتها قبل أن تغرب عليهما الشمس . فعاد القديس مكارى إلى صومعته وهو يقول : « الآن قد علمت أن لا فرق بين المتبتل والمتزوج ، وبين ساكن الصحراء والعائش وسط صخب المدن. فقد وهبهما الله قسمة الحياة ولا يطالبهما إلا بالقلب النقى(٢).

---

(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٨٠ ، « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ك١ ص٢٥ ف٨٦ .

(٢) « تاريخ أديرة نيتريا والاسقيط » (بالانجليزية) لايفلين وايت ك٢ ص٧١ .

٣٠٢- وبينما كان القديس مكارى فى هذا النضال الروحى المتلاحق ، أضرم الامبراطور فالنس نار الاضطهاد . ولم يكتف بتعذيب سكان المدن بل أغار بجيوشه على الصحارى ، فأعملوا سيوفهم فى رقاب النساك . ولما كان الأنبا مكارى من أبرز مقاومى البدعة الأريوسية (بدعة انكار لاهوت المسيح) فقد حق عليه العقاب الامبراطورى . لهذا أرسل فالنس شرذمة من جنوده إلى شيهيت أخرجوه من صومعته هو ورهبانه ونفوهم إلى جزيرة فيلا حيث تمجد اسم الله بواسطتهم (١) .

٣٠٣- والآية الأولى التى أجراها الله على يد الأنبا مكارى وتلاميذه حدثت حالما وطئ هو ورهبانه أرض تلك الجزيرة ، وتتلخص فى أن كبير كهنة الوثنيين فى تلك الضاحية كان قد رزق بنتًا وحيدة مستها روح شريرة فلما ابصرت الأنبا مكارى وصحبه جرت نحوهم ثم صرخ الروح الذى بداخلها : « لقد ظننا أننا هنا فى مأمن منكم . فما الذى جاء بكم إلينا يا اتباع الناصرى ؟ ألم يكفكم احتلال الصحارى حتى طمعتم فى أن تحتلوا جزيرتنا أيضًا ؟ إن كان هذا ما تبتغون فاحتلوها لأننا عن مقاومتكم عاجزون » ثم ألقوها على الأرض . فمد القديس يده إليها واقامها ورفع عينيه نحو السماء ، وصلى بحرارة . وما انتهى من صلاته حتى كان الروح الشرير قد خرج من الفتاة . فأعادها إلى ابيها معافاة . وآمن أبوها وصحبه بالمسيح الذى أعطى الناس سلطانًا مثل هذا (٢) .

وحين وصل نبأ هذه الأعجوبة إلى الاسكندرية ازدادت نفوس اهلها شجاعة فاشتدوا فى كفاحهم ضد الأمبراطور فالنس واضطروه إلى أن يكف عن اضطهاده إياهم ويعيد إليهم باباهم المنفى أثناسيوس الرسولى (٣) .

ولما انطفأت نيران ذلك الاضطهاد عاد الأنبا مكارى ورهبانه إلى صوامعهم آمنين مطمئنين .

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية تحت كلمة « مكارى » .

(٢) « المسيحية فى جزيرة فيلا » (بالفرنسية) لهنرى مونييه نشرها فى « مجلة جمعية الآثار القبطية » بعددها الرابع (سنة ١٩٣٨) ص٤٢ .

(٣) « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٥٠٨ .

٣٠٤- وبعد جهاد روحى عنيف لا هوادة فيه استطاع أن يصل إلى درجة من الكمال المسيحى استحق معها أن يوصف بتلك الآية الكريمة : « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموت هو كامل » (١) ، إذ قد بلغت قداسته ذروة جعلته يغطى عيوب الناس ويستر زلاتهم ويحتمل ضعفهم فى حنان عجيب (٢) . ولم يترك البرارى وينتقل إلى الأخدار السماوية إلا وهى آهلة بالنساك الذين كرسوا حياتهم لخدمة الناس ولتمجيد الله .

٣٠٥- ولا يزال دير الأنبا مكارى عامراً حتى أيامنا هذه . وهو قائم على الأرض التى تقدست بحياة مؤسسه . ويقوم على مقربة منه أديرة ثلاثة هى دير الأنبا بشوى ، ودير السيدة العذراء الشهير بدير السريان ، ودير البرموس . وهذه الأديرة تنسجم انسجاماً كاملاً يتفق مع العزلة الشاملة المحيطة بها . وقد عبثت يد الدهر بهذه الأديرة فى القرون الستة عشر التى انقضت على بنائها فكان نصيبها غير نصيب الصحارى التى أقيمت فوقها .

وقد تأسس دير الأنبا مكارى فى القرن الرابع . وفى القرن الخامس أغار عليه البربر مرات ثلاث . وأعيد بناؤه فى آخر ذلك القرن بفضل العطايا التى تبرع بها الامبراطور زينون للأديرة . وفى القرن السادس عاد البربر إلى تدميره للمرة الرابعة . وظل بين الدمار والعمار حتى القرن الثامن حين قام رهبانه بإعادته إلى ما كان عليه من فخامة إذ كان الأنبا بنيامين (البابا الـ ٣٨) قد اتخذه مقراً له حين هرب من اضطهاد الامبراطور هرقل ، كما أنه أصبح مركز الثقافة الكنسية بعد أن انتقلت إليه مدرسة الاسكندرية وما تبقى من حريق مكتبتها العظيمة . على أن القبائل المغيرة عاودت مهاجمة هذا الدير فى القرن التاسع ودمرته تدميراً . وما أن أخذ الرهبان فى اعادة بنائه حتى أغار عليه البربر للمرة السادسة . فلما رأى الأنبا شنودة (البابا الاسكندرى الـ ٥٥) تكرار هذا التدمير أحاط كنيسته الكبرى بسور غاية فى المناعة لتكون حصناً حصيناً يحتمى بها الرهبان إذا ما أغار المغيرون على ديرهم .

---

(١) متى ٥ : ٤٨ .

(٢) « أباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٢٢٢ ، « حكمة الآباء المسيحيين المصريين وفطنتهم » ترجمه عن السريانية إلى الانجليزية واليس بودج ك٢ ص٢٦٩ ف٢٤٣ .

وفى القرن الرابع عشر تفشى الطاعون فى القطر المصرى بأكمله حتى أنه امتد إلى الصحارى فعمل عمله فى الرهبان ولم يبق منهم فى هذا الدير غير عدد لا يتجاوز أصابع اليدين .

على أن الروح المسيحى الذى لا يقهر قد دفع بالرهبان إلى ترميم الأبنية المتداعية واقامة أبنية جديدة بدل الخرب التى خلفها البربر والطاعون (١) . ولا يزال هذا الدير عامراً للآن بنعمة الله . وخير ما قيل عن أديرة وادى النطرون الباقية ما ذكره بطلر إذ قال : « إن هذه الأديرة تقوم على أراض قدستها العبادة المسيحية مدى ثمانية عشر قرناً » (٢) .

ثالثا : الأسقف سرابيون

(٣٠٦) من اعلام الايمان النيقى .

(٣٠٧) تلقيبه . بالضليع . لغزارة علمه .

(٣٠٨) انتقاله إلى بيعة الأبكار وهو فى المنفى .

٣٠٦ – ومن الأعلام الذين وقفوا فى وجه الأريوسيين وجاهدوا فى عزم وثبات الأسقف سرابيون الذى كان من التلاميذ المقربين للقديس انطونى ، لشارك الأنبا مكارى هذه البركة العظمى : بركة التتلمذ لأبى الرهبان ، كما اشترك معه فى أخذ بركة هذا المعلم الكبير فى لحظته الأخيرة إذ كان معه ساعة أن اعطاهما آخر وصية له قبل أن يستودع روحه يدى الآب السماوى .

ولم يكتسب سرابيون قداسة معلمه كوكب البرية فحسب ولكنه تعلم فى مدرسة الاسكندرية أيضًا ، حيث اشتهر بأسلوبه الرشيق وعلمه الجم المقترن بالتواضع الحق . فلما شغر كرسى اتمى (الأمديد) أجمع الشعب على انتخابه أسقفًا فحقق لهم الأنبا أثناسيوس الرسولى رغبتهم ورسمه لهم .

---

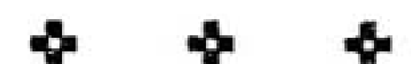
(١) راجع الوصف التفصيلى لهذا الدير فى كتاب « أديرة وادى النطرون »(بالانجليزية) لايفلين وايت ص٢١-١٢٩ ، مجلة جمعية الآثار القبطية العدد السابع (سنة ١٩٤١) ص٨٢ – ٨٣ .

(٢) فى كتابه « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) جـ١ ص٢٧٩ .

ولقد كان تقدير البابا الاسكندرى الجليل لهذا الأسقف عظيماً إلى حد أنه كان يطلب إليه مراجعة مؤلفاته كما كان يأخذ بنقده قبل نشر هذه المؤلفات .

٣٠٧- وكرس سرابيون حياته لخدمة شعبه . إلا أن خدمته المتواصلة لم تعفه عن الكتابة . فكتب سيرة معلمه الأنبا أنطونى كما كتب سيرة مكارى الكبير زميله فى التلمذة لأبى الرهبان ، إلى جانب مراجعته لمؤلفات الأنبا أثناسيوس . كذلك كتب قداساً عبر فيه عن الروح القبطية وميلها إلى التأمل فى ما وراء المادة ، وكتاب صلوات لاستعمال الأساقفة . والكتاب الأخير من أقدس المخلفات الروحية التى انتجها أباء الكنيسة فى صدر المسيحية . وكان الأنبا سرابيون قد اشتهر بالتعمق فى العلوم وبالأسلوب الرشيق فى التعبير وصفه معاصروه « بالضليع » [1] . ومما يؤلمنى أن معظم كتاباته قد وصلتنا فى شذرات . إلا أن الباحثين قد عثروا أخيراً على نسخة من كتاب صلواته فى دير بأعلى جبل اثوس (فى بلاد اليونان) .

٣٠٨- ولقد كان سرابيون بين الأساقفة الذين أصروا على التمسك بدستور الايمان الذى أقره مجمع نيقية (المسكونى الأول) فكان جزاؤه على هذا الاصرار أن أمر الامبراطور فالنس بنفيه . ومما يؤلمنى ذكره أيضاً أن هذا الحبر الجليل قد ظل مقاسياً مرارة النفى حتى انتقل إلى بيعة الأبكار بعيداً عن وطنه المحبوب مصر [2] .



---

(١) الكلمة المستعملة لوصف سرابيون هى Scolasticus .

(٢) راجع كتاب « قديسو مصر » للمنسينيور پول دورليان (بالفرنسية) جـ١ ص٤١٠ - ٤١١ ، دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة جـ٢٠ ص٣٤٠ .

رابعاً : أب رؤوف

٣٠٩- كان الأنبا بيمن معاصراً للأنبا مكارى الكبير . وكان رحيماً رقيقاً يعطف على جميع الناس حتى لقد أطلق عليه أصحابه ومعارفه لقب « الأب الرؤوف » . ولقد حمل بيمن نير المسيح وهو بعد في سن الشباب فقضى ما يقرب من قرن في برية شيهيت اجتذب خلاله عدداً من الناس إلى حياة القداسة . ومما ساعده على اجتذاب الناس رقته ورحمته اللتان كانتا كالمغنطيس تحببان الناس فيه وتكتسبانهم إلى الحياة النسكية . وقد هدف بعض الذين ذهبوا إليه إلى التبرك به فقط . ولكنهم حين جلسوا معه استهوتهم شخصيته بما يشع منها من حنان فتتلمذوا له متخذينه أباً ورئيساً روحياً . كذلك جاءه البعض ليجدوا في حكمته الحل لمشكلاتهم النفسية .

٣١٠- وذات مرة جاءه راهب يستشيره وكان الأحد الثاني للصوم المقدس . وبعد أن أصغى إلى نصيحته قال له : « أتعرف يا أبا بيمن أني كدت أن لا آتي إليك اليوم ؟ » فسأله : « ولماذا ؟ » أجابه الراهب : « لقد قلت لنفسي ربما كان الباب مغلقاً مدة الصوم المقدس » . قال له الأنبا بيمن : « لم نتعلم أن نغلق الباب المصنوع من الخشب ولكننا تعلمنا أن نغلق باب فمنا » (١) .

٣١١- ولتواضعه الجم كان يطلب إلى غيره أن يعطى النصح المطلوب منه شخصياً . فقد حدث ذات مرة أن ذهب لزيارة الأنبا بيمن رجل مدنى

---

(١) « حكمة الآباء المسيحيين المصريين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٨ ف١٧ .

يخشى الله ويعمل بوصاياه . وكان بعض الاخوة جالسين مع الأنبا بيمن ساعة أن وصل هذا الرجل . وكان الاخوة يلحون عليه ليسمعهم كلمة تدخل العزاء والسكينة على قلوبهم وبعد أن صمت الأنبا بيمن قليلاً طلب إلى الرجل المدنى أن يقول كلمة للاخوة . واعتذر الرجل فى بادئ الأمر بحجة انه جاء ليستمع لا ليتكلم . ولكن الأنبا بيمن كرر رجاءه فلم يسع الزائر إلا أن يلبى هذا الرجاء ويتحدث . فقال : « لست ممن تبحروا فى العلوم ، بل أنى رجل أعيش من بيع الخضروات ولأنى لا أستطيع الكلام من الكتب فسأروى لكم مثلاً : كان لرجل ثلاثة أصدقاء . فقال لأولهم « بما أننى مضطر إلى الذهاب لمقابلة الامبراطور فأرجو منك ان تأتى معى ، لتشد أزرى » . أجابه الصديق الأول : « لا أستطيع أن أصحبك إلا إلى منتصف الطريق » . وذهب إلى الصديق الثانى وقال له : « هل لك يا صديقى ان تأتى معى لأنى مضطر إلى مقابلة الامبراطور ؟ » أجابه الصديق الثانى : « فى وسعى ان اوصلك إلى باب القصر ولكننى لا أستطيع أن دخل إلى حضرته معك » . فتركه وقصد إلى الصديق الثالث فقال له : « انى مستعد لأن اذهب معك وأدخل إلى حضرة الامبراطور معك وأتكلم بالنيابة عنك ايضاً » . ولما أتم الزائر هذا المثل سأله الاخوة أن يفسر لهم معناه . فقال لهم : « إن الصديق الأول هو التنسك . وهو صديق مخلص ولكنه لا يستطيع أن يصل معنا إلا إلى منتصف الطريق ، والصديق الثانى هو القداسة التى بدونها لا يعاين أحد الله ولكنها مع ذلك لا يمكنها إلا أن توصلنا إلى بابه وهى صامتة . أما الصديق الثالث الذى يدخل معنا ويتكلم عنا لما له من جرأة فهو المحبة » (١) .

٣١٢- وكان الشيوخ يحضرون ايضاً ليستقوا من ينبوع حكمته . فجاء إليه بعضهم مرة وسأله : « إن نحن وجدنا بعض الاخوة نياماً فى الكنيسة فماذا نفعل بهم ؟ » أجابهم : « إن وجدت أخى نائماً فى الكنيسة أضع رأسه على ركبتى وأفسح له المكان ليستريح » . فقال له أحدهم : « وما الجواب الذى تؤديه لله عن هذا العمل ؟ » أجابه الأنبا بيمن : « سأقول لربى : لقد قلت لى

---

(١) « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٣٢ ف٤٢٩ .

أخرج الخشبة من عينيك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك » (١) .

٣١٣- وكان الأنبا بيمن يزداد حكمة ومحبة كلما تقدمت به الأيام . ومن حسن الحظ أن الكثير من تعاليمه لا يزال موجوداً للآن . وكان كثيراً ما يقول لرهبانه : « دربوا قلوبكم على ما تتلفظ به ألسنتكم » (٢) ولكى يؤكد لهم أهمية هذا التدريب كان يقول : « لسنا فى حاجة إلى شىء قدر حاجتنا إلى القلب اليقظ المجاهد » (٣). ولما وجد بينهم من يتطلب مزيداً من الايضاح قال لهم « حين قال لنا سيدنا (من له ثوب فليبعه وليشتر سيفاً) كان يهدف إلى أن من كان عائشاً فى الترف عليه أن ينبذ هذه المعيشة ليحيا حياة الجهاد والكفاح » (٤) .

٣١٤- وكان الكفاح مذهبه حتى لقد دأب على العمل باستمرار - لا فى صباه فحسب ، بل فى شيخوخته أيضاً - ولقد جاءه مرة رجل يسأله قائلاً : « يا أبى ماذا أفعل لاسحق ابنى فهو مطيع للغاية ؟ » . أجابه الأنبا بيمن : « إن شئت أن تنفعه حقّاً فكن قدوة له بالفعل لا بالقول . لأنه إذا وجد أمامه قدوة فى ما يؤديه من أعمال أصبح نافعاً وتعوّد الجهاد بدوره » (٥) .

٣١٥- ولما كان الأنبا بيمن على جانب كبير من الرأفة فقد دأب على تعليم الرهبان أن يتحكموا فى أنفسهم . وحدث أن سأله أخ ذات يوم قائلاً : « ما المعنى أن لا نجازى أحداً عن شر بشر ؟ » أجابه القديس بيمن : « هناك أربع خطوات للوصول إلى تحقيق معنى هذه الآية وهى القلب والعين واللسان والعمل . فإن استطعت أن تنتصر على القلب تم لك الانتصار من الخطوة الأولى . أما إن احتدم قلبك غيظاً فإنك ستتفرس فيمن أساء إليك . وساعتئذ

---

(١) شرحه جـ١ ص١٣٥ ف٤٤٢ ، متى ٧ : ٥ .

(٢) شرحه جـ١ ص٨٦ ف٢٩٧ .

(٣) شرحه جـ٨٩ ف٣١٦ .

(٤) « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٢٣٠ ف٩٤ ، تفسير للوقا ٢٢ : ٣٦ .

(٥) شرحه جـ٢ ص٢٩٤ ف٣٥١ .

حاذر والجم لسانك . فإن انفلت منك زمامه فقف عند هذا الحد لأنك إن لم تتحكم فى نفسك عند هذا الحد اندفعت إلى مجازاة من أساء إليك وبعدت عن وصية المسيح » (١) .

٣١٦- وخلاصة تعاليم الأنبا بيمن هى الثقة التامة فى مراحم الله إذ قد شارك آباء الكنيسة الاسكندرية فى أن الرحمة الإلهية لا نهائية لا حدود لها ، وهى ملك مشاع للجميع . وحدث أن كان جالساً مع بعض رهبانه ذات يوم فقال له أحدهم : « حين أسقط أو أخطئ يوبخنى ضميرى ويضايقنى قائلاً : لماذا سقطت ؟ » أجابه الأنبا بيمن : « متى سقط أحدنا ثم صرخ إلى الله قائلاً : (لقد أخطأت) فالله جل اسمه يقبله إليه على الفور » (٢) وحالما قال القديس هذه الكلمات التفت إلى المحيطين به وقال لهم : « إن رأيتم أخًا على وشك السقوط فمدوا أيديكم إليه وارفعوه وعزوا قلبه بتذكيره بمحبة الله ليتشجع ويعاود جهاده فى سبيل الكمال المسيحى » (٣) .

٣١٧- وإنه لتنطبق على الأنبا بيمن تلك الكلمات التى أجراها الوحى الإلهى على لسان النبى حيث قال : « ... على الأفعى وملك الحيات تطأ وتسحق الأسد والتنين . لأنه علىّ اتكل فأنجيه . أستره لأنه عرف اسمى يتضرع إلىّ فأستجيب له . معه أنا فى الشدة أنقذه وأمجده وطول الأيام أشبعه وأريه خلاصى . هللويا » (٤) . فلقد عاش فى البرية ما يقرب من القرن وخلال هذه السنوات الطويلة جاهد الجهاد الحسن وأكمل السعى فى هدوء ودعة . ثم إنتقل إلى بيعة الأبكار بعد أن عاش « عيشة كانت محل اعجاب الملائكة وتقوية لعزائم القديسين » (٥) .



---

(١) شرحه جـ٢ ص٢٦٧ ف٢٣٧ .

(٢) « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٢٧١ ف٢٥١ .

(٣) « الصادق الأمين » جـ٢ ص٢٣٧ .

(٤) مزمور ٩٠ فى الأجبية (٩١ : ١٤ - ١٦ فى الكتاب المقدس) .

(٥) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب بول دورليان جـ٢ ص٢٤٨ - ٢٥٥ .

خامساً : الاحتمال فى صبر

(٣١٨) استفانوس ليبى الأصل فاضت عليه النعمة الإلهية .

(٣١٩) تمجيده الله على العلم .

(٣٢٠) الألم وسيلة للاقتراب إلى الله.

٣١٨- كما أن الشمعة تنير غيرها من الشموع من غير أن ينقص نورها ، هكذا كان نور الأنبا انطونى - فقد أضاء على قلوب الكثيرين من الناس وأشعلها حباً فى الله ، وظل فى الوقت عينه ساطع الضياء . وبين الآلاف الذين مستهم النعمة الإلهية بالنور المنعكس منها على الأنبا أنطونى وتلميذه مكارى الكبير رجل ليبى الأصل اسمه استفانوس ترك بلاده وعاش فى برية شيهيت مدى ستين سنة . وقد جاهد جهاداً روحياً متواصلاً خلال هذه المدة فوصل بالنعمة الإلهية الفائضة عليه إلى درجة رفيعة من الكمال المسيحى . وقد حبته هذه النعمة المقدرة على ادراك خفايا القلوب وعلى تعزيتها إلى حد أن جميع الذين كانوا يتحدثون إليه يعودون مجبورى الخواطر ، منشرحى القلوب .

٣١٩- وحدث أن مرض استفانوس مرضاً شديداً ادى إلى بتر ساقيه . وفى الفترة التى كان الطبيب منهمكاً بعملية البتر شغل استفانوس نفسه بجدل السلاسل ، وظل صابراً فى صمت عجيب حتى خيل للمحيطين به أن الطبيب يبتر جسماً غير جسمه . فلما انتهى الطبيب من عملية البتر وبدأ يربط الجزء المجروح لم يستمر استفانوس فى عمله فحسب بل أخذ يتحدث إلى الواقفين بجواره ويمجد الله لأنه أعطى الناس العلم الذى به يستطيعون تخفيف آلام المرضى وتقديم الأدوية المؤدية إلى شفائهم (١) .

٣٢٠- ولقد بدا الألم على وجوه بعض أصدقاء استفانوس لما أصابه من مرض ووجع ، كما بدت دهشتهم من أن يصيب مثل هذا المرض المؤلم رجلاً قضى حياته فى الجهاد نحو الكمال ولكنهم لم يتلفظوا بكلمة بل ترددت

---

(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمه عن بلاديوس إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص١٣١ .

داخلهم الصرخة التى دوت داخل القلوب البشرية بأجمعها منذ أن بدأ الانسان يفكر - تلك هى الصرخة فى وجه الألم الذى حارت البرية فيه . ومازال الناس يرددون هذه الصرخة (تارة بعنف وأخرى فى هدوء) كلما أصابت أحدهم فاجعة : « لماذا هذا الألم يارب ؟ وهل من العدالة أن يصاب الأبرار ؟ وهل يحتم عدلك الألم على الناس ؟ » . ... وتلفت إليهم القديس وقد أشرق وجهه بابتسامة جذابة ، وتأمل وجوههم الواجمة فاستشف منها ما يجول داخل نفوسهم من ألم وحيرة فقال لهم فى هدوء تام : « لا تجزعوا أمام الألم لأنه الوسيلة التى تقربنا إلى الله جل اسمه ، فنحن - حين نصاب - نفزع إليه مستغيثين به ، وعند ذاك يسكب عزاءه على قلوبنا الحيرى ويثبتنا فى أحكامه فتتشدد عزائمنا وتقوى » . ولما تفرسوا فيه ووجدوه هادئاً صابراً سرى هدوءه إلى نفوسهم فتشجعت قلوبهم وامتلأت عزاء . وكان رضاه بالمرض حافزاً لهم لتمجيد الله الذى يعطى الناس صبراً هذا مقداره (١) .

سادساً : الايمان المنتصر

(٣٢١) سينكليتيكى ند لأبى الرهبان.
(٣٢٢) استقرار أبويها فى الاسكندرية بسبب مدرستها .
(٣٢٣) فاجعة عائلتها فى أخويها .
(٣٢٤) توزيعها أموالها على الفقراء وعيشتها فى مقبرة العائلة .
(٣٢٥) عبير حياتها يجتذب الكثيرات إلى حياة القداسة .
(٣٢٦) سينكليتيكى تبلغ الثمانين فى هدوء واستقرار.
(٣٢٧) مرضها .
(٣٢٨) الرؤيا التى رأتها قبل نياحتها بثلاثة أيام .
(٣٢٩) أثناسيوس الرسولى يكتب سيرتها .

٣٢١- إن التاريخ يجب أن يكون سجلاً للتطور البشرى فيروى قصص الأبطال الذين حاولوا جهدهم ليرفعوا البشرية ، ويسموا بها ، ويحملوا الشعلة أمامها ، ويحطموا لأجلها القيود .

---

(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمه عن بلاديوس إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٣٢ .

ومن هؤلاء الأبطال القديسة سينكليتكى التى يعدها بعض المؤرخين نداً للقديس انطونى كوكب البرية . فكما كان الأنبا أنطونى اباً لجميع الرهبان كانت سينكليتكى اماً لتلك المجموعة المتناسقة من العذارى المتبتلات اللاتى جعلن من وادى مصر الخصيب مقراً للنعمة الإلهية .

٣٢٢- ولقد ولدت سينكليتكى من ابوين شريفين استقرا فى الاسكندرية ليكونا على مقربة من مدرستها العظيمة التى وطد اركانها أوريجانوس وخلفاؤه . وكانا قد انجبا ولدين وبنتين فأرادا ان يثقفاهم بأسمى أنواع الثقافة - وهذه لم تكن متوفرة إلا فى المدرسة الاسكندرية اللاهوتية .

٣٢٣- على أن غناهما وشرف محتدهما لم يصدا عنهما الألم والفجيعة . فقد مات أصغر أخوى سينكليتكى فى صباه . أما الأكبر فقد انتقل إلى عالم الخلود ليلة زفافه فاستبدل أحلام العالم الفانى وآماله العابرة بسعادة العالم الباقى ونعيمه الأبدى وكان من أثر الصدمتين أن اندفعت سينكليتكى إلى التفكير والتأمل وإلى الانطواء على نفسها . واضحت مباهج العالم ومفاتنه فى نظرها سراباً خادعاً . وحين كانت ترى الثياب الفاخرة والمجوهرات النادرة التى كان ابواها يحضرانها لها كانت تشيح بوجهها عنها وتتذكر أن كل هذه المغريات اشبه بالمسكن الذى لا يلبث من يتعاطاه ان يفيق فيزداد شعوراً بالألم . وحين طغت عليها هذه الخواطر قررت أن تكرس حياتها لخدمة الله على انها ادركت فى الوقت عينه انها لا تستطيع ترك أبويها - لأنها إن تركتهما فستزيدهما حزناً على حزن ، وهى لا تقوى على ايلام قلبيهما الجريحين . فاستمرت تعيش فى البيت معهما ولكنها اعلمتهما بأنها ترغب فى الاحتفاظ ببتولتها . وقد طلبا إليها فى بادئ الأمر ان تتزوج كى يتعزيا بتربية أولادها . ولكنهما نزلا على رغبتها حين اتضح لهما انها صادقة العزم فى ما قالت . ومن ثم وضعت لنفسها نظاماً نسكيًا تسير عليه بكل دقة واخلاص وهى مقيمة فى بيت ابويها وامتلأت نفسها سكينة وسلامًا فانعكس على وجهها نور هذا السلام الداخلى .

٣٢٤- وظلت سينكليتكى مداومة على أصوامها وصلواتها ونسكها وتعبدها فى بيت ابويها إلى أن انتقل كلاهما إلى عالم النور . وعند ذاك وزعت أموالها على الفقراء ، وأخذت أختها (التى كانت العضو الوحيد الباقى من

عائلتها) وذهبت إلى مقبرة العائلة حيث عاشت بضع سنين . وفى تلك الفترة ضاعفت أصوامها وصلواتها وتأملاتها .

٣٢٥- وبدأ عبير حياتها ينتشر فى الأرجاء إلى أن ملأ الاسكندرية . فجاء لزيارتها عدد غير قليل من الشابات : قصدها البعض لمجرد رؤيتها وأخذ بركتها ، بينما ذهب إليها البعض الآخر مستفسراً عن حل لمشكلاته . وكان من الطبيعى أن يتأثر بعض هؤلاء الشابات بقدوتها ويمكثن معها ويشاركنها حياة النسك والتأمل . وعندها تركت مقبرة العائلة وأخذت زميلاتها ليعشن معاً فى مبنى خارج المدينة . ولما رأت استعداد هاته الشابات للسير بما توحيه اليهن كرست حياتها لخدمتهن وجعلت الأساس لتعليمها اياهن تلك الآية التى هى أعظم الوصايا : « تحب الرب إلهك من كل قلبك ... وتحب قريبك كنفسك » (١) . ولما كانت سينكليتكى نفسها قدوة مثلى وصورة حية لما تنادى به من تعليم فقد أحبتها زميلاتها وأخلصن الولاء لها وأطعنها عن رضى وحبور .

٣٢٦- ومرت السنون سراعاً - مرت فى هدوء واستقرار وفرح روحى وكان عدد الشابات اللواتى خضعن لرياستها يتزايد سنة بعد الأخرى . وكان بعضهن يقضين معها فترة من الزمن يعدن بعدها إلى بيئتهن ليحملن إلى أهلها النعمة المنعكسة عليهن من حياة سينكليتكى .

وبلغت الثمانين من عمرها . وكانت حتى ذلك الوقت تتمتع بصحة تامة : لم يغير الصوم جمالها ولم ينتقص السهر من روائها . فخيل إليها وإلى الناسكات العائشات معها أن حياتها ستنقضى على هذه الحال من الصحة والهناءة .

٣٢٧- وفجأة أصيبت بمرض مزعج : فقد غطت القروح جسمها من قمة الرأس إلى أخمص القدم حتى أفقدتها المقدرة على النطق . وتضاعف ألم القروح بحمى عالية موجعة . فكان صبر سينكليتكى شبيهاً بصبر أيوب إذ تحملت كل ما أصابها برضى وطول أناة . وفى أثناء مرضها عرفت مدى

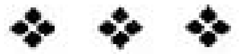
---

(١) متى ٢٢ : ٣٧ - ٣٨ .

تفانى راهباتها لها – فقد كرسن نفوسهن لرعايتها والسهر على راحتها فى دعة وحنان .

٣٢٨– وقبل انتقالها بأيام ثلاثة رات جمهوراً من الملائكة ومعهن عدداً من العذارى . وتقدم هؤلاء وأولئك إليها قائلين : « إننا أتينا لندعوك فتعالى معنا » . وما أن سمعت هذه الكلمات حتى تبدل حالها فبدت كأنها شخص جديد إذ قد اكتنفها نور بهى وشع من راسها . وعاشت بعد ذلك ثلاثة أيام كاملة استنار الراهبات خلالها بالنور السماوى المنعكس عليهن من رئيستهن المريضة . ثم انتقلت إلى بيعة الأبكار فى هدوء المغيب .

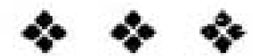
٣٢٩– ولقد أراد الأنبا أثناسيوس الرسولى أن يبين عظم قداسة هذه الراهبة المكرسة فكتب سيرتها هو بنفسه ، أى أنه كتب سيرة الأنبا أنطونى بوصفه أباً للرهبان كما كتب سيرة القديسة سينكليتكى بوصفها أمّاً للراهبات فأثبت اعترافه بفضل الراهبات أسوة بتقديره لفضل الرهبان (١) .



قالت القديسة سينكليتكى : كما أن المركب لا يمكنها الوقوف من غير مسمار ، هكذا لا نستطيع نحن أن ننال الخلاص من غير تواضع القلب .



تقدم شاب إلى الأنبا بيمن يسأله : « ماذا أعمل إن كنت غير قادر أن أشعر بخوف الله فى قلبى ؟ » أجابه القديس : « خير وسيلة لك فى هذه الحالة أن تلتصق بإنسان ملأ خوف الله قلبه . فيسرى شعوره إلى قلبك وتربح نفسك » (٢) .



---

(١) « قديسو مصر » للمنسنيور بول دورليان جـ١ ص٢٦ – ٣٢ .

(٢) كتاب المطالعة القبطية – جمعتها عن المخطوطات القبطية السيدتان مرجريت مورى ودوروثى بيلتشر ص١ .

أبو الشركة : الأنبا باخوم

(٣٣٠) التطور فى الحياة النسكية .

(٣٣١) الخطوة الأولى لحياة الشركة .

(٣٣٢) شخصية الأنبا باخوم .

(٣٣٣) أثر معاملة المسيحيين فى نفس باخوم .

(٣٣٤) اصطباغ باخوم بالمعمودية .

(٣٣٥) أثر الخدمة العسكرية فى تنظيم باخوم .

(٣٣٦) تتلمذ باخوم للشيخ الناسك بالامون .

(٣٣٧) انفراد باخوم فى صومعته وتأملاته العميقة .

(٣٣٨) اعلان الملاك لباخوم ببدء حياة الشركة .

(٣٣٩) الحرية الشخصية أساس الحياة النسكية .

(٣٤٠) أول دير فى العالم يقام فى تابنيسى .

(٣٤١) الأثر المغنطيسى لدير تابنيسى .

(٣٤٢) التوسع فى العمل اليدوى .

(٣٤٣) الخلاصة لقوانين باخوم .

(٣٤٤) نظام الأسر وتسمية كل أسرة بجنسيتها .

(٤٤٥) كل ثلاثة أو أربعة أديرة تؤلف قبيلة .

(٣٤٦) الرئيس العام يتفقد الأديرة باستمرار ويعقد اجتماعين سنويًا لجميع الرهبان .

(٣٤٧) العناية بالمرضى روحيًا وجسميًا .

(٣٤٨) الأديرة ميناء السلام .

(٣٤٩) أثر الأنبا باخوم فى ترهب البنات .

(٣٥٠) التجمل بالروحيات خير من المقدرة على عمل المعجزات .

(٣٥١) وجود الله فى كل مكان .

(٣٥٢) ثقة باخوم فى لانهائية الرحمة الإلهية .

(٣٥٣) التقاء الأنبا أثناسيوس بباخوم ورهبانه .

(٣٥٤) عناية الأنبا باخوم برهبانه .

(٣٥٥) المحبة خدمة ومراعاة لمدى احتمال الغير .

(٣٥٦) تفشى الطاعون فى البلاد واصابة الأنبا باخوم به .

(٣٥٧) أثر الأنبا باخوم فى الرهبنات الغربية .

(٣٥٨) أوضح أثر لباخوم فى الرهبنة البندكتية .

(٣٥٩) صلة الأديرة شرقًا وغربًا صلة وثيقة .

(٣٦٠) الحركة الروحية الباخومية أوجدت محاريب العلوم فى أوروبا فى القرون الوسطى .

٣٣٠ - إن كل شئ ذى قيمة فى الحياة يحتاج إلى النمو والتطور ، وكل تطور يحتاج إلى سنين ليتم ولتظهر نتائجه . والاختبار هو الذى يعلم الانسان أن يميز بين ما يصلح له وما يضيره . والاختبار أيضًا يعلمه أن من يبغى الوصول إلى قمة الكمال لابد له من أن يتذرع بالصبر والكفاح . ولقد أدرك الآباء المصريون الذين حملوا الشعلة عاليًا هذه الحقيقة كما عرفوا أنهم لن يستطيعوا بلوغ الكمال المسيحى إلا إذا ثابروا على الجهاد يومًا بعد يوم . فكان هذا الجهاد اليومى الذى ثابروا عليه الوسيلة التى تحولت بها الحياة النسكية من العزلة التامة إلى حياة الشركة . لأن الأشخاص القلائل الذين خطر ببالهم أن يهجروا العالم فى بادئ الأمر إنما قصدوا إلى الصحراء طالبين الوحدة . فعاش كل منهم بمفرده لا يعرف عن غيره شيئًا ، فوجد لنفسه مغارة من تلك المغاور الطبيعية المبعثرة فى الصحراء وقضى حياته فيها فى وحدة تامة وسكون شامل . ولقد لاقى هذا الرعيل الأول من طالبى الخلوة الكثير من المشقات والمتاعب إذ قد لفحهم وهج الشمس صيفاً وقر البرد شتاء ، ولم يجدوا فى ذلك الفضاء المترامى القاحل إلا النذر اليسير من الأعشاب والمياه فارتضوا بها لسد أعوازهم . وفوق هذا كله فقد كانت حياتهم على هذه الصورة انكاراً للغرائز الانسانية ، وابتعاداً عن الاستقرار الناتج عن عيشة اجتماعية ، وارتضاء بالوحشة وما ينتج عنها من مخاوف ومن شعور بأن لا سند ولا معين ، ثم ينتج عن هذه الوحدة ادراك بأن الصديق القريب الوحيد هو فى الحقيقة المولى جل جلاله . وأن هذه الوحشة لتملأ النفس فزعاً فى بادئ الأمر . فإذا ما اعتادها المتوحد عرف أن المعونة الانسانية واهية مؤقتة - فهى والحالة هذه لا تمنح النفس هدوءاً ثابتاً مستمراً ، وعرف من خلال هذه الحقيقة معنى السلام الداخلى الذى يمنحه الله تعالى لمن يرتكن عليه ارتكانًا كليًا ويرضى بالخلوة معه والائتناس به جل اسمه . ولقد اختبر رواد الحياة النسكية هذه الانفعالات جميعها وجازوا المخاوف والأهوال إلى أن بلغوا الاستقرار النفسى الدائم . لذلك عمر أكثرهم قرنًا أو ما يزيد .

٣٣١ - وبالاختبار عرف هؤلاء الساعون نحو الكمال أنه مما يعاونهم على الوصول إلى هدفهم أن يعيشوا متقاربين . فعاش كل منهم فى صومعة بمفرده ، يقضى نهاره فى صمت وتأمل أو فى الاشتغال بعمل يدوى . وهذه

الصومعة قريبة من صوامع أخرى - تضم كل صومعة منها ناسكاً متوحداً ينشد الكمال ويطلب الخلوة مع الله . وكان هؤلاء المتوحدون الساعون نحو الكمال يجتمعون معاً مساء السبت وصباح الأحد ليشتركوا فى الصلاة معاً ، ثم يعود كل منهم إلى صومعته حيث يقضى بقية الأسبوع فى عزلة تامة . وهكذا جمع الهدف الواحد عدداً من المتوحدين يعيشون على مقربة من معلم ساطع كأنطونى ومكارى وأمثالهما . وهذه الرهبنة التى جمعت بين الوحدة والتقارب من الآخرين تعرف بالرهبنة الأنطونية - لأن الأنبا انطونى كوكب البرية هو الذى اختطها . على أن الرهبنة الأنطونية لم تكن سوى المرحلة الثانية فى تطور الحياة النسكية ، جاءت بعد المرحلة الأولى - مرحلة الخلوة الشاملة - التى اختطها الأنبا بولا أول النساك ، ثم انتهت بدورها إلى المرحلة الثالثة والأخيرة التى اوصلت الساعين نحو الكمال إلى حياة الشركة . ولقد وضع القديس باخوم نظام الشركة - فهو منشؤه ومنظمه لأنه بنى أول دير فى العالم وجمع فيه طالبى الحياة النسكية واضعاً لهم النظام اليومى الذى يسيرون بمقتضاه . ولهذا السبب نال الأنبا باخوم لقب « ابى الشركة » .

٣٣٢- ولقد كان الأنبا باخوم احد هؤلاء الآباء الأعلام الذين جعلوا من مصر فى القرنين الرابع والخامس ارضاً مقدسة يحج إليها جميع الساعين نحو الكمال عن طريق الحياة النسكية . وقد وصفه أميلينو العالم الأثرى الفرنسى بقوله : « إن هذا الآب الناسك قد احتفظ بعظمته الروحية على ممر الأجيال . وأن مجرد ذكر اسمه (حتى فى عصرنا الحاضر) ليستثير فى الأذهان صورة رائعة للبطولة النادرة والحساسية المرهفة والتقشف الفائق » (١).

٣٣٣- ولقد ولد باخوم من أبوين وثنين حوالى سنة ٢٩٠م فى احدى القرى بأعالى الصعيد . ولما بلغ العشرين من عمره انتظم فى سلك الجندية تنفيذاً لأوامر الامبراطور قسطنطين الكبير فى الحروب التى اثارها على خصمه مكسونس . وكان باخوم وغيره من المجندين يلاقون من عسف

---

(١) « دراسة تاريخية للقديس باخوم وحياة الشركة الأولى فى مصر العليا كما توضحها الآثار المصرية » (بالفرنسية) لأملينو ص٣٠٦ .

القواد الرومانيين الشئ الكثير . وحدث ذات يوم حين عسكروا فى ضواحى لاتوبوليس (أسنا) أن خرج أهالى هذه المدينة يحملون إليهم الطعام والشراب . ولم يكن باخوم قد عامل مسيحيين قبل ذلك فدهش من هذا المسلك وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس إلى ابداء العطف عليهم فقيل له أنهم مسيحيون ينفذون ما يأمرهم به سيدهم . وعندها قال باخوم فى نفسه : « مادامت هذه هى المسيحية فإننى - أن عدت سالماً من الحرب - لابد معتنقها » .

٣٣٤- وانتصر الامبراطور قسطنطين فأمر بتسريح الجند . وعاد باخوم إلى بلدته سالماً فتذكر العهد الذى قطعه على نفسه وعكف على دراسة الدين المسيحى ، وبعد ثلاث سنين من الدراسة نال الصبغة المقدسة . فكسبت المسيحية باعتناقه إياها رئيساً روحياً عظيماً ترك أثراً لا يمحى على مر الأجيال .

٣٣٥- ومع أن المدة التى قضاها فى الخدمة العسكرية كانت قصيرة الأمد إلا أنها أثرت فى حياته تأثيراً بعيد المدى . فقد تدرب فى غضونها على الطاعة والعمل اليدوى والحياة المشتركة . وقد تضمنت القوانين التى وضعها فيما بعد جميع هذه الدراسات العملية .

٣٣٦- ولقد اعتنق باخوم الدين المسيحى بكل حرارة شبابه المتوقد . فدفعته هذه الحرارة إلى أن يتتلمذ لشيخ ناسك اسمه بالامون . فعاش فى خدمته بضع سنين جاهد خلالها جهاداً متواصلاً وامتلأ قلبه بمحبة الله ومحبة الناس (١) . ولما اطمأن القديس بالامون إلى درجة الكمال التى بلغها باخوم نصحه بأن يعتزل فى صومعة فأطاعه باخوم وقصد إلى جهة تابنيسى (٢) واتخذ مغارة بها مسكناً له .

٣٣٧- وفى هذه العزلة أخذ الشاب الناسك يتأمل حياة الوحدة وما يكتنفها من مخاوف ومتاعب . واهتزت نفسه المرهفة حين تخيل أن هناك من

---

(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمة إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٤٤ .

(٢) ومعناها نخلات ايزيس لأن هذه القرية كانت فى العصر الفرعونى مكرسة للآلهة ايزيس وهى فى منطقة دندرة فى أعالى الصعيد .

يشتهون أن يكرسوا حياتهم لله ولكنهم يتراجعون أمام هذه الوحدة المزعجة . فدفعه تأمله إلى الصلاة ضارعاً إلى الآب السماوى أن يبين له عما إذا كان هناك طريقاً آخر يستطيع الانسان أن يسلكه إن هو رغب فى أن يحيا حياة القداسة مع خوفه من الوحدة . وقد أدرك باخوم من خلال تأملاته وصلواته أن الواجب الذى يرضاه الانسان بمحض ارادته يفوق كل بطولة خيالية ، وأن القداسة الحقة لا تفرضها قوة خارجية بل هى تنبع من أعماق النفس الانسانية ، فيكون السعى نحو الكمال هدفاً يصبو إليه كل متطلع نحو عرش النعمة ويبلغه إن عاجلاً أو آجلاً لأنه يسعى نحوه عن رضى واختيار لا عن قهر واضطرار .

٣٣٨- واستغرق باخوم فى تأملاته . وطغت عليه محبته للناس فدفعته إلى الامعان فى التفكير والتأمل لعل الله ينير بصيرته ويبين له الوسيلة التى بها يستطيع أن يعين من لا يتحملون مشقة الحياة المنفردة ، ويأخذ بأيديهم فى سعيهم نحو الكمال المسيحى . فاستجاب الله تعالى للمحبة الجياشة التى يفيض بها قلب صفيه باخوم نحو أخوته الأقل احتمالاً ، وارسل له ملاكه ليرشده إلى الطريق الذى يستطيع أن يسلكه ليهدى أقدام هؤلاء الأخوة الذين يشتهى معاونتهم . فأعلمه ملاك الرب بأن مدة تدريبه على الحياة النسكية الانفرادية قد انتهت ، وأن الساعة قد حانت ليجمع الرهبان والنساك والمتوحدين فى دير واحد لكى يعيشوا عيشة مشتركة . ثم سلمه لوحة نحاسية كتبت عليها ست وصايا هى :

١- دع الراهب يتناول من المأكل والمشرب ما يشاء ، والزمه بالعمل بقدر ما يأكل . ولا تنهه عن أكل أو امتناع من أكل بل دع هذا لحكمته . أما الضعفاء والذين يطوون يومهم صوماً فكلفهم بأعمال غير مضنية .

٢- أقم لكل ثلاثة من الرهبان قلاية واحدة يأوون إليها .

٣- طالبهم جميعاً بأن يتناولوا فى قاعة واحدة .

٤- كلفهم أن لا يفترشوا الأرض بل يناموا على مقاعد ذات مساند يستندون إليها فى منامهم .

٥- مرهم (فى أثناء الليل) أن يلبسوا جلباباً بغير أكمام ، وأن يشدوا

أوساطهم بحزام ، وأن يغطى كل منهم رأسه بقلنسوة وأن يتناولوا العشاء فى يومى السبت والأحد ، وأطلب إليهم أن يزينوا مقدمة الطاقية التى يلبسونها بصليب أرجوانى .

٦ - قسم الرهبان إلى أربع وعشرين رتبة وميز كل رتبة بحرف أبجدى من الألفا إلى الأوميغا (١) . (أو من الألف إلى الياء) .

٢٣٩ - وحالما سمع باخوم هذه الوصايا السماوية تهلل قلبه فرحاً لأنه أدرك أن الحرية الشخصية ستكون الأساس الذى تقوم عليه الحياة النسكية . فيطالب كل راغب فى التنسك بأن يؤدى مقداراً معيناً من الأعمال ، وبعد ذلك يصبح حراً فى أن يزيد عليها ما يشاء مادام عمله لا يتنافى مع النظام النسكى العام .

٢٤٠ - وقام باخوم لفوره فذهب إلى معلمه بالامون وأراه اللوحة النحاسية ثم قص عليه الرؤيا السماوية فأمره بتنفيذ ما أوصى به فوراً . فعاد باخوم إلى تابنيسى حيث بنى أول دير عرفه الناس . وكان لهذا العمل من النتائج النفيسة فى العالم بأسره ما لا يمكن احصاؤه - لأن نتائج هذا العمل لاتزال تمتد وتتفاعل حتى الآن وستظل تتفاعل إلى الانقضاء .

٢٤١ - ولقد كان لهذا الدير الأول أثر مغناطيسى فى النفوس ، فقد جذب إليه من أهالى مصر عدداً وفيراً . وكان ما بدا من تنظيم على يد الأنبا باخوم دليلاً على تعمقه فى ادراك الطبيعة البشرية . فقد قسم الرهبان إلى رتب كما أوصاه الملاك ، وجعل لكل رتبة حرفًا يميز صفة الراهب المنتمى لهذه الرتبة ونوع العمل الذى يؤديه . فمن كان من الرهبان مسالمًا وديعاً ميزه بحرف « يوطا » ومن كان مشاغباً عنيداً بحرف « اكسى » (٢) .

٢٤٢ - أما فيما يختص بالعمل اليدوى فلم يكتف الأنبا باخوم بصنع السلال ، ولكنه توسع فى الأمر حتى كان رهبانه يزاولون النجارة والحدادة والزراعة وما إلى ذلك من الأعمال اليدوية . وكان العمل اليدوى يهدف إلى

---

(١) «بستان الآباء القديسين» ترجمة إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٤٤ - ١٤٦ ، « حياة القديس أثناسيوس » (بالفرنسية) للأبيه باربييه ص١٢١ - ١٢٣ .

(٢) شرحه جـ١ ص١٤٥ ، وهذه الحروف هى حروف اللغة القبطية .

أمرين : أولهما أن يكسب الراهب عيشه بعرق جبينه ، وثانيهما أن يشغله عن التعرض للتجارب والفرار من الأفكار الشريرة . وكان الرهبان - أثناء عملهم - يرددون المزامير أو غيرها من الأسفار الإلهية (١) .

٣٤٣- وتتلخص قوانين الأنبا باخوم فيما يلى :

١ - الشروط التى يجب توافرها لقبول طالب الرهبنة بعد التأكد من أنه غير هارب من العدالة ولا من المسئولية : وكان مفروضاً على كل من يتقدم للرهبنة أن يقضى ثلاث سنين تحت التمرين . وكان مفروضاً عليه - فى تلك الأثناء - أن يتعلم القراءة والكتابة إن كان يجهلها . فإن اثبت أهليته للترهب انتظم فى سلك الرهبنة ، وترك البيت المقام إلى جانب بوابة الدير وسكن فى قلاية من القلالى المعدة للرهبان .

٢ - الملابس : كانت غاية فى البساطة تتألف من جلباب بلا اكمام يصل إلى الركبتين يعلوه حزام جلدى ، وتغطى الرأس بقلنسوة . وكانت هذه ملابس الراهب داخل الدير ، أما فى خارجه فكان يضيف إلى ملابسه جلد خروف (أو ماعز) يغطى به كتفيه . ويضع فوق هذا الجلد عباءة فضفاضة تحجب جزء من جبينه تزدان بصليب ملون ينطق بالرتبة التى ينتمى إليها الراهب . أما رجلاه فكان يكسوهما صندل (مفتوح) .

٣ - الطعام : كان يقدم للراهب فى قاعة خاصة مرتين فى اليوم : ظهراً وغروباً . وكان الحضور إلى مائدة الطعام اختيارياً . وكان الأكل يتكون من الخبز والحساء وبعض الخضر والجبن والفاكهة . ولو أن اللحم والخمر من المحرمات على الراهب إلا أنه كان يسمح له بهما فى حالة الاعتلال الصحى . وكان على الراهب أن يدخل قاعة الطعام حافى القدمين لكيلا يزعج غيره من الرهبان ، ويتخذ مكانه فى سكون ، ويأكل ما يوضع أمامه من طعام وهو ملازم الصمت . وفى صدر قاعة الطعام كانت تقام منصة يعتليها أحد الرهبان ويقرأ من فوقها فصولاً من الأسفار الإلهية حتى انتهاء الرهبان من الطعام .

---

(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمة إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٤٦ .

٤- النوم : عثر الباحثون منذ سنوات قليلة على بقايا دير باسم القديس سمعان العمودى يقوم على الجبل المقابل لمدينة أسوان يتألف من عدة قلايات ، وجدوا فى كل منها ثلاث مصاطب تنتهى كل مصطبة منها بجزء مرتفع يستند إليه من يستريح على المصطبة . فجاء رسم هذا الدير مؤيداً الرسم الذى عينه الملاك للأنبا باخوم . وكان يفرض على الراهب أن ينام فى الهزيع الأول من الليل ثم ينهض عند منتصف الليل للصلاة ويظل يقظاً حتى الصباح . وكان مسموحاً للراهب - فى ليالى فصل الصيف - أن يقضى ليلته فوق سطح قلايته .

٥- العمل اليدوى : ما كان راهب أو رئيس رهبنة ليعفى من العمل اليدوى . وكان معيناً للعمل ساعة (أو أكثر) يقوم الرهبان فيها - بالعمل معاً - حتى لكانهم فصل من التلاميذ .

٦- التعليم : كان المقرر على من كانوا تحت التمرين أن يحضروا ثلاث دروس يومياً . أما من ترهبوا فكانوا يحضرون دروساً فى تفسير الأسفار الإلهية والتعاليم المسيحية فى يومى الأربعاء والجمعة . وكان الغرض من تلقى هذه الدروس تسليم الراهب مفتاحاً يفتح أمامه بحار العلوم الدينية . وهذا التقليد الذى وضعه الأنبا باخوم قد جعل من الأديرة فيما بعد محط رجال العلم والفضيلة . وكانت مكتبات الأديرة مفتوحة على مصراعيها لكل راغب فى القراءة .

٧- العبادة : قسم الأنبا باخوم العبادة إلى قسميها الطبيعيين : العبادة العامة والعبادة الخاصة . وكانت فرائض العبادة العامة تقام ثلاث مرات فى اليوم : صباحاً وظهراً ومساء . أما فرائض العبادة الخاصة فكان أمرها موكولاً لكل راهب . وكانت خدمة ذبيحة القداس الإلهى تقام فى يومى السبت والأحد . ليتناول الجميع العشاء الربانى .

٨- العقاب : كان العقاب ضرورة لابد منها فى هذه الحياة الاجتماعية . وقد جعلها الأنبا باخوم درجات ثلاثاً : الأولى - التوبيخ أو الحرمان من الأكل للهفوات البسيطة ، الثانية - سجن الراهب فى صومعته فإن لم يرتدع ضرب ، الثالثة - فصله من الدير إذا تمادى فى أخطائه وتعذر تقويم اعوجاجه .

٩- التنظيم : تجلت عبقرية الأنبا باخوم فى ما وضع من نظام دقيق للأديرة . فقد قسم الإدارة إلى محلية ومركزية . فكانت الادارة المحلية مسئولة عن الدير الخاص برهبانها ، أما الادارة المركزية فكانت مسئولة عن جميع الأديرة التى شادها الأنبا باخوم . وكانت الطاعة قاعدة التعامل بين الرهبان . أما رياسة الادارة المحلية فكانت موكولة إلى أبى رهبان الدير يعاونه فيها وكيل له . وكان لكل دير أمين لبيت المؤونة (يعرف بالربيتة) وأمين أخر للمكتبة . وإلى جانب هذين الأمينين المدرسون الذين يقومون بتدريس الرهبان ، والخبازون والنجارون والفلاحون وغيرهم .

٣٤٤- وكان لكل فئة رئيس مسئول مباشرة لدى رئيس الدير أو وكيله . ولما تزايد عدد الرهبان واختلفت أجناسهم أنشئ فى كل دير نظام الأسر - فكان يطلق على كل أسرة جنسيتها : يونانية كانت أو سريانية أو لاتينية . ومما لا ريب فيه أن الجامعات التى قامت فى العصور الوسطى فى أوروبا قد اقتبست نظام الأسر من أديرة الأنبا باخوم (١) .

٣٤٥- ومع أن كلا من الأديرة كان وحدة مستقلة إلا أنه كان أحد الأديرة الخاضعة لرياسة الأنبا باخوم . وكان كل ثلاثة أو أربعة من الأديرة القائمة فى منطقة يؤلف قبيلة . أما رئيس هذه القبيلة فكان ينتخب من بين آبائها . وكان رؤساء هذه القبائل يجتمعون فى فترات معينة للتشاور معاً . وكان الجميع يخضعون للرئيس العام (وهو الأنبا باخوم) .

٣٤٦- وكان هذا الرئيس يزور الأديرة باستمرار ليتفقد أحوالها كما كان يعقد اجتماعين سنويين : أولهما فى فترة عيد القيامة ليشترك الجميع فى الاحتفاء بهذا العيد المجيد ، وثانيهما فى أواسط شهر أغسطس . وكان الغرض من هذا الاجتماع الثانى الوقوف على التقارير والنظر فى ما يرويه الرهبان عن أديرتهم . وبعد الانتهاء من المناقشة يعلن الرئيس العام النظام الذى يجب اتباعه فى العام المقبل ، كما يعلن ما تقرر من تنقل بعض رؤساء الأديرة . وبعد هذا كله تقام صلاة يعلن فيها الصفح عن المذنبين ، وتختم بخدمة ذبيحة القداس الإلهى ثم ينصرف الجميع بسلام .

---

(١) « الرهبنة الايرلندية » (بالانجليزية) للأب جون ربان اليسوعى ص٣٧ .

٣٤٧- ولم يفت الأنبا باخوم فيما وضع من قوانين أن يذكر العناية بالمرضى . فهو لم يعفهم من الصوم فحسب ولكنه عين لهم أطباء جسديين وأطباء روحيين للعناية بهم . كذلك حتم على رهبانه أن يحسنوا الضيافة فيرحبوا بالغرباء ويغسلوا أرجلهم ويتولوا خدمتهم بأنفسهم . وكانت الأديرة مقصد الزوار وطالبي البركة على مدار السنة .

٣٤٨- ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ما رواه السياح الذين زاروا القطر المصري في تلك العصور فقد أطنبوا في مدح النظام الدقيق الذي ساد أديرة الأنبا باخوم ، وقابلوا نظامها العجيب بالفوضى التي قد بدأت تدب في الامبراطورية الرومانية - مما جعل الأديرة ميناء السلام والطمأنينة والمكان الذي يجد فيه الانسان الفرصة السانحة لتغذية عقله وروحه (١) .

٣٤٩- ولم تجتذب أديرة الأنبا باخوم إليها للرجال فحسب ولكنها اجتذبت كذلك عدداً عظيماً من العذارى والنسوة المتبتلات . وكانت أولى هؤلاء العذارى مريم شقيقة باخوم نفسه . فقد ذهبت إلى الدير في أحد الأيام لتسأل عنه فلما أخبره البواب بأمرها بعث إليها برسالة قال لها فيها : « كفى أن تعرفي أنني حي وفي صحة جيدة . وإن أردت أن تتشبهي بي فإني أطلب إلى الاخوة المتنسكين أن يبنوا لك ديراً تقضين فيه حياة النساك . وإني لواثق من أن كثيرات من العذارى سيقتدين بك » . وحالما قرأت مريم هذه الرسالة أخذت تفكر في مصيرها ، وحلا لها أن تحذو حذو أخيها . ومن ثم أمر باخوم بعض رهبانه ببناء دير لها على مقربة من ديره . وما هي إلا ليلة أو ضحاها حتى زخر ديرها بالراهبات اللواتي نذرن أنفسهن للنسك والعفاف . فوضع لهن الأنبا باخوم نفس القوانين التي سنها لرهبانه - مع فارق بسيط هو أعفاؤهن من بناء الصوامع . وأقام لهن أباً للاعتراف (معلم ذمة) اختاره من بين الشيوخ الوقورين المعروفين بالتقوى والقداسة .

٣٥٠- وحدث أن تقدم بعض الرهبان إلى الأنبا باخوم يسألونه : « قل

---

(١) « نشأة الرهبنة المسيحية في مصر » للدكتور عزيز سوريال عطية نشرها في رسالة مارمينا في عددها الثالث الصادر بالاسكندرية في ٢٢ مايو سنة ١٩٤٨م (١٤ بشنس سنة ١٦٦٤ش) ص١٦١ - ١٧٥ .

لنا يا أبانا ما الذى يمكننا أن نعمله لنحظى بالقدرة على اجراء الآيات والعجائب ؟ » . أجابهم بابتسامة : « إن شئتم أن تسعوا سعياً روحياً سامياً فلا تطلبوا هذه المقدرة لأنها مشوبة بشئ من الزهو بل اسعوا بالحرى لتظفروا بالقوة التى تمكنكم من اجراء العجائب الروحية . فإن رأيتم عابد وثن وانرتم أمامه السبيل الذى يقوده إلى معرفة الله فقد أحييتم ميتاً ، وإذا رددتم أحد المبتدعين فى الدين إلى الايمان الأرثوذكسى فتحتم أعين العميان ، وإذا جعلتم من البخيل كريماً شفيتم يداً مشلولة ، وإذا حولتم الكسول نشيطاً منحتم الشفاء لمقعد مفلوج ، وإذا حولتم الغضوب وديعًا أخرجتم شيطاناً . فهل هناك شئ يطمع الانسان فى أن يناله أعظم من هذا ؟ » (١) .

٣٥١- ولما كان الأنبا باخوم يؤكد لرهبانه أن مراحم اللّه تفوق كل حد فقد علمهم أن كل من يسعى إليه تعالى يجده حتمًا . لذلك كان يقول لهم : « انى انصحكم أن لا تفرقوا بين مكان وآخر كما لو كان اللّه يحل فى مكان بالذات ولا يحل فى غيره . فقد استمتع يهوذا بأسمى مكان وأصبح فى أحطه ، وشغل لص اليمين مكاناً حقيراً نال بعده فردوس النعيم » (٢) .

٣٥٢- وكانت ثقة الأنبا باخوم بمراحم اللّه تامة لا حد لها . فقد حدث أن مرض أحد شيوخ الرهبان فى أسبوع الآلام . وكان هذا الشيخ المريض يرغب فى أن يصوم لما لذلك الأسبوع المقدس من كرامة خاصة فى القلوب . غير أن الأنبا باخوم منعه من الصوم قائلاً : « إننا نعيش فى ظل ناموس النعمة لا تحت نير ناموس النقمة » (٣) .

٣٥٣- وبينما كان الأنبا باخوم يعمل مع رهبانه بفرح وغبطة روحية قام الأنبا أثناسيوس الرسولى بزيارة راعوية فلما دنا من منطقة دندرة سمع من بعيد أصوات ترانيم وتسابيح . وحين تبينها عرف أنها ترانيم الرهبان الذين

---

(١) مخطوط عربى / ٢٨٧ تاريخ بالمتحف القبطى ، « الأنبا باخوم ابو الشركة » راجعه ونقحه القمص عبد المسيح المسعودى البرموسى ص٦٦ .

(٢) شرحه ص١١٧ - ١١٨ .

(٣) مخطوط عربى / ٤٠ تاريخ عثر عليه فى كنيسة مارمرقس برشيد ومحفوظ الآن بالكتدرائية المرقسية بالاسكندرية .

يسكنون تلك الناحية ، والذين خرجوا من أديرتهم لاستقباله متهللين مترنمين قائلين : « مبارك الآتى باسم الرب » ثم احاطوا به وساروا فى موكب رائع حتى وصلوا إلى الدير الرئيسى الذى يقطنه الأنبا باخوم . وكان سرابيون أسقف دندرة ملازماً للبابا الاسكندرى فأمسك بيده وقال له : ارجو من محبتك ان ترسم باخوم كاهناً لأنه رجل الله حقاً . وقد حاولت عبثاً ان اضع اليد عليه » . وحين سمع باخوم ما دار بين الحبرين العظيمين اختفى عن الأنظار لأنه كان على جانب من الاتضاع جعله يعتقد أنه أحط من أن ينال هذه الدرجة الكهنوتية السامية . فجمع البابا أثناسيوس رهبان الأنبا باخوم وقال لهم : « سلموا لى على ابيكم وقولوا له بلسانى (لقد هربت من المجد الباطل الذى كثيراً ما يثير الحسد فى النفوس . فليمنحك الله سؤل قلبك . وأنك – مع هربك من المجد الفانى – سعيت وراء المجد الباقى . لذلك أعدك بأننى لن أضع اليد عليك قسراً . وآمل إن أتيح لى المرور من هذا الطريق مرة أخرى أن أفرح بلقياك » . وختم الأنبا اثناسيوس هذه الكلمة بالصلاة ، وخرج يودعه الرهبان حاملين الشموع والمجامر مرددين ترنيمة : « يا ملك السلام امنحنا سلامك » . ولما شعر الأنبا باخوم بانصراف البابا الاسكندرى خرج من مكمنه آمناً مطمئناً » .

٣٥٤ – ولقد بلغت عناية الأنبا باخوم درجة جعلته يشاطر رهبانه أعمالهم اليدوية . فكان يخرج معهم إلى الحقول لمزاولة الزرع والحصاد ويحمل مؤونته بنفسه أسوة بهم . وقد بدا لأحد الرهبان الشبان يوماً أن يحمل عنه مؤونته فقال له : « لابد لى أن أعيش فى مستواكم لأن فى المسيح يسوع يستوى الجميع » .

٣٥٥ – ومما يؤثر على العناية البالغة التى كان يبديها أبو الشركة برهبانه أنه كان يجلس كل مساء معهم بعد صلاة الغروب ليستمع إلى أسئلتهم ويجيب عنها . وذات مساء سأله ثيئودورس (أقرب تلاميذه إليه وكاتب سيرته) عن خير وسيلة لاصلاح المعوج . أجابه الأنبا باخوم : « إن ابتغاء الكمال فضيلة عظمى ، ولكن الانسان مطالب إلى جانب ذلك بأن يعنى بأخيه الانسان . فإذا سقط أحد الاخوة فى زلة فعظوه على حدة . وإذا ابدا عليه

الضجر من وعظكم إياه فكفوا عن وعظه ولاطفوه . وإذا لاحظتم منه قبولاً لكلامكم فعودوا إلى وعظه . وليكن مثلكم فى ذلك مثل الطبيب الحكيم الذى إذا رأى أن فى استئصال كيس دهنى بالمبضع المًا للمريض لجأ إلى المراهم والمسكنات ، ثم عمل على استئصاله بكل وسيلة تحول دون تألم المريض . وهكذا يتسنى للطبيب الروحى أن يستأصل كل زلة وهفوة إن هو تجمل بالصبر وطول الأناة » . ثم استكمل الأنبا باخوم وصيته هذه بقوله لرؤساء رهبنته : « وكونوا على يقين من أن من ينادى به المعلم من تعليم لا يكون له أثر فى نفس تلاميذه إلا إذا هو نفذه بالفعل فى مسلكه الخاص » (١) .

٣٥٦- وفى سنة ٣٤٨م تفشى فى مصر وباء الطاعون تفشياً بلغ أديرة الصحارى . فكان الأنبا باخوم فى هذا الظرف العصيب الراعى الصالح الذى يبذل نفسه عن الخراف فقد أخذ يطوف بين المصابين بهذا الداء الوبيل مشجعًا معزياً . وبينما كان ابو الشركة يحضر شعائر القداس الإلهى ليلة عيد الصعود المجيد أحس بعوارض ذلك المرض الخبيث تدب دبيبها فى جسمه فما انتهت الصلوات المقدسة حتى دعا تلاميذه وأخذ يوصيهم بالمحافظة على قوانين الشركة الروحية والعمل بها ، وأن يجعلوا المحبة المتبادلة فوق كل قانون مذكراً إياهم بأن الله محبة .

ثم اقترح عليهم أن ينتخبوا الناسك الشيخ بترونيوس ليخلفه فى الرياسة العامة للأديرة ولكنه اكد لهم ان لهم مطلق الحرية فى أن يأخذوا باقتراحه هذا أو يتركوه وما أن فرغ من هذه الوصية حتى أسلم الروح بين يدى الآب الصالح بعد أن جاهد الجهاد الحسن ، فطارت روحه إلى مساكن النور حيث انضم إلى اخوته من لابسى الصليب (٢) .

---

(١) مخطوط عربى / ٥٠ تاريخ محفوظ فى مكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة ص١١٧ .

(٢) « نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر » للدكتور عزيز سوريال عطية نشرها فى رسالة مارمينا العدد الثالث الصادر فى الاسكندرية ٢٢ مايو ١٩٤٨ (١٤ بشنس سنة ١٦٦٤ش) ص١٦٦ ؛ « الرهبنة الايرلندية » (بالانجليزية) للأب جون ريان اليسوعى ص٢٩ - ٣٨ .

٢٥٧- ولقد انتشرت اديرة الأنبا باخوم من أقاصي البلاد المصرية إلى اقاصيها . ولما حكم على الأنبا أثناسيوس الرسولى بالنفى إلى تريف ثم إلى رومية أعلم الغربيين بنظام الشركة الرهبانية الذى استنه الأنبا باخوم وقد قام القديس ايرونيموس (جيروم) فى سنة ٤٠٤م بترجمة قوانين ابى الشركة إلى اللغة اللاتينية فبادر الرهبان الايطاليون إلى اتخاذها دستوراً لحياتهم النسكية .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كاسيانوس الراهب الفرنسى تراجم الآباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها للرهبنة التى أسسوها وثبتوا اركانها بقدوتهم ، وحاول جهده أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين انشأهما فى جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا) وتولى ادارتهما .

وبين رهبان الغرب الذين عنوا بترجمة رهبان مصر راهب يدعى ديونيسيوس الصغير (المتوفى سنة ٥٥٦م) قام بترجمة حياة الأنبا باخوم وترجمة قوانينه الرهبانية إلى اللغة اللاتينية ايضًا . وعن طريق هذه الترجمات اللاتينية عرف الغرب النظم والقوانين الرهبانية المصرية (١) .

٢٥٨- غير ان أوضح اثر للأنبا باخوم فى اوروبا قد بدا فى النظم الرهبانية التى وضعها القديس بنديكتوس لرهبانه البنديكتيين . فلقد حذا حذو القديس العظيم الأنبا باخوم بأن وضع قوانين تفرض على الرهبان الطاعة والعمل اليدوى والثقافة العقلية . ومن يراجع هذه القوانين البنديكتية يجدها فى معظم الأحيان مأخوذة بنصها الحرفى عن قوانين الأنبا باخوم . ولما كان الراهب بنديكتوس يتمتع بين الغربيين بمكانة ممتازة انتشرت الأنظمة الباخومية عن طريقه انتشاراً واسعاً .

على أن القديس بنديكتوس لم ينقل عن الأنبا باخوم نظامه المركزى مما ادى إلى انفصال اديرته بعضها عن بعض . وقد تلافى هذا النقص الراهب

---

(١) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ٣ ص٦٧٠ .

برنو فى القرن العاشر - وكان أول رؤساء الدير المقام فى بلدة كلونى (على الحدود الفرنسية الألمانية) . فقد عمل بما سنته قوانين الأنبا باخوم المركزية . وهكذا تعززت الصلات بين جميع الأديرة الكلونية القائمة على النظام البنديكتى .

٣٥٩- ولقد عرف الغربيون أثر الأنبا باخوم وأقروه لأنهم اعترفوا (فى العصور المسيحية الأولى) بأن الرهبنة نشأت فى مصر . وكانت الصلة بين الأديرة القائمة فى الشرق والأديرة القائمة فى الغرب وثيقة ، والزيارات بين رهبان كل هذه الأديرة متداولة (١). ولم يقف الأمر عند تبادل الرهبان الزيارات بل اتسعت الصلة فشملت كل المسيحيين - الرهبان منهم والعلمانيين . فكانوا يتكاتبون بغير كلفة ولا انقطاع كأن المسافات التى تفصل بينهم غير موجودة (٢) .

٣٦٠- ولم يقف أثر الأنبا باخوم عند هذا الحد بل تخطاه إلى ما هو أبعد مدى . فقد ظهر هذا الأثر فى جميع الرهبنات الغربية التى انشئت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، ثم امتد فبلغ الرهبنات الفرنسيسكانية والدومينيكانية التى قامت فى القرن الثالث عشر ، والتى كان لها فضل بعيد المدى فى قيام الحركة الأدبية الانسانية التى انتهت بانشاء الجامعات ولا نغالى إذا قلنا أن أروقة الشعوب المختلفة التى ضمتها جامعات الغرب فى نظامها إلى مجموعات الشعوب المختلفة التى كانت تتألف منها أديرة الأنبا باخوم .

يستخلص من هذا كله أن الحركة الروحية التى بدأها الأنبا باخوم الصعيدى المصرى الصميم فى الصحارى المصرية قد سرت إلى الأقطار

---

(١) النحت والرسم فى الفن القبطى (بالانجليزية) لكوستيجان نشره فى مجلة محبى الفنون القبطية (الآثار القبطية الآن) بعددها الثالث (١٩٣٧) ص٥٧ .

(٢) « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين - المقدمة ص٢٠ حيث يقول ما نصه :

" ... The Christian communities of Lyons and Vienne in the south of France sent messages of affection to their brothers in Asia and Phrygia, as though Asia and Phrygia were on the other side of the garden fence " .

الغربية فأدت إلى ايجاد محاريب العلوم فى وسط الظلام الدامس الذى كان مخيماً على العالم فى القرون الوسطى (١) .



الأنبا باخوم

---

(١) « نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر » للدكتور عزيز سوريال عطية نشره فى رسالة مارمينا العدد الثالث الصادر فى الاسكندرية فى ٢٢ مايو سنة ١٩٤٨ (١٤ بشنس سنة ١٦٦٤ش) ص١٧٩ - ١٨١ .

النسوة المكرسات

(٣٦١) العزلة الانفرادية والعزلة الجماعية .
(٣٦٢) بعض النساء يجرؤن على العزلة .
(٣٦٣) الشركة الباخومية تشمل النساء .
(٣٦٤) الحياة فى الدير الذى ترأسه أما تاليدا .
(٣٦٥) العيشة الانفرادية تستمر بعد قيام الشركة .
(٣٦٦) حياة الناسكات المصريات تجتذب عددا من الأجنبيات .
(٣٦٧) « أنتم نور العالم » (١) .

٣٦١- إن نعمة السيد المسيح حين سرت بين البشر لمست القلوب الحساسة المستعدة ، فاستجابت هذه القلوب ودفعت بأصحابها إلى السير فى الطريق الضيق الذى يؤدى إلى الحياة ، لأن نور المسيح له المجد سطع على هذا الطريق فجعل السير فيه هيناً مبهجاً . ولما كانت النعمة الإلهية هبة مجانية تتقبلها كل نفس مستعدة للكمال كان المستجيبون لها من الرجال والنساء ومن الأطفال أيضاً . وبفعل هذه النعمة اشتاقت بعض النسوة إلى تكريس حياتهن لله . ولم تكن الأديرة قد أنشئت فى القرنين الأولين للمسيحية ، إلا أن هذا لم يمنع الساعين نحو الكمال من الابتعاد عن العالم والاختلاء بالله . فسارع عدد من الرجال إلى الصحراء ليحققوا نداء قلوبهم المتطلعة نحو عرش النعمة . كذلك سعت النسوة إلى الوحدة للتأمل والعبادة فعاش بعضهن فى عزلة رغم أنهن لم يذهبن إلى الصحراء ، وانضمت من لا تستطيع العزلة إلى اثنتين أو ثلاثاً من مثيلاتها وعشن معاً فى معبد مهجور أو فى منزل بعيد عن صخب المدينة حيث اتبعن نظاماً دقيقاً من التقشف والتأمل والتعبد . وأن تاريخ الكنيسة ليزخر بسير هاته النسوة اللواتى كرسن أنفسهن لله تعالى لأنهن قدمن للشعب خدمات جليلة منها افتقاد اليتامى والأرامل والغرباء والمسجونين .

(١) متى ٥ : ١٤ .

٣٦٢- على أنه كان بين هؤلاء النسوة من كان لديها الجرأة الكافية لأن تترك العالم وما فيه لتعيش فى أقصى الصحراء فى عزلة تامة ، ورضيت بحياة الوحدة رغم ما فيها من مشقات ومخاوف . فاستطاعت بذلك أن تبنى نفسها بالصبر والتواضع وبالغيرة المتقدة لأنها واظبت وثابرت ودربت نفسها على مواجهة جميع سهام العدو . وهذا الجهاد الشاق المتواصل الذى احتملته المتوحدات فى دعة وغبطة لايزال موضع الاعجاب والتعظيم لأنه الدليل الساطع على أن المرأة تفيض عليها النعمة الإلهية فتمكنها من أن تكرس حياتها تكريسًا كليًا لا تقل احتمالاً عن الرجل . لهذا لم يقل أحد من معاصريهن أنهن ضعيفات أو غير لائقات لأن يجاهدن الجهاد الحسن (١) .

٣٦٣- فلما امتلأ قلب الأنبا باخوم حناناً على من يخشون العزلة من طالبى الرهبنة ، وأوحى إليه ملاك الرب أن يبنى ديراً ويؤسس حياة الشركة ، لم يختط هذه الحياة الديرية للرجال فحسب بل اختطها النسوة أيضاً . فهيأ للجميع الفرصة التى تطلعت نحوها نفوسهن الظامئة إلى ماء الحياة . وكانت أولى الراهبات الديريات مريم شقيقة الأنبا باخوم التى جاءت لتسأل عنه ثم اقتفت أثره . وانتشرت الحياة الديرية بعد ذلك فى مصر ، ومنها عمت أرجاء العالم فوصلت إلى بلاد لم تكن معروفة يومذاك . وما الأديرة المنتشرة فى مختلف البلاد غير شاهد حق بأن مصر لم تكن رائدة الأمم فى الحضارة العالمية بل أنها حملت الشعلة وأنارت بها السبيل أمام الشعوب فى الحضارة الروحية أيضاً .

٣٦٤- وكان فى منطقة أنتينو (الفيوم) اثنا عشر ديراً يموج بالراهبات . وفى أحد هذه الأديرة عاشت الناسكة الوقور أما تاليدا (٢) . وكان يعيش تحت رعايتها ستون راهبة يسعين بنفس واحدة نحو الكمال المسيحى . وكان الجميع - بلا استثناء - يحبونها ويجلونها ويطيعونها عن رضى وحبور حتى لقد كانت المحبة قاعدة التعامل بينهن . وكانت البوابة المؤدية للدير الذى ترأسه الأما تاليدا تظل مفتوحة ليل نهار حتى لقد صدأ مفتاحها . وخلال

---

(١) تيموثيئوس ٤ : ٧ - ٨ .

(٢) أى الأم تاليدا - مما يدل على أن كلمة « اما » التى يستعملها عامة المصريين كلمة قبطية وتكتب αμμα .

هذه السنين الطويلة التى عاشتها الراهبات تحت رعاية الأم تاليدا لم تغادر الدير واحدة منهن مرة من غير أن تحصل على تصريح منها ، ولا اعتدى لص أو قاطع طريق على الدير رغم أن بوابته مفتوحة باستمرار .

وبعد أن قضت هذه الأم القديسة ثمانين سنة فى جهاد روحى متواصل مثمر انتقلت إلى بيعة الأبكار فى هدوء وسلام (١) .

٣٦٥-على أنه -حتى بعد قيام الرهبنة الديرية- فضلت بعض الناسكات المتبتلات حياة العزلة ، ووجدن فى مغاور الصحراء الأماكن التى يستطعن العيش فيها على انفراد أسوة بالأنبا أنطونى ورهبانه ، بينما ظل البعض منهن منعزلاً فى البيت حاسبًا الوحدة بين جدرانه عزلة كافية . فاعتزلن العالم وقصرن خروجهن على الخدمة بين المعوزين والغرباء والمسجونين . ومن بين هاته الناسكات راهبة لم يذكر التاريخ اسمها وإنما قيل عنها بأنها عاشت على مقربة من الشهيد كولوتوس . وقد قضت هذه الراهبة ستين عاماً فى الصلوات والتأملات والخدمة . وبعد انقضاء هذه السنين وصلتها رسالة من الشهيد يقول لها فيها : « اليوم ستأخذين الطريق إلى السيد المسيح وترى قديسيه . فتعالى إلى كنيستى لنتحدث معًا عن عظائم الله قبل رحيلك » . فقامت الراهبة فى الصباح الباكر ووضعت بعض الخبز والأعشاب وقليلاً من الزيتون فى سلة ، اخذتها معها وذهبت إلى الكنيسة عملاً بوصية كولوتوس . ولما انتهت الصلاة وغادر المصلون الكنيسة قالت له الراهبة : « بارك يا أبى طعامى ، ولتكن صلواتك رفيقى فى رحلتى » . وبعد أن باركها وبارك طعامها أكلت قليلاً ثم قضت بقية النهار فى الكنيسة . فلما غربت الشمس عادت إلى بيتها . وكانت أمها لاتزال على قيد الحياة فأعطتها كتاباً عندها من مؤلفات أكليمنضس الاسكندرى وقالت لها : « سلمى هذا الكتاب للأسقف المنفى (٢) حين يعود إلى وطننا واطلبى إليه أن يصلى لأجلى لأنى سآخذ طريقى الليلة » . فتقبلت أمها هذا الكلام منها فى سكون واستقرار نفسى . وبعد ذلك ارتدت الناسكة ثياب الرقاد ونامت . وفى أثناء نومها انتقلت من دار الفناء إلى دار البقاء فى سكينة تامة وفى رضى واطمئنان (٣) .

---

(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ك١ ص١٥٢ .

(٢) أى الأنبا أثناسيوس الرسولى الذى تحمل مرارة النفى خمس مرات .

(٣) التاريخ اللوزياكى ، لبلاديوس ، ترجمه إلى الفرنسية لوكو ف ٦٠ ص٣٦١ - ٣٦٣ .

٣٦٦- ولقد صدق على الناسكات المصريات قول المزمور : « غمر ينادى غمراً » (١) إذ استجابت أرواحهن باندفاع وشوق لنداء الله تعالى ، فكانت لاستجابتهن هذه جاذبية عجيبة حركت قلوب الكثيرات خارج القطر المصرى ، فأتين إلى وادى النيل ليستمتعن برؤية عذاراه ويقتدين بهن فى جهادهن الروحى .

ومن أبرز الأجنبيات اللاتى حججن إلى مصرنا الحبيبة للتبرك بأبنائها وبناتها العائشين فى نور الله السيدة يوليانا من قيسارية الكبادوك التى اختبأ أوريجانوس فى بيتها سنتين كاملتين والتى كان لها الحظ الأوفى إذ قد أهداها سيماخوس مفسر الكتب العبرية كتاباً من مؤلفات هذا العلامة المصرى الذى حمته فى بيتها من بطش الحكام الرومان ، وميلانيا الكبرى التى كانت من أصل أسبانى ونشأت فى رومية لأن أباها كان قنصلاً هناك (٢) ، ثم خدمت القديسين الذين نفاهم الأباطرة الأريوسيون فكانت تحمل إليهم الطعام بنفسها ، وميلانيا الصغرى احدى الشريفات الرومانيات ، وأوليمبياس التى كانت زوجة لابن والى القسطنطينية ، وكانديدا ابنة القائد تراجان (٣) .

٣٦٧- وهكذا نرى أن بنى مصر وبناتها - بتكريس حياتهم للتأمل فى الالهيات ولخدمة الناس - قد استطاعوا أن يشعوا نور المسيح على مواطنيهم وعلى غير مواطنيهم . فقد كان النور الذى انعكس من حياتهم بهيًا لامعاً إلى حد أنه أنار السبيل أمام الناس فى مشارق الأرض ومغاربها فسار الكثيرون على هديه وأقروا بأن نظام الرهبنة المصرية يمتاز بما فيه من تقدير لمشاعر الغير ومن عطف عليهم (٤) ، لأن المصريين تقبلوا المسيحية باندفاع روحى فجعلوا من بلادهم جنة للقداسة (٥) .

---

(١) مزمور ٤١ فى الأجبية (٤٢ : ٢ فى الكتاب المقدس) .

(٢) انظر ف٤٠٢ من هذا الكتاب .

(٣) « بستان الآباء القديسين» ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٥٦ - ١٦٦ .

(٤) « الرهبنة الايرلندية » (بالانجليزية) لجون ريان ص٤٣ .

(٥) « رؤى مصرية » (بالفرنسية) ص٢٣٥ حيث يقول :

" Terre d'un généreux accueil fait au Christianisme. berceau de la vie hérémétique et monastique , l'Egypte devint sans tarder un delicieux jardin de sainteé " .

الشعلة تنتقل من يد إلى يد

ا- ثيئودورس

٣٦٨- فى ذات يوم أعلن الأنبا باخوم - أبو الشركة - لرهبانه أن شابًا سيحضر إلى الدير لينضم إلى جماعتهم ، ويكون يومًا ما أبًا لهم . ثم قال لهم : « لقد أرسلنا أبانا بيكوسيوس ليعالج المرضى فى مدينة لاتوبوليس [1] (اسنا) . ولقد أعلمنى ملاك الرب أنه سيعود الليلة مستصحبًا معه اناء مختارًا - هو يافع فى الثالثة أو الرابعة عشرة من عمره اسمه «ثيئودورس» .

(١) مثل هذه الاشارة دليل على خدمة الرهبان فى العالم مادام قد تخمروا فى الرهبنة ومادام الله تعالى قد منحهم هبات للخدمة . وكان أحبار الكنيسة أو رؤساء الأديرة ينتدبون من يرونه لائقًا للخدمة ويرسلونه لتأديتها فى العالم .

وقد تم بالفعل ما قاله الأنبا باخوم إذ أن الأخوة أبصروا الأب بيكوسيوس عائداً إليهم عند غروب الشمس ومعه اليافع الغريب .

٣٦٩- وكان ثيئودورس شاباً ممتلئاً نعمة بالفعل : فقد حدث انه - قبل مجيئه إلى الدير بسنتين - حين كان المصريون يعيّدون عيد الميلاد المجيد من اقصى البلاد إلى اقصاها ، ويستكملون أفراحهم بعيد الغطاس ، أن ثيئودورس بدأ يتأمل الحياة وما فيها من متناقضات غريبة واسرار غامضة وكان أبوه ذا ثروة واسعة فكانت العائلة تسكن قصراً منيفًا يموج بالتحف النادرة والزخارف البديعة . فتأمل ثيئودورس كل هذه المفاتن العالمية وقال لنفسه : « مسكين يا ثيئودورس - أن كل هذا الثراء لا يؤدى إلا إلى اعاقتك عن الوصول إلى الحياة الأبدية » . ثم اتخذ له ركناً فى اقصى القصر الفسيح وسقط على ركبتيه وأخذ يصلى بدموع غزيرة قائلاً : « ياربى - إن رغبتى الوحيدة هى أن أفعل ما يرضيك واهجر العالم ومفاتنه حاسبًا كل شئ نفاية لأربح مراحمك » . وبينما كان ثيئودورس غارقاً فى تاملاته ، ممتلئاً نشوة روحية ، كانت امه تبحث عنه . اخيراً وصلت إلى الركن القصى الذى لجأ إليه ووجدته راكعاً والدموع تنهمر من خديه كالسيل فامتلأت دهشة وسألته : « ماذا بك يا بنى ؟ اننى واخوتك فى انتظارك لتتناول معنا غذاء عيد الميلاد المجيد » . اجابها : « أماه لا ينشغل بالك وكونى مطمئنة فلا شئ بى على الاطلاق . اذهبى واتخذى مكانك على رأس المائدة مع اخوتى . أما أنا فلن آكل قبل الغروب » . ومن ذلك اليوم بدأ اليافع ثيئودورس يزاول حياة النسك . فقضى سنتين لا يذوق لقمة من المأكولات الشهية التى كان يتفنن الطهاة فى اعدادها . وكان يستطيع أحياناً أن يتجنب رعاية امه فيقضى يومه كله صائماً طاوياً . وحين كان يتمكن من البقاء بغير اكل يومين كان يشعر بغبطة عجيبة . وراقبه أبواه بشئ من القلق ، واقتنعا بأن ابنهما ذو حساسية روحية مرهفة ، ولكنهما توهما انه لايزال صغيراً ، وانه أصغر من أن يستطيع التحليق إلى الذروة التى يتطلع إليها . ولما انقضت السنتان وثيئودورس مداوم على أصوامه وصلواته اقتنع أبواه بوجهة نظره وسمحا له بأن يذهب ليعيش فى الدير . فتهلل ثيئودورس بهذا الاذن وقصد لفوره إلى مدينة لانوبوليس . وذات يوم رأى الشيخ بيكوسيوس ماراً به - وكان وقوراً منصرفاً إلى العناية

بالمرضى فلم ينتبه لليافع الذى تتبع خطواته . وبعد قليل تقدم هذا اليافع (وهو ثيئودورس) ورجا منه أن يأخذه إلى دير رجل الله باخوم . واحس بيكوسيوس بانعطاف نحو هذا اليافع المتعطش للروحيات ، فأخذه فى اليوم عينه إلى الأنبا باخوم . وما أن وجد ثيئودورس نفسه وجهًا لوجه مع أبى الشركة حتى انفجر فى البكاء . ووضع القديس العظيم ذراعه حول كتفى اليافع فى حنان زائد وقال له : « لا تبكى يا ولدى فأنا مجرد خادم لأبينا السماوى الواحد » . وبهذه الكلمات أدخل الأنبا باخوم ثيئودورس إلى الدير وأعلمه بمبادئ الرهبنة الديرية .

٣٧٠- وكان ثيئودورس اناء مختاراً ممتازاً فقد وقف كل جهوده من اليوم الأول لرهبنته على اكتساب الفضائل الرهبانية الأربعة وهى : نقاوة القلب ، والصمت ، والطاعة بلا تردد ، والفقر الاختيارى . ولم يتأخر مرة عن حضور الصلوات الخاصة بنصف الليل رغم حداثة سنه ، وبذل أقصى جهده فى العمل على منوال الشيوخ من الرهبان ، حتى أنه لم يلبث أن أصبح القدوة التى يسيرون على هديها .

٣٧١- وفى تلك الآونة ندمت أم ثيئودورس على موافقتها إياه - فقد رضت بتركه يذهب إلى الدير توهمًا منها أن رغبته لم تزد على شهوة صبيانية ، وأنه متى قضى فى الدير بعض الوقت فسيندم ويعود إليها ثانية . ولكنها وجدت أنه منذ أن فارقها لم يبعث لها بكلمة واحدة فقصدت إلى أسقف بلدها وغيره من الأساقفة القريبين ، ورجت منهم جميعاً أن يعطوها خطابات إلى الأنبا باخوم يطلبون إليه فيها أن يعيد إليها ابنها الذى اندفع وراء الرهبنة بحماسة الصبا الملتهبة . فوافقها بعضهم ، بينما نصحها البعض الآخر بأن تترك لولدها الحق فى أن يحيا الحياة التى يبتغيها . وحملت أم ثيئودورس ما تسلمت من خطابات ، وذهبت إلى الدير الذى ترأسه مريم شقيقة باخوم . ومن هناك بعثت برسالة إلى باخوم تستعطفه فيها أن يرسل لها ابنها ليفرح قلبها برؤيته . ونادى باخوم تلميذه الذى يحبه وقال له : « إننى أعرف الغرض الذى دفع بأمك إلى المجئ إلى هنا يا ولدى . فهى تحمل خطابات من بعض الأساقفة يرجون منى أن أردك إليها واحترامًا لهذه الخطابات التى كتبها آباؤنا الموقرون اذهب وقابل أمك ، وحاول أن تحصل

منها على رضاها غير المشروط عن بقائك هنا معنا » . أجاب ثيئودورس فى جد زائد : « يا أبى العزيز أن أمر مخلصنا صريح فقد قال : (ليس احد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت السموات) (١) . اجابه أبو الشركة : « إن كانت هذه عقيدتك يا ولدى فلست أستطيع أن أرغمك على مقابلة أمك والواقع أن ولاءنا الأول يجب أن يكون لله ، وانا متهلل لثباتك واخلاصك . فابق هنا ، وكمل سعيك ، وأنا موقن بأن الآباء الأساقفة سيعجبون بك بدلاً من أن يوبخوك » .

٣٧٢- وكان رفض ثيئودورس لطلب امه سببًا فى بقائها فى دير الراهبات أملاً فى أن تراه يوماً ما . ومرت الأيام ، وشفى مرور الأيام قلبها الجريح . وبعثت من الدير رسولاً يحمل الأمر بتوزيع ممتلكاتها لتقضى بقية أيامها فى هذه الحياة النسكية . وكان ابنها الأكبر - بفنوتى - قد ذهب معها ودخل دير الأنبا باخوم فأعجبته هذه الحياة وقرر الاستمرار فيها . وهكذا فاضت النعمة الالهية المنسكبة على ثيئودورس فملأت قلبى امه واخيه .

٣٧٣- ولقد ركز ثيئودورس انتباهه على معلمه باخوم ، وتتبعه فى كل أعماله وأقواله . ولشدة تعلقه بحياة الكمال بلغ فيها درجة عظمى فصار يرى رؤى ويحلم أحلامًا (٢) . وكان يروى هذه الرؤى على معلمه فى بساطة الطفولة . وقال له ذات يوم : « لقد أيقظنى ملاك الرب الليلة الماضية واشار علىّ أن أتبعه . فسرت وراءه وإذا به يقودنى إلى كنيسة تفيض بالنور وتموج بالسمائيين . وهناك أطعمنى مرشدى طعامًا عجيبًا للغاية ملأنى قوة جديدة . ثم أخذ النور يتضاءل رويداً رويداً ويبتعد السماويون تدريجاً إلى أن وجدتنى فريداً وحيداً محاطاً بهالة من نور لا يوصف » . وأصغى باخوم إلى حديث تلميذه ثم قال فى هدوء تام : « اذكر يا بنى أن الذى أعطاه خمس وزنات طالبه بخمس وزنات أخرى » (٣) .

٣٧٤- واشتغل ثيئودورس بيديه كغيره من الرهبان ، اشتغل برضى

---

(١) لوقا ٩ : ٦٢ .
(٢) يوئيل ٢ : ٢٨ .
(٣) متى ٢٥ : ١٤ - ٣٠ .

وحبور فلم يتذمر يومًا . وحدث أن عبر الاخوة النيل ذات مرة قاصدين احدى الجزر التى يكثر فيها السمار (١) ليجمعوا ما يحتاجون إليه منها . وكان على ثيئودورس يومذاك أن يهيئ الطعام للاخوة . وعند غروب الشمس جلس الجميع ليشتركوا فى الأكل . ولاحظ ثيئودورس أن معلمه منهمك ، فحاول أن يغطيه بجلد ماعز . ولكن باخوم قال له : « لا يا ولدى – اعطنى غطاء مما يستعمله الاخوة ، وتأكد أننى لا أستطيع بحال ما أن استعمل شيئًا يختلف عما يستعمله بقية الاخوة » . ولكن محبة ثيئودورس لمعلمه أنسته هذه الوصية فجاءه مرة ثانية برمانة ليبل بها لسانه الجاف . وعند ذاك وبخه باخوم والدموع تترقرق فى عينيه قائلاً : « ما هذا ؟ هل الذين لهم الرياسة فى الدير لهم بحكم هذه الرياسة حق فى أن يستمتعوا بشئ لا يستمتع به المرؤوسون ؟ اين اذن خوف الله ؟ قل لى يا ولدى هل دخلت كل القلالى ؟ ألم تجد فى احداها راهبًا اكثر احتياجًا إلى الرمانة منى ؟ » . فاقتنع ثيئودورس ولم ينس هذه الوصية مرة أخرى .

٢٧٥– وكان بين الرهبان أخ يتضجر كلما توبخ . وعلم ثيئودورس صدفة أن هذا الراهب ينوى الهرب من الدير . فذهب إليه وقال له : « يا أخى أن توبيخ هذا الشيخ غير محتمل ، فهو يتعدى حدوده » . وكأنما سبرت هذه الكلمات عمق الحنق الذى ملأ نفس ذلك الأخ فانفجر فى التحدث عن استيائه وغضبه . وما أن انتهى حتى قال له ثيئودورس : « أسمع يا أخى مادمنا – كلانا – نتألم من السبب عينه فلنعز بعضنا بعضًا ، ولننتظر لنرى أن كان الشيخ يصلح من سياسته أم لا . فإن أصلحها بقينا هنا ، وإن أصر على ما هو عليه من خطأ بحثنا عن دير آخر » . وبهذه الكلمات الحكيمة نجح ثيئودورس فى أن يسكت الأخ المتضجر . ثم قصد إلى الأنبا باخوم واطلعه على ما جرى . فقال له باخوم : « حسنًا فعلت يا ولدى ولكن عليك أن تمثل دورك حتى النهاية . اذهب واحضر الأخ المتضجر إلى هنا واستعمل معى انا ألفاظًا قاسية ، ثم افصح عن الأمر الذى يشكو منه . وسأجد الوسيلة لتكملة العمل الذى بدأته أنت » . وأطاع ثيئودورس ، واستحضر الراهب وبدأ كل منهما يعلن

---

(١) اعشاب النيل الطويلة السهلة الجدل .

سخطه . وبعد قليل قال باخوم : « كفى يا ولدى اننى اعترف بخطأى . ولكن – الا يليق بكما أن تحتملا ضعفى بوصفكما من الأبناء البررة ؟ . ولكن ثيئودورس استمر يستعمل ألفاظاً قاسية (كما أوصاه معلمه) إلى حد أن الأخ المتضجر بدأ يخجل ويشير إليه بالسكوت . ومنذ تلك الساعة ساد الرضى نفس الأخ الذى كان متضجراً ، ونجحت الحيلة التى لعبها ثيئودورس بمهارة وجد .

٣٧٦– وفى أحد الأيام نادى الأنبا باخوم تلميذه وقال له : « حين ينتهى الاخوة الليلة من وجبة المساء ، سلم عملك إلى أحد الاخوة وتعال قابلنى فى قاعة الاجتماعات » . وأطاع ثيئودورس ، ولما تجمع الاخوة فى القاعة الكبرى ، أمسك باخوم بيد تلميذه ، وأقامه فى الوسط وقال : « إننى أشعر الليلة بتعب يا بنى ، فخذ مكانى وحدث الاخوة بكلمة الله بدلاً عنى » . وأحس ثيئودورس باضطراب داخلى لدى سماعه هذه الكلمات ، ولكنه أخفى هذا الاضطراب فلم يظهر منه شيئاً ، ولم يسعه إلا أن يطيع أمر معلمه . فوقف يتكلم فى بساطة متناهية وفى صراحة الايمان الخالص . وحالما وقف الشاب ثيئودورس ليتكلم خرج بعض الشيوخ من القاعة مظهرين غضبهم واستياءهم . فلما انتهى ثيئودورس من الحديث ، أخذ الأنبا باخوم يسأل الحاضرين : « أتظنون هذه الكلمات من ثيئودورس هى أم من الله (جل اسمه) الذى تكلم على لسان عبده ؟ إن الذين خرجوا قد اغضبهم شبابه ، ولكن – ألم يقل مخلصنا الحبيب أن الذى يقبل ولداً صغيراً باسمه يقبله (١) ؟ وأؤكد لكم اننى أصغيت بكل جوارحى وفرحت بما سمعت » . وما أن انتهى أبو الشركة من هذه الكلمات حتى خرج يطلب الشيوخ الذين أبدوا استياءهم وسألهم : « ما الذى جعلكم تخرجون من قاعة الاجتماعات ؟ » أجابوه : « خرجنا لأنه خطر ببالك هذا الخاطر المستغرب وهو أن تطلب إلى شاب أن يعظنا نحن الشيوخ » . فعاد يسألهم : « أتعرفون يا أخوتى السبب الأصلى لكل الشرور فى العالم ؟ » قالوا : « وما هو ؟ ؟ » أجابهم : « إنه الكبرياء ، فالكبرياء هو الذى جعل أسمى الملائكة يهوى إلى الحضيض ، والكبرياء هو الذى حول الملك

---

(١) متى ١٨ : ٥ .

نبوخذ نصر إلى بهيم (١) . ويحزننى أن أقول أن الكبرياء كان الدافع اللاشعورى الذى جعلكم تسلكون هذا المسلك المعيب الليلة » . فمست كلمات الأنبا باخوم ضمائر هؤلاء الشيوخ وجعلتهم يضربون له المطانية (٢).

٣٧٧- ولما وثق الأنبا باخوم تمام الوثوق من صدق تلميذه ثيئودورس واخلاصه جعله (ربيتة) (٣) الدير . فلم يغيّر الشاب من مسلكه ، بل داوم على عيشة الراهب البسيط التى كان يعيشها قبل أن ينال هذه الثقة من رئيسه ، وظل يستشيره فى كل أموره الصعبة . فأصبح الدير الذى يدبر أموره أشبه بالمدرسة النموذجية يتعلم فيها كبار الرهبان أسمى الفضائل المسيحية .

٣٧٨- وجاء بعض الأخوة ذات يوم إلى ثيئودورس يتهمون أحدهم بالسرقة ويحتمون اخراجه من الدير . فخفف من حدتهم بأن رجا منهم أن يمهلوه ريثما يصلى طالبًا الارشاد من الله . فتركه الاخوة ليصلى . وبينما هو يصلى فى حرارة وجهاد ، علم بالروح أن السارق راهب آخر مشهور بين الجميع بتقواه . وغاص ثيئودورس فى تأملاته لدى هذا الكشف ، وداخلته الحيرة . وبينما هو فى هذه التأملات إذا بالمذنب قد جاءه واعترف له بذنبه لأنه لم يحتمل أن يقع قصاص ذنبه على غيره . فقال له ثيئودورس : « مادمت قد اعترفت بخطيتك فهى مغفورة لك ، كما أن شجاعتك فى الاعتراف وخوفك من أن تلتصق تهمة ذنبك بغيرك فضيلتان عظيمتان تستحق بسببهما المسامحة التامة عن كل عقوبة » . وأطلق ثيئودورس هذا الراهب ، ثم نادى المتهم وقال له : « لقد تألمت كثيراً بسبب تهمة عزاها الاخوة إليك باطلاً . ولكن الله فاحص القلوب قد اثبت لى براءتك ، كما أنه تعالى قد سمح بهذا الألم لك ليتنقى قلبك وتتصفى سريرتك » . وبهذه

---

(١) دانيال ٤ : ٢٨ - ٣٤ .

(٢) المطانية هى فى الواقع طلب الاستغفار ، ويؤديها المستغفر على ثلاث صور مختلفة : الأولى هى احناء الرأس ، والثانية هى الانحناء حتى الوسط ، والثالثة هى الانحناء حتى تلامس الجبهة الأرض .

(٣) أى « رب بيت » .

الكلمات عزى خاطره وسمح له بالعودة إلى قلايته . وأخيراً دعا الاخوة الذين اتهموه وقال لهم : « لقد أمر مخلصنا الحبيب أن نسامح سبع مرات سبعين مرة . فأسدلوا ذيل النسيان على هذا الموضوع بالكلية وذكروا انفسكم بأنكم فى حاجة إلى مراحم الله » .

٣٧٩- ومرت السنون . وقام حامى الايمان القويم - البابا أثناسيوس العظيم - برحلة راعوية وقصد إلى الأديرة - لا بوصفه لاجئًا متجنبًا بطش الأريوسيين الطغاة ، ولكن بوصفه البطل المنتصر . وخرج ثيئودورس يحيط به عدد من رؤساء الأديرة يتبعهم الرهبان لملاقاة البابا الجليل . وكان فرح الشعب بهذه الزيارة لا يوصف ، فاصطف على ضفتى النيل يحييه على طول الطريق . وعلى رأس الشعب وقف الأساقفة والكهنة يشاركون الشعب تهليله بانتصار بطل الأرثوذكسية . ولما اقترب من المنطقة التى تقع فيها الأديرة الباخومية تقدم ثيئودورس وحيا باباه الكبير ، ثم امسك بلجام حماره الأبيض ومشى إلى جانبه . وسار الجميع فى موكب رائع يزيد جلاله رائحة البخور المتصاعد من المجامر ، وأصوات التسابيح المتصاعدة من القلوب . وقبل أن يدخلوا الدير التفت أثناسيوس إلى الأساقفة وقال : « أنظروا تواضع هذا الأب ودعته وهو اب لرهبان عديدين . فيجب علينا - نحن الآباء - أن نقتدي بغيرته وباتضاعه » . وبعد أن تفقد البابا الاسكندرى الأديرة المختلفة قال لثيئودورس : « انكم تعملون ما يرضى الله يا ولدى لأنكم تملأون القلوب سلامًا . ولقد سمعنا أن اديرتكم هى هياكل حية للعلى ، ولكن الحقيقة تفوق الوصف . وأن نعمة الله تفيض عليكم ببركة ابيكم باخوم . لذلك أشعر - حين أراكم - أننى أرى المسيح نفسه له المجد » .

٣٨٠- وبعد ان عاد الأنبا أثناسيوس إلى عاصمة كرسيه ، كتب إلى اورسيسيوس رئيس أحد الأديرة الباخومية يقول : لقد رايت زميلكم ثيئودورس وعرفت فيه روح أبيه الصالح باخوم . فليباركهم الله جميعًا . ولقد قال لى ثيئودورس وأنا أودعه : اذكرنا فى صلواتك ، فأجبته : ان نسيتك يا أورشليم » (١) .

---

(١) مزمور ١٣٧ : ٥ - ٦ .

٣٨١- وذات مساء عاد ثيئودورس إلى الدير حاملاً بعض الحطب ليوقد النار كى يستدفئ الاخوة . ولكنه ما كاد يضع الحطب على الأرض حتى سمع أصوات استغاثة تناديه باسمه فالتفت ناحية الصوت وإذا ببعض الفلاحين يجرون نحوه . ولما وصلوا إليه انحنوا أمامه . فقال لهم : « لا تفعلوا هذا فأنا إنسان مثلكم . والآن قولوا لى ما سبب انزعاجكم » . وتقدم واحد منهم ، وأخذ يبلع دموعه ويتكلم بصوت منقطع وهو يقول : « يا أبى - أرجوك - ارحم ابنتى . لقد تقلص جسمها فجأة حتى لقد أفقدها الألم المقدرة على النطق . ويقول الطبيب انها تسممت وأن السم سرى فى كل جسمها ولا أمل فى تخليصها . فأستعطفك يا أبى ان تأتى وتصلى من أجلها » . قال ثيئودورس : « لا أستطيع أن آتى إلى بيتك . ولكن للرب الأرض وملؤها . فتعالوا نركع حيث نحن وقوف ، ونرفع تضرعاتنا إلى إلهنا الرحيم » . وركع الجميع ، وارتفع صوت ثيئودورس فى حرارة وقوة . ولما انتهى من الصلاة قال للأب المتلهف : « لقد شفيت ابنتك تماماً ، فاذهب بسلام » . وآمن الرجل ومن معه ، وعادوا فرحين . وكان للصلاة أثر مزدوج : فقد شفيت الفتاة تماماً ، كما ادى شفاؤها إلى صبغة زوج أختها بالصبغة المقدسة بعد أن كان وثنياً .

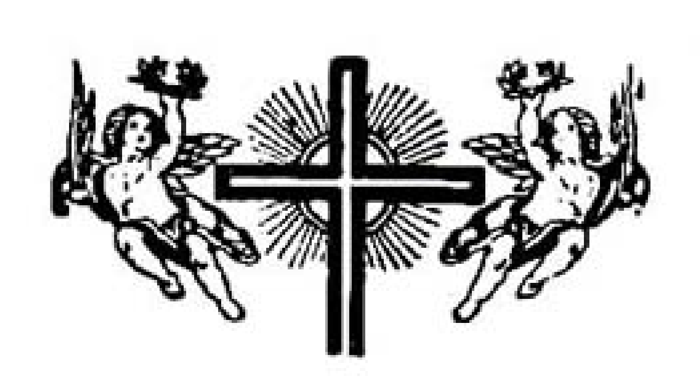
٣٨٢- وفى صباح أحد الأيام خرج الرهبان مع ثيئودورس قاصدين إحدى الجزر الواقعة وسط النيل يجمعوا الحطب كالمعتاد . وتبعه البعض منهم بينما تخلف البعض الآخر عند مرفأ المركب . وفجأة دوت صرخة عالية . فهرع نفر من الرهبان ليروا ما الخبر . وإذا بهم يجدون أن حية قد لدغت أحد المتخلفين فى قدمه اليمنى . وكانت تهز ذيلها بينما انتفخت رقبتها فى تهديد مخيف . وكان على مقربة منها راهب شاب طيبى (الأقصرى) اندفع فى حماسة شبابه فضرب ذيل الحية بفأسه ومزقه . وعند ذاك وصل ثيئودورس إلى المكان فوجد أن الراهب الملدوغ قد تورمت ساقه وازرق لونه وركع رجل الله إلى جانبه ، ورسمه بعلامة الصليب ، وقال فى تؤدة وثبات : « يا بنى لقد عوفيت ، فاستعد رباطة جأشك ومجد السيد المسيح الذى شفاك » وبينما الرهبان يتهللون لشفاء أخيهم قال ثيئودورس : « أليس عجيباً أن الحية لم تهجم على أخينا الطيبى الذى مزق ذيلها بفأسه ؟ فلنضاعف شكرنا لله على عنايته الفائقة بنا » .

٣٨٣- وفى السبت السابق لعيد القيامة المجيد سنة ٣٦٠م انتقل شاب من الاخوة إلى بيعة الأبكار . وكان ثيئودورس قد سهر إلى جانبه حتى فاضت روحه إلى باريها . وبعد أن صلوا عليه صلاة التجنيز قال ثيئودورس لرهبانه: « عما قليل سينضم أخ آخر إليه - وهذا الأخ لا تتطرق أفكاركم إلى ناحيته الآن» . ولم يعلق الرهبان اهمية لهذه الكلمات ظناً منهم أن رئيسهم قالها لينبههم إلى مضاعفة أصوامهم وصلواتهم . وأدى الاخوة صلوات أسبوع الآلام المقدس بحرارة وخشوع ، كما أدوا صلوات القيامة المجيدة بالفرح والتهليل . وبعد العيد بأيام قليلة مرض ثيئودورس . واحاط به بعض الاخوة وعلى رأسهم أورسيسيوس ، وركعوا يصلون لأجل رئيسهم المحبوب . وبينما هم يصلون اعتدل ثيئودورس فوق سريره وقال : « قل لى يا أبى أورسيسيوس هل اغضبتك فى يوم من الأيام ؟ » اجابه وهو يبلع دموعه ويحاول اخفاءها : « أبداً . ابداً » قال ثيئودورس : « ارجو منك يا ابى أن تصلى لأجلى وتستودعنى مراحم الآب السماوى » . ثم اضطجع فى هدوء وسلم روحه الطاهرة بين يدى الله .

٣٨٤- ولقد بعث الأنبا أثناسيوس الرسولى بخطاب تعزية لأورسيسيوس ورهبانه حالما سمع بانتقال ثيئودورس إلى الأخدار السماوية ، وهذا الخطاب هو خير شهادة لثيئودورس إذ جاء فيه ما نصه : « سمعت فى هذه اللحظة أن المطوّب ثيئودورس قد ذهب إلى مساكن النور . ولو أن خدماته انتهت بانتقاله لكنت مزجت دموعى بدموعكم ، ونحت طويلاً على هذه الخسارة الفادحة . ولكنى واثق تمام الثقة من انه لا يزال يخدم وهو يتنعم بالمجد الأبدى . وأدعو الله أن تكون خاتمة حياتنا شبيهة بخاتمة حياته ، كما أدعوه أيضاً أن ينجح كل منا فى أن يصل بسفينته إلى ميناء السلام . ويا اخوتى الأحباء الذين اشتهى أن أراهم - لا تبكوا على فراق ثيئودورس ، بل بالحرى جاهدوا لتقتفوا آثاره وتحيوا حياته . أما أنت يا أورسيسيوس المحبوب فاحمل عبء قيادة الاخوة بعد ثيئودورس ، تفقدهم فى مختلف الأديرة ، ثبت وشدد قلوبهم للجهاد . ولقد شاركت ثيئودورس - وهو بعد فى الجسد - عبء الرياسة ، فاعمل على مضاعفة مجهوداتك لأنك الآن تحمل العبء وحدك .

ختاماً أرجو من جميع الاخوة أن يصلوا ليقر الله السلام فى بيعته المقدسة . وإننا لنشكره تعالى لأنه سمح لنا أن نعيّد القيامة المجيدة والصعود الممتلئ جلالاً فى هدوء وسلام . وهذه النعمة الفائضة من إلهنا قد ملأتنى غبطة . وحين يصل إليك خطابى هذا بلغ جميع الاخوة سلام كهنتى الذين يشاركونى فى تقديم عزائهم إليكم . وأدعو الله أن يحفظكم جميعاً فى صحة وعافية أيها الاخوة المحبوبون المؤمنون حقاً » .

« أثناسيوس بنعمة الله أسقف
إلى أورسيسوس أبى جميع الرهبان وإلى الاخوة
العائشين معه فى اخلاص الإيمان المستقيم » (١)



---

(١) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ٢ ص٢٩ - ٣١ ، ٣٧-٤٦ ، ٤٩ - ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ - ٥٥ ، ٦٠ - ٦١ ، ٧٣ - ٨٣ ، السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص٨٥٠ .

ب- أبوللو قسيس من طيبة

(٣٨٥) مولد أبوللو فى الصعيد الأعلى وميله للنسك منذ صباه .

(٣٨٦) الآب السماوى ينتخبه لرسامة خاصة .

(٣٨٧) أبوللو يزور راهبا سجينا فيحكم عليه بالحبس هو أيضا.

(٣٨٨) بشاشته ونصيحته لرهبانه بالمرح والحبور.

(٣٨٩) نجاحه فى تأدية المهمة المؤتمن عليها من قبل الله .

(٣٩٠) الطعام الكافى يصل للاخوة فى البرية الجوانية نتيجة لصلواته .

(٣٩١) بلوغه الثمانين ومرحه حتى النهاية .

٣٨٥ – ولد أبوللو فى النصف الأول من القرن الميلادى الرابع ، فى الصعيد الأعلى ، فى منطقة مليئة بالآثار الفرعونية العجيبة التى زادها جمالاً مروج النخيل المحيطة بها . فنشأ فى جو كله جمال وفيه ايحاء بالروحيات . وكان أبوللو – وهو يتجول بين الآثار القديمة – يرى الرهبان المقيمين عند طرف الصحراء المجاورة . واستثار الرهبان رغبته فى الاستطلاع ، فبدأ وهو بعد فى سن مبكرة يسأل ويبحث . وقاده السؤال والبحث إلى الاستزادة من المعرفة ، فشغف بهذه الحياة الروحية التى تصل بين الانسان وباريه ، وتهيئ له أن يتذوق ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا على قلب خطر (١) من الآن على هذه الأرض ، وملأت عليه هذه التأملات حياته فهجر العالم ومباهجه ورحل إلى الدير حيث قضى أربعين سنة فى هدوء روحى عذب ، يقضى نهاره فى العمل والصلاة وليله فى التأمل والعبادة ، سعيداً بأن يكون ضمن الجنود المجهولين – لا يطلب إلا أن يظل منزوياً مختبطاً بصلته الوثيقة بالآب السماوى .

٣٨٦– ولكن الآب السماوى نفسه أخرجه من هذا الركن الهادئ الذى سعد فيه ليأتمنه على تأدية رسالة خاصة . فلقد سمع أبوللو ذات يوم الصوت الإلهى يقول له : « قم اذهب إلى بابلون لأننى اخترتك لتخجل حكماء

---

(١) ١ كو ٢ : ٩ .

هذا العالم » . أجاب أبوللو : « ياربي وإلهي – انني على اتم استعداد لأن أذهب حيث تقودني ولكني أخشى شيطان الكبرياء » أجابه الصوت : « لا تخف . ضع يدك على كتفك ، واقبض على الشئ الذي تجده عليه ، وادفنه في الرمال » . وأطاع أبوللو في دعة تامة ، وقبض على مخلوق لونه أسود كالأبنوس . وكان حجم هذا المخلوق الأسود صغيراً إلى حد أن يد أبوللو انطبقت عليه بأكمله . وأخذ هذا المخلوق يرفص ويتلوى ويصرخ : « اتركني فأنا شيطان الكبرياء » . وكانت هذه الكلمات سبباً في أن يسرع أبوللو إلى دفن هذا الشيطان في حفرة سحيقة . وما أن انتهى من هذا العمل حتى سمع الصوت السماوي يقول : « والآن لا تخف ، بل اذهب إلى بابلون ، وادع الله أن يمنحك النعمة التي بها تستطيع أن تتغلب على كل ما يعترضك وسيقبل الله صلواتك ويشددك » . فكانت هذه الكلمات حافزاً لأبوللو على المضي في العمل المهيأ له من الله تعالى ، وقصد إلى بابلون (مصر القديمة) . وكانت مصر في تلك الأيام تئن تحت نير يوليانوس الجاحد ولما كان هذا القيصر قد أنكر السيد المسيح فقد كان أكثر بطشاً من الأباطرة الوثنيين أنفسهم .

٣٨٧– وسمع أبوللو صدفة أن هذا الامبراطور قد سجن راهبًا ، فأسرع للسؤال عن الراهب السجين ، ودخل إليه في حبسه ، وجلس إلى جانبه يواسيه ويطمئنه إلى أنه سيشاركه السجن – ولكن إلى وقت قصير يأتيهما الفرج بعده . وبينما هو يتحدث دخل ضابط السجن . ولما رآه أمر بحبسه مع زميله وبمضاعفة عدد الحراس .

وفي نصف الليل أضاء نور حولهم يتوسطه ملاك الرب . وكان النور ساطعًا إلى حد انه أعمى عيون الحراس . ولما استعاد الحراس حواسهم أصابهم الهلع إذ وجدوا أبواب السجن مفتوحة والمسجونين غير موجودين . وكان الملاك الذي بدا وسط النور الساطع في السجن قد هز الدار التي يسكنها الضابط هزاً أشبه بالزلزال ولقد ذعر الضابط بهذه الهزة حتى أنه ترك المسجونين والحراس وشأنهم . وهكذا استعاد أبوللو وزميله حريتهما وعادوا حياتهما النسكية .

٣٨٨– وكان النساك في ذلك العصر يلبسون ملابس من الكتان الأبيض – فكان يحلو لأبوللو أن يذكرهم دومًا بالجهاد للاحتفاظ بنقاوتهم

فيقول لهم : « إن صوت فادينا الحبيب يرن فى آذاننا (من يأكل جسدى ويشرب دمى يحيا فىّ وأنا فيه)(١) وهذا السر العجيب يعطى للمتناول نعمة تمكنه من أن يحتفظ على الدوام بطهارته . لذلك كان الواجب على من يتناول السر المقدس أن يحيا حياة تؤهله لهذا الطعام السماوى » . وكانت هذه الأقوال التى لم يفتأ أبوللو يرددها على مسامع رهبانه حافزاً لهم على الجهاد المستمر ، فكانت حياتهم قدوة للحياة الروحية المثلى ، وكانوا ينزلون يومياً من صوامعهم فى المرتفعات ليحضروا القداس الإلهى ويتناولوا من الأسرار المقدسة ، ثم يعودوا وقد سطعت وجوههم بالنور السماوى . وكان أبوللو يفيض بشراً وحبوراً إلى حد أن وجهه البشوش كان يجتذب إليه عدداً كبيراً من الناس إلى الحياة النسكية . وكان يسائل رهبانه : « لماذا نجاهد ووجوهنا عابسة ، ألسنا ورثة الحياة الأبدية ؟ اتركوا العبوس والوجوم للوثنيين والعويل للخطاة . أما الأبرار والقديسون فحرى بهم أن يمرحوا ويبتسموا لأنهم يستمتعون بالروحيات » .

٣٨٩- ولم تكن عناية أبوللو برهبانه لتحول دون تأديته الرسالة التى ائتمنه عليها الصوت السماوى وكان للوثنيين عيد سنوى عظيم الشأن يحتفلون به فى ضواحى بابلون . فانتهز فرصة العيد ووقف وسط الجماهير يعلن لهم محبة المسيح اللانهائية وكان حديثه العذب وابتسامته الخلابة ووجهه المضئ صورة رائعة لكلامه عن الفادى الذى اقتضت محبته أن ينزل من علياء سمائه ليعيش كانسان فقير ، فاستطاع بكل هذه الوسائل وبالنعمة التى ملأته أن يجتذب الجماهير ويصبغهم بالصبغة المقدسة (المعمودية) .

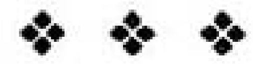
كذلك وجد أبوللو فرصة أخرى : فقد تنازع أهالى قريتين ، وهدد كل فريق باستعمال الأسلحة . وكان زعيم أحد الفريقين قاطع طريق معروف . إلا أن هذا لم يُخف أبوللو فذهب إليه مباشرة ، وأخذ يتحدث إليه بعذوبته المعتادة وهدوئه النفسى المعهود واستطاع بذلك أن يهدئ من حدته أولاً ثم أن يملأ نفسه محبة أخويه . ومن ثم ساد السلام بين أهالى القريتين .

---

(١) يو ٦ : ٥٦ .

٣٩٠- وحدث فى أحد مواسم عيد القيامة أن ذهب أبوللو مع رهبانه إلى الصحراء الجوانية (وكان ذلك أثناء الصوم الكبير) طلباً للخلوة التامة مع اللّه. وبينما هم هناك - وقبل أن تنتهى مدة الصوم والتأمل - فرغ الطعام الذى معهم . وجاء الرهبان إلى أبيهم الروحى - أبوللو - يعربون له عن خوفهم من أن يحتاجوا إلى طعام . وظل أبوللو محتفظاً بابتسامته العريضة ووجهه البشوش وقال فى ثقة تامة وهدوء كامل : « إن كنا أصدقاء حقيقيين للّه فما علينا إلا أن نسأله فيعطينا » . أجابوه : « لسنا مستحقين لمثل هذه النعمة يا أبانا المحبوب فاطلب عنا إليه تعالى » وسقط أبوللو على ركبتيه وصلى بحرارة واندفاع . وفى تلك الليلة جاء بعض الزوار إلى الصحراء الجوانية يحملون إليهم التين والبلح والزبيب والزيتون وآنية ملأى بالعسل وسلالاً فيها الخبز . وامتلأت قلوب الرهبان دهشة وفرحًا ، وسألوا الزوار عن اسمائهم ، ولكن الجواب كان : « لقد أرسلنا سيد عظيم » ووضعوا هداياهم ومضوا لسبيلهم . وكانت هذه المنحة الإلهية كافية لاشباع الجميع طيلة اقامتهم فى تلك المنطقة . وقد مكثوا فيها حتى عيد العنصرة (١) .

٣٩١- وقد تخطى أبوللو الثمانين ، وكان مرحه يتزايد على مر السنين فظل حتى النهاية باسم الثغر مضئ الوجه يتقبل الحياة فى تفاؤل وثقة . فانتقل من هذا العالم الفانى فى سكون وسلام واستبدل صومعته الهادئة بأمجاد السماء صافى النفس رصين القلب ، ودفن على ألحان الصلوات الكنسية . وظلت ذكراه تعطر أرجاء الوادى الرحيب . وكانت الآيات والعجائب التى تمت بشفاعته عديدة عظيمة حتى أن الأنبا تيموثيئوس (البابا الاسكندرى الـ٢٢) كتب سيرته بنياناً للكنيسة وبركة للمؤمنين (٢) .



(١) هو عيد حلول الروح القدس والكنيسة تعيده بعد عيد القيامة المجيدة بخمسين يوماً لأن فى هذا الموعد حل الروح القدس على المؤمنين المجتمعين بنفس واحدة فى أورشليم (أعمال ٢ : ١-٤) .

(٢) « قديسو مصر » للأب پول دورليان جـ١ ص٢١٨ - ٢٢٥ .

تجارب جديدة

(٣٩٢) انتقال الأنبا أثناسيوس إلى عالم النور.

(٣٩٣) انتخاب تلميذه بطرس خليفة له.

(٣٩٤) مميزات بطرس واكتسابه القسطنطينيين إلى الايمان القويم.

(٣٩٥) غضب الامبراطور فالنس واضطهاده المصريين.

(٣٩٦) الجند يقتحمون الكنيسة ويقتلون المصلين.

(٣٩٧) فوز الأريوسيين سراب خادع.

(٣٩٨) ميلاس اسقف رينوكورورا.

(٣٩٩) الأنبا بطرس الثانى فى رومية.

(٤٠٠) لوسيوس الدخيل ينكل بالمصريين.

(٤٠١) الراهب موسى القبطى ومناصرة القبائل العربية له بقيادة الملكة موفيا.

(٤٠٢) ميلانيا الشريفة الرومانية.

(٤٠٣) جلاسيوس الناسك.

(٤٠٤) عودة الأنبا بيلاطس الثانى إلى مقر كرسيه.

(٤٠٥) مكسيموس الكلبى.

(٤٠٦) انتقال الأنبا بطرس إلى الأخدار السماوية.

٣٩٢- وسارت الحياة فى مجراها ... وبتعاقب الأيام والليالى امتدت الشيخوخة إلى الأنبا أثناسيوس بطل الأرثوذكسية. لقد كان جبار العقل صاحى القلب ولكنه كان من لحم ودم كغيره من بنى الانسان عرضة للأعراض والآلام. ولولا عزيمته التى فلّت الحديد، ولولا ذهنه اللماح ونظرته الخاطفة، ولولا ايمانه الراسخ رسوخ الجبال الشامخة، لولا هذه الصفات كلها لما استطاع أن يتحمل صنوف الآلام التى كالها له أباطرة رومية والقسطنطينية، بل لما استطاع أن يقف فى وجه ستة عشر امبراطوراً ثابت الجنان رافع الرأس (١). على أنه لما كان الآب السماوى لا ينسى تعب المحبة،

---

(١) « النار المقدسة » (بالانجليزية) لروبرت باين ص١١٠ حيث يقول عند الكلام على نياحة الأنبا أثناسيوس الرسولى ما نصه :

" It was all over, and yet it had only just begun . The man who had been exiled five times, the little redbearded prince of th Church. quick - tempered' fiery, with the voice like clanging metal, altered the direction of history ... He was a man immeasurably above his time, dominating it with the force of his passion " .

ولما كان تعالى يهب أصفياءه نعمة تمكنهم من ملاقاة الأهوال فى ثقة وتهليل ، فقد أبدى حنانه اللانهائى للأنبا أثناسيوس الرسولى وشعبه الأمين بأن منحهم خمس سنوات من الهدوء والسلام كانت المغيب الرائق اللماع الذى انتهت إليه شمس حياة حامي الايمان القويم . ونتيجة لهذا السلام امتلأت قلوب المصريين جميعًا بفرح روحى عميق فسبحوا الآب السماوى ومجدوا اسمه القدوس لأنه أفاض من قوته على خليفة القديس مرقس فمكنه من أن يقود دفة الكنيسة وسط الأعاصير والأهواء ويصل بها إلى ميناء السلام . فصفا الجو بعد اكفهرار ، ورسخت العقيدة الأرثوذكسية فى القلوب بعد أن كادت أنواء البدع أن تعصف بها ولم يكن السلام الخارجى الذى شمل وادى النيل سوى انعكاس باهت للسلام العميق الذى ملأ قلب أثناسيوس الرسولى فقد تأمل جهاده الشاق الطويل ، وانتصار الايمان الأرثوذكسي بالكلمة المتجسد ، ثم تأمل ما جازه من اختبارات فيها العنف والقسوة والكراهية المرة مقابل الوفاء والاخلاص والمحبة الدافقة الثابتة حتى النهاية . وحين تأمل هذا كله غمرته الغبطة وساد قلبه سلام شامل هو الثمرة لضميره الحى الراضى . وهكذا مرت الأخطار والخطوب بأثناسيوس الرسولى كما يمر السحاب العابر وانجلت عن شمس ساطعة الضياء فاستمتع بالهدوء والاستقرار ، وسعد برؤية قومه وادعين مطمئنين . ثم انطفأ نوره الوهاج كما ينطفئ السراج : انطفأ فى سكون عجيب بعد أن زالت الجلبة والضوضاء . وظل قلبه مشغولاً بالكنيسة التى أحبها ، وبالايمان الذى ملأ عليه نفسه ، وبالشعب الذى آزره ، حتى آخر لحظة من حياته على هذه الأرض لأنه - حين علم بروحه أن ساعته قد حانت - أراد أن يسلم الوديعة التى ائتمنه عليها اللّه تعالى إلى رجل يثق فى ولائه وتفانيه ، ويعرف أنه جدير بخدمة الكنيسة المروية بدم الشهداء وبدموع المحبين لذلك اتجه فكره إلى تلميذه بطرس لأنه كان واثقاً من محبته واخلاصه ، فردد اسمه كما ردد سلفه البابا الكسندروس اسمه هو شخصياً فى مثل هذه الساعة المهيبة .

٣٩٣- ولقد انتقل الأنبا أثناسيوس من هذا العالم وهو فى شيخوخة لماعة وكانت نياحته الفرصة التى يترقبها الأريوسيون إذ كانوا يطمعون فى أن يجلسوا على السدة المرقسية أحد أنصارهم ولكن هذه الأحلام تحطمت

على الصخرة المصرية ، لأن ولاء المصريين لايمانهم القويم ولباباهم البطل الراسخ رسوخ الطود دفعهم إلى الاسراع فى تنفيذ وصيته وانتخاب تلميذه بطرس خليفة له .

٣٩٤- وكان بطرس قد تشبع بتعاليم معلمه الأرثوذكسية الصميمة وجرأته فى الحق ، كما كان أحد كهنة الاسكندرية الذين أوفدهم الأنبا أثناسيوس إلى قيسارية الكبادوك حين رجا منه باسيليوس [١] رئيس اساقفة تلك المدينة أن يبعث إليه ببعض علماء الكرسى المرقسى ليقوموا بادحاض البدعة الأريوسية التى كانت قد تفشت فى البلاد الخاضعة لأسقفيته . فلما أدى بطرس مع معاونيه رسالتهم فى قهر الأريوسية عاد إلى الاسكندرية ، وأسندت إليه سكرتارية باباويتها . وقد ظل يشغل هذا المنصب حتى انتخبه الشعب مع الاكليروس راعياً أعلى لكنيسة مارمرقس سنة ٣٦٤م . ش .

٣٩٥- وكان الامبراطور إذ ذاك هو فالنس الموالى للأريوسيين وهو الذى كان قد اضطر إلى التنازل عن نفى الأنبا أثناسيوس حين واجه الثورة العنيفة المتأججة فى مصر احتجاجاً عليه . فلما سارع المصريون إلى انتخاب بطرس الثانى خليفة لباباهم الراحل امتلأ الامبراطور حنقاً وغضباً ، واحس بأنه إن رضخ لرغبة الشعب المصرى هذه المرة ايضاً ضيّع كل ما لديه من نفوذ عليه . فعوّل على الانتقام من البابا الاسكندرى وناخبيه شأنه فى ذلك شأن اسلافه الأباطرة الرومانيين والبيزنطيين . فبعث إلى واليه فى الاسكندرية أمراً بالمبادرة إلى خلع الأنبا بطرس الثانى ونفيه وتنصيب لوسيوس الأريوسى مكانه وتعزيزاً لهذا الأمر الامبراطورى أصدر فالنس امره بأن ترافق لوسيوس إلى الاسكندرية كتيبة غير المرابطة فى حدودها هذه العاصمة بزعامة ماجنوس أمين خزانة الامبراطورية . وهكذا دخل لوسيوس الاسكندرية زاعماً أنه فى مأمن من غضب الشعب المصرى مادام فى حمى الجنود الرومانية - البيزنطية .

٣٩٦- وكان أول عمل قام به الحاكم - بعد وصول لوسيوس - هو تطويق الكنيسة بجنده ، واقتحام الجند لهذه الكنيسة واعمال سيوفهم فى

---

(١) هو كاتب القداس الشائع استعماله فى كنيستنا القبطية الآن .

رقاب المصلين زاعمًا منهم أنهم يستطيعون بذلك الاعتداء الآثم أن يفتكوا بالبابا الاسكندرى .

فسلك الاسكندريون مسلك آبائهم وصمدوا فى أماكنهم ، وبذلك أقاموا من أجسادهم سداً منيعًا يحول دون بلوغ الجند إلى أبيهم البار الذى افتدوه بأرواحهم . وبينما الجند يعملون فى المصلين تقتيلاً وتعذيبًا ، وينتهكون حرمة المكان المقدس ، استطاع الأنبا بطرس الثانى أن يغادر الكنيسة فى سلام وعافية . وذهب فى جنح الليل إلى قصر مهجور على شاطئ البحر حيث كتب رسالة دورية دافع فيها عن كنيسته دفاع سلفه البطل أثناسيوس العظيم ، ووصف ما لاقاه شعبه الوفى من تعذيب وتنكيل وصفاً مؤثراً – إذ قد عاشت الاسكندرية مرة أخرى فترة من أحلك فترات تاريخها (١) .

٣٩٧– وفى تلك الفترة الحالكة بدأ شئ من اليأس يتسرب إلى بعض النفوس ، فظنوا أن الأريوسية ستنتصر لأن الايمان القويم قد فقد بطله العظيم . غير أن المظاهر كانت خداعة لأن فوز الأريوسيين بتنصيب الدخيل كان سراباً خادعًا . ذلك أنه على الرغم من هذه المظاهر كانت كنيسة الله الأرثوذكسية قد أدركت تمام الادراك قيمة الايمان القويم الذى تسلمته من رسل الرب الأطهار وتلاميذه القديسين ، كما أدرك الجميع أن دستور الايمان الذى وضعه آباء مجمع نيقية (المسكونى الأول) هو دستور الكنيسة فى مشارق الأرض ومغاربها . كذلك أيقن جاحدوا هذا الدستور أنهم إنما ينكرون ذلك الايمان المقدس جبناً منهم وخوفًا من بطش الحكام بهم . فلم يعد الصراع قائماً بين مؤمن بالأرثوذكسية ومؤمن بالبدعة الأريوسية ، ولكنه أصبح صراعاً بين مؤمنين متفانين فى سبيل الايمان النيقى ، وقوم تخاذلت قواهم ووهنت مقاومتهم فلم يسعهم إلا الخنوع للقوة الغاشمة – فكان لابد من فشلهم فى النهاية (٢) .

وبعث والى الاسكندرية إلى الامبراطور يبلغه أن جنده لم يفلحوا فى

---

(١) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ١ ص٥٨٩ – ٥٩٢ .

(٢) « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لچون نيل جـ١ ص٢٠٢ .

القبض على البابا الاسكندرى فكان رد الامبراطور أمره بنفى أساقفة مصر جميعاً ما لم يقبلوا التعاون مع لوسيوس الأريوسى .

٣٩٨- ومما يؤثر عن احد هؤلاء الأساقفة أن الجند حين وصلوا إلى رينوكورورا (١) عاصمة أسقفيته وقت المساء وجدوه مشتغلاً بايقاد القناديل داخل الكنيسة . فزعموا أن عملاً بسيطاً كهذا لا يؤديه أسقف بل يقوم به أحد خدم الكنيسة فسألوه عن الأسقف . فاستصحبهم إلى دار الأسقفية حيث قدم لهم طعام العشاء وخدمهم بنفسه . ولما انتهوا من العشاء أعلنهم بأنه هو الأسقف ميلاس ضالتهم المنشودة . ودهش الجند وخجلوا مما أبداه نحوهم من كرم واتضاع ، وعرضوا عليه فكرة الهرب تجنبًا للنفى . ولكنه قابل عرضهم بابتسامة هادئة وقال لهم : « إنى أفضل النفى فى سبيل الايمان على الحرية فى ظل الأريوسية » (٢) .

٣٩٩- وفى هذه الآونة أدرك الأنبا بطرس الثانى أن اختفاءه فى ذلك القصر المهجور لا يجديه هو وكنيسته نفعًا . وكان قد بلغه أن داماسوس أسقف رومية قد ناصر أسقفاً دخيلاً على كرسى انطاكية ، وانه قد شجع المروجين لشتى البدع بعدم اصداره حكمًا عليهم . فعوّل على الذهاب إلى رومية ليضع حداً لهذه الفوضى ومن ثم ترك مخبأه وسافر إلى عاصمة الامبراطورية الغربية حيث قوبل بكل حفاوة واكرام لأن مسيحى تلك المدينة كانوا لا يزالون يذكرون أثناسيوس الرسولى ومواقفه الجريئة دفاعًا عن الايمان . فوجد البابا الاسكندرى فى هذه المقابلة الحارة فرصة سانحة للمبادرة بمقابلة داماسوس واقناعه بوجوب عقد مجمع يتداول فيه أساقفة الكرسى الرومانى فى الايمان الأرثوذكسى ، وفى اعتداء الأريوسيين على الكراسى الرسولية بفرض أشياعهم عليها . وبالفعل عقد داماسوس أسقف رومية مجمعاً سنة ٣٧٠م . ش قرر حرم جميع الأريوسيين الذين حكمت عليهم الكنائس الرسولية الشرقية بالحرم ، كما قرر أن الأساقفة الذين فرضهم الأريوسيون ليسوا سوى دخلاء معتدين ويجب عليهم تخلية

---

(١) كانت هذه المدينة تقع على الحدود الفاصلة بين مصر وفينيقية التى هى لبنان الآن .

(٢) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب بول دورليان جـ١ ص١٥٠ — ١٥٢ .

الكراسى لأصحابها الشرعيين . وبعث هذا المجمع الرومانى بقراراته إلى ميليتيوس الأسقف الشرعى لأنطاكية ولم يرسل صورة منها للأريوسى الدخيل المعتدى على كرسيه . وحالما تسلم ميليتيوس أسقف انطاكية قرارات المجمع الرومانى عقد مجمعاً من أساقفة كرسيه فاجتمع إليه مئة وستة وأربعون أسقفاً وافقوا جميعًا على هذه القرارات (١) . وهكذا نجح خليفة مارمرقس فى مصالحة الكنائس بعضها مع بعض ، وفى تثبيت الايمان الأرثوذكسى حتى وهو مرير النفس للمنفى الذى وإن يكن اختيارياً إلا أنه كان لا مناص منه بسبب بطش الأريوسيين .

٤٠٠ – وقد وجد لوسيوس الدخيل فى غيبة الأنبا بطرس الثانى البابا الشرعى للكرسى الاسكندرى الفرصة المواتية لمضاعفة التنكيل بالشعب الوفى . وواجه المصريون صلف هذا الدخيل وبطشه بنفس العزم والثبات اللذين قابل بهما فتك من سبقه من الحكام – الوثنيين منهم والأريوسيين – وامتلأ لوسيوس حنقاً بازاء صمود المصريين أمام فظائعه ، فلم يكفه الفتك بهم فى المدن ، بل أرسل جنده إلى الصحارى حيث اقتحموا حرمة الصوامع المبعثرة فى أرجائها ، ولم يتراجعوا عن ايذاء النساك الساكنين فيها مهما بلغوا من القداسة أو من الشيخوخة (٢) .

وقد حدث ذات يوم أن دخل الجند ديراً فى الساعة التى كان النساك المقيمين فيه يصلون على مصاب بداء الفالج . فاستجاب اللّه دعاءهم وشفى المريض . بيد أن الصلوات المجابة ، وخدمات النساك للشعب لم تكن لتحول دون بطش الجند بهم . فساقوهم إلى النفى والسجن بلا رحمة .

٤٠١ – على أن النصر الذى زعم الأريوسيون أنهم أحرزوه لم يكن سوى فقاعة واهية . فبينما هم يستبدون بالأرثوذكسيين فينفون الأساقفة ويفرضون الدخلاء على كراسيهم ، وبينما هم يبطشون بالشعوب المخلصة للايمان الذى سنه مجمع نيقية ، إذ بهم يصطدمون بالحقيقة المرة : هى أن سلطانهم زيف وسراب . وقد ذاقوا علقم هذه الحقيقة حين واجهوا تصميم

---

(١) « المجموعة عن المجامع » (بالانجليزية) لهولستاين جـ١ ص١٧٦ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٢ ص٤٤٨ – ٤٤٩ .

القبائل العربية المنتشرة فيما بين الحدود المصرية الشرقية وبين الشواطئ الآسيوية . فقد حدث أن تكتلت هذه القبائل فألفت فيما بينها دولة واحدة تحت أمرة ملكة اسمها موفيا . فكونوا بوحدتهم قوة أفزعت الامبراطور فالنس وجعلته يسعى إلى عقد معاهدة معهم . وكانت هذه القبائل قد اعتنقت المسيحية نتيجة لمجهودات أوريجانوس سنة ٢١٨ م.ش. فلما اتحدت شعرت بالحاجة إلى أسقف يرعاهم . وكان يعيش فى الصحراء الشرقية وقتذاك راهب متوحد اسمه موسى أحبه أفراد هذه القبائل وقرروا أن يختاروه أسقفاً لهم . فلما عرض الامبراطور فالنس على الملكة موفيا عقد معاهدة معها ومع قومها أعلمته باستعدادها لابرام هذه المعاهدة بشرط واحد : هو أن يمكن موسى القبطى من الذهاب إلى الاسكندرية لرسامته اسقفًا . ولم تكن الملكة موفيا قد اعتنقت المسيحية بعد ولكنها فيما اشترطت قد عبرت عن رغبة شعبها . ووافق الامبراطور فالنس على هذا الطلب لرغبته الملحة فى عقد المعاهدة مع القبائل المتكتلة ، ولم يكن يدرى ما تخبئه له هذه الموافقة من مفاجآت .

ووصل موسى القبطى إلى الاسكندرية فوجد فيها لوسيوس الدخيل مغتصب الكرسى المرقسى ، كما وجد جميع الأساقفة الأرثوذكسيين منفيين. وعندما وقف فى وسط الكنيسة المرقسية وقال بصوت جهورى : «أننى لا أستحق كرامة الأسقفية ولكنى قبلتها استجابة للمحبة التى أولانى إياها من اختارونى وأولونى ثقتهم . ولن أقبل بحال ما أن يضع علىّ اليد واحد من ناكرى لاهوت سيدى ومخلصى الحبيب . فإن أوصلتمونى إلى أسقف أرثوذكسى قبلت من يده هذه الكرامة العظمى ، وإلا أعيدونى إلى وحدتى فى الصحراء» . وعبثاً حاول حكام الامبراطور أن يثنوه عن عزمه ، وعبثاً حاولوا اقناع الملكة موفيا أن ترجع عن تأييد الراهب موسى فى موقفه الحازم ، وعبثاً حاولوا زحزحة الشعب عن اختياره هذا الراهب ، فاضطروا فى نهاية الأمر إلى الاذعان ، وصحبوا الراهب موسى إلى أقرب منفى للأساقفة الأرثوذكسيين حيث وضعوا عليه اليد بين تهليل الشعب الذى امتزج فرحه باعجابه للراهب موسى الذى رفض فى جرأة وعزة أن يذعن للحكام الغاشمين .

وبعد أن تمت رسامته ذهب الأسقف موسى إلى شعبه الذى أحبه وأكرمه . ومذاك كرس الأنبا موسى حياته وجهوده على خدمة هذا الشعب الذى ناصره على خصوم الأرثوذكسية . وقد نجح فى النهاية فى اكتساب الملكة موفيا إلى الدين المسيحى . ومن ذلك العهد انضمت بلاد العرب إلى الكرازة المرقسية .

٤٠٢- وإبان هذه الاضطهادات المتوالية قيض الله للأرثوذكسية سيدة من الأشراف تدعى ميلانيا كريمة قنصل أسبانيا فى البلاط الامبراطورى . وكانت هذه السيدة الشريفة قد اعتنقت المسيحية وأضحت من أبرز المعجبين بالنساك المصريين حتى أنها عانت مشقة السفر إلى الصحارى المصرية لتنال بركة من بها من النساك الأبرار وخلال الاضطهاد الأريوسى لم تنقطع عن الأخذ بناصر الأساقفة المنفيين والنساك المحبوسين وتزويدهم بالمأكل والملبس . وقد غالت فى اكرام هؤلاء الآباء الأطهار إلى حد أنها كانت كثيراً ما تتخفى فى زى أحد خدامها وتحمل إليهم بنفسها كل ما هم فى حاجة إليه(١).

٤٠٣- ومن أبرز الآباء الذين سهروا على شعب الفادى الحبيب فى غيبة الأنبا بطرس الثانى البابا الاسكندرى الناسك جلاسيوس الملقب بالمحارب فلقد ادى هذا الناسك للشعب الاسكندرى فى شدته خدمات جمة وهو فى رتبة الشماسية . ثم زهد فى العالم وقصد إلى برية شيهيت حيث أهلته جهوده الروحية إلى أن يرعى الرهبان المقيمين فى تلك المنطقة المقدسة - فأقيم أباً على نساك كثيرين وكان يقضِ أوقاته فى كتابة الكتب المقدسة وتسليمها إلى نساك ديره ليتعلموا منها الحكمة الإلهية . وقد قام نساكه بدورهم بكل ما يلزم الشعب من خدمات دينية أهلتهم لأن يقفوا فى وجه كل اضطهاد دينى (٢) .

٤٠٤- وظل الشعب المصرى - رغم ما قسى من صنوف العذاب -

---

(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص٢٢٤ - ٢٢٥ ؛ « مختصر تاريخ الأمة القبطية » لسليم سليمان ص٤٨٠ ، « أثناسيوس الكبير » (بالفرنسية) لجان أدم مولر جـ٣ ص٢٨٠ ، « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ١ ص٢٨٣ - ٢٨٦ .

(٢) «بستان الآباء القديسين» ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٥٦ - ١٥٧.

يناضل فى سبيل دعوة الأنبا بطرس الثانى باباه الشرعى الذى انتخبه بمحض إرادته . وقد تحققت أمنية الشعب بعودة ابيه إليه . وحين وصل الأنبا بطرس الثانى إلى الاسكندرية قام الشعب عن بكرة ابيه لأداء واجب الترحيب والتكريم نحو اب طالت غيبته . وما ان رأى لوسيوس الدخيل فرحة الشعب بمقدم باباه الشرعى حتى استولى عليه الفزع وفر من الاسكندرية قاصداً إلى القسطنطينية ليرفع شكواه إلى الامبراطور فالنس . وكان الامبراطور إذ ذاك متشاغلاً بالحرب مع الفرس فلم يعر شكوى لوسيوس أدنى التفاتة . وهكذا استطاع الأنبا بطرس الثانى ان يقيم بين شعبه الوفى فى هدوء وطمأنينة .

٤٠٥ – وسقط الامبراطور فالنس فى الحرب ضد الفرس ، فخلفه ثيئودوسيوس الكبير . وارتاع هذا الامبراطور مما اصاب كنيسة القسطنطينية على ايدى الأريوسيين ، فبعث إلى الأنبا بطرس الثانى يرجو منه ان يعاونه على اعادة هذه الكنيسة إلى سالف مجدها (١) . فبادر البابا الاسكندرى بتكليف القديس غريغوريوس الثيئولوغس (الناطق بالإلهيات) اسقف سازيما بأسيا الصغرى بالذهاب إلى القسطنطينية لتعليم شعبها وتثبيته على الايمان القويم فذهب القديس غريغوريوس إلى القسطنطينية تنفيذاً لرغبة البابا الاسكندرى ، وعاش فى تلك العاصمة عيشة النسك والدعة على منوال آباء الصحارى المصرية . ولقد تفانى فى تعليم القسطنطينيين الايمان القويم فنجح فى ضمهم إلى كنيسة الله الأرثوذكسية ، ومن ثم أولوه محبتهم واعجابهم وفوق هذا فقد ظلوا أوفياء لدستور الايمان الذى اقره مجمع نيقية (٢) .

وكان هناك رجل يدعى مكسيموس الكلبى طمع فى كرسى القسطنطينية . فذهب إلى تلك المدينة وتظاهر بالصداقة لغريغوريوس الثيئولوغس وما زال به حتى اقنعه بما يكنه له من مودة خالصة . فلما ضمن مكسيموس الكلبى مودة غريغوريوس حول وجهه شطر الاسكندرية ليكسب مودة الأنبا بطرس الثانى . وقد نجح فيما أراد إذ استطاع ان يحظى

---

(١) « السنكسار الاثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٦١٨ – ٦٢١ .

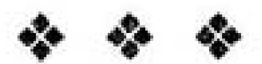
(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للارشيمندريت جيتى جـ٣ ص٤٧٥ – ٤٧٨ .

بثقة البابا الاسكندرى الذى لم يتردد فى أن يوفده إلى القسطنطينية بمعية بعض الأساقفة المصريين ليرسموه أسقفاً عليها .

وكان غريغوريوس الثيئولوغس ملازمًا الفراش إذ ذاك ولكنه ما كاد يسمع بوصول مكسيموس الكلبى إلى القسطنطينية ليرسم اسقفًا عليها حتى غادر فراشه رغم مرضه لأنه كان لا يزال يعده صديقًا صدوقًا . إلا ان الشعب القسطنطينى ثار على مكسيموس وأعلن رغبته فى أن يقام غريغوريوس أسقفاً عليه . فقصد مكسيموس إلى الامبراطور ثيئودوسيوس ظناً منه انه سيكون له نصيراً . ولكن الامبراطور ابى أن يفرض على الشعب أسقفاً لا يرضاه (١) .

غير أن طمع مكسيموس فى الرياسة كان جارفًا فلم يقعده رفض الامبراطور عن الاستمرار فى محاولاته فعاد إلى الاسكندرية ليستعين بالأنبا بطرسى الثانى مرة أخرى زعماً منه أنه يقوى على خداعه ويظفر بمناصرته. ولكن البابا الاسكندرى كان قد أدرك من تتبعه لمسلك مكسيموس ومما جرى فى القسطنطينية ما يكنه صدر هذا الرجل من نفاق ومطامع . فرفض أن يقابله وطلب من والى الاسكندرية أن ينفيه. وهنا أسدل التاريخ ستاره على مكسيموس وطواه طى النسيان فلا يعرف أحد ماذا جرى له .

٤٠٦- وقد تألم الأنبا بطرس الثانى لما حدث فى القسطنطينية وحاول جهده أن يزيل ما نشأ عنه من شكوك وعثرات . غير أن أيام غربته فى هذا العالم كانت قد قاربت النهاية فلم يلبث أن انتقل إلى أورشليم السمائية قبل أن يسوى هذا الأمر نهائيًا فترك هذا العالم وارتحل إلى الموضع الذى هرب منه الوجع والكآبة والتنهد بعد أن ساس كنيسة مصر سنوات خمساً وأشهراً تسعة .



(١) شرحه جـ٣ ص٤٧٨ - ٤٨٠ .

شاهد من شواطئ بحر الإدرياتيكى (*)

(٤٠٧) زيارة روفينوس للأراضى المقدسة ولمصر .
(٤٠٨) حنينه يدفعه إلى الكتابة عن الآباء المصريين .
(٤٠٩) وصف روفينوس للأب آمون .
(٤١٠) وصفه لرهبان الأديرة فى أرسينو .
(٤١١) المتوحدون فى القلالى .

٤٠٧- وفد روفينوس على مصر حوالى سنة ٣٧١م . وكان من مدينة اكويلا الواقعة على شاطئ البحر الأدرياتيكى (بايطاليا) . ومن العجيب أن أبويه أهملا تعليمه وهو طفل ، ولكن غيرته دفعته إلى أن يعلم نفسه بنفسه . وكان النساك المصريون إذ ذاك النموذج الأمثل لجميع المسيحيين فاستثاروا بقدوتهم حماسة الشباب . وكان روفينوس واحداً من مئات الشبان الذين استهوتهم الحياة النسكية فاندمجوا فيها بحرارة . ولشغف روفينوس بهذه الحياة قصد إلى الأراضى المقدسة حيث عاش بضع سنوات مع رهبانها . على أن زيارته لتلك الأماكن لم تكن كافية له إذ أراد أن يضم بركة آباء الصحارى المصرية إلى بركة الأراضى المقدسة . فجاء إلى مصر بمعية السيدة ميلانيا الشريفة الرومانية التى كرست حياتها بعد ترملها لخدمة القديسين والعاملين فى كنيسة الله . وحالما وصل روفينوس إلى الاسكندرية قصد لفوره إلى الصحراء حيث قابل عدداً كبيراً من آبائها . واتفق أن كان مجيئه إلى مصر أيام الاضطهاد الذى أثاره الامبراطور فالنس على المصريين ، فاصطلى بناره . ولكنه رغم ما ذاق من عذاب استطاع أن يقابل النساك المقيمين فى الصحارى ويسعد بالحياة معهم .

٤٠٨- وبعد مضى سنين على رجوعه إلى اكويلا أحس بحنين جارف إلى هؤلاء النساك دفعه إلى أن يكتب عمن سعد بلقياهم ، وأن يصف حياتهم القدسية . ويبدو هذا الحنين واضحاً فى المقدمة التى وضعها روفينوس لكتابه حيث قال : « لقد حظيت عيناى برؤية عدد من الآباء عاشوا عيشة السماء

(*) هو البحر المحصور بين ايطاليا من جهة ويوغسلافيا واليونان من الجهة المقابلة ، وتقع مدينة البندقية على شاطئه الشمالى .

على هذه الأرض . لقد رأيت قديسين تطهروا من كل اثم حتى لقد نسوا أن الشر لا يزال متفشياً فى العالم . وهم يعيشون متفرقين فى مغاور الصحراء ولكن المحبة تربطهم جميعًا . وهم وادعون هادئون ... غير أن هناك تنافساً بينهم ! هو التنافس على أن يكون كل منهم أكثر رحمة من أخوته وأوسع شفقة وأبعد اتضاعاً وصبراً . وإن وجد بينهم من هو أكثر علمًا منهم أخفى علمه باتضاع متزايد حتى لكأنه أصغر الجميع معرفة عملاً بقول السيد المسيح له المجد : « من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن للجميع عبداً » (١). وبما أن اللّه تعالى قد منحنى النعمة لأن أرى هؤلاء القديسين وأسعد بعشرتهم رأيت أن أكتب عنهم لعلى أستطيع أن أوصل قبسًا من نورهم إلى الآخرين (٢) .

٤٠٩- وبعد هذه المقدمة البارعة أخذ روفينوس يسرد سيَّر بعض المتوحدين . وبين الذين أثاروا اعجابه إلى حد بعيد الأب أمون الشيخ الوقور - فقد وصفه بقوله : « لو رأيتم المحبة التى اتصف بها هذا الشيخ لحسبتموه أستاذاً كبيراً فى هذه الفضيلة وإن تأملتم صبره واتضاعه ورقة معاملته ووداعته لوجدتموه من المبرزين فى هذه جميعاً ، حتى ليخيل إلى من يراه أنه استطاع أن يدخل إلى قدس الأقداس ويغترف فيضاً من ينبوع النعمة الالهية » (٣) .

٤١٠- ثم انتقل روفينوس - بعد وصفه الآباء المتوحدين - إلى وصف الرهبان الذين اختاروا عيشة الشركة . وبين هؤلاء النساك الذين كان لهم فعل السحر فى نفسه جماعة الرهبان الذين كانوا يسكنون منطقة أرسينو (الفيوم) . فقد قابل هناك القس سرابيون الذى كان أباً لجماعات من الرهبان يبلغ عددهم نحو عشرة آلاف ناسك . « وكانوا جميعاً يكسبون عيشهم بعمل أيديهم . فقد اعتاد الرهبان المصريون إبان الحصاد أن يخرجوا إلى الحقول ويعملوا فيها عمل الأجراء . فكان الواحد يكسب فى ذلك الموسم

---

(١) متى ٢٠ : ٢٦ - ٢٧ .

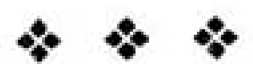
(٢) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٦١ - ٦٢ .

(٣) شرحه ص٧٦ - ٧٧ .

حوالى ثمانين كيلة من القمح يوزع بعضها على الفقراء ، والبعض الآخر يبعث به إلى الاسكندرية ليوزع على المسجونين والغرباء ، ولا يحتفظ لنفسه إلا بالقدر الضئيل الذى يكفى لقوته . وقد غالى الرهبان فى ذلك السخاء حتى لم يعد فى مصر محتاج ولا فقير » (١) .

٤١١- ولم يكتف روفينوس بزيارة وادى النطرون وشيهيت وبعض الأديرة ، بل توغل فى الصحارى حتى بلغ القلالى (٢) التى يسكنها المتوحدون . وعندما وصل إلى التحدث عن هؤلاء المتوحدون قال : « ماذا يمكننى أن أقول فى وصف هؤلاء النساك وما تجملوا به من محبة وحنان ووداعة وكرم ؟ فلم تقع عيناى فى البلاد التى جبتها على محبة تضارع محبتهم ، ولا على حنان مستفيض يشبه حنانهم ، ولا على كرم فطرى يوازى كرمهم . وكانوا - لفرط وداعتهم واتضاعهم - يخدمون ضيوفهم بأنفسهم لا بالاعتماد على تلاميذهم . وفوق هذه الفضائل فإن تأملاتهم فى الأسفار الالهية واستظهارهم إياها كانت شغلهم الشاغل بحيث يخيل إلى من رآهم أن كلا منهم قد أحرز الدكتوراه فى الحكمة الالهية » .

وقد ختم روفينوس كتابه بتمجيد الله الذى أتاح له أن يرى آدميين يعيشون على الأرض عيشة سكان السماء (٣) .



(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٧٣ .

(٢) وهى منطقة يصفها الأجانب بكلمة Cellia .

(٣) شرحه ص٧٥ .

أم لجماعة كبيرة

(٤١٢) نشأة ثيئودورا فى الاسكندرية.
(٤١٣) بناؤها كنيسة واقامتها فى غرفة مجاورة لها .
(٤١٤) رهبنتها ولبسها الاسكيم .
(٤١٥) انتخابها أما لجماعة من الراهبات .
(٤١٦) معاصرتها لخمسة من باباوات الاسكندرية .

٤١٢- كان عصر أثناسيوس الرسولى مزدهراً بمن فيه من أعاظم الرجال كما كان مزداناً بمن فيه من السيدات البارزات . وبين النسوة اللواتى كرسن حياتهن للبر والقداسة الأما (١) ثيئودورا .

ولدت هذه القديسة فى الاسكندرية ، ونشأت فى تلك المدينة العظمى حيث نالت من العلوم القسط الوافر . ولما بلغت سن الشباب أراد أبواها أن يزوجاها وعلى الأخص أنها كانت وحيدتهما . وكانا يشتريان لها الملابس الثمينة والمجوهرات الفاخرة ويتحدثان معها عن الشبان الذين يمكنها اختيار احدهم شريكاً لحياتها .

٤١٣- على أن عينى ثيئودورا كانتا تنظران إلى العلى : إلى حياة النسك والتكريس لله فباعت كل ما اشتراه لها أبواها من ثياب ومجوهرات وشيدت بثمنها كنيسة غربى الاسكندرية وبنت داخل أسوار الكنيسة غرفة لسكنها الخاص . وعاشت فى هذه الغرفة لا شغل لها غير العناية بالفقراء والمحتاجين والمرضى والمسجونين . فذاع صيتها فى أرجاء المدينة ومن ثم تزايد عدد المعوزين الذين جاءوا يطلبون معونتها . وكلما زاد عددهم زادت رحمتها - فلم ترد أحداً قط .

٤١٤- وبعد أن قضت سنين فى هذه الخدمة ذهبت إلى البابا الاسكندرى (وكان أثناسيوس الرسولى) ورجت منه أن يرسمها راهبة . فلما سأل عنها وعرف سيرتها لم يكتف برسامتها راهبة فحسب بل صلى عليها صلاة الاسكيم أيضاً . وكان فعل الاسكيم فى نفس ثيئودورا أشبه بالخزانات

(١) وضحنا معنى « اما » فى سيرة الأما تاليدا الواردة فى ف٣٦٤ .

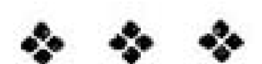
المفتوحة التى تتدفق منها المياه فتغمر الحقول - إذ أن النعمة الإلهية تدفقت خلالها فغمرتها وأهلتها لأن تجرى الآيات ، وترى رؤى ، وتميز الأرواح (١) .

وفوق هذا كله فاضت عليها النعمة فملأتها حكمة حتى لقد استطاعت أن تفهم نفسيات الناس وتساعدهم على حل مشكلاتهم والتغلب على ما قد ينتابهم من صغر القلب .

٤١٥- ثم انتخبت أمًا لعدد كبير من الراهبات عشن معها في دير فى منطقة الاسكندرية وكانت تعلمهن وتسهر على رعايتهن بلا ملل ولا كلال ، وتؤكد لهن أن الصوم والصلاة والاتضاع هى الأسلحة التى يغلب بها كل ساع نحو الكمال المسيحى .

٤١٦- ولقد أطال الله فى حياة الأما ثيئودورا - فعاصرت خمسة من البابوات الاسكندريين إذ قد عاشت قرنًا كاملاً . ولقد جاهدت مدى هذه السنين الطويلة بغير فتور (٢) . كذلك عاصرت الأنبا باخوم وثلاثة من خلفائه هم بترونيوس وأورسيسيوس وثيئودورس . وكان انتخاب بترونيوس نزولاً على اقتراح الأنبا باخوم نفسه لما كان له من مكانة ممتازة فى قلوب رهبانه . أما ثيئودورس فكان أقرب التلاميذ إلى قلب رجل الله باخوم إذ قد تتلمذ له وهو بعد فى السابعة عشرة ولازمه حتى آخر حياته ثم كتب سيرته العطرة . فأسدى بذلك إلى العالم خدمة لها قيمة عظمى .

وهكذا كانت الأما ثيئودورا ضمن رواد الانسانية فى تسلقها ذرى القداسة .



(١) رسالة يوحنا الأولى ٤ : ١ .

(٢) الصادق الأمين جـ٢ ص٧٧ - ٧٨ (١١ برمودة) ، السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٣ ص٨٠١ - ٨٠٢ .

المجمع المسكونى الثانى

٤١٧ – وترملت الكنيسة بانتقال الأنبا بطرس الثانى إلى الأخدار السماوية ، وامتلأت القلوب حزناً وأسى على فقده – وعلى الأخص لأن مدة رياسته كانت مليئة بالمتاعب كما كانت قصيرة الأمد . على أن الجميع احسوا بالعزاء يتسرب إلى نفوسهم حين أدركوا أنه لا يزال بينهم تلميذ آخر من تلاميذ الأنبا أثناسيوس العظيم هو تيموثينوس أخو باباهم الراحل . فاتفقت كلمتهم على الاهتداء به ومن ثم اختاروه ليخلف الأنبا بطرس الثانى .

٤١٨ – وكان تيموثينوس قد نال كرامة الكهنوت على يد معلمه الكبير أثناسيوس ، ولم يكن كاهناً فحسب بل كان أيضاً معلماً ضمن معلمى المدرسة الاسكندرية . ثم اختير ليكون السكرتير الخاص لهذا البابا الفريد . فرافقه فى بعض رحلاته ، وذهب معه إلى مجمع صور

اللصى حيث دافع عنه باندفاع المحبة وسليقتها (١) .

ثم اعتلى ثيئودوسيوس الكبير عرش القسطنطينية وهاله أن يرى الأريوسيين مسيطرين على الكنيسة فى تلك المدينة الامبراطورية . فقرر أن يناصر الأرثوذكسيين ليستعيدوا الكنائس ولينشروا الايمان الصحيح بين الناس مقتلعين من قلوبهم البدعة الأريوسية ، ولكى يصل إلى هدفه من أقرب طريق بعث برسالة إلى الأنبا بطرس الثانى يرجو منه فيها أن ينتدب رجالاً راسخين فى الايمان القويم ويرسلهم إلى القسطنطينية ليعلموا أهلها . ورأى البابا الاسكندرى أن خير من يؤدى هذه المهمة هو غريغوريوس النزينزى الذى كان قد بدأ بالفعل يعلم فى تلك العاصمة ، والذى حول بيتًا من بيوت والديه إلى كنيسة سماها « انستازيا » (أى القيامة) . فكانت هذه التسمية صورة لما حدث بالفعل إذ قد اضطر إلى توسيعها لتزايد عدد المصلين فيها تزايداً متواصلاً . ثم رأى البابا الاسكندرى أن يعزز غريغوريوس فى جهاده فأرسل إليه نخبة من كهنته برياسة تيموثيئوس . فذهبوا إلى القسطنطينية حيث كرسوا مواهبهم وعلمهم وخبراتهم لتحقيق الغرض الذى جاءوا من أجله . ثم رجعوا إلى الاسكندرية مرتاحى الضمير لنتيجة عملهم فى العاصمة الشرقية وحينما عاد تيموثيئوس إلى الاسكندرية عاود التعليم فى مدرستها الساطعة . ولما كان الشعب يعرف جهاده الروحى الفكرى ، ولما كان يجد فيه قبسًا من نور معلمه الكبير أثناسيوس ، فقد انتخبه ليكون راعيه الأول سنة ٧٦ش (٣٧٠م) . فأصبح بذلك الخليفة الثانى والعشرين للقديس مرقس .

٤١٩- وفى تلك الآونة رأى بعض الأساقفة الغربيين اعتبار قوانين المجمع السرديكى متساوية مع قوانين مجمع نيقية . غير أن الأساقفة الشرقيين عارضوهم أشد المعارضة معلنين أن المجمع النيقى لكونه مسكونيًا له الأولية على مجمع سرديكا الذى لم يكن إلا مجمعًا مكانيًا . وتبادل الأساقفة الخطابات فى هذا الموضوع الهام ثم رأى أساقفة أفريقيا وأنطاكية والقسطنطينية أن يكتبوا للأنبا تيموثيئوس لاستفتائه راجين منه أن يبعث

---

(١) راجع ف١٩٧ .

إليهم بالقوانين العشرين التى سنها مجمع نيقية لأن هؤلاء الأساقفة كانوا يعدون باباوات الاسكندرية حماة القوانين والنظم الكنسية الأصلية . واستجاب الأنبا تيموثيئوس نداءهم على الفور بأن كتب القوانين العشرين وأرسلها إلى من طلبها مشفوعة برأيه فى أولية قوانين المجمع النيقى على المجمع السرديكى . وكان رد الأنبا تيموثيئوس فصل الخطاب . فأقر جميع الأساقفة (شرقًا وغربًا) حكمه ووافقوه على أن قوانين المجمع المكانى تأتى فى المرتبة الثانية بعد قوانين المجمع المسكونى - ومن ثم كان لمجمع نيقية الأولية على مجمع سرديكا (١) .

٤٢٠- وما كاد الأساقفة ينتهون من الفصل فى شأن مكانة قوانين نيقية وسرديكا حتى ظهرت بدعة جديدة فى القسطنطينية مؤداها انكار لاهوت الروح القدس . فعاد الأساقفة إلى تبادل الرسائل بوصفهم حماة الايمان . وأحس الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير بأنه مسئول عن تدعيم السلام فى الكنيسة ، ورأى أن الحالة تقتضى عقد مجمع مسكونى ثانٍ للفصل فى هذه البدعة الجديدة . فبعث برسائل الدعوة إلى أساقفة المسكونة لهذا الغرض . ومن ثم اجتمع فى القسطنطينية مئة وخمسون أسقفًا من أساقفة الكنائس الشرقية تلبية لهذه الدعوة . ومما يجدر ذكره هنا أن الكنائس الغربية وفى طليعتها كنيسة رومية الرسولية الوحيدة فى تلك الأقطار لم تكن ممثلة فى ذلك المجمع ، وأن كنيسة رومية التى تخلفت عن حضور هذا المجمع وعقدت مجمعًا مكانيًا مؤلفًا من مئتين وخمسين أسقفًا برياسة أسقفها داماسوس وامبروسيوس أسقف ميلانو - هذه الكنائس قد اعترفت جهارًا بمسكونية المجمع القسطنطينى ، لأن كلا من أساقفته المئة والخمسين يمثل كنيسة رسولية على النقيض من مجمع داماسوس وامبروسيوس الذى لم يكن بين أساقفته المئتين والخمسين أسقف يمثل كنيسة رسولية غير داماسوس أسقف رومية .

ولقد انعقد المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية فى مايو سنة ٣٧٣م . ش . (أو سنة ٣٨١ م غ) .

---

(١) « أولية البابا » (بالفرنسية واللاتينية معًا) لراهب دومينيكانى ص٤١٥ .

٤٢١- ومن أبرز الأساقفة الذين حضروا هذا المجمع المقدس ميليتيوس أسقف أنطاكية الذى كان قد حضر إلى القسطنطينية قبل موعد انعقاده لرسامة غريغوريوس الثيؤلوغوس أسقفاً على هذه العاصمة الشرقية ، كيرلس أسقف أورشليم ، جلاسيوس أسقف قيسارية فلسطين ، أسكوليوس أسقف تسالونيكا الذى كان قد صبغ الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير بالصبغة المقدسة ، تيموثيئوس البابا الاسكندرى (١) .

وحضر الامبراطور جلسة افتتاح المجمع معلناً للأساقفة اجلاله لهم وتقديره إياهم ، ثم طلب إليهم أن يفحصوا الموضوع الذى اجتمعوا بسببه - وهو النظر فى بدعة مقدونيوس - بروح التفاهم وسعة الصدر ، وأن يفكروا فى سلام الكنيسة واهمية الايمان الذى ائتمنوا عليه .

٤٢٢- وقد بعث أساقفة المجمع القسطنطينى برسالة إلى داماسوس أسقف رومية والأساقفة المجتمعين معه قالوا لهم فيها : « إلى اخوتنا الموقرين وشركائنا فى الخدمة الرسولية داماسوس وامبروسيوس وجميع الأساقفة المكرمين المجتمعين فى مدينة رومية العظمى - ومن المجمع المقدس المؤلف من الأساقفة الأرثوذكسيين الملتئم فى القسطنطينية بدعوة من الامبراطور ثيئودوسيوس محب المسيح .

« كان يسرنا لو انكم لبيتم دعوة الامبراطور وجئتم لتجتمعوا معنا وتشاركونا النظر فى البدعة التى ابتدعها مقدونيوس أسقف القسطنطينية ومؤداها انكار لاهوت الروح القدس . أما وأنكم لم تحضروا معنا فإننا سنناقش هذا المبتدع ونوازن الحقائق لنعرف عقيدته بالضبط ثم نصدر قرارنا فى هذا الموضوع الخطير ... » .

ومما يجدر ذكره هنا أن داماسوس أسقف رومية رغم كونه لم يذهب إلى المجمع القسطنطينى ، ورغم امتناع كل الأساقفة الغربيين من حضوره ، إلا أنهم أقروا مسكونيته وعملوا بقراراته (٢) .

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص١٩١ .

(٢) « الوضع الإلهى للكنيسة » (بالفرنسية) للمنسنيور كيرلس مقار - ص٢٧٧ - ٢٨٠ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص١٧ .

٤٢٣ – وكان أول عمل قام به هذا المجمع القسطنطيني هو الغاء رسامة مكسيموس الكلبي وتنصيب غريغوريوس الثيئولوغوس أسقف سازيما أسقفاً على العاصمة الشرقية . وقد استند آباء المجمع في تصرفهم هذا إلى القانون الـ ١٤ من قوانين الرسل ونصه : « لا يجوز للأسقف أن يغادر جهة اقامته إلى جهة أخرى ، ولو اضطره الكثيرون إلى ذلك . أما إذا كان انتقاله هذا لعلة صوابية – كأن يكون فيه فائدة أعظم لمن يقومون بتلك الجهة لما هو عليه من جدارة في تعليم حسن العبادة – فلا يكون انتقاله من تلقاء ذاته ، بل بترشيح عدة أساقفة وبتوسل جم (١) .

وقد سن الرسل هذا القانون استناداً إلى أن الأسقفية كرامة في ذاتها موهوبة من الله جل اسمه ولا ترتكن كرامتها على الأهمية المدنية التي للكرسي الأسقفي – فأسقف أصغر ايبارشية متساو في الكرامة مع أسقف العاصمة . لذلك لا يليق بأسقف ما أن يتطلع نحو ايبارشية أخيه طمعاً في جاه أو مكانة عالمية إذ أنه تجند للسيد المسيح وأخذ منه الكرامة التي لا تعلوها كرامة (٢) .

وكان الثيئولوغس قد أقيم أسقفاً على سازيما ولكنه لم يتسلم مقاليد هذا الكرسي بالفعل لأن أحد الأريوسيين كان قد اغتصبه منه . فرأى غالبية الأساقفة – استناداً إلى هذا القانون الرسولي ، وإلى أن الثيئولوغس لم يباشر مهام رتبته الأسقفية ، وإلى ما اتصف به هذا الحبر العظيم من مزايا روحية سامية – رأى وجوب انتقال الأنبا غريغوريوس من سازيما إلى القسطنطينية . وفعلاً أقنعوه بوجهة نظرهم فنزل على رأيهم ورضى أن يكرسوه لهذه العاصمة الشرقية .

٤٢٤ – وفي تلك الأثناء وصل الأنبا تيموثيئوس إلى القسطنطينية فعارض هو وبعض اخوته الأساقفة في اقامة الثيئولوغس على الكرسي

---

(١) « تاريخ الكنيسة » للأرشيمندريت جيتي جـ٢ ص٤٠٨ . « تاريخ المجامع » للمنسنيور هيفليه جـ١ ص٦٢٠ – ٦٢١ .

(٢) « أولية البابا » (بالفرنسية واللاتينية معاً) لراهب دومينيكاني ص٢٧٢ . « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٣ ص١١٩ .

القسطنطينى فى حين أنه يشغل كرسى سازيما (١) ولم يجدوا فى القانون الرسولى الـ ١٤ ما يبرر هذا الانتقال . ولما كان الثيئولوغس من الزاهدين فى المناصب الرفيعة ، ولما كان احترامه للكرسى الاسكندرى قد جعله يعد الجالس عليه أسقفاً للكنيسة الجامعة لا لكنيسة الاسكندرية فحسب (٢) ، فقد بادر إلى اعلان انسحابه من كرسى القسطنطينية واعتزازه بكرسى سازيما ، وعمل على التوفيق بين المناصرين له والمعارضين . وقد أهله ما امتاز به من روحانية للنجاح فى تثبيت دعائم السلام بين جميع أساقفة هذا المجمع المقدس . وقد أجمعوا على انتخاب نكتاريوس أسقفاً للقسطنطينية لأنه كان يحظى باحترام الجميع لما امتاز به من حكمة وسداد فى الرأى .

٤٢٥ - وبعد ذلك انتقل المجمع إلى المناقشة فى بدعة مقدونيوس الأسقف القسطنطينى القائل بأن الروح القدس مخلوق . وبعد التداول والرجوع إلى الأسفار الالهية وأقوال الآباء حكموا بتجريد مقدونيوس من كل رتبة كهنوتية ووقعوا الحرم عليه وعلى بدعته . وبادروا إلى تثبيت ايمان الكنيسة الجامعة فى الروح القدس فأضافوا إلى نص دستور الايمان الذى وضعه مجمع نيقية القائل « نؤمن بالروح القدس » قولهم « الرب المحى المنبثق من الآب المسجود له والممجد مع الآب والابن الناطق فى الأنبياء » . ثم أتموا دستور الايمان بما يلى : « نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية . ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيامة الموتى وحياة الدهر الآتى » .

٤٢٦ - وما أن انتهى المجمع من تتمة دستور الايمان حتى نزل من المرتفعات الروحية إلى منخفضات المراتب العالمية ، فبدأ الأساقفة يتناقشون فى أيهم أعظم متناسين قول السيد له المجد « من اراد أن يكون فيكم عظيماً

---

(١) الترجمة الفرنسية لتاريخ يوحنا النيقيوسى ف ٨٣ حيث قال ما ترجمته « إن غريغوريوس الثيئولوغس أحد أعضاء المجمع - مجمع القسطنطينية المسكونى الثانى - تعين مديراً للكنيسة القسطنطينية وجعل يباشر وظيفته الراعوية فيها بالارشاد والتعليم والوعظ . وتصدى تيموثيئوس بطريرك الإسكندرية ونصحه بلهجته الانجيلية أن يتخلى عن القسطنطينية المدينة المالكة ويرجع إلى مركز أسقفيته ويديره ويحافظ عليه إذ لم يكن مسموحاً له من قبل القوانين أن يهجر كنيسة فقيرة ويستغل بدلها كنيسة غنية لأن ذلك على أى نوع يعد عملاً زنائياً مخالفاً لقوانين الآباء » . «تاريخ الكنيسة» (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٣ ص٤٧٤ - ٤٨٢ .

(٢) راجع رسالته / ٢١ .

فليكن للجميع عبداً » (١) . وكان هذا النقاش نتيجة لكون القسطنطينية اصبحت عاصمة الامبراطورية الشرقية كما كانت رومية عاصمة الامبراطورية الغربية فأطلق أباء هذا المجمع القسطنطيني على العاصمة الشرقية اسم « رومية الجديدة » ، ورأوا أن يقيسوا الكراسي الأسقفية بمقياس الأهمية المدنية للكرسي . وعلى هذا المقياس يجب أن يكون أسقف عاصمة الامبراطورية الغربية الأسقف الأول في الكنيسة الجامعة - لا لسبب إلا لأن الظروف السياسية جعلت من مقر كرسيه العاصمة للدولة . ومن ثم جعلوا لأسقف رومية المكانة الأولى ولأسقف القسطنطينية المكانة الثانية متناسين أورشليم مدينة الملك العظيم وأم الكنائس . ومما يدل على أن هذا التصرف كان الأول من نوعه أن مجمع نيقية اول المجامع المسكونية وأعظمها مكانة قد اسند رياسته إلى هوسيوس أسقف قرطبة الذي لم يكن أسقفاً لكرسي رسولي ولا لعاصمة مدنية . لأن آباء مجمع نيقية كانوا لا يزالون متمسكين بالتعاليم الرسولية القائلة بأن الأسقفية شرف في ذاتها وأنها منحة إلهية لا صلة لها بالكرامات العالمية .

وعندما أعلن الآباء تسوية القسطنطينية برومية وأن لهاتين العاصمتين الأولية الكنسية احتج الأنبا تيموثيئوس بقوله : « لقد علمنا مخلصنا بأن من أراد أن يكون عظيماً فينا فليكن للجميع عبداً . فالأولية الروحية يجب أن تسند إلى من يمتاز من الأساقفة بالجهاد في الروحيات . وقد تفانى الأساقفة الاسكندريون في خدمة الايمان الأرثوذكسي ، وكانت آخر الخدمات التي أدوها في هذا السبيل تدعيمهم البنيان المصدع في كنيسة القسطنطينية بالذات » (٢) .

٤٢٧ - غير أن آباء المجمع القسطنطيني قد أغفلوا هذا الاحتجاج وأصروا على ما قرروا في شأن تلك التسوية بين العاصمتين ، وأيدوها في ثالث القوانين السبعة التي سنوها . فلم ير الأنبا تيموثيئوس أمام هذا الاصرار

---

(١) مرقس ١٠ : ٤٣ - ٤٤ .

(٢) يذهب بعض المؤرخين إلى أن الكرسي القسطنطيني لم يذكر إلا في القرن الميلادي الرابع ولو أنه من المعروف أن أندراوس الرسول هو الذي أسسه راجع كتاب « الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة » لمار أغناطيوس افرام الأول بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ص٥٨٦ .

إلا أن ينسحب من ذلك المجمع هو وأساقفته عائدين إلى الاسكندرية .

٤٢٨ - فلما سمع غريغوريوس الثيئولوغس بما كان - وكان قد غادر القسطنطينية قبل أن يغادرها الأنبا تيموثيئوس - شق عليه هذا الخلاف وعبر عما خالجه من حزن بقوله : « كم تمنيت على اللّه أن لا يوجد بين كراسينا الأسقفية كرسي محظوظ ولا كرامة ممتازة ولا تقدم استبدادي ، وأننا لم نعرف بغير الفضيلة وحدها ! فالاختلاف بين العروش الكنسية ، والدرجات العليا والسفلى ، وتقدم أسقف على أسقف وما يستتبع ذلك من نتائج ، كل هذه قد أدت إلى شرور لا حصر لها من غير أن تفيد أحداً ولقد تسببت شهوة الرياسة فى سقوط الكثيرين لا من الرعية فقط بل من الرعاة أيضاً ، هؤلاء الرعاة الذين - مع كونهم معلمين فى اسرائيل - قد زاغوا عن حق الانجيل (١) .

٤٢٩ - أما الأنبا تيموثيئوس فلم يكد يصل إلى الاسكندرية حتى انتهز فرصة السلام الذى نشر ألويته الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير فأخذ فى ترميم الكنائس التى هدمت إبان الاضطهاد الأريوسى ، وفى تشديد قلوب الأرثوذكسيين التى كانت قد تفطرت من جراء هذا الاضطهاد . وإلى جانب هذا العمل الراعوى واصل توجيه رسائله التعليمية إلى شعبه وإلى مختلف الشعوب المسيحية . وبين الرسائل التى لم تعبث بها يد الدهر رسالته عن التوبة . وهى رسالة تفيض حناناً على التائبين وتجبر قلوبهم الكسيرة .

ولم يمنعه اشتغاله بالتثقيف والتعليم من أن يكتب تراجم بعض رهبان الصحارى المصرية ومن بينهم الآب أبوللو الذى شبه بالملائكة (٢) .

٤٣٠ - وقد نالت شخصية الأنبا تيموثيئوس من الاحترام ما حدا بالامبراطور ثيئودوسيوس الكبير أن يطلق عليه لقب « قديس » فى الرسالة التى بعث بها إلى أوبتاتوس أحد كبار موظفى رجال البلاط الامبراطورى (٣) .

وبعد أن قضى الأنبا تيموثيئوس ست سنوات وخمسة شهور فى تدبير أمور الكرازة المرقسية انتقل إلى بيعة الأبكار فى هدوء وسلام .

---

(١) « أولية البابا » لراهب دومينيكانى (بالفرنسية واللاتينية معاً) ص١٩٩ ، « السلطة الفاتيكانية » للأستاذ فرنسيس العتر ص٤٩ - ٥٠ .

(٢) هو القديس أبوللو الذى وردت سيرته فى ف٣٨٥ - ٣٩١ .

(٣) « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لجون نيل جـ١ ص٢١٠ .

قاطع طريق يصبح قديساً

٤٣١- بينما كان الأنبا تيموثيئوس يثبت المؤمنين ويجتذب الأريوسيين إلى الايمان القويم ، كان غيره من المسئولين فى الكنيسة يخدمون الشعب . وفى الوقت عينه كانت النعمة الالهية تفعل فعلها فى القلوب فتجتذبها مباشرة . ومن ابرز الأثمة المارقين موسى الأسود الذى أشرق على فؤاده النور الإلهى فحوله عما هو فيه من شر ، وأنار أمامه طريق الخلاص .

وكان موسى فى بادئ الأمر عبداً لرجل شريف واسع الثراء والسلطان . إلا أن تماديه فى الشر . وتمرده المتواصل ، وبطشه بالعبيد زملائه - كل هذه الصفات جعلت الشريف يطرده من خدمته . فخرج موسى هائماً على وجهه متهللاً بأنه تحرر من عبوديته رغم أنف سيده القوى ، وقصد إلى مكان مهجور بالقرب من الصحراء حيث أقام نفسه رئيساً على سبعين من اللصوص وقطاع الطريق . وكان موسى أسود اللون ، عملاقاً فى قامته ، قويًا عاتيًا . فكانت قوته الجسمية أقرب إلى قوة الوحوش الكاسرة منها إلى قوة بنى الانسان . فجعلته كل هذه الصفات كابوساً مزعجًا لكل من ساقه حظه العاثر إلى الاقتراب من المنطقة التى يقطنها موسى الأسود ، إذ كان لا يتورع عن ان يقتل ويسلب ويعتدى بالضرب والاهانة من غير تفريق بين رجل أو امرأة ، شيخ أو طفل . فكانت ضحاياه لا حصر لها . ولم تكن هناك موبقة إلا ارتكبها حتى لقد قال بلاديوس أسقف

هيلونوبوليس (١) عنه : « اننى أسرد كل خطاياه وشروره بالتفصيل لتتجلى عظمة توبته » (٢) .

٤٣٢- على أن موسى - بينما كان مترديًا فى هاوية سحيقة من الشر - كان يشعر بأن نفسه مضطربة داخله . فقد كان القبس الإلهى يلهب قلبه رغم ما هو فيه من ظلام . فكان كثيراً ما يتطلع إلى الشمس ويناجيها بقوله : « أيتها الشمس إن كنتِ انتِ الله فاخبرينى واعلنى لى الحقيقة . وأنت يا الله الذى أجهله أظهر لى ذاتك » .

٤٣٣- وفى ذات يوم - وهو غائص فى هذه التأملات - إذا به يسمع صوتًا يقول له : « اذهب إلى صحراء وادى النطرون ، هناك تجد رجالاً قديسين يخبرونك عن الله الذى تبتغى معرفته » .

فقام لساعته وتقلد سيفه (بحكم العادة) ، وقصد إلى وادى النطرون . فالتقى - أول ما التقى - بالأب ايسيذورس أبى رهبان تلك المنطقة الذى ما كاد يرى هذا العملاق الممنطق بالسيف حتى تملكه الخوف . فهدأ موسى من روعه واعلمه بما سمع . ففرح ايسيذورس فرحًا عظيمًا ، وأخذه فى الحال إلى حيث يقيم معلمه الأنبا مكارى الكبير . فوضعه الأنبا مكارى تحت رعايته ، وأخذ يعلمه ويرشده فى رفق ولين حتى سما به إلى مرتبة النساك ، ثم منحه سر الصبغة المقدسة . وبعد أن وضعه تحت رعايته بضع سنين وجده جديراً بأن يلبس الاسكيم المقدس لما تجلى فيه من صلاح وقداسة فألبسه إياه . ثم اشار عليه بأن ينفرد فى صومعة ويعيش فيها فعمل موسى بنصيحته .

٤٣٤- وعاش موسى فى وحدته مثابراً على الجهاد الروحى لعله يكفر بذلك عن جميع الشرور التى ارتكبها فى عنفوان حياته . وبينما كان مندفعاً فى الصوم والصلاة ، وفى التأمل والاستغفار ، وفى خدمة شيوخ الرهبان ، لم يدعه الشيطان فى سلام بل كان يصور أمام عينيه الفزعتين صور آثامه وخطاياه لعله يستطيع أن يرمى به فى هوة اليأس من مراحم الله . وكانت

---

(١) راجع ف ٥٠٠ - ٥٠٧ .

(٢) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٢١٥ .

التجارب تشتد عليه احياناً حتى تجعله يشعر بأنه على وشك السقوط فى هاوية سحيقة . وحينذاك كان يذهب إلى ايسيذورس ويعترف له بالصراع النفسى القائم داخله . فيقول له هذا القديس : « لا تضطرب يا صديقى فهذه اوجاع المخاض لأنك الآن على وشك ان تولد ولادة ثانية . فاثبت ، وثابر على الصوم والصلاة ، واستنجد بالآب السماوى معلناً له حقك فى مراحمه ، وسترى إذ ذاك أن التجارب ستتلاشى من أمامك » . وبهذه الكلمات كان ايسيذورس يملأ قلب موسى الأسود عزاء واطمئناناً . فيعود إلى صومعته هادئاً راضى النفس .

٤٣٥- وبعد أن خفت حدة التجارب اختار موسى أن يخدم الشيوخ الرهبان . فكان يخرج ليلاً وهم نيام ويحمل جرارهم فيملأها ماء ويعود بها إليهم قبل أن يستيقظوا . فحسده الشيطان على هذه الخدمة المتواصلة وضربه بقروح فى رجليه حتى انه ظل مدة طويلة لا يقوى على الوقوف . فلما أدرك أن هذه القروح من الشيطان حكم على نفسه بالقيام والمشى وتحمل الألم لمعاودة خدمته . فتحنن الله تعالى عليه ، ونظر إلى محبته واحتماله وشفاه من تلك القروح .

٤٣٦- وحدث ذات يوم أن دخل بعض اللصوص صومعته غير عالمين حقيقة شخصيته . فربطهم من أوساطهم وحملهم على كتفه بكل سهولة ، وذهب بهم إلى مجمع الرهبان قائلاً : « لا استطيع ان الحق الأذى بأحد هؤلاء الرجال الذين جاءوا يريدون قتلى . فما حكمكم عليهم ؟ » ثم التفت إلى اللصوص وفك وثاقهم وقال : « يغلب على ظنى أنكم لا تعرفون أننى موسى الأسود قاطع الطريق وزعيم اللصوص » وعند ذلك تعجب هؤلاء اللصوص من هذه الكلمات واعلنوا دهشتهم للتحول التام الذى تحوله موسى . وكان تصرفه معهم سبباً فى أن يتوبوا ويستغفروا الله (١) .

٤٣٧- ولغيرة موسى المتقدة قصد إلى أحد شيوخ الرهبان ذات مرة وسأله : « أيمكن أن يتجدد الانسان كل يوم ؟ » أجابه الشيخ : « إن كان ذا

(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٢١٦ .

عزيمة صادقة ورغبة أكيدة فى ان يرضى الله تعالى فمن الممكن له أن يتجدد كل يوم » (١) .

٤٣٨- وانتصر موسى بجهاده وصبره ومحبته وتواضعه ، ففاضت عليه النعمة الالهية واختاره الاخوة لأن يكون أباً لهم . ولما جاء الأنبا ثيوفيلس البابا الاسكندرى إلى شيهيت طلبوا إليه أن يرسمه قسيساً . فأراد أن يمتحن مدى احتماله للاهانة وقال لشيوخ النساك : « من الذى جاء بهذا الأسود إلى هنا ؟ » وما أن سمع موسى هذه الكلمات حتى انسحب فى هدوء مخاطباً نفسه : « حقاً انك غير أهل لهذه الكرامة يا اسود » . فابتسم البابا وناداه وأبدى له اغتباطه من احتماله ووداعته ثم رسمه قسيساً . ولما انتهت شعائر الرسامة تجمع الاخوة حول موسى مهنئين مهللين . وعندها قال له الأنبا ثيئوفيلس : « لقد تبدل سوادك وأصبحت أبيض بكليتك » . ومنذ تلك اللحظة تسلم موسى الرياسة على خمسمائة راهب وقد حدث له بعد ذلك بقليل أنه بينما كان جالساً مع بعض النساك الرهبان مر عليهم نفر من الرجال عيروه بماضيه المخجل . فتجاوز عن تعييرهم بملازمته الصمت . وبعد أن انصرف هؤلاء المعيّرون سأله تلاميذه النساك قائلين : « هل اضطربت يا أبانا حين سمعت تعييرات هؤلاء الرجال ؟ » أجابهم : « نعم لقد اضطربت ولكنى أحمد الله أننى لزمت الصمت » فاستفسروا منه عن المعنى الذى يقصده فقال لهم : « إن الكمال الذى نهدف إليه - معشر الرهبان - لا يتحقق إلا بخطوتين : الأولى عدم تأثر الحواس الجسمية ، والثانية عدم تأثر الحواس النفسية . والخطوة الأولى هى أن يتحكم الراهب فى التعبير عما يشعر به فيلزم الصمت أمام من يهينه . أما الخطوة الثانية فلا يصل إليها الراهب إلا إن هو استطاع أن يشعر بارتياح تام مهما سمع من اهانات أو تعيير - أى أنه لا يضطرب ولا يغضب بالمرة » (٢) .

٤٣٩- ولقد أدرك موسى أن المحبة هى رباط الكمال فجاهد لكى يحب

---

(١) « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ك٢ ص٢٦٨ ف٢٣٩ .

(٢) شرحه ك٢ ص٤٢٧ ف٦٦٨ .

جميع الناس ، وأبدى هذه المحبة فى شتى المناسبات : وبدت محبته هذه فى صورة رائعة ذات يوم حين سقط أخ فى زلة فاجتمع مجمع الرهبان لمحاكمته ، وارسلوا يطلبون إلى الأنبا موسى أن يحضر فلم يستجب لدعوتهم ، فبعثوا إليه ثانية يقولون : « تعال لأن مجمع الاخوة فى انتظارك » . فقام وأخذ قفة قديمة ملأها رملاً ، ووضعها على ظهره ، واتجه نحو المجمع . فلما رآه الاخوة مقبلاً خرجوا للقائه ، ودهشوا إذ رأوه حاملاً القفة مملوءة رملاً فسألوه : « ما هذا يا أبانا ؟ » أجابهم : « إن خطاياى ثقيلة ولكنها ورائى فلا أراها ، ثم آتى لأحكم على غيرى ؟! » فاتعظ الاخوة بكلماته وأبرأوا ساحة الأخ المذنب » (١) .

٤٤٠- وذات يوم جاء بعض الشيوخ لزيارة الأنبا موسى فى صومعته . وأراد أن يطبخ لهم عدسًا ولكنه وجد أن الماء الذى عنده قد فرغ . فخرج خارج الصومعة ، ورفع عينيه نحو السماء ، ثم دخل وجلس مع زائريه . وكرر هذا العمل عدة مرات . وإذا بالسماء الصافية تتلبد بالغيوم ويتساقط المطر غزيراً ، فأحضر الأنبا موسى وعاء تلقى فيه الماء المتساقط . وحين رآه الاخوة يفعل هذا سألوه عن السبب . فضحك وقال لهم : « نفدت المياه التى كانت عندى فكنت أخرج خارجًا وأقول لربى : لقد دعوتنى للعيش فى هذا المكان فارسل لى الماء اللازم لى ولضيوفى لأنك أنت المسئول عنى » (٢) .

٤٤١- وحدث أن ذهب موسى وبعض زملائه لزيارة الأنبا مكارى الكبير - معلمهم جميعًا - وبينما هم جلوس حوله قال لهم : « إننى أرى أحدكم يعلو رأسه اكليل الشهادة » قال الأنبا موسى : « لعلنى انا هو ذلك الشخص لأن سيدنا قال من يأخذ بالسيف بالسيف يؤخذ » (٣) . وبعد هذا الحديث بأيام معدودة هجمت قبائل البربر على المنطقة فقال موسى

---

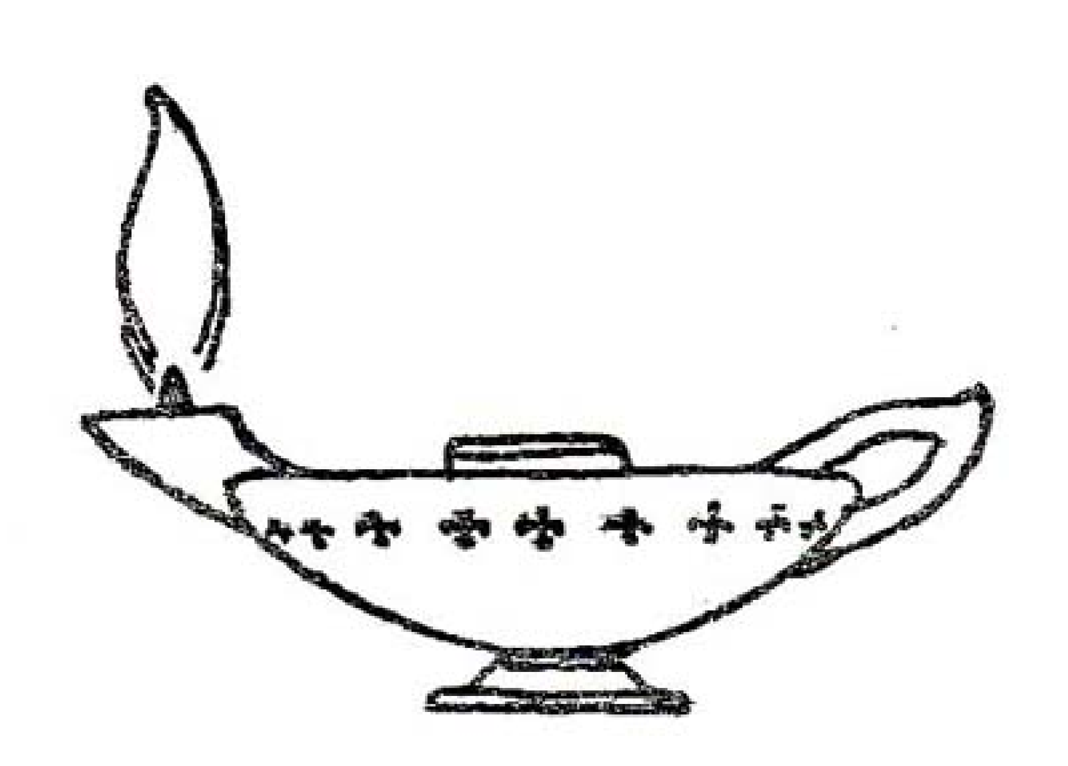
(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص١٣٥ . « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ك١ ص١٦١ ف٥٤٢ .

(٢) مخطوط قبطى عربى رقم ٤٦٩ تاريخ محفوظ بمكتبة المتحف القبطى ص٣٦٢ - ٣٨٦ مؤرخ سنة ١٠٧٦ش (سنة ١٣٦٠م) .

(٣) متى ٢٦ : ٥٢ .

للاخوة : « من شاء أن يهرب فليهرب » . فسألوه : « وماذا ستفعل أنت ؟ » أجابهم : « اننى فى انتظار هذا اليوم منذ سنين » . ودخل البربر الدير فوجدوا موسى ومعه سبعة رهبان رغبوا فى أن يبقوا معه . فقتلوهم جميعًا . وفى أول وهلة امتلأ احدهم فزعًا واختبأ خلف ستارة فرأى ملاك الرب واقفًا يحمل اكليلاً فى يده ليضعه على رأس الشهيد حالما يستشهد . فخرج من خلف الستارة وتقدم بشجاعة فأمسك به البربر وقتلوه . وهكذا استشهد موسى الأسود « قاطع الطريق » فى ذلك اليوم .

« فتأملوا يا اخوتى مدى سر التوبة الذى حول عبداً لصًا قاتلاً عن الخطية إلى القداسة وجعله معلماً معزياً ومرشداً لكثيرين من الساعين نحو الكمال ، كما أهله لأن يصنع العجائب حتى أن الكنيسة قد ضمت اسمه إلى أسماء القديسين الذين يتلوهم الكاهن فى القداس الإلهى » (١) .



(١) « الصادق الأمين » جـ٢ ص٢٠٤ - ٢٠٦ .

مواهب متنوعة ولكن الروح واحدة (*)

٤٤٢ – لئن كانت السموات تحدث بمجد الله (١) فالأرض أيضاً تعلن هذا المجد بكل ما تحوى من جمال . على أن الانسان اولى المخلوقات بأن يتحدث عن مجد الله لأنه مخلوق على صورته ومثاله (٢) . والواقع أن الانسانية كلها سمت بمجهودات الأفراد القديسين الذين مجدوا الله بأعمالهم وأقوالهم . وهؤلاء القديسون – وإن كانوا مختلفى الميول والمشارب – إلا ان كلاً منهم مجد الله ، ولو أن تمجيده إياه تعالى كان بصورة تختلف عن غيره : فواحد مجده بعلمه ، وثانٍ مجده بتقواه ، وثالث مجده بقوة الصبر والاحتمال ، وغيرهم مجده باستثماره المواهب المتنوعة التى منحه إياها الله تعالى . فنجد بين القديسين بيمن الرؤوف الرقيق إلى جانب موسى الذى كان قاتلاً قاطع طريق ، ونجد شنودة الثائر العنيد إلى جانب باخوم الحنون المترفق .

٤٤٣ – ومن بين القديسين الذين سطع النور الإلهى خلالهم الأنبا دوروثينوس (أى هبة الله) ، الذى عاش فى مغارة فى الصحراء الشرقية ، وكان طعامه قاصراً على الخبز اليابس والماء الزلال . وكان يشغل نفسه بجمع الأحجار وبناء الصوامع للاخوة العاجزين عن بنائها بأنفسهم . وكان ينجز صومعة سنوياً . وحين قابله بلاديوس لأول مرة ظن أن أداءه هذه الخدمة يقتصر على مدة وجوده (أى بلاديوس) فى الصحراء وأن الغرض هو الافتخار . على أنه رأى أن يتحرى الحقيقة قبل اصدار حكمه . فسأل

(*) ١ كو ١٢ : ٤ .

(١) مزمور ١٨ : ١ .

(٢) تك ١ : ٢٦ .

النساك المقيمين فى تلك المنطقة كما سأل تلاميذ دوروثيئوس عن العمل الذى يشغل وقته من يوم إلى يوم . فأجمع الكل على أن هذا الناسك يشتغل ببناء الصوامع من سنة إلى أخرى لا يمل ولا يفتر .

٤٤٤ – وقضى بلاديوس بعض الوقت فى صحبة الناسك الزاهد دوروثيئوس وذات يوم أرسله فى الساعة التاسعة (١) ليستقى ماء من عين مجاورة لأنه معتاداً أن يصوم حتى هذه الساعة . فلما وصل بلاديوس إلى العين وجد ثعباناً يشرب منها ويزحف داخل حافتها . فاضطرب وعاد إلى الأنبا دوروثيئوس دون أن يجرؤ على ملء الجرة ، وقال له : « أخشى اننا سنموت لا محالة يا أبى إن نحن شربنا من هذه العين ، لأنى رأيت بعينى ثعباناً يشرب منها ثم يبلبط فيها » . فضحك الأنبا دوروثيئوس فى شئ من الوقار ، ثم تأمله بعضاً من الوقت ، وهز رأسه اشفاقاً وقال له : « لو أن الشيطان صور لك شكل ثعبان أو غيره من الزحافات أو الحشرات فى كل عين تقصدها – أفتمتنع من الشراب بتاتاً ؟ » وبعد ان ألقى هذا السؤال أخذ الجرة بنفسه ومضى فاستقى الماء وعاد . ثم رسم علامة الصليب على الماء وشرب منه قبل أن يأكل لقمة واحدة . وبعدها رجا من بلاديوس أن يشرب قائلاً : « مادمنا قد رسمنا علامة الصليب نوقن بأن الشيطان قد انهزم ولا سلطان له علينا اطلاقاً » (٢) .

٤٤٥ – وثمة قديس آخر خدم الله والناس بأمانة وتفانٍ هو الراهب بنيامين قضى هذا الراهب البار ثمانين سنة فى الجهاد الروحى جعله أهلاً لأن ينال من النعمة الالهية القوة على شفاء الناس : فكان طبيباً ماهراً يضع يده على الجرح فيلتئم ، وعلى الحمى فتتلاشى ، وعلى العضو المتألم فيزول فى لحظة كل ألم (٣) .

---

(١) هذه الساعة تقع حوالى الرابعة بعد الظهر حسب التوقيت الشرقى الذى يعد ساعة الظهر الساعة السادسة .

(٢) فى كتابه « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٩٢ – ٩٣ .

(٣) شرحه جـ١ ص١٠٦ .

٤٤٦ – إلا أن هذا الرجل العجيب الذى منحه الله هذه القدرة الفائقة جاز تجربة قاسية فى شيخوخته . فقد أصيب بمرض تورم معه جسمه تورماً أعجزه عن الاستلقاء على فراشه عند النوم . فصنع له تلاميذه كرسياً عريضاً ليتمكن من الاستلقاء عليه للاستراحة قليلاً . وكان – رغم الامه المبرحة – يشفى الآخرين فيمنح لغيره الصحة والعافية بينما هو فى سقم ووجع . وكان أصدقاؤه يمتلئون ألماً كلما نظروا إليه . وكانت الجموع الكثيرة تأتى إليه لأن صيته كان قد ملأ الأرجاء فكان يستقبلهم بابتسامة هادئة ويشفى جميع مرضاهم حتى أن كل من رآه كان يمتلئ دهشة وعجباً لما وهبه الله من قدرة على احتمال الآلام ، ومن وجه باسم ونفس وادعة راضية . وكان الراهب بنيامين يقول لجموع الآتين إليه : « صلوا لأجلى كى لا يتورم انسانى الداخل . لأن جسدى هذا لم يكن يساعدنى فى جهادى الروحى حين كان فى صحة وعافية ، والآن لا يعوقنى عن هذا الجهاد وهو مريض ضعيف » (١) .



(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٠٧ .

يتيم من ممفيس (*) يعتلى السدة المرقسية

(٤٤٧) تيتم ثيوفيلس فى طفولته وعناية الأنبا أثناسيوس الرسولى به وبأخته .

(٤٤٨) تعيين ثيوفيلس ضمن سكرتيرى البابا ورسامته قسا .

(٤٤٩) انتخاب ثيوفيلس البابا الـ٢٣ .

(٤٥٠) العثور على كنز عند التمهيد لبناء كنيسة .

(٤٥١) حضور الامبراطور إلى الاسكندرية واقتسامه الكنز مع الأنبا ثيوفيلس .

(٤٥٢) ثورة الوثنيين لتحويل المعابد إلى كنائس .

(٤٥٣) أمر الامبراطور بهدم السيرابيوم ونتائجه .

(٤٥٤) هدم تمثال سيرابيس يكشف عن رموز هيروغليفية يتوسطها صليب .

(٤٥٥) الأدلة على اتهام الأنبا ثيوفيلس بحرق السيرابيوم باطلة .

(٤٥٦) شهادة جيتى .

(٤٥٧) شهادة أمونيوس .

(٤٥٨) شهادة كيرلس مقار .

(٤٥٩) غيرة الأنبا ثيوفيلس سببت تحويله المعابد إلى كنائس .

(٤٦٠) صداقته لأسقف المدن الخمس.

(٤٦١) الراهب ايسيذورس والاخوة الطوال .

(٤٦٢) صداقتهم لذهبى الفم .

(٤٦٣) مجمع البلوطة .

(٤٦٤) الشعب القسطنطينى والطبيعة يناصرون ذهبى الفم .

(٤٦٥) تصالح الأنبا ثيوفيلس مع ايسيذورس والاخوة الطوال والتعاليم الأوريجانية .

(٤٦٦) الحكم بنفى ذهبى الفم .

(٤٦٧) رسالة دورية من ذهبى الفم إلى الأساقفة .

(٤٦٨) انشغال الأنبا ثيوفيلس بوضع قوانين للكنيسة .

(٤٦٩) الجدل حول شخصية الأنبا ثيوفيلس .

(٤٧٠) الكنيسة الجامعة تعده ضمن معلميها .

٤٤٧ – عاش فى ممفيس رجل غنى هو وامرأته وابنه وابنته . وكان

(*) هى أقدم عاصمة لمصر وهى الآن قرية ميت رهينة وتقع على بعد أربعين كيلومترا جنوبى القاهرة .

الرجل وزوجته يخافان الله فعملا على غرس التعاليم المسيحية منذ نعومة أظفارهما . على أن الحكمة الالهية اقتضت أن ينتقل هذان الزوجان الفاضلان إلى عالم الخلود وولداهما لا يزالان فى سن الطفولة وكان لديهما إذ ذاك مربية حبشية أمينة تحب الطفلين وتحنو عليهما - وقد تشبعت هى أيضًا بالتعاليم المسيحية فبدأت على غرسها فى قلب كل من الطفلين . وحين وجد الوالدان أنهما على وشك الانتقال من هذا العالم ناديا على هذه المربية واستودعاها طفليهما ضارعين إليها أن توجه عناية خاصة إلى تربيتهما التربية المسيحية الحقة . فوعدتهما بذلك .

ولما انتقل الوالدان إلى دار الخلود رأت المربية الحبشية أن تأخذ الولدين إلى الاسكندرية - فكان ذهابها لهذه العاصمة الكبرى دليلاً على أن الآب السماوى يعتنى باليتامى وأنه لا ينسى الرضيع ولو نسيته امه (١) .

وحدث بعد استقرار الطفلين ومربيتهما فى الاسكندرية أن أخذتهما للصلاة فى كنيسة السيدة العذراء التى كان قد بناها الأنبا ثيئوناس (البابا الاسكندرى الـ١٦) فتجلت العناية الالهية فى أن الأنبا أثناسيوس الرسولى هو الذى كان يؤدى شعائر القداس الإلهى يوم أن اخذتهما للكنيسة . ولاحظ هذا البابا ذو النظرة الثاقبة هذه المرأة تدخل إلى الكنيسة ومعها طفلان بدا له انهما ليسا ولديها . فبعث إليها أحد الشمامسة يقول لها أن تبقى فى الكنيسة بعد انصراف المصلين - فأطاعت الأمر . ولما انتهت الصلوات استفهم منها عن شخصيتها وشخصية الولدين اللذين معها ، وعرف منها حقيقة الأمور . ومنذ تلك اللحظة جعل هذين الولدين تحت رعايته الخاصة . وكان هذان الولدان هما ثيئوفيلس وشقيقته . وهكذا كان انتقال والدى ثيئوفيلس فرصة لتهيئته روحيًا حتى يكون فيما بعد خليفة للقديس مرقس . أما شقيقته فنالت هى أيضًا نصيبها من التربية الروحية فأصبحت أمًا لكيرلس الكبير الذى حمل لواء الأرثوذكسية وكان من أعظم الشخصيات التى قادت الكنيسة المصرية رغم الأعاصير والأنواء (٢) . وفى هذا الحدث التاريخى دليل قاطع على

---

(١) اشعياء ٤٩ : ١٤ - ١٦ .

(٢) « دائرة المعارف الدينية » (بالفرنسية) جـ١٢ ص١٠٠ .

عناية الآب السماوى بالأفراد - لأن كل فرد له قيمته ، وعلى عنايته بالكنيسة التى هى مجموعة هؤلاء الأفراد الذين أحبهم وبذل نفسه لأجلهم .

٤٤٨ - أما ثيئوفيلس فقد انضم إلى جمرة المتتلمذين للبابا أثناسيوس . ولما كان الله قد حبا ثيئوفيلس ذكاء متوقداً فقد تشبع بجميع مزايا معلمه العظيم ونشأ متعمقًا فى العلوم الفلسفية والرياضية . ولما وجد الأنبا أثناسيوس أن ثيئوفيلس يجمع إلى ما وهبه الله من قريحة وقادة المقدرة الممتازة فى الادارة ضمه إلى سكرتاريته ثم رسمه قسًا ، فظل فى خدمة المذبح مدى باباوية كل من أثناسيوس وبطرس الثانى وتيموثيئوس الأول ، وكان لخدمته ابعد الأثر لأنه تمكن خلالها من أن يكتسب قلوب الاسكندريين .

٤٤٩ - فلما انتقل الأنبا تيموثيئوس الأول إلى بيعة الأبكار سنة ٣٧٦م (١) أجمع الاكليروس والشعب على انتخاب ثيئوفيلس خليفة لباباهم الراحل لأنه كان ضمن تلاميذ أثناسيوس العظيم إلى جانب ما عرفوه عنه من الحكمة ودقة الفراسة واستظهار الكتب الالهية والمقدرة على تفسيرها (٢). وكان بين الأساقفة الذين وضعوا عليه اليد أسقف جزيرة فيلا (بالصعيد الأعلى) (٣) .

٤٥٠ - فلما اعتلى الأنبا ثيئوفيلس السدة المرقسية وضع نصب عينيه أن يشغل أيام باباويته ببناء الكنائس لأنه كان ولوعًا بفن المعمار . وكان جالسًا ذات يوم فى الحديقة الخاصة بأثناسيوس الرسولى فذكر أن أستاذه الكبير كان يتوق إلى بناء كنيسة فى هذا الحى على اسم يوحنا المعمدان وايليا النبى . ولاحظ الأنبا ثيئوفيلس - وهو جالس فى الحديقة - أن ما فى هذا الحى من جمال تشوهه تلال من الرمال محيطة به ، فأبدى رغبته فى ازالتها واقامة تلك الكنيسة التى كانت مطمع أستاذه فى مكانها . وكان يضم المجلس البابوى

---

(١) ميلادية شرقية وتقابل سنة ٣٨٤م غ .

(٢) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية والیس بودج جـ١ ص١٦٢ .

(٣) « المسيحية فى فيلا » مقال بالفرنسية لبول مونييه ، نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد الرابع (سنة ١٩٣٧) ص٤٢ .

يومذاك سيدة تقية من أثرياء المدينة . فما أن سمعت عن رغبة الأنبا ثيئوفيلس فى بناء تلك الكنيسة حتى اعلنت بأنها ستزيل هذه التلال على نفقتها الخاصة . وسرعان ما قامت بتنفيذ وعدها . ولما أزال العمال هذه التلال عثروا فى جوف الأرض التى كانت تقوم فوقها على كنز يرجع تاريخه إلى عهد الاسكندر الأكبر . فبعث البابا الاسكندرى إلى الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير برسالة انبأه فيها بالعثور على ذلك الكنز .

٤٥١ - واستثار هذا النبأ شوق الامبراطور فحضر إلى الاسكندرية ليتبين المكان الذى وجدوه فيه . وكان الامبراطور ثيئودوسيوس يجل الأنبا ثيئوفيلس فرأى أن يقتسم معه الكنز . وفرح البابا الاسكندرى لهذه العطية المفاجئة ، واستخدمها كلها فى تشييد الكنيسة التى كانت أمنية أستاذه الكبير وتشييد غيرها من الكنائس والأديرة ومن المتواتر أن بين الأديرة التى شادها هذا البابا العظيم دير السيدة العذراء بجبل قسقام المعروف باسم المحرق . كذلك صرف عناية خاصة فى تجميل كنيسة مارمينا بضواحى مريوط . وكانت هذه الكنيسة أجمل كنائس الشرق الأوسط طرا فى أوج ازدهارها . أما الآن فلم يبق منها غير بعض الأعمدة المتداعية المبعثرة (١).

٤٥٢ - وقد انتهز الأنبا ثيئوفيلس فرصة وجود الامبراطور ثيئودوسيوس بالاسكندرية فأقنعه بفكرة تحويل المعابد الوثنية إلى كنائس مسيحية . وراقت هذه الفكرة فى عينى الامبراطور فأصدر على الفور أمراً بتيسير هذا الطلب (٢) وكان هيكل باكوس (إله الخمر) أول الهياكل التى

---

(١) « الآثار المسيحية فى الخمس مدن القيروانية » نشره بالانجليزية وارد بيركنز فى مجلة الآثار القبطية العدد التاسع (سنة ١٩٤٣) ص١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) فى سنة ١٩٠٢ جاء إلى مصر راهب فرنسى اسمه الأب ميشيل جوليان . وقد زار عدداً من المعابد القديمة التى تركها الفراعنة ولاحظ أن المصريين حين اعتنقوا المسيحية لم يهدموا معابد آلهتهم القديمة بل حولوها إلى كنائس وفى بعض الأحيان كرسوا جزء من المعبد كنيسة ولم يجدوا حرجاً فى أن يقيموا صلواتهم داخل جدران هذه المعابد القديمة . وقد وجد الأب جوليان كنيسة فى صحن معبد دندرة وإثنتين فى معبد الأقصر واثنتين أخرتين فى معبد الكرنك . كذلك وجد أن معبد الملكة حتشبسوت قد تحول إلى دير أطلقوا عليه اسم الدير البحرى . على أنه لم يبق الآن أثر لهذا الدير غير بعض الصلبان المرسومة على جدرانه . راجع مقال : « الآثار القبطية تبعاً لملاحظات الأب جوليان» (بالفرنسية) نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد السادس (سنة ١٩٤٠).

استولى عليها البابا الاسكندرى . وحين شرع رجاله فى ازالة التماثيل الوثنية تمهيداً لتحويل هذا الهيكل إلى مكان يتفق والعبادة المسيحية عثروا على رسوم مخلة بالآداب العامة . وظن الأنبا ثيئوفيلس أن يخجل الوثنيين من عبادتهم بالطواف بالتماثيل التى تحوى هذه الرسوم فى شوارع المدينة فينبذون وثنيتهم ويتحولون إلى المسيحية . على أن هذا العمل اثار حفيظة الوثنيين ، واستغل الفيلسوف الوثنى اوليمبياس هذه الحفيظة فأضرم بواسطتها ثورة التهمت نيرانها كثيراً من الشهداء .

٤٥٣– وبعد أن اندفع الوثنيون إلى قتل المسيحيين من غير ترو ، توقفوا مرتاعين مما جنوه . فاحتموا بالسيرابيوم (أى معبد سيرابيس) . وكان هذا المعبد أشبه بحصن إذ كان يقوم فوق هضبة اقتضت بناء مئة سلم للوصول إليه . وكان بناؤه الضخم يضم بين جوانبه هيكلى ايزيس وسيرابيس والمتحف والمكتبة . فلما سمع الامبراطور ثيئودوسيوس بأمر هذه الثورة الوثنية استشاط غضباً وامر بهدم السيرابيوم فوق رؤوس الوثنيين . وحالما بلغهم هذا الأمر أسرعوا فى الخروج تاركين المعبد للمسيحيين لكى ينجوا بحياتهم . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن المسيحيين لم يتعرضوا لهم أثناء انسحابهم من السيرابيوم ولم يلحقوا بهم أى أذى لاعتقادهم أن فى الانتقام اهداراً لدم الشهداء الذين لا ينتقم لهم إلا الله وحده (١) . غير أن نفراً من الوثنيين – عند مغادرته السيرابيوم – أضرم فيه النار غضباً وحنقاً . فسارع المسيحيون إلى اخمادها حرصاً منهم على الكنوز التى تضمها المكتبة . وهكذا استطاع المسيحيون أن يحافظوا على مبنى السيرابيوم بحيث لم يتهدم منه غير محراب سيرابيس (٢) .

٤٥٤– ومما يجدر ذكره هنا أن العمال وهم يقومون بهدم تمثال سيرابيس المقام في وسط ذلك المحراب عثروا على كتابة هيروغليفية على شكل صليب . فلما قرأوها وجدوا أن معناها « حياة الدهر الآتى » . ولقد

---

(١) سوزومين ك٨ ف١٥ ، سقراط ك٥ ف١٦ و ١٧ ، روفينوس ك٢ ف٢٢ – ٣٠ ، ثيئودوريت ك٥ ف٢ .

(٢) بريشيا : « اسكندرية المصريين » (باللاتينية) ص٩٧ ، « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب بول دورليان جـ١ ص٤٠٥ .

زعم بعض الغربيين أن المؤرخين المصريين قد أطلقوا لخيالهم العنان حين وصفوا هذا الحادث . غير أن علماء الآثار المصريين قد استكشفوا في يوكاتان (احدى ولايات المكسيك) آثاراً تتضمن كتابة هيروغليفية يتوسطها صليب تؤدى نفس المعنى (١) .

٤٥٥- ومن المؤلم أن ما امتاز به الأنبا ثيئوفيلس من غيرة متقدة دفعته إلى تحويل الهياكل الوثنية إلى كنائس مسيحية قد جعلت بعض الكتاب العصريين يتهمونه بأنه حرض المسيحيين على حرق السيرابيوم . وحجتهم الوحيدة فى توجيه هذه التهمة إلى هذا البابا العظيم هو أنه كان يلجأ أحياناً إلى وسائل العنف . بيد أن جميع المؤرخين المتقدمين كسوزومين وسقراط وروفينوس وثيئودوريت قد شهدوا ببطلان هذه التهمة . وقد أيد شهادتهم الكاتب أفتونيوس الذى عاش فى القرن الرابع للميلاد حيث قال فى كتابه (وصف جبانة الاسكندرية) : « أن هذه المكتبة (مكتبة السيرابيوم) التى كانت مفتوحة للجمهور فى جميع ساعات النهار كانت دعوة مستمرة تهيب بأهالى المدينة أن يستقوا من منابع الحكمة » (٢) .

٤٥٦- وفى هذا المعنى يقول الأرشيمندريت جيتى (تأكيداً لهذه الشهادات) : « لقد أنب بعض الكتاب مسيحى مصر لحرقهم مكتبة السيرابيوم ، وبما أن هذا التأنيب قد تجدد فى أيامنا هذه فقد أذعنا نشرة أثبتنا فيها ما يلى : ١- أن السيرابيوم الذى كان يتألف من عدة مبانٍ لم يحرق . ٢- أن الجزء الوحيد الذى هدم من ذلك المبنى هو محراب سيرابيس . ٣- أن مبانى السيرابيوم قد ظلت قائمة بعد هذا الحريق المزعوم بعدة قرون . ٤- أن المؤرخ أوروز الذى عاش فى أيام

---

(١) « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لجون نيل جـ١ ص٢١٨ .

(٢) فقد قال فى كتابه :

" Description de l'acropole d'Alexandrie " : "Cette Bibliothèque (du Sérapeum) ouverte au public à toutes les heures est, pour toute la cité, une invitation constante au culte de la Sagesse " .

راجع كتاب « دراسة جديدة لسيرابيوم الاسكندرية » (بالفرنسية) للمنسنيور مقار ص٣٠.

ثيئودوسيوس الصغير قد رأى بعينيه الخزانات المليئة بالكتب فى معبد السيرابيوم كما رآها فى غيره من المعابد . وقد أساء بعض الكتاب فهم ما صرح به أوروز هذا فبنوا عليها تهمة الحريق التى ألصقوها بالأنبا ثيئوفيلس (١) .

٤٥٧ – أما أمونيوس الفيلسوف الاسكندرى الذى عاش فى القرن السادس فلم يكتف بوصفه مكتبة السيرابيوم بالاسكندرية بل أضاف إلى ذلك أنها تحوى أربعين نسخة من كتاب « التحاليل الفلسفية » ونسختين من كتاب « المصنفات » وهما للفيلسوف أرسطاطليس . وكان أمونيوس هذا معلمًا ليوحنا الغراماطيقى الذى كان يشغل منصب أمين مكتبة السيرابيوم عند الفتح العربى . وقد بذل هذا الأمين كل ما أوتى من قوة فى اقناع عمرو بن العاص بالعدول عن حرق المكتبة . غير أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح لأن ابن العاص كان قد تلقى رسالة من عمر بن الخطاب يأمره فيها بحرقها .

٤٥٨ – أما الأنبا كيرلس مقار بطريرك القبط الكاثوليك الذى كان من أعضاء المجمع العلمى المصرى فقد قال فى المحاضرة التى ألقاها فى ذلك المجمع عن السيرابيوم سنة ١٩١٠ ما نصه : « إن كتاب العرب لم يذكروا لنا فى مؤلفاتهم حادثة يوحنا الغراماطيقى فحسب ولكنهم رووا لنا ما عرفوه عن مصير هذه المكتبة » .

ثم أورد لنا هذا الحبر العلامة ما قاله عبد اللطيف البغدادى الطبيب العالم خريج المدرسة النظامية ببغداد . فقد جاء هذا الطبيب إلى مصر واشتغل بالتدريس فى الأزهر سنوات عدة . فلما عاد إلى وطنه كتب مذكراته عن رحلته فى الديار المصرية . وفى هذه المذكرات قال بعد وصفه لعامود السوارى وخرائب السيرابيوم ما يلى : « وفيها (الاسكندرية) دار العلوم وفيها خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص بأمر عمر رضى الله عنه » (٢) .

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٩٢ – ٩٤ . والهوامش المفصلة على هاتين الصفحتين .

(٢) وما أشار إليه عبد اللطيف عن مكتبة الاسكندرية ذكره ابن خلدون فى مقدمته فى –

٤٥٩- وجميع هؤلاء المؤرخين الأعلام وغيرهم يقرون صراحة بأن الأنبا ثيئوفيلس براء من تهمة حرق مكتبة الاسكندرية براءة الذئب من دم ابن يعقوب فلئن كانت غيرة بيت الله قد أكلته (١) إلا أنها لم تدفعه إلى حرق مكتبة ضمت بين جوانبها عدداً عظيماً من الكتب الكنسية القيمة ، وفى طليعتها بعض نسخ الترجمة السبعينية التى نقلها من العبرية إلى اليونانية سبعون حاخاماً أحضرهم الامبراطور بطليموس فيلادلفوس من أورشليم إلى الاسكندرية (٢) ، ولم تدفعه غيرته إلا إلى تحويل الهياكل الوثنية إلى كنائس مسيحية فحسب .

٤٦٠- ولقد دفعت الغيرة الروحية عينها بالأنبا ثيئوفيلس إلى أن يبدى اهتماماً بالغاً بكنيسة المدن الخمس . ذلك أن كنيسة هذه المدن الخمس - رغم أنها كانت قد سمعت كلمة الخلاص من القديس مرقس الرسول قبل أن يسمعها المصريون ، إلا أنها خضعت للبابا الاسكندرى لما اشتهر به خلفاء الكرسى المرقسى من تضلع فى العلوم الروحية والمدنية . ولقد ازدهرت كنيسة هذه المدن الخمس وكانت على علم تام بكل الأحداث الجارية فى الاسكندرية وغيرها من مدن الكرازة المرقسية ، وبكل المناقشات الدينية التى أثارها المبتدعون . كذلك نقل أهلها الفن المعمارى عن مصر كما يستدل من آثارها . وكانت الصلة بين البابا الاسكندرى وأساقفة هذه المدن وثيقة - على

= باب العلوم بشأن مكتبة بلاد فارس حيث قال أن عمر بن الخطاب قد بعث بخطاب إلى سعد بن أبى وقاص فاتح تلك البلاد ونصه : « إذا كان ما فيها هدى هدانا الله بأهدى منها وإن كان ضلالاً فقد كفانا الله » وهذا الخطاب يتفق معنى ومبنى مع الخطاب الذى بعث به عمر إلى عمرو بن العاص بشأن مكتبة الاسكندرية مما يجعله خطاباً دورياً . راجع كتاب « دراسة جديدة لسيرابيوم الاسكندرية » (بالفرنسية) للأنبا كيرلس مقار ص٢٤-٢٥ ، « مذكرات عن رحلتى إلى مصر » لعبد اللطيف البغدادى فصل ٤ فقرة ١ - أما عامود السوارى المذكور فى الوصف فهو الأثر الوحيد الباقى للآن من السيرابيوم .

راجع أيضاً « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٥ ص٤٧١ - ٤٧٢ والهامش على الصفحة التالية لهذه الصفحات ، والوصف المسهب الوارد فى كتاب « مصر الاسلامية » لالياس الأيوبى ص١٧١ - ١٧٩ .

(١) يوحنا ٢ : ١٧ .
(٢) راجع ف١٤ .

أنها كانت اكثر وثوقاً فى بعض العصور منها فى العصور الأخرى . وكان الأنبا ثيئوفيلس ضمن الباباوات الذين عملوا على توثيق هذه الصلة الروحية ، فكان على اتصال مستمر بأسقفها سينيسيوس الذى شاركه غيرته الدينية واندفاعه فى خدمة الشعب (١) .

٤٦١ - وكان من آثار الغيرة المضطرمة فى فؤاد الأنبا ثيئوفيلس أن اتسع نطاق المسيحية فى الأقطار المصرية . وقد هيأت العناية الالهية لهذا البابا العظيم رهطاً من الرجال الممتازين من أبرزهم ايسيذورس الذى تنسك فى وادى النطرون مدى سنوات عديدة ثم غادر البرية ليشرف على ادارة المستشفى التابع لكنيسة الاسكندرية ، وقد حباه اللّه وجهاً بشوشاً وطبيعة سمحة ولساناً عذباً حبّن فيه جميع الناس - المصريين منهم والأجانب . وكان وجهه مضيئاً حتى كان كل من يراه يتعجب ، ويزداد عجبه حين يسمع أنه ناسك زاهد يقنع بالقليل من الخبز والماء (٢) .

وإلى جانب هذا الرجل العجيب الذى هو ايسيذورس كان يوجد أربعة من الرهبان معروفون فى التاريخ باسم « الاخوة الطوال » نظراً لطول قامتهم ... وكان الأنبا ثيئوفيلس يقدر هؤلاء الاخوة حق قدرهم فرفع أحدهم إلى كرامة الأسقفية على كرسى هرموبوليس (المنيا) . وقد أراد البابا الاسكندرى أن يسند رتبة الأسقفية إلى أحد الاخوة الثلاثة الباقين فاعتذر محتجاً بعدم أهليته لهذه الكرامة السامية . وكان هؤلاء الاخوة يستظهرون الكتب المقدسة ويداومون على مطالعة ما ألفه الكتاب المسيحيون الممتازون كأوريجانوس وديديموس وبيريوس (٣) .

وكان هؤلاء الرهبان الخمسة ومعهم جميع رهبان وادى النطرون معجبين الاعجاب كله بأوريجانوس . وقد بلغ اعجابهم به حداً جعلهم

---

(١) « الآثار المسيحية فى الخمس مدن القيروانية » (بالانجليزية) مقال لوارد بيركينز نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد التاسع (سنة ١٩٤٣) ص١٢٤ .

(٢) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ١ ص١٣٨ - ١٤٩ . « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص٨٩ - ٩١ .

(٣) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٠٥ - ١٠٦ ، « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لچون نيل جـ١ ص٢١٦ - ٢١٧ .

يفسرون تعاليمه الرمزية تفسيراً حرفيّاً مما أثار سخط الأنبا ثيئوفيلس عليهم وعلى أوريجانوس معهم . فانتهز فرصة الرسالة الفصحية وهاجمهم فيها ناسباً إليهم تهمة الأوريجانية التى عدها بدعة فى المسيحية . فعز عليهم أن يعد البابا الاسكندرى كلمة « أوريجانية » بدعة بدلاً من أن يعدها رمز فخار للمسيحية ، واحتجوا عليه احتجاجاً شديداً . فلما أعرض عن الاصغاء إليهم قصدوا إلى القسطنطينية لرفع شكواهم ضد باباهم إلى يوحنا ذهبى الفم أسقف القسطنطينية .

٤٦٢ – وكان هذا الأسقف القسطنطينى قد تربى تربية مسيحية حقة بفضل أمه التى وصفها أحد فلاسفة الوثنيين بقوله : « كفى المسيحية فخراً أن تضم بين جوانبها سيدة من مثيلات أم يوحنا ذهبى الفم » . وقد اتصف ذهبى الفم بالتقوى والاستقامة والجرأة فى الحق حتى لقد شبهه أصفياؤه بيوحنا المعمدان . وهذه الصفات قد رفعته إلى كرسى القسطنطينية كما جرت عليه سخط الامبراطورة أودوكسيا .

وكان ذهبى الفم شغوفاً بالمصريين – إذ كان يقول أن المصريين يغذون أجسام القسطنطينيين بالقمح كما يغذون قلوبهم بالايمان .

فلما وصل ايسيذورس والاخوة الطوال إلى القسطنطينية ورفعوا شكواهم إلى أسقفها ذهبى الفم أكرم مثواهم وكتب إلى الأنبا ثيئوفيلس خطاباً دافع فيه عنهم وعن أوريجانوس بلهجة تفيض حكمة ووداعة بغية استجلاب عطفه عليهم . غير أنه من المؤلم أن هذا الخطاب كان مثاراً لسخط البابا الاسكندرى بدلاً من رضاه . فبعث إلى ذهبى الفم برسالة اتهمه فيها بعمله على تحريض رهبان مصر على التمرد عليه .

٤٦٣ – وفى تلك الفترة مات الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير وخلفه ابنه اركاديوس على عرش القسطنطينية . فعرض ذهبى الفم موضوع الخلاف بينه وبين الأنبا ثيئوفيلس على الامبراطور الجديد ، فأمر بعقد مجمع فى القسطنطينية للنظر فى هذا الخلاف ، وبعث برسالة إلى البابا الاسكندرى يستدعيه فيها للحضور إلى القسطنطينية ليؤدى حساباً عما كتبه فى رسالته إلى أسقف هذه العاصمة . فلبى هذا البابا الدعوة الامبراطورية ورحل إلى القسطنطينية . غير أنه فى أثناء تلك الفترة هاجم ذهبى الفم الامبراطورة

أودوكسيا لغطرستها واستهتارها فشبهها بايزابل ملكة اسرائيل (١). فاستثارت كلماته غضب الامبراطورة وعولت على الانتقام منه . ولما وصل البابا ثيئوفيلس إلى القسطنطينية كانت كل هذه الحوادث قد أحالته من متهم إلى قاضٍ - وبدلاً من أن يطالبه الامبراطور أركاديوس بتادية الحساب عما قاله طلب إليه ان يراس مجمعًا للنظر فى التهم الموجهة إلى ذهبى الفم . وانعقد المجمع فى بلدة اسمها البلوطة تقع خارج القسطنطينية وكان بين الأساقفة الذين حضروا هذا المجمع ابيفانيوس اسقف سلامين بقبرص وقد حكم هذا المجمع بنفى يوحنا ذهبى الفم .

٤٦٤ - على ان الشعب القسطنطينى ما كاد يسمع نبأ هذا الحكم حتى ثارت ثائرته وأعلن غضبه جهاراً . وشاطرت الطبيعة الشعب ففوجئت القسطنطينية بزلزال عنيف لم يهز البيوت فقط بل هز أوتار القلوب أيضًا وأفزع الامبراطورة نفسها فزعاً جعلها ترجو من زوجها أن يعيد ذهبى الفم إلى القسطنطينية . وكان ذهبى الفم إذ ذاك على ظهر الباخرة التى كانت ستقله إلى منفاه والتى كانت لاتزال راسية فى الميناء بسبب الزلزال . فصدر الأمر الامبراطورى باعادة ذهبى الفم ، وخرجت المدينة كلها لاستقباله بالتعظيم والتبجيل .

٤٦٥ - وكان الأنبا ثيئوفيلس فى تلك الأثناء قد عاد إلى الاسكندرية وتصالح مع ايسيذورس والاخوة الطوال وأعلن موافقته على تعاليم أوريجانوس .

٤٦٦ - وبعد عدة أشهر عاود ذهبى الفم مهاجمة الامبراطورة أودوكسيا لمسلكها الغشوم . فغضبت عليه ثانية ورات أن تعقد مجمعاً من جديد لمحاكمته . ولكنها فى هذه المرة أخفقت فى اقناع الأنبا ثيئوفيلس بالحضور ليجدد حكمه على ذهبى الفم . إلا أنها صممت على عقد المجمع لأنها أصرت فى هذه المرة على نفى أسقف القسطنطينية . فلم تتراجع بازاء رفض الأنبا ثيئوفيلس وبادرت إلى جمع أساقفة الكرسى القسطنطينى . فاجتمعوا وأصدروا الحكم بنفى يوحنا ذهبى الفم - وقد تم تنفيذ

---

(١) ١ ملوك ١٦ : ٣١ ، ١٨ : ٤ ، ١٩ : ٤ و ٢١ ، ٢ ملوك ٩ : ٣٠ .

الحكم فيه هذه المرة لأن غضب الامبراطورة كان قد بلغ منتهاه .

٤٦٧- وحين كان ذهبي الفم يعاني مرارة النفي وضيق العيش بعث برسالة دورية إلى أساقفة المسكونة يستغيث بهم لينصروه ويردوا الحق إلى نصابه . وهذا نص رسالته بعد الديباجة : « ... انى اكتب إليكم جميعًا لكى تبذلوا جهد المستطاع لايقاف تيار الظلم وكبح جماح الظالمين ... والآن وقد وقفتم على الحقيقة التمس منكم - أيها السادة الجزيل قدسهم والعظيم وقارهم - أن تظهروا شجاعتكم في دفع الجور عنى وأن تثابروا على العمل بجد حتى لا يعم الاضطراب المسكونة بأسرها . أظهروا للعالم ان الحكم الذى صدر ضدى هو ملغى من ذاته لمخالفته القوانين المقدسة ، وأن الخصوم الذين اصدروا هذا الحكم جديرون بالعقوبة هم أنفسهم . أما إذا ابى أولئك الخصوم إلا المكابرة والعناد فأرى أن يعقد مجمع مسكوني ينظر في أمرى وأمرهم حتى يظهر البرئ من الجاني وينال كل منا جزاء ما جنت يداه » (١) . على

---

(١) « سوزمين » ك٨ ف٢٦ . بلاديوس « حياة قسطنطين الكبير » . « الوضع الالهى » (بالفرنسية) للأنبا كيرلس مقار ص٢٠٣ - وقد عقب الأبيه جيتى على رسالة الذهبي الفم بقوله : « كان هذا الظرف يسيغ لبابا رومية أن يفصل في هذه القضية بما يزعمه من سلطان لو انه كان يملك هذا السلطان المطلق حقًا . على ان أساقفة الغرب جميعاً وأسقف رومية بالذات لم يخطر ببالهم شئ من هذا لأن هذا السلطان كان مجهولاً لديهم إذ ذاك . فاكتفوا جميعًا باللجوء إلى الأباطرة طالبين منهم أن يأمروا بعقد المجمع المسكوني الذى يملك وحده حق الفصل في مثل هذه القضية » . راجع كتابه « البابوية المنشقة » (بالفرنسية) ص١٢٢ - ١٢٣ حيث يقول :

... c'était bien le cas pour le pape de Rome de trancher lui même la question, en vertu de son autorité souveraine s'il en eut possédé une de cette sorte ... ni les évêques d'Occident, ni le pape lui même songèrent à ce moyen, qui leur était, inconnu . Ils se contentèrent tous de demander aux empereurs un concile qui avait seul, l'antorité de rendre un jugement décisif " .

ومن الأدلة على ان أسقف رومية لم يتمتع بسلطان مطلق في العصور الرسولية ما جاء في دائرة المعارف الدينية الفرنسية عند الحديث عن اكليمنضس الروماني الذى جلس على كرسي رومية حوالى سنة ٩٢ - ١٠١م حيث قيل : « كان أسقفاً كما كانت الأساقفة إذ ذاك اى شيخ بسيط » . وقد كتب أسقف رومية هذا خطاباً إلى الكورنثيين كما يكتب اخ إلى اخوته . راجع دائرة المعارف المذكورة جـ٣ ص٢٠٦ حيث يقول :

" (Clément) a été évêque de Rome . mais évêque comme on l'était alors, =

أن نداء الحبر القسطنطيني ذهب أدراج الرياح لأن الامبراطور أركاديوس لم يقبل أن يدعو الأساقفة إلى مجمع مسكوني ، ولم يستطع أحد من الأساقفة أن يقنعه ولا أن يتولى دعوة أخوته للتداول معاً في أمر ذهبي الفم إذ كان امبراطور الشرق صاحب الحق في الدعوة إلى عقد مجمع مسكوني .

٤٦٨ - أما البابا ثيئوفيلس فبعد عودته إلى الاسكندرية من القسطنطينية تشاغل بشئون الكنيسة المرقسية فوضع القوانين الخاصة بانتقاء الكهنة والصفات التي يجب توافرها فيهم . ومن بين هذه القوانين ما هو خاص بانتخاب اللائقين للرتب الكهنوتية . فقد جاء فيها أن القسوس يرشحون من يرونهم أهلاً لهذه الرتب والأسقف يقوم بامتحانهم ثم يعلن للشعب مزايا كل منهم . فينتخب الشعب من بينهم من يراه أجدر من سواه (١) . وقد ذيل الأنبا ثيئوفيلس هذه القوانين بمواد تتعلق بآداب الكهنوت (٢) .

٤٦٩ - والأنبا ثيئوفيلس لايزال حتى الآن مثاراً للجدل - شأنه في ذلك شأن عدد كبير من الآباء المصريين . فبعض المؤرخين يحلو لهم أن يصفوه بأنه فرعون متجبر جعل من كلماته الدستور الذي يجب أن ينحني أمامه الشعب بأسره ، بينما يمتدحه البعض الآخر ويثنون على حسن ادارته وسرعة ادراكه للحقائق . وهناك مؤرخون يكيلون له المدح والذم في آن واحد . فالأب بول دورليان يسهب في طعن الأنبا ثيئوفيلس وينتهي عند الطعن بقوله : « ومقابل هذه المساوئ نرى في الأنبا ثيئوفيلس مزايا عجيبة يحسده عليها الناس . فقد كان عالماً متضلعاً في العلوم ، ذا أيمان راسخ لا يحيد ، وحزم عجيب في الادارة ، ونشاط لا ينضب له معين وسلوك متكامل » . ثم يردف الأب بول دورليان هذا الوصف بقوله : « ولئن اضطراب بعض الناس مما بدا في سلوك الأنبا ثيئوفيلس من تناقض فليذكروا أنه ما

---

c'est - á - dire simple ancien. gouvernant l'Eglise avec d'autres anciens comme = lui " sans aucune prépondérance officielle " .

وص ٢٠٨ حيث يقول أيضاً :

" L'évêque de Rome écrit aux Corinthiens comme un frère à ses frères " .

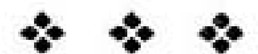
(١) يتضح من هذا القانون أن الشعب هو صاحب الحق في الاختيار .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ١٢ ص٤٠١ .

من انسان – مهما علت منزلته – معصوم من الخطأ (١) . وأنه إن كان الأنبا ثيئوفيلس قد أخطأ كثيراً فقد احب كثيراً (٢) لأنه كان يعلن توبته حالما يدرك خطأه ويحاول أن يكفر عن هذا الخطأ بكل قواه » (٣) .

٤٧٠ – وقد انتهت حياة البابا ثيئوفيلس فى سكينة وهدوء . ثم انطفأت تدريجياً انطفاء الشموع الموقدة التى تظل مضيئة إلى أن تذوب وتتلاشى . وبينما كان يعالج سكرات الموت ردد هذه العبارة « ما أسعدك يا أرسانيوس فقد وضعت هذه الساعة نصب عينيك دواماً » .

وقد ابدى هذا البابا الاسكندرى الجليل أسفه فى هذه الساعة الرهيبة لما أصاب ذهبى الفم من مرارة النفى (٤) . وقد احترمت الكنيسة هذا التقليد فنظمت فى صفوف القديسين كلا من الحبرين ثيئوفيلس الاسكندرى وذهبى الفم القسطنطينى . وفى هذا المعنى قال الأسقف افتيميوس صيفى : « إن الأنبا ثيئوفيلس مات قديساً والكنيسة الجامعة تعده بين معلميها » (٥).



---

(١) من العجيب أن تصدر هذه الملحوظة من راهب كاثوليكى ينتمى إلى كنيسة تنادى بعصمة رئيسها الأعلى .

(٢) لوقا ٧ : ٤٧ .

(٣) فى كتابه « قديسو مصر » جـ١ ص١٤٤ حيث يقول :

" ... mais pour contrebalancer de si graves défauts brillaient à l'envie dans sa personne les plus sérieuses qualités : un savoir considérable, une foi indéfectible un, rare talent d'administrateur, une indomptable énergie, et l'intégrité parfaite de mœurs ... " .

ثم يقول على صفحة ١٤٩ :

" Ceux que scandaliserait, ou simplement troublerait, la conduite de Théophile, se rappelleront que nul homme, si haut placé soit-il, n'est à l'abri de l'erreur ... Théophile a erre grandement, mais par ailleurs, il a reconnu loyalement ses erreurs " s'en est repenti, et les a reparées dans la mesure de possible " .

(٤) راجع ف٥٣٢ .

(٥) راجع « الدلالة اللامعة » لافتيموس صيفى مطران صور وصيدا . ص١١٧ .

معلم أولاد الملوك

(٤٧١) الامبراطور ثيئودوسيوس يعين أرسانيوس معلما لولديه .
(٤٧٢) السبب فى التجاء أرسانيوس إلى صحراء مصر .
(٤٧٣) استماع أرسانيوس إلى الراهب الفلاح .
(٤٧٤) اعتباره بغيره .
(٤٧٥) تواضعه الجم .
(٤٧٦) عناية قس شيهيت به .
(٤٧٧) معاملته للناس .
(٤٧٨) وصيته ثم نياحته .

٤٧١ – كان أرسانيوس الذى جرى اسمه على لسان الأنبا ثيئوفيلس وهو على فراش الموت شريفًا من اشراف الرومان . وكان متعمقاً فى العلوم والفلسفة . وقد ذاع صيته حتى بلغ أذنى الامبراطور ثيئودسيوس الكبير فعهد إليه بأمر تربية ابنيه اركاديوس وهونوريوس . فكان هذا الاختيار سبباً فى أن يعيش أرسانيوس فى البلاط الامبراطورى زمناً طويلاً حتى اطلق عليه لقب « معلم أولاد الملوك » .

٤٧٢ – وقد لاحظ أرسانيوس على الأمير أركاديوس شيئاً من الاهمال فى المذاكرة والدراسة فلم يتردد فى أن يعاقبه على هذا الاهمال . وقد أحس فى داخله بأن الأمير يضمر له الانتقام عندما يقبض على مقاليد الحكم فقرر أن يترك البلاط الامبراطورى وأخذ يفكر فى الوسيلة لتنفيذ قراره . وبعد تأمل طويل اهتدى إلى أن خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هى الالتجاء إلى الصحارى المصرية وقضاء ما بقى له من العمر بين نساكها الآمنين . هكذا فكر وهكذا فعل . ومع أنه لجأ إلى الصحراء طلبًا للسلامة لينجو من بطش أركاديوس إلا انه حين عاش فيها استهوته قداسة سكانها فجاهد جهادهم وسعى سعيهم .

ولقد عاش أرسانيوس فى برية الأنبا مكارى الكبير حيث تدرب على النسك والصمت . وقد سأله أحد الاخوة ذات يوم عن الباعث على لزومه الصمت فقال له : « لقد تكلمت كثيراً ، وكثيراً ما ندمت على الكلام ، وهذا ما جعلنى أوثر الصمت على الكلام » .

٤٧٣- وقد تجمل أرسانيوس بفضيلة الاتضاع وهو راهب بسيط ، وظل متجملاً بها حتى بعد أن أسندت إليه رياسة أحد الأديرة . وحدث أن رآه أحد أصدقائه الشرفاء ذات يوم جالساً إلى جانب راهب فلاح ساذج يسأله بعض الأسئلة عن الحياة الروحية . فأثار عمله دهشة صديقه الشريف الذى سأله : « أأنت أرسانيوس معلم أولاد الملوك وأستاذ العلوم والفلسفة ! فكيف تتخذ مثل هذا الجاهل لك معلماً ؟! » أجابه أرسانيوس قائلاً : « انى تضلعت فى حكمة اليونان وعلوم الرومان ، ولكن الحكمة الروحية التى تزين هذا الراهب فإنى أجهلها وفى احتياج إلى تعلمها » (١) .

٤٧٤- وكان أرسانيوس - بحكم الحياة التى قضاها فى البلاط الامبراطورى - قد اعتاد الأكل الشهى . فلما جاء إلى الصحراء درب نفسه على ان يأكل الطعام البسيط . على أنه فى بادئ الأمر كان ينتقى ما يأكله من طبقه - فكان يأكل الفولة البيضاء الصحيحة ويترك الفولة الجافة السوداء . ولاحظ رئيس الدير ما يعمله أرسانيوس ، وخجل من أن يؤنبه مباشرة فقال لأحد الاخوة الشباب : « اجلس غداً ساعة الأكل إلى جانب ارسانيوس وانتقِ الفولة البيضاء لتأكلها ثم تحمل منى بعد ذلك ما سأفعله بك » . أجابه الراهب الشاب : « أفعل ما بدا لك فأنا تحت أمرك » . وفى اليوم التالى مر رئيس الدير بالاخوة وهم يأكلون ، ووقف خلف الراهب الذى اتفق معه على الجلوس إلى جانب أرسانيوس ، فوجده ينتقى الفول حسب الاتفاق . وعندها لطمه على خده قائلاً : « على الراهب أن يأكل كل ما فى طبقه من غير انتقاء » . وفى الحال وضع أرسانيوس يده على خده قائلاً : « هذا على خدك يا أرسانيوس » ثم التفت إلى الاخوة وقال : « أرسانيوس معلم أولاد الملوك لم يعرف كيف يأكل الفول مع الرهبان المصريين » وبذاك ازداد فهماً ونعمة (٢) .

٤٧٥- وكان أرسانيوس يداوم على الصلاة والعمل اليدوى متبعاً فى ذلك الخطة التى اختطها الأنبا انطونى أبو الرهبان . وحدث ذات يوم أن جاءه الشرير ليجربه بعنف . ولما كان ارسانيوس قد أدرك أن الصلاة مع التواضع

---

(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص١٦٥ ف٨ .

(٢) « بستان الرهبان » مخطوط للقمص شنودة البرموسى ص٥٨ - ٥٩ .

هما السلاح الذى به يغلب تجارب العدو فقد رفع صوته بالصلاة طالبًا إلى الآب السماوى أن يعينه . ثم صرخ قائلاً : « ياربى اننى لم افعل للآن شيئًا من الخير ، ولكن أعطنى بنعمتك أن أبدأ اليوم فى عمل الخير » . وبهذه الكلمات سحق قوة عدو الخير (١) .

٤٧٦- ومرض ارسانيوس ذات يوم فحمله قس شيهيت إلى الكنيسة وأرقده على فراش ووضع تحت رأسه وسادة من جلد الغنم . وحدث أن دخل أحد الاخوة هذا البيت المقدس ورأى ارسانيوس راقداً ، فخرج يقول : « إن أرسانيوس راقد على فراش » . وعند ذاك أخذه قس شيهيت على ناحية وقال له : « أرجو منك أن تقول لى ماذا كنت تعمل قبل مجيئك إلى هذا الدير ؟ » . اجابه : « كنت أرعى الغنم » . فسأله القس : « وهل كانت حياتك مريحة ؟ » اجابه قائلاً : « لا - بل كانت حياة كلها متاعب » . فقال له القس : « أانت الآن مستريح ؟ » اجابه : « نعم - لقد وجدت الراحة فى هذا المكان المقدس » . واسترسل قس شيهيت يسأل : « وماذا كنت تلبس ؟ » أجابه : « كنت ألبس جلود غنمى » . وهنا قال له القس : « لقد كان أرسانيوس يعيش فى قصر الامبراطور ، وكان يلبس البز والارجوان وينام على فراش وثير ويأكل من أطايب الملك . ولكنه ترك هذا كله وجاء ليعيش فى هذه الصحراء القاحلة . فأنت جئت إلى برية شيهيت لتجد الراحة من متاعب عملك ، أما هو فقد ترك بذخ القصور وراحتها ليشقى هنا » . فضرب الراهب الراعى مطانية قائلاً : «اخطأت يا أبى فأصفح لى» (٢) .

٤٧٧- وفى أحد الأيام جاء إلى شيهيت زائر ، فأخذه واحد من الاخوة وادخله قلاية أرسانيوس لعله يسمع منه كلمة يتعظ بها . غير أن أرسانيوس صلى ثم جلس صامتًا . فلما لم يجد دالة عنده خرج مع الأخ الراهب الذى صحبه بعد ذلك إلى قلاية موسى الأسود ، ورحب موسى بالراهب وبضيفه وجلس يتحدث إليهما . ففرح الزائر بهذا الحديث وطالت زيارته . فلما خرج أخيراً قال له الراهب الذى صحبه : « ها قد أريتك الرومى والمصرى فأيهما أرضاك ؟ » أجابه : « المصرى » . فلما سمع أحد الآباء بما حدث أخذ يصلى

---

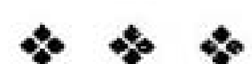
(١) شرحه ص٦ .

(٢) شرحه ص٦٥ .

قائلاً : « ياربى إنى متحير من امرى لأنى أرى بعض النساك يهربون من الناس سعيًا إلى الخلوة بك والبعض الآخر يرحبون بالناس مع أنهم هم أيضاً يسعون إلى الخلوة بك » . وفى تلك الليلة رأى هذا الأب حلماً : رأى سفينتين عظيمتين تمخران عباب اليمّ . ورأى إحداهما تسير فى هدوء وهى تحمل ارسانيوس ومعه روح الله ، ورأى ثانيتهما تحمل موسى الأسود يحيط به الملائكة وهم يطعمونه شهداً . فاتعظ الآب بهذه الرؤيا إذ ادرك أن كليهما مقبول لدى الله (١) .

٤٧٨- ولقد قضى ارسانيوس فى رومية اربعين سنة ، كما قضى أربعين سنة أخرى فى وادى النطرون . فلما اغارت قبائل البربر على هذا الوادى رحل عنه إلى احد الأديرة المتاخمة للاسكندرية حيث قضى سنين عاد بعدها إلى الصحراء وتوغل فيها وقضى بها ما يقرب من اثنتى عشرة سنة . وفى غضون هذه السنين الطويلة خضع خضوعًا تاماً للقوانين الرهبانية . ولقد فاضت عليه النعمة الالهية حتى زادته جمالاً على جمال .

ولما حضرته الوفاة دعا إليه تلميذيه المقربين إليه وأوصاهما قائلاً : « لا تبكونى ولا تقيموا لى قبراً يعرفه الناس ، بل ادفنونى فى مكان مجهول ويكفينى أن تذكرونى فى القداسات الالهية » . ثم تنيح بسلام (٢) .



---

(١) « بستان الرهبان » مخطوط للقمص شنودة البرموسى ص٦٦ .

(٢) « حكمة الآباء المسيحيين المصريين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٥٢ ف٥٠٢ - قارن هذه الوصية بوصية الأنبا أنطونى لتلميذه ساعة نياحته ص١٠٦ .

الرجل الكامل

(٤٧٩) اختيار الله لبيشوى وهو فى سن الطفولة .
(٤٨٠) رهبنته ولبسه الاسكيم .
(٤٨١) رؤيته الملائكة الحارسين .
(٤٨٢) الراهب بيفامون اناء مختار .
(٤٨٣) حكمة بيشوى فى معاملة الناس .
(٤٨٤) اختياره رئيساً للاخوة وتلقيبه بالرجل الكامل .
(٤٨٥) طريق الملائكة .
(٤٨٦) نياحته .
(٤٨٧) لمحة عن ديره .

٤٧٩- كان يعيش فى قرية شنشنه (بالمنوفية) رجل بار ورزقه الله أولاداً سبعة أطلق على أصغرهم اسم بيشوى . وحدث ذات ليلة أن رأت أمه فى رؤى الليل ملاك الرب يقول لها : « إن الرب يطلب أحد أولادك ليخدمه مدى حياته » . فقالت الأم للملاك : « ها هم أولادى السبعة أمامك فاختر من بينهم من تشاء » فوضع الملاك يده على رأس بيشوى أصغرهم . فقالت الأم للملاك : « هذا أصغرهم سناً وهو أضعفهم بنية ، فاختر من يقوى على حسن تأدية الرسالة الالهية بعزيمة ماضية » . قال لها الملاك : « إن قوة الرب فى الضعف تكمل » (١) . قال هذا ثم توارى عن عينيها .

٤٨٠- ولما بلغ بيشوى أشده قصد إلى الصحراء ليعيش العيشة النسكية فى برية الأنبا مكارى الكبير ، وهناك تتلمذ لشيخ قديس اسمه انبا بيموا الذى ما أن رآه حتى فرح به فرحًا عظيمًا وقضى بيشوى سنين عدة يخدم معلمه فى دعة وامتثال ويؤدى الواجبات الموضوعة عليه بأمانة وحبور . وسر به معلمه إذ وجده متفانيًا فى الجهاد فألبسه الاسكيم الرهبانى المقدس. وكان لبس الاسكيم حافزاً لبيشوى ليضاعف جهوده فى قراءة الكتب المقدسة وفى الصلوات والتأملات وفى العمل اليدوى . وكانت عزيمة بيشوى ماضية حفزته على الجهاد رغم ضعفه الجسمى ، ولقد تحنن الآب السماوى على هذا الراهب المتفانى فمنحه موهبة صنع العجائب . ومن ثم ذاع صيته فوصل إلى

---

(١) ٢ كورنثوس ١٢ : ٩ .

العائشين فى العالم ودفع بالعدد العديد منهم إلى الذهاب لنيل بركته أو الحصول على الشفاء مما بهم من مرض . وقد فاضت النعمة الالهية عليه فجعلته سبباً فى اجتذاب عدد من زواره إلى الحياة النسكية فلازموه واتخذوه لهم نبراساً واقتفوا خطواته فى الزهد والتواضع والقداسة .

٤٨١- وفى ذات يوم بينما كان الراهب بيشوى يمشى فى الصحراء رأى جمعاً من الملائكة فراعه هذا المنظر وفكر فى نفسه قائلاً : « ترى من يكون هؤلاء النورانيون ؟ » فقال له أحدهم : « اننا معشر الملائكة المكلفين من قبل الرب بحراسة القديسين المقيمين فى هذه البرارى » . فمجد بيشوى العلى القدير الذى لا تغفل عينه عن رعاية عبيده المخلصين . وازداد تمجيداً للّه حين وجد أن ملائكته ليسوا مكلفين بحراسة جماعة القديسين فحسب ، بل كان لكل واحد منهم ملاك خاص يسهر عليه ايضاً . فقد حدث أن دخل مرة قلاية أحد الرهبان ليفتقده ويطمئن عليه فوجده نائماً ورأى ملاك الرب عند رأسه يحرسه . فقال بالحق أن محبة الآب السماوى تفوق الادراك (١) .

٤٨٢- وكان بين الذين اشتاقوا أن يزوروا الراهب بيشوى ليتتلمذوا له شاب اسمه بيفامون . وكان هذا الشاب قد ذهب إلى الأنبا بولا الطموهى ورجا منه أن يستصحبه إلى حيث يقيم بيشوى . فقال له الأنبا بولا : « انك لاتزال فى سن الحداثة وأخشى أن لا تتحقق رغبتك من ذهابك إلى القديس بيشوى » . أجابه بيفامون على الفور قائلاً : « اسمح لى يا سيدى أن أذهب معك . وحين نصل إلى صومعة القديس بيشوى أظل أنا خارجاً وتدخل أنت وحدك . وعند خروجك من الصومعة أبادر بتقبيلك وأنا موقن بأنى التقيت بالقديس بيشوى ونلت بركته » . فرضى الأنبا بولا بهذه المشورة . وحين وصل الاثنان إلى صومعة الأنبا بيشوى دخلها الأنبا بولا وحده تاركاً بيفامون خارجها . وما أن سلم الأنبا بولا على القديس حتى ابتدره بالسؤال : « لماذا لم تدخل معك بيفامون ؟ » أجابه الأنبا بولا « اغفر لى يا أبى فقد رأيته حديث السن فمنعته من الوصول إليك » . قال الأنبا بيشوى : « ألا تعلم أن مخلصنا

---

(١) سيرة الأنبا بيشوى كتبها الأنبا يؤنس القصير نقل ترجمتها العربية القمص متياس البرموسى ص٢١ - ٢٢ ، ٢٤ .

الصالح قال « دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات » ؟ (١) وهذا الشاب الذى تعده أنت صغيراً إنما هو اناء مختار وسيكون سبباً فى خلاص الكثيرين ، وما أن سمع الأنبا بولا هذه الكلمات حتى خرج من الصومعة ونادى الشاب بيفامون وأدخله إلى الداخل وقدمه إلى الأنبا بيشوى (٢) .

٤٨٣- وحدث ذات مرة بينما كان الراهب المسئول عن تعليم النساك فى دير الأنبا بيشوى يفسر لهم الأسفار الالهية أن تفوه مساعده بعبارات لم يدرك الاخوة معناها تماماً ، فتسرب الشك إلى نفوسهم واعترفوا بذلك لأبيهم الروحى . فاستصحبهم إلى حيث يقيم الأنبا بيشوى وروى له ما حدث . وفى تلك الآونة حضر الشخص المشكو منه وردد العبارات التى اثارت الشكوك فى نفوس الاخوة . فتجاهله الأنبا بيشوى وأدى به هذا التجاهل إلى أن يغادر المشكو منه الصومعة . وعند ذاك تجمع الاخوة حول الأنبا بيشوى يستفهمون منه عن السبب فى تجاهله لهذا الراهب . أجابهم قائلاً : « ان الشيطان واقف لهذا البائس بالمرصاد ، فلو أننى وبخته لتسببت فى أن يظفر الشيطان به . فاصبروا عليه وأحبوه حتى يثوب إلى رشده ويتغلب على التجارب الشيطانية » ولما بلغ الراهب المشكو منه ما قاله القديس بيشوى فى شأنه بادر إلى اعلان توبته واستغفر الاخوة عما فرط منه (٣) .

٤٨٤- ولما كان الأنبا بيشوى مداوماً على الصوم والصلاة باجتهاد عظيم فإن ملاك الرب كان يتعهده بالرعاية ليثبته فى مناصبته المجرب الذى كان يستعين بشتى الوسائل للايقاع بالقديس العظيم ولما وجد الشيطان أنه عاجز عن اسقاط بيشوى فى فخاخه لجأ إلى خدعة فيها الكثير من التحايل . فقد ظهر فى شكل ملاك لرجل غنى من أغنياء البلاد وقال له : « لماذا أنت جالس هنا بدلاً من أن تسعى إلى خدمة القديسين ؟ ألا تعلم أن فى برية شيهيت

---

(١) متى ١٩ : ١٤ ، مرقس ١٠ : ١٤ ، لوقا ١٨ : ١٦ .

(٢) مخطوط عربى يحتوى على سيرة الأنبا بيشوى كتبها الأنبا يؤنس القصير ونقل ترجمتها العربية القمص متياس البرموسى ص٣١ - ٣٢ .

(٣) شرحه ص٣٢ - ٣٤ .

رجلاً باراً تنالك بركاته ؟ فسأل الغنى : « وما اسمه ؟ » قال له الملاك المزيف : « اسمه بيشوى » . فقام الغنى لساعته وحمل جماله مختلف الهدايا وسار بها إلى برية شيهيت . وفى تلك الأثناء قال الملاك الملازم لبيشوى : « هوذا الشيطان قد نصب لك فخاً ليستميلك إلى اقتناء المال . وقد استعان فى ذلك برجل غنى فجعله يحمل جماله الهدايا النفيسة وهو آت بها إليك » . فقام الأنبا بيشوى وخرج من صومعته وأخذ يسير فى البرية . فلم يلبث أن التقى بالرجل الغنى الذى سأله : « أتعرف الرجل الكبير المقيم فى هذا الجبل واسمه انبا بيشوى ؟ » فسأله القديس : « وماذا تريد منه ؟ » أجابه الغنى : « أريد أن أدفع له هذا الذهب وهذه الهدايا ليوزعها على الاخوة حتى تحل بركتهم علىّ وعلى أهل بيتى » . فقال الأنبا بيشوى : « ليس لسكان البرية حاجة إلى الذهب ، ولن يأخذوا شيئًا منه ، فلا تتعب نفسك ، فقد قبل الله صدقتك . وخير ما تفعله هو أن تعود بالسلامة إلى بيتك وتوزع هذه الهبات على الفقراء والمعوزين ، والله يباركك ويبارك جميع أهلك » . فأطاعه الرجل الغنى وعاد إلى مدينته ووزع الهدايا التى كان يحملها للأنبا بيشوى على المحتاجين والمتضايقين . وهكذا حطم الأنبا بيشوى فخاخ الشيطان بقوة الله (١) .

٤٨٥- وكانت منزلة الأنبا بيشوى لدى الرهبان قد ثبتت ورسخت فاختاروه ليكون لهم أباً ، وقد رأوا منه كل رعاية وعناية فأطلقوا عليه لقب « الرجل الكامل » Ⲡⲓⲣⲱⲙⲓ Ⲛ̀ⲧⲉⲗⲓⲟⲥ .

٤٨٦- وبعد أن بذل الأنبا بيشوى النفس والنفيس فى خدمة اخوته الرهبان الذين تولى رعايتهم ، انتقل إلى بيعة الأبكار فى هدوء وسلام نفسى وكان قد قضى ما ينيف على ستين سنة فى برية شيهيت ثم عاش بضع سنين فى جهات مختلفة من البلاد المصرية رحل بعدها إلى عالم الخلود لينال الأجر السماوى من الله تعالى الذى خدمه طيلة حياته (٢) .

٤٨٧- ولا يزال دير الأنبا بيشوى عامراً للآن بالرهبان . ومن المعلوم

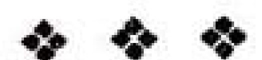
---

(١) مخطوط عربى يحتوى على سيرة الأنبا بيشوى كتبها الأنبا يؤنس القصير ونقل ترجمتها العربية القمص متياس البرموسى ص١٢ - ١٥ .

(٢) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٠٨٣-١٠٨٧ .

أنه بنى فى حياة هذا القديس نفسه إذ يؤكد التقليد أنه شيد سنة ٣٨٤م (١) واستمر الدير مزدهراً حتى القرن السادس ثم دمره البربر فى أواخر ذلك القرن . على أن الأنبا بنيامين (البابا الاسكندرى الـ٣٨) قد جدد بناءه بعد ذلك بقليل . وانقضى قرن ونصف تمتع فيه رهبان هذا الدير بالسلام والطمأنينة عاد بعده البربر إلى تخريبه كما خربوا كل الأديرة التى كانت موجودة فى وادى النطرون يومذاك . ولكن الروح المصرية الوثابة دفعت بالآباء إلى اعادة بنائه فاحتفلوا فى عهد الأنبا يوساب الأول (البابا الاسكندرى الـ٥٢) بنقل جثمان الأنبا بيشوى إلى ديره بعد أن كانوا قد اخفوه بعيداً عنه . واستمتع الآباء بعد ذلك بما يقرب من قرنين من السلام اصيب الدير بعدهما بالخراب . ورغم هذا التخريب المتوالى فقد ظل الآباء المصريون على اصرارهم فى معاودة ترميم الأماكن المقدسة . وكان للأنبا بنيامين الثانى (البابا الاسكندرى الـ٨٢) غيرة متقدة وعزم كالحديد ، فذهب إلى شيهيت واشتغل بنفسه مع الرهبان والفعلة فى قطع الأحجار وفى تصليح الآلات . فكان لوجوده بين الرهبان ولاشتراكه الفعلى معهم اثر عظيم إذ قد ملأ الكل عزيمة وقوة فأتموا بناء الدير وكنيسته فى اقصر مدة . حتى لقد شهد المستشرق الفرنسى تيفنو سنة ١٦٥٧م بأن دير الأنبا بيشوى اضخم الأديرة الأربعة فى شيهيت . إلا أنه يبدو أن عدد رهبانه نقص نقصاً كبيراً فلم يزد على أربعة سنة ١٧١٢م حسب ما رواه الآب سيكار (٢) ولا يوجد به الآن غير خمسة عشر راهباً . أما المغارة التى كان يسكنها الأنبا بيشوى فتقع داخل دير السيدة العذراء الشهير بدير السريان .

ومما يجدر ذكره أن دير الأنبا بيشوى يرتبط بدير الأنبا مكارى الكبير بطريق تقوم الحجارة الكبيرة على جانبيه يطلق عليه الرهبان اسم « طريق الملائكة » لأنهم يجهلون من الذى مهده ، ومن التقاليد الشائعة أن الملائكة هم الذين مهدوه .



---

(١) « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ١ ص٣١٥ .

(٢) «أديرة وادى النطرون وشيهيت» (بالانجليزية) لايفلين وايت جـ ٢ ص١٣٢ - ١٣٦ .

شجرة الطاعة

(٤٨٨) تتلمذ يؤنس القصير للأنبا بيموا .

(٤٨٩) ملاك الرب يزكى يؤنس .

(٤٩٠) يؤنس يغرس شجرة الطاعة .

(٤٩١) الأنبا ثيئوفيلس يرسمه قساً .

(٤٩٢) صبر يؤنس على الشيخ كثير النسيان .

(٤٩٣) رعاية يؤنس لاحساس الغير .

(٤٩٤) التقدم نحو الكمال المسيحى عن طريق القلق والقتال .

(٤٩٥) الملائكة ترفرف فوق يؤنس وهو نائم .

(٤٩٦) يؤنس ملك القلوب لفرط تواضعه .

(٤٩٧) انتقاله إلى دار الخلود .

(٤٩٨) الأديرة والكنائس التى تحمل اسمه .

٤٨٨- كان للأنبا بيشوى اخ بالروح يدعى يؤنس القصير تتلمذ هو أيضًا للأنبا بيموا . ويؤنس هذا كان أصغر أخوين وقد احس بالدعوة السماوية وهو فى الثامنة عشرة من عمره . فقام لفوره وذهب إلى القديس بيموا ورجا منه أن يتخذه تلميذاً له . فقال له الشيخ : « أنت لا تزال حديث السن والحياة النسكية تتطلب جهاداً شاقًا يعجز عنه الأقوياء من الرجال . تمريث حيناً قبل أن تقدم على التنسك » وأجابه : « لا تقصنى عنك يا أبى لأنى إنما جئتك لأعيش فى ظل صلواتك . وإنى على استعداد لأن أطيعك فى كل ما تأمرنى به » (١) .

٤٨٩- وكان الأنبا بيموا من الرهبان الذين يطيلون الصلاة والتأمل ويستلهمون الله تعالى فى كل ما يعملون . فلما قبل يؤنس إليه لأنه وجد اجابته روحية رأى أن يتثبت من هذا القبول بأن صلى وصام ثلاثة أيام متوالية . وبعد هذه الأيام الثلاثة ظهر له ملاك الرب وقال له : « نعمَ ما فعلت بقبولك الشاب يؤنس تلميذاً لأنه سيكون أباً لجماعة كثيرة وسيخلص كثيرون بسببه » . ففرح الأنبا بيموا بهذه الاشارة الإلهية فرحاً عظيماً . ثم صلى وصام ثلاثة أيام أخرى ألبس يؤنس الاسكيم بعدها (٢) .

---

(١) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٧١ .

(٢) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٧٢ .

٤٩٠- وكان يؤنس مطيعًا لمعلمه طاعة تامة يؤدى كل ما يأمره به فى رضى وسكون . وقد أراد معلمه ذات يوم ان يمتحنه فأعطاه عوداً يابسًا وقال له : « يا يؤنس ازرع هذه الشجرة » . فأخذها منه وزرعها خارج الصومعة على الفور وظل يسقيها مدى ثلاث سنين ازهر بعدها هذا العود اليابس وتحول إلى شجرة باسقة . وامتلأ فرحاً بهذه الشجرة وكان يقطف من ثمرها ويقدمه للأخوة قائلاً لهم : « ذوقوا وانظروا ما اشهى ثمرة الطاعة » (١) .

ولقد قضى يؤنس فى خدمة معلمه أثنتى عشرة سنة . ولما حانت ساعة انتقال هذا المعلم جمع الاخوة وامسك بيدى يؤنس وقال لهم : « تمسكوا بهذا الأخ فإنه ملاك فى جسم انسان » . ثم التفت إلى يؤنس وقال : « عش فى المكان الذى غرست فيه شجرة الطاعة » .

٤٩١- وبعد انتقال الأنبا بيموا من دار الفناء إلى دار البقاء عاش يؤنس القصير مع بيشوى بضع سنين . وفى تلك الأونة زار الأنبا ثيئوفيلس الصحراء ورسم يؤنس القصير قسًا . وقد حفظ لنا التقليد الكنسى ما جرى يوم رسامته فروى لنا انه عندما وضع الأنبا ثيئوفيلس يده على رأس يؤنس سمع الحاضرون صوتاً من السماء يقول : « اكسيوس » (مستحق) (٢) .

ثم لاحظ يؤنس - بعد رسامته قسًا - ان بيشوى يميل إلى حياة العزلة فقال له : « أرى أنك مشتاق إلى حياة العزلة مثلى . فهيا نصلى معاً طالبين من الله الهداية » . فوقف كلاهما يصليان الليل كله . ولما اصبح الصباح ظهر لهما ملاك الرب وقال : « يا يؤنس ابق حيث أنت ، أما أنت يا بيشوى فارحل من هنا واقم فى قلاية على مقربة من دير الأنبا مكارى الكبير حيث يباركك الرب ويوافيك باخوة كثيرين يعيشون معك . فأطاع كلاهما هذا الأمر وظل يؤنس حيث هو بينما رحل بيشوى إلى المكان الذى اشار إليه الملاك . وهناك انضم إليه اخوة كثيرون تحقيقاً لما بشره به ملاك الرب .

٤٩٢- وكما تشابه بيشوى ويؤنس فى التتلمذ لبيموا وفى حبهما

(١) شرحه ص١٧٢ .

(٢) « الصادق الأمين » جـ١ ص١٠٦ - ١٠٧ .

للعزلة . كذلك تشابها في مجرى حياتهما . فبعد أن انفصل كل منهما عن الآخر عملاً بارشاد ملاك الرب تجمع عدد وفير من الاخوة حول كل منهما واتخذوه لهم أباً . وهكذا بنى بيشوى ديراً لجماعته مازال باقياً للآن فى وادى النطرون ، كما بنى يؤنس القصير ديراً لجماعته ولكن مع الأسف لم يبق من هذا الدير غير أطلاله .

ولقد امتاز يؤنس بصبر شبيه بصبر أيوب إذ كان يتحمل كل ما يلاقيه من صعاب ويتقبل أسئلة الرهبان ومناقشاتهم بصدر رحب ولو كان فيها ما يوغر صدره . وحدث أن جاء شيخ ليسكن على مقربة منه . وكان هذا الشيخ كثير النسيان . فكان كلما ذهب إليه واستفهم منه عن موضوع ينساه ويعاود السؤال عنه . وبعد مدة خجل الشيخ من نسيانه وقرر أن يمتنع من الذهاب إلى الأنبا يؤنس القصير زعمًا منه أن الالحاح فى الأسئلة يضايقه وبعد مدة قابله القديس وسأله عن سبب انقطاعه فاعترف له بما ساوره من خجل . فابتسم الأنبا يؤنس واستصحبه إلى صومعته ورجا منه أن يوقد شمعة فأوقدها . ثم قال له : « أحضر إلىّ كل ما يوجد هنا من شموع » وحين أحضرها قال له : « أوقدها جميعاً من الشمعة الأولى » . فأوقدها . وعند ذاك قال له الأنبا يؤنس : « هل تأذت الشمعة الأولى لأنك أوقدت كل هذه الشموع منها ؟ وهل ضعف نورها ؟ » أجابه الشيخ : « كلا » قال القديس : « هكذا يؤنس لم يؤذيه سؤالك . وبالحقيقة لا حراج عليه إن جاءنى جميع رهبان شيهيت . لأن تجمعهم حولى يزيد فى تقربى من الله . فلا تتردد إذن فى المجئ إلىّ والاستفهام عن كل ما تبغيه » وهكذا استطاع يؤنس أن يكتسب الشيخ بصبره وأن يشفيه من النسيان . وهذا هو العمل الحق للرهبان : أنهم ينفحون القوة والعزيمة فى نفس كل من تجتاحه الأهواء أو يتعبه الضعف البشرى ، فأنهم بالصبر والجهاد يصلون - هم وغيرهم - إلى الخير والبر [1] .

٤٩٣ - ولم يمتز يؤنس القصير بالصبر والتواضع فحسب بل امتاز بمراعاته احساس الغير أيضًا . وتبدو هذه الصفة واضحة فى معاملته

---

(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص١٥٣ ف١٥ .

للراهب الذى كان يعمل دليلاً له ولاخوته وهم سائرون فى البرية . فقد حدث أن كان هو ورهبانه سائرين فى الصحراء وأمسى عليهم المساء ، وضل الدليل الطريق . فقال الاخوة ليؤنس : « إن استمررنا في السير فسنهلك لا محالة لأن دليلنا ضل الطريق فلا ندرى إلى أين ينتهى بنا المطاف » . فقال لهم القديس : « لا تصارحوه بأنه ضل لئلا يشعر بالخيبة والخجل . لذلك سأقول له أننى تعب ولا يمكننى مواصلة السير فنستريح حتى يطلع النهار » . ولما قال هذا أعلن بقية الاخوة أنهم سيبقون معه . فاستراح الجميع فى المكان الذى كانوا قد وصلوا إليه . ولما أصبح الصباح أدرك الدليل انه ضل فعاد بالجميع إلى الطريق الصحيح دون أن يعرف السبب الذى حدا بهم إلى الاستراحة فى الليل لأن يؤنس القصير لم يرد أن يجرح شعوره (١) .

٤٩٤ – ولقد طلب يؤنس إلى الله أن يرفع عنه شهواته فاستجاب الله دعاءه وعندها أحس هو بفرح لا مزيد عليه ، وارتاح باله . ولشدة فرحه ذهب إلى راهب شيخ معروف وأعلمه بحقيقة الأمر ثم قال : « ان نفسى الآن مستريحة لا قتال فى داخلها ولا قلق » . فابتسم الشيخ فى رزانة وقال له : «ارجع واطلب إلى الله أن يعيد إليك القتال والقلق لأن النفس لا تتقدم نحو الكمال المسيحى إلا عن طريقهما » . فأطاعه يؤنس . وكان – حين يتأجج القتال داخل نفسه – لا يدعو الله أن يرفعه عنه بل يستعين به تعالى قائلاً : « اللهم هبنى الصبر لاحتماله والقوة على مقاومته » (٢) .

٤٩٥ – ولقد غمر الآب السماوى يؤنس القصير بفيض من عنايته جزاء له على جهاده المتواصل فى سبيل الكمال المسيحى . فتجلت هذه العناية أمام أحد الرهبان ذات يوم إذ دخل عليه فوجده نائمًا ، ووجد عدداً من الملائكة يحيطون به ويرفرفون عليه بأجنحتهم ، وكل منهم يقول للآخر : « دعنى أرف بجناحى عليه » (٣) .

---

(١) شرحه ص١٧٦ – ١٧٧ .

(٢) « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ك١ ص٦١ ف٢١٤ .

(٣) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٧٤ .

٤٩٦ – ولقد كان يؤنس جديراً حقًا بهذه العناية الالهية لتواضعه الجم حتى لقد قال عنه أحد الرهبان : « أن يؤنس اجتذب قلوب الاخوة جميعًا فأحبوه . وكانوا جميعهم على استعداد لأن يعملوا كل ما يأمرهم به . فهو لفرط تواضعه تملك على القلوب (١) .

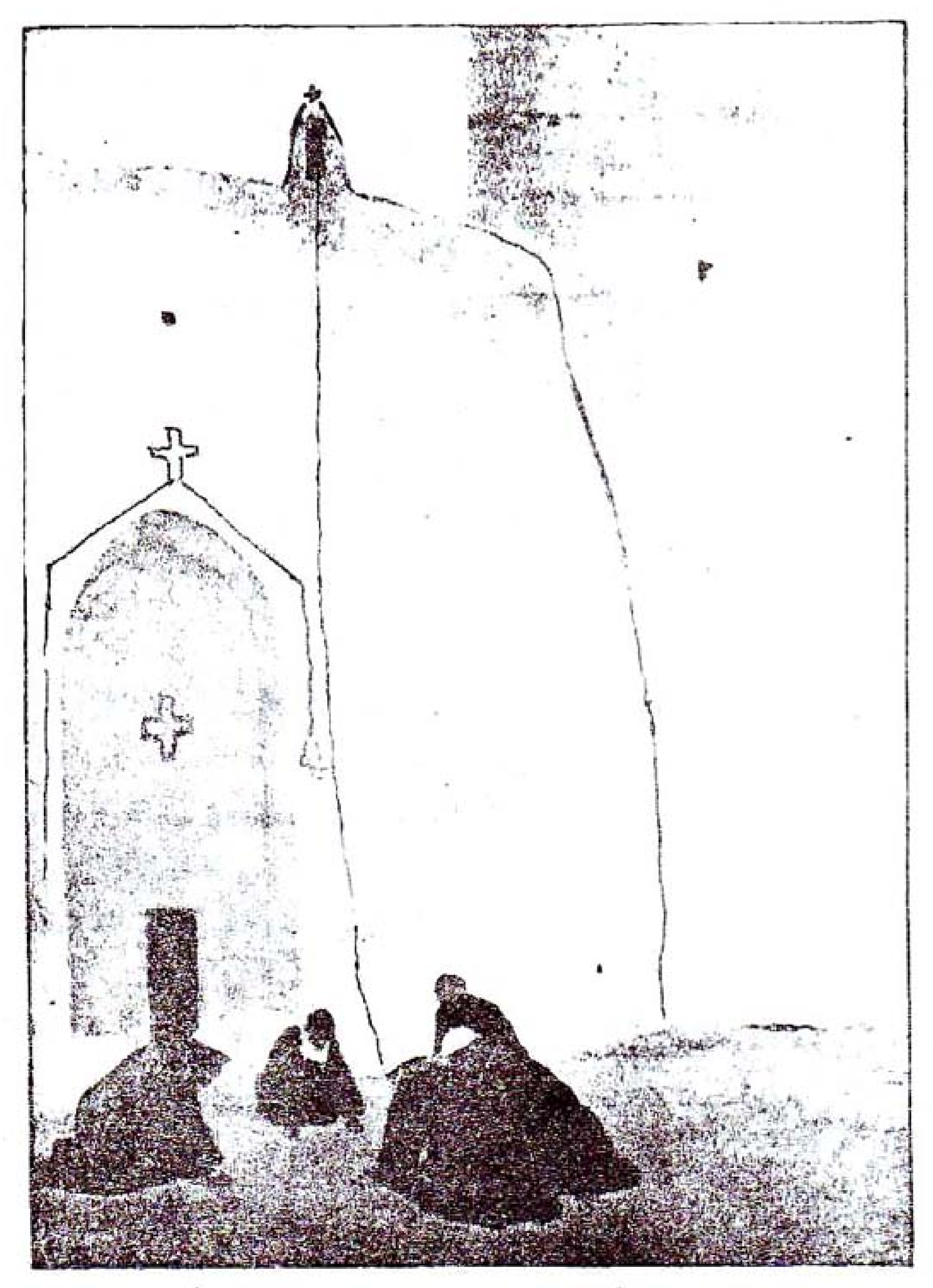
٤٩٧ – ولما أراد الله ان يريحه من متاعب هذه الحياة ظهر له القديسون الأنبا انطونى والأنبا مكارى الكبير والأنبا باخوم ، وأعلموه بأنه سيرحل إلى دار الخلد حيث يرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا على قلب خطر . وفى اليوم التالى لهذه الرؤيا رأى تلميذه روحه الطاهرة صاعدة إلى العلاء تحيط بها زمرة من ملائكة السماء (٢).

٤٩٨ – ولو جاز اتخاذ النجاح الذى يحرزه الانسان مقياسًا لقيمته الشخصية لكان للأنبا يؤنس مكانة خاصة بين القديسين ، لأن غالبية نظرائه كانوا يحسون بالسعادة تغمر نفوسهم حين ينجح الواحد منهم فى أن يشيّد ديراً ، أما الأنبا يؤنس فقد شيدت ثلاثة اديرة على اسمه : وأول هذه الأديرة هو ديره الذى بناه هو فى برية شيهيت . وكان أكبر الأديرة مساحة إذ كان سوره يحيط بستة عشر ألفًا من الأمتار المربعة . وفى وسط هذه المساحة الشاسعة قامت الكنيسة التى تسمى باسمه بعد نياحته . وعلى مقربة منها قامت كنيسة اخرى أصغر حجماً باسم مارجرجس . وهذه الكنيسة الثانية كانت ملاصقة لقصر الضيافة . أما القلالى فقد بنيت ملاصقة للسور – أى انها كانت تؤلف أربعة صفوف كل صف منها فى احدى الجهات الأصلية . وإلى جانب واحدة من القلايات قامت كنيسة صغيرة على اسم ايليا النبى جدد بناءها الأنبا يؤنس السادس (البابا الاسكندرى الـ٧٤) فى القرن الثانى عشر . وكان يعيش فى هذا الدير فى القرن الحادى عشر مئة وخمسون راهبًا ، ومئة وخمسة وستون فى القرن الثالث عشر . ولكن حين جاء الراهب دوبرونا إلى مصر سنة ١٧١٠م وقصد إلى الصحراء ليزور هذا الدير وجده

---

(١) « حكمة الآباء المصريين المسيحيين وفطنتهم » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ك١ ص١٥٣ فـ٥٠٨ .

(٢) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ١ ص١٧٥ – ١٧٦ .



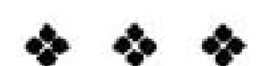
بعض الرهبان أمام باب ديرهم يودعون واحداً منهم

خرباً ، على انه وجد وسط الأطلال شجرة باسقة استخلص إلى انها شجرة الطاعة . أما الدير الثانى الذى كان يحمل اسم يؤنس القصير فهو الدير الذى يقع شرقى طرة . وقد أطلق على هذا الدير اسم دير البغل فى وقت ما ، لأنه كان للرهبان بغل ، وكانوا يضعون القرب على ظهره فينزل إلى النيل ويملأها ثم يعود . ولما كان هذا الدير قريباً من القاهرة ، وكان موقعه جميلاً وهواؤه عليلاً ، فقد كان يقصد إليه الكثيرون من الأمراء والوزراء حتى لقد تغنى به الشعراء ، وبطيب الاقامة فيه . ولم يبق من هذا الدير الآن سوى بعض الأعمدة المتساقطة وبعض الأحجار المنقوشة . وهناك دير ثالث يقع فى أنصنا (بالقرب من ملوى) حتى أن البلدة التى يقوم فيها هذا الدير أصبحت الآن تعرف باسم « أبو حنس » . وقد شاد الأنبا يؤنس القصير هذا الدير أيام أن ترك شيهيت وقصد إلى الصعيد لتعليم المؤمنين وتثبيتهم . ومع أن هذا الدير قد خرب شأنه فى ذلك شأن الديرين الآخرين اللذين يحملان اسمه ، إلا أن الكنيسة الكبرى التى كانت تتوسطه لاتزال زاهرة بحمد الله . وفى وقت ما كان يقع خارج مدينة انصنا دير آخر يحمل اسم هذا القديس ويعرف بدير النعناع لكثرة هذا النبات فى منطقته .

أما الكنائس التى كانت تعرف باسم الأنبا يؤنس القصير فقد بلغ عددها ستة عشر كنيسة اندثرت جميعها ولم يبق منها غير كنيسة الدير الذى كان فى مدينة أنصنا . وهذه الكنيسة واسعة للغاية تتسع لمئات المصلين مما يثبت أن الرهبان الذين كانوا يجتمعون فيها للصلاة كانوا كثيرى العدد . ويبدو أن جدرانها كانت مزينة بالصور فى القرون الأولى إذ لا تزال آثار باهتة ضئيلة تنبئ بذلك حتى الآن . أما الأعمدة – وعددها عشرون – فهى مصنوعة على شكل النخيل يحلى السعف أعلاها . وعلى مقربة من مدخل الكنيسة لوحة من الرخام الأبيض نقشت عليها عبارات قبطية ترجمتها : « كل عمر الانسان مثل دخان ، وكل اهتمام مجده ظل زائل . وأعمال الرب غير مستقصاة ، وأحكامه عادلة للذين يتقونه : عندما حل الزمان لأن أترك الجسد (أموت) جاءنى هذا الأمر فقبلته إذ قد رجعت إلى الأرض مثل آبائى . اذكرونى أنا التاعسة فبرونيا لكى يرحمنى الرب » . وتنيحت فى بابه سنة ٦٢٧ ش (٩١٠م) . كذلك تحوى الكنيسة كتباً مخطوطة مزينة بالأيقونات تمثل

احداها الأنبا مكارى الكبير . أما الأوانى المقدسة التى لاتزال مستعملة للآن فقد أهداها إلى الكنيسة الأنبا ديمتريوس الثانى (البابا الاسكندرى الـ ١١١) ، وهى تحمل اسمه والسنة التى قدمها فيها وهى سنة ١٥٨٢ش (سنة ١٨٦٦م) . وعلى الضفة الأخرى من النيل ، ومقابل هذه الكنيسة تقع كنيسة محفورة فى الصخر يحيط بها عدد وفير من القلالى المنحوتة فى الصخر أيضًا . وعدد القلالى وسعتها شاهد ساطع على شغف المصريين بالحياة النسكية ومنذ عهد غير بعيد قام العلامة أحمد كمال بحفريات فى المنطقة فعثر على بئر عمقه خمسة وخمسون قدماً وقطره ثلاثة أمتار . وقد وجد فى قاع البئر - بعد عمل دام سبعين يوماً - تابوتاً يحوى جثمان قسيس ، تحيط به أقمشة وزخارف تبلغ قيمتها ألف جنيه . وإلى جانبه مائدة مربعة من القماش عليها حمامة وفطيرة وفاكهة شبيهة بالخيار . وقد ظن أحمد كمال فى بادئ الأمر أن هذه الأشياء طبيعية فإذا به يجدها مصنوعة من القماش ، ولكن دقة صنعها صورها حقيقة واقعة [1] .

وإن كل هذه الآثار التى تحمل اسم الأنبا يؤنس القصير لتشهد بأنه كان ضمن القادة الروحيين الذين استطاعوا - بما قدموه من قدوة - أن يمكنوا اخوتهم البشر من أن يلمحوا على هذه الأرض قبسًا من فردوس النعيم فيسعون بدورهم لنوال هذا النعيم الأبدى الذى أعده الله لمختاريه .

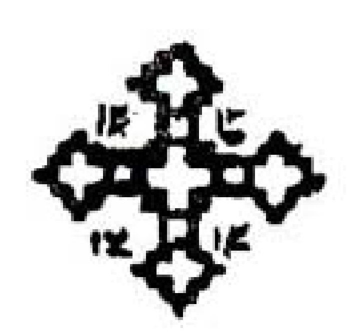


(١) كتاب : تاريخ القديس الأنبا يؤنس القصير ومنطقة أنصنا : (انتينويه) للقمص ميصائيل بحر راعى كنيسة دير أبو حنس - ملوى ص٣١ - ٤٧ ، ٧٣ - ٨٧ .

بفنوتى

(٤٩٩) أحد تلاميذ الأنبا يؤنس القصير وكاتب سير الرهبان .

٤٩٩ - كان بفنوتى واحداً ضمن المئات الذين تتلمذوا للأنبا يؤنس القصير . وبعد أن قضى السنين الطويلة يجاهد الجهاد الروحى بلا ملل ولا فتور أوحى إليه ملاك الرب أن يكتب سيَر أباء الصحراء . فأطاع الوحى الالهى ، وأخذ يتنقل فى الصحارى ويتوغل فى فيافيها ، فقابل عدداً وفيراً من الآباء وجلس إلى جانبهم يسألهم عن سيرتهم وتاريخ حياتهم . ثم كتب سيَرهم لينتفع بها المؤمنون فى كافة البلاد وعلى ممر العصور . ولقد روى بفنوتى ما شاهده من الأمور العجيبة ، فوصف كيف كان هؤلاء النساك يقاتلون شهواتهم وأهواءهم ، وكيف كانت الشياطين تشن عليهم الحرب ، وكيف أنهم كانوا ينتصرون بنعمة الله الفائضة عليهم . وكانت انتصاراتهم باهرة حتى خالطتهم الملائكة كما خضعت لهم الوحوش الكاسرة وخدمتهم خدمة العبد للسيد (١) .



(١) « السنكسار الأثيوبى » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٢ ص٦٣٣ - ٦٣٤ .

ضيوف من بلاد نائية

١- بلاديوس

(٥٠٠) وصول بلاديوس إلى الاسكندرية ومقابلته لايسيذورس.
(٥٠١) تنقله بين الأديرة المتاخمة للاسكندرية.
(٥٠٢) توغله فى البرية الداخلية ثم ارتحاله إلى الصعيد.
(٥٠٣) زيارته ليوحنا فى ليكوس.
(٥٠٤) ارتحاله إلى فلسطين.
(٥٠٥) نيله الكرامة الأسقفية.
(٥٠٦) اضطراره إلى الاختباء لكونه من أنصار ذهبى الفم.
(٥٠٧) عودته إلى بيثينية وكتابته سير الآباء المصريين.

٥٠٠- فى سنة ٣٨٨م ، وفى عهد قنصلية ثيئودوسيوس الكبير وفد على الاسكندرية ضيف هو بلاديوس الذى كتب فيما بعد تاريخاً ضمنه سير آباء الصحراء الذين اعتز بصحبتهم ونال بركتهم وحين وصل إلى الاسكندرية أسعده الحظ بلقاء ايسيذورس المشرف على المستشفى الخاضع لكنيسة الاسكندرية . فأشار عليه بأن يقصد إلى وادى النطرون ويعيش هناك تحت رعاية دورثيئوس الناسك المعروف ، وأن يقضى فى صحبته ثلاث سنين ليتجمل بمختلف الفضائل المسيحية ويقتبس منه ميزته الروحانية (١) . فسمع النصح وقصد إلى حيث يعيش هذا الراهب الجليل ، ولكن ضعفه الجسمى لم يمكنه من أن يحيا الحياة النسكية التى يقضيها دوروثيئوس . فاضطر إلى أن يعود إلى صديقه ايسيذورس الذى اعتنى به وأعطاه الأدوية اللازمة حتى عادت إليه صحته الجسمانية . وفى تلك الفترة أتاح له الحظ السعيد أن يتعرف إلى ديديموس ضرير الاسكندرية البصير ومدير مدرستها ، فقال عنه أنه كان متضلعاً من الأسفار الإلهية وراسخاً فى الايمان الأرثوذكسى القويم (٢) .

---

(١) راجع ف٤٤٢ - ٤٤٤ .

(٢) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج المقدمة ص١٦ .

٥٠١- وقد قضى بلاديوس سنين ثلاثاً تنقل أثناءها فى الأديرة المتاخمة للاسكندرية فقال . « إن هذه الأديرة كانت تضم بين جوانبها من النساك الراسخين فى الايمان ألفى نسمة » .

٥٠٢- ولما انقضت هذه السنوات الثلاث قصد إلى وادى النطرون ، ومن هناك توغل فى البرية الداخلية حيث عاش تسع سنين قابل فى غضونها اكبر النساك والآباء . ثم اتجه بعد ذلك إلى الجنوب فتنقل فى اعالى الصعيد . وفى أتريب زار ديراً للعذارى أسسه رجل مسيحى غنى يدعى ايليا . وبعدها زار أديرة العظيم الأنبا باخوم فى تابينسى ، ووصف النظام الباخومى وصفًا تفصيليًا . ووجد فى أنصنا (ملوى) اثنى عشر ديراً للراهبات . ولقد امتلأ اعجاباً بما رآه فى كل هذه الأديرة فصمم على أن يقصد إلى ليكوس التى كان يسكنها يؤنس الناسك المتوحد على الرغم من ان الرهبان أنذروه بأن الرحلة إلى ليكوس ستستغرق ثمانية عشر يوماً فى أرض معظمها قاحل .

٥٠٣- وأخيراً - وبعد عناء السفر وما فيه من اخطار طيلة هذه الأيام - وصل إلى ليكوس حيث التقى بيؤنس فقال : « بسمع الأذن سمعت والآن رأت عيناى » ودهش بلاديوس عندما لاحظ أن يؤنس يقرأ كل ما يجول فى فكره إذ قد صارحه بقوله : « إن حياة الصحراء لا تروقك ، ولكنك تخشى مغادرة الصحراء كى لا تلام » . ثم تنبأ بانه سينال رتبة الأسقفية فى مستقبل الأيام فاستعظم بلاديوس ما سمع لأنه كان يعد نفسه غير أهل لأن ينال هذه الكرامة المقدسة . غير أن يؤنس أكد له ما تنبأ به (١) .

٥٠٤- وحدث بعد مضى ثلاث سنين على هذه الزيارة أن أصيب بلاديوس بمرض كلوى معوى اضطره إلى أن يعود للاسكندرية - إلى صديقه ايسيذورس ليستشفى عنده . فأشار عليه بالرحيل إلى فلسطين حيث الجبال المرتفعة التى تتوافر فيها نقاوة الهواء . فعمل باشارته ورحل إلى فلسطين حيث سكن فى مغارة فى بيت لحم مع ناسك مصرى من أهالى طيبة . وهناك التقى بايرونيموس (جيروم) . ولم يمض على اختلاط

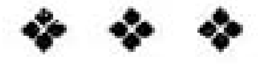
(١) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للمنسنيور پول دورليان جـ١ ص٤١٨ - ٤٣١ ، مجلة الآثار القبطية العدد السادس (١٩٤٠) ص١٥٢ - ١٥٠ .

بلاديوس بايرونيموس غير وقت وجيز حتى قال عنه : « أنه عالم فصيح ، ولكن علمه مشوب بالحسد والعين الشريرة » (١) . ومقابل ذمه لايرونيموس فإن بلاديوس أثنى الثناء المستطاب على روفينوس وميلانيا اللذين توثقت عرى الصداقة بينه وبينهما فعادوا معاً إلى مصر (٢) .

٥٠٥- وبعد أن زار بلاديوس مصر وفلسطين زيارات متكررة عرج على بيثنيه (بآسيا الصغرى) حيث نال الكرامة الأسقفية التى تنبأ له بها يؤنس الناسك ساكن ليكوس . وقد وصف بلاديوس رسامته هذه بقوله « لست أدرى لماذا نلت هذه الكرامة العظمى : أهى مراحم الله أم محبة البشر ، ولكن الذى أعرفه هو أنى غير أهل لها » (٣) .

٥٠٦- وحوالى سنة ٤٠٠م قصد بلاديوس إلى القسطنطينية حيث حضر المجمع الذى انعقد فى البلوطة (خارج القسطنطينية) وحكم بخلع ذهبى الفم . وكان بلاديوس من المعجبين بهذا الحبر الكبير . فلما أعيد الحكم عليه للمرة الثانية اضطر بلاديوس مع غيره من الساخطين على هذا الحكم إلى الفرار من القسطنطينية . والأرجح أن بلاديوس فى تلك الآونة قد اختبأ فى احدى المغاور خارج أريحا بفلسطين . ولما فترت ثورة الغضب الامبراطورى رحل بلاديوس إلى رومية . ومنها عاد إلى القسطنطينية . ولكنه اضطر مرة أخرى أن يهجرها ويرحل إلى مصر لأن القابضين على زمام الحكم فى القسطنطينية قد عادوا وأعلنوا سخطهم على مناصرى ذهبى الفم .

٥٠٧- ولم تطل هجرته فى مصر إذ قد غادرها ورحل إلى غلاطية مسقط راسه حوالى سنة ٤١٢م . وهناك عكف على الكتابة فسجل تاريخ آباء الصحارى المصرية الذين قضى فترة من حياته فى صحبتهم . وهذا السجل ينطق بما كان يكنه بلاديوس لهؤلاء النساك من حب واعجاب .



(١) « بستان الآباء القديسين » ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج المقدمة ص٢٠ ، جـ١ ص١٧٤ .

(٢) شرحه جـ١ ص١٥٩ .

(٣) شرحه المقدمة ص٢١ ، جـ١ ص١٧٢ .

ب- ايرونيموس

(٥٠٨) اضطرام قلب ايرونيموس بنار روحية أوقدتها سيرة الأنبا أنطونى .
(٥٠٩) زيارة ايرونيموس لمصر وفلسطين .
(٥١٠) ترجمته العهد القديم .
(٥١١) خصومته لروفينوس .
(٥١٢) اعجاب ايرونيموس بديديموس .
(٥١٣) فيض انفعالاته لذكرى الآباء المصريين .

٥٠٨- بينما كان بلاديوس يتنقل فى البلاد التى تباركت بحلول السيد المسيح فى وسطها ، كان ايرونيموس بدوره آخذاً فى التنقل بين ربوعها . فتقابل الاثنان فى بيت لحم . وكان ايرونيموس يريد أن يطوف حول الصحارى المصرية قبل ذلك التاريخ غير أن ما عراه من مرض فى الطريق قد اضطره إلى البقاء فى مارونيا القائمة خارج أنطاكية . وقد أقام ايرونيموس أثناء مرضه فى منزل ايفاجريوس الأسقف الذى كان منشغلاً إذ ذاك بنقل ترجمة الأنبا أنطونى من اليونانية (التى كتبها بها الأنبا أثناسيوس الرسولى) إلى اللغة اللاتينية . ولقد أضرمت ترجمة أبى الرهبان فى قلب ايرونيموس ناراً روحية لم تقو فصاحة شيشرون على اخمادها (١) .

٥٠٩- وبينما كان ايرونيموس فى دور النقاهة عرف أن روفينوس قد وصل إلى الصحارى المصرية حيث حظى بمقابلة الأنبا مكارى الكبير فما أن أبلى من مرضه حتى بادر إلى تحقيق رغبته الملحة فى زيارة النساك المصريين . وبعد أن تبارك بزيارتهم ذهب إلى فلسطين .

٥١٠- وفى أيام عزلته ببيت لحم تعلم اللغة العبرية فخطر فى باله أن يشغل وقته بنقل أسفار العهد القديم من هذه اللغة العبرية إلى اللاتينية .

٥١١- وفى الفترة التى قضاها فى بيت لحم انفصمت بينه وبين

(١) شيشرون هو أخطب الخطباء الرومان ، وكان ايرونيموس متشاغلاً بقراءته أثناء مرضه إلى أن اطلع على ترجمة الأنبا أنطونى ، راجع « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٣٦ .

روفينوس عروة الصداقة التى كانت تربط بينهما . ولم تكن الخصومة التى حلت بينهما بعد صداقتهما مجرد خصومة ناجمة عن الاختلاف حول التعاليم الأوريجانية ، ولكنها كانت الخلاصة لأعاصير التحاسد العلمى بينهما [1] كما أنها كانت الستار الذى أراد ايرونيموس أن يخفى وراءه ما اقترفه من ذنب فى حق أوريجانوس . ذلك أن ابيفانيوس اسقف سلامين بقبرص هاجم العلامة المصرى ، ثم ذيل هجومه بالحرم . وبعث بما كتبه إلى ايرونيموس ليوقع عليه فوقع عليه بالفعل بينما رفض روفينوس التوقيع . وهنا تأججت نار الحنق داخل ايرونيموس : الحنق على أنه وقع ممتزجًا بالحنق على أن روفينوس لم يوقع . وبدافع هذه النار المتأججة داخله أراد أن يثبت للملأ أنه على صواب وأن روفينوس على خطأ . فقام بحملة شعواء على أوريجانوس وبالتالى على ديديموس لأنه من محبى أوريجانوس ومريديه والمنادين بأرثوذكسية تعاليمه .

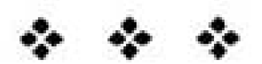
٥١٢- ولم يكن روفينوس مصارعاً يستسيغ الضرب والطعان ، ولم يكن ساخراً مستهيناً بالغير ، فاكتفى بأن رد الهجمات الأولى التى شنها ايرونيموس عليه وعلى أوريجانوس وديديموس ، ولكنه لم يلبث أن صمت تاركًا خصمه يهدر ما شاء له الهدير . فلم يسع ايرونيموس بازاء هذا الصمت إلا أن يكف عن هجماته . وظل صامتًا حوالى خمس سنين زعم بعدها أن الناس قد نسوا حملاته الشعواء على البطلين المصريين فأخذ يترجم كتاب ديديموس عن « الروح القدس » امتدح فى مقدمته كلاً من ديديموس ومعلمه أوريجانوس ، وكذلك قال فى تلك المقدمة ما ترجمته : «إن فلسفة أوغسطينوس ومعلمه أمبروزيوس أسقف ميلانو ، إنما هى مستقاة من تعاليم هذين المعلمين المصريين» .

٥١٣- وبعد سنين طويلة أخذ ايرونيموس يحصى ما ألف من كتب ويرتبها حسب أهميتها ، فوضع فى المقام الأول كتابه عن الأنبا بولا أول النساك المتوحدين المصريين . وبعد صمت طويل عاد ليكتب سيرة ملخوس أحد النساك المتعبدين فى الصحارى المصرية - وكان قد سمعها قبل ذلك

---

(١) « أباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٥٧ - ٥٨ .

بسنين . فقال فى مقدمتها : « هذه ترجمة ملخوس الذى كان شيخًا حين رواها لى يوم أن كنت شابًا . وها أنا أرويها الآن وقد أصبحت شيخًا . فاحفظوها واسردوها على الأجيال الآتية . وليحدث سلف منكم خلف . وقولوا للشباب » إن السيوف والصحارى والوحوش الكاسرة لم تستطع أن تقيد النفس الحرة ، وأنها قد تفتك بالمؤمن الراسخ فى ايمانه فتجرعه كأس المنون . ولكنها لا تستطيع بحال ما أن تقهر روحه » (١) .



جـ - كاسيانوس

(٥١٤) تعطشه الروحى جاء به إلى مصر .
(٥١٥) تأسيسه ديرين فى ضواحى مرسيليا على نمط الأديرة المصرية .
(٥١٦) اعجابه بالنساك المصريين لامتزاج صلواتهم بالعمل اليدوى .
(٥١٧) الرهبان المصريون قريبون من السماء .
(٥١٨) كرم الرهبان المصريون وعطفهم الشامل .

٥١٤ –وثمة ضيف ثالث جاء إلى مصر فى تلك الحقبة هو كاسيانوس– جاء أيضًا إلى وادينا الحبيب بدافع التعطش الروحى الذى جعل منه ومن معاصريه حجاجاً قصدوا إلى مصر وارتادوا فيافيها وطافوا فى أرجائها لينالوا بركة من هذه البقاع التى تقدست بأنفاس أصفياء الله . ولقد قضى كاسيانوس فى بلادنا العزيزة السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع ، قابل خلالها عدداً غير قليل من الآباء المصريين .

ولا يعرف حتى الآن مسقط رأس كاسيانوس بالضبط . وليس يهمنا فى كثير أو قليل أن نعرف أين ولد لأن هذا حدث تافه فى حد ذاته ، ولكن الذى يهمنا هو أنه بعد أن زار آباء الصحارى المصرية جلس إلى نفسه يتأمل حياتهم

---

(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص٣٨ – ٣٩ .

وأحس بحنين عميق إليهم . وبدافع هذا الحنين إلى الآباء المصريين امسك بقلمه وكتب سيَرهم أبرز فيها ما امتازوا به من روحانية عجيبة .

ولقد جاء كاسيانوس إلى مصر مرتين . فلما انتهى من الزيارة الثانية قصد إلى القسطنطينية حيث رسمه يوحنا ذهبى الفم قسيسًا . وكان كاسيانوس ضمن المعجبين بهذا الحبر العظيم المناصرين له .

٥١٥– ولم يكتف كاسيانوس بالكتابة عن آباء مصر بل دفعه اعجابه بهم إلى أن يؤسس فى جنوبى فرنسا ديرين عرف أحدهما باسم سان فيكتور وثانيهما باسم ليران . وبعد مضى سنين عاوده الحنين إلى الآباء المصريين . ورأى صديقه أسقف ابت هذا الحنين باديًا عليه ، فرجا منه أن يكتب سيَر هؤلاء القديسين . على أن كاسيانوس تردد بعض الشئ قبل البدء فى الكتابة عن النساك المصريين إذ أحس بأن اختباراته من القدسية بحيث لا يستطيع التعبير عنها تعبيرًا وافيًا . ولكن حنينه غلبه وبدد تردده وملأه رغبة فى الكتابة . وهكذا أعطى للعالم صورًا أخاذة لما سمعه ورآه فى صحراء مصر (١) . وكان كاسيانوس يهدف من نشر سيَر القديسين ومن تأسيس الديرين أن ينشر فى الغرب مبادئ الرهبنة المصرية فصورها فى صورة رائعة بينت نواحى العظمة فيها .

٥١٦– وقد أثار اعجاب كاسيانوس ما شاهده من انشغال الرهبان المصريين بالعمل اليدوى إلى جانب الروحيات العميقة وذلك أسوة ببولس الرسول وتنفيذًا لتعاليم الأنبا انطونى والأنبا باخوم . وكان بعض السفسطائيين قد زعموا أنه ليس للراهب أن يشتغل بغير الصلاة . فبين لهم كاسيانوس ما هم فيه من خطأ ، وأوضح لهم التعاليم المصرية التى تؤدى إلى أن العمل اليدوى لازم ، لحفظ التوازن العقلى . وكان وصفه لهذه التعاليم غاية فى الروعة إذ قال : « إن القديس بولس كان طبيبًا روحيًا ماهرًا شغل نفسه بصنع الخيام لكى يحول دون ما يعروه من ملل نفسى . وقد سار على هذا المنوال آباء مصر الحكماء فعلموا من تتلمذ لهم أن يشتغل بالعمل اليدوى لا لسد حاجاتهم فحسب بل لاكرام الغرباء واعانة الفقراء والمسجونين أيضًا .

---

(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص ٢٢٧ .

وقد أضاف هؤلاء المصريون إلى هذا التعليم قولهم لتلاميذهم أن الراهب المشتغل بيديه لا يهاجمه غير شيطان واحد ، أما الراهب الذى لا يعمل بيديه فتهاجمه جحافل الشياطين . كما أن العمل اليدوى يعاون الراهب على تحمل مشاق الحياة الصحراوية ويحول دون ما قد يصيبه من ملل » (١) .

٥١٧- ومن أروع ما رواه كاسيانوس عن رهبان مصر قوله : « إن الحياة النسكية التى يحياها الرهبان المصريون هى أقرب شبهًا بالحياة السمائية . وقد استرعانى على الأخص رهبان منطقة (أوكسى رينكوس) (٢) فقد كان رهبانها البالغ عددهم عشرة آلاف راهب . وراهباتها البالغ عددهن عشرين ألفًا ، لا ينقطعون عن تسبيح الآب السماوى ليل نهار . ولم يكن غريب أو فقير ليمر فى المنطقة إلا غمروه بكرمهم ومحبتهم » .

٥١٨- وفى أحد الأيام سأل كاسيانوس راهبًا مصريًا عن السبب فى امتناع الرهبان من الصوم إذا ما استقبلوا ضيفاً فى حين أن رهبان فلسطين يصرون على الصوم حتى حين يمر بهم ضيوف ؟ فأجابه الراهب المصرى على الفور : « إن الصوم فى استطاعتى كل لحظة ولكنى حين استقبل زائراً أستقبل المسيح له المجد فى شخصه . وقد أوصانا رب المجد بأن لا نصوم والعريس قائم بيننا . واقامتك بيننا لن تدوم إلا بضعة أيام فإذا ما غادرتنا وعدت إلى بلادك استطعنا أن نصوم قدر الامكان » (٣) .

وقد كان لهذا الكرم المصرى العجيب والعطف الشامل من الأثر فى نفس كاسيانوس ما جعله يشيد به بعد مضى عشرين سنة على مغادرته مصر وكان لمؤلفاته من الأثر العظيم فى الأقطار الغربية ما جعل أهل الغرب يمتلئون أعجاباً بعظمة الحياة النسكية المصرية .



(١) « آباء الصحراء » ترجمته إلى الانجليزية هيلين وادل ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) وهى مدينة البهنسة الآن بالقرب من بنى سويف .

(٣) شرحه ص١٦٠ .

عمود الدين

(٥١٩) الاجماع على انتخاب كيرلس رغم تهديد الوالى .
(٥٢٠) مميزاته واتمام رسامته .
(٥٢١) نقضه مقالات يوليانوس الجاحد .
(٥٢٢) عقده المجمع والفاؤه الحكم ضد ذهبى الفم .
(٥٢٣) ظهور بدعة نسطوريوس .
(٥٢٤) كيرلس مهيأ من العناية الالهية لحفظ الايمان .
(٥٢٥) رسالتا الأنبا كيرلس .
(٥٢٦) انتشار رسالته الفصحية وبعض ما جاء فى رسالته إلى الرهبان .
(٥٢٧) رد نسطوريوس ورسالة كيرلس إليه .
(٥٢٨) رسالة ثانية من كيرلس إلى نسطوريوس .
(٥٢٩) رسل الأنبا كيرلس يفشلون فى مقابلة نسطوريوس .
(٥٣٠) عقد مجمع اسكندرى ووضع مقدمة قانون الايمان .
(٥٣١) سفراء الأنبا كيرلس فى القسطنطينية يطلعونه على مجريات الحوادث .
(٥٣٢) رسالة الأنبا كيرلس إلى أسقف رومية .
(٥٣٣) الأسقف الرومانى يعقد مجمعه ويرد على الأنبا كيرلس .
(٥٣٤) الحكم فى الكنيسة للجماعة لا للفرد .
(٥٣٥) رسائل الأنبا كيرلس إلى الامبراطور والى زوجته والى اخوته .
(٥٣٦) رسائله إلى أساقفة أورشليم وأنطاكية وحلب ورد الأخير عليه .
(٥٣٧) عقد المجمع الاسكندرى ثانية واقراره الايمان .
(٥٣٨) تذييل الايمان المجمعى باثنى عشر حرمًا .
(٥٣٩) نسطوريوس يستثير الامبراطور ويوحنا الأنطاكى ضد الأنبا كيرلس .
(٥٤٠) الأنطاكى وبعض الأساقفة يؤلفون جبهة ضد الكنيسة الاسكندرية .
(٥٤١) كلمة « ثيئوتوكوس » لواء الأرثوذكسية .
(٥٤٢) الاتفاق الاجماعى على عقد مجمع مسكونى .
(٥٤٣) خطاب امبراطورى خاص للأنبا كيرلس .
(٥٤٤) احتكام كنيسة افريقيا إليه .
(٥٤٥) الأنبا كيرلس يجمع سلطة ثلاث كنائس فى شخصه .

(٥٤٦) سفره إلى أفسس .
(٥٤٧) استصحابه خمسين أسقفا .
(٥٤٨) أسقف أفسس مصرى الأصل .
(٥٤٩) رسل أسقف رومية يحملون توصيته .
(٥٥٠) مائتا أسقف يجتمعون فى أفسس .
(٥٥١) نسطوريوس ومشايعوه يناوئون المجمع .
(٥٥٢) تأخر الأنطاكى وبدء المجمع جلساته .
(٥٥٣) كنديديانوس يحاول تعطيل المجمع .
(٥٥٤) انعقاد مجمع أفسس فى كنيسة أم الله .
(٥٥٥) رفض نسطوريوس دعوة المجمع.
(٥٥٦) المجمع يبدأ جلساته بقراءة دستور الايمان النيقى .
(٥٥٧) اعجاب المجمع بالأنبا كيرلس .
(٥٥٨) وصول رسول أسقف قرطاجة (تونس) .
(٥٥٩) المجمع يستمع لأسقفين من أصدقاء نسطوريوس .
(٥٦٠) تجمهر شعب أفسس خارج الكنيسة .
(٥٦١) المحبة الوثيقة بين الأنبا كيرلس وشعبه .
(٥٦٢) أنصار نسطوريوس يبعثون بتقارير مزيفة للامبراطور .
(٥٦٣) الأنبا كيرلس يكتب خطابين إلى كهنة القسطنطينية وشعبها .
(٥٦٤) ويلقى خطابين فى كنيسة السيدة العذراء أم الله .
(٥٦٥) كنديديانوس يشتكى كيرلس وممنون للامبراطور .
(٥٦٦) وصول يوحنا الأنطاكى إلى أفسس .
(٥٦٧) عقده مجمعا مزيفا يقرر خلع كيرلس وممنون .
(٥٦٨) خصوم المجمع يقطعون الطريق على خطاباته للامبراطور .
(٥٦٩) وصول مندوبى رومية وتلاوة رسالة سلستينوس .
(٥٧٠) المجمع ينبئ الامبراطور بتوقيع الفريين على حرم نسطوريوس .
(٥٧١) خطاب المجمع إلى اكليروس القسطنطينية وشعبها .
(٥٧٢) البابا كيرلس والأسقف ممنون يطالبان بفحص القرار الصادر ضدهما من الأنطاكى وصحبه .
(٥٧٣) أسقف أورشليم يعلن خطأ يوحنا .
(٥٧٤) تصريح أكاكيوس أسقف ميليتين .
(٥٧٥) قرار المجمع الأفسسى ضد يوحنا وأنصاره .

(٥٧٦) المجمع الأفسسي يؤيد الايمان النيقي في جلسته السادسة .

(٥٧٧) تنظيمه لكنيسة قبرص ووضعه قوانين ستة .

(٥٧٨) ايريناوس يقابل الامبراطور يوهمه بخلع كيرلس وممنون مع نسطوريوس .

(٥٧٩) تشويه الأنطاكي وأعوانه سمعة كيرلس .

(٥٨٠) المجمع يبلغ الامبراطور ما لاقاه الآباء من معاملة قاسية .

(٥٨١) خطاب الأنبا كيرلس إلى كهنة القسطنطينية وشعبها .

(٥٨٢) كيرلس يكاتب سفراءه في القسطنطينية .

(٥٨٣) رسالة المجمع إلى اكليروس القسطنطينية وشعبها .

(٥٨٤) رسائل كيرلس والمجمع الأفسسي يحملها أرثوذكسي متنكر في زي شحاذ داخل عصا مفرغة .

(٥٨٥) يوحنا الأنطاكي ومجمعه يبعثون بخطابين .

(٥٨٦) الأنبا كيرلس يستهدف لخطر الموت .

(٥٨٧) المتوحد دلاتيوس يتسلم رسائل الأرثوذكسيين ويوصلها إلى الامبراطور بنفسه .

(٥٨٨) الامبراطور يدعو الطرفين لارسال مندوبيهم إلى القسطنطينية .

(٥٨٩) الامبراطور يصادق على حرم نسطوريوس ويفرج عن الأنبا كيرلس والأسقف ممنون .

(٥٩٠) رسامة مكسيميانوس أسقفا على القسطنطينية وخطابه إلى الأنبا كيرلس .

(٥٩١) رسالة كسنسوس أسقف رومية إلى البابا كيرلس .

(٥٩٢) الأنطاكي يمعن في مناوئة الأنبا كيرلس .

(٥٩٣) الامبراطور ينتدب أريستولوس لتحقيق الصلح .

(٥٩٤) مندوبا الأنبا كيرلس يقابلان يوحنا الأنطاكي .

(٥٩٥) الأنطاكي ينتدب بولس أسقف حمص ليكون رسوله عند كيرلس .

(٥٩٦) فرح الأنبا كيرلس بمصالحة الأنطاكيين .

(٥٩٧) رسالة من يوحنا الأنطاكي وأخرى من أسقف رومية لكيرلس.

(٥٩٨) الأنبا كيرلس يرفض الخوض في الحديث عن رجل ميت .

(٥٩٩) جهاد الأنبا كيرلس لرأب الصدع بين الكنائس .

(٦٠٠) تدوينه قداس مارمرقس الانجيلي .

(٦٠١) ميامره ورسائله الفصحية .
(٦٠٢) كتابته عن الكهنوت وتفسيره لجميع أسفار العهدين الجديد والقديم .
(٦٠٣) تقدير الأفراد والجماعات للبابا كيرلس .
(٦٠٤) شخصيته النادرة .
(٦٠٥) انتقاله إلى بيعة الأبكار

٥١٩- فى سنة ٤٠٤م خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا ثيئوفيلس إلى الأخدار السماوية . فاتجهت الأنظار جميعها إلى القس كيرلس ابن شقيقته . وعبثًا حاول الوالى أبوداكس أن يثنى الشعب عن انتخابه ، وعبثًا هددهم . لأنهم لم يخضعوا ولم يرهبوا لكونهم متأكدين من أن كيرلس هو الشخص الوحيد الذى لا يرتضون عنه بديلاً إذ راوا ان اللّه تعالى قد حباه ميزات نادرة من ذكاء متوقد ، ونظرة خاطفة بعيدة الغور فى آن واحد ، وصوت عذب خلاب يجتذب قلوب السامعين ، وعزيمة صادقة ، وايمان راسخ رسوخ الطود الشامخ وقد تتوجت هذه الصفات بالتقوى الخالصة . ومع أنه كان حليمًا واسع الصدر إلا انه كان حاداً كالسيف مع المبتدعين (الهراطقة) (١) .

٥٢٠- وكان ثيئوفيلس (البابا الراحل) قد تعهد كيرلس ابن شقيقته بعنايته الخاصة فأرسله وهو بعد فتى إلى برية شيهيت حيث تلقن الحكمة الالهية عن الأنبا سرابيون الذى عده الرهبان جديراً بأن يخلف الأنبا مكارى الكبير فى رياسة الدير . وكان اشتياق كيرلس إلى المعرفة كاشتياق الايل إلى مجارى المياه (٢) فاستوعبها بسرعة البرق . وقد حباه اللّه ذاكرة واعية مكنته من أن يستظهر كل ما يقراه . وفوق هذا كله فقد كان ذا طبيعة أشبه بالبركان الثائر لا يهدأ ولا يستكن ، فلما اتم ما وعاه صدر سرابيون عاد إلى الاسكندرية حيث رسمه خاله قسيسًا . وكان - إذا ما وقف يرتل الانجيل - تمنى المؤمنون أن لا ينتهى من القراءة لرخامة صوته (٣) . وبعد أن خدم الكنيسة بوصفه قسيساً سنوات تعلم الشعب خلالها أن يحبه انتخبوه خليفة لمارمرقس حين خلت السدة الاسكندرية بانتقال خاله الأنبا ثيئوفيلس إلى

---

(١) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب بول دورليان جـ١ ص٢٣٠ - ٢٣١ .
(٢) مزمور ٤٢ : ١ .
(٣) « السنكسار الأثيوبى » ترجمة إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٠٥٨ .



الأنبا بطرس | الأنبا أثناسيوس | الأنبا كيرلس
خاتمة الشهداء | الرسولى | عامود الدين

عن أيقوناتهم الموجودة على الكتف الثالث من كنيسة أبى السيفين
(مرقوريوس) ببابلون (مصر القديمة)

مساكن النور . وحين رسمه الأساقفة رفعوا الأناجيل الأربعة فوق رأسه وصلوا قائلين : « شدد يارب هذا الرجل الذى اخترته لرياستنا » [1] .

٥٢١- وما أن وجد الأنبا كيرلس نفسه مسئولاً عن الكنيسة المصرية حتى كرس مواهبه جميعها لخدمتها . وقد تبين له أن الشباب الاسكندرى يتسلى بقراءة مقالات عشرة كتبها يوليانوس بعد جحوده [2] . وكان الوثنيون يتباهون بأن هذه المقالات ستقوض أركان المسيحية ، فقرأ البابا الاسكندرى هذه المقالات ونقضها حجة بحجة وبرهاناً ببرهان . ومنذ تلك اللحظة انشغل كتبة الاسكندرية بتسجيل كتابات هذا البابا الجليل ، وظلوا منشغلين بالكتابة طيلة أيام باباويته . وقد سطعت (خلال كل ما كتبه) عبقريته النادرة ، وكانت كتاباته كالسيل الجارف [3] .

٥٢٢- ورغم انشغال الأنبا كيرلس بالكتابة والتعليم فإنه وجد الفرصة سانحة لاعادة النظر فى الحكم الذى كان قد صدر ضد يوحنا ذهبى الفم . ذلك لأنه كان يعلم أن سلفه الأنبا ثيئوفيلس كان قد ندم على الحكم الذى حكم به على ذلك الحبر القسطنطينى الكبير ، فرفض أن يسافر إلى القسطنطينية فى المرة الثانية لحضور المجمع الذى أيد حكم النفى على ذهبى الفم . وقد بدا ندمه فى الحديث الذى فاه به وهو على وشك الانتقال من هذا العالم [4] وعلى ذلك جمع الأنبا كيرلس مجمع الكرازة المرقسية وألغى حكم الحرم ضد ذهبى الفم ونظمه فى عداد الآباء الذين تذكر أسماؤهم فى صلاة المجمع فى كل قداس .

---

(١) « تاريخ بطاركة الاسكندرية » للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (ترجمة ايفيتس) ص٤٣٠ .

(٢) راجع ف٢٦٢ .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٦٨ ، « تاريخ بطاركة الاسكندرية » لساويرس أسقف الأشمونين ص٤٣١ .

(٤) راجع مجلة نهضة الكنائس عدد نوفمبر سنة ١٩٥٥ ص٢٨٠ حيث نشر القمص انجيلوس المحرقى أمين مكتبة البطريركية النص القبطى المنقول عن الأنبا كيرلس ، وترجمه إلى العربية . ويتضمن ما قاله الأنبا ثيئوفيلس وهو على وشك الانتقال إلى دار الخلود من ندم على وقفته ضد ذهبى الفم . وهذا النص القبطى بعينه قد ترجمه إلى الفرنسية المستشرق اميلينو فى كتابه « الآثار فى خدمة تاريخ مصر المسيحية فى القرنين الرابع والخامس » .

٥٢٣- ولم يكد الأنبا كيرلس ينتهى من الرد على مقالات يوليانوس الجاحد حتى فوجئ بظهور بدعة ، هى بدعة نسطوريوس اسقف القسطنطينية . وللمرة التالية شط العقل البشرى واستهوته فتنة افكاره الخاصة فزاغ عن الحق الالهى . على أنه لما كانت ألوهة الابن قد ثبتت بالدستور الايمانى الذى أقره مجمع نيقية لم يكن نسطوريوس ليستطيع انكارها ، ولكنه تقدم بصورة جديدة للبدعة الأريوسية فقال : « حيث أن الله تعالى لا يمكن أن يموت أو يتألم لذلك كان المسيح اقنومين (١) متباينين : ذات الهية تعلو على الآلام الانسانية ، وذات انسانية عرضة للآلام والموت ، ومن ثم كانت الذات المتألمة هى الذات الانسانية وحدها منفصلة عن الذات الالهية » .

٥٢٤- على أن العناية الالهية كانت قد هيأت الدوء لهذا الداء : هيأت كيرلس ليكون المدافع المقدام عن الايمان الحق فيتقدم الصفوف فى جرأة ويقف فى وجه المبتدع وبدعته (٢) .

٥٢٥- وحين سمع البابا الاسكندرى عن هذه البدعة للمرة الأولى أدرك أن واجبه يحتم عليه توضيح الايمان الأرثوذكسى فى جلاء تام ، وانتهز فرصة موسم القيامة المجيدة فجعل من رسالته الفصحية الأداة لتفسير الايمان وصوغه فى قالب ساطع (٣) . وعاد فكتب رسالة ثانية وجهها إلى الرهبان المصريين . وقد بيّن فى هاتين الرسالتين كيف أن اتحاد اللاهوت بالناسوت أشبه باتحاد النار والحديد . فالحديد لا يصاغ ما لم يكن محمياً بالنار ، وحين يطرقه الحداد يقع الطرق على الحديد وحده دون النار مع كونها متحدة به - وهذا الاتحاد بين النار والحديد اتحاد لا يشوبه اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير : فالنار تظل محتفظة بطبيعتها النارية والحديد يظل محتفظاً بطبيعته الحديدية . وعلى هذه الصورة اتحد اللاهوت بمادة الناسوت . وكانت رسالتا الأنبا كيرلس سبباً فى صبغ النقاش بصبغة علمية جدية . ذلك

---

(١) اقنوم كلمة سريانية معناها ذات أو شخص .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للمنسنيور يوستبل ص١٤٤ .

(٣) ترجم ديونيسيوس (الملقب بالصغير المتوفى سنة ٥٥٦م) رسالة الأنبا كيرلس الفصحية كما ترجم احدى رسائل المجمع الاسكندرى ضد نسطوريوس من اليونانية إلى اللاتينية . راجع دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) جـ٣ ص٦٧٠ .

لأن هذا البابا الاسكندرى كان الرجل الوحيد الذى يخشاه نسطوريوس إذ كان قد تضلع من العلوم الكنسية والأسفار الالهية ، وقد مكنه ذكاؤه اللماح من أن يسبر أغوار هذه الأسفار ويدركها ادراكاً جعلها طبيعة ثانية له فكان - حين يكتب - يتجه نحو الهدف مباشرة دون اية مواربة فكانت براعته فى توضيح هذا الموضوع دليلاً على انه جدير حقًا برياسة الكنيسة الاسكندرية - تلك الكنيسة التى تفوق آباؤها فى العلوم الروحية (١) .

٥٢٦- وانتشرت رسالة الأنبا كيرلس الفصحية فى أرجاء الشرق فأدخلت العزاء على قلوب المؤمنين لأنها كانت صافية منسابة كنبع الماء المتدفق . وقد قال فيها : « انى لمندهش من أن هناك بعض المؤمنين يترددون فى تلقيب السيدة العذراء بوالدة الإله - لأنه مادام المسيح هو الإله المتجسد كانت أمه من غير شك امًا لله . وهذا هو الايمان الذى سلمه لنا الرسل ، والعقيدة التى دان لها آباؤنا . ليس لأن طبيعة الكلمة قد بدأت مع السيدة العذراء مريم ، ولكن لأن فى داخلها نما الجسم المقدس الذى اتخذه المخلص وجعله واحداً مع لاهوته بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . لذلك نهتف مع يوحنا الحبيب قائلين « الكلمة صار جسداً » (٢) . وكما أن الأم البشرية - رغم انه لا يد لها فى خلق نفس ابنها - هى أم لابنها بأكمله وليس لجسده فقط ، هكذا السيدة العذراء هى أم المسيح بأكمله فهى نالت بحق لقب أم الله » .

أما رسالته إلى رهبانه فكانت بأكثر تفصيل - فقد بيّن لهم فيها أن العظيم اثناسيوس قد استعمل كلمة « والدة الإله » ، وأن الأسفار الإلهية وآباء مجمع نيقية قد بينوا أن اللاهوت لم يفارق الناسوت لحظة واحدة ولا طرفة عين . ثم قال : « إن سر التجسد الإلهى يمكن تقريبه إلى الأذهان إذا شبهناه بمولد اى شخص ، فكما أن الروح والجسد ينشآن كلاهما معًا داخل المرأة مع أن الروح لا يمكن أن تكون وليدة المرأة ، هكذا الكلمة المتجسد نما ناسوته داخل العذراء لأن لاهوته شاء أن يتخذ له جسداً من الحشا البتولى . ومع ذلك فجسده لم يكن مجرد جسد انسانى ولكنه جسد متحد بالكلمة لأن الله ظهر

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٤٧٤ .

(٢) يو ١ : ١٤

فى الجسد . ولو أن هذا الجسد لم يكن سوى أداة لكان شبيهاً بأجساد موسى وغيره من الأنبياء لأنهم كانوا جميعاً اداة لابلاغ الناس الرسالة الإلهية . اخيراً نشبه موت المسيح بموتنا . فكما أن الانسان حين يموت لا يموت فيه غير جسده ولكننا نقول « فلان مات » مع أن روحه لم تمت رغم كونها فى الجسد ساعة موته كذلك فى المسيح - فإن لاهوته لا يمكن أن يتطرق إليه الموت مع كونه متحداً بالناسوت ساعة الموت . ولم يكن فى وسع فادينا الحبيب ان يتم خلاصنا لو لم يكن ناسوته متحداً بلاهوته وبما انه شاء أن يفتدى البشر فقد ألهب ناسوته بنيران اللاهوت . وحين كان الفادى معلقاً على الصليب وقع الجلد والطعن والموت على جسده ولم يتأثر لاهوته بهذا كله مع كونه متحداً بالجسد فلم يفارقه لحظة واحدة ولا طرفة عين منذ أن حل فى الحشا البتولى (١) .

٥٢٧- وقد استثارت رسالتا الأنبا كيرلس غضب نسطوريوس رغم أن البابا الاسكندرى لم يذكر اسمه اطلاقاً لأن مضمونها أعلن الهدف الذى يرمى إليه كاتبها . ومن ثم بعث نسطوريوس بخطاب يطفح سخطاً إلى الأنبا كيرلس . فرد عليه هذا الراعى الساهر مباشرة وقال انه كراع مسئول عن قيادة رعيته إلى المراعى الخصبة لا يستطيع أن يدعها تهيم فوق الأراضى الجرداء ، وبعد أن أوضح العقيدة الأرثوذكسية مستعطفاً نسطوريوس ان يثوب إلى رشده قال : « انك لا تملك محاربة من ذاق الموت عنا ومات بالجسد وهو حى بقوة لاهوته ، وهو فى الوقت عينه الجالس عن يمين أبيه بينما الملائكة والرياسات والأرباب تسجد له » (٢) .

٥٢٨- وقد بعث نسطوريوس بخطاب رداً على هذه الرسالة أبدى فيه عدم المبالاة التامة بنصائح الأنبا كيرلس . على أن البابا الاسكندرى لم ييأس من هذا الموقف واستمر يعتقد بأن الرسائل الودية انجح فى علاج المبتدع من وسائل العنف فكتب إليه يقول : « لو لم تكن أسقفاً لما عرفك غير جيرانك

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٢٣ - ٣٢٥ .

(٢) « تاريخ بطاركة الاسكندرية » لساويرس أسقف الأشمونين ، ترجمة ايفيتس ص٤٣٤ .

وأقربائك . ولكنْ بما أنك تجلس على كرسى رسولى (١) فقد خرج صيتك إلى أنحاء البلاد المسيحية . وقد جدفت على الرب بعبارات تعجز عن إثباتها أو تأييدها ... وقد دعاه يوحنا الانجيلى « الابن الوحيد الكائن فى حضن الآب » (٢) . بينما قال عنه متى أنه « عمانوئيل الله معنا » تحقيقاً لنبوة أشعياء (٣) ،ويشهد مرقس بأنه حين سأل رئيس الكهنة يسوع « أأنت المسيح إبن المبارك ؟ » أجاب « أنا هو وسوف ترون ابن الانسان جالساً عن يمين القوة وآتياً فى سحاب السماء » (٤) أليست هذه هى الشهادة التى قال عنها بولس الرسول أنها « الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطى » (٥) ، وهذا هو الاعتراف الذى تحافظ عليه الكنيسة ، وهو الايمان الذى تمسك به الشهداء فأطاح الأباطرة الرومانيون برؤوسهم ألم تسمع الملاك غبريال يقول لسيدتنا العذراء أن الذى سيولد منها هو من الروح القدس وهو قدوس وابن الله يدعى ؟ (٦) . وهو رب الجميع الممجد إلى الأبد . فمن حمل خطايا العالم ؟ أليس هو يسوع المسيح الإله المتأنس الذى ولدته مريم العذراء ؟ إن كنت تؤمن بأنه نبى كموسى أو غيره من الأنبياء فلماذا لم يحمل موسى أو أى نبى آخر خطايا البشرية ؟ لأنه لم يكن فى استطاعتهم إذ كانوا بشريين كغيرهم من بنى الناس ، ولكنه ملك السلام الذى حمل خطايا العالم حين رضى أن يعلق على الصليب لأجل خلاصنا من ربقة الشيطان – فهو ليس رجلاً ولكنه الكلمة المتجسد (٧) ، ويقول بولس أيضاً أنه تحمل الآلام فى جسده ، وأن الخلاص لم يتم بانسان ولا من انسان ، ولم يحققه ملاك ولا كاروب (٨) ، ولكنه تم بالله – أى بيسوع المسيح الذى مات وقام من الأموات ... لست أيها الحبر بغير معرفة فاقرأ الكتب تعلمك ما لم تعلم . ولقد أرسلت إليك الاخوة وطلبت إليهم أن يبقوا معك لتتدارسوا الكتب المقدسة

---

(١) ان أندراوس الرسول هو الذى أسس كنيسة القسطنطينية أيام أن كان اسمها بيزنطية – راجع « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ١ ص١٩٢ .

(٢) يو ١ : ١٨ .

(٣) مت ١ : ٢٣ ، أش ٧ : ١٤ .

(٤) مر ١٤ : ٦١ – ٦٢

(٥) ١ تى ٦ : ١٣ .

(٦) لوقا ١ : ٣٢ – ٣٥ .

(٧) فيلبى ٢ : ٦ – ٧ .

(٨) كاروب هى صيغة المفرد وكاروبيم هى صيغة الجمع .

معاً بالتدقيق ثم تكتب إلينا بما تراه . كن معافى » (١) .

٥٢٩- ولقد قضى رسل الأنبا كيرلس شهراً كاملاً فى القسطنطينية تنفيذاً لأوامره ، ولكنهم حاولوا عبثاً أن يقابلوا نسطوريوس أو يتحدثوا إليه لأنه رفض رفضاً باتاً ان يراهم ... فلم يسعهم - بعد أن ضاعت كل محاولاتهم سدى خلال الشهر - إلا أن يعودوا إلى الاسكندرية ويبلغوا الأمر إلى الأنبا كيرلس .

٥٣٠- وحين وجد خليفة مارمرقس أن محاولاته فى اكتساب نسطوريوس قد ضاعت هباء منثوراً عقد مجمعاً من أساقفة الكرازة المرقسية تداول وإياهم فى كل ما دار بينه وبين نسطوريوس . ثم صدر قرار المجمع بالاجماع على التمسك بدستور الايمان الذى سنه مجمع نيقية وقد وضع له الأنبا كيرلس مقدمة هى : « نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله لأنك ولدت لنا مخلص العالم كله . أتى وخلص نفوسنا . المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح : فخر الرسل ، إكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا ، نكرز ونبشر بالثالوث المقدس لاهوت واحد . نسجد له ونمجده . يارب ارحم يارب ارحم يارب بارك آمين » ، ولاتزال الكنيسة القبطية تردد هذه المقدمة حتى الآن قبل تلاوة قانون الايمان .

٥٣١- وكان للأنبا كيرلس سفراؤه فى القسطنطينية شأنه فى ذلك شأن جميع أساقفة الكراسى الرسولية . وكان لهؤلاء السفراء صلة بالقصر الامبراطورى من غير شك . فبعث إليهم بتقريره عما حدث فى المجمع الاسكندرى ، والرسائل المتبادلة بينه وبين نسطوريوس . وقد ذاع تقرير الأنبا كيرلس فى أنحاء القسطنطينية ففرح الشعب لما ورد فيه وأرادوا أن يعبروا عن فرحهم فكتبوا إليه فى نشوة الفرح معترفين له بالشكر والثناء مؤكدين أنه وضع المرهم الشافى على قلوبهم الجريحة (٢) .

---

(١) « تاريخ بطاركة الاسكندرية » لساويرس أسقف الأشمونين ، ترجمة ايفيتس ص٤٤٣ - ٤٤٦ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٢٢ .

٥٢٢- ورأى نسطوريوس تزايد نفوذ كيرلس وقوة ايمانه والحجج الدامغة التى يقدمها دفاعاً عن هذا الايمان ، فرأى أنه يستطيع أن يقوض من هذا النفوذ بأن بعث برسالة إلى سلستينوس أسقف رومية . وكان الأنبا كيرلس متبحراً فى اللغة اليونانية يعرف ما فيها من معانٍ متباينة لكلمات متشابهة . وخشى أن يسقط سلستينوس فى شباك هذه اللغة المرنة ويضل طريقه فى تيه تعبيراتها فيقع فى بدعة نسطوريوس عن غير قصد - وبخاصة لأنه لا أثر لهذه الدقة اللغوية فى اللاتينية . فكتب هو بدوره إلى سلستينوس موضحًا له حقائق الايمان وأضاف إلى ذلك انه كان يؤثر الصمت ويتحاشى المناقشات ، إلا أنه لادراكه المسئولية الملقاة على عاتقه بوصفه رئيساً روحياً ومرشداً للعقول والضمائر فإنه يرى ضرورة الكلام . وقد ازداد شعوراً بهذه المسئولية حين قرأ الخطابات التى جاءته من سفرائه فى القسطنطينية وما أبداه الشعب القسطنطينى من الفرح والغبطة لقراءتهم رسالته الفصحية واختتم البابا الاسكندرى خطابه إلى الأسقف الرومانى بقوله : « ما الذى يجب علينا عمله نحو أساقفة الكنيسة حين نرى شعب القسطنطينية متمسكاً بالايمان الأرثوذكسى رغم الاضطهادات والضيقات ؟ أيجوز لنا أن نسكت فنخيب آمالهم فينا ؟ لأنهم يتوقعون منا الوقوف إلى جانبهم . وما الجواب الذى يمكننا أن نعطيه فى يوم الحساب يوم أن يسألنا الديان العادل عن الرعية التى ائتمنا على تعليمها ؟ لقد أقامنا الله تعالى رعاة على شعبه فيتحتم علينا أن نؤدى الواجب كما يليق بالدعوة المجيدة التى دعينا إليها » (١) .

٥٢٣- وكانت هواجس كيرلس فى محلها لأن سلستينوس كان قد تسلم من نسطوريوس عدة خطابات . فلما وصلته رسالة الأنبا كيرلس عقد مجمعاً من أساقفته فى رومية واستعرض معهم خطابات نسطوريوس على ضوء رسالة الأنبا كيرلس . وبعد التداول بعث سلستينوس برسالة إلى البابا المرقسى يقول له فيها : « كنا عولنا على أن نزيد ما سبقت لنا كتابته فى هذا الصدد ، ولكننا امتنعنا من ذلك لعلمنا بأنك أعظم المدافعين عن الايمان

---

(١) شرحه جـ٤ ص٣٢٣ - ٣٢٥ .

الأرثوذكسي ... لقد كشفت لنا عن دقائق هذا المبتدع واوضحت الايمان وضوحًا ملأ القلوب ثباتاً . وانا نضيف ما لكرسينا من سلطة إلى سلطة كرسيك ونثق أنك تتصرف بحكمتك . وإذا لم ينثن نسطوريوس عن ضلالته فى غضون أيام عشرة فإننا نعده محرومًا مقطوعًا من جسم الكنيسة فهو لم يرتض الدواء الذى قدمه إليه أطباء الكنيسة ولصر على الامعان فى الضلال » (١) .

٥٣٤- على أن الحرم الذى اصدره سلستينوس باسم مجمعه لم يكن له أى اثر لصدوره من مجمع مكانى ، ولم يصادق عليه الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير ، ولا اقدم الشعب على انتخاب اسقف بدلاً عنه إلا بعد أن حرمه المجمع المسكونى - لأن مثل هذا الحكم يجب ان يكون للكنيسة مجتمعة فى مجمع مسكونى لا لكنيسة منفردة . وهذا ما يقره التقليد الكنسى الأرثوذكسى الذى لا يعترف بسلطة فردية مطلقاً وإنما يؤكد السلطة الجماعية . لذلك ظل الأساقفة والامبراطور والشعب يعدون نسطوريوس أسقف القسطنطينية حتى جرده الأساقفة بالاجماع من كل رتبة كهنوتية فى المجمع المسكونى الثالث (٢) .

٥٣٥- وفى تلك الأثناء لم يقف الأنبا كيرلس مكتوف اليدين بل استمر على الكفاح فكتب خطاباً إلى الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير وثانيًا إلى الامبراطورة أدوكسيا وثالثًا إلى الأميرات الثلاث - أخوات الامبراطور المترهبات . وكان خطابه إلى الامبراطور مفصلاً - الغرض منه ان يوقفه على ما فى الموضوع من دقة وأهمية خصوصًا أنه كان يعلم أنه صديق لنسطوريوس وقد وافقه على أنه لا يجوز استعمال كلمة « ثيئوتوكس » (أم الله) كلقب للسيدة العذراء .

أما الخطابات التى بعث بها البابا الاسكندرى إلى الامبراطورة والأميرات

---

(١) مجلة المنار / ٥٠ السنة الأولى نشرت فى بيروت فى ٢٦ من شهر أب سنة ١٨٩٩ ص٥٤٢ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) » للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٢٧ - ٣٣٣ .

(٢) « الوضع الإلهى للكنيسة » (بالفرنسية) للمنسنيور كيرلس مقار ، المقدمة للجزء الثالث .

فقد أوضح فيها بجلاء ساطع أن السيد المسيح ليس انساناً فحسب ولا هو الكلمة فحسب ، بل هو الكلمة المتجسد الذى قام من بين الأموات بقدرة الآب والروح القدس الذى هو من الآب منبثق . وبقدرة لاهوته المساوى للآب فى الجوهر - لأن الثالوث واحد . ولقد أثبت الأنبا كيرلس هذا الايمان الأرثوذكسى من الأسفار الإلهية وحدها ثم ذيل خطابه إلى الأميرات - أخوات الامبراطور - بكشف ضمنه جميع الآيات التى وردت فى العهدين القديم والجديد التى تتحدث عن المسيح المتأنس الذى وحد الطبيعتين بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير (١) .

٥٣٦- ولم يكتف البابا كيرلس بهذه الرسائل بل بعث برسائله إلى يوحنا أسقف أنطاكية ويوبيناليوس أسقف أورشليم وأكاكيوس أسقف حلب . وقد أجابه الأسقف الأخير على الفور برسالة قال له فيها : « ليس عسيراً على حكمتك وفطنتك أن تسحق هذا الابتداع فى الايمان ... فابذل جهدك فى هذا الشأن متبعاً طريق الشفقة والالهام الباطنى ، مستعيناً بقوة قداستك وبسلطانك الكهنوتى لتنقض كل التعاليم التى ابتدعها الجهل . وأن يوحنا أسقف أنطاكية ليوافقنى فى الالحاح عليك لتبادر إلى العمل لكى تتجلى فى أعمالك وأقوالك كلمات الرسول حيث قال : « أننى أفاخر بالسلطان المعطى لى من الرب للبنيان لا للهدم » (٢) .

٥٣٧- وبعد أن كتب كيرلس كل هذه الخطابات إلى أحبار الكنيسة وأمراء الدولة عقد مجمعاً من أساقفة الكرازة المرقسية حيث تناقش وإياهم فى كل ما كتب ، وأطلعهم على خطاب أسقف حلب وبخاصة لأن يوحنا أسقف أنطاكية كان معروفاً بصداقته الوثيقة لنسطوريوس . فاستثار خطاب

---

(١) يخاطب الأنبا كيرلس السيدة العذراء فى الثيئوتوكية الرابعة بقوله : « السلام للمعمل الذى اتحدت فيه الطبائع » Ⲭⲉⲣⲉ ⲡⲓⲉⲣⲅⲁⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ: ⲛ̀ⲧⲉϯⲙⲉⲧⲟⲩⲁⲓ ⲛ̀ⲁⲧⲫⲱⲣϫ ⲛ̀ⲧⲉⲛⲓⲫⲩⲥⲓⲥ

ولما كانت اللغة القبطية لا تحتوى على صيغة المثنى اضطر البابا كيرلس إلى استعمال صيغة الجمع فى كلمة « الطبائع » وهو يقصد بذلك الطبيعة اللاهوتية والطبيعة البشرية .

(٢) ٢ كو ١٠ : ٨ . مجلة المنار العدد الأول من السنة الثانية - نشر فى بيروت فى ١٦ أيلول سنة ١٨٩٩ ص٤ .

أكاكيوس اهتمام الأساقفة ، واخذوا يتسائلون عما ستكون له من نتائج .
ولقد قرر آباء هذا المجمع الاسكندرى ايمانهم بقولهم : « طبقًا لما علمه الآباء نعلن أن الابن الوحيد قد اتخذ جسداً ، وجعل هذا الجسد خاصاً به ، ومر فى الحشا البتولى غير الدنس دون أن يتجرد من ذاته الإلهية ، وظل باقيًا كما هو - اى انه ظل الإله الأزلى . فلم يتحول الناسوت إلى اللاهوت كما أن اللاهوت لم يتحول إلى الناسوت ولم يخضع لأى تغيير . لأنه بينما كان الكلمة فى طفولته ، وحتى حين كان فى بطن أمه ، كان يملأ العالم بأسره ، ويحكمه متضامناً مع أبيه والروح القدس لأن اللاهوت لا يقف عند حد . ولا نؤمن ابداً باتحاد بسيط من حيث الكرامة والقوة لأن هذه التعبيرات دخيلة على الايمان الأرثوذكسى ، ولا ننادى بمسيحيين احدهما الكلمة الذاتى والآخر ابن الانسان ولكننا نجهر بمسيح واحد هو الإله الكلمة الذى هو ابن المرأة الحق . لأننا إن كنا نؤمن مع بولس الرسول أن فى المسيح حل ملء اللاهوت جسدياً (١) فإننا ندرك أن الله لا يستقر فيه كما استقر فى قديسيه ، بل أن اللاهوت والناسوت اتحدا فى المسيح كما تتحد الروح بالجسد فى الانسان فهو اذن رب واحد ومسيح واحد وابن واحد » (٢) .

٥٣٨- وبعد هذا الايضاح لايمان الكنيسة الجامعة كتب الأنبا كيرلس اثنى عشر حرماً . ثم ارسل آباء المجمع قراراتهم إلى نسطوريوس طالبين إليه أن يوقع على الايمان الذى أوضحوه كما يوقع على الاثنى عشر حرماً ليثبت أرثوذكسيته لجميع المؤمنين . وقد بعث الأنبا كيرلس مع سفرائه إلى نسطوريوس بخطابين آخريين : أحدهما إلى كهنة القسطنطينية وشمامستها وشعبها . وثانيهما إلى رهبانها (٣) .

٥٣٩- ولم يكتف نسطوريوس بالامتناع من التوقيع على رسالة المجمع الاسكندرى ولكنه نجح أيضاً فى استثارة خاطر الامبراطور ثيئودوسيوس

---

(١) كولوسى ٢ : ٩ .
(٢) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٢٤٤ - ٢٤٥ .
(٣) مجلة المنار العدد الثالث من السنة الثانية - صدر فى بيروت فى ٣٠ ايلول سنة ١٨٩٩ ص٢٤ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٢٣٥ - ٢٣٦ .

الصغير إلى حد دفع بالامبراطور إلى أن يبعث بانذار إلى الأنبا كيرلس يعلمه فيه بأنه سيلقى الاضطهاد المرير على يد نسطوريوس واعوانه . وقد توهم الامبراطور فى سذاجته أن مثل هذا الانذار سيزعج البابا الاسكندرى فيعجزه عن الدفاع عن الايمان الذى يدين به والذى اصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانه وشخصيته.

وقد اطمأن نسطوريوس إلى مصيره لما لقيه من عطف الامبراطور عليه وشدته على الأنبا كيرلس فغالى فى بدعته ، وتحدى الأرثوذكسيين علانية ، وجهر بأن الأنبا كيرلس ليس سوى مصرى عنيد يجب التغاضى عن نصائحه . وفى الوقت عينه بعث نسطوريوس برسالة إلى يوحنا أسقف أنطاكية أبدى له فيها دهشته مما بلغه من أن أكاكيوس الحلبى قد وافق كيرلس الاسكندرى الفرعون الطاغية (١) .

٥٤٠- وقد أثار خطاب نسطوريوس ثائرة يوحنا الأنطاكى إلى حد قرر معه أن يناصر المبتدع وأن يستعدى مدرسته الأنطاكية على المدرسة الاسكندرية (٢) وكان ضمن الذين أفلح فى ضمهم أندراوس أسقف ساموساطة وثيئودوريت أسقف قورش الذى لم تقتصر خصومته على كيرلس بل امتدت إلى خلفه ديسقورس . ومذاك نشط فى الكتابة ضد باباوات الاسكندرية بعنف وحدة .

٥٤١- وكان من الطبيعى أن تؤثر خطابات الأساقفة فى كل من وقف عليها سواء كان هذا الأثر لمصلحة كيرلس أو لمصلحة نسطوريوس لأن النقاش لم يقتصر على كلمات عادية بل تناول الايمان فى صميمه . فقد كان يدور حول نوع من المبادئ التى كانت تهدد كيان المسيحية . وكانت هذه المبادئ هى التى حنى لها نسطوريوس رأسه رافضاً أن يقبل

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٢٤ - ٣٤٠ ، «الأمة القبطية وكنيستها المصرية » لفرنسيس العتر ص٣٥ .

(٢) يقول الأنطاكيون بالطبيعتين غير المنفصلتين من بعد الاتحاد ، بينما يقول القبط بالطبيعة الواحدة للكلمة المتجسد - وكلا التعبيران - رغم اختلافهما - يؤديان معنى واحد . إلا أن الاختلاف فى التعبير كان - فى بادئ الأمر - سبباً فى الجفاء المؤقت الذى قام بين الكنيستين .

كلمة « ثيئوتوكس » (أمومة العذراء للذات الإلهية) وكانت كلمة ثيئوتوكس هى اللواء الذى انضوى تحته الأرثوذكسيون ، والتى لعبت فى القرن الخامس الدور الذى لعبته كلمة « أوموسيوس » (مساواة الابن للآب فى الجوهر) فى صدر القرن الرابع . وقد ظل البابا الاسكندرى متمسكاً بكلمة ثيئوتوكس وما تعنيه ، ودافع عنها حتى النهاية بنفس الثبات والحكمة اللذين دافع بهما أثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى الـ ٢٠) عن الأوموسيوس . ولقد أعجب معاصرو كيرلس بموقفه فأطلقوا عليه لقب « أثناسيوس الثانى » . وفى الواقع كان كيرلس جديراً بأن يكون خليفة لأثناسيوس العظيم لأنه ادرك مدى البدعة النسطورية منذ نشأتها كما ادرك أثناسيوس مدى البدعة الأريوسية عند قيامها . وكان كيرلس واثقاً من حقيقة تعليمه الأرثوذكسى بحيث أنه لم يكن فى حاجة إلى زيادة فى الايضاح . فإن ما قاله فى نهاية مناقشاته هو عينه الذى قال فى بدايتها . فكانت وثيقة الايمان التى وقع عليها بعد المناقشات التى دارت فى مجمع افسس تعبر عن الايمان بعينه الذى نادى به منذ البداية ، وهو الايمان الذى جهر بالتمسك به دون سواه . وهذا التمسك بالعقيدة الأرثوذكسية تمسكاً تاماً هو الذى جعل خصومه ينعتونه بأنه « فرعون عنيد » (١) .

٥٤٢– وبينما تشاغل الأساقفة فى الكتابة والنصح والانذار كان أهالى القسطنطينية الذين ظلوا على وفائهم للايمان الأرثوذكسى يقاسون مرارة الاضطهاد على أيدى نسطوريوس ومشايعيه . وحين رأوا المبتدع يتمادى فى طغيانه وغطرسته استحثوا الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير على عقد مجمع . وكان الامبراطور يرغب فى عقد مجمع يضع حداً لكل التوتر الذى قام بين الكنائس . ومن الناحية الأخرى كان نسطوريوس يود أن ينعقد مجمع مسكونى زعمًا منه أنه يستطيع بواسطة المجمع أن يظفر بخصمه كيرلس . وهكذا أجمع الكل على وجوب عقد مجمع مسكونى . فأرسل الامبراطور ثيئودوسيوس الدعوة لعقده فى يوم الأحد الموافق لعيد العنصرة

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفليه جـ٢ ص٣٥٦ – ويلاحظ ان هذه هى العبارة التى كان يستعين بها خصوم الآباء المصريين كلما اعوزتهم الحجة .

١٣ بؤونه سنة ٤٢٣ش (١) . ولم يقتصر خطاب الامبراطور على دعوة الأساقفة بل تضمن أيضاً تحذيراً ضد أى تأخير قائلاً بأن من يتأخر منهم سيكون مسئولاً أمامه وأمام الله (٢) .

٥٤٣- ولم يكتف الامبراطور بارسال خطابه الدورى إلى الأنبا كيرلس ، بل بعث إليه برسالة خاصة اتهمه فيها بأنه سبب الشقاق فى الكنيسة ، ووبخه أيضاً لمكاتبته الامبراطورة والأميرات معلناً له بأنه لم يهدف إلا إلى استثارة أعضاء أسرته بعضهم ضد البعض الآخر وبعد الاتهام والتوبيخ أعلن له استعداده لأن يصفح عنه مؤكداً له أن موضوع نسطوريوس مرجعه إلى المجمع المسكونى الذى له وحده حق الفصل فى مثل هذه الموضوعات . على أنه رغم ما أبداه الامبراطور من استعداد للصفح عن الأنبا كيرلس إلا أن لهجته بينت بوضوح ميله إلى جانب نسطوريوس (٣) .

٥٤٤- وكان أساقفة الكنيسة الأفريقية يجلون الأنبا كيرلس الاجلال كله إذ كانوا يعدونه المدافع الأول عن الايمان الأرثوذكسى . وكانوا قد احتكموا إليه بمناسبة الخلاف الذى قام بين كنيستهم الأفريقية وبين زوسيموس أسقف رومية الذى ادعى أنه يملك حق استئناف القضايا بدعوى أن قانون نيقية السادس يخوله هذا الحق . فكتبوا إذ ذاك إلى الأنبا كيرلس طالبين إليه أن يوافيهم بالقوانين الأصيلة التى سنها مجمع نيقية . فرد عليهم على الفور باعثاً إليهم بالقوانين التى تحدد لكل ايبارشية رسولية حدود اختصاصاتها . فوجد الأفريقيون أن قانون نيقية يحدد سلطة أسقف رومية لايبارشيته الايطالية وصمموا على التمسك باستقلالهم الروحى . فلما وصلتهم دعوة الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير - وكانت بلادهم تواجه حرب الفاندال فى ذلك الوقت - قرروا بالاجماع أن يأتمنوا الأنبا كيرلس على تمثيلهم ليتحدث بلسانهم لعدم امكانهم الذهاب إلى أفسس وذلك لأنهم كانوا

---

(١) أى يونيو سنة ٤٢١م غربية .

(٢) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٢٥٧ .

(٣) مجلة المنار العدد الرابع للسنة الثانية نشر فى بيروت ٧ تشرين الأول سنة ١٨٩٩ ص٥٢ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٢٣٧ .

يعدونه لسان حال الأرثوذكسية في الكنيسة الجامعة (١) .

٥٤٥- وهكذا جمع الأنبا كيرلس في شخصه سلطة ثلاث كنائس هي : سلطة كنيسته الاسكندرية وسلطة الكنيسة الرومانية وسلطة الكنيسة الأفريقية . وهذه الثقة التي استودعتها الكنائس الأنبا كيرلس ترجع إلى أن الكنائس جميعها كانت تعد كنيسة الاسكندرية الحارس الأمين لتعاليم الكنيسة الجامعة وقوانينها . والواقع أن المصريين كانوا قد ترجموا القوانين الرسولية إلى لغتهم المصرية فسهل تداولها بينهم (٢) .

٥٤٦- وما كاد الأنبا كيرلس يتسلم دعوة الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير حتى بادر بالسفر إلى أفسس . وكان نسطوريوس يأمل أن يتخلف البابا الاسكندري عن الحضور نتيجة للتهديد الذي كان قد بعث به الامبراطور إليه . وكان نسطوريوس قد كتب إلى سلستينوس أسقف رومية يقول له انه « إن دخل (الفرعون المتكبر) مدينة أفسس فسيؤدي حساباً عن اعماله وأقواله » . إلا أنه على الرغم من التهديد والوعيد فقد سافر الأنبا كيرلس لأنه كان من أشجع الرجال الذين عرفتهم الانسانية إذ كان يستهين بكل خطر وكل تهديد ويندفع كالبركان الثائر في دفاعه عن الايمان (٣) .

٥٤٧- وقد استصحب الأنبا كيرلس معه إلى أفسس خمسين من أساقفته ، كما استصحب الأنبا شنودة رئيس المتوحدين والأنبا بقطر السوهاجي رئيس الأديرة الباخومية (٤) . وحالما وصل إلى جزيرة رودس

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٤ ص٤٧٤ حيث يقول :
" ... ses rélations avec les plus grands évêques de l'Eglise, prouvent qu'il était regardé comme l'organe de l'orthodoxie catholique " .
أما الفاندال فهم جماعة من البربر الذين اجتاحوا أوروبا ومنها نزلوا على شمال أفريقيا في القرن الخامس للميلاد .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتي جـ٢ ص٣٢ ، جـ٤ ص٤٧١ .

(٣) شرحه جـ٤ ص٢٣٨ .

(٤) لا يذكر التاريخ شيئاً عن هذا الراهب الذي استحق أن يرأس أديرة الأنبا باخوم ولا يعرف عنه للآن إلا انه كان أحد المصريين الذين حضروا المجمع المسكوني الثالث في أفسس .

أرسل خطاباً إلى شعبه ينبئهم فيه بأن رحلته كانت ممتعة وأنه مصمم هو وزملاءه على الوفاء للفادى الحبيب كما فعل ألكسندروس وأثناسيوس من قبل . وكانت عناية الأنبا كيرلس بشعبه دليلاً على متانة الصلة بينه وبينهم ، وعلى أنه يريد أن يطلعهم على حقائق الأمور أولاً بأول .

٥٤٨- وكان ممنون أسقف أفسس مصرى المولد ، فرحب بالأنبا كيرلس وزملائه الأساقفة مغتبطاً بلقياهم إذ قد حملوا إليه عبير بلاده المحبوبة .

٥٤٩- وقد أرسل سلستينوس أسقف رومية ثلاثة مندوبين هم الأسقفان اركاديوس وبروجكتوس اللذان نابا عن مجمع رومية ، والقس فيلبس نائباً عن شخصه . وقد حملهم سلستينوس الرسالة التالية : « حالما تصلون فاذهبوا لمقابلة كيرلس أخينا وشريكنا فى الخدمة الرسولية ، واعملوا بموجب قراراته كلها ، واجتهدوا فى العمل على احترام سلطة كرسينا الرسولى » (١) .

٥٥٠- وأخذ الأساقفة يتوافدون على أفسس من مختلف الأنحاء : فتجمع مائتان منهم تلبية لدعوة الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير وألفوا المجمع المسكونى الثالث . وكان بين هؤلاء الآباء يوبيناليوس أسقف أورشليم وآناكيوس أسقف حلب الذى كان عمره إذ ذاك ينيف على مائة سنة والذى كان قد حضر المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية قبل ذلك بخمسين سنة ، وفلابيانوس أسقف فيلبى ، وثيئودتس أسقف انقرة ، وغيرهم كثير سارعوا للوقوف مرة أخرى صفًا واحداً ليذودوا عن الايمان ويثبتوا انهم جديرون بالفعل بأن يكونوا خلفاء لآباء مجمع نيقية .

٥٥١- وقد زعم نسطوريوس أنه يستطيع ارهاب الآباء الذين لبوا دعوة الامبراطور فجاء إلى أفسس كأحد الغزاة إذ قد استصحب عدداً من الرجال المدججين بالسلاح (٢) . وكان بين أنصاره النبيل ايريناوس أحد رجال البلاط ،

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٤٦ .

(٢) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٦٠ .

كما كـان بينهم كـانديانوس مندوب الامبـراطور ثيئـودوسـيـوس وكـان الامبـراطور قد أرسله لينوب عنه بدلاً من ان يـحضـر بنفسـه ليتـرك للأساقـفة حرية التداول والحكم بما يرون ومع أن الامبـراطور كان قد أوصـى كانديانوس أن يقتـصـر على مراعـاة النظام . إلا أن هذا النبـيل أعطى نفسـه الحق فى أن يناصـر فريقًا على فريق فقد شـايع نسطوريوس علناً . ولما كـان الجند الذين صـحبوه إلى أفسس عليهم الولاء والطاعة له بحكم مركـزه فقد حـرسـوا بيت نسطوريوس بأمـر منه . ولـم يـكن هذا التـصرف الشـاذ بأمـر من الامـبـراطور ولكنه كان تنفيذاً لرغبة نسطوريوس الذى كان يستهدف ارهاب الأساقفة قبل اجتماعهم كى لا يصدروا حكماً لا يرضـاه .

٥٥٢– وفى تلك الأثنـاء تأخـر يوحنا الأنطـاكى عن الحـضـور . وفى عـيد العنصـرة بـالذات أرسل خطابًا إلى الأنبـا كـيـرلس يبلغـه أنه فـى طريقـه إلى أفسس ويعـتذر له عن التأخيـر بطول المسافات ومرض الخـيول ، وأن كل هذه العوائق أخرته عن الحضـور فـى الموعد المحدد ثم قال : « ولكننا تغلبنا على كل هذه الصـعـاب ، وبـاذنه تعـالى سنصل فى بـحـر خـمـسـة ايـام او سـتـة إلى أفسس » . وعلـى اثر استلام خطاب يوحنا الأنطاكى قرر كيـرلس والأساقـفة المجتمعون معه أن ينتظروا قدومه . فـانتظروا ستة عشـر يوماً بدلاً من ستة . وفى تلك الأثنـاء وصـل أسـقـفـان مـن أسـاقـفـة الكـرسـى الأنطاكى فـجـهـرا بأن أسقـفهما يوحنا طلب إليـهما أن ينصـحا المجـمع بعدم انتظاره فى حـالة تأخره عن الحضـور فـى بحر الأيام التى حددها . وقد اسـتنتج الأساقفة حين سـمعوا رسالة هذين الأسـقـفين الأنطاكيين أن يوحنا لا يرغب فى الحضـور إلى مجمع يتـوقع هو أنه سـيـحكم علـى صـديقـه نسطوريوس . فـقـرروا أن يفـتـتـحـوا جلسـاتهم على الفـور . ومن ثم اجتمعـوا فى ٢٨ بؤونه (أى ٢٢ يونيـو) فى كنيسة السيدة العذراء أم اللّه (١) .

٥٥٣– ومـا أن سـمع كنديديانوس بأن الأسـاقـفـة قـرروا الاجـتـمـاع حـتى حـاول بكل مـا أوتى مـن قـوة أن يقنعـهم بأن يرجئـوا الاجـتـمـاع إلى أن يصل يوحنا الأنطاكى وقـد ادعى بأن الامبراطور يرجـو منهم انتظار الأساقـفة الذين

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٦١ – ٣٦٢ .

لم يحضروا . واستجوبه الأساقفة فى هذا الأمر ، وبعد شئ من التردد أخرج كنديديانوس الخطاب الامبراطورى . فقراه بطرس أحد قساوسة الاسكندرية ورئيس كتبة المجمع . وقد أصغى الأساقفة إلى الخطاب حتى نهايته فلم يجدوا فيه أية اشارة إلى وجوب الانتظار ، ولم يتضمن غير رغبة الامبراطور فى أن يسود النظام والهدوء . كذلك أشار الامبراطور فى خطابه إلى أن ايريناوس جاء من ذاته من غير تفويض رسمى لكونه صديق نسطوريوس . كما أن كنديديانوس لم يؤمر بحضور المجمع إلا للمحافظة على النظام . وحين عرف الأساقفة كل ما جاء فى خطاب الامبراطور قرروا أن يجتمعوا من غير تردد . وعلى أثر ذلك خرج كنديديانوس غاضباً وبعث باحتجاج إلى المجمع كما بعث بصورة من هذا الاحتجاج إلى الامبراطور (١) .

٥٥٤– والتأم المجمع فى كنيسة السيدة العذراء أم الله – وكانت مقراً لرياسة ممنون أسقف افسس . ولقد رأس الأنبا كيرلس هذا المجمع المسكونى الثالث . وكان يجمع فى شخصه سلطة ثلاث كنائس كبرى هى كنيسته المصرية وكنيسة رومية وكنيسة أفريقيا . وهذه الحقيقة دفعت المؤرخين العصريين إلى أن يزعموا انه كان مندوباً عن أسقف رومية . ولو كان زعمهم هذا صحيحاً فلماذا أرسل سلستينوس أسقف رومية أسقفين ليمثلا الكنيسة الغربية وقسيساً ليمثله شخصياً فى المجمع ؟ وهؤلاء الثلاثة قد وقعوا على قرارات المجمع وذكروا صفتهم مع التوقيع شأنهم فى ذلك شأن جميع من حضروا هذا المجمع المسكونى الثالث (٢) ولقد ذهب كيرلس إلى أفسس وهو مطمئن الخاطر ، مستعد للدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية التى للكنيسة الجامعة ، ورأس المجمع مع وجود مندوبى رومية (٣) .

---

(١) مجلة المنار العدد الخامس السنة الثانية صدرت فى بيروت فى ١٤ تشرين الأول سنة ١٨٩٩ ، ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٤٩ .

(٢) «البابوية المنشقة » (بالفرنسية) للأبيه جيتى ص٩٢ – ٩٦ ، ، تاريخ الكنيسة» (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٤٧ – ٣٤٨ .

(٣) دائرة المعارف للعلوم الدينية (بالفرنسية) جـ٣ ص٢٩٢ – ٢٩٤ حيث جاء ما نصه:

" ... dans les premiéres siécles, à moins qu'il ne fut directement en cause dans les discussions du concile, le patriarche le plus éminent par la dignité de =

٥٥٥- وقد طالب نسطوريوس بعقد المجمع فى كنيسة يوحنا البشير ، غير أن الأساقفة فضلوا الاجتماع فى الكنيسة التى تحمل اسم والدة الإله لأن اسمها يتفق والغرض الذى اجتمعوا لأجله .

ولما تمكنوا أخيراً من بدء الجلسة أرسلوا ثلاثة منهم لدعوة نسطوريوس ، غير أنه لم يلب الدعوة . ودعوة ثانية وثالثة ولكنه أصر على الرفض ، كما أن الجند المرابطين حول منزله هزأوا برسل المجمع (١) .

٥٥٦- ولم يسع الأساقفة بازاء رفض نسطوريوس الحضور إلا أن يفتتحوا جلستهم ويتداولوا فى ايمان الكنيسة الجامعة . وقبل أن يبدأوا المناقشة طالب يوبيناليوس أسقف أورشليم رئيس كتبة المجمع بقراءة دستور الايمان الذى سنه مجمعا نيقية والقسطنطينية قائلاً أن هذا الدستور هو الأساس للايمان وهو المرجع الأخير لهم ساعة يصدرون حكمهم (٢). فأطاع بطرس - الكاهن الاسكندرى ورئيس كتبة المجمع - وتلا الدستور المطلوب . وبعد تلاوته قرأ للمجتمعين خطاب الأنبا كيرلس إلى نسطوريوس والحروم الاثنى عشر التى جاءت فى نهايته وبعدها تلا رد نسطوريوس . فوضح للجميع أن البابا الاسكندرى لم يهدف إلا إلى غرض واحد هو توضيح الايمان بشخصية السيد المسيح الفريدة . وقد أفلح فى بلوغ هذا الهدف إذ قد بين صفات كل من الطبيعتين الالهية والانسانية فى جلاء تام كما بيّن أن هاتين الطبيعتين قد اتحدتا بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . فكان من

= son siège en élait président ... . Celui d'Alexandrie présida à Ephése avant et après l'arrivée les délégués de Rome ; .

وترجمته ما يلى : « فى القرون الأولى كان أعظم البطاركة مكانة - من حيث كرسيه - يتولى رياسة المجمع إلا إذا كان هو السبب المباشر لمداولات المجمع ... وقد راس الاسكندرى مجمع أفسس قبل وصول مندوبى رومية وبعد مجيئهم على السواء » .
هذا وقد وضح من الحديث عن مجمعى نيقية والقسطنطينية المسكونيين أن الأول راسه هوسيوس أسقف قرطبة بينما تعاقب على رياسة الثانى أساقفة انطاكية والقسطنطينية والاسكندرية .

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٦٢ .

(٢) مجلة المنار العدد السادس السنة الثانية صدرت فى بيروت فى ٢١ تشرين الأول سنة ١٨٩٩ ص٨٣ .

هـذا الاتحـاد الكلمـة المتجسد الـذى هو اله كامـل وانسان كامل (١) .

٥٥٧- ولقد ابدى أباء المجمع الأفسسى اعجابهم بالأنبا كيرلس بعبارات الثناء والاجلال حين انصتوا إلى كتاباته (٢) . ثم اخذوا بعد ذلك ينصتون لأقـوال الآباء الذين اعلنوا بأن المولـود من الآب قـبل كل الدهور هـو هو الذى ولد فى مـلء الزمـان من السـيـدة العـذراء لذلك كـانت بحق أم اللّه ، وان ربنا يسوع المسيح هو الكلمة المتجسد فهو واحد بلا انفصال ولا انقسام .

٥٥٨- ومـا أن فـرغ بطرس الكاهن الاسكندرى من تلاوة هذه الأقـوال جميعها حتى دخل بيسـولا رسول أسقف قرطاجة (تونس) يحمل رسالة من أسقفها تتضمن اعتذاراً من الأسقف لعدم امكانه الحضور بسبب الحروب الدامية التى أثارتها قبائل الفاندال على بلاده وثقته مع ثقة كنيسته فى الأنبا كيرلس مما حداهم إلى ائتمانه على الدفاع عن الايمان الأرثوذكسى (٣).

٥٥٩- وقـد حـضـر هذا المجمع المسكونى الـثـالث أسـقـفـان من اصـدق أصـدقـاء نسطوريوس همـا اكاكيوس أسقف ميليتين وثيئودوتس اسقف انقرة . وبعد أن اكد كلاهـما للآباء مدى صداقتهما للمبتدع قالا : « اننا نؤكد صـداقـتنا لـنسطوريوس ، ولكـننا فى الوقت عـينه نعلـم علم اليـقين أن ولاءنا للحق فـوق كل ولاء . لذلك نـضـحـى بمودتنـا - مع الأسف الشـديد - لأننا كخدام للكلمة ملزمون بأن نعلن الحق » (٤) . وقد شغلت هذه الجلسة الأولى طيلة النهار ، وظلت منعقدة حتى أرخى الليل سدوله . وقد ناقش المجمع فى غضونها كل ما عرض عليه . ثم أصدر حكمه بخلع نسطوريوس من كرسيه وحرمه وتجريده من كل رتبة كهنوتية .

٥٦٠- وكانت الجماهير الكثيرة تتجمع حول الكنيسة تدريجيًا - وقد

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٢٦٣ .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٥٢ .

(٤) مجلة المنار العدد السابع للسنة الثانية صدرت فى بيروت فى ٢٨ من تشرين الأول سنة ١٨٩٩ ص١٠٠ - ١٠١ ، « تاريخ الكنيسة » للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٥٠ - ٣٥١ ، « تاريخ المجامع » للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٢٦٤ .

دفعهم اهتمامهم بالايمان وشوقهم لمعرفة ما سيقرره الأساقفة إلى الانتظار خارج الكنيسة حتى ينتهى الأساقفة من جلستهم ليستوضحوهم جلية الأمر. وما أن اتفقت كلمة الأساقفة واصدروا حكمهم على المبتدع وبدأوا يخرجون من الكنيسة حتى هرعت نحوهم الجماهير تتساءل عن الحكم . فلما وقفوا عليه عرتهم نشوة فهتفوا هتاف الفرح والتهليل ، وسارعوا إلى احضار المشاعل الموقدة بينما حمل عدد منهم المجامر الممتلئة بخوراً ، والفوا موكباً فخماً وساروا أمام الأساقفة حتى أوصلوهم إلى اماكن اقامتهم . كذلك سارع بعض الأهالى إلى انارة عدد كبير من ميادين المدينة جرياً على عادتهم أيام الأعياد .

٥٦١- وحالما وصل الأنبا كيرلس إلى مقر اقامته جلس يكتب إلى شعبه رسالة ضمنها وصفاً مسهباً لكل ما حدث فى تلك الجلسة التاريخية الحاسمة [١] مندفعاً فى عمله هذا بالمحبة الوثيقة التى تربط بينه وبين شعبه والتى أنسته تعب النهار والجوع .

٥٦٢- وبينما كان الشعب الأفسسى فى نشوته كان كنديديانوس يتآمر مع نسطوريوس فزورا معاً تقريراً ارسلاه إلى الامبراطور على يد ايريناوس . وكان الأنبا كيرلس مرهف الحساسية فأدرك بالروح أن خصومه لن يهدأوا لذلك أمر كتبته بأن يدونوا محاضر الجلسات بدقة متناهية [٢] . ولم يكتف كنديديانوس بالتزوير بل اقام الحراس على جميع أبواب المدينة ليمنعوا رسل المجمع من الخروج . ثم شدد الرقابة على الأساقفة حتى كاد الجند يمنعون عنهم المؤن . على أن هذه المعاملة القاسية زادت الأساقفة ثباتاً واستمساكاً بالايمان .

٥٦٣- أما قلم الأنبا كيرلس فكان دائماً مسلولاً ، فلم يكد يقف على ما جرى من كنديديانوس حتى سارع إلى كتابة خطاب وجهه إلى أهالى القسطنطينية . وألحق هذا الخطاب بخطاب ثانٍ - إليهم أيضاً -

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٥٣ ، « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٥٤ .

قال فيه : « لابد دون الشهد من ابر النحل ، فلا غرابة اذن اننا نواجه الآن الضيقات والمتاعب . ونحن نواجهها مترنمين بالمزمور : (انتظر الرب . ليتشدد وليتشجع قلبك . وانتظر الرب) [١] وإننا واثقون تمام الثقة بأن من يطلب يجد ، وبأن الانسان الشجاع لابد أن يجنى الثمر الشهى من يد الرب » [٢] .

٥٦٤ – ولم يكتف الأنبا كيرلس بالكتابة بل ألقى خطابين فى كنيسة السيدة العذراء أم الله ، وهى نفس الكنيسة التى التأم فيها المجمع . وكان موضوع حديثه فى الخطابين يدور حول تجسد الله الكلمة والاتحاد الكامل بين لاهوته وناسوته اتحاداً لا اختلاط فيه ولا امتزاج ولا تغيير ، وعن السيدة مريم التى هى عذراء وأم فى آن واحد [٣] .

٥٦٥ – وامتلأ كنديديانوس غضباً من نشاط البابا الاسكندرى ومن كفاحه المتواصل ، وأدى به الغضب إلى أن يستثير نسطوريوس ليرفع شكواه إلى الامبراطور من الأساقفة المصريين . فأطاعه المبتدع واشتكى بأن ممنون لكونه مصرى الأصل قد فتح الكنائس لمواطنيه ومناصريه وأغلقها فى وجه كل من عداهم .

٥٦٦ – وبعد ذلك بأيام قلائل[٤] وصل يوحنا الأنطاكى يصحبه اثنان وثلاثون من أساقفته . وما ان وصلوا إلى مشارف المدينة حتى أرسل كنديديانوس شرزمة من الجند لمقابلتهم . وكانت مهمة هذه الشرذمة فى الظاهر تكريم الوافدين . أما فى الواقع فكانت للحيلولة دون اتصال آباء المجمع بهذا الأسقف الأنطاكى . وكان آباء مجمع أفسس قد أرسلوا نوابهم

---

(١) مزمور ٢٧ : ١٤ .

(٢) مجلة المنار العدد العاشر للسنة الثانية صدرت فى بيروت فى ١٨ تشرين الثانى سنة ١٨٩٩ – ص١٤٥ – ١٤٦ .

(٣) مجلة المنار العدد الحادى عشر للسنة الثانية صدرت فى بيروت فى ٢٥ تشرين الثانى سنة ١٨٩٩ – ص١٦١ – ١٦٢ .

(٤) يقول بعض المؤرخين أن يوحنا الأنطاكى وصل بعد خمسة أيام والبعض سبعة أيام – وسواء أكانت خمسة أم سبعة فالجميع متفقون على أنه وصل فى أواخر شهر يونيو .

لمقابلته ، إلا أن الجند أحاطوا به وحالوا بينه وبينهم . فاضطر الآباء إلى أن يسيروا خلف الموكب حتى وصلوا إلى الدار المعدة لاضافة يوحنا . وحين وصل إلى مقره أعلمه الجند بوجود مندوبى المجمع . فتجاهل هذا الأسقف الأنطاكى وجودهم وتركهم ومضى . فظلوا ينتظرون بباب داره ساعتين كاملتين ثم قابلهم مدى دقائق معدودات وتركهم لرحمة بعض كتبته (١) . فعاد مندوبوا المجمع وأبلغوه ما جرى . فلم يسع الآباء إلا أن يعقدوا جلسة عاجلة سجلوا فيها كل ما سمعوه بالتدقيق .

٥٦٧- وقد عقد يوحنا بدوره مجمعاً من ثلاثة واربعين اسقفاً . على أن هذا المجمع كان غير قانونى لخروجه عن الاجماع الكنسى . وهذا المجمع غير القانونى اتهم الأنبا كيرلس والأسقف ممنون بأنهما تعجلا افتتاح المجمع ، كما لم يوافق على الحروم الاثنى عشر التى أصدرها البابا الاسكندرى . وعلى ذلك أصدر حكمه بخلع الأنبا كيرلس والاسقف ممنون عن كرسييهما . على أن الشعب الأفسسى ثار على هذا الحكم وابى أن يقبل أسقفاً غير أسقفه فاستثار بذلك كنديديانوس الذى أمر جنده بأعمال العصى فى الشعب ، وتقبل الشعب الضرب من غير أن يتراجع . ولما فشل يوحنا الأنطاكى وأعوانه فى فرض أسقف دخيل بدلاً من ممنون طلبوا إلى كنديديانوس أن يمنع الأنبا كيرلس والأسقف الأفسسى من اقامة الشعائر الدينية . ولكنه فشل فى هذه أيضاً (٢) .

٥٦٨- وكانت نتيجة المؤامرات بين كنديديانوس ونسطوريوس أن الخطابات التى زوراها وصلت إلى الامبراطور ، فى حين أن الخطابات التى بعث بها المجمع لم تصله . وكانا قد بعثا برسالة إلى الامبراطور أدت إلى أن يصدر امره بمنع تنفيذ الحكم الذى أصدره المجمع الأفسسى ضد نسطوريوس وبعدم السماح للأساقفة بأن يغادروا أفسس بغير اذن امبراطورى فكانت النتيجة أن ثار الشعب الأفسسى ثورة جامحة للمرة الثانية

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٥٤ ، « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٧١ .

(٢) شرحه جـ٢ ص٣٧٤ .

رغم كل ما لاقى من اضطهاد ، وسد فى وجه يوحنا وأنصاره كل طريق يؤدى إلى أية كنيسة من كنائس المدينة .

٥٦٩- وفى وسط كل هذه المشاغبات وصل إلى افسس اركاديوس وبروجكتوس مندوبا الكنيسة الغربية يصحبهما القس فيلبس المندوب الشخصى لسلستينوس الأسقف الرومانى . فاجتمع المجمع فى جلسة ثانية . وكان اجتماعهم فى بيت الأسقف ممنون . ومع أن فيلبس لم يكن غير قس إلا أنه كان المتكلم لأنه كان مندوباً عن شخص أسقف رومية . فقرأ رسالة سلستينوس الموجهة إلى المجمع . وقد جاء فيها : « ... أن المجمع خليق بكل وقار لأنه يضم عدداً من الأساقفة يصح اعتبارهم رسلاً إذ هم خلفاء الرسل . ولقد وعد المعلم أن يكون وسط اثنين أو ثلاثة مجتمعين باسمه فكم بالحرى يكون وسط مجمعًا من الأساقفة هذا عددهم . ولاشك فى ان الذى أمر تلاميذه بأن يبشروا باسمه لن يتركهم ، وهو الذى يعلم بواسطتهم لأنه علمهم ، وهو الذى اكد لهم أن من يسمع منهم يسمع منه (١) . ولقد انتقلت رسالة التعليم من الرسل إلى الأساقفة ، ونحن جميعًا قد تسلمنا هذا التراث - نحن الذين نبشر باسم الفادى نيابة عن الرسل وننادى ببشارة الملكوت فى كل البلاد عملاً بأمر فادينا (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم) (٢) ولقد أراد رب المجد أن يحمل الأساقفة رسالة التعليم من بعد الرسل ، فهى ضرورة موضوعة علينا كلنا فالواجب يحتم علينا أن نسير فى خطى الرسل نحن الذين خلفناهم فى كرامة الكهنوت » (٣) .

وقد جاءت رسالة سلستينوس مطابقة لتعاليم كيرلس تمامًا . وحين سمعها الأساقفة هتفوا : « ليس سلستينوس غير بولس جديد ! ليس كيرلس غير بولس جديد ! ايمان واحد للمجمع وايمان واحد للعالم بأسره » (٤) .

---

(١) لو ١٠ : ١٦ .

(٢) مت ٢٨ : ١٩ .

(٣) يلاحظ فى هذا التصريح ما يتضمنه من مساواة بين الرسل وانتقال هذه المساواة إلى الأساقفة .

(٤) « التاريخ الكنسى » (بالفرنسية) للمنسنيور فلورى ك٢٥ ف٤٧ ، «تاريخ الكنيسة»=

٥٧٠- وفى اليوم التالى اجتمع الآباء للجلسة الثالثة فى منزل ممنون ايضًا . وقد أعلن المندوبون الغربيون أنهم سمعوا بما جرى فى الجلسة الأولى ولكنهم يبغون ان يقفوا على تفاصيلها . وما أن سمعوها حتى وقعوا على قرارات المجمع القاضية بحرم نسطوريوس وتجريده من كل رتبة كهنوتية . وعلى اثر ذلك بعث آباء المجمع برسالة إلى الامبراطور ينبئونه فيها بتوقيع المندوبين الغربيين على قراراتهم . وقد قال الآباء فى ختام رسالتهم : « وهذا التوقيع إن هو إلا دليل قاطع على أن الكنيسة فى مشارق الأرض ومغاربها متفقة على حرم نسطوريوس الذى ابتدع وضل فى التعليم المسيحى القويم » . وقد وقع جميع أساقفة المجمع المسكونى الثالث على هذه الرسالة طالبين إلى الامبراطور ان يصدر مرسومًا يسمح فيه لكل منهم أن يعود إلى مقر كرسيه كما طلبوا إليه أن يسمح باقامة أسقف على القسطنطينية بدلاً من نسطوريوس المحروم .

٥٧١- كذلك بعث الآباء بخطاب إلى اكليروس القسطنطينية وشعبها ينبئونهم فيه بحرم أسقفهم ويناشدونهم بالصلاة كى يرشدهم الله إلى الراعى الصالح الذى يقودهم فى الطريق القويم . ولم يوقع جميع آباء المجمع على هذا الخطاب بل وقع عن غالبيتهم كيرلس البابا الاسكندرى بهذا النص : « كيرلس أسقف الاسكندرية حاكمًا بالاتفاق مع المجمع » . ويليه القس فيلبس مندوب أسقف رومية فيوبيناليوس أسقف أورشليم فأركاديوس وبروجكتوس مندوبا الكنيسة الغربية ففيرموس أسقف فيلبى فمنون أسقف أفسس فثيئودوتس أسقف أنقرة ففيرمينيالوس أسقف برجاموس . وجاءت بعد هذه التوقيعات العبارة التالية : « ولو أن عدد الأساقفة الذين حكموا بحرم نسطوريوس مئتان إلا أننا رأينا أن نكتفى بالامضاءات المبينة فى ذيل هذه الرسالة » (١) .

ومما يجب تسجيله هنا أن كيرلس لم يوقع على قرارات المجمع

- (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٥٧ - ٣٥٩ ، « التاريخ العام للكنيسة الكاثوليكية » (بالفرنسية) للمنسنيور روهر باكر جـ٤ ص٤٠٦ .

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٦١ .

الأفسسى بوصفه ممثلاً لأسقف رومية بل بوصفه البابا الاسكندرى . أما أسقف رومية فقد وقع عنه القس فيلبس الذى كان يمثله فى ذلك المجمع (١) .

وهنا رأى المجمع أن مهمته قد انتهت ولم يعد أمامه إلا انتظار الأوامر الامبراطورية .

٥٧٢ - على أن البابا كيرلس والأسقف ممنون طالبا آباء المجمع بأن يفحصوا قرار الخلع الذى أصدره ضدهما يوحنا الأنطاكى ومجمعه . ومع أن الآباء أعلنوا ثقتهم فى هذين الحبرين إلا أنهم نزلوا على رغبتهما واجتمعوا فى كنيسة السيدة العذراء أم الله للتداول فى هذا الشأن . وقد أسندت رياسة هذه الجلسة إلى يوبيناليوس الأورشليمى الذى ولى كيرلس فى رتبته الكهنوتية (٢) . وما أن اجتمع آباء هذا المجمع حتى أرسلوا ثلاثة أساقفة لينوبوا عنهم فى دعوة يوحنا الأنطاكى . ولكنه اقتدى بنسطوريوس ورفض تلبية الدعوة . حينئذ قال يوبيناليوس أسقف أورشليم : « كان يجب على يوحنا أن يحضر ليدافع عن نفسه . ولكن على الرغم من غطرسته التى دفعته إلى الاستهانة بدعوة المجمع فإننا سنتبع معه التقاليد الكنسية ونرسل له ثلاثة أساقفة آخرين لدعوته إلى الحضور بكل تواضع ومحبة » . وعندها ذهب أربعة أساقفة إلى منزل يوحنا الأنطاكى . ولكنهم لم يلقوا منه إلا الاصرار على الرفض . وصمم المجمع على التمسك بتقاليد الكنيسة فأرسل أساقفة آخرين يدعون يوحنا الأنطاكى للمرة الثالثة . على أن هؤلاء الرسل لم يجدوا منه غير ما وجده الذين سبقوهم لدعوته .

٥٧٣ - وعندها تبين للمجمع أن يوحنا يصر على رفض الحضور . فقال يوبيناليوس أسقف أورشليم : « كان يجب على يوحنا أن يحضر لو كانت الدعوة موجهة إليه منى وحدى لأن ايبارشيته خاضعة لكرسى أورشليم ، فكم بالحرى والدعوة موجهة إليه من مجمع يرأسه أسقف أورشليم ؟ » .

٥٧٤ - وعلى أثر هذه الكلمات الصريحة وقف أكاكيوس أسقف ميليتين

---

(١) « البابوية المنشقة » (بالفرنسية) للأبيه جيتى ص٩٤ .

(٢) شرحه ص٩٣ .

وأعلن أن يوحنا يؤاخذ على خطأين : أولهما أنه لا يملك الحق فى اصدار حكم على اسقف يراس مجمعًا ، وثانيهما أنه انفصل عن المجمع وكون لنفسه حزبًا ذا صفة خاصة . وبعد ان ناقش المجمع هاتين النقطتين أعلن أن قرار الخلع الذى أصدره يوحنا وجماعته ضد كيرلس وممنون باطل البطلان كله . ثم انفضت الجلسة .

٥٧٥– واجتمع المجمع فى اليوم التالى للجلسة الخامسة ، تحت رياسة يوبيناليوس أيضًا . وللمرة الثانية قرر الآباء دعوة يوحنا الأنطاكى عملاً بالقوانين الكنسية ولكنهم لم يجدوا منه غير الاصرار الذى أبداه فى اليوم السابق . وازاء هذا الرفض اتفق رأى المجمع على القرار التالى : « بعد التداول فى تصرفات يوحنا الأنطاكى ، وفيما بدر منه هو ومجمعه من الاهانات ضد البابا كيرلس والأسقف ممنون ، كان فى مقدور المجمع أن يصدر عليه عقوبة صارمة يستحقها هو ومن تآمر معه . على أننا ذكرنا أنفسنا بأن الصبر والشفقة خير دواء ، وأن مثل هذا الدواء خليق بالأساقفة الذين يحملون رسالة المسيح . لذلك رأينا أن نكتفى بقطعه من الشركة الكنسية هو وانصاره » .

ثم ذكر المجمع فى هذا القرار أنصار يوحنا باسمائهم ، ومن بينهم ثيئودوريت أسقف قورش . ومما يؤسف له أن هذا الأسقف – رغم ما أوتى من علم – لم يستطع أن يفرق بين المبادئ وبين الأشخاص الذين يدينون بهذه المبادئ . فهو لم يكن موافقًا على بدعة نسطوريوس ولكن بما أنه كان يكن البغضاء للبابا كيرلس فقد انضم إلى يوحنا الأنطاكى . وبعد أن أصدر المجمع الأفسسى قراره ضد يوحنا وأصحابه عاد فأكد بأن القرار الصادر منهم ضد كيرلس وممنون باطل .

وهكذا انتهت الجلسة الخامسة [1] .

---

(١) مجلة المنار العدد التاسع عشر للسنة الثانية صدر فى بيروت فى ٢٠ كانون الثانى سنة ١٩٠٠ – ص١٨٩ – ٢٩١ ، والعدد العشرين للسنة الثانية صدر فى ٢٧ كانون الثانى سنة ١٩٠٠ – ص٣٠٥ – ٣٠٦ ، « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى ٤ ص٣٦٢ – ٣٦٤ .

وما أن انتهى المجمع من هذه القرارات حتى بعث بصورة منها إلى الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير طالباً إليه التصديق عليها .

٥٧٦- وبعد ذلك بخمسة أيام عقد المجمع الأفسسى جلسته السادسة تحت رياسة الأنبا كيرلس من جديد . وفى هذه الجلسة تداول الآباء فى ايمان الكنيسة الجامعة وقرروا بالاجماع تمسكهم بدستور الايمان النيقى - القسطنطينى ، وأرادوا أن يؤكدوا للعالم بأسره تمسكهم التام بهذا الدستور فذيلوه بحرم كل من يضيف عليه أو ينقص منه .

٥٧٧- وفى اليوم التالى عقد المجمع جلسته السابعة والأخيرة برياسة الأنبا كيرلس وفى هذه الجلسة تناقش الآباء فى موضوع تنظيم كنيسة قبرص ثم أعلنوا استقلال هذه الكنيسة فلما انتهوا من قرارهم هذا وضعوا قوانين ستة تتعلق كلها بالتنظيم الكنسى . وقد استهدفت هذه القوانين حرم نسطوريوس ومشايعيه والغاء الحكم الصادر منهم ضد الآباء الأرثوذكسيين الذين هاجموا بدعته .

٥٧٨- وكانت تقارير المجمع ترسل أولاً بأول إلى الامبراطور ، ولكن كنديديانوس كان يقطع على حامليها السبيل براً وبحراً (١) فلم يصل إلى الامبراطور غير الرسائل التى كان يبعث بها هو وأنصاره . ولم يكتف ايريناوس (صديق كنديديانوس) بمهاجمة « المصرى وأصدقائه » بل ذهب لمقابلة الامبراطور شخصيًا وأوهمه بأن كيرلس وممنون قد خلعا مع نسطوريوس ولم يثق ثيئودوسيوس كل الثقة فى اقوال ايريناوس فأرسل إلى أفسس شريفًا آخر من شرفاء قصره هو الأمير يوحنا أمين خزانة الدولة .

وامتلأت قلوب الآباء بالمخاوف حين بلغهم انتداب هذا الأمير . ولكن الأنبا كيرلس هدأ مخاوفهم بأن وقف فى وسطهم وألقى كلمة اعلن فيها ان كل اضطهاد ضد الأبرار لابد مؤد إلى الخير (٢). إلا أن مخاوف الآباء كانت فى

---

(١) « تاريخ المجامع » للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٩٢ .

(٢) « تاريخ المجامع » للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٣٩٨ .

محلها . فقد وصل الأمير يوحنا يحمل الأمر الامبراطورى بخلع كيرلس وممنون مع نسطوريوس .

٥٧٩- وحين ذاع هذا الحكم الامبراطورى هاج الشعب الأفسسى بينما زعم يوحنا الأنطاكى وأنصاره أنهم انتصروا - خصوصاً وأن الحكام المدنيين فى افسس قبضوا على كيرلس وممنون وألقوا بكل منهما فى سجن منفرد يحيط به قوة من الجند (١) . وفى نشوة هذا الانتصار المزعوم تمادى يوحنا الأنطاكى وزملاؤه فى غيهم فراحوا يروجون الافتراءات على كيرلس ، ونجحوا فى تشويه سمعته إلى حد دفع بعض أصدقائه ومريديه إلى أن يكتبوا إليه خطابات كلها عتاب واستياء . ومن هؤلاء المعجبين . الذين عتبوا عليه ايسيذورس الفرمى قريبه وصديقه ومن اكبر المعجبين به (٢) .

٥٨٠- اما آباء المجمع فقد قابلوا هذه الرسالة بأن ارسلوا خطاباً إلى كهنة القسطنطينية وشعبها أوضحوا فيه المعاملة القاسية التى عوملوا بها ، وتحيز رجال البلاط لنسطوريوس تحيزاً ملموساً . كما ابلغوهم أنهم وقعوا الحرم على المبتدع وكيف أنه - تفادياً لهذا الحكم - عقد يوحنا الأنطاكى مجمعاً مؤلفاً من مشايعيه خلعوا فيه البابا كيرلس والأسقف ممنون . ثم اكد المجمع ان يوحنا - بانفصاله عن الآباء الأرثوذكسيين - قد أضاع السلطة فى أن يصدر اى حكم ، وان مجمعه ليس سوى مجمع مزيف . فإن شاء الامبراطور ان يقف على حقيقة ما دار بين الطرفين فعليه أن يستدعيهم لمقابلته بالقسطنطينية .

٥٨١- وقد صادف طلب الآباء قبولاً لدى الامبراطور إذ قد وصلته رسالتهم لأن الأمير يوحنا لم يقطع عليهم الطريق . ومن ثم اذن الامبراطور للبابا كيرلس بأن يكتب خطاباً من سجنه إلى كهنة القسطنطينية وشعبها فبادر إلى كتابة هذا الخطاب وقال فيه : « لقد عمل الأمير يوحنا بشتى الوسائل على استدراج الآباء إلى الاتصال بيوحنا الأنطاكى ومشايعيه ولكنهم ظلوا ثابتين ، معلنين أنهم لن يقبلوا اقتراحه ما لم يسحب حزب الأنطاكى

---

(١) شرحه جـ٢ ص٤٠٠ .

(٢) شرحه جـ٢ ص٣٩٧ .

كل ما قرره ضد الأرثوذكسيين ويوقع على حرم نسطوريوس » واسترسل الأنبا كيرلس يقول : « ثم اقترح الأمير يوحنا بعد ذلك بأن يجبر كل من الفريقين بايمانه كتابة . فأعلن آباء المجمع الأفسسى أن ايمانهم هو الايمان الذى نص عليه الدستور النيقى القسطنطينى ، وهو ايمان الكنيسة الجامعة التى اصطبغ الامبراطور بمعموديتها » ثم اختتم البابا الاسكندرى خطابه بقوله : « اننا لم نحضر إلى أفسس كمتهمين يجب عليهم تأدية الحساب ولكننا جئنا لاقرار الايمان الحق ، أما المنشقون على المجمع فقد شاءوا أن يطيعوا الأمير يوحنا ولكنهم اختلفوا فيما بينهم اختلافًا لم يمكنهم من أن يوقعوا على ايمان واحد مما جعلهم مضغة فى الأفواه » .

٥٨٢- كذلك بعث الأنبا كيرلس بخطاب إلى الأساقفة الثلاثة الذين كانوا سفراء فى القسطنطينية - وكان اثنان منهم قد حضرا الجلسة الأولى للمجمع الأفسسى وحملا رسالته إلى الامبراطور . على أن الامبراطور لم يتسلم غير هذه الرسالة الأولى لأن كنديديانوس كان قد حال دون وصول بقية الرسائل .

٥٨٣- وفى الوقت عينه كتب المجمع رسالة وجهها إلى الأساقفة ورجال الاكليروس المقيمين فى القسطنطينية إذ ذاك قال لهم فيها « ثقوا أنه لو شاء أصحاب الحكم المدنى أن نموت فلن نتنازل عن ايماننا ، وسنرضى بالموت مفضلين إياه على خيانة سيدنا المسيح له المجد » (١) . وقد أمضى الأسقف يوبينياليوس هذه الرسالة لأنه تسلم مقاليد الرياسة منذ القبض على الأنبا كيرلس وايداعه السجن (٢) .

٥٨٤- ولقد أراد الآباء الأرثوذكسيون أن يضمنوا وصول رسالتهم ورسالتى الأنبا كيرلس إلى الامبراطور فأودعوها عصا مفرغة وائتمنوا عليها راهبًا أرثوذكسيًا معروفًا بولائه للايمان القويم وكلفوه بتوصيلها . فتنكر

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٤٠٠ - ٤٠٢ .

(٢) ولو أن رياسة رومية كانت عليا معترف بها لأسندت الرياسة إلى سفرائها . ولكن حتى فى غيبة كيرلس اسندت الرياسة إلى يوبيناليوس الأورشليمى .

هذا الراهب الأمين فى زى شحاذ وخرج من المدينة يتوكأ على العصا التى تحوى الرسائل الثلاث (١) .

٥٨٥ – ومن الجانب الآخر حاول يوحنا الأنطاكى وانصاره بكل ما اوتوا من قوة أن يستميلوا الامبراطور إلى جانبهم . فكتبوا خطاباً سلموه للأمير يوحنا يطفح تملقاً ادعوا فيه بأن « المصرى المتكبر » أصل البلاء كله . وكتبوا خطابين بعد ذلك : أحدهما إلى الامبراطورين (امبراطور الشرق ولمبراطور الغرب) ، وثانيهما إلى كهنة أنطاكية وشعبها ورهبانها . وقد قالوا فى خطابهم الأخير انه على الرغم من السجن المرير ومن كل ما الحق بهما من اذى واهانة فإن كيرلس وممنون لم يغيرا موقفهما ولم يأبها لشئ مما اصابهما .

٥٨٦ – وفى تلك الآونة كان الأنبا كيرلس معرضاً لخطر مستمر إذ كان الجند يحيطون بغرفته الخاصة بأمر من خصومه المتربصين له . وساد المدينة توتر حاد : فماذا يكون مآل كيرلس يا ترى لو أن الامبراطور انحاز إلى نسطوريوس كما فعل جميع مندوبيه ؟ لو ان شيئاً من هذا حدث فأغلب الظن أن نصيب كيرلس سيكون النفى إلى مكان بعيد حيث تقصر العدالة الانسانية عن الوصول إليه .

كانت الهواجس تساور الشعب الأفسسى وهو يتساءل كل هذه الأسئلة فيتجه ببصره نحو القسطنطينية مترقباً الأخبار فى لهفة واضطراب .

٥٨٧ – وتمكن الراهب الأرثوذكسى المتنكر من أن يصل إلى القسطنطينية بسلام واوصل الرسائل المخبأة داخل العصا إلى أصحابها . وما أن ذاع مضمون هذه الرسائل حتى هب الاكليروس والشعب عن بكرة أبيهم للدفاع عن البابا الاسكندرى المعرض للخطر ذوداً عن الايمان الأرثوذكسى ، وللدفاع عن المجمع الأفسسى المقدس الملتئم لجمع كلمة الكنيسة – هبوا للدفاع عنهم جميعاً دفاع الأبطال . وترأسهم فى ذلك الراهب دلماتيوس الذى

---

(١) مجلة المنار العدد السادس والعشرون للسنة الثانية صدر فى بيروت فى ١٦ آذار سنة ١٩٠٠ ص٤٠١ ؛ تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٧٢ .

كان قد عاش فى مغارته المنعزلة ثمانى وأربعين سنة دون أن يغادرها مرة واحدة . وكان الامبراطور يزوره فى مغارته ليتبرك منه . فهذا الناسك الصالح الذى لم يبرح مغارته طيلة هذه السنين لأى شأن كان ، رأى أن خطورة الموقف تحتم عليه الخروج من عزلته للذهاب إلى القصر الامبراطورى ، فسار تتبعه الجماهير فى موكب رائع ، وكانوا ينشدون المزامير وهم ينتقلون من شارع إلى شارع . وعندما وصلوا إلى القصر وقفت الجماهير خارجاً بينما دخل دلماتيوس فى ثقة وجرأة ليقابل الامبراطور . وعقب هذه المقابلة وافق الامبراطور على اقتراح دلماتيوس ومؤداه أن يحضر إلى القسطنطينية ثمانية مندوبين عن كل من الفريقين المتخاصمين فى أفسس وبعث برسله على الفور إلى المدينة المنعقد فيها المجمع يحملون دعوته .

ولما خرج دلماتيوس من حضرة الامبراطور قاد الجماهير إلى كنيسة القديس موكيوس . وفى الطريق هتفت الجماهير ضد نسطوريوس معلنين سخطهم عليه وعلى بدعته . وما أن دخلوا الكنيسة حتى اعتلى دلماتيوس المنبر وألقى على الجمع وصفاً مسهباً لكل ما دار بينه وبين الامبراطور .

٥٨٨- ولم يكد يصل خطاب الامبراطور إلى افسس حتى انتخب آباء المجمع ثمانية من بينهم أرسلوهم على الفور إلى القسطنطينية . على أنه حين وصل مندوبو الأنطاكيين إلى خلقيدون (فى ضواحى القسطنطينية) وصلتهم رسالة امبراطورية تطالبهم بالبقاء حيث هم لئلا يثير وجودهم شغباً فى الشعب الناقم عليهم وعلى صحبهم .

٥٨٩- ولم يمض على ذلك غير زمن يسير حتى حضر الامبراطور إلى خلقيدون يصحبه مندوبو آباء المجمع المسكونى الثالث . ولما استقر بهم المقام حاول المشايعون ليوحنا الأنطاكي أن يعاودوا النقاش فى قضايا الايمان ، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل لأن الامبراطور رفض ذلك رفضاً باتاً . وأعلن موافقته على الحكم الذى أصدره المجمع الأفسسى بخلع نسطوريوس من كرسيه وقطعه من جسم الكنيسة وحرمه ، معلناً بأنه لا يملك الحق فى أن يملى أوامره على المجمع الذى هو صاحب السلطة فى القضايا الكنسية . ومن ثم حكم الامبراطور بنفى نسطوريوس أولاً إلى ديره ثم إلى الصحراء

المصرية . وفى الوقت عينه بعث برسالة إلى افسس تتضمن الأمر بالافراج عن كيرلس وممنون .

٥٩٠ – ثم دعا الامبراطور اساقفة المجمع الأفسسى ليحضروا إلى القسطنطينية كى يقيموا عليها اسقفًا جديداً ، كما اذن لمن لم يشاءوا ان يحضروا الرسامة بالعودة إلى إيبارشياتهم وعلى اثر ذلك انتخب الآباء الراهب مكسيميانوس ورسموه مكان المبتدع (١). وقد استهل مكسيميانوس أسقفيته بأن بعث برسالة إلى الأنبا كيرلس قال له فيها : « إن رغباتك فى اعلان الحق قد تحققت يا خادم الله ، ونجحت جهودك فى سبيل الايمان كما تم سعى تقواك ، لقد صرت منظراً للملائكة وللناس ولكل كهنة المسيح . فإنك لم تؤمن بالمسيح فحسب ، بل تحملت من اجله كل أنواع العذابات ايضاً. انت وحدك استحققت أن تحمل علاماته فى جسمك (٢) . لقد حظيت بالاعتراف به أمام الناس كى يعترف بك أمام الآب فى حضرة الملائكة . أنت استطعت أن تفعل كل شئ فى المسيح الذى قواك : لقد قهرت الشيطان بصبرك ، واستهنت بالعذابات ، ووطئت سخط الحكام ، وحسبت الجوع كلا شئ لأنك استمتعت بالخبز النازل من السماء الواهب حياة أبدية للبشر» (٣).

٥٩١ – وبعد ارفضاض المجمع بأشهر قلائل انتقل سلستينوس اسقف رومية إلى دار الخلود وخلفه اكسيستوس الذى بعث برسالة إلى كهنة القسطنطينية وشعبها قال لهم فيها عن كيرلس : « إن هذا الرجل الرسولى لم يكن معوزاً فى اى عمل من اعمال الرسل – لقد علم وهذب ووبخ » (٤) .

٥٩٢ – أما يوحنا الأنطاكى فقد امعن فى مناوءة الأنبا كيرلس فجمع

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٧٥ – ٣٧٨ ، مجلة المنار العدد السادس والعشرون للسنة الثانية الصادر فى بيروت فى ١٦ آذار سنة ١٩٠٠ ص٤٠١ – ٤٠٢ .

(٢) ١كو ٤ : ٩ .

(٣) مجلة المنار العدد السابع والأربعون للسنة الثانية الصادر فى بيروت فى ١٠ آب سنة ١٩٠٠ ص٧٣٧ – ٧٣٨ ، « تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة » (بالانجليزية) لچون نيل جـ١ ص٢٧٠ – ٢٧١ .

(٤) شرحه لچون نيل جـ١ ص٢٧١ .

مجمعه مرتين متتاليتين خلعه فى كليهما - هو والأساقفة السبعة الذين اشتركوا معًا فى رسامة مكسيميانوس أسقفًا على القسطنطينية ، وقد استثار تصرفه هذا غضب الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير الذى كان يأمل فى أن يستتب السلام بعد الفصل فى موضوع نسطوريوس . فتداول مع مكسيميانوس الأسقف الجديد لعاصمته ، ونزولاً على اقتراحه انتدب اريستولوس أحد قواده للذهاب إلى الاسكندرية لمقابلة الأنبا كيرلس مستهدفاً الائتلاف بين الكنائس .

٥٩٣- ولما قابل أريستولوس البابا الاسكندرى واطلعه على رغبة الامبراطور فى أن يتم الصلح بين الكنائس أبدى الأنبا كيرلس استعداده التام لأن يتصالح مع الجميع مؤكداً للمندوب الامبراطورى أن لا هدف له إلا اعلان الايمان الأرثوذكسى وتثبيته فى قلوب الناس - أما الاساءات الشخصية فلا أثر لها فى نفسه على الاطلاق . وتأييداً لكلامه هذا كتب رسالة حملها لأثنين من شمامسته يثق فيهما تمامًا . وقد تضمنت الرسالة الاعتراف الأرثوذكسى الذى جاهر به منذ البداية وهو : « إن سيدنا يسوع المسيح هو الابن الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، وهو الكلمة المتجسد ، وهو الكائن فى حضن أبيه - هو بعينه الذى اتخذ جسداً فى ملء الزمان من السيدة العذراء مريم لأجل خلاصُنا . وهو مساوٍ للآب فى جوهر اللاهوت ومساوٍ لنا فى جوهر الناسوت ولما كانت الطبيعتان قد اتحدتا بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير فإننا نعترف برب واحد هو المسيح الواحد وهو الابن الوحيد الواحد . كما إننا نعترف بأن السيدة العذراء هى أم الله لأن ابن العلى اتخذ جسده منها وعاش فى أحشائها تسعة أشهر » .

وقد ذيل البابا كيرلس اعترافه بحرمه نسطوريوس واعترافه بمكسيميانوس خليفة شرعياً له .

٥٩٤- وحين سلم البابا كيرلس هذه الرسالة إلى شماسيه أوصاهما بأن يعلما الاكليروس الأنطاكى بمضمون رسالته وأن يطلبا إلى الأسقف يوحنا أن يوقع على رسالته ، فإن قبل التوقيع عليها أعلنا له مباشرة أنه مقبول فى شركة الكنيسة الجامعة .

كذلك توسط أكاكيوس أسقف ميليتين فى الصلح . فكاتب جميع أساقفة الشرق (التى كانت انطاكية عاصمته إذ ذاك) موصياً اياهم بالتصالح ومعلناً لهم اعجابه بالأنبا كيرلس (١) .

٥٩٥- وقد قابل يوحنا الأنطاكى جميع هذه المساعى بانتخاب الشيخ الجليل بولس أسقف حمص للذهاب إلى الاسكندرية ومقابلة باباها ليحصل منه على بعض ايضاحات للايمان يرتضيها الشرقيون . وقد بعث الأنطاكى مع مندوبه المبجل برسالة خاصة إلى الأنبا كيرلس كانت الرسالة الأولى التى بعث بها إليه منذ ظهور البدعة النسطورية . وبينما كان بولس الحمصى فى طريقه إلى الاسكندرية ، كتب يوحنا الانطاكى إلى جميع الأساقفة المناصرين له ليبلغهم انه كاتب الأنبا كيرلس . وما أن انتهى من كتاباته حتى عقد مجمعاً من أساقفته تناقش فيه معهم فى الرسالة التى جاءته من البابا الاسكندرى . وبعد التداول قرروا بالاجماع التوقيع عليها .

٥٩٦- وهكذا عقد الصلح بسرعة بين الكرسيين الرسوليين : الاسكندرى والأنطاكى وقد أبدى الأنبا كيرلس فرحه بهذا الصلح بأن أعلنه على شعبه بنفسه لأنه كان متشوقاً الشوق كله إلى معاودة الصلات بانطاكية إلى حد جعل بعض أصدقائه يلومونه لتساهله فى عقد الصلح ولمصافحته يوحنا الأنطاكى بهذه السرعة . على أن اللوم لم يؤثر فى البابا الاسكندرى الذى كانت لعقيدته المكانة الأولى من قلبه وعقله فكان ينسى - فى سبيلها - كل اساءة شخصية وكل ما يلقاه من ضيق واهانة (٢) . وتبدو هذه الحقيقة التى تشهد بحكمة كيرلس وترفعه عن الصغائر من خطابين بعث بهما إلى أكاكيوس أسقف ميليتين ، كما بعث بصورة منهما إلى أسقف تسالونيكا (٣).

---

(١) « تاريخ المجامع » (بالفرنسية) للمنسنيور هيفيليه جـ٢ ص٤٣٦ .

(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٤٦٨ حيث قال :

" Un fait digne de remarque, c'est qu'après avoir poursuivi énergiquement Nestorius, il montra beaucoup de douceur et de la tolérance à l'égarde de ceux qui avaient soutenu cet hérésiarque " .

(٣) شرحه جـ٤ ص٢٨٢ - ٢٨٣ .

٥٩٧- ولما كان البابا كيرلس يعد الحكم الذى يرجع إليه الأساقفة كلما أعوزهم ايضاح للايمان الأرثوذكسى وللتعاليم الكنسية ، أو شاءوا أن يستفهموا عن دقائق الموقف الذى أدى إلى الصلح بين الكنائس كتب إليه يوحنا الأنطاكى يؤكد له اخلاصه ويرجو منه أن لا يضن عليه بمشورته (١) وكان هذا الخطاب وسيلة تذرع بها أسقف انطاكية ليثبت صلحه مع بابا الاسكندرية .

ولما سمع أكسيستوس أسقف رومية بأن السلام قد استتب بين هذين الحبرين أرسل إلى البابا كيرلس خطاباً يسميه فيه الرجل الجرئ المستهين بكل خطر محقق ولو أدى ذلك إلى فقد الحياة فى سبيل الدفاع عن الايمان الأرثوذكسى (٢) .

٥٩٨- وفى تلك الفترة قامت مناقشة عنيفة حول ثيئودورس المصيصى : فقد اتهمه الأرثوذكسيون بأنه جرثومة البدعة النسطورية ، بينما دافع عنه أنصاره بكل حماسة فكتب الأنبا كيرلس إلى يوحنا الأنطاكى خطاباً قال له فيه أنه ليس من اللائق اثارة موضوع خاص بانسان قد انتهى من هذه الحياة وبخاصة أن موضوع النقاش قد أصدر فيه المجمع قضاءه الأخير ووافق غالبية أنصار ثيئودورس على قرارات هذا المجمع . ويكفى تصحيح ما وقع فيه ذلك الأسقف من خطأ ، اما شخصه فلا يصح التعرض له لأنه أصبح فى عداد الموتى ويعجز عن الدفاع عن نفسه (٣) .

٥٩٩- وبعد أن نجح الأنبا كيرلس فى مساعيه لتحقيق السلام كرس نفسه لرأب الصدع الذى كان قد شق الكنائس المسيحية الشرقية . فكتب ، ونصح ، وتفاوض بهمة لا تعرف مللاً ولا كللاً .

٦٠٠- ولم يمنعه اشتغاله بهذا كله من أن يكتب ويعلم شعبه ليرسخ بنيان كنيسته . ومن الوسائل التى استعان بها هذا البابا العظيم والراعى اليقظ تدوينه لقداس مارمرقس الرسول كاروز ديارنا المحبوبة - فتولى ترتيبه

---

(١) شرحه جـ٤ ص٣٨٣ .

(٢) شرحه جـ٤ ص٣٨٤ .

(٣) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٨٦ - ٣٨٧ .

وتنسيقه ثم نشره بين الشعب . ولهذا يعرف هذا القداس باسم «القداس الكيرلسى» . ولقد أعجب باسيليوس الكبير أسقف قيسارية الكبادوك بهذا القداس الروحى العميق فاقتبس منه الصلوات الكثيرة كصلوات الآباء والجماعة والسلامة وتحليل الابن . ومما يجب ذكره فى هذه المناسبة أن القديس مرقس الانجيلى قد قرر فى صلاة استدعاء الروح القدس انبثاقه من الآب حيث قال مخاطباً الآب السماوى : « أرسل على هذه روحك القدس المنبثق منك » . وهذا القداس يعبر عن أعمق ما فى الروح البشرية من تطلع نحو الله . لذلك جرت العادة قديماً أن تترنم الكنيسة بهذا القداس فى الصوم الأربعينى وفى شهر كيهك لأن معظم ألحانه يميل إلى التذلل والخشوع اللائقين بهذه الأيام المقدسة (١) .

٦٠١- ولقد حافظ الأنبا كيرلس - أسوة بسلفائه - على التقليد الذى قرره مجمع نيقية . وهو أن يعلن البابا الاسكندرى يوم تعييد القيامة المجيدة لجميع الكنائس . وأن الميامر التى كان يكتبها مع رسائله الفصحية تؤلف مجموعة ذات قيمة عظمى فى ايضاح الايمان الأرثوذكسى وادخال التعزية والثبات على قلوب المؤمنين . وفى هذه الرسائل فسر هذا البابا المصرى العظيم الوسائل التى تؤدى إلى اكتساب الفضائل المسيحية ومن بينها الصوم والصلاة والتوبة .

٦٠٢- وإلى جانب مؤلفات الأنبا كيرلس عن التجسد الالهى ، وعن العبادة بالروح والحق ، فإنه كتب بطريقة تثير الاعجاب عن الكهنوت . ذلك أنه كان يعد الكهنوت تتمة لخدمة المسيح له المجد الكاهن الأبدى . فالكهنوت

---

(١) مخطوطة رقم ٣٧٥ لاهوت محفوظة بالمتحف القبطى ص٢٠ . ومما تجدر ملاحظته هنا أن شهر كيهك (لكونه ينتهى بعيد الميلاد المجيد) مكرس لتمجيد السيدة العذراء فتترنم الكنيسة بصلوات خاصة تعرف باسم « سبعة وأربعة » وهى أربع هوسات تتضمن تسبحة موسى ، مزمور ١٣٥ (حسب النسخة القبطية و١٣٦ حسب النسخة العبرانية) تسبحة الفتية الثلاثة ، مزامير ١٤٨ و١٤٩ و١٥٠ . وسبعة ثيئوتوكيات ثيئوتوكية لكل يوم من أيام الأسبوع . والهوس ϩⲱⲥ كلمة قبطية معناها تسبحة أما الثيئوتوكيا فهى أصلاً كلمة يونانية أخذها القبط كما هى ومعناها تسبحة تمجيد السيدة العذراء التى لقبها الآباء الرسوليون بلقب ثيئوتوكس (أى أم الله) .

واحد رغم عدد المتجملين برتبته لأنه يمثل خدمة المسيح الواحد : المسيح العامل فى الكنيسة لكونه معها إلى انقضاء الأيام . لذلك عد الأنبا كيرلس الاثنى عشر رسولاً اثنى عشر عموداً فى البناء الروحى الذى هو الكنيسة المقدسة (١) .

ويضاف إلى هذا كله أن البابا كيرلس قد فسر جميع أسفار العهدين القديم والجديد . ولايزال باقيًا من تفسيراته ما يدل بصورة قاطعة على اتساع أفق تفكيره ، وتعمقه فى الدراسة ، وادراكه البعيد الغور لغوامض الروحيات . وهذه الصفات جميعها تميزه وتجعل منه شخصية من أعظم الشخصيات التى قادت الكنيسة الاسكندرية : تلك الكنيسة التى انجبت عدداً وفيراً من أعاظم المعلمين (٢) .

٦٠٣- وقد حاز الأنبا كيرلس اعجاب معاصريه وتقديرهم إلى حد ان جميع الأجانب الذين وفدوا على مصر لزيارة صحاريها والتبرك بالآباء الساكنين فيها كانوا يقصدون إليه للتبرك به والاصغاء إلى نصحه وارشاده . وبين الذين حظوا بمقابلة هذا البابا العجيب ميلانيا الصغرى ومعهما أمها ألبينا .

ولم ينل الأنبا كيرلس اعجاب الأفراد فحسب بل نال أيضًا اعجاب الجماعات : فقد ائتمنته كنيستا رومية وأفريقيا على الدفاع عن الايمان الأرثوذكسى فى المجمع المسكونى الثالث . كما ان كنيسة أفريقيا قد طلبت إليه أن يوافيها بالقوانين النيقية الأصيلة لأن جميع الكنائس كانت تعده المدافع الأول عن الايمان القويم (٣) .

---

(١) سفر الرؤيا اصحاح ٢٠ .

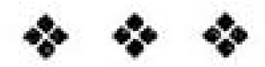
(٢) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٤٦٤ - ٤٧٤ . حيث يقول على الصفحة الأخيرة منها :

" Ce qui nous reste de ses commentaires accuse une érudition très étendue, et prouve qu'il était digne, par sa science exégétique, de présider l'église d'Alexandrie qui a produit tant de savants ouvrages ... On sait qu'il mérita l'estime des plus saints personnages de son temps " .

(٣) شرحه جـ٤ ص٤٧١ - ٤٧٤ .

٦٠٤ – ويبدو البابا كيرلس لعدد وفير من الناس لغزاً غامضاً إذ يعدون موقفه بازاء نسطوريوس غير معقول . وهؤلاء النقاد عاجزون عن أن يدركوا كيف أن رجلاً يقبل الطعنات والنقد اللاذع – حتى من أصدقائه – ليدافع عن فكرة . فقد رضى الأنبا كيرلس بهذا كله دفاعاً عن فكرة يعدونها من الأفكار الخيالية . على أن البابا كيرلس قد سلك هذا المسلك لأنه – مع ادراكه التام لقيمة التراث العظيم الذى اؤتمن عليه – كان مستهيناً بكل خطر ، مستعداً لأن يتناسى الاهانات الموجهة إليه لأن الايمان الذى تمسك به حتى النهاية كان له المكانة الأولى فى نفسه إلى حد جعله يتناسى شخصه . وهذه الصفة قد اعترف له بها خصومه حتى انهم رغم اتهامهم اياه بأنه تصرف فى المجمع تصرفاً دكتاتورياً قد أقروا بحكمته وبسداد مسلكه فى قيادة هذا المجمع . لأنه عندما اتهم لم يكتف باسناد الرياسة إلى يوبيناليوس أسقف أورشليم بل تخلف عن حضور الجلسات ليكون للآباء المجتمعين مطلق الحرية فى دراسة الشكاوى الموجهة إليه . وهذه الصفات غير المفهومة لدى الكثير هى التى اكتسبت له عرفان الكنيسة بالجميل . فإن الآباء المعاصرين له قد خصوه من بين ألفاظ النعوت بالتقى والعالم ، والثابت ، والذى نفذ كل ما يتطلبه بولس الرسول من المعلم الحق . أما الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية فقد أطلقت عليه ألقاباً عدة تبين كلها ما بلغه من مكانة ممتازة – وهذه الألقاب هى : «شبل مارمرقس الانجيلى الأسد الجرئ ، المصباح المنير للكنيسة الأرثوذكسية . عمود الدين القويم» . ومما يؤثر فى هذا المقام قول المؤمنين بالكلمة المتجسد عنه : «إن كانت المكانة الأولى فى الدفاع عن الايمان هى لأثناسيوس فالمكانة الثانية لكيرلس بلا جدال» .

٦٠٥ – وقد استنزف منه الدفاع عن الايمان الأرثوذكسى كل قواه الجسمية ، فدخل إلى فرح سيده ولم يتجاوز السابعة والستين من حياته المباركة بعد أن قاد دفة الكنيسة فى أخطر العواصف كما قادها فى أصفى أيام السلام مدى احدى وثلاثين سنة وثمانية أشهر . وكان انتقاله إلى بيعة الأبكار سنة ١٥١ش (سنة ٤٣٥م) .



رئيس المتوحدين

(٦٠٦) تنبوء القديس أورسيسيوس عن شنودة [٥].

(٦٠٧) مولد شنودة وتربيته المسيحية .

(٦٠٨) اشتغاله برعى الأغنام وبالصلاة وهو طفل .

(٦٠٩) أبوه يراقبه ويعرف سر تأخره .

(٦١٠) أبوه يصحبه إلى دير خاله حيث يتركه .

(٦١١) شهادة أحد شيوخ الرهبان عنه.

(٦١٢) ملاك الرب يشير بالباسه الاسكيم .

(٦١٣) صوت من السماء يعلن شنودة أرشيمندريت .

(٦١٤) النظام الذى وضعه شنودة لرهبانه .

(٦١٥) شنودة عاش فى عصر متأجج بالأحداث .

(٦١٦) استضافته عشرين ألفا من مواطنيه مدة ثلاثة شهور .

(٦١٧) أبوته لرهبان ولراهبات تتخللها العزلة .

(٦١٨) قيادته لهم ستة وستين عاما .

(٦١٩) شنودة صورة للعبقرية الفرعونية .

(٦٢٠) الكنيسة الأثرية التى تحمل اسم هذا القديس فى بابلون .

(٦٢١) الدير الأبيض والدير الأحمر .

٦٠٦– كان بين الآباء الذين صحبوا الأنبا كيرلس إلى مجمع أفسس المسكونى الثالث ناسك اسمه شنودة الأخميمى أحد جبابرة الكنيسة القبطية (١) ولقد تنبأ عنه القديس أورسيسيوس الشبيه بالملائكة . فقد كان هذا القديس سائراً فى الطريق ذات يوم ليقوم بخدمة لازمة للدير . والتقى أثناء سيره بأم شنودة بينما كانت في طريقها لتستقى ماء – ولم تكن قد أنجبته بعد . فذهب أورسيسيوس إليها ، وسلم عليها ، وقال لها : « سيبارك

---

(٥) هذا هو الشكل الصعيدى لاسم رئيس المتوحدين الذى عاش فى الصعيد ولم يستعمل غير اللهجة الصعيدية فى كتاباته وخطبه وحديثه اليومى . أما الشكل البحيرى لاسمه فهو شنوتى ϣⲉⲛⲟⲩϯ ومعناها خادم الله او المكرس لله .

(١) هذه هى التسمية التى اطلقها عليه دكتور جوردون المستشرق الأمريكى الكبير ومؤلف كتاب « مقدمة إلى عصور العهد القديم » (بالانجليزية) .

الله ثمرة بطنك ويعطيك ابناً يفوح اسمه كالعنبر فى كل أرجاء المسكونة»(١).

٦٠٧- وحدث بعد ذلك أنه حين تمت أيامها لتلد ولدت شنودة . ولما كانت هى وزوجها من المسيحيين خائفى الله فقد ربيا ابنهما شنودة على المبادئ المسيحية المثلى .

٦٠٨- وكان لوالد شنودة حقل مترامى الأطراف ، يشتغل هو فيه بنفسه مع فلاحيه ، كذلك كان يملك قطعاناً من الغنم . فرأى أن يدرب ابنه على العمل منذ حداثة سنة ، واستقر رأيه على أن رعى الأغنام ليس بالعمل العسير ، فأرسل شنودة للرعاة وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وطلب منهم أن يدربوه على الرعاية مشترطاً عليهم أن يعفوه من حراسة الليل وأن يعيدوه إلى المنزل حالما تغيب الشمس . ومن ثم كان الصبى شنودة يلازم الرعاة طيلة النهار ويعطيهم غذاءه الخاص بدلاً من أن يأكله وعند غروب الشمس كانوا يستصحبونه حتى منتصف الطريق ، ثم يتركونه ويعودون إلى الأغنام . أما شنودة بدلاً من أن يعود إلى أبويه مباشرة ، فكان يقف إلى جانب بئر ويصلى حتى ساعة متأخرة من الليل .

٦٠٩- وكان أبواه ينتظرانه بصبر نافذ ويتعجبان من أن الرعاة لم يفوا بوعدهم . فلما مضت بضعة أيام وشنودة يعود إلى بيته متأخراً ، ذهب أبوه ليتفاهم مع الرعاة مرة أخرى ويعلم منهم السبب الذى دعاهم إلى حجز ابنه بعد أن يعم الظلام الأرض . فلما قابلهم وسألهم أبدوا دهشتهم وأكدوا له انهم يتركون شنودة عند الغروب وأن واحداً منهم يستصحبه إلى منتصف الطريق ثم يعود إليهم .

وكان دور والد شنودة ليندهش - إذ لم يدر أين يذهب ولده ولا ماذا يعمل فى الفترة ما بين استصحاب الراعى له وساعة وصوله إلى البيت . ففى اليوم التالى وقف يرقب من بعيد ، ورأى الراعى سائراً مع ابنه حتى بئر عند منتصف الطريق ، ثم رأى ولده يقف إلى جانب البئر ويصلى . وحين رآه على هذه الصورة تهلل قلبه فرحاً وعاد إلى البيت فأبلغ زوجته بما رأى .

---

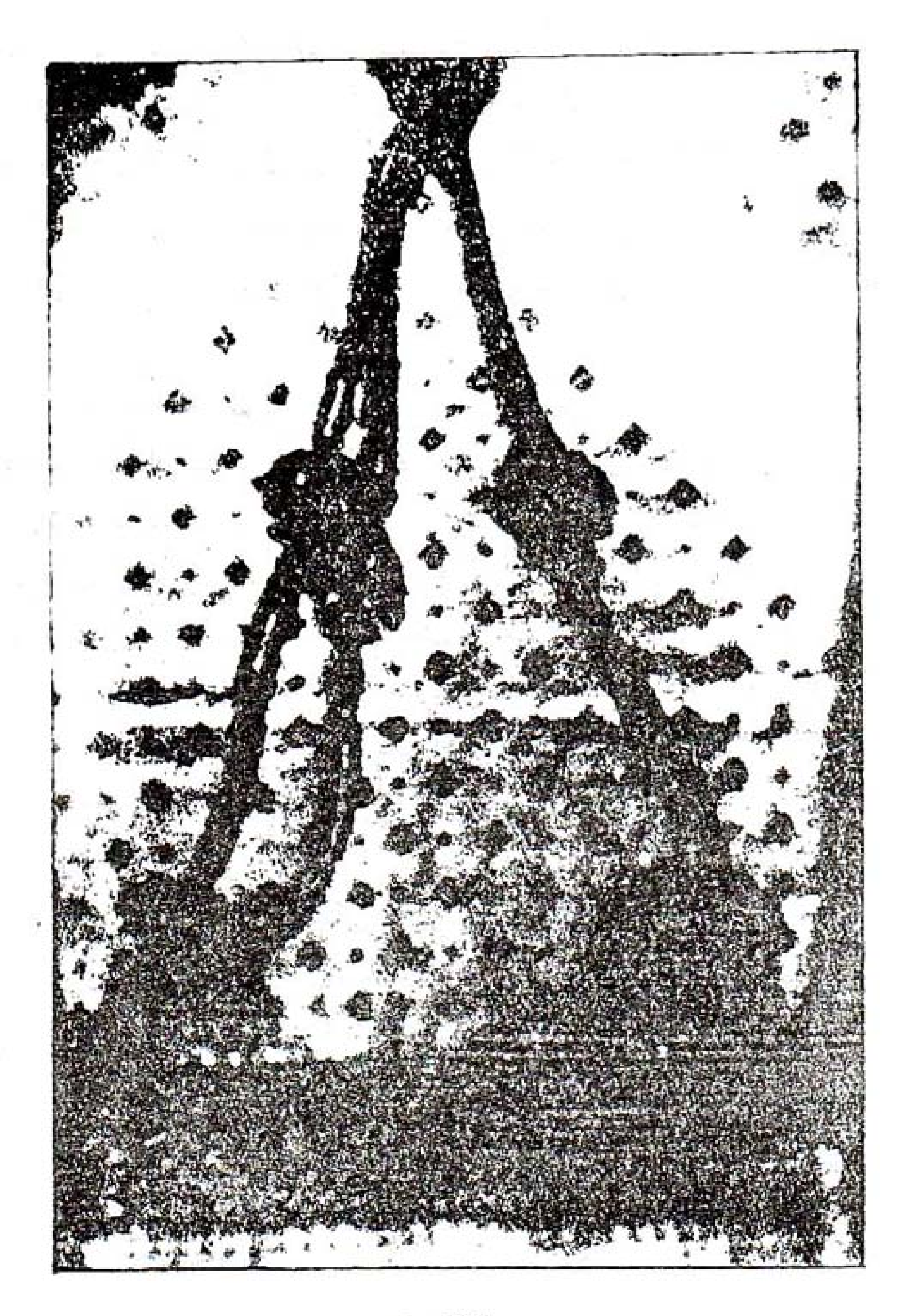
(١) السنكسار الأثيوبى ، ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ٤ ص١٠٧٩ - ١٠٨٠ .

٦١٠- وفى اليوم التالى - بدلاً من أن يدع ابنه شنودة يذهب مع الرعاة ، استصحبه إلى خاله الراهب المعروف الأنبا بجول . ولما وصل الاثنان إلى الدير قال له والد شنودة : « بارك يا أبى هذا الصبى » . ولكن الأنبا بجول أخذ يد شنودة ووضعها على رأسه قائلاً : « أنا الذى يجب أن ينال البركة من هذا الصبى لأنه اناء مختار للسيد المسيح الذى سيخدمه بأمانة كل أيام حياته » . فلما سمع أبو شنودة هذه الكلمات تطاير قلبه فرحًا ، واستودع الولد خاله ثم عاد إلى أمه وأخبرها بما كان من أمره . فشاطرته فرحه ، وشكرت الآب السماوى الذى وهبها ولداً مثل هذا . فنشأ شنودة منذ صباه فى دير خاله ، ومنه اقتبس كل الفضائل المسيحية .

٦١١- وقد شهد أحد شيوخ الرهبان بأن شنودة حتى وهو بعد فى سن الشباب كانت أصابعه تلمع لمعان الشموع المضاءة حين كان يرفع يديه نحو السماء فى الصلاة .

٦١٢- وظل بعضًا من الوقت يجاهد فى سبيل الكمال الروحى : بالصوم والصلاة وبالصبر والاتضاع . وكان نشيطاً يؤدى جميع الواجبات الرهبانية المفروضة عليه بهمة نادرة . وكان خاله يرقبه باهتمام زائد وهو يشعر بالفرح لنموه السريع فى العلم والفضيلة . وازداد فرحه بسبب ما رآه فى رؤى الليل - فقد سمع ملاك الرب يقول له : « ألبس الراهب الشاب شنودة الاسكيم المقدس » . فقام فى الصبح باكراً جداً وصلى صلاة الاسكيم المقدس ومنطقه به ، ثم قال له : « إنى أباركك يا ابنى شنودة لأنك ستكون أباً لرهط من جماعة مباركة » . وخلال هذه السنوات عاش شنودة فى الدير الأحمر حيث كان خاله أباً للرهبان . ولما رأى شنودة أنه نال كرامة الاسكيم ضاعف جهوده وأمعن فى دراسة الأسفار الالهية . ولم يقتصر على دراستها لنفسه ، بل أخذ يعلمها للرهبان والمدنيين الذين كانوا يفدون على الدير لوفاء ما عليهم من نذور - فكان يجمعهم حوله ويعلمهم مثبتًا اياهم على الايمان الأرثوذكسى .

٦١٣- وفى أحد الأيام سمع الرهبان الشيوخ صوتاً يقول : « لقد أصبح شنودة أرشيمندريت » (رئيساً للمتوحدين) . وكانت غيرة شنودة المتقدة ، وقداسته الفائقة ، والاستعلانات الالهية العديدة التى منحه إياها الآب



صورة الاسكيم

وهو - كما يرى القارئ - منطقة من الجلد المضفور تتخلله الصلبان على أبعاد متساوية . والاسكيم فى هذه الصورة موضوع فوق قطعة من التيل الأبيض المطرز بخيوط ذهبية ، وكلاهما من عمل المتبتلين . فالاسكيم ضفره أحد الرهبان العائشين الآن فى دير البرموس بوادى النطرون ، والقطعة المطرزة شغلتها راهبة من دير القديس مرقوريوس (أبى السفين) بمصر العتيقة (جنوبى القاهرة) . وذلك اتباعاً للقواعد الرهبانية - راجع ص١٠١

السماوى : كانت كل هذه الصفات سبباً فى اجتذاب عدد وفير من الناس إليه ، جاءوا ليعيشوا معه تحت رعايته وليتعلموا منه الفضائل المسيحية . فلما انتقل الأنبا بجول إلى بيعة الأبكار انتخبوا شنودة خلفاً له .

٦١٤- ومع أن الأنبا شنودة اتبع نظام الرهبنة السائد فى مصر إلا أنه وضع خطة يسير عليها رهبانه بها بعض الاختلاف ، تتلخص فيما يلى :

١ - **طالبو الرهبنة** : افرد الأنبا شنودة منازل خاصة بطالبى الرهبنة شأنه فى ذلك شأن النظام الباخومى إلا أنه جعل هذه المنازل خارج الدير بدلاً من تشييدها داخل أسواره . وبعد أن يقضى طالب الرهبنة المدة المقررة للتدريب يثبت خلالها أنه خليق بحياة النسك التى طلبها ينضم إلى جماعة الرهبان ويعيش معهم داخل الدير وقد رأى الأنبا شنودة أن يطالب الراهب (عند رسامته) بالتوقيع على عهد كتابى يأخذه على نفسه باتباع قوانين الدير وبالتزام المساواة التامة بينه وبين اخوته الرهبان . وكان هذا التوقيع على عهد من ابتكار الأنبا شنودة نفسه إذ لم يوجد بين آباء الرهبنة من طالب رهبانه بمثل هذا العمل .

٢ - **الادارة** : كان لمجموعة أديرة الأنبا شنودة رئيس أعلى لقب منذ القرن الخامس بالأرشيمندريت . وكان هو ووكيله مسئولين عن ادارة الدير الرئيسى والأديرة الفرعية التابعة لها . وكان لكل دير فرعى مشرف مسئول عن تنظيم الأعمال اليدوية فيه . أما القيادة الروحية فكان الرئيس الأعلى مسئولاً عنها بنفسه فى كل الأديرة التابعة له ولكى يؤدى هذا الواجب العظيم كان يعقد أربعة اجتماعات سنوية يحضرها جميع الرهبان حتى لقد كان المتوحدون يحضرونها ايضاً .

٣ - **العبادة** : اهتم الأنبا شنودة اهتماماً خاصاً بالنمو الروحى بين رهبانه فنظم الصلوات وجعلها على أربعة اقسام :

ا- صلاة قصيرة ترددها كل مجموعة من الرهبان قبل البدء فى العمل المنوط بها .

ب- الصلوات الخاصة وتتضمن اجمالاً بعض المزامير وغيرها من

التسابيح . ولكن بما انها خاصة فقد تركت الحرية لكل راهب في ما يقول وفي المواعيد التي يختارها .

جـ- الصلاة الجماعية : وقد خصص لها اربعة مواعيد يومياً - صباحاً وظهراً وعند الغروب وليلاً . وكان الرهبان يهرعون إلى هذه الصلوات في صمت تام ، وحين ينتهون منها يعودون في صمت تام كذلك لكي يفكروا في ما سمعوا من صلوات وتأملات .

د- القداس الالهي : كانت لهذه الصلوات الروحية اهمية عظمى في نظر أباء الكنيسة جميعاً لقدسيتها . وكان المتبع في الأديرة ان يكون القداس خاصاً بالرهبان وحدهم . ولكن حين تولى الأنبا شنودة الرياسة فتح أبواب اديرته للشعب من مساء السبت ، فكان آلاف الناس يذهبون في ذلك الوقت ويحضرون صلوات المساء ويبيتون في الدير (١) ثم يشتركون صباحًا في القداس . وبعد الانتهاء من القداس كان الأنبا شنودة يدعو هؤلاء الجموع إلى تناول الغذاء على موائد أعدها لهم الرهبان خصيصًا وكانوا يخدمونهم بأنفسهم ساعة الأكل . وكان الأنبا شنودة ينتهز فرصة وجود الجماهير في ديره ليعظهم معلمًا ومرشداً اياهم إلى الايمان الأرثوذكسي وكانت مواعظه ذات هدف أسمى قصد بها أن يعرف الشعب صحة التعاليم التي تلقنها عن أبائه ليستطيع أن يجيب عن الايمان الذي فيه إن سأله أحد ممن لم يعتنقوا المسيحية بعد . وأن من يقرأ سيرة الأنبا شنودة ومواقفه من الشعب يجد صورة رائعة لذلك الترابط الروحي الذي يجعل من المجتمع مجموعة متماسكة متعاونة . لأن رئيس المتوحدين كان يحب مواطنيه حبًا عميقًا جارفًا دفعه إلى أن يتذرع بكل الوسائل لتقويته وتثبيته : فكان يقدم لهم الصلوات والعظات كما كان يقدم لهم الطعام البائد . وكل هذه التقدمات كان يتناولها الشعب جماعة فيشعر بالصلة القائمة بينه وبين غيره من مواطنيه.

---

(١) من هنا يتضح لنا أن النساء لم يزرن الأديرة فحسب ، بل كن يبتن فيها ايضاً . لأن الآلاف التي كانت تحضر اسبوعيًا كانت تضم عائلات باسرها كما كانت تضم الشمامسة والشماسات . فالتقليد الكنسي القديم افسح المجال امام المراة للتعبد ولنوال البركة كما افسحه أمام الرجل .

٤ – **التعليم** : اهتم الأنبا شنودة بالتعليم ، ولشدة اهتمامه به لم يقصره على رهبانه بل وسعه ليشمل أهالى المنطقة المجاورة لديره . وكان يستهدف رفع الشعب من ضلالة الخرافات إلى كمال المسيحية . فقد صعب عليه أن يرى مواطنيه يعيشون فى فزع مستمر مما قد يقع عليهم من أذى الطلاسم والتعاويذ الموجهة ضدهم فسعى إلى تعليمهم مبيناً لهم أن هذا الخوف مجرد وهم ماداموا يحتمون فى ظل محبة الله . وسعى فى الوقت عينه إلى تقديم المعونة الطبية لهم ، فكان رهبانه يعالجونهم ويعتنون بهم العناية الصحية اللازمة لتقوى أجسامهم فيستطيعوا الاضطلاع بأعمالهم المرهقة فى شئ من الراحة .

٥ – **العمل اليدوى** : نال هذا النوع من العمل قسطاً من عناية الأنبا شنودة الذى لم يكتف بتعليم رهبانه مختلف الحرف والصناعات ، بل أضاف إليها فن الكتابة فألحق بالدير الأبيض مدرستين يتعلم فيها الموهوبون من الرهبان كيف ينقلون الكتب ويزخرفونها .

٦ – **الطعام والملابس** : كانت فى الأديرة الشنودية على النمط الذى كانت عليه فى الأديرة الأخرى .

٧ – **نظام العزلة** : لم يتبع جميع الرهبان العائشين تحت رياسة الأنبا شنودة نظام الشركة ، بل كان بينهم من آثر حياة العزلة . وكان هؤلاء المتوحدون يأتون إلى الدير من آن لآخر ليأخذوا منه ما يلزمهم من الخبز والماء أو ليحضروا الاجتماعات السنوية الأربعة ، وهكذا جمع الأنبا شنودة بين الرهبنة الأنطونية والرهبنة الباخومية . وهذا الجمع بين نوعى الرهبنة لم يكن قاصراً على الرهبان لأنه مارسهما شخصياً إذ كان يقضى بعضاً من الوقت فى الدير والبعض الآخر فى مغارة منعزلة .

٦١٥ – ولقد عاش الأنبا شنودة فى عصر يتأجج بنيران الأحداث والانفعالات : ففيه انعقدت ثلاثة مجامع هى مجمع أفسس المسكونى الثالث ، ومجمع أفسس الديسقورى ، ومجمع خلقيدون الذى شق الكنيسة المقدسة . وفيه زالت الوثنية نهائياً بعد أن حاول الامبراطور يوليانوس الجاحد عبثاً أن يعيدها إلى الوجود ، وفيه أيضاً تحققت القومية المصرية فى صورة أذهلت

العالم إذ قد وقف المصريون جميعًا كتلة واحدة ضد الملكية الدخيلة ولم يرضوا بها حتى عندما اصطبغت بالصبغة الدينية [1] . وفى وسط هذه الحياة العنيفة الفائرة برز الأنبا شنودة كالمنارة الساطعة . ومع أنه كان شغوفًا بالعزلة منذ صباه فقد شاطر العالم حياته إذ كان يرقب الأحداث والتقلبات السياسية بدقة واهتمام . ذلك لأنه أدرك كل الادراك أن التلميذ المخلص للفادى الحبيب هو من يوصل رسالته إلى غيره من بنى الانسان . وحين جال ببصره حوله رأى بنى قومه يرزحون تحت أثقال من العبودية المرة : عبودية لأوهامهم ومخاوفهم ، وعبودية للمستعمر الدخيل الذى يمتص دمائهم ويسلبهم عرق جباههم ، وسمعهم يئنون ويتأوهون تحت هذه الأثقال فشاركهم أنينهم وتأوهاتهم لأنه كان قد شاركهم عملهم فى الحرث والرى والزرع والحصاد ، وعرف بالاختبار أن الحكام البيزنطيين هم الذين يستمتعون بثمار هذا الكد المتواصل . لأن هؤلاء الحكام الدخلاء كانوا يرفلون فى حياة كلها ترف وبذخ ومتعة ، بينما يكد المصريون ويكدحون من طلوع الشمس حتى مغيبها لكى يرضوا هؤلاء السادة المترفين المتنعمين وقد أحس شنودة بكل أحاسيس مواطنيه وشاركهم وجداناتهم لأنه كان واحداً منهم : اختلجت نفسه بالمشاعر عينها التى اختلجت بها نفوسهم . فصمم على أن يكرس حياته لتحريرهم . ورأى أنه يجب أن يبدأ أولاً بتحريرهم من مخاوفهم ومن الفزع الذى توحيه إليه الوثنية . فبين لهم فى وضوح ساطع أن العناية الالهية تقيهم كل أذى ، وأن الآب السماوى الذى أحب الناس حباً جعله يبذل ابنه الوحيد لخلاصهم هو الذى يحميهم من كل قوات الشرير . وقد قرن شنودة تعليمه بالعمل فكان يطعم الجائع ويكسو العريان ويداوى المريض ويأوى الغريب . وفوق هذا كله فقد كان يذهب بنفسه مع المظلوم من المصريين إلى ساحة القضاء ليترافع عنه شخصيًا ، فإن لم ينجح فى اقرار العدالة توجه بالشكوى إلى الامبراطور رأساً ، ولم يهدأ له بال حتى ينال المظلوم حقه . وبهذه القدوة علم المصريين أن لا يرضَوا بالظلم ولا يستكينوا له ، كما علمهم الشجاعة فى المطالبة بالعدل والانصاف . وبهذه

---

(١) ، من مصر اليونانية إلى مصر القبطية ، مقال لبيير جوجيه بالفرنسية نشره فى مجلة محبى الفنون القبطية (الآثار القبطية حالياً) ، العدد الأول سنة ١٩٣٥ ص٢٣ .

الوسيلة العملية نجح شنودة فى أن يبدد مخاوف مواطنيه ، وبالتالى بدد تخاذلهم ويأسهم وملأ قلوبهم ثقة واعتزازاً بأنفسهم وبقوميتهم . ولما كان الله قد حباه المقدرة على الكتابة والخطابة فقد استخدم هذه الموهبة ليستدرج القومية من مكمنها داخل القلوب ويجعلها تبدو جهاراً وفى وضح النهار . وكان لا يخاطب الجماهير إلا باللغة المصرية (القبطية) بلهجتها الصعيدية . وبهذا اللسان المصرى الصميم ألهب صدورهم حماسة وأيقظ وعيهم القومى وجعلهم يدركون ما فى مصريتهم من كرامة . وسرت النار المتأججة داخل نفسه إلى نفوس مواطنيه فأشعلتها . وكانت هذه النار التى أوقدها الأنبا شنودة هى القوة الدافعة التى مكنت المصريين من ان يقاوموا حكامهم الظلمة المستعمرين ، ومن أن يقفوا فى وجههم تلك الوقفة الحاسمة فى مجمع خلقيدون المشئوم حيث رفضوا أن يحنوا الهام للأمبراطور مرقيانوس حين زعم أنه يستطيع أن يفرض عليهم مذهبه الخلقيدونى الذى يخالف عقيدتهم الأرثوذكسية التى تعلموها عن آبائهم .

٦١٦– ولقد استطاع شنودة بمحبته الدافقة وبفصاحته الأخاذة ان يجتذب إليه قلوب مواطنيه فالتفوا حوله فى ثقة ومحبة . وتبدو محبة شنودة للشعب وثقة الشعب به فى الحادثة التالية بصورة جلية . ذلك أنه حدث ان أغارت قبائل الباجات على بعض قرى الصعيد فى منطقة أخميم ، فقتلوا ونهبوا وسلبوا ثم اقتادوا من بقى من أهالى تلك القرى إلى الأسر . وما أن سمع الأنبا شنودة بما حدث حتى سارع إلى مقابلة رؤساء تلك القبائل وقال لهم : « احتفظوا بكل الأسلاب والغنائم وهبونى الأسرى » . فراقتهم كلماته وسلموه الناس الذين أسروهم . فأخذهم فرحاً وسار أمامهم وهم يتبعونه فى فرح واستبشار ، واجتاز بهم النيل إلى أن أوصلهم إلى ديره الأبيض حيث استضافهم ثلاثة شهور كاملة . وحالما وصل بهذه الجماعات العديدة من الرجال والنساء والأطفال (١) . نادى على رهبانه ووكل لكل جماعة منهم عملاً يؤدونه . فحمل سبعة رهبان أطباء الجرحى من بين الجموع ووضعوهم فى

---

(١) هنا أيضاً مثل صارخ على أن الآباء فى العصور الأولى كانوا يستضيفون العائلات بأكملها فى اديرتهم فلم يغلقوا ابوابهم دون السيدات ابداً .

المكان المخصص للمرضى فى الدير وسهروا على رعايتهم وفى الوقت عينه اهتم غيرهم من الرهبان بالشيوخ والأطفال . وفى خلال الشهور الثلاثة التى قضاها هؤلاء اللاجئون فى الدير مات منهم أربعة وتسعون شخصاً ودفنوا فى الدير ، بينما ولد لهم اثنان وخمسون طفلاً ! وقد استنفدوا فى تلك المدة خمسة وثمانين ألف أردب من القمح المخزون فى مخازن الدير عدا العدس والزيت والبقول والتوابل والأغنام [1] . ومثل هذه الأرقام تعطينا صورة لجمهرة نظامية من الرهبان تعمل تحت رعاية رئيسها المتفانى فى خدمتها الساهر على نهضتها ، كما تنبئنا بأن الأنبا شنودة كان ملجأ لقومه وقت الشدة .

٦١٧- ولم يكن الأنبا شنودة أباً لعدد من الرهبان فحسب ، بل كان أباً لألف وثمانمائة راهبة أيضاً [2] . وقد كتب لهؤلاء الراهبات رسائل عديدة الغرض منها تعليمهن وارشادهن على الايمان القويم . ومن حسن الحظ أن عدداً كبيراً من ميامره وخطاباته لا يزال بين ايدينا ، وأن كتابته لتعطينا صورة ناطقة لتفكيره السليم وتعمقه فى الروحيات .

ومع أنه كان أباً لهذا العدد الوفير من الرهبان والراهبات إلا انه لم ينس قط أن حياة العزلة هى الحياة المثلى لمن يطلب أن يكون وثيق الصلة بالله . وكان قد اعتاد منذ صباه أن يختفى فى جوف الصحراء بين الحين والحين بل لقد أمضى ذات مرة خمس سنين متواصلة فى مغارة مهجورة قائمة على بعد سحيق وسط الرمال المترامية . وهذه العزلة التى كان يمارسها باستمرار هى التى أهلته لأن ينال لقب «رئيس المتوحدين» ، وظل يمارسها حتى نهاية حياته . فكان يقضى بعضاً من الوقت فى كل سنة منقطعاً بمفرده . ولم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب منه أثناء هذه العزلة - بل أن ويصا تلميذه المقرب إليه وكاتب سيرته كان يتردد فى أن يذهب إليه إن طرأ عذر قاهر وهو متغيب

---

(١) «الكنيسة القبطية والروح القومية فى مصر فى العصر البيزنطى» للدكتور عزيز سوريال عطيه نشر فى المجلة المصرية للتاريخ الجزء الثالث العدد الأول (سنة ١٩٥٠) ص٦ - ٨ .

(٢) «الرهبنة المصرية فى مصر حتى نهاية القرن الرابع» (بالانجليزية) للقس ماكين ص١٢٠ .

فى عزلته . فكانت العناصر التى صقلت شخصية شنودة الجبارة وجعلت منه رئيساً روحياً عظيماً متنوعة متعددة شملت الدرس ، والسعى المتواصل إلى اكتساب الفضائل ، والصلاة ، والتأمل ، والعزلة . ومن ثم أدرك مسئوليته العظمى الملقاة على عاتقه نحو مواطنيه ونحو الرهبان والراهبات الذين عاشوا تحت رعايته .

٦١٨- ومن نعم الله على الشعب المصرى أن مد فى عمر الأنبا شنودة حتى لقد بلغ الثامنة عشرة بعد المئة - قضى ستة وستين عاماً منها رئيساً لبضعة أديرة بعضها للرهبان وبعضها للراهبات . ومن نعم الله أيضاً انه تعالى لم يمنح الأنبا شنودة هذا العمر الطويل فحسب بل منحه الصحة والعافية كذلك ، فمكنه من أن يفيض قوة ونشاطاً . وبما أنه كان راسخ الايمان قوى العزيمة فقد ظل طيلة حياته يعمل بلا هوادة لبلوغ هدفه الذى وضعه نصب عينيه منذ أن تسلم قيادة الدير الأحمر عن خاله الأنبا بجول . كما نجح بجهاده المتواصل وهمته التى لا تعرف الملل فى أن يثبت نظام أديرته وأن يسلم الشعلة وهاجة إلى تلميذه ويصا . كذلك نجح نجاحاً باهراً فى أن يوقظ فى مواطنيه عاطفتهم الجياشة نحو بلادهم : هذه العاطفة التى زعم المستعمرون أنهم استطاعوا أن يطفئوا جذوتها فإذا بهم يصطلون بعنف اشتعالها .

٦١٩- وهذه النزعة القومية العنيفة التى طغت على الأنبا شنودة وجعلت منه زعيماً سياسياً إلى جانب زعامته الروحية قد جعلت عدداً كبيراً من المؤرخين الغربيين يعدونه المحرر للفكر المصرى من الربقة البيزنطية والممثل الحق للعبقرية الفرعونية (١) .

٦٢٠- ومن الكنائس الأثرية التى لاتزال باقية للآن كنيسة على اسم الأنبا شنودة ببابلون (الفسطاط) ترجع إلى القرن الخامس - فهى والحالة هذه قد بنيت فى نفس القرن الذى عاش هذا القديس خلاله . وقد بذل القبط

---

(١) للاطلاع على تفاصيل جهاد الأنبا شنودة فى سبيل الرهبنة وفى سبيل ايقاظ الوعى القومى - راجع مقال « شنودة » للأستاذ بانوب حبشى ، نشره فى رسالة مارمينا العدد الرابع تحت عنوان « صور من تاريخ القبط » ص١١١ - ١٥٠ .

مجهوداً فى سبيل الاحتفاظ بها فجددوا عمارتها فى أوقات متباينة . وكان الأنبا بنيامين الثانى (البابا الاسكندرى الـ٨٢) بين الذين رمموا هذه الكنيسة . والشاهد على ذلك لوح من الخشب محفوظ بها كتب عليه ما يلى : « بنيامين فى سنة ١٠٤٥ للشهداء الأطهار رزقنا الله شفاعتهم آمين » . ومما يؤسف له أن الجزء الأول من هذا اللوح قد ضاع .

على أن الأيقونات التى تزين كنيسة الأنبا شنودة حديثة العهد لأن اغلبها قد رسم سنة ١٤٦٤ش (١٧٤٨م) .

ومع أن ثلاثة عشر قرناً من الزمن تفصل ما بين البناء الأصلى لهذه الكنيسة والأيقونات التى تزينها ، إلا أن الانسجام بين الكل والجزء بادٍ حتى أن الزائر الذى لا يعرف هذه الحقيقة لا يمكنه أن يتصورها . ومثل هذا العمل المنسجم هو أيضاً دليل على وحدة التاريخ إذ قد جاء فنان واكمل عمل المهندس الذى كان يعيش قبله بثلاثة عشر قرناً ! (١).

٦٢١- وإن بناء الدير الأبيض فريد بين الأبنية المسيحية إذ هو اشبه بالمعابد الفرعونية منه بأى معبد آخر . وترجع تسميته إلى كونه مبنيًا بالحجر الأبيض ويقع عند حافة الصحراء الليبية غربى سوهاج بالقرب من مدينة أتريب القديمة ويشير التقليد إلى أن الملكة هيلانة - أم قسطنطين الكبير - هى التى أمرت بتشييده ، ولو أنها عاشت قبل الأنبا شنودة بما يزيد على قرن . لذلك يرجح المؤرخون أنه بنى فى أواسط القرن الخامس حينما كان رئيس المتوحدين عائشاً . ولم يبق من الدير الأصلى غير كنيسته . وهى مستطيلة الشكل ذات جدران شاهقة يزين أعلاها افريز جميل شبيه بأفاريز الهياكل الفرعونية . ولاتزال الصلوات تقام فى هذه الكنيسة الأثرية الضخمة ولو أنه لم يعد حولها رهبان . وفى صحن الكنيسة بيتان لسكنى الكهنة .

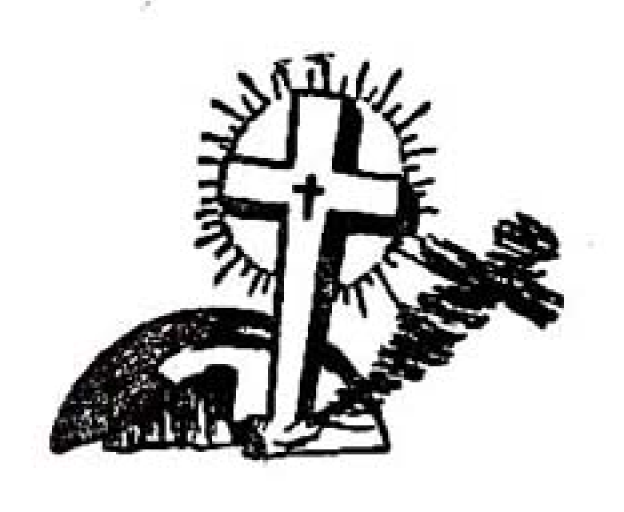
وعلى مقربة من الدير الأبيض يقع الدير الأحمر ، وتسميته ترجع إلى كونه مبنى من الطوب الأحمر . وتاريخه شبيه بتاريخ الدير الأبيض إذ يرجع إلى أواسط القرن الخامس حينما كان الأنبا بجول (خال الأنبا شنودة)

---

(١) راجع مقدمة هذا الكتاب .

رئيساً له . كذلك لم يبق منه غير كنيسته التى يطلق عليها أهالى المنطقة اسم الأنبا بشوى . وبناؤه ليس فى ضخامة صنوه كما أنه يختلف عن غيره من الأديرة فى أنه مقام وسط قرية وليس فوق رمال الصحراء . وتحيط به أشجار النخيل فتزيده رونقاً .

ولم تمتد يد التخريب إلى الدير الأبيض والأحمر إلا فى القرن الثامن عشر أثناء المعارك التى قامت بين المماليك والفرنج . على أن العناية الالهية حفظت الكنيستين ، وبنعمة هذه العناية تقام الشعائر الدينية فيهما للآن (١) .

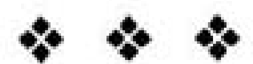


(١) « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) لألفريد بطلر جـ١ ص٣٥١-٣٥٩ ، « دليل المتحف القبطى » لمرقس سميكة جـ١ ص١٥ - ١٦ .

جندى مجهول

(٦٢٢) الأنبا ويصا معروف من كتاباته وسيرته مجهولة

٦٢٢- إن كاتب سيرة الأنبا شنودة هو ويصا تلميذه المقرب إليه . وليس بين أيدينا حتى الآن اية اشارة إلى حياته . فلا نعرف أين ولد وكيف نشأ ومتى دخل الدير . ولكننا نعرف الشئ الكثير عن افكاره وخواطره ونزعاته الروحية لأن مؤلفاته لاتزال موجودة واشهرها سيرة معلمه العظيم رئيس المتوحدين . وقد كتب أيضاً الكثير من الرسائل والميامر . وفى متحف نابولى مجموعة من المخطوطات بالقبطية الصعيدية تتضمن رسائل ويصا ومقالاته . كذلك توجد مجموعة أخرى معروفة باسم «مجموعة كرزون» محفوظة فى المتحف البريطانى تتألف من أحد عشر رسالة كاملة وثلاث ناقصة . وكلها من ويصا إلى رهبانه وراهباته . ومع أن كرزون ذكر انه اشترى هذه المخطوطات من أديرة وادى النطرون إلا أنه من الواضح أن مصدرها الأصلى كان الدير الأبيض (١) . وهذه الرسائل صورة ساطعة للأديرة التى أسسها الأنبا شنودة ثم تسلم هو رياستها من بعده . وهى أيضًا دليل قاطع على اهتمام ويصا بالرهبان والراهبات الذين ينعمون برياسته ورعايته . وقد يعثر الباحثون على سيرة الأنبا ويصا وقد لا يعثرون ، وفى الحالتين يكفى أن نعرف انه أدى رسالته واثبت جدارته لخلافة معلمه الفذ شنودة .



(١) « دراسة عن رهبان مصر » (بالفرنسية) لكوفنبرج جـ١ ص٢ و ٣ و ٥ .

ايسيذورس الفرمى

٦٢٣– وكما كان القرن الخامس مليئًا بالأحداث كذلك كان غنيًا بالرجال الذين امتازوا بالجرأة فى الحق وبالقومية الصميمة . ولقد اندفع هؤلاء الرجال بدافع وطنيتهم اندفاعاً سرى لهيبه منهم إلى مواطنيهم جميعاً . ولئن كان الأنبا شنودة أبرز هؤلاء الوطنيين الذين ألهبوا قلوب المصريين اعتزازاً بقوميتهم فلقد ناصره فى هذا الجهاد المقدس غيره من قادة الفكر المعاصرين له . وبين هؤلاء الوطنيين الذين ناصروا الأنبا كيرلس الكبير فى جهاده الروحى ، وساندوا الأنبا شنودة فى كفاحه الوطنى ، ايسيذورس الفرمى وقد تشابه إيسيذورس وشنودة فى أن الله تعالى قد حبا كليهما الفصاحة والجرأة، وفى أنهما – كلاهما – قد استغلا هاتين الصفتين فى اذكاء الوعى القومى وفى النضال لاستعادة العزة المصرية .

٦٢٤– وكانت تربط ايسيذورس بالأنبا كيرلس رابطة القرابة . ولقد شابه باباه فى أنه نشأ منذ طفولته على الفضائل المسيحية وتعمق فى الدراسة ، فبرع فى العلوم الروحية والمدنية واشتهر بالفلسفة . وقضى سنين عدة يعلم البلاغة لجمهرة الطلاب الذين كانوا يملأون قاعات المدرسة الاسكندرية . ثم قضى بعد ذلك السنوات الطويلة فى الصحراء المصرية حيث انصرف إلى التأمل فى الروحيات وفى مجد الله وبديع صنعه . على أنه رغم شغفه بالعزلة لم يقطع صلته بالعالم الذى هجره ، شأنه فى ذلك شأن جميع النساك المصريين . فدفعه حبه لمصر إلى استخدام كل مواهبه فى رفعة شأن مواطنيه واذكاء حماستهم ووطنيتهم القومية (١) ولأنه كان من الخطباء

(١) « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب پول دورليان جـ١ ص٢٧٩ .

المفوهين استطاع أن يؤثر فى الجماهير تأثيراً عظيماً ، لذلك شبهه مواطنوه بيوحنا ذهبى الفم الذى كان يحبه ويعجب بمواعظه .

ولقد استهوت الصحراء ايسيذورس بما فيها من سكون شامل وما تتيحه من فرصة للانسان المتطلع نحو الكمال المسيحى والخلوة بالآب السماوى . فترك مدينة الاسكندرية ومدرستها الساطعة ، وقصد إلى الصحراء القريبة من الفرما (١) . وفى ذلك الفضاء المترامى قضى ايسيذورس السنوات الطويلة فى الكتابة إلى جانب التأمل والنسك . ويقدر بعض المؤرخين ما كتبه فى هذه الفترة بعشرة آلاف خطاب لايزال ألفان منها محفوظًا للآن فى مختلف المتاحف ، فكانت خطاباته هذه وسيلة فعالة فى نشر رسالة السيد المسيح له المجد إذ تمكن بواسطتها من اجتذاب الضالين إلى التوبة ومن تثبيت المؤمنين فى العقيدة الأرثوذكسية ، وهكذا خدم ايسيذورس العالم رغم اعتزاله اياه .

٦٢٥- وإلى جانب الفصاحة الخلابة فقد اتصف ايسيذورس بميزة نادرة هى الجراة فى الحق . وهذه الجراة جعلته يعارض الأنبا ثيئوفيلس حين اختصم مع ذهبى الفم ثم حكم عليه بالنفى فى مجمع البلوطة .

٦٢٦- ولما اعتلى الأنبا كيرلس السدة المرقسية كان ايسيذورس الفرمى من أخلص أنصاره وأكثرهم اعجاباً به . فحصر كل قواه ، حين اشتدت وطأة البدعة النسطورية ، فى خدمة الأرثوذكسية . ومع أنه لم يذهب إلى أفسس لحضور المجمع المسكونى الثالث إلا أنه كان يرقب ما يدور فى هذا المجمع باهتمام زائد . ولم يقف مكتوف اليدين بازاء الأخبار التى وصلته عن رجال البلاط ومشايعتهم لنسطوريوس فبعث برسالة إلى الامبراطور ثيئودوسيوس الصغير يستحثه فيها أن يتدارك الأمور بنفسه ولا يتركها فى أيدى رجال لا يقدرون المسئولية ولا يدركون أن واجبهم يحتم عليهم الوقوف على الحياد ليستطيع الأباء التشاور معًا فى حرية تامة . وقد جاء فى رسالة ايسيذورس إلى الامبراطور ما نصه : « إن كان لديك أيها الامبراطور ثيئودوسيوس متسع من الوقت فاذهب بنفسك إلى افسس لتعرف أن رجالك ملومون . أما إذا اعتمدت على رواية من تسوقهم الأغراض أفلا يكون المجمع سخرية وهزأة ؟! إن لفى استطاعتك أيها الامبراطور أن تداوى هذه

---

(١) بالقرب من البحر الأحمر - ولهذا السبب لقب بايسيذورس الفرمى .

الأدواء إن أنت منعت رجالك المدنيين من التدخل فى شئون الكنيسة وعقائدها لأنهم بتصرفهم الخاطئ لا يعرضون الكنيسة للخطر ولكنهم يعرضون لأعظم الأخطار الامبراطورية التى يستعينون بسطوتها - إذ أن تصرفهم هذا سينتهى إلى استثارة الامبراطورية على الكنيسة ، ولن تستطيع الامبراطورية (أو أية قوة عالمية) أن تقف فى وجه الكنيسة التى هى الصخرة غير المتزعزعة والتى لن تقوى عليها أبواب الجحيم » . ولقد أثبتت الأيام هذه الحقيقة إذ قد جازت الكنيسة وسط نيران الاضطهادات وأهواء البدع وهى ثابتة راسخة (١).

ولم يكتف ايسيذورس بهذه الرسالة بل عارض حاكم ولايته ووبخه جهاراً لظلمه واستهانته بحقوق الكنيسة .

٦٢٧- وقد واتت تعاليمه وتوبيخاته ثمرتها لأنه كان فى مناقشة مناظريه يستخدم من الوسائل ما يتفق مع مكانتهم فقد قال : « من الواجب علينا أن نستعين بالقسوة تارة وباللين طوراً لنبنى المؤمنين على الأساس الالهى المتين الذى لا يملك أحد أن يقيم أساساً غيره . فكما أن الطبيب الماهر يستخدم مختلف الأدوية تبعاً لطبيعة من يبغى شفاءهم فكذلك الدواء الروحى الواحد لا يصلح لمداواة الناس جميعاً » (٢) .

٦٢٨- وكان ايسيذورس من أوائل الذين لم يرضوا عن الأنبا كيرلس يوم أن تصالح مع يوحنا الأنطاكى ولكنه حالما علم أن البابا الاسكندرى كان قد تفاهم مع الأسقف الأنطاكى على قواعد الايمان الأرثوذكسى قبل أن يصطلح معه اعتذر له وأيده جهاراً كما أعلن أن البابا كيرلس قد عمل بتعليم السيد المسيح إذ قد تناسى ما لحقه من اهانات فى سبيل الكنيسة التى يتشرف بخدمتها ويسعد بالذود عن حياضها .

٦٢٩- وحدث أن غضب حاكم الولاية التى يقيم فيها ايسيذورس عليه لصراحته المتناهية فأمر بنفيه . ولكن هذا النفى لم يثنه عن عزمه ولم يكن له أى أثر فى نفسه الكبيرة ، فظل متمسكاً بصراحته وجرأته حتى آخر نسمة من حياته . وقد عاش خمسة وسبعين سنة على هذه الأرض ثم انتقل إلى عالم النور سنة ٤٤٥م بعد أن جاهد الجهاد الحسن وأكمل السعى فذهب لينال اكليل البر المعد له من رب المجد .

---

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيتى جـ٤ ص٣٧٥ .

(٢) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص٣٢٩ .

على ضفاف الأردن

(٦٣٠) بعض الناسكات يعشن معا وبعضهن يفضلن العزلة .

(٦٣١) الناسكة مارية من أبرز سكان الصحارى .

(٦٣٢) حياتها أشبه بحياة مريم المجدلية .

(٦٣٣) ندمها وتوبتها واستشفاعها بأم الرحمة .

(٦٣٤) اشتراكها فى صلوات البسخة المقدسة والقيامة المجيدة ثم اختفاؤها فى الصحراء .

(٦٣٥) القس زوسيم يعثر عليها فتروى له قصتها .

(٦٣٦) زيارته لها سنتين متتاليتين .

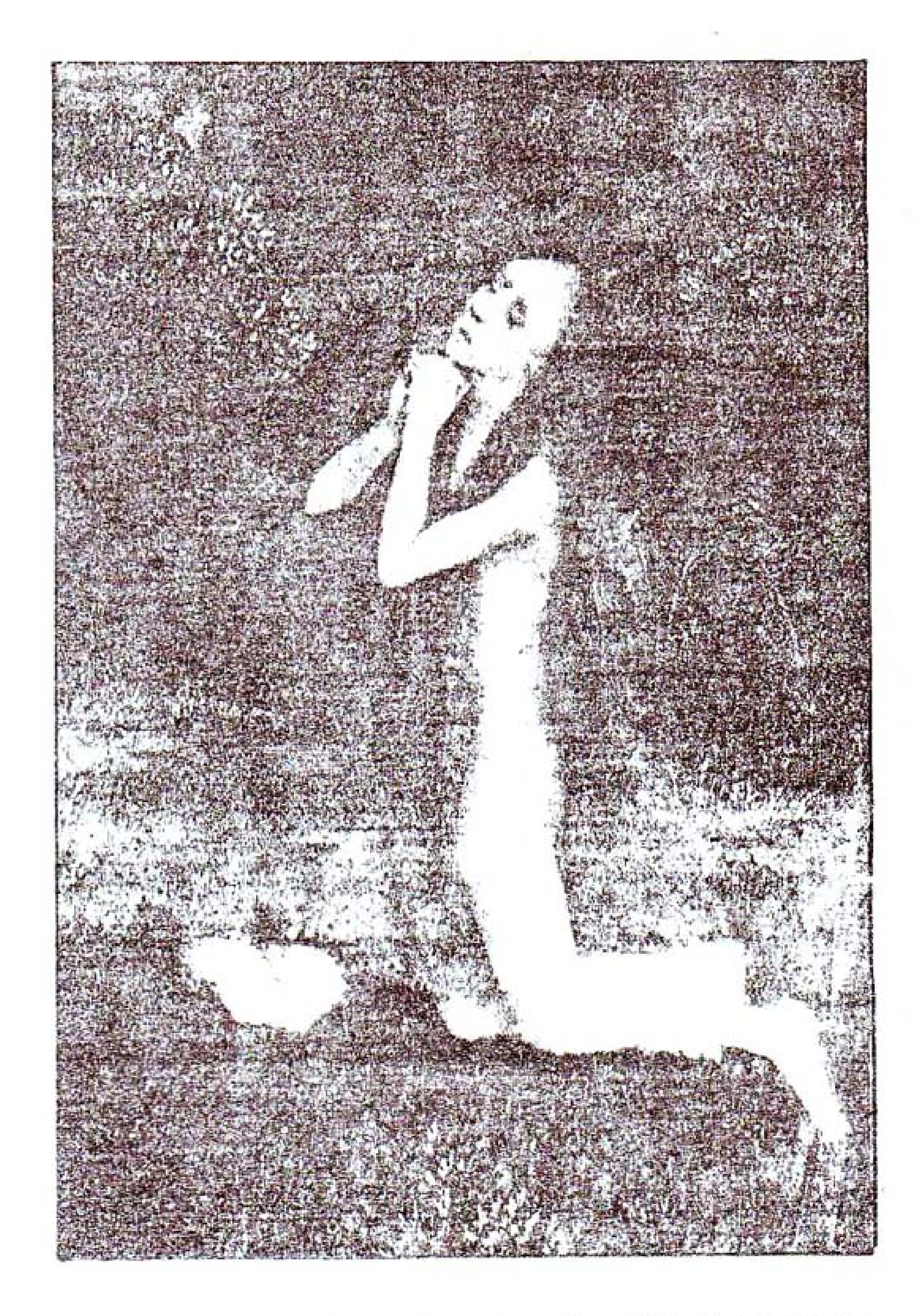
(٦٣٧) مقصورة لها فى باريس وصورة فى فيلادلفيا .

٦٣- وإلى جانب الرجال المجاهدين فى سبيل الكمال الروحى وقفت الناسكات من النساء . وفى العصور الأولى اختار معظم النساء اللاتى كن يؤثرن عيشة النسك على الحياة فى العالم أن يعشن جماعات فى بيوتهن أو فى برابى مهجورة . وقد حفظ لنا التاريخ اسماء الكثيرات من هؤلاء النسوة المتعبدات اللاتى كن يؤلفن جزء هاماً فى الكنيسة ويؤدين لها أجل الخدمات .

٦٣١- على أنه كانت هناك نساء اخترن حياة النسك فى الصحارى مع ما تتطلبه هذه الحياة من مشاق وأهوال ومن أبرز هؤلاء الناسكات مارية السائحة المصرية التى وجدت الحضرة الالهية فى عزلة الصحراء .

٦٣٢- وكانت هذه المتعبدة فى صباها آية فى الجمال ، وكانت كمريم المجدلية موصومة بالخطية . ولما بلغت التاسعة والعشرين من عمرها التقت ببعض المسيحيين الذاهبين إلى القدس للتبرك بزيارة القبر المقدس ، فأحست برغبة ملحة تدفعها إلى الذهاب معهم ، ولو أنها استهدفت من هذه الزيارة اسقاط البشر فى الخطية حتى وهى فى الأراضى التى تقدست بحياة فادى البشرية إذ لم تكن النعمة الالهية قد مست قلبها بعد .

٦٣٣- وبينما كانت هذه الناسكة فى الأراضى المقدسة ارادت ذات يوم أن تدخل كنيسة القبر المقدس ولكنها - حين وقفت أمام باب الكنيسة المقدسة - احست بأنها تجمدت فى مكانها كالتمثال فلم تستطع حراكًا . وفى تلك اللحظة غمرها الندم واحست بأن هذا الذى أصابها فمنعها من الحركة يرجع



صورة للناسكة مارية المصرية كما تصورها الفنان الهولندى كوينتين ماسيس
وهى محفوظة الآن بمتحف الفن بفلادلفيا بولاية بنسلفانيا
من الولايات المتحدة

إلى أنها لا تستحق أن تنال بركة الدخول إلى كنيسة القبر المقدس . وعند ذاك رفعت قلبها نحو السيدة العذراء مستشفعة بها قائلة : « أيتها السيدة العذراء ، يا من ولدت الله الكلمة ، أنني أعرف تمام المعرفة أن امرأة مثلي ملوثة بالخطية لا يحق لها أن ترفع عينها إلى صورتك - أنت أيتها الطاهرة المقدسة . ومن العدل أن تهمل من كانت مثلي . ولكنني أعلم من كل ما قرأته عن الإله المولود منك أنه إنما تجسد لانقاذ الخاطئين أمثالي . فأنقذيني مما أنا فيه إذ ليس لي من يسعفني سواك ، ومري يا سيدتي أن تنفتح الأبواب الموصدة أمامي لأستطيع أن أسجد لصليب ابنك الوحيد الجنس . وأنا اتخذك كفيلة لي عند الذي ولدته ، ولن أدنس جسدي بعد الآن إذ قد عولت على أن أهجر العالم بمجرد وقوع نظري على خشبة الصليب المقدسة . وسأذهب حيث تقودينني أنت الكفيلة بخلاصي » (١) .

٦٣٤- ولم تكد تنتهي من صلاتها حتى أحست بأنها تحررت مما هي فيه من جمود وألم ، فدخلت الكنيسة وواظبت على حضور الصلوات خلال الأسبوع المقدس أسبوع آلام الفادي الرحيم . فلما انتهت شعائر هذا الأسبوع العظيم وابتهج المسيحيون بقيامة الفادي الحبيب ، وقفت أمام أيقونة السيدة العذراء ضارعة إليها طالبة منها بوصفها أم الرحمة أن تهديها إلى ميناء الخلاص . فسمعت صوتاً يقول لها : « إذا عبرت نهر الأردن وجدت هناك السلام والخلاص » . فخرجت لفورها قاصدة إلى الأردن . وفي الطريق أعطاها بعض الحجاج ثلاثة دراهم ظناً منهم أنها من المستجديات فأخذت هذه الدراهم وابتاعت بها خبزاً . وعبرت الأردن حيث عاشت سبعاً وأربعين سنة قضتها سائحة هائمة على وجهها تقتات بما تجده من أعشاب حتى بليت ثيابها ولم يبق ما يغطي جسمها النحيل غير أسمال ملابسها البالية وشعرها الطويل المتهدل المسترسل إلى قدميها .

٦٣٥- وكان من عادة الرهبان المتفانين في النسك أن يقصدوا إلى الصحراء الواقعة على ضفاف الأردن خلال الأربعين المقدسة ليعيشوا في المكان عينه الذي قضى فيه السيد له المجد أربعين يوماً وأربعين ليلة صائماً . وكان هؤلاء الرهبان لا يقيمون في مكان معين من تلك الصحراء الشاسعة ،

---

(١) « أجمل ما كتب عن العذراء مريم » (بالفرنسية) جمعه الراهب الدومينيكاني بي ريجامي ص٦٧ - ٦٩ .

بل كانوا يهيمون فى ارجائها . وكان احد هؤلاء الرهبان القس زوسيم (١).

وحدث أن ذهب هذا القس إلى صحراء الأردن بعد أن كانت الناسكة مارية قد قضت فيها خمساً واربعين سنة . وتنقل فى فيافى هذه الصحراء إلى أن قاربت الأربعون المقدسة على النهاية . فقرر أن يتخذ طريق العودة . وفيما هو سائر - وكان النهار قد انتصف والشمس وهاجة - خيل إليه انه يرى شبحاً يتحرك وسط هذا السكون الشامل . ففرك عينيه توهماً منه ان الحر والصوم قد يكونان فعلا فعلهما فى مخيلته ثم تأمل ناحية الشبح المتحرك فتبين له أنه انسان ، وصحا حب الاستطلاع فى نفس القس زوسيم ، وتسلطت عليه الرغبة فى أن يعرف من هو هذا الانسان ، فسارع فى مشيته. واحدثت خطواته صوتاً وسط هذا السكون الشامل فجرى الشخص المجهول - إلا أن زوسيم كان أسرع منه فاستطاع أن يقصر المسافة التى تباعد بينهما . ولما وصل إلى مسمع من هذا الشخص الذى يلاحقه والذى اتضح له انه يحاول الهرب منه قال بأعلى صوته : « يا خادم الله العلى لماذا تحاول أن تهرب منى ؟ » وما أن تفوه زوسيم بهذه الكلمات حتى خيل له أن الشخص قد هبط فى فجوة بين الصخور المترامية وعند ذاك ركع على ركبتيه واخذ يبكى بكاء الطفل . وحين تردد صدى نحيبه فى أرجاء الفضاء الساكن سمع صوتاً يقول له : « اغفر لى يا أبى زوسيم . فانا امراة ، وجسدى لا تستره غير أسمال بالية ، فتكرم وارم لى بعباءتك وامنحنى بركتك » . وحين سمع القس اسمه أدرك أن المتكلمة لابد أن تكون ضمن الصفوة المختارة لأنها عرفته قبل أن يعرفها بنفسه . فرمى لها بعباءته على الفور . وعند ذاك ارتدتها وخرجت من مخبأها وجاءت إليه وكشفت له عن شخصيتها . ثم استجابت لرغبته وقصت عليه سيرتها من البداية من غير أن تخفف من وزرها . وختمت حديثها بقولها : « لقد غمرتنى النعمة الالهية . وها انا اعيش فى هذه الصحراء الشاسعة دون أن اتقيد بالبقاء فى مكان منها واننى أنتظر يوم الرب بملء الثقة » . وامتلأ قلب زوسيم رهبة لما راى وسمع ثم سألها : « كم من السنين قضيت فى هذه الصحراء ؟ » اجابته : « خمساً واربعين سنة وقد قضيت السنوات الأولى منها فى صلوات لا تنقطع وفى بكاء ونحيب متواصل

---

(١) كان زوسيم احد الرهبان القاطنين فى الصحراء الواقعة على الحدود المصرية الفلسطينية - راجع كتاب الصادق الأمين جـ٢ ص٧٢ - ٧٣ .

سطع بعدها نور خاطف حولي واكتنفني وملأ قلبي سكينة وسلاماً » .
وسادهما الصمت مدى لحظات قطعه القس زوسيم بأن رفع يديه نحو السماء وقال في صوت مضطرب لحدة الانفعالات التي تملكت عليه : « مبارك الرب الإله صانع العجائب ، مبارك الرب الإله الذي تفضل فكشف لي عن عمق نعمته التي يغمر بها المتكلين على رحمته » .

٦٣٦- ثم استأذن القس زوسيم في الانصراف فاستحلفته أن يكتم كل ما قالته له إلى أن تنتقل من هذا العالم . ورجت منه أن يعود إليها في السنة التالية حاملاً لها الأسرار المقدسة فوعدها بذلك ، وبعد مضي تلك السنة وفى بوعده ، وعاد إليها ، وناولها خبز السماء . فاستحلفته أن يعود إليها في السنة التالية من غير أن تطلب إليه أن يأتيها بالأسرار المقدسة فلم يتوان في العودة إليها . ولكنه ألفاها قد فارقت الحياة ، ووجد إلى جانبها ورقة قالت له فيها : « أعد يا أبي التراب إلى التراب » ووجد عند قدميها أسداً رابضاً ، وحين هم بحفر قبرها شاطره الأسد الحفر ثم عاد من حيث أتى . وبعد ذلك صلى زوسيم على جثمانها الطاهر ثم واراها التراب . ولما عاد إلى ديره قص على رهبانه سيرة هذه الناسكة العجيبة فنظموها في سلك القديسين (١) .

٦٣٧- والعجيب في أمر هذه الناسكة التي استطاعت أن تتسلق ذروة القداسة من هاوية الخطية أنه توجد على اسمها مقصورة في كاتدرائية نوتردام في باريس ولها صورة رائعة في متحف الفن في فلادلفيا بالولايات المتحدة . والعدد القليل اليسير بين الآلاف الذين يدخلون هذه الكاتدرائية وذلك المتحف يعرف سيرة هذه المرأة العجيبة ولكنهم جميعاً يعرفون أنها قديسة مصرية لأن المقصورة والصورة كلاهما يحملان اسم « مارية الناسكة المصرية » ولئن كانت هذه المعرفة كافية لأنها تحمل اسم مصر بين الشعوب إلا أنه يجب أن لا تكفينا نحن معشر القبط إذ الواجب موضوع علينا لأن نعرف هذه السيرة العطرة لنلمح من خلالها قبس النور الالهي ولندرك عن طريق توبتها عظم النعمة الالهية التي تجتذب النفس المنحدرة للهاوية وتستدرجها إلى ذرى النور .

---

(١) « الصادق الأمين » جـ٢ ص٦٧ - ٦٩ ، « قديسو مصر » (بالفرنسية) للأب بول دورليان جـ٢ ص٤٥١ - ٤٦٩ ، راجع أيضاً ما جاء في نهاية فقرة ٦٢ عن الأسدين اللذين حفرا قبر الأنبا بولا .

المسيحية فى الواحات

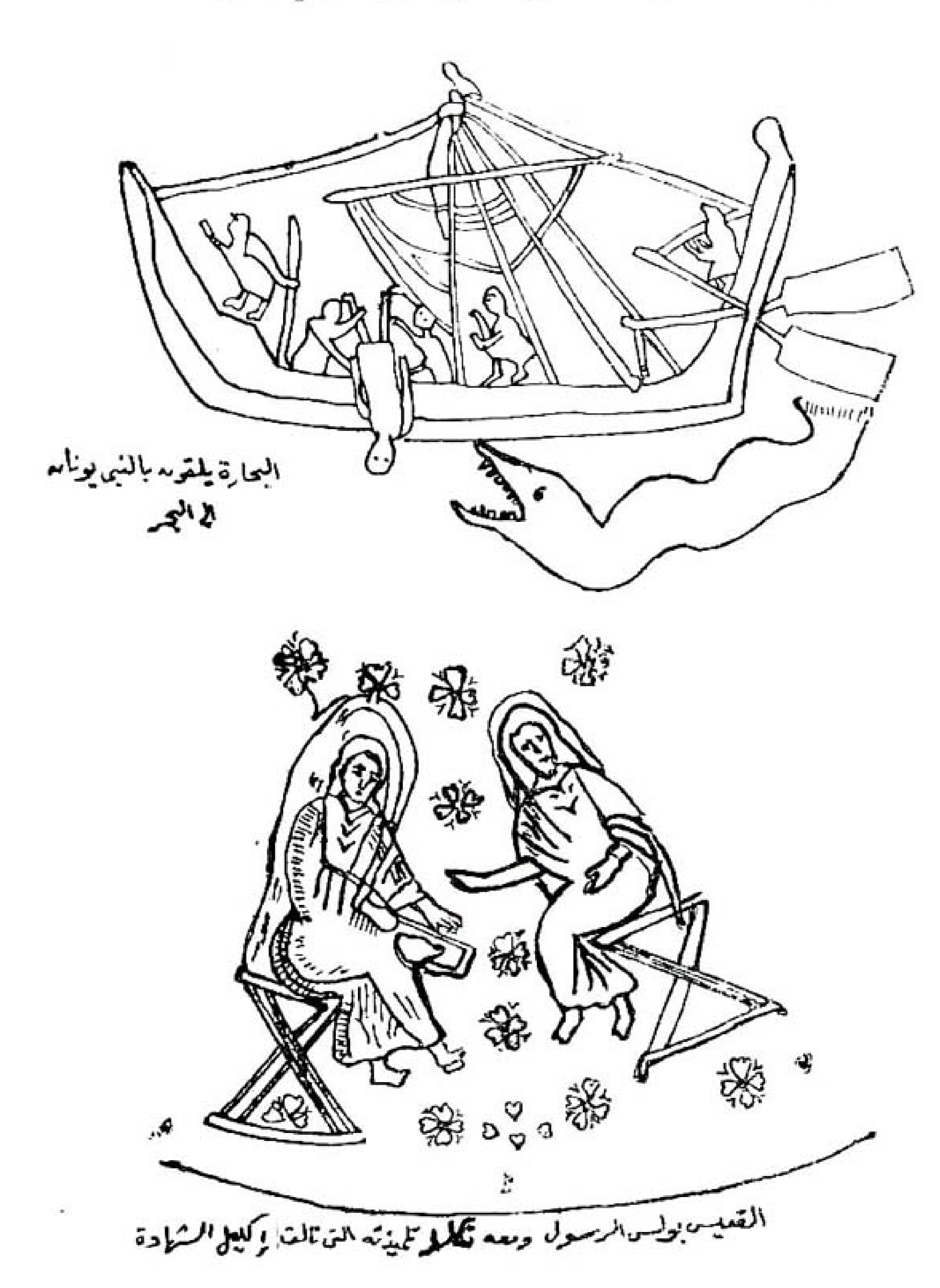
٦٣٨- إن للواحة الخارجة قيمة تاريخية عظيمة لأنها كانت على صلة بمصر منذ العهد الفرعونى فلما اعتنق المصريون المسيحية نشروا دين المسيح فى هذه الواحة . ومن الأدلة على متانة الصلة بين الواحة الخارجة وبين مصرنا المحبوبة أن المعابد الفرعونية هناك قد حولها أهلوها إلى كنائس كما فعل المصريون تماماً . وإن الآثار المتخلفة عن العصرين الفرعونى والمسيحى لاتزال فى حالة جيدة حتى لقد وصفها المنسنيور كوفمان المستشرق الألمانى « بومبى مسيحية وسط الصحراء الليبية » (١) .

ويروى السنكسار القبطى أن القديس برتولماولس هو الذى حمل بشرى الخلاص لأهالى الواحات وأنه استشهد فى اليوم الأول من شهر توت المبارك إذ قد غضب عليه الملك أغاريوس حين وجد أنه نجح فى استمالة عدد وفير من رعاياه إلى دين السيد المسيح . فأصدر أمره إلى جنوده بأن يضعوا القديس فى شوال مملوء رملاً ويلقوا به فى البحر . وتشهد أقدم المخطوطات التى عثر عليها الأثريون سنة ١٨٩٣ أن المسيحية انتشرت فى الواحات فى العصر عينه الذى انتشرت فيه فى مصر وليس ذلك فحسب ، بل أن الاضطهادات التى ذاق المصريون مرارتها قد أصابت أهالى الخارجة أيضًا . على أن

---

(١) « الصحارى المصرية : جبانة البجاوات بالواحة الخارجة » (بالانجليزية) للدكتور أحمد فخرى المقدمة ص٧ ، أما بومبى فهى مدينة Pompey رومانية فى منطقة نابولى (جنوبى ايطاليا) وجدهما الأثريون كاملة .

الاضطهادات لم تفت فى عضدهم لأن عدد المسيحيين تزايد إلى حد أن بابا الاسكندريه رسم لهم أسقفا فى القرن الرابع . وظل الباباوات الاسكندريون يرسمون الأساقفة للواحة الخارجة حتى القرن الرابع عشر .



ولقد كانت هذه الواحة ميناء سلام للمصريين فى القرن الخامس ذلك أنه حين تكتل المصريون ضد البيزنطيين فى القرن الخامس على أثر ارفضاض مجمع خلقيدون المشئوم كان الحكام ينفون الأساقفة والأراخنة إلى هذه الواحة . فكان أهلوها يحسنون وفادتهم ويحاولون جهدهم تخفيف مرارة النفى عليهم . ومن نعمة الله أن كان نفى المصريين إلى هذه الواحة سببًا فى اذكاء الغيرة المسيحية فى القلوب فألهمتهم بأن يقيموا الكنائس الفخمة والمقابر الجميلة . وهكذا كان نفى بنى مصر إلى الواحة الخارجة دافعاً لازدهار الفن المسيحى (١) .

ويبدو أن عدداً من النساك المصريين قد عاش فى جبل الطير القريب من الواحة الخارجة لأنهم تركوا الكثير مَن النصوص القبطية على جدران المغاور القائمة فى تلك المنطقة . كذلك توجد نصوص عديدة فى بلدة أسمها تافنيس تقع فى الطرف الجنوبى للواحة الخارجة .

٦٣٩– ثم ظهر الاسلام فى القرن المسيحى السابع ، ودخل المسلمون الواحات كما دخلوا مصر وغيرها من بلاد شمال أفريقيا . وترك الحكام المسلمون الحرية الدينية المطلقة فى القرون الأولى . بل لقد ذهب بعضهم إلى حد المساهمة فى بناء الكنائس . إلا أن هذا التسامح المحبب تحول إلى اضطهاد وتهديد فى القرن الرابع عشر . ومذاك لم يعد للواحة الخارجة أسقف . وأغلب الظن أن المسيحية تلاشت نهائيًا من هذه الواحة فى القرن الخامس عشر . وإذا كان بهذه الواحة الآن بعض القبط فهم من الموظفين أو التجار وليسوا من أهالى الواحة (٢) .

٦٤٠– والآثار المسيحية فى الواحة الداخلة تكاد معدومة لا تزيد على سلسلة من الاسماء منقوشة على الجدران تعلوها الصلبان . أما واحة الفرافرة فلم يقم فيها الأثريون بحفريات البتة ، إلا انهم عثروا على حجر نقشت عليه صلاة بالقبطية .

---

(١) الصحارى المصرية : «جبانة البجاوات بالواحة الخارجة » (بالانجليزية) للدكتور أحمد فخرى ص١١–١٢ .

(٢) شرحه ص١٢ .

وهناك كنيسة على اسم مارجرجس الشهيد العظيم فى واحة البهنسة . ويرى التقليد الكنسى أن راس هذا الشهيد البطل مدفون فى اللد بفلسطين ، وأن جسده مدفون فى كنيسة هذه الواحة ، وكان أسقف الواحات يقيم على مقربة من هذه الكنيسة فى البقعة التى تعرف الآن باسم «القصر» (١) .

٦٤١- ويبدو أن الواحة البحرية تحوى آثاراً مسيحية ، إلا أن الأثريين لم يقوموا بأية حفريات هناك . على أن المصرولوجى المصرى الدكتور أحمد فخرى قد عثر فيها أخيراً على عدد وفير من الأوانى والصلبان البرونزية كما عثر على شقفات (٢) عديدة ، ولقد ذكر أبو صالح الأرمنى (٣) فى كتابه أن فى هذه الواحة ديراً اسمه دير الأبرص . ولكن بما أن الأثريين لم يشتغلوا بعد بهذه المنطقة فإنهم لم يعثروا على هذا الدير . ولا يدرى أحد إن كان له أثر باقٍ حتى الآن أم لا .

ومن الأدلة على أنه لابد أن تحوى هذه المنطقة آثاراً مسيحية أن الجبانة الموجودة هناك يتوسطها كنيسة . فمن الطبيعى أن تحوى هذه الجبانة أحداث المسيحيين الذين كانوا يصلون فى تلك الكنيسة جيلاً بعد جيل . كذلك عثر كايو المستشرق الفرنسى سنة ١٨١٠م على خرائب مبعثرة يطلق عليها الأهالى اسم « قصر النصرانى» وهى خرائب قرية قبطية من غير شك . وعلى مقربة من هذه الخرائب ضاحية تعرف باسم «الكنيسة» - وهذه التسمية هى أيضاً دليل على أن المسيحية كانت منتشرة فى تلك الجهة . ويؤيد التقليد هذه الحقائق إذ يقول أهالى الواحة البحرية أنه كانت توجد عائلات مسيحية بين ظهرانيهم حتى القرن السابع عشر . ومن الشائع أن

---

(١) « الصحارى المصرية : جبانة البجاوات بالواحة الخارجة » (بالانجليزية) للدكتور أحمد فخرى ص١٥ .

(٢) الشقفة هى قطعة من الفخار . وكان القدماء يستعملون هذه الشقفات للكتابة نظراً لرخصها وغلاء ثمن الورق .

(٣) مؤرخ عاش فى القرن الثامن عشر - ومن العجيب أن الكتاب الذى عثر عليه الباحثون وعزوه إلى أبى صالح الأرمنى لم يحمل اسمه كمؤلف للكتاب وإنما حمل اسمه كصاحب الكتاب . ومن الشائع الآن أن المؤلف هو أبو المكارم القبطى الذى عاش هو أيضاً فى القرن الثانى عشر .

عائلتى الداودا والباويطى كانتا آخر عائلات مسيحية اعتنقت الاسلام . ولهذا السبب يطلق البحريون عليهم لقب «الرومانى» . ثم أنه توجد خرائب لكنائس متعددة مما يشير إلى أنه كان لهذه المنطقة أسقف (١) .

٦٤٢- أما سيوه فلا توجد بها آثار مسيحية اطلاقاً اللهم إلا إذا كانت رمال الصحراء لاتزال تغطيها وتحافظ عليها . فإن كان الأمر كذلك فأغلب الظن أن المنطقة المسماة ببلدة الروم هى التى تحوى الآثار المسيحية لأن التقليد يروى أن هذا البلد كان موطناً لعدد كبير من المسيحيين وكانت لهم فيها كنيسة (٢).

٦٤٣- وأن أروع المخلفات المسيحية فى الواحات هى جبانة البجاوات بالواحة الخارجة بلا منازع . وهى تحوى عدداً من الكنائس يربى على مئتين وثلاث وستين أغلبها هياكل أو مقاصير ، وبينها كنيسة . ويرجع تاريخ الكنيسة إلى النصف الأول من القرن الرابع . وهى صورة رائعة تعكس لنا جمال الفن الاسكندرى . والطريف فيها أن معظم الصلبان التى تعلو جدرانها مرسومة على شكل العنخ (٣) وتتحلى قبة هذه الكنيسة بمجموعة من الصور مأخوذة عن العهد القديم وهى تتميز بالسذاجة ويغلب عليها الطابع المصرى . والأثر المصرى يبدو أوضح ما يكون فى المقصورة المسماة بمقصورة السلام حيث يرتدى الأشخاص الملابس المصرية ويحملون فى أيديهم الرموز الشائعة فى مصرنا العزيزة . ومن الظاهر أن هذه الكنيسة كانت مقصد الزائرين على ممر العصور لأن الجدران التى لا تغطيها الصور مغطاة باسماء عديدة بالقبطية واليونانية والعربية (٤) .

---

(١) « الصحارى المصرية : الواحة البحرية » (بالانجليزية) للدكتور أحمد فخرى جـ١ ص٢٦ و٣٥ و٦٠ .

(٢) « الصحارى المصرية : جبانة البجاوات بالواحة الخارجة» (بالانجليزية) للدكتور أحمد فخرى ص١٧ .

(٣) العنخ هو مفتاح الحياة عند الفراعنة وكانوا يرسمونه على شكل دائرة يتدلى منها الصليب .

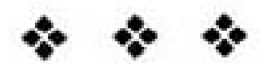
(٤) « الصحارى المصرية : جبانة البجاوات بالواحة الخارجة » (بالانجليزية) للدكتور أحمد فخرى ص٦٧ .



وهناك واحة صغيرة أسمها الحايز بها كنيسة يرجع تاريخها إلى القرن الرابع أو الخامس . وهى فى حالة جيدة . ويبدو أن هذه الكنيسة كانت فى الأصل بيتاً حوله المسيحيون إلى كنيسة وزخرفوا جدرانه وأبوابه لهذه الغاية فإن أثبت البحث أن هذا هو ما حدث بالفعل كانت من أقدم الهياكل المسيحية

فى تلك الأرجاء . على أن أجمل أثر باقٍ فى هذه الواحة هو الكنيسة المبنية على نمط معبد دندرة (الفرعونى) . وكانت جدرانها مزينة بالرسوم ومزخرفة بالنقوش فى العصور الأولى . على أن الزمن عدا عليها فلم يبق من زينتها إلا على شذرات ضئيلة وألوان باهتة (١) .

٦٤٤- ومع أن المتحف القبطى بالقاهرة يحوى عدداً من الشقفات ومن النقود التى تحمل اسم الامبراطور فالنس (سنة ٣٦٤ - ٣٧٨م) ، إلا أن الآثار المسيحية فى الواحات لاتزال فى حاجة إلى من يكشف عنها ويبين قيمتها للعالم بأسره . فالقليل الذى كشف عنه يبين أهمية هذه الآثار ويهيب بالباحثين أن يسارعوا إلى ازاحة الستار عن مدينة تلك القرون الأولى التى ازدهرت فيها المسيحية فى الواحات والتى لاتزال حجارتها تنطق بأيات الفن التى ابتدعها الفكر الانسانى لتمجيد الخالق السرمدى (٢) . ولقد قال الدكتور أحمد فخرى فى هذا الصدد : « لئن كانت أصوات المصلين فى هذه الكنائس قد صمتت فالحجارة تنطق » .



(١) شرحه ص١٤ ، الصحارى المصرية : الواحة البحرية (بالانجليزية) للدكتور أحمد فخرى جـ١ ص٣٦ .

(٢) إن ما اكتشف من الآثار المسيحية فى الواحات قد ساهم الدكتور أحمد فخرى فى الكشف عنه كما وصفه وصفًا مسهباً فى كتابيه اللذين كتبهما باللغة الانجليزية وكتابه عن جبانة البجاوات يقع فى جزء واحد بينما يقع كتابه عن الواحة البحرية فى جزأين . ويحلى هذين الكتابين صور وخرائط غاية فى الابداع .

ملخص لتعاليم الكنيسة القبطية

أولا : العقيدة

١- إن كنيستنا المصرية التى أسسها القديس مرقس أحد تلاميذ الرب السبعين هى كنيسة ارثوذكسية صميمة تؤمن :

١- بإله واحد مثلث الأقانيم هم الآب والابن والروح القدس : وهؤلاء الأقانيم متساوون تمامًا ومن جوهر واحد . ومع أن الأقانيم متساوون فى الجوهر وفى الأزلية إلا أن الآب لاهوت بحت وهو الخالق ، والابن جمع بين اللاهوت والناسوت وهو الفادى ، والروح القدس لاهوت بحت وهو المطهر والمنبثق من الآب . والأقانيم مع كونهم ثلاثة فإن كلاً منهم كائن فى الآخرين بأكمله . لذلك شبههم اثناسيوس بالشمس التى تتألف من القرص والنور والحرارة وهى جوهر واحد .

ب- تجسد اللّه الكلمة : يتلخص إيمان كنيستنا القبطية بالسيد المسيح فى الايمان الذى أعلنته الكنيسة الجامعة فى مجمع نيقية (المسكونى الأول) وهو : «نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن اللّه الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شئ وبغيره لم يكن شئ مما كان ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، تأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى ، تألم وقبر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد إلى السموات وجلس عن يمين أبيه فى العلا ، وأيضاً سيأتى فى مجده ليدين الأحياء والموتى وليس لملكه انقضاء» . وقد رأى الآباء الرسوليون أن يقربوا هذه العقيدة إلى الأذهان بصورة يمكن ادراكها فقالوا أن الحداد حين يصوغ الحديد يلهبه بالنار ويطرقه . والنار حين تتحد بالحديد لا تختلط به ولا تمتزج به ولا تتغير عن طبيعتها النارية ، فلا تأخذ من طبيعة الحديد شيئاً كما لا يأخذ الحديد شيئاً من طبيعتها . وحين ينزل الحداد بالمطرقة ينزل ضربه على الحديد ولا تتأثر به النار رغم انها متحدة مع الحديد ساعة الطرق .

هكذا اتحد نار اللاهوت بتراب الناسوت اتحاداً كاملاً بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . وحين وقع الضرب على جسد المسيح ساعة الصلب ، وحين سال دمه من الشوك الموضوع على جبينه ومن يديه وقع هذا كله على جسده دون أن يتأثر اللاهوت به مع كونه متحداً بالناسوت ساعة الضرب والطعن لأن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين (١) . بل أن اللاهوت والناسوت لم يفترقا من بعد الاتحاد مطلقًا ، فلاهوته ظل متحداً بجسده حتى وهو ملقى فى القبر ، لأن هذا اللاهوت هو الذى أقام الجسد من بين الأموات . والمسيح قام بجسده وظهر لتلاميذه بهذا الجسد عينه إذ أراه لتوما حين شك فيه . وهذا الجسد بعينه هو الذى صعد به إلى السماء .

جـ- السيدة العذراء : هى عذراء وأم فى آن واحد ، لأنها ولدت السيد المسيح بحلول الروح القدس فيها وتظليل قوة العلى لها ، ومن حل وحيد الآب فى أحشائها لا يمكن أن تلد ابناً بشرياً عادياً . والصورة التى قدمها الآباء رمزاً إلى هذه الحقيقة هى العليقة التى رآها موسى النبى مشتعلة بالنيران من غير أن تحترق - فهذه العليقة مثال للسيدة العذراء التى حملت جمراً لاهوتياً فى حشاها تسعة أشهر وهى عذراء وبتوليتها مختومة . ولما كان السيد المسيح قد ولد منها ، وهو الكلمة الأزلى المتجسد الذى حل فيه ملء اللاهوت ، فهى بحق أم الله . ولأن جميع الأجيال تطوبها فقد دعاها الآباء بأم النور وأم الرحمة وأم النعمة والسماء الثانية ، وغير ذلك من الألقاب التى تعبر عن ايمان الكنيسة بتجسد الابن الأزلى وحيد الجنس منها .

٢- الأسرار الكنسية (سبعة) :

والسر فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية هو نعمة غير منظورة ينالها المؤمن فى صورة منظورة . والأسرار السبعة هى : الصبغة (المعمودية) ، الميرون ، التناول ، التوبة ، المسحة ، الزواج ، الكهنوت .

---

(١) أن كنيستنا تعلن ايمانها هذا فى كل قداس . ومن بين الصلوات التى تعبر عنه صلاة القسمة السريانية ومطلعها هو : « هكذا بالحقيقة تألم كلمة الله بالجسد ، وذبح ، وانحنى بالصليب ، وانفصلت نفسه من جسده ، إذ لاهوته لم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده ... » .

أ- **الصبغة** : هى الولادة الجديدة بها يتطهر المصطبغ من خطية جده الأول ، وهذه النعمة غير المنظورة تمنح فى صورة منظورة هى تغطيس المصطبغ ثلاث مرات تغطيسًا كليًا باسم الآب والإبن والروح القدس . والكنيسة القبطية تحتم على أن تكون الصبغة على يدى كاهن وبالتغطيس الكلى لأن الكتاب المقدس يقول لنا أن السيد المسيح صعد من الماء (مرقس١ : ١٠) والصعود يحتم النزول ، كذلك يقول بولس الرسول : « مدفونين معه فى المعمودية التى فيها أقمتم أيضاً معه بايمان عمل الله الذى أقامه من الأموات » (كولوسى ٢ : ١٢) ، والدفن يستلزم التغطية . ولما كان الانسان الحى لا يمكن دفنه فى الرمل لئلا يختنق ، ولا يمكن دفنه فى النار لئلا يحترق ، فلا توجد مادة أخرى يمكن وضع الانسان داخلها ليعود حياً إلا بالماء وبخاصة أن الماء مطهر منقٍ . كذلك تحتم كنيستنا صبغ الأطفال لأن العائلات التى كانت تنال الصبغة المقدسة على أيدى الرسل كانت تنالها كعائلة بأسرها : كبارها وصغارها بل وأطفالها ، لكى يحظى الجميع بهذه النعمة الالهية الموهوبة مجاناً دليلاً على محبة الله للناس .

ولأن كنيستنا توجب معمودية الأطفال فقد سنَّ الآباء ان يكون للطفل أشبيناً يحمله ساعة صبغته فيجحد له الشيطان ويعلن ايمانه بالمسيح ويتعهد أمام الله بتربيته التربية المسيحية الحقة لذلك يجب أن يكون الاشبين من المؤمنين العارفين بالايمان .

وهناك معمودية غير تلك التى يجريها الكاهن وفقًا للطقس الكنسى - هذه المعمودية هى صبغة الدم . فالشهيد الذى يسفك دمه فى سبيل الايمان قبل أن ينال الصبغة المقدسة كان دمه معمودية صحيحة مقبولة . والكنيسة لا تقر غير هاتين الطريقتين للصبغة : طريقتها الطقسية ودم الشهداء .

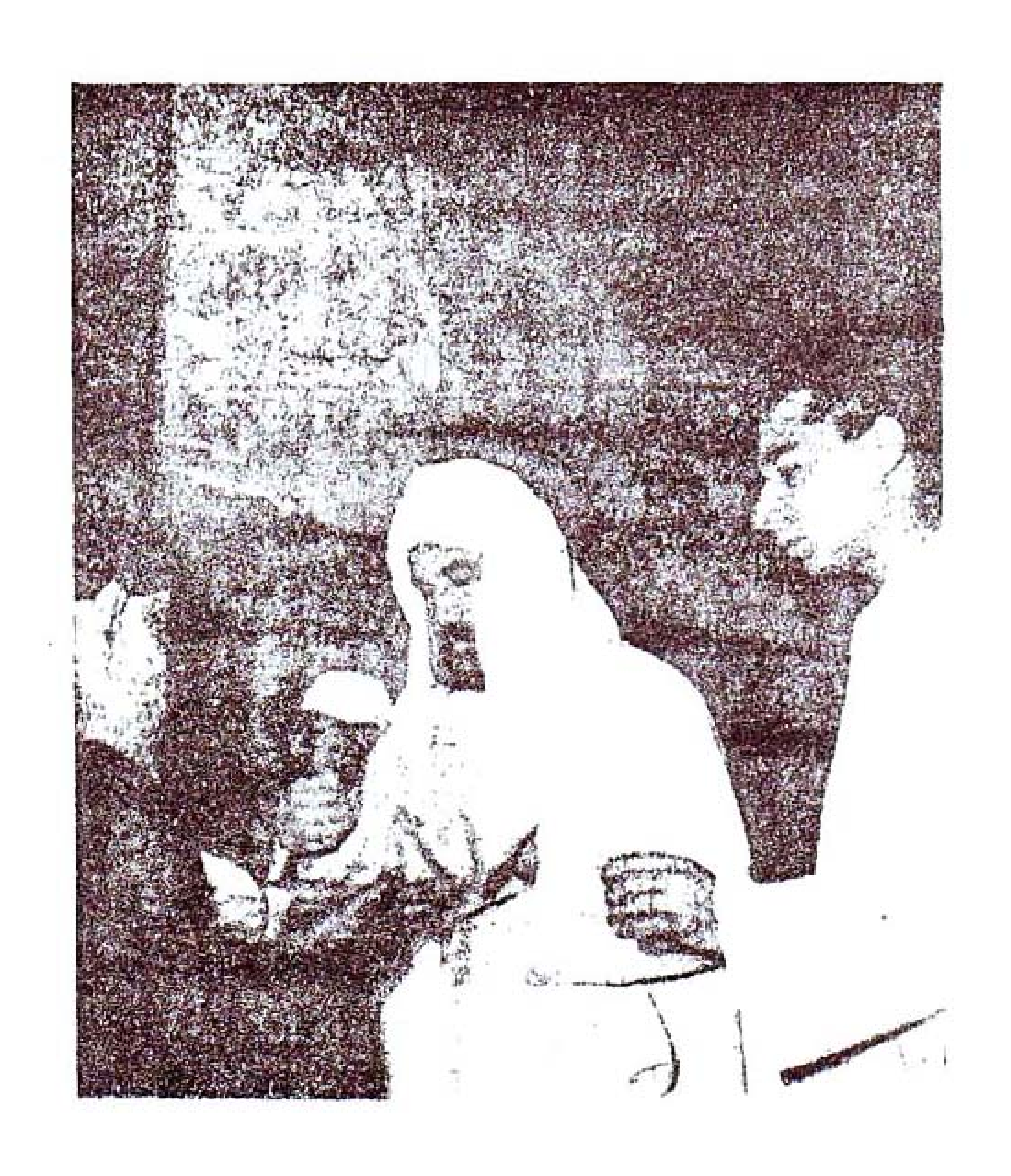
ب- **الميرون** : هو حلول الروح القدس على الانسان الذى نال الصبغة المقدسة - أو التثبيت كما تصفه بعض الكنائس الأخرى - وكنيستنا تمنح هذا السر بعد الصبغة مباشرة لأن الروح القدس ظهر فى شبه حمامة فوق السيد المسيح وهو صاعد من نهر الأردن بعد صبغته مباشرة . وهذه النعمة غير المنظورة تمنحها الكنيسة على أيدى كهنتها بمسح المؤمنين بدهن الميرون المقدس . والأصل فى الميرون هو الحنوط والأطياب التى كانت

موضوعة على جسد الفادى الحبيب عند دفنه ، اقتسمها الرسل فيما بينهم بعد القيامة المجيدة ، وتوارثها الآباء عن الرسل ثم رتبوا شعائر خاصة بها يؤدونها كلما وجدوا أن ما بقى لديهم من الميرون لا يفى بحاجة الكنائس - أى أنهم يحتفظون دائماً بخميرة من الموجود لديهم ويضيفون عليها حنوطاً وطيبًا جديداً ، وذلك لكى تظل البركة الأولى الناتجة عن ملاصقة الحنوط لجسد الرب باقية على مدى الأجيال .

جـ- **التناول :** ويوصف بأنه سر الأسرار لأن المؤمن يتناول جسد الرب ودمه الأقدسين . ذلك لأن كنيستنا تؤمن بأن صلوات القداس الالهى حين يتلوها الكاهن على القربان والخمر تحول القربان إلى جسد الرب المقدس والخمر إلى دمه الزكى تحويلاً فعلياً . وهذا الايمان مبنى على كلمات الفادى الحبيب نفسه التى قالها لرسله القديسين وتلاميذه المكرمين فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا . فهو - له المجد - قد أكد أن حياة المسيحى مستقاة من أكله الجسد المقدس وشربه الدم الكريم إلى حد أن بعض الذين آمنوا به وساروا وراءه تركوه ولم يعودوا يمشون معه مما جعل يساءل تلاميذه إن كانوا هم أيضًا يفكرون فى تركه كما جاء فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا . والكنيسة القبطية تعطى المؤمن الحق فى التناول حالما ينال الصبغة المقدسة .

د- **التوبة أو الاعتراف :** وهذا السر معناه الحصول على المغفرة بعد أن يبوح المعترف للكاهن بما اقترفه من ذنوب . والاعتراف يجب أن يقترن بالندم على ما حدث والعزم بنية خالصة على عدم الرجوع إليه ثانية . وقد يحدث أن يقع المعترف فى الذنب عينه الذى تاب عنه ولكن مادامت لديه الرغبة الأكيدة فى اصلاح نفسه وفى العمل على التغلب على هذا الذنب فهو لابد واصل فى النهاية إلى تحقيق رغبته . لذلك وجب عليه أن يداوم على الاعتراف والتوبة متكلاً على النعمة الالهية موقناً أنه سينال الغلبة على ضعفاته إن هو وثق بأن مراحم الله لانهائية .

ومما يجدر ذكره أن علم النفس جاء فى هذا العصر ينادى بما نادت به الكنيسة منذ عشرين قرناً خلت - فالتحليل النفسانى ليس سوى الوصول إلى الخلاص من الآلام النفسية بعد الاعتراف للطبيب النفسى . فعلم النفس



أحد الكهنة ينتقى القربانة التى سيصلى عليها صلوات القداس الالهى بينما
أمسك الشماس بقارورة الخمر ، وذلك عند البدء فى الشعائر الدينية

يؤكد المبدأ الكنسي – مبدأ الاعتراف – ولو أنه يطالب بالاعتراف للأخصائي النفسي بينما تطالب الكنيسة بالاعتراف للكاهن لأن الكاهن (على حد التعبير الوارد في المخطوطات) هو طبيب روحي .

هـ– **المسحة** : هي سر به ينال المؤمن الشفاء الجسدي والروحي بعد أن يتلو الكاهن صلاة القنديل ثم يدهن المريض بالزيت المقدس ، وذلك عملاً بقول يعقوب الرسول : « أمريض أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب . وصلاة الايمان تشفي المريض والرب يقيمه . وإن كان قد فعل خطية تغفر له » .

و– **الزواج** : هو رباط روحي مقدس يصل بين الرجل وامرأته ويجعل منهما واحداً حتى لقد شبهت الكنيسة صلة الرجل وزوجته بصلة المسيح له المجد وكنيسته ، وحتى نصح الرسول الرجال بأن يحبوا نساءهم كما أحب المسيح الكنيسة (أفسس ٥ : ٢٥) . ولقد قدس الفادي الحبيب الزواج بحضوره عرس قانا الجليل حيث صنع أول أعجوبة له .

ز– **الكهنوت** : هو السر الذي به ينال الانسان النعمة التي تؤهله لأن يؤدي رسالة السيد المسيح بين اخوته من البشر – أي أنه السر الذي يمكن صاحبه من اتمام الأسرار الستة الأخرى فليس في الكنيسة من يستطيع أن يتم شعائر الصبغة المقدسة أو مراسيم الزواج أو غيرهما من الأسرار غير الكاهن الذي وضعت عليه اليد وتليت عليه الصلوات الخاصة برسامة الكهنة . والكهنوت في الكنيسة خلافة رسولية أخذها الآباء الأولون عن الرسل أنفسهم وسلموه لمن بعدهم ، والرسل بدورهم أخذوا هذا السر المقدس من رب المجد نفسه الذي قال لهم : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨ : ١٩) .

وثلاثة من هذه الأسرار السبعة لا تمنح إلا مرة واحدة مدى الحياة . وهذه الثلاثة هي الصبغة المقدسة والميرون ويمنحان لجميع المؤمنين ، والكهنوت ويمنح للرجال الذين يرغبون في تكريس حياتهم للخدمة .

٣– الايمان والأعمال :

تعلمنا كنيستنا بأن نؤمن بالسيد المسيح بقلوبنا ونعترف به بألسنتنا ،

على أن يقترن هذا الايمان بالعمل . لأن الكمال المسيحى لا ينال إن لم يقترن الايمان بالعمل . فمخلصنا الصالح قال لنا : « ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات بل الذى يفعل ارادة أبى الذى فى السماوات » مت ٧ : ٢١ . بينما يقول يعقوب الرسول أن « الايمان بدون أعمال ميت » يعقوب ٢ : ١٧ . وحين يتحد الايمان بالأعمال فى حياة المؤمن تفيض عليه النعمة الالهية . فكما أن الله تعالى أحب العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، فإنه - تعالى - يمنح نعمة روحه القدوس ليعاون المؤمنين به على تأدية واجباتهم وعلى بلوغ الكمال الذى جعله السيد المسيح هدفاً لكل المؤمنين به حيث قال : « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » متى ٥ : ٤٨ .

ثانيا : الممارسة

ا- الصلاة : هى صلة المخلوق بالخالق ، أو هى النزوع الانسانى التلقائى نحو الآب السماوى ، ولغة التخاطب المألوفة بين المؤمنين وبين الله . فالانسان الوثيق الصلة بالله يتجه إليه فى ثقة واطمئنان ومن غير كلفة فى كل وقت . لأن الصلاة هى كل هذا فهى تتضمن العبادة والاتضاع والاستجابة لفعل النعمة والطلبات والشفاعة . فالانسان - لشعوره بالعجز المقترن بالاعجاب لكل ما يشاهده حوله من قوى - يتعبد للخالق المبدع ويتضع أمامه ومن ثم يستجيب لفعل النعمة الالهية المنسكبة عليه من الله تعالى ، وعند ذاك يشعر بدالة تمكنه من أن يطلب إلى الله كل ما يحتاج إليه . ولما كان السيد المسيح قد أعلن لنا أن الله محبة وأن أعظم وصية هى محبة الله ومحبة القريب ، تحتم على من يحب أقرباءه أن يصلى من أجلهم ، ولما كان الشهداء والقديسون هم أسمى الناس فإن قلوبهم تتسع لمحبة أكبر عدد من هؤلاء الناس ، وفوق ذلك فإنهم لسموهم قريبون من الله ، وبالتالى يصلون لأجل الجميع . وهذه الصلوات التى يقدمها القديسون والشهداء هى شفاعتهم التى يرفعونها إلى الله تعالى عن اخوتهم الذين لم يبلغوا درجتهم فى القداسة .

وكنيستنا لا تتمسك بمبدأ الشفاعة فحسب بل ان الآباء أعلنوا فى توكيد أن الصلة بين الأحياء فى الجسد وبين المنتقلين إلى عالم الخلود ثابتة ، وان

المنتقلين أحياء ولو أنهم غير مرئيين ، لذلك وجبت الصلاة من أجلهم . والصلوات الخاصة بهم تقال يوم انتقالهم ثم فى الثالث والسابع والأربعين ، وتلى هذه الأيام الذكريات السنوية . كذلك يذكرون فى القداسات جميعها – حتى فى قداسات الأعياد .

والصلاة إلى جانب كونها فردية وجماعية ، هى أيضاً وضعية وارتجالية وقد رتبت كنيستنا المصرية سبع صلوات يوميًا هى : صلاة باكر تقال فى الفجر ، صلاة الساعة الثالثة وتقال حوالى التاسعة صباحاً ، صلاة السادسة وتقال ظهراً ، صلاة التاسعة وتقال حوالى الثالثة بعد الظهر ، صلاة الغروب، صلاة النوم ، صلاة نصف الليل وتقال على ثلاث دفعات (أو هجعات) . ولما كانت كلمة « ساعة » هى « أجب » بالقبطية كان الكتاب المتضمن لهذه الصلوات اليومية يعرف بالأجبية . وكانت هذه الصلوات شائعة الاستعمال منذ القرن الأول للمسيحية إذ نجد اكليمنضس الاسكندرى يتحدث عنها بوصفها أمر شائع معروف [١] .

ب- الصوم : إن الغرض الأساسى الذى يستهدفه الصوم هو العودة بالانسان إلى حالة القداسة الأولى التى استمتع بها آدم وحواء قبل سقوطهما ، فهو الوسيلة العملية التى يتذرع بها الصائم للوصول إلى ما يريده له الله تعالى من السمو الروحى . وكما أن الصلاة هى صلة الانسان بخالقه فالصوم صلة الانسان بنفسه فى سعيه نحو خالقه ، لأن الانسان يتدرب بواسطة الصوم على اخضاع الجسد لسيطرة الروح . وللصوم مميزات خمسة :

١ – التطهير : لأن الامتناع من الأكل مدة معينة والأكل البسيط غير الدسم ينقى الجسد ويخفف من ثقله وعنفوانه فيصفو الفكر وتحلق الروح .

٢ – المشاركة : فالصائم حين يعضه الجوع يعطف على الجائعين عن اضطرار فيحاول تخفيف آلامهم .

٣ – التفكير : إن كل انسان عرضة للخطأ (ولو عن غير قصد) . وهو

---

(١) كتاب « حياة اكليمنضس الاسكندرى » (بالفرنسية) لكلودموندیزیر ص٣٧ .

حين يصوم ويقرن صومه بالصلاة وبالندم على ما يكون قد سقط فيه من خطأ سيعاهد نفسه على التوبة ويجاهد للتفكير عن سيئاته قدر المستطاع .

٤- اللياقة : فالصائم يسعى إلى أن يجعل نفسه لائقاً للاقتراب من الله وجديراً بنعمته بما اكتسبه من صفاء النفس وعطف على الغير وتكفير عن الذنب .

٥- تدريب الإرادة : فالصائم يتدرب على الامتناع عن الأكل الذى يشتهيه كما يتدرب على الاحتمال فتقوى إرادته وبالتالى يتمكن من التحكم فى نفسه حكماً ذاتياً .

ولما كان للصوم هذه المزايا فقد وصفه أحد الآباء المعاصرين بأنه لغة المحبة : فالصائم لمحبته فى خالقه يسعى عن طريق الصوم إلى الاقتراب منه تعالى ، ولمحبته فى إخوته يستعين بالصوم لمشاركتهم ضيقاتهم .

والصوم أصلاً هو الامتناع عن الأكل حتى الغروب . ولكن لما كان الصوم طياً متعسراً على بعض الناس فقد سمحت الكنيسة لكل إنسان ان يصوم قدر طاقته : فالبعض يطوون حتى الظهر والبعض حتى الرابعة بعد الظهر . ومن لا يستطيع الطى فيستطيع ان ياكل تبعاً لما رسمه الآباء وذلك بأن يمتنع من أكل اللحوم بأنواعها وبكل مستخرجاتها ، ولا ياكل غير نتاج الأرض بحيث لا يشبع تماماً - أى انه يأكل ليسد جوعه فقط . والسبب فى ذلك هو تخفيف عنفوان الجسم وحدة انفعالاته ليسهل اخضاعه للروح .

والأصوام التى تتمسك بها الكنيسة القبطية هى : ١- الصوم السابق لعيد القيامة المجيدة (ويعرف بالصوم الكبير) ، ومدته خمسة وخمسون يوماً تتألف من : أسبوع البسخة المقدسة الذى يبدأ من بعد ظهر أحد الشعانين وينتهى بسبت الفرح ، والأربعين يوماً التى صامها مخلصنا له المجد ، وأسبوع آخر لتعويض أيام السبوت الواقعة ضمن الأربعين المقدسة لأن الصوم طياً غير مسموح به فى هذه الأيام . ٢-يوما الأربعاء والجمعة من كل أسبوع ما عدا الواقع منها خلال الخمسين يوماً التالية للقيامة المجيدة(١)

(١) ذكر كلودمونديزير هذه الأصوام فى صدد حديثه عن الصلوات الكنسية - راجع كتابه « حياة اكليمنضس الاسكندرى » (بالفرنسية) ص٣٧ .

وهذه الأصوام لها المرتبة الأولى بين كل الأصوام الكنسية لأن الدسقولية (أو قوانين الرسل) نصت عليها بالذات . أما بقية الأصوام فقد رتبها الآباء الرسوليون فقد سمحوا بأكل السمك فيها لكونه من المخلوقات العديمة الدم في حين أنهم منعوه في الأصوام الأولى ، ٣-والأصوام التى رتبتها الكنيسة القبطية (عدا ما ذكرنا) هى : الصوم السابق لعيد الميلاد ومدته ثلاثة وأربعون يوماً ، صوم يونان (لما فيه من عبرة) ومدته ثلاثة أيام ، صوم الرسل ويلى الخمسين يوماً التالية للقيامة المجيدة مباشرة وتتراوح مدته ما بين ثمانية عشر وثلاثة وأربعين يوماً تبعًا لموعد عيد القيامة ، صوم السيدة العذراء ومدته خمسة عشر يوماً وهذه التسميات ترجع إلى المناسبة التى يرتبط بها الصوم - لأن الصوم (كما قلنا) للتدريب النفسى وليس لرسول أو قديس .

والأصوام موضوعة ليرعاها المؤمنون - كل حسب طاقته الروحية والجسمية . فمن يستطيع الطى امتنع عن الأكل أطول فترة فى استطاعته ، ومن لا يستطيع الطى يأكل فى الحدود التى رسمتها الكنيسة وهى الاكتفاء بنتاج الأرض فقط . أما المرضى ومن يحول ضعفهم الجسمى دون الصوم فالكنيسة لا تجبرهم على الصوم لأن الآباء الذين رتبوا لنا التعاليم والطقوس والأنظمة قالوا بأننا نعيش فى ظل ناموس النعمة لا تحت نير ناموس النقمة (١) .

جـ- **الرهبنة :** نشأت فكرة الانقطاع للصلاة والصوم والتأمل فى العصر المسيحى فى مصر . فالأنبا أنطونى يحمل لقب « أبا الرهبان » بينما يوصف الأنبا باخوم بأبى الشركة . وهذان اللقبان دليل على أن الرهبنة الفردية والرهبنة الديرية كلتاهما نشأ فى مصر . ومن مصر انتشر النظام الرهبانى حتى عم أنحاء العالم كله . والرهبنة أصلاً هى أن يكرس الانسان حياته للخدمة فيصقل نفسه بالخلوة مع الله ليؤهلها لخدمة الناس ، وكان آباء كنيستنا المصرية فى العصور الأولى يختارون من يعرفونه صالحاً لخدمة معينة لكى يؤدى هذه الخدمة فمثلاً اختار الأنبا أثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى العشرون) راهبًا اسمه إيسيذروس ليدير المستشفى التابع

---

(١) راجع ف٣٥٢ الواردة فى سيرة الأنبا باخوم (فى هذا الكتاب) .

للكنيسة فى الاسكندرية . بينما كان كل دير (فى العصور الوسطى) يفتح أبوابه للشعب مرة أسبوعياً . ولم يذهب الناس إذ ذاك للأديرة لنيل البركة فحسب بل كان كل من له احتياج يعرضه على الآباء الرهبان : فالمريض يستشير الطبيب من بينهم ، والمحتاج إلى علاج روحى يلجأ إلى أب روحى ، والذى يريد أن يبنى بيتًا يستعين براهب مهندس إلى غير ذلك من الاحتياجات الانسانية التى كان العائشون فى العالم يعرضونها على أخوتهم العائشين فى الدير فيخدمهم الرهبان مجاناً . فكان العلمانيون – اعترافًا منهم بفضل الرهبان – يوقفون الأطيان والعقار على الأديرة التى يعيش فيها هؤلاء الرهبان . وفوق هذه الخدمات الملموسة فإن الرهبان يؤدون خدمة غير ملموسة تفوق جميع الخدمات – وهذه الخدمة غير الملموسة هى الصلوات التى يرفعونها بلا انقطاع إلى عرش النعمة . كذلك ظل الكهنة – سواء منهم الرهبان أو المتزوجين – مسئولين هم وحدهم عن التعليم والتربية حتى القرن التاسع عشر .

ثالثًا : الإدارة

إن كنيستنا القبطية الأرثوذكسية كنيسة شعبية ، قام النظام فيها منذ أن أسسها القديس مرقس على اشتراك الشعب مع رجال دينه فى الاهتمام بشتى المرافق الكنسية . فكان أراخنة[1] الشعب يشتركون مع الأساقفة ورؤساء الأديرة فى انتخاب الراهب الصالح ليعتلى السدة المرقسية . كذلك لم ينفرد البابا الاسكندرى قط بالتصرف فى أمور الكنيسة بل كان (ولا زال) يجمع مجمعه ويتداول واياهم فى الموضوعات المعروضة للبحث ويقر رأى الأغلبية حتى وإن جاء مخالفاً لرأيه الخاص . وليس ذلك فحسب بل أن الباحث فى التاريخ الكنسى ليجد أن البابا الاسكندرى كان يدعو أراخنة الشعب أيضًا للاشتراك معه ومع مجمعه فى المداولة ومع أن المجلس الملى كهيئة رسمية لم يكن له كيانه إلا فى أواخر القرن التاسع عشر إلا أنه منذ القرن المسيحى الأول كان أراخنة الشعب يتحدثون باسمه ويشتركون مع رجال الدين فى مباحثاتهم ومداولاتهم حتى لقد اشتركوا فى المناقشات التى أثارها المبتدعون

---

(١) جمع أرخن ومعناها رئيس فى اللغة اليونانية وأخذها القبط عنهم .

وضموا أصواتهم إلى أصوات آبائهم . والكنيسة القبطية (كغيرها من الكنائس الرسولية الشرقية) تتمسك بمبدأ الحكم الجماعى وبأن السيد المسيح حال فى كنيسته مجتمعة . ولهذا السبب حدث أكثر من مرة أن المجمع المقدس ومعه الأراخنة قرروا تنحية البابا عن إدارة شئون الكنيسة أو المطران عن إدارة إيبارشيته الخاصة . ويرجع هذا التنظيم المتسم بالشعبية إلى أن رسل الرب الأطهار هم الذين وضعوا هذه القاعدة - قاعدة الشورى وتبادل الرأى مع المؤمنين - فقد اتبعوا هذه القاعدة عند انتخاب متياس بدلاً من يهوذا (أعمال١ : ١٥ - ٢٦) وعند انتخاب استفانوس وزملائه الشمامسة (أعمال٦ :٣-٥) . ثم اتبعوها حين ارادوا أن يقرروا قبول الأممين من غير ختان (أعمال ١٥) . وهكذا حفظت كنيستنا حق الشعب فى أهم المسائل الدينية كما حفظته فى أقلها .

كذلك أوجدت الكنيسة نظام الشماسية لخدمة الشعب . فكلمة شماس فى القبطية (المأخوذة عن اليونانية) هى دياكون ⲆⲒⲀⲔⲰⲚ ومعناها خادم ، وكان الشماس (أو الشماسة) فى القرون الأولى يوصف بأنه « عينا الأسقف وأذناه » إذ كان عليه أن يزور العائلات أثناء الأسبوع ثم يقدم تقريراً عن احتياجاتهم إلى الكاهن او الأسقف ، كما كان عليه أن يفتقد المرضى والحزانى والمسجونين ويبلغ الأسقف أو الكاهن كل ما رآه وسمعه كذلك ليستطيع الأسقف أن يعاون أبناءه - كلاً حسب احتياجه . ولم يشترط الآباء فى العصور الرسولية سناً معينة للشماس أو الشماسة بل كانوا يختارون من يجدونه قادراً على الخدمة حتى حين يكون صغير السن ، فمثلاً يحدثنا التاريخ عن شماسة فى مدينة الاسكندرية كان عمرها عشرين سنة (١) . أما الغرض الذى يهدف إليه نظام الشماسية فهو تأدية ما يوصف الآن « بالخدمة الاجتماعية » - ولم تكن هذه الخدمة إذ ذاك اجتماعية بحتة بل كانت اجتماعية روحية .

فكنيستنا أدركت منذ البداية أن الدين ليس معناه الاشتراك فى الشعائر الدينية فقط ، ولا هو مجرد الصوم والصلاة بل هو يشمل الحياة كلها أو

---

(١) راجع ص٢٨٦ و٢٨٧ من هذا الكتاب .

هو كما قال يعقوب الرسول : « افتقاد اليتامى والأرامل وحفظ الانسان نفسه بلا دنس من العالم (١) » . والأمثلة على أن الدين هو الحياة عديدة فى تاريخنا الطويل نذكر منها ان أسقفًا فى أثناء زيارته الراعوية وصل ذات مساء إلى بيت قاطع طريق . ولما كان الظلام قد بدأ يرخى سدوله قرع الأسقف الباب ورجا من صاحب المنزل أن يسمح له بالمبيت عنده . قال له صاحب البيت : «ولكن – أتعرف من انا ؟ » أجابه الأسقف : « أعرف أنك أخى فى الانسانية وكفى » . فقال الرجل : « أتدرى أننى قاطع طريق ؟ » أجابه : « إن رضيت أن تستضيفنى فإننى مستعد ان ابيت معك رغم اعترافك هذا » . فأدخله قاطع الطريق ثم أحضر له فرخة مطبوخة وقال له : « أعرف أنه الصوم الكبير ولكن ليس لدى طعام غير هذا » . قال الأسقف : « سأشاركك طعامك » وتأثر قاطع الطريق بهذه المعاملة وتاب ورجع عن سيرته الخاطئة . ومقابل هذا الحادث ، حادث جرى فى أيامنا يتلخص فى أن أحد الرهبان تعهد أسرة كمسارى مسكين بالرعاية . واحبته هذه الأسرة ورجت منه أن يقضى يوماً فى بيتهم . فقبل رجاءهم واتفق معهم على يوم يزورهم فيه – وكان يوم الجمعة . ولفرح أفراد الأسرة بقبوله زيارتهم قتروا على أنفسهم واشتروا اوزة وأعدوها له . فلما دخل ووجد الأوزة ارتسمت فى مخيلته صورتان : صورة لهذه الأسرة التى رضيت بالحرمان لتكرمه غير دارية بجمعه أو غيرها من الأيام ، وصورة له وقد كسر صومه . وفى لحظات خاطفة ساءل نفسه : « ايملأ هذه النفوس شعوراً بالخيبة ويتناسى تضحيتها لاكرامه أم يكسر صيامه ؟ » ولم يجب الراهب على نفسه إلا بالجلوس فى صمت تام ومشاركة هذه الأسرة طعامها . ثم جلس يأتنس مع افرادها بعد الغداء وسألهم أثناء الحديث : « أحنا فى يوم إيه النهاردة ؟ » قالوا : « يوم الجمعة » . وفى رفق وهدوء علمهم أن يوم الجمعة صوم أقرته الكنيسة منذ عهد الرسل . فلما حاولوا الاعتذار أجابهم : « لو كنت فى حاجة إلى الاعتذار لما أكلت معكم فى رضى وسكون » . وعندها وعدوه بأنهم هم وأولادهم سيواظبون على صوم يوم الجمعة ، وليس ذلك فقط بل أولاد أولادهم مادام لهم نسل . ولا يزالون

(١) يعقوب ١ : ٢٧ .

يكاتبون هذا الأب الروحى ، وفى خطاباتهم يذكرون له أنهم مازالوا حافظين عهد الصوم ذاكرين يوم زيارته لهم كأسعد يوم فى حياتهم . وهذان المثلان يبينان لنا أن بين ظهرانينا رجالاً عرفوا بهاء النور المسيحى فى سطوعه الكامل ورفضوا أن يرضوا بالنور الضئيل الذى اكتسبوه ممن حولهم لأنهم نجحوا فى أن يميِّزوا بين النور الصافى المنبعث من المصدر الحق وبين النور الضئيل الذى يأتيهم من تراكم الأجيال .

❖ ❖ ❖

ملحوظة : المعلومات الخاصة بالأسرار السبعة مستقاة من كتاب «أسرار الكنيسة السبعة» . لحبيب جرجس مدير الكلية الأكليريكية سابقاً .

❖ ❖ ❖

بعض آيات الكتاب المقدس

التى استند إليها الآباء عند وضع دستور الايمان

« بالحقيقة نؤمن بإله واحد » :

خروج ٢٠ : ٣ ، أشعياء ٤٥ : ٥ – ٧ ، هوشع ١٣ : ٤ ، متى ١٩ : ١٧ ، يوحنا ٥ : ٤٤ ، رومية ٣ : ٣٠ ، ١ كورنثوس ٨ : ٤ – ٦ .

« الله الآب ضابط الكل » :

مزمور ٤٥ : ٣ – ٤ و٦٨ : ٤ – ١٤ ، أفسس ٤ : ٥ – ٦ ، غلاطية ١ : ١ و٣ ، مرقس ١٤ : ٣٦ .

« خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى » :

خروج ٢٠ : ١١ ، أشعياء ٤٥ : ١٢ – ١٣ و١٨ ، نحميا ٩ : ٦ ، لوقا ١٠ : ٢١ ، كولوسى ١ : ١٦ ، رؤيا ١ : ٦ .

« نؤمن برب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور » :

مزمور ٢ : ١٧ ، أشعياء ٩ : ٦ ، يوحنا ١ : ١٤ و١٨ ، ٣ : ١٦ ، ٢٠ : ٢٠ و٢٥ و٣٠ ، أعمال ١٣ : ٣٣ ، ١ كورنثوس ٨ : ٦ ، عبرانيين ١ : ٥ .

« نور من نور . إله حق من إله حق . مولود غير مخلوق » :

أشعياء ٦ : ١ – ٣ ، يوحنا ٤ : ١٠ و٢٥ – ٢٦ ، ١٤ : ٦ ، ١٦ : ٢٨ ، ١٧ : ٥ .

« الذى به كان كل شئ » :

مزمور ٣٣ : ٦ ، يوحنا ١ : ٣ – ٧ ، أفسس ٣ : ٩ ، كولوسى ١ : ١٦ ، عبرانيين ١ : ٢ – ٣ ، رؤيا ٥ : ١٢ – ١٤ .

« الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا » :

يوحنا ١ ، ٢٩ ، ١ تيموثيوس ١ : ١٥ ، رومية ٥ : ٦ – ٨ ، بطرس ٣ : ١٨ .

« نزل من السماء وتجسد من الروح القدس » :

متى ١ : ١٨ و٢٠ ، لوقا ١ : ٣٤ ، يوحنا ٣ : ١٣ ، ٦ : ٣٨ .

« ومن مريم العذراء وتأنس » :

أشعياء ٧ : ١٤ ، لوقا ١ : ٢٦ ، غلاطية ٤ : ٤ .

« وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى وتألم وقبر » :

أشعياء ٥٣ : ٤ - ٩ ، متى ٢٧ : ٢٦ ، مرقس ١٥ : ١٢ - ١٥ و٢٤ ، لوقا ٢٣ : ٢٤ و٣٣ ، ٢٤ : ٢٦ ، يوحنا ١٩ : ٦ و١٥ - ١٦ ، افسس ٢ : ١٦ ، فيلبى ٢ : ٨ ، كولوسى ١ : ١٠ ، ٢ : ١٤ ، ١ كورنثوس ١ : ١٨ ، ١ تيموثيئوس ٣ : ١٦ ، عبرانيين ٢ : ٩ - ١٠ ، ١٨ ، ١٢ : ٢٠ ، ١ بطرس ٢ : ٢١ .

« وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب » :

متى ٢٨ : ٦ ، مرقس ١٦ : ٦ ، لوقا ٢٤ : ٦ - ٧ و٣٤ ، يوحنا ٢٠ : ٩ و٢٠ ، رومية ١٤ : ٩ ، ١ كورنثوس ١٥ : ٣ - ٧ ، افسس ١ : ٢٠ ، ١ تيموثيئوس ٢ : ١١ .

« وصعد إلى السموات وجلس عن يمين أبيه » :

مرقس ١٦ : ١٩ ، لوقا ١٤ : ٥١ ، يوحنا ٢٠ : ١٨ ، اعمال ٧ : ٥٥ .

« وأيضاً يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات » :

متى ١٦ : ٢٧ ، لوقا ٩ : ٢٦ ، أعمال ١ : ١١ ، ١٠ : ٤٢ ، ٢ تيموثيئوس ٤ : ١ ، ١ بطرس ٤ : ٥ .

« الذى ليس لملكه انقضاء » :

دانيال ٧ : ١٣ - ١٤ ، مزمور ٢٢ : ٢٨ ، ٤٥ : ٦ ، ٨٩ : ٢٩ ، لوقا ١ : ٣٣ ، رومية ٥ : ٧ ، ٢ كورنثوس ٥ : ١ .

« نؤمن بالروح القدس الرب المحيى » :

يوحنا ٦ : ٤٥ و٦٣ ، أعمال ١٣ : ٢ ، ٢٠ : ٢٨ ، رومية ٨ : ١١ ، عبرانيين ٦ : ٤ ، ٢ تيموثيئوس ٣ : ١٦ ، كولوسى ٣ : ١٦ ، ٢ بطرس ١ : ٢١ .

« المنبثق من الآب » :

يوحنا ١٤ : ١٦ و١٥ : ٢٦ ، غلاطية ٤ : ٦ .

« المسجود له من الآب والابن » :

يوحنا ٤ : ٢٤ ، ١ يوحنا ٥ : ٧ .

« الناطق فى الأنبياء » :

٢ كورنثوس ١٤ : ٢ ، ٢ تيموثيئوس ٣ : ١٦ ، ٢ بطرس ١ : ٢١ .

« وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية » :

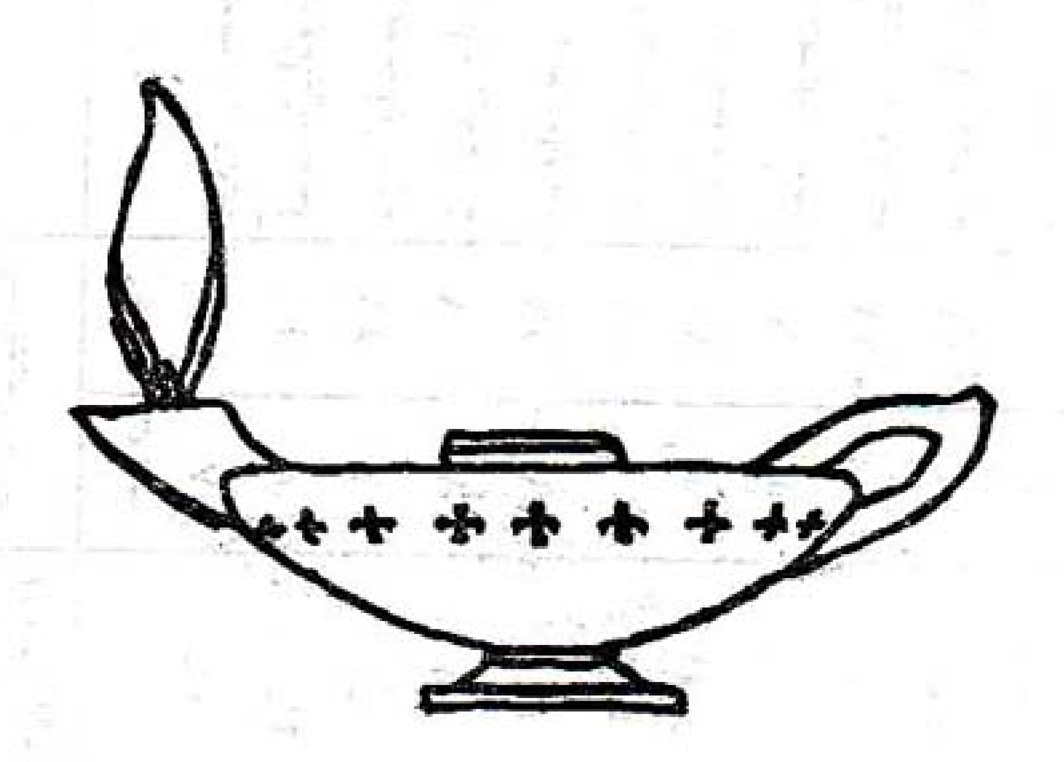
متى ١٨ : ١٧ ، أعمال ٢ : ١ ، ١ كورنثوس ١٢ : ١٧ ، أفسس ٢ : ٢١ ، ٤ : ٤ - ٦ و١٣ ، غلاطية ٣ : ٢٨ .

« ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا » :

افسس ٤ : ٤ - ٦ ، رومية ٦ : ٤ ، كولوسى ٢ : ١٢ ، ١ بطرس ٣ : ٢١ .

« وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى » :

متى ٢٥ : ٣٢ ، يوحنا ٥ : ٢٩ ، ١ كورنثوس ١٥ : ١٢ - ٥٨ .



أسماء باباوات الاسكندرية حتى سنة ٤٣٥ م.ش.

رقم	البابا الاسكندرى	تاريخ التقدمة (١)	مدة الرياسة شهر	مدة الرياسة سنة	الملوك المعاصرون له
١	مرقس الرسول	٦١	٨	٧	نيرون فسبازيانوس
٢	أنيانوس	٦٤ (٢)	٧	٢٢	فسبازيانوس وتيطس ودومتيانوس
٣	ميليوس	٨٦	٩	١٢	دومتيانوس ونيرفا وتراجان
٤	كردونوس	٩٩	٩	١٠	تراجان وادريانوس
٥	بريموس	١١٢	١	١٢	أدريانوس
٦	يسطس	١٢٤	١٠	١٠	أدريانوس وأنطونيوس
٧	أومانيوس	١٣٥	٣	١١	أنطونيوس
٨	مريانوس	١٤٦	٢	٩	أنطونيوس ومرقس أوريليوس
٩	كلاديانوس	١٥٥	٦	١٤	مرقس أوريليوس
١٠	أغريبنوس	١٦٩	٧	١١	مرقس أوريليوس وكومودوس
١١	يوليانوس	١٨١	١	١٠	كومودوس وبريتناكوس ويوليانوس وساويرس
١٢	ديمتريوس الأول	١٩١	٧	٢٢	ساويرس وكاركلار وماكرينوس وهيلوجبالوس وساويرس اسكندر
١٣	ياروكلاس	٢٢٤	١	١٦	ساويرس إسكندر ومكسيميانوس ويوبيانوس وجورديانوس وفيلبس
١٤	ديونيسيوس	٢٤١	٩	١٩	دقيوس وجالوس وفاليريانوس وجاليانوس وكلوديوس

١٥	مكسيموس	٢٦٢	٧	١٢	كلوديوس وأوريليانوس وتاسيتوس وفلوريانوس وپروبوس
١٦	تيئوناس	٢٧٤	٩	٩	كاروس ونومريانوس وديوقلديانوس
١٧	بطرس الأول «خاتمة الشهداء»	٢٨٥	١١	١٠	ديوقلديانوس
١٨	أرشيلاوس	٢٩٥	٦	–	ديوقلديانوس
١٩	ألكسندروس	٢٩٥	١٠	٢٢	ديوقلديانوس وكونستانس وجاليريوس وقسطنطين الأول (أو الكبير)
٢٠	أثناسيوس الرسولى	٣١٨	–	٤٦	قسطنطين الأول وقسطنطين الثانى وكونستانطيوس وكونستانس الثانى ويوليانوس وجوفيانوس وفالنس
٢١	بطرس الثانى	٣٦٤	٩	٥	فالنس
٢٢	تيموثيئوس الأول	٣٧٠	٥	٦	جراديانوس فالانتينيانوس
٢٣	ثيئوفيلس	٣٧٦	٢	٢٧	فالانتينيانوس وثيئودوسيوس الأول واركاديوس وثيئودوسيوس الثانى
٢٤	كيرلس الأول أو (الكبير)عامود الدين	٤٠٤	٨	٣١	ثيئودوسيوس الثانى

(١) السنون الواردة فى هذا الجدول تتبع التقويم الشرقى القبطى ويتأخر عن التقويم الميلادى الغربى بثمانى سنوات .

(٢) يلاحظ أن انيانوس رسم سنة ٦٤ إذ رسمه القديس مرقس بنفسه وذلك عند اضطراره إلى مغادرة بلادنا نزولاً على رغبة المؤمنين الذين خافوا عليه من بطش الحكام .

مراجع الكتاب

١ – الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين : تاريخ بطاركة الاسكندرية (طبعة إيفيتس) .

٢ – فرنسيس العتر : الأمة القبطية وكنيستها الأرثوذكسية (القاهرة سنة ١٩٥٣) .

٣ – فرنسيس العتر : السلطة الفاتيكانية (القاهرة سنة ١٩٤٧) .

٤ – فرنسيس العتر : الخلاصة الوفية لأرثوذكسية الكنيسة القبطية (مجلة الصخرة عدد أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٩) .

٥ – المنسنيور يوسف الدبس : تحفة الجيل فى تفسير الانجيل .

٦ – مكسيموس مظلوم : الكنز الثمين فى أخبار القديسين .

٧ – أوسابيوس القيسارى : التاريخ الكنسى .

٨ – مختصر تاريخ الأمة القبطية لسليم سليمان (القاهرة سنة ١٩١٤) .

٩ – تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص (القاهرة سنة ١٩٢٤) .

١٠ – مجانى الأدب : جمعه الأب لويس شيخو اليسوعى (بيروت سنة ١٩٣٩) .

١١ – القول الأبريزى للعلامة المقريزى .

١٢ – سيَر القديسين : طبع فى مطبعة الآباء الدومينيكان بالموصل .

١٣ – الدرر النفيسة فى مختصر تاريخ الكنيسة لأغناطيوس أفرام الأول برصوم بطريرك أنطاكية وسائر المشرق على السريان .

١٤ – آداب السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك لراهب برموسى .

١٥ – القديس العظيم مارمرقس نشره رهبان دير السيدة العذراء الشهير بالسريان .

١٦ – كتابات الرسامات منقول عن المخطوطات القبطية ومطبوع فى رومية سنة ١٧٦١ .

١٧ – الكنيسة القبطية والروح القومية فى مصر فى العصر البيزنطى لعزيز

سوريال عطية نشره فى المجلة التاريخية المصرية الجزء الثالث العدد الأول (سنة ١٩٥٠) .

١٨- نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر لعزيز سوريال عطية : نشره فى رسالة مارمينا العدد الثالث (الاسكندرية سنة ١٩٤٨) .

١٩- العيشة الهنية فى الحياة النسكية للقس أفرام الديراني احد مديرى الرهبانية الحلبية المارونية اللبنانية .

٢٠- الأنبا باخوم أبو الشركة : راجعه ونقحه القمص عبد المسيح المسعودى البرموسى .

٢١- سيرة الأنبا بيشوى كتبها الأنبا يؤنس القصير بالقبطية ونقل ترجمتها العربية القمص متياس البرموسى .

٢٢- تاريخ القديس الأنبا يحنس القصير ومنطقة أنصنا (أنتينويه) للقمص ميصائيل بحر راعى كنيسة أبو حنس بملوى .

٢٣- الأنبا شنودة لبانوب حبشى نشره فى رسالة مارمينا العدد الرابع (الاسكندرية سنة ١٩٥٠) .

٢٤- أسرار الكنيسة السبعة لحبيب جرجس مدير الكلية الأكليريكية (سابقاً) .

٢٥- الدلالة اللامعة لافتيموس صيفى مطران صور وصيداء .

٢٦- مصر الإسلامية لألياس الأيوبى .

٢٧- الدسقولية .

٢٨- كتاب الثيئوثوكيات .

٢٩- الأبصلمودية السنوية حسب ترتيب الكنيسة الأرثوذكسية (القاهرة ١٩٠٨) .

٣٠- أوشية الآباء كما وردت فى قداس الأنبا كيرلس الأول عامود الدين .

٣١- السنكسار القبطى .

٣٢- الصادق الأمين للأيغومانوس فيلوثاوس المقارى والقس ميخائيل المقارى (القاهرة سنة ١٩١٣) .

٣٣- الخولاجى المقدس .

٣٤- الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .

٣٥- دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس الأثرية لمرقس سميكة (القاهرة ١٩٣٢) .

٣٦- مجلة نهضة الكنائس عدد نوفمبر سنة ١٩٥٥ .

٣٧- مجلة المنار الصادرة فى بيروت إعداد : أب وأيلول وتشرين الأول والثانى سنة ١٨٩٩ ، وأعداد : كالون الثانى وآذار وأب لسنة ١٩٠٠ .

٣٨- اسكندرية المصريين لبريشيا (Breccia) عن الأصل اللاتينى .

٣٩- تاريخ البطاركة مخطوط عربى نقله عن النسخة الموجودة بديره القمص شنودة الصوامعى البرموسى .

٤٠- بستان الرهبان مخطوط عربى نقله عن النسخة الموجودة بديره القمص شنودة الصوامعى البرموسى .

٤١- مخطوط قبطى عربى ٢٥٣ أدب محفوظ بالمتحف القبطى بمصر القديمة ومؤرخ سنة ١٠٨٠ ش (سنة ١٣٦٤م) .

٤٢- مخطوط ٦٠٨ مؤرخ سنة ١٢٧٤ ش (١٥٥٨م) محفوظ بمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .

٤٣- مخطوط عربى للأنبا يؤنس أسقف البرلس مؤرخ سنة ١٤٨٢ ش (سنة ١٧٧٦م) محفوظ بكنيسة الشهيد أسطانوس الملاصقة للكتدرائية المرقسية بالقاهرة .

٤٤- مخطوط عربى ٥٠ تاريخ محفوظ بمكتبة البابوية الأرثوذكسية بالقاهرة .

٤٥- مخطوط قبطى عربى ٤٦٩ محفوظ بالمتحف القبطى مؤرخ ١٠٧٦ش (١٣٦٠م) .

٤٦- مخطوط عربى ٤٠ تاريخ عثر عليه فى كنيسة مارمرقس برشيد ومحفوظ الآن بالكتدرائية المرقسية بالاسكندرية .

٤٧- مخطوط عربى ٢٨٧ تاريخ محفوظ بمكتبة المتحف القبطى .

٤٨- مخطوط عربى ٩ تاريخ محفوظ بكنيسة الأنبا شنودة ببابلون (مصر القديمة) مؤرخ سنة ١٤٧٩ ش (سنة ١٧٦٣م) .

٤٩- مخطوط عربى ٣ تاريخ محفوظ بكنيسة أبى سرجه ببابلون مؤرخ ٢١ طوبة سنة ١٤٢٤ ش (٢٩ يناير سنة ١٧٠٨م) .

٥٠- سنكسار مخطوط جـ ٢ / ٤١ طقس محفوظ بمكتبة المتحف القبطى مؤرخ سنة ١٠٥٦ ش (سنة ١٣٤٠م) .

٥١- مخطوط ٣٧٥ لاهوت محفوظ بمكتبة المتحف القبطى .

٥٢- رسالتا غريغوريوس التوماتورجى ٩ و١١ .

٥٣- مرثية غريغوريوس النزينزى ٦ .

٥٤- رسائل قبريانوس ٤٩ و١٩ و٧٢ و٧٥ .

٥٥- رسالة ترتليانوس عن المعمودية .

56- Y. Abd'l Massih : The Faith and Practises of the Coptic Church Alexandria 1953 .

57- M.E. Amélineau : Les idées de l'Egypte Pharaonique en Dieu .

58- - Conceptions Touchant Dieu Chez les Anciens Egyptiens .

59- - St. Antoine et le Commencement du monachisme Chrétien en Egypte .

60- - Vie de St. maeaire .

61- - Etude Historique sur St Pochome et le Cénobitisme Primitif dans la Haute Egypte d'après les monuments Coptes .

62- - Monuments pour Serirr à l'Histoire de l'Egypte Chrétienne aux IVe et Ve Siècles .

63- Bardy : Clément d'Alexandrie, Paris 1926 .

64- P.Barbiere : Vie de St. Athanase .

65- Bareille : Traduction des Œuvres de St. Jean Chrysostome .

66- H.Breasted : The Dawn of Conscience, New York 1934 .

67- W. Budge : Paradise of the Holy Fathers (translation) .

68- - Book of the Saints of the Ethiopian Church (translation) , Cambridge 1928 .

69- - The wit and wisdom of the Christian Fathers of Egypt (translation) Cambridge 1934 .

70- A.G.Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt . Oxford 1884 .

71- Cauvenbergh : Etude sur les moines d'Egypte .

72- Chapiat : Le Saint de Chaque Jour .

73- G.H.Costigan : Sculpture and Painting in Coptic Art .

74- S.Chauleur : Histoire des Coptes d'Egypte, Alexandrie 1949 .

75- J.Danielou : Origène, le Génie du Christianisme, Paris 1948 .

76- L. Doutreleau : Conférence sur Didyme, donnée au Caire mardi le 10 Décembre 1957 .

77- J. Drescher : Apa mena (translation) Cairo 1946 .

78- Duchesne : Histoire de l'Eglise Primitive .

79- A. Fakhry : The Egyptian Deserts - The Necropolis of el Bagawat in Kharga Oasis (Egypt. Gout. Press) Cairo 1951 .

80- - The Egyptian Deserts - The Bahria Oasis (Egypt. Govt. Press), Cairo 1942 .

81- E. de Faye : Esquisse de la Pensée d'Origène .

82- Fleuri : Histoire Ecclésiastique .

83- Freppel : Origène .

84- C. Gordon : An Introduction to Old Testament Times .

85- Guérin : Dictionnaire des Dictionnaires .

86- Guettée (Abbé) : La Popauté Schismatique .

87- Guettée (Archimandrite) Histoire de l'Eglise, Paris, 1886 .

88- H.R.Hall : Babylon the Great, pub. in " Wonders of the Past " series .

89- Héfélé : Histoire des Conciles, Paris 1869 .

90- Holstein : A Compilation Concerning the Counucils .

91- Hyvernat : Actes des martyrs (traduction) Paris 1886 .

92-P.Jouguet : De l'Egypte Grecque à l'Egypte Copte (Bulletin des Avis de l'Art Copte) Le Cairo 1935 .

93-M. Jullien : Les monuments Coptes (Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, Tome VI Le Cairo 1940) .

94- Leeder : modern Sons of the Pharoahs .

95- A.M. di Ligouri : Contre l'Hérésie .

96- St. macaire (le Grand) : Homélies (traduction), Paris 1559, et Toulouse 1684 .

97- K. macaire : Reconstitution de la Synthèse Scientifique d'Origene, Alexandrie 1907 .

98- - La Constitution Divine de l'Eglise, Genève 1913 .

99- - Nouvelle Etude du Sérapeum d'Alexandrie .

100- A.A, marzouk : Alexandria as a Textile Center from 331 B. C. 1517 A.D. (Bull. de la Soc. d'Arch. Copte, Tome XIII, Le Cairo 1948 - 9) .

101- M^{c} Kean : Egyptian monasticism in Egypt until the End of the IVth Century .

102- T. mina : Jules d'Aguefahs et ses Œeuvres (Bull des Amis de l'Art Copte) Le Cairo 1937 .

103- Moehler : Le Grand Athanase .

104- C. Mondesert : Clément d'Alexandrie, Lyons 1944 .

105- Monfaucon : Vies des Saints Illustrées .

106- H. Munier : Le Christianisme à l'Ile de Philae .

107- - Recueil des Listes Episcopales de l'Eglise Copte .

108- M.A Murray and D.Pilcher : A Coptie Reading Book London 1933 .

109- J. Muyser : Contribution à l'Etude des Listes Episcopales de l'Eglise Copte .

110- J. Neale : History of the Holy Eastern Church .

111- Newman (Cardinal) : Select Treatises of St. Athanasius London 1895 .

112- P. Ch. d'Orléans : Les Saints d'Egypte. Jerusalem 1923 .

113- Palladues : Historia Lausiaca (Traduction Française par Lucot) .

114- J.R. Palanque, P. de Labriolle et G. Bardy : Histoire de l'Eglise, Tome III : " De le Paix Constantinienne à la mort de Théodose " Paris 1947 .

115- R. Payne : The Holy Fire, New York 1957 .

116- W. Perkins : Christian Antiquities of Cyrenaica in Pentapolis (Bull. de la Soc. d'Arch. Copte. Tome IX 1943 .

117- F. Petrie : Egypt and Israel, London 1911 .

118- G. Post : Dictionary of the Bible .

119- Postel : Histoire de l'Eglise .

120- P. Regamy : Les Plue Beaux Textes sur la Vierge Marie, Paris 1946 .

121- A. Boberts and J. Donaldson : The Ante-Nicene Fathers, of the Second Century, vol II (American Ed) .

122- Rohr-Bacher : Histoire Générale de l'Eglise Catholique .

123- J. Ryan : The Irish Monasticism .

124- G. de Schouteete de Tervarent : Gloire Posthume de St. Antoine (Bull. de la Soc. d'Arch Copte Tome VII, Le Caire 1941) .

125- Sealy and Co. : Augustine Bishop of Hippo. London 1908 .

126- A. Thierry : " Revue de Deux Mondes " 1er Mai 1865 .

127- H. Waddell : The Desert Fathers, London 1936 .

128- E. White The Monasteries of Wadi-n-Natrun, part III, New York, 1933 .

129- U. Yonekawa : Visions Egyptiennes, Ottowa 1937 .

130- Zotenberg : Histoire par Jean nikiou (traduction) .

131- Encyclopoedia Britannica, XIV ed .

132- La Grande Encyclopédie .

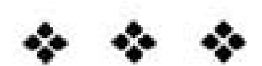
133- Encyclopédie des Sciences Religieuses .

134- Journal suisse de l'Egypte et du Proche Orient, pub. à Alexandrie.

135- Lexique de la Suisse .

136- Pères Benedictines : Biographies des Saints .

137- Un Prêtre Dominicain : De la Primauté du Pope (Latin et Français) Londres 1770 .



Athanasius : Vita Ant., Old Afros, Contra Arianus .

Augustine : B I I & III .

Epiphanius : Contra Heres .

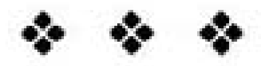
Ieronimus : Virus Illus., De Script. Eceles., Ad Pam .

Eusebius ; Rufinus ; Socrates ; Sozomen , Theodoritus

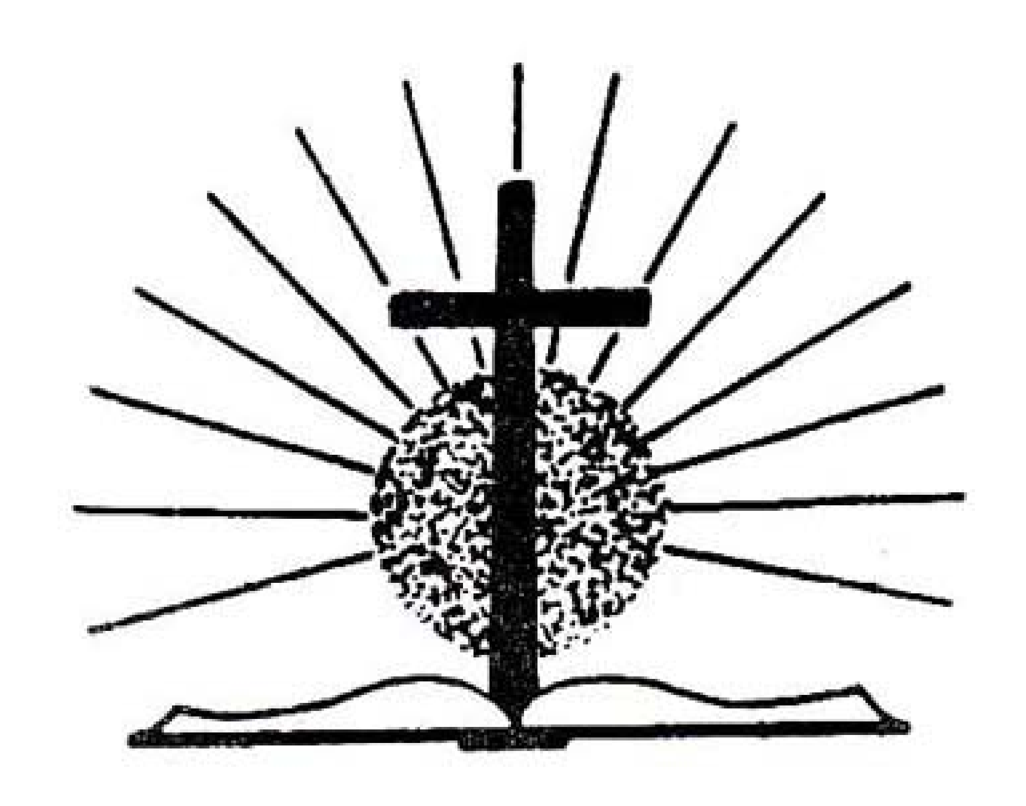
Partrologie Grecque V .

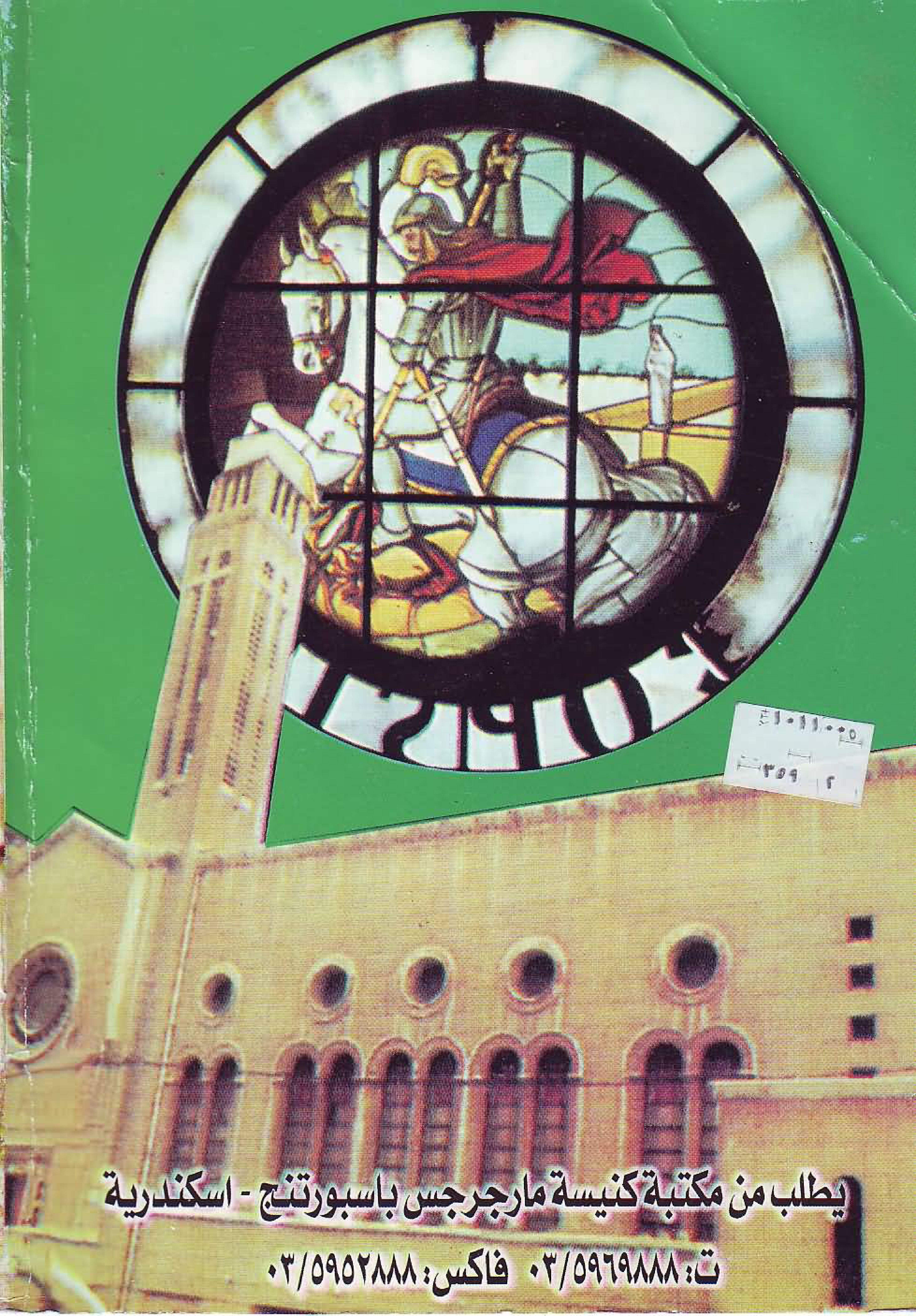
Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte .

Origen : De Recta in Deum Fide .



الفهرس





يطلب من مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج - اسكندرية
ت: ٠٣/٥٩٦٩٨٨٨ فاكس: ٠٣/٥٩٥٢٨٨٨